مفاهيم اسلامية

مقالات وفتاوى

الشيخ يوسف الدجوي
عضو جماعة كبار العلماء

المجلد الثاني

من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الجزء الثالث

التفسير

UNIV.
LEIDEN
BIBL.

وَمَن يَتق الله يَجعَل لهُ مَخرجاً
ويرزقه مِن حَيث لا يحتَسَب (١)

[قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (وَمن يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إن الله بَالِغُ أَمْرِه قدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شيءٍ قَدْرًا)(٢) .

معنى الآية من يتق الله فيما يأتى ويذر يجعل له مخرجاً ، أى مخلصاً من هموم الدنيا وغمومها وشدائد الآخرة وأهوالها (ويرزقه من حيث لا يحتسب) أى من وجه لا يخطر بباله ولا يكون فى حسابه (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه فى جميع أموره (إن الله بالغ أمره) ممضيه ومنفذه ، فلا يفوته مراد ، ولا يعجزه مطلوب . (قد جعل الله لكل شيء قدرًا) أى تقديرا وتوقيتاً أو مقدارا ، وهو بيان لما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه ، فإن الإنسان إذا علم أن كل شيء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقديره تعالى لم يكن منه إلا التسليم للقدر ، والتوكل عليه عز وجل - هذا هو إجمال التفسير .

ثم نقول بتوسع : كل من يتق الله يكون بمنجاة من كل شر ، فإن الله مع المتقين ، ومن كان الله معه فلا خوف عليه فى الدنيا ولا فى

---

(١) مجلة الأزهر - العدد العاشر - المجلد الأول - شوال ١٣٤٩

(٢) سورة الطلاق : الآية ٢ - ٣

الآخرة ، فقد أصبح من الذين تولاهم الله تعالى بفضله وهو يتولى الصالحين ، بل من أولياء الله الذين قال الله فيهم : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[١] . ثم بينهم بقوله : (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)[٢] .

ثم ذكر أنهم مكفولون بعنايته مشمولون برعايته فى الدارين ، فقال : (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة)[٣] ثم أكد ذلك بقوله : (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[٤] .

وستقول الملائكة لأولئك المتقين : (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)[٥] : (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)[٦] .

ومن كان فى ولاية الملائكة فى الدنيا والآخرة كيف يلحقه شر أو يعتريه كرب .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى تفسير هذه الآية . « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة » . أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم والديلمى ، وأخرجه الإمام أحمد والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والبيهقى عن أبى ذر قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سورة يونس ، الآية ٦٢ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٦٣
(٣) سورة يونس ، الآية ٦٤ .
(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٠
(٥) سورة فصلت ، الآية ٣١ .

يتلو هذه الآية : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) .

فجعل يرددها حتى نعست ، ثم قال : « يا أبا ذر لَوْ أن الناس كلُّهُمْ أَخَذُوا بِهَا لَكَفَتْهُمْ » .

والتقوى هى : الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وإذا تدبرت أحوال الناس وجدت كل شدة ومحنة وهم وغم ، إنما جاءهم من تخطى الحدود التى أمرهم الله ألا يتعدوها ، والانحراف عن صراط الله المستقيم الذى بينه الرسول صلى الله عليه وسلم : اتباعاً للهوى وانقيادا للشهوات ، وقد قال تعالى : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)[١] وقال : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)[٢] .

وأمرنا أن نطلب منه فى كل صلاة بل فى كل ركعة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط من أنعم عليهم ،وعرفنا أن المنحرف عن ذلك الصراط مغضوب عليه إن كان يعرفه ، وهو من الضالين إن كان لايعرفه .

وجدير بمن ينحرف عن الصراط المستقيم أن يلقى كل خبال ووبال فى الدنيا والآخرة ، فليس هناك إلا سبيل الله وسبيل الشيطان (وَمَنْ يَتخِذِ

(١) سورة ص ، الآية ٢٦ .
(٢) سورة الانعام ، الآية ١٥٣ .

الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مبيناً. يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورا)(١) .

وما أُرسلت الأنبياء إلا لتخلصنا من حبائل الشيطان وشباك النفوس الأمارة بالسوء التى توقعنا فى كل شر وتبعدنا عن كل خير .

ولو بحثت عن مصائب العالم كلها لوجدتها مسببة عن تورط الأفراد ، أو الجماعات فيما تصبو إليه النفوس من الشهوات ويزينه الشيطان من الآفات ، وقد بين الله ذلك حيث يقول : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ)(٢) ويقول : (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفسِكم)(٣) . ويقول : (إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)(٤)

وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه : لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرتفع إلا بتوبة ، وقال بعض السلف وأظنه سفيان الثورى : انى إذا عصيت الله وجدت أثر ذلك فى خلق حمارى وزوجتى . ولعل هذه معاملة خاصة يؤدب الله بها بعض من يحبهم من عباده حتى لا يخافوا غيره ولا يعولوا على شىء سواه .

ثم نرجع إلى حديثنا فنقول : لا عاصم من نزوات النفوس التى لا تعرف الاعتدال ، وإنما تعرف الإفراط أو التفريط ، ولا حافظ من

(١) سورة النساء ، الآية ١١٩ ، ١٢٠ .
(٢) سورة الشورى ، الآية ٣٠ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٥ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٥٥

نزغات الشيطان الذى يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير إلا تقوى الله فى السر والعلانية فإذا اتقيت الله تعالى حفظك من مسايرة الأهواء ومتابعة الشهوات .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « احفظ الله يحفظك » ، وإن نابتك نائبة ، وألمت بك ملمة – على ما هو سنة الله فى هذا العالم – جعل لك فرجاً ومخرجاً . والأمر كله بيده ، ومتى تعرفت له فى الرخاء عرفك فى الشدة .

وقد قال بعض العارفين : إذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فاعرف قدره عندك ، فعلى قدره عندك يكون قدرك عنده ، وعلى قدر ذكرك له يكون ذكره لك (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)(١) ، وعلى قدر عنايتك بطاعته تكون عنايته برحمتك .

هذا ومما وعد الله به المتقين جزاء على تقواهم أيضاً أنه يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، أى من حيث لا يدبرون ولا يعرفون ، وهو القادر الذى يصرف الأمور على ما يريد ، ويسخر الجن والإنس والملائكة فيما يشاء ، فيكونون أعواناً أو مسخرين فى خدمتك ، ولا بدع فى ذلك : فالأرض أرضه والسماء سماؤه والملك ملكه : (فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٢) .

وقد قيل لبعض الصالحين المنقطعين إلى الله تعالى : إننا لا نراك تشتغل بشىء فمن أين ترزق ؟ أمن السماء يأتيك رزقك ؟ فقال : إن

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٢ .
(٢) سورة يس ، الآية ٨٣

كانت الأرض ليست له رزقنى من السماء ، ومن ذلك ما يحكى أن رجلا من أهل هذا المقام كان منقطعاً لله فى مسجد من المساجد ولا يعرف له سبب ظاهر ، فقال له إمام المسجد يوماً : من أين تأكل ؟ فقال له : إنتظر حتى أعيد ما صليت وراءك.

بيان أن الشريعة جاءت بتعاطى الأسباب الدنيوية

وليس معنى ذلك كله أننا لا نتعاطى الأسباب الدنيوية ، فإن ذلك يخالف القرآن نفسه فى مثل قوله : (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ)(١) ، وقوله : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ)(٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وينافى ما كان عليه صلى الله عليه وسلم فى سنته العملية ، وما ورد عنه من سنته القولية فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم ، (إِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ) .

ومن رمى الشريعة بأنها شريعة التواكل والتكاسل فقد جنى على الشريعة جناية كبرى ، فإن دين الإسلام دين العمل لا دين الكسل ، ودين الرقى والتقدم فى كل شأن من شئون الحياتين الجسمية والروحية . لا دين الجمود والتأخر ، ويكفيه أنه حرم على ذويه أن يكونوا عالة على غيرهم فى أصغر الأشياء وأحقرها ، وأوجب عليهم أن يكونوا بالذروة العليا من العزة القعساء والاستقلال التام ، حتى يكونوا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق (وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى

(١) سورة الملك ، الآية ١٥ .
(٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠

الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)(١) ، (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)(٢) . (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)(٣) .

ولو كان الإسلام على ما ظنوا لما ارتقى أهله فى الصدر الأول على جميع سكان المعمورة ، ولما وضع رجلًا بالهند ورجلًا بمراكش أو نقول بالأندلس ، وتغلغل فى أحشاء أوربة حتى وصل إلى « بردوا » من أرض فرنسة فى أقل من قرن مما عجب له العالم ودهش له التاريخ .

ولعلنا نفيض القول فى ذلك بعد . ولكن إذا سرت معى على الإنصاف ، وكانت وجهتك تحقيق الحق ، ولم تكن محبوساً فى سجن العادات ، ولا مقيداً بقيود الظواهر ، وكنت ممن يعلم أن العلم لا آخر له ، وأن قوانين الله فى هذا العالم ليست محصورة فيما تعقل ولا مقصورة على ما تتخيل ، إذا وافقتنى على ذلك وغلب عليك الإيمان والإيقان ، أمكننى أن أقول لك إن شئون الله كبيرة وقوانينه كثيرة ، وعلمه لا يحيط به محيط ، وقدرته لا تصل إليها الأوهام ، سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

فلتعلم أن لله قوانين جسمانية وقوانين روحانية ، وأن القوانين الجسمانية التى بنيت على الأسباب الظاهرة والمسببات المعتادة ، هى التى خوطب بها السواد الأعظم ؛ لأنه لا يكاد يعرف غيرها ولا يستطيع أن

(١) سورة النساء ، الآية ١٤١ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠
(٣) سورة المنافقون ، الآية ٨

يقوم بشيء سواها ، لكونه يحتاج إلى استعداد خاص أو عمل شاق أو شرط مجهول .

وعالمنا هذا هو عالم الأسباب والمسببات ، وهو مظهر الحكمة الإلهية والقدرة الربانية بعد ذلك شئون أخرى وتصرفات لا تحصرها تلك الحدود المعروفة ولا تحكم عليها تلك النواميس المقررة « أو نقول التى وصلنا إليها » والشريعة جاءت بكلا الأمرين وأشارت إلى كل من القانونين الجسمانى والروحى ، فجاءت بالأسباب الظاهرة وحثت عليها بل أوجبتها فى قانونها العام الذى لا يعلو على استعداد أكثر الناس ، وحظرت عليهم ترك تلك الأسباب لأنهم من أهلها ولا يصلحون إلا لها ، ولكن حاطتهم بما يدفع سمومها ويحفظ من الشرك فيها ، فقالت لهم : كونوا فى الأسباب ولا تغفلوا عن مسببها واعلموا أن زمامها بيده ، فإن شاء أنجحها ، وإن شاء لم ينجحها ، وإن شاء أرشدك ، وإن شاء أضلك ، وإن شاء سهل لك من الأسباب الخفية ما يقرب إليك الغاية ، وهيأ لك من الوسائل التى لا تقدر عليها ما يحقق لك البغية ، فليكن شعارك الاستعانة بالله والالتجاء إلى الله ، وهجيراك فى كل حال « لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ » .

عرفنا الدين ذلك كله كى نكون متوكلين فى الأسباب فتكون قلوبنا معه لا مع الأسباب .

وأما من ظن أن التوكل ينافى التسبب فقد غلط غلطاً كبيراً ، فإن الله يقول : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)(1) فجعل التوكل بعد العزم

(1) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

ويقول عليه السلام : « أَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » فنحن مأمورون بالتوكل فى كل أحوالنا وجميع أعمالنا .

والتوكل عمل الباطن والتسبب عمل الظاهر ، ولا منافاة بين عمل الباطن وعمل الظاهر . والتوكل لازم من لوازم الإيمان ، كما قال تعالى : (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ) . فكيف يفارقه فى حال من الأحوال .

ولنعد إلى صدر الموضوع فنقول :

هذا الفريق جعله الدين فى الأسباب الظاهرة ، وأمره بها بعد أن أدخله فى حصن التوحيد وسلحه بسلاح المعرفة .

بيان أن الشريعة جاءت بالقوانين الروحية

ولكن من نظر فى الشريعة وجدها لم تقتصر على ذلك بل جاءت بقانون آخر من قوانين الله تعالى ، وأشارت إلى ذويه فقالت : يقول الله تعالى فى الحديث القدسى : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى » ويقول تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)(1) . ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » ولا داعى للعدول عما يتبادر منه .

ويلحق بهذا قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)(2) . وقوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن ربهم لَأَكَلُوا

(1) سورة الطلاق الآيتان ٢ ، ٣

(2) سورة الأعراف ، الآية ٩٦

مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)[١] .

ومما يتحقق به أيضًا قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لَوْ أَقْسم عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ » ويمت إلى ذلك بشىء من المناسبة قوله تعالى فى الحديث القدسى «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ » .

ومن كان الله سمعه وبصره لم يكن رجلاً عادياً ولا الأمور بالنسبة إليه على نحو مايعرفه الناس . ومن هذا الوادى على قرب أو بعد قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنْ أُمَّتِى مُحَدَّثِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَعُمَرَ » وقد ورد بغير هذا اللفظ .

والخلاصة فى هذا المقام أن هناك قوماً انقطعوا إلى الله تعالى بظاهرهم وباطنهم ، فلم يبق فيهم متسع لغيره ، فهؤلاء لهم من الله تعالى عناية خاصة ومعاملة لايقاس عليها ، فأمرهم غير جار على تلك القوانين العامة ، بل لهم قانون يختص بهم ولا يتعداهم إلى من ليس فى درجتهم من اليقين ولا منزلتهم من الثقة بالله . .

هؤلاء تنخرق لهم العادات فيأتيهم رزقهم عفوا من غير أن يشتغلوا بالأسباب المعروفة ، أو يكدحوا كدح العامة ، بل يتولى الله ذلك عنهم فيرزقهم من حيث لا يحتسبون .

(١) سورة المائدة ، الآية ٦٦ .

وقد قلنا إن الأمور كلها بيد الله يصرفها كيف شاء ، والخلق كلهم عبيده يسخرهم فيما يشاء ، والسموات والأرض تحت حكمه يفعل فيهما مايريد .

ولله فى خلقه قوانين لايعرفها كثير من الناس ، فمن ظن أنه لايرزق إلا بالأسباب كما هو حال العامة لم يرزق إلا بالأسباب ، وهؤلاء هم الذين أمروا بأن ينتشروا فى الأرض ويبتغوا من فضل الله ، وأن يمشوا فى مناكبها ويأكلوا من رزقه .

ومن سقطت الأسباب من نظره وغلب عليه الركون إلى الله والثقة بالله ، كان من الفريق الثانى الذى يرزقه الله من حيث لايحتسب لأنه بلغ من اليقين ماتنفعل به الأشياء .

ولنقل بتوسع — وما أجدر هذا المقام بالتوسع — إن لله قوانين كثيرة والناس يجهلونها تمام الجهل :

أما المسلمون فقد جهلوا اليوم قوانين الله الدينية والدنيوية والروحانية والجثمانية .

وأما الأوربيون فقد جهلوا قوانينه الروحية والدينية وان كانوا أعلم الخلق بقوانينه الدنيوية ، لأن القوانين الروحية لاتؤخذ إلا عن الأنبياء والمرسلين فى مثل قوله تعالى : (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[١]) وقوله : (أَدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ[٢]) .

ولعل قائلا يقول : نرى كثيراً من الناس يدعون فلا يستجاب لهم ، ونرى من المشاهدات أن الذى لا يأخذ فى الأسباب

(١) سورة الطلاق : الآية ٣

(٢) سورة غافر ، الآية ٦٠

ولا يتعاطاها لا يصل إلى المسببات ، فهل فيما يقول النبي صلى الله عليه وسلم خلف؟ وهل فيم يقول الله تعالى ريب ؟ ! كلا ، أمر الله لا ينخرم ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم لا يتخلف ، ولكن هذه الأسباب الروحانية غير المعروفة مشروطة بشرط لم نحققها تمام التحقيق ولو حققناها بشروطها لترتبت عليها غاياتها .

فضعيف اليقين لا يمكن أن يرزق إلا بالأسباب ، ولا يصل إلى شئ إلا بوسائله المعروفة ، وربما عمل أسبابا كثيرة فشتتها الله له ففشلت ولم تنجح ، فالأوربي مثلا ومن على شاكلته إذا قال : إن الذى لا يعمل كذا لا يحصل له كذا ، ويعد حديث التوكل والتقوى من الخرافات معذور فيما يقول ، لأن الأسباب الروحانية كما قررنا مشروطة بشروط وهم لا يعرفونها ، وزادهم رسوخاً فيما يعتقدون أنهم نظروا فى أهل الأسباب فوجدوهم متفاوتين على حسب تفاوتهم فى إتقانها والتفنن فيها ، فكل من كان أعظم إتقاناً للأسباب وأشد تعلقا بها كان أقرب إلى تحصيل نتائجها ، وكل من كان أعظم تفريطاً فى الأسباب كان بعيداً عن تحصيل الغايات منها «هو الإمداد على قدر الاستعداد» فأولئك هم أرباب الأسباب حقيقة ولو تركوها لماتوا « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِنْ خَيْراً فَخَيْراً وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا » .

ثم نظروا من جهة أخرى فوجدوا أهل البطالة من هذا الفريق الذى يجب عليه تعاطى الأسباب ولا عيش له إلا بها ، نظروا إليهم فوجدوهم من أسوأ الناس حالا وأنكدهم عيشا ، ولم يعلموا أن هناك

قوما آخرين ليسوا من هؤلاء ولكن لهم شرط صعب المركب ، وهو أنه لابد أن يبلغوا من اليقين كما قلنا إلى درجة يسقط معها فى نظرهم كل شئ إلا الله تعالى ، فهؤلاء بمقتضى ذلك اليقين التام يجوز أن تنخرق لهم الأسباب فيسخر الله لهم الخلائق ويسهل لهم الأمور من حيث لا يحتسبون ولا يدبرون ، فإن الأسباب لاتحكم على الله تعالى ،بل هو الحاكم عليها وإنما هى ناموس من نواميسه عز وجل ومظهر من مظاهر قدرته وإبداعه الحكيم وتصرفه الواسع ، فالله تعالى يفعل فى الأسباب والنتائج ما يشاء .

فالمسألة بالنسبة للخاصة هى أنه يجوز أن يخرق لهم العادات ، وبالنسبة له تعالى هى أنه يفعل ما يشاء ، وقد قيل لبعضهم إن بعض الأولياء مشى على الماء ، فقال : لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء وسر هذا هى مسألة اليقين الصحيح وقوته . وكان بعض الصالحين يقول كانت تختلف أحوالى فجئت مرة إلى الماء فحدثتنى نفسى أن أسير عليه فقلت فى نفسى أيمكننى أن أسير على الماء أم لا ؟ فوضعت رجلى فكدت أغرق ، والسبب فى ذلك واضح لأن الشك داخل نفسه ، ومتى داخله الشك زال اليقين .

وأن القارئ الكريم ليعرف من معجزات الأنبياء ما هو أكثر من هذا وأعظم. وهذه القوانين لا يصدقها المادى ولا يقول بها ، ويعجب كيف ينبنى على هذه الاعتقادات الغايات العجيبة ولا يمكن أن يفهمها ، لأنها كما قلنا لا تتلقى إلا عن الأنبياء ، وهؤلاء الخاصة أرباب هذا المقام لهم حكم خاص لا يخاطب به العامة لأنهم لا يعرفونه أو لا يقدرون عليه وإن كان ثابتاً فى نفس الأمر تابعاً لناموس آخر مجهول لدى السواد الأعظم ، ولا داعى لأن نتوسع أكثر من هذا .

تكميل يقتضية المقام

ذكر كثير من المفسرين فى سبب نزول الآية ، أن عوف بن مالك أسر المشركون ابناً له ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أسر ابنى ، وشكا إليه الفاقة ، فقال له : « اتَّقِ اللهَ ، وَاصْبِرْ ، وَأَكْثِرْ مِن قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ » . فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى وإياك أن تستكثر من قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فقالت : نعم ما أمرنا به ، فجعلا يقولان ذلك ، فبينما هو فى بيته . إذ قرع ابنه الباب ومعه سرح من الغنم غفل عنه العدو فاستاقه ، فنزلت هذه الآية .

هذا : ولهم عبارات فى تفسير التقوى ، فقال بعضهم : هى ألا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، وقال آخر : هى التبرى من الحول والقوة . وقال غيره : هى التنزه عن كل ما يشغل السر عن الحق ، حتى قال قائلهم :

ولو خطرت لى فى سواك إرادة ... على خاطرى سهوا حكمت بردتى

وهذه المرتبة أو ما يقرب منها هى التى قال فيها القائل :

خل الذنوب كبيرها ... وصغيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر مايرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حذاراً مما بِهِ بَأْس » أخرجه الترمذى ، ولعل

هذه المرتبة هى التى تراد من الآية وإلا فالتقوى من الوقاية . وهى مراتب باعتبار ما يتقى من المضار ، فهى متفاوتة تفاوت الأضرار التى تتقيها ، ولذلك تراهم فى بعض المقامات يقسمونها إلى درجات ثلاث : التوقى عن الشرك وهى لعامة المؤمنين ، والتوقى عن الكبائر « ومنها الإصرار على الصغائر » وهو لصلحاء المؤمنين ، والدرجة الثالثة وهى المرتبة العليا وهى ما سبق الكلام فيها ، وقد أشار إليها حديث الترمذى الذى ذكرناه ، ولعل هذه المرتبة هى التى ينبغى أن تفسر بها الآية الشريفة كما قلنا ، ولنقف هنا فقد طال بنا الكلام .

أسأل الله أن يجعلنا من أهل البصر فى الدين ، وأن يرزقنا التوكل عليه والالتجاء إليه بمنه وكرمه .

لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون (١)

قال الله تعالى (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

مقدمة :

قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخالق عز وجل ، ودلتنا أسراره التى أودعها فى مخلوقاته على علمه الذى لا يتناهى وحكمته التى لا تحيط بها العقول ، ويمكنك أن تتعرف ذلك من نفسك بما أودع فيك من رئتين للتنفس وأسنان للطحن ، ومعدة للهضم ، وكبد لإفراز الصفراء ، وكليتين لإفراز البـول ، ومسام جلدية لإفراز العرق ، ومخ للإدراك ، وما نظمه فيك من شرايين وأوردة وعصب وعضل وعظم وكرات بيضاء وكرات حمراء ، ومن أعين تبصر بها وآذان تسمع بها ، إلى آخر الحواس الخمس ، إلى غير ذلك مما لا يأتى عليه العد ولا يفى به البيان .

وكل ذلك لغايات جليلة أدهشت العلماء وحيرت الباحثين .
ثم انظر بعد ذلك ما أودعه فى العالم من نبات وحيوان وهواء وماء وأرض وسماء وما فى ذلك من أسرار باهـرة وحكم عالية ، كل ذلك يدلنا دلالة قطعية على أنه العليم الحكيم ، القادر ، العظيم فضلا عما يمليه علينا الإيمان بما جاءت به الرسل الإلهية

(١) مجلة الأزهر – الجزء السادس – المجلد الثانى – جمادى الآخرة ١٣٥٠
والآية من سورة الأنبياء ، ٢٣

والكتب السماوية ، من أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فإذا رأيت مثلا – عالماً محروماً ، وجاهلاً مرزوقاً ، أو فاجراً معافى يمرح كما يشاء وصالحاً قد أحاطت به أنواع البلاء إلى آخره ولم ينفذ نظرك المقصور على الظواهر إلى إدراك سر ذلك ، ولم تعرف الحكمة فيه أوجب عليك الدليل القاطع أن تثبت العجز عن معرفة الحكمة إلى نفسك لا أن تشك فى حكمة الحكيم عز وجل .

وإنى ألفت نظرك إلى أن طلب لمية الأفعال والبحث عن علتها موجب للشرك والكفر ؛ لأن العقول البشرية قاصرة عن إدراك حكمة الله فى مخلوقاته .

[وما كفر المانوية والثانوية إلا بخوضهم فى مثل ذلك] فلما حكموا عقولهم الضعيفة وآراءهم الفاسدة قالوا : إن للعالم إلهين : إلهاً للخير وإلهاً للشر ؛ لأن إله الخير لا يكون مصدرا للشر ، وإله الشر لا يكون محلاً للخير ، وقد غفلوا عن أن الحكمة الإلهيـة لا يحيط بها محيط وأن الشر قد يستتبع الخير ، وقد يكون وجود الشر الجزئى واجباً فى نظر الحكمة وأن المراعى فى ذلك هو النظام العام لا خصوص الأشخاص وأعيان الجزئيات ، ولم يفطنوا إلى كمون الشر فى الخير ولا إلى أن الشر قد يكون شرا فى نظرهم لا فى الواقع (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)(١) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٦

هذا واعلم أن تفسير العلماء خصوصاً الأشاعرة فى هذه الآية يرجع إلى أن المالك يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، ولابد أن يدور بنفسك عندما تسمع ذلك حديث طويل وإن كنت لا تجرؤ على إظهاره فتسكت أمامهم مقتنعاً بما حدثوك به فيما يظهر منك ، وأما باطنك فيكون فيه من المحاورات والمنازعات ما لا تطمئن معه نفسك ولا يسكن له جأشك ، وقد قال لى بعض العصريين :هذا يمكن أن يكون جواباً عن الملوك المستبدين وما يفعلونه مع رعاياهم ،فأرشدته إلى ما اقتنع به واستحسنه جدا ، وإنه لحسن فيما أراه . والفضل لله .

وإنى أعلم أنك تارة يشرق قلبك بما يفاض عليه من نور سماء روحك فتعجب به كل الإعجاب ، وتارة تنزل إلى أرض طبيعتك الكثيفة التى يمكن دوائرها أن تمسك تلك المعانى السيالة ولا يتاتى أن تنتقش تلك العلوم اللطيفة فى تلك الأرض الكثيفة ، ولا أن يزن ميزان أحجارها تلك الأسرار لمزيد رقتها ، وعند ذلك يلزمك أن لا تذهب إلى تلك الأرض إلا وبيدك معول البراهين الكثيفة حتى تستطيع أن تؤثر فى أحجارها أيدك الله .

ذكر احتمالات قريبة فى الآية :—

أقدم لك ههنا فى بيان المراد من الآية ما يقرب تناوله ويطيب جناه ثم نتبعه بشرح ذلك السر الذى نوهنا عنه إن شاء الله .

يمكنك أن تقول : إن المراد تقرير كونه تعالى حكيما بالغ الحكمة

فلا يسأل عما يفعل ، ثقة بحكمته بحيث لا يصح أن يرتاب فيما يفعل ولا يتهم فيما يحكم ، فإن قولك لم فعلت يشعر بتهمة وريبة ، فيريد الحق تعالى أن يكون عبده ممتلىء القلب بالعلم بحكمته ، فائض النفس باعتقاد رحمته ، فيكون غارقاً فى التسليم له والتفويض إليه ؛ فلا تتحرك نفسه مع تلك العقيدة بسؤال ولا يلم بها أدنى خيال :

يا حاكمى وحكيمى أفعالك الكل حكمة

وكان كثيراً ما يقول بعض العارفين : (إذا كنت لا تعرف الحكمة فقلد من يعرف الحكمة) .

وكم رمت أمراً خرت لى فى انصرافه فلازلت بى منى أبر وأرحما

أو تقول : إن المراد تقرير العظمة ، وأن الآلهية بحيث يجب لنعوتها العليا أن لا يجرؤ على سؤالها أحد لا من حيث أنها تعمل عمل المستبدين من السفهاء وأرباب الأهواء ، بل من حيث إنه يجب لعظمتها التلاشى والاضمحلال والقيام بأجل آداب العبودية .

أما تراك — أيدك الله — تستقبح من عبدك بل خادمك أن يسألك عن وجه ما فعلت وسر ما قضيت ، وتعتبر ذلك من سمات عدم الوثوق بك أو الجراءة عليك أو الريبة فيك أو عدم الحياء منك ، وأن واجب العبودية الانقياد والامتثال ، ثقة بحكمتك وبعد نظرك وقياماً بما يجب لعظمتك وسيادتك ، وأنه أقل من أن يفتش على ما تنويه أو يراقب ما تقضيه ، بل يجب عليه بعد هذا الامتثال الظاهرى أن

يكون خاضع القلب مطمئن النفس هادئ السر ، علماً بما لك من صفات الكمال التى لا يبلغ نظره مداها ويحسر بصره دون غايتها ؟

وقد قيل فى (عيينة بن حصن الفزارى) : إنه إذا فزع بسيفه فزع معه مائة ألف سيف لا يسألونه عما دعاه إلى ذلك . أفترى هذا إلا قياماً بواجب عظمته ، أو ثقة برأيه وبعد نظره ؟ ولا تزال العرب تمدح بمثل ذلك ، وقد قال الفرزدق فى زين العابدين رضى الله عنه مادحاً له :

يغضى حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

وقال بعض المدنيين فى مالك رضى الله عنه :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة والحاضرون نواكس الأذقان

إلى غير ذلك . فما بالك برب الأرباب ، ومالك الرقاب ، كيف يختلج فى نفس عبده خاطر وقد علم أنه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين .

ورب العالمين يستحيل عليه العبث والخطأ ويتنزه عن كل نقص ويجب له كل كمال . قال بعض الأجلاء : (كيف يستغرب ذلك وفى القوانين الحربيـة أنه لا يباح للمأمور أن يتباطأ فى امتثال الأمر ، وأنه لو قال له لم ؟ لكان جوابه إطلال دمه) وليس معنى ذلك أن القائد يفعل ما يشاء على ما يقتضيه العبث أو تشير به الأهواء بل لمعان أخرى ووجوه يجب أن تعتبر فى الحكمة وواجبات المقام .

ويمكننا أن نقول بعبارة أخرى : إن هـذا يراد به تعليمنا حسن الأدب مع الله تعالى حتى نقلده فى كل شئ ، فنطمئن فى كل ما يأمر ونذعن لكل ما يريد فنعمل الأعمال كلها بالإذعان والاطمئنان ، وإذا تربيت فينا تلك الملكة فسارعنا إلى الامتثال ولم نتباطأ فيما

يأمرنا به من الأعمال ، سعدنا سعادة كبرى وكنا كالأطفال الذين وثقوا بأبيهم الحكيم وعلموا أنه لا يريد بهم إلا الخير . وقد عمل هو على تمكين ذلك من نفوسهم فأصبحوا « لا يبحثون وراءه عن شئ ، عالمين حسن نيته وبعد حكمته ومزيد رحمته ، فليس هناك شك يعوقهم عمـا يريد منهم ، ولا بحث يؤخرهم عن استفراغ هممهم وأوقاتهم فيما ينويه من سعادتهم . ولو أنه أرجعهم إلى البحث عن أسرار الأمور وخفايا المقاصد ودخائل الأشياء لكان قد أعدهم لقلق النفوس وحرج الصدور والتباطؤ فى بعض الأعمال تارة والامتناع عنها تارة أخرى ، فكان من مصلحتهم وموجبات سعادتهم أن يربيهم على أن لا يراجعوه فيما يأمر ولا يسألوه عما يريد إلا إذا تبرع هو — وله النظر الأعلى — ببيان الحكمة ، وإلا فهو أعلم منهم وأرحم بهم عالماً أن فى هذا قضاء حقه وحقهم معا .

وليس يغيب عنك سبب الخذلان الأبدى لإبليس وأنه ليس إلا ماكان من اتهامه لحكمة الحكيم وجراءته على ربه العظيم ورجوعه إلى استحسانه لا إلى إيمانه وإيقانه وتعويله على قياسه الفاسد ونظره الكاسد .

ويمكنك أن تقول : إن المراد بالسؤال المنفى سؤال التسلط والاستيلاء فلا يسأله تعالى أحد بطريق الاستيلاء عليه ، بخلافهم فانهم يسألون عن كل ما يفعلون من قبله تعالى ، فانه الحاكم عليهم والمتصرف فيهم تصرف السيد فى عبده والمالك فى ملكه ، فكأنه يقول : إن له العزة ، ولكم الذلة .

فهذه احتمالات قريبة فى الآية يمكنك أن تكتفى بها وتطمئن اليها .

ولا بأس أن نلفت نظرك بعد ذلك إلى أمر بديع : وهو أن من الحكمة أن تنظر فى حال السائل الذى يطلب منك الجواب قبل أن تجيبه حتى إذا كان يناسبه الجواب ولا يعلو عن استعداده أقررته على السؤال وشفيت غلته بما يريد من الجواب ، وإذا كان لا يمكنه أن يفهمه وكان من علوم طبقة أخرى غير طبقته كان ذكره عبثا . وربما كان ضررا كبيرا عليه .

وقد عرفنا صلى الله عليه وسلم أنه « مَامِنْ رَجُلٍ يُحدثُ قَوْماً بِغَيرِ مَا تَصِلُ إلَيْهِ عُقُولُهُم الَّا كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِم » وقد قال الإمام مالك رضى الله عنه فى حق من سأله عن قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) : « أخرجوا عنى هذا المبتدع فإنه شيطان » .

ولو سألك ابنك الصغير عن مسألة عالية فى العلم تتعلق بفروع كثيرة ولو ذكرتها له أضر ذلك بعقله أو عقيدته وكان كالمريض الذى يأكل الأطعمة الدسمة التى لا يستطيع هضمها ، فليس من الحكمة أن تذكر له جواب تلك المسألة ، بل من الحكمة أن لا تدعه يقرع باب السؤال فى مثل ما سأل فيه .

ومن المعلوم أن فعل كل أحد يصدر منه على قدر علمه حتى أننا نستدل بإتقان الصنعة وحسن تنميقها على مزيد علم الصانع .

فإذا فعله تعالى على قدر علمه ، وعلمه على قدر ذاته ، وذاته تحيط بها العقول ، فكذلك علمه ، فكذلك فعله .

فنحن فى حجاب عن الكل ، ونزيدك ههنا أن الوجود كله سلسلة واحدة تتجاذب أجزاؤها وترتبط حكمها وأسرارها على وجه لا يحيط

به إلا الله الذى لا تتناهى كمالاته ولا تنحصر معلوماته ولا تفهم أسراره فى مخلوقاته ، لأنها مترابطة وغير متناهية ، فلم يمكن إدراكها على التحقيق إلا له تعالى ، والفعل الإلهى الذى أتقن بالعلم الإلهى كيف يمكن أن يصل إليه علم البشر القاصر الضعيف .

وإذا رأيت صنعة متقنة فلا يمكن أن تعرف كل ما فيها من الأسرار والدقائق حتى يصير علمك مثل علم صانعها ، وإلا فهناك ما لم تعلمه ، وعلمك إنما خلق على قدر أفعالك التى تراد منك لا على قدر أفعاله تعالى ، فإن ذلك يعلو عن استعدادك ولا يناسب درجة علمك ، ولكون أسرار الوجود يرتبط بعضها ببعض وهى غير متناهية كانت العلوم لا تقف عند حد أصلا ولا تزال تخرج من شئ ويزداد الأول بالثانى وضوحا لما بينهما من المناسبة ، والثانى بالثالث انكشافا ، وهكذا حتى يلوح للناظر فى بعض الأوقات ذلك السر البديع وهو أن الأشياء مدبرة معاً وأنها ترجع إلى قانون واحد سار فى كل المخلوقات .

يلوح له ذلك البرق فيجده قد قذف به فى بحر لا ساحل له وعلوم لا نهاية لها ، يتشابه موجها وتتوالى بروقها ثم تشرق عليه كواكبها فيعشى بصره وسط تلك الأضواء ويدهش لبه من مظاهر تلك الحضرة القعساء ، فبينما هو مبهوت فى ذلك الملكوت إذ يسمع صوتا كأنه سلسلة على صفوان وإذا بمناد ينادى من وراء حجب الجبروت : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)(١) فلما تجلت له تلك العظمة صارجبل عقله دكاً وخر كل شئ فيه صعقا ، فإذا أفاق من غشيته وتنبه من دهشته (قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)(٢) . ثم أنشد :

دع الاعتراض فما الأمرلك ... ولاالحكم فى دوران الفلك
فلا تسأل الله عن فعله ... فمن خاض لجة بحر هلك

فعلم إذ ذاك أنه وصل إلى سدرة المنتهى وأنه لو تقدم أنملة لغرق فى بحار الأنوار واحترق بسبحات الواحد القهار فقال لنفسه : « ليس وراء عبادان قرية » فهنا ينتهى علم الملائكة المقربين وأرواح الصالحين من المؤمنين فرجع أدراجه يطوى السماء طيا ، وقد عزم أن ينتبذ من أهل بيئته مكاناً شرقيا ، وعلم أنهم إنما ينظرون إلى الحلقة الأخيرة من سلسلة الوجود ، وإن تخطوها فإلى حد محدود ، يقف بصرهم الكليل وعقلهم الضئيل فينقطعون أثنــاء الطريق لا محالة « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

ثم لا يزال ذلك الروحانى الكريم ينزل من سماء إلى سماء ويشاهد من عوالم الملك والملكوت مايعرف وما لا يعرف حتى اذا صار بين الروح والجسد يريد أن يقرع باب الفؤاد من ذلك العالم إذ لاحت منه التفاتة وهو فى ذلك المقام إلى مابين سماء المعانى وأرض المحسوسات فوجد تلك الآية مكتوبة وسط الهواء بحروف من نور تمتد صاعدة

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٩ (٢) سورة الاعراف ، الآية ١٤٣

إلى السماء ونازلة إلى قرار الماء : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (١) فأدهشه ما رآه وعرف أن الأمر كله لله .

ثم وجد نفسه تشتاق إلى عالم الكثافة عندما كاد يقضى عليها جمال عالم اللطافة ، فاشتد فى قرع باب الفؤاد ودخل فى سجن عالم الأجساد وقد اضمحل وتلاشى ، ثم رجع إلى حده من العلم ومركزه من الفهم فوقف عند الظواهر وما تعداها ، بل اقتنع بما وصل إليه من رشاش ذلك البحر وقد نقش على صفحات قلبه ذلك الخطاب الإلهى : (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٢) .

الخلاصة :

فالخلاصة أن الآية مسوقة لبيان عظمة الألوهية فى سعة علمها وعدم تناهى أسرارها ، وأن ذلك يعلو عن حد الإدراك ويرتفع عن متناول الطاقة البشرية ، فإن للإلهية شأناً آخر لا تدركه العقول ولا تصل اليه الأفهام ، فإنها مقصورة على إدراك شؤون الحوادث التى تماثلها ولا تتعداها إلى شؤون الربوبية ، فذلك يتوقف على تناسب فى الصفات وتماثل فى الكمالات ، وإن نسبة علمك إلى علمه كنسبة قدرتك إلى قدرته ، ونسبة ذاتك إلى ذاته ، فله فى كل شئ من باطن العلم وسر ، والسر ما ليس لنبى مرسل ولا ملك مقرب مما يناسبه ويكون على قدره وهو الكبير المتعال .

(١) سورة الطلاق ، الآية ١٢ (٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

فليس لك من العلم بالأشياء إلا درجة تناسبك وتقف بك عند ظاهرها ، وفوق درجتك درجة من فوقك من الخواص ، إلى أن تصل إلى درجة فى العلم مختصة به تعالى تناسب الإلهية لا يشاركه فيها أحد (وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ)[1] وهو من لوازم الالهية التى تجب لها الوحدانية فى كل شىء .

وقد نهينا عن الخوض فى سر القلب علماً منه صلى الله عليه وسلم بأن النفوس لا تقف عند الظاهر بالنسبة إليه ، ولا تزال تتطلع للوقوف على باطن الأمر فيه ، وهى لا تطيقه لأنه فوق رتبتها ، فوقفها عليه السلام عند حدها وحظر عليها أن تسير فى تلك الغياهب لئلا تضل ضلالاً مبيناً .

وقد خلقت العقول على حد محدود كالحواس ، فكما لا يصح أن تجهد بصرك كى يرى الهواء الذى يدق ويلطف عن رؤية الأبصار : كذلك لايصح أن تطمع فى أن تكتنه أسرار الأفعال الالهية كما هى لدى الحضرة العلية .

فسره فيما يقتضيه وحكمته فيما يفعله على الوجه التام مما يختص بالألوهية ، فلا بد أن تعرف قدرك ولا تتعدى طورك :

من أنت يارسطو ومن أفلاط قبلك قد تفرد
ومن ابن سينا حيث هذ ب ما أتيت به وشيد
ما أنتمو إلا الفرا ش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشدا لأبعد

(١) سورة يوسف ، الآية ٧٦

وقد قيل لإياس – وهو الذى تضرب بذكائه الأمثال : « ما رأيك فى القدر » ؟ فقال : « رأيى رأى ابنتى » وإنك لتلمس من كلمته هذه كلمة الرجل الساذج الذى لا يزيد علمه على علم ابنته برهاناً ساطعاً على ذكائه حيث لم يتعد طوره ، ورحم الله امرءًا عرف قدره .

هذا مع العلم بأن الفعل فى حجاب عن العقول كالذات والصفة ، فكما لا تعرف كنه ذاته لا يمكن أن تعرف كنه صفاته ولا كنه أفعاله وهى لوازم مرتبة ، ومع العلم بأن أسرار الوجود يرتبط بعضها ببعض على تدبير عجيب وأسلوب غريب وأنها لاتتناهى ، فإذًا لا يمكنك أن تعرف ما هو الفعل ولا كيف يكون الفعل ؛ لأن ذلك من الخفاء بمكان الصفات ورتبة الذات على ما حققناه ، ولا أن تعرف سر الفعل على التحقيق ؛ لما عرفت من أن درجتك لاتسمح لك بذلك ، وأن اكتناه الأشياء مما لاغاية وراءه من خصائص الألوهية ، ولما علمت أيضا من أن أسرار الوجود متجاذبة وغير متناهية ، ولا قدرة لك على مالا يتناهى هذا . ولك أن تجعل الآية واردة فى خصوص سر القضاء والقدر الذى سبق لك ذكره ، فهو لا يسأل عما يفعل لا لمزيد القهر والاستيلاء ولا لوجود العبث وعدم الحكمة « تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا » بل لرحمته بك كى تقف عند حدك حيث لم تكن مستعداً لفهم الجواب والوصول إلى ما تتوق إليه نفسك التى تريد أن تتجاوز درجتها وتتعدى غايتها .

هل السموات هي الكواكب ؟ (١)

س : ورد إلى إدارة المجلة هذا السؤال من حضرة صاحب الإمضاء ، وعبارته بعد الديباجة : وبعد فنرجو نشر ما يأتي مع جواب فضيلتكم عليه في مجلة الأزهر الغراء ليكون النفع عاماً والفائدة شاملة : يقول بعض الناس : إن السموات السبع هي الكواكب السبعة السيارة ، ونظن ذلك بعيداً لما يأتي :

معلوم أن هذه الكواكب بينها فروج ، والقرآن الكريم يقول : (وما لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)(٢) . والقرآن الكريم يقول : (ولَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)(٣) أي : بالكواكب، وما به الزينة غير ماله الزينة قطعاً ، وإلّا كانا شيئاً واحداً . وقال تعالى : (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وجعل الشَّمْسَ سِراجاً)(٤) . ومن المعلوم أن المجعول غير المجعول فيه .

نرجو من فضيلتكم تحقيق المقام بأوسع ما يمكن ، والإجابة على ما تقدم بما يعارض ذلك الرأي ، ونسأل فضيلتكم : هل تعتقدون ما يعتقده هؤلاء ؟

وما مقصودنا من ذلك كله إلا معرفة ما يجب أن ندين الله به معرفة تامة لا تشوبها شائبة ، وفقكم الله وحفظكم .

عبد السلام أحمد

---

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثامن – المجلد الثاني – رجب ١٣٥٠ .
(٢) سورة ق ، الآية ٦ (٣) سورة الملك ، الآية .
(٤) سورة نوح ، الآية ١٦

الجــواب

مقدمة :

ينبغي أن يعلم قبل كل شيء أن هؤلاء الناس كثيراً ما يسارعون إلى الأحكام الجازمة من غير دليل ولا برهان ، ولهذا تراهم ينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس ، حتى قال بعض علمائهم : إن هذه العلوم التي نتبجح بها الآن قد يظهر بطلانها بعد مائة سنة ، فيرموننا بالخرف ، كما رمينا من قبلنا بالتخريف .

وقد صرح رئيس وزراء انجلترا سابقاً المسيو بلفور حين رأس مجمع ترقي العلوم البريطانية بجامعة كامبرج في أغسطس سنة ١٩٠٤ بما يفيد قصور علمهم وكثرة ما يرد عليه من الخطأ والاشتباه . فلا يحسن بالعاقل أن يغتر بكل ما يسمعه عنهم « وإن روجوا وبهرجوا وقعقعوا وجعجعوا » فإن غالب كلامهم خصوصاً في العلويات غير مبرهن ، وللظنون والتخيلات فيه مجال كبير ، ومنهم من يأتي على نظرياته بحجج على سبيل الجدل فيظن أنها براهين لجهله بطريق البرهان ومقدماته .

ومما يزيد الأمر خطورة ويملأ القلوب أسفاً أن كثيراً من أبنائنا أصبحوا يقلدون الغربيين في كل ما ينقل عنهم من غير بحث ولا نظر ولا تحليل ولا تمحيص ، ويكفيهم برهاناً على صحته أنهم قالوا ، مع أنه عند قائليه ربما كان في محل الظن والتخمين ، وربما كان فرضاً وجدوه أقرب من غيره من الفروض ، فقالوا به حتى يتبين لهم خلافه فيرجعون عنه .

ولكن المفتونين بهم عندنا جعلوهم فى محل التقديس فلا يبحثون فيما جاء عنهم كائناً ما كان ، وليس هذا شأن المنطق ولا الفلسفة ولا الدين ، فهى على رأى بعض علمائنا كلمات قالها قائل ، فنقلها ناقل ، فقبلها قابل ، فاغتر بها جاهل لا قدرة له على النظر .

وبعد ، فالسموات جاءت بها الديانات كلها ، وعندنا من الأدلة على وجودها ما لا يحصى : فمن ذلك ما ذكره السائل ، ونزيد على ما ذكره قوله تعالى : (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)(١) فجعل الكواكب غير السماء ، ويقول : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)(٢) ثم يقول بعد ذلك : (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)(٣) . إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة . ومن يقرأ مثل قوله تعالى : (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)(٤) وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ)(٥) وقوله سبحانه : (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)(٦) وقوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)(٧) لم يشك فى أن السموات غير الشمس والقمر والكواكب .

---

(١) سورة الانفطار ، الآيتان ١ ، ٢
(٢) سورة التكوير ، الآيتان ١ ، ٢
(٣) سورة التكوير ، الآية ١١
(٤) سورة فصلت ، الآية ١٢
(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٣٢
(٦) سورة الصافات ، الآية ٦
(٧) سورة الأنبياء ، الآية ٣٣

وفى السنة من ذلك شىء كثير أيضاً لا داعى للإطالة به ، وليعلم قبل كل شىء أننا نثبت السماء كما أثبتها القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ، ولكن لا نتعرض لبيان جواهرها وتحليل عناصرها وشرح ما يكتنفها ، فإن النصوص عندنا لم تتعرض لذلك .

وأما ما يذكره (بعض الإخباريين) من أن السماء الأولى من فضة والثانية من ذهب إلى آخره ، فهى أخبار إسرائيلية لا يعول عليها ولا يلتفت إليها .

ولا غرو فالديانات لم تجىء لشرح الأكوان شرحاً طبيعياً ، ولم تتعرض لبيان ما فيها من الجواهر والأعراض والعناصر والظواهر ، وإنما تتعرض لها من حيث ما فيها من الدلائل على قدرة الله وعظمته ، وما تشتمل عليه من إتقان تدبيره وجميل صنعه وما ترشد إليه من آثار رحمته وعظيم نعمته ومزيد حكمته ، أما الأبحاث الطبيعية فقد تركتها للعقول ولم تمنع منها ، بل ندبت إليها وحثت عليها .

ثم لتعلم أن المقرر عندنا أنه إذا عارض العقل النقل ، أولنا النقل ، لأن الطعن فى العقل طعن فى النقل كما هو مبين فى محله « والتأويل عندنا أوسع من السموات » فلننظر بعد هذا فيما عند هؤلاء المتفيهقين الذين ينفون السموات نفياً باتاً تقديساً لشىء سمعوه عن أوروبا ولم يتريثوا قليلا تقديساً للقرآن والسنة ، ولو ثبت ذلك ببرهان صحيح لكنا أول المؤولين لما جاء فى الشريعة من ذلك .

ولغة العرب أوسع اللغات تصرفاً فى باب المجاز والكناية وأكثرها ألفاظاً مشتركة ، حتى أن اللفظ فيها قد يوضع لعشرات المعانى كما ذكروه

فى العين والخال ، ولكننا لا نطرق باب التأويل أو نلجأ إلى القول بالمجاز أو الكناية أو نبحث فى معاجم اللغة عن وضع المشتركات إلا إذا اضطررنا لذلك .

وقد نظرنا فلم نجد عند القوم على نفى السموات دليلا ولا شبه دليل ، فإنه ليس عندهم أكثر من أنهم لم يروها بأنظارهم ولا منظارهم أو بقية آلاتهم ، وليس فى ذلك متمسك لمن يعرف المنطق الصحيح ، فإننا لا نعرف العناصر التى خلقت منها السموات ، وما يذكر فى ذلك فهو كذب لا أصل له كما قلنا .

فيجوز أن تكون السموات شفافة ، بل هذا هو الذى يقرره الأقدمون فيقولون : إننا نرى كواكب الفلك الثامن « وهو فلك الثوابت عندهم » فيصلنا ضوء تلك الكواكب لكون السموات شفافة ، فإذاً يصح أن نقول : إنه يرى ما وراءها ولا ترى هى ، شأن كل شفاف مع غيره ، ويجوز أن تكون بعيدة عنا بعداً يمنع من رؤيتها ، مع ملاحظة أن السماء تطلق بإطلاقات كثيرة على معان عديدة : فتطلق على الأفلاك ، وتطلق على السحاب ، كما قال تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرْضِ)[1] على رأى كثير من المفسرين ، وتطلق على كل ما علاك كما هو معروف .

وقد قال كثير من العلماء : أن الكواكب ليست مغروزة فى السماء ولا مماسة لها ، وإنما هى بين السماء والارض ، فتكون السماء من البعد

(١) سورة الزمر ، الآية ٢١

بمنزلة ما لا يرونه من النجوم ، وقد قال الإمام أبو بكر بن العربى من أئمة المالكية : إن السماء التى هى إحدى الأفلاك غير مرئية لنا ، « وهى مشتركة كما قلنا » وهؤلاء النافون لا يستطيعون أن يقولوا أنهم رأوا كل ما فى العالم العلوى ، بل هم معترفون بالقصور عن ذلك تمام الاعتراف.

وقد بين عظمة العالم السماوى اللانهائى اللورد أفيرى الإنجليزى أتم البيان فى كتابه « محاسن الطبيعة » فانظره إن شئت ، ويجوز أن يكون لديهم اشتباه كثير فى ذلك العالم الذى لا يعلمه إلا الله ، وكم اختلطت عليهم الأمور والتبست لديهم الحقائق واشتبهت عليهم الأحكام فى العالم الأرضى فضلا عن العالم السماوى ، وكم بين المتقدمين والمتأخرين من علماء الهيئة من خلاف ، وكم للفريقين من خبط وخلط .

وبعد هذا كله فمن يستطيع أن يقول إن عدم رؤية الأشياء دليل على عدمها فى الواقع ؟ أما كانوا ينكرون المكروبات لعدم رؤيتهم إياها ، فهل كان ذلك دليلا على عدمها فى نفس الأمر .

والمؤمنون من الأمم كلها وأرباب الديانات جمعاء يثبتون العرش ولم يروه استناداً لما جاءت به الأنبياء وقررته الشرائع التى تقول لنا : إنكم ما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، وتقول (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)[1] وتقول فى الإنسان : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)[2] وتنعى

(١) سورة الكهف ، الآية ٥١

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

على قوم سوء حالهم فتقول : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)(١) .

ونقول فى حق المتظننين الذين يسارعون لتصديق ما يلقيه الخيال وتمليه الأهواء والجهالات (إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ)(٢) .

ومن العجيب أن هؤلاء ينفون السموات التى هى الأفلاك ، والأقدمون من الفلاسفة يثبتون الأفلاك ويقولون : إنها أمتن من كل شىء ، حتى قالوا إنه يستحيل عليها الخرق والالتئام . فانظر إلى تنافى الرأيين وتباعد ما بين المذهبين لتعلم أن طوائف البشر قد يصلون من الخبط والخلط إلى حد أنهما يكونان على طرفى نقيض ، وكل منهما يظن أنه الفيلسوف المحقق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فرحم الله امرءاً عرف قدره فلم يتبجح تبجح الجهال وأرباب الخيال .

ولو شئنا لتوسعنا أكثر من هذا ، ولعل فيه مقنعاً وكفاية ، ولا نزال نكرر أنه لا مانع عندنا من التأويل واتباع الدليل ، ولكن القوم لم يقيموا على ما يزعمون برهاناً ولا شبه برهان ، ولا يمكننا أن نعدل عن تلك الظواهر لأجل قول يقال أو مجرد وهم أو خيال .

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩
(٢) سورة يونس ، الآية ٦٦ ، وسورة الأنعام ، الآية ١١٦

شبهة ملحد (١)

ورد إلى مجلة الأزهر هذا الخطاب :

حضرة صاحب العزة مدير مجلة الأزهر الغراء :

أرجو تبليغ تلك الشبهة إلى صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الدجوى ونشر ذلك المقال بأول عدد يصدر من مجلتكم نظراً للأهمية :

يا صاحب الفضيلة ! بينما أنا جالس فى المسجد قرب صلاة العصر أعظ الحاضرين وأذكرهم بالكثير من أحكام الدين حسب قوتى ، إذ حضر رجل فى أثناء ذلك وقال : أيها الشاب ! فسّر قول الله : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ »(٢) فقلت له : يخرج الحى وهو الإنسان ، من الميت وهى النطفة ، فقال : أربك يكذب ؟ فقلت : حاش لله ، فقال : وما تعمل إذا ظهر كذب تفسير هذه الآية ؟ فقلت له : أنا رأيت ذلك التفسير فى كتاب الجلالين وغيره من كتب التفسير ، فقال : ليس هذا بكلام الله وإنما هو من افتراء نبيكم محمد .

فاقشعرت يا صاحب الفضيلة أجسامنا عند سماع تلك الكلمة وهذه الإهانة لنبينا فى أثناء وجودنا فى بيت من بيوت ربنا ، وتصبب العرق من

(١) مجلة الأزهر — الجزء السابع — المجلد الثالث — رجب ١٣٥١
(٢) سورة الروم ، الآية ١٩

وجوهنا عند سماع تلك الإهانة من رجل كنا نعتقده حسب ادعائه مسلما .

وعمدنا إلى ضربه وأردنا إخراجه بالقوة من المسجد ، ولكن كان معه رجل آخر قال لنا انتظروا فسيفسر لكم أخى محمد تلك الآية تفسيراً متقنا ، وقال له : يا محمد قم وبين لهم هذه الآية فقال : إخوانى ! من منكم يخدم الإنسانية ويتبرع بإحضار نطفته ويأخذ مبلغ خمسين قرشا ، وأعطى ذلك المبلغ إلى رجل ، وقام الأخير وغاب مدة وجيزة وحضر بالنطفة فوضعها محمد هذا فى كأس نظيف غسلناه بأيدينا وطهره بالكحول وأخرج من بين ملابسه منظاراً معظماً ونظر النطفة فى الكأس ، ثم أخذنا المنظار ونظرنا فيه فوجدنا فى الكأس دوداً يسبح فى النطفة ، فدهشنا أى دهش عند سماعنا من هذا الملحد عبارات التكذيب لقانوننا السماوى .

والحق أن الحظ ساعده لعدم وجود أمثالكم بالمسجد حتى يفسر له الآية تفسيراً يلائم أفكاره ، ولم يعثر على مناقش أثناء ذلك إلا من طالب فى الابتدائى بمعهد طنطا ، فتشكك الحاضرون فى المسجد ، وعهدوا إلىَّ أن أبلغ هذا الحادث إلى أكبر عالم يجيد الإفتاء ، فوقع اختيارنا على فضيلتكم نظراً لما عرفتم به من أصالة الرأى وحسن الدراية والقيام بالواجب نحو الإسلام ، فأرجو أن تتفضل بالرد فى أول عدد يصدر من (مجلة الأزهر) . والإسلام يا صاحب الفضيلة يرجوك الرد حالا .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

السيد محمد متولى حماده
بمعهد طنطا

(الجواب)

يحزننا كثيرا انتشار أولئك الملحدين الذين تزيوا بزى الإسلام وماهم منه فى قليل ولا كثير ، وأكبر ظنى أن هذا الغمر الوقح من المبشرين الذين افتتنوا فى وسائل التبشير ، وإن لم يكن منهم فهو صنيعتهم . يحزننا أن يعيشوا فى الأرض فسادا بلا زاجر من حياء ولا احترام للأمة التى يعيشون بين أظهرها ، ولا خوف من الحكومة التى دينها الإسلام .

وإنى أعتب كل العتب على أولئك المسلمين الذين كانوا مجتمعين عندما قال كلمته الشنعاء أمامهم ، محتقراً إياهم ، هازئاً بدينهم مكذباً لنبيهم ، ولو كان للدين فى تلك النفوس الضعيفة الخوارة ما للوطنية أو الحزبية ، لكان منهم ما يقمع أمثال أولئك المارقين الذين أصبحوا يهاجمونهم فى مساجدهم طمعاً فيهم واستهانة بهم ، مع أن القانون يحظر ذلك ويعاقب عليه لو أبلغوا ذلك لأولى الأمر . ولكن ما تفعل القوانين إذا فسدت النفوس ، وضعفت القلوب ، وقصرت العقول ، وتفككت عرا الوحدة الإسلامية ! ولعمر الله لقد ذهب أولئك الذين يحبهم الله ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، وخلف من بعدهم خلف كغثاء السيل أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين! ولندع هذا كله آسفين باكين !

وليل طال بالأنكاد حتى   ظننت الليل ليس له نهار
لما لا ؟ والتقى حلت عراه   وبان على بنيه الانكسار
لتبك معى على الدين البواكى   فقد أضحت مواطنه قفار

ولنشرع فى الجواب مستعينين بالله فنقول : إن هذا الملحد من أجهل الجاهلين ، فإن الحى لابد أن يخرج من الميت بالبرهان العقلى ؛ لأن أول حى قد خرج من الميت لا محالة ، وإلا لم يكن أول حى وقد فرضناه أول حى (هذا خلف) . أو نقول : لو كان كل حى خارجا من حى للزم الدور أو التسلسل ، وهما محالان كما هو معروف .

وقد كان ذلك العالم الطبيعى الذى يقول : « إن الحياة فلتة من فلتات الطبيعة ، ولابد أن يرد الحى الى أصله الميت » أعقل من هذا الأحمق ، فإنه لم يسهل عليه أن يقول بالتسلسل إلى غير النهاية ، بل جعل لها أولا هو ذلك الأصل الميت ، فلم يقل بالتسلسل غير المعقول ، وإن كان ما قاله أيضاً فلتة من فلتات العلم .

ثم نقول : إن صح ما زعمه هذا الملحد فى الإنسان « مع أنه غير صحيح فى الإنسان الأول كما عرفت ، ولا فى الإنسان المتولد من من النطفة كما ستعرف » ، فماذا يصنع فى حبة القمح أو نواة النخلة والنخل أقرب أنواع النبات إلى الحيوان ، بل كاد يصل الى أفقه فهل يقول : إن فيها شيئاً حياً يرى بالميكرسكوب فيه خصائص الحياة ومميزاتها ؟ وإنى أخشى أن يقول كما قال بعضهم : إن الحبة أو النواة حية بالقوة ، فليعلم هو وأمثاله أن معنى الحياة بالقوة هو الاستعداد للحياة ، وأن الحى بالقوة ميت بالفعل كما قرره العلماء وأن الاستعداد للشئ والاعداد له ينتهيان بوجود ذلك الشئ ، فهذا طور وذاك طور آخر .

ومن الذى تشتبه عليه الوسيلة بالغاية والمقدمة بالنتيجة ؟ فهذا مايقرره العلم ويقتضيه العقل ، فلا بقاء للوسيلة مع الغاية ، ولاوجود للغاية مع الوسيلة ، فإن قال : إن النواة مستعدة للحياة التى ستحلها وتخرج منها شجرة حية وثمرة شهية ، كان ذلك صحيحا ، وليست تحل الحياة إلا فيما هو مهيأ لها ومستعد لظهور آثارها ، وإن قال : إن النواة حية أو فيها شئ حى بالفعل ، كان ذلك جهلا وكذبا .

ثم نقول بعد ذلك : إن مازعمه من أن الإنسان هو من الحيوان المنوى الحى الذى يرى فى منى الرجال : باطل من وجوه عديدة :

أولا — أن ذلك الحيوان الذى اغتر به لابد أن يرجع إلى أصل ميت ، وإلا لزم الدور أو التسلسل كما قلنا .

ثانيا — أن هذا الحيوان لابد أن يموت قبل خلق الإنسان ، فالإنسان إذاً ماخرج إلا من ميت ؛ وذلك أنهم صرحوا بأن التلقيح إنما يكون برأس الحيوان فقط ؛ وهو لايبقى حياً عند انفصال رأسه ، فسنة الحيوان جارية فيه ، فمتى انفصل رأسه مات ، وقد حصل المقصود من حياته وحركته وهو الوصول إلى البويضة التى يلقحها ذلك الرأس عند وصوله إليها .

ثالثا — أنه يمتزج بهذه البيضة امتزاجاً يجعلهما شيئاً واحدا ، فلا معنى لبقائه حيا تلك الحياة الحيوانية مع هذا الامتزاج والاتحاد .

رابعا — أن هذه البييضة قد يتولد منها جنينان أو أكثر ، والمرأة لاتفرز إلا بيضة واحدة فى كل شهر ، والمعروف أن التلقيح إنما يكون

بحيوان واحد ، وقد صرح بذلك بعض الاختصاصيين : فكيف يكون الحيوان حياً باقياً على حالته المرئية التى شبه بها الملحد على الناس ، ثم يتولد منه جنينان أو أكثر ؟ وكأن ذلك الجاهل يظن أن هذا الحيوان المنوى قد كبر ونما حتى صار إنسانا ، وما أجهل من يظن ذلك وما أغباه !

خامسا – على أن الإنسان لم يخلق من هذا الحيوان فقط ، بل خلق من أشياء كثيرة ، وتغذى بأشياء كثيرة يعسر تبيينها على الحقيقة ، وقد قال بعضهم : إن علم الأجنة لايزال جنيناً حتى الآن ، ولايزال سبب انقطاع الحيض زمن الحمل مجهولا ، وإن كانوا يتكلمون فى غايته لافى سببه ، ولذلك ترى كثيراً منهم يعدون الثديين من أعضاء التناسل ، ويقولون : إذا قطع ثديا المرأة لم تلد ، ولايستطيعون أن يعللوا ذلك تعليلاً شافيا ، إلى غير ذلك مما لايمكننا شرحه ولا الإفاضة فيه ، فليرجع إلى الاختصاصيين المبرزين فى هذا .

فإن اعتبر الاستعداد للحياة والتهيؤ لها حياة ، كان الخلاف بيننا وبينه لفظيا ، وكذلك النمو والانقسام ، فإننا لانعتبر الحياة إلا بالحس والحركة ، ولا فرق عندنا بين كلمة حى وكلمة حيوان ، والحيوان هو الجسم النامى الحساس المتحرك بالإرادة ، فإن اعتبر الحياة أوسع من ذلك كان اصطلاحا ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، فيكون الخلف بيننا وبينه فى العبارة لاغير .

وإن شئت قلت : إنها حياة تشبه حياة النبات ، ونحن نريد الحياة الحيوانية لا النباتية ، ولو أخرج الله من الشجرة إنسانا لقلنا

إنه أخرج الحى من الميت ، وليس يقلّ مابين الإنسان والشجر من الفرق عما بين الشجر والحجر من الفرق ، وقد رأينا المعادن تتربى وتنمو فى بطن الأرض ولها مدد مختلفة فى نموها وتربيتها ، فالملح والشب والكبريت لاتحتاج الا لمدة سنة أو أقل ، والحديد والرصاص والفضة تحتاج إلى مدة طويلة ، والعقيق والياقوت يحتاجان إلى مدة أطول من ذلك كله ، مع أنها لاتعتبر أحياء بذلك النمو ، فإن قالوا : إن هذه حياة ، كانت تسمية اصطلاحية ، وكلامنا معهم فى معان لافى ألفاظ .

وبعد فالأمر واضح لامرية فيه ، ولكنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون ، اللهم فانصر دينك ، وقوّ حزبك ، واكبت أعداءك الضالين المضلين ، فإنك على ذلك قدير ! اللهم إنا نعلم أن ذلك لايضرك شيئا ، ولكن نسألك أن تخذلهم بقوتك القاهرة رحمة بنا ياأرحم الراحمين !

الخلاصة :

١ – والخلاصة أن لك أن تقول : إن المراد الحى الأول ، والحى الأول خارج من الميت لا محالة ، ولا بد أن تنتهى الأحياء ، وإلاّ لزم الدور أو التسلسل .

٢ – ولك أن تقول : إذا شاهدنا الحيوان المنوى فى المنى فإننا لم نشاهد شيئاً حيًّا فى النواة مع خروج النخلة منها ، وهم يعترفون بحياتها لا محالة ، فقد خرج الحى من الميت لامحالة .

٣ – ولك أن تقول : إن المراد فى الآية الإنسان المتولد من النطفة ، وما تخلّق الإنسان من ذلك الحيوان المنوى إلا بعد انفصال

رأسه وامتزاجه بالبيضة ، فهو اذ ذاك ليس حيا ، فما خرج الإنسان الا من شيء ميت .

٤ – ولك أن تقول : إن الإنسان قد تخلق من أشياء كثيرة من الأب والأم بل غالب تغذيته وتكونه من الأم بواسطة أشياء عديدة ، ومنها دم الحيض ، وهذه الأشياء التى تكون منها ليست حيوانات بالضرورة ، فإذاً يكون قد خرج الحى من الميت ، فإن هذه أشياء ميتة لامحالة .

٥ – لو تنزلنا غاية التنزل وقلنا : إنه خلق من ذلك الحيوان ، وان الحيوان لم يمت وإنه ليس هناك أشياء ميتة أخرى يخلق منها الإنسان ؛ لوقلنا ذلك كله وافترضنا صحته مع أنه غيرصحيح : لكان ذلك الحيوان نفسه خارجاً من الميت لامحالة ، فإنه متخلق من الأغذية الميتة لامحالة ، أو راجع إلى أصل ميت لامحالة

ولنقتصر على هذا ، وقد فرغنا من الإيمان بصدق الرسول وعصمته التى قامت عليها الآيات البينات والبراهين الواضحات (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)[1] .

وطالما سمعنا أمثال هذه الترهات والتمويهات ، فلما عرضناها على محك النظر الصحيح وجدناها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٩

وكثير من الناس عندنا لم يأخذوا من العلم إلا قشوره ، ولا من الأشياء إلا ظواهرها ، بلا بحث ولا تمحيص ، فهم يتبعون كل ناعق ، ويسيرون وراء كل داع ، ولو دعا إلى خبال أو خيال ! ولسنا فى اضطرار بعد ما سمعت ذلك كله إلى أن نقول مايقول بعض المجددين : إن المراد بالحى : العالم ، أو الميت : الجاهل ، إلى أمثال تلك التأويلات التى هى شعبة من شعب المادية .

وبهذه المناسبة نقول لمن يريد من (مجلة الأزهر) أن تترك خطتها فتؤول ما ورد فى الكتاب والسنة من النصوص الصريحة لأقل هيعة تسمعها ممن خرف فى الغرب أو الشرق : لاسبيل إلى هذا ، والمجلة لا تنفك تصدع بالحق حتى يرجع الناس إلى دينهم الصحيح الذى بدله هؤلاء المتشدقون اتباعا لأهوائهم ، ومن اتبع هواه ضل عن سبيل الله وكل ميسر لما خلق له .

وما أنشئت المجلة إلا لمحاربة هؤلاء وأمثالهم ، فكيف توافق آراءهم أو تتابع أهواءهم ، وفى الحديث «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَكَلَّمَ الرُّوَيْبِضَةُ »[1] وقد وطنا أنفسنا على ذلك عالمين به من يوم إنشاء المجلة ، ومحال أن يجتمع الضدان ، أو يتفق النقيضان ، فليكتب الجاهل ماشاء ، أو فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ ؟ !

وأكبر ظنى أن هؤلاء لايؤمنون بحياة الأنبياء ولا بما ورد فى عالم البرزخ ، وإلا لم يكونوا عصريين ولا مجددين ، فإن التجديد

(١) الرويبضة : الرجل التافه الحقير يتكلم فى أمر العامة .

عندهم هو رد ماجاء فى الشريعة إلى ماتعرفه العلوم الطبيعية ، ولكنهم يخافون من الإنكار الصحيح فيدورون هذا الدوران .

وإنى أستحلفهم بشرفهم الذى زعموه لأنفسهم ، وحريتهم التى يتبجحون بها أن يصارحونا القول فيما يعتقدون من حقائق ما ورد فى عالم البرزخ وعالم الآخرة ، حتى نشهد لهم بالشجاعة والصراحة ، وإلا فلا يغشوا الناس ولا يلبسوا عليهم بهذه الشقاشق الباطلة وذلك العلم المزيف (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(١) .

(١) سورة غافر ، الآية ٥٦

حقائق وتعليقات(١)

صاحب المنار شيخ الجامدين بالبرهان ، وستوافقنى على ذلك

مقدمة :

صاحب المنار لايسهل عليه أن يؤمن بغير مايقع عليه الحس ، وإن رأيت منه غيرذالك :فهو مضطر إليه ، ومرغم عليه لأمرما يعرفه عارفوه ، وربما قال بلسانه ماليس فى قلبه ، وسر ذلك : أنه يقدس كل مايسمع عن الأوربيين ، وليس عنده من الدين وثبات اليقين ولا من احترام الأئمة وإجماع المسلمين ، ولا من العقل الواسع : والمنطق الصحيح والتحليل الفلسفى مايعرف به صحيح الآراء من فاسدها ولاغثها من سمينها ، وربما كانت عند الأوربيين أنفسهم فى محل الظن أو الفرض والتخمين ، فيؤول لها الآيات : وصحيح الأحاديث لعظمتهم فى نفسه ، وهوأن أئمة المسلمين لديه :

ومن العجيب أنه يطعن فى أحاديث الإمام البخارى ، إذا لم توافق هواه أو كان بينها وبين تلك النظريات التخمينية شبه تعارض بل رأيناه استدل على أن الأرض تأكل أجساد الأنبياء؛ بأن الأتراك قد نبشوا قبور الأولياء والصالحين ، فلم يجدوا فيها شيئاً : وهذا الدليل كما تراه بينه وبين المدعى ، مثل مابين السماء والأرض ثم هو يعتمد على ذلك من غير بحث فى ذلك السند التركى : ولاتفتيش

(١) مجلة الإسلام – السنة الأولى – العدد ٥٦ – ذو الحجه – ١٣٥١

عن صحة الخبر ، مع كونه يطعن فى أسانيد البخارى لأقل شبهة تعرض لعقله الضعيف ، شأن المفتونين بالأوربيين ومن حذا حذوهم مع أن بقاء أجساد الأنبياء قد وردت فيها الأحاديث الصحيحة والآثار الكثيرة ، ولكن الشيخ إمام فى تأويلها وفى ردها (لأنها ليست عن الأوربيين) .

فلنسبق له ها هنا ماذكره المقطم فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٣ تحت هذا العنوان :

اكتشاف جثث عربية من عهد الفتح الأسلامى

قال مكاتبنا الفلسطينى :

من أخبار السلطة فى شرقى الأردن أنه بينما كان بعض العمال يحفرون فى خان مجاور لمسجد سيدنا جعفر الواقع فى قرية المزار التابعة للكرك ، والتى جرت فيها معركة (مؤتة) ، بدت لهم نافذة تتصل بحجرة واسعة سقفها معقود بالحجر ، وفيها مايقرب من مائة جثة والمظنون أن أصحابها من شهداء واقعة مؤته المشهورة فى الفتح الإسلامى وقد وجدت على رؤوس أصحاب الجثث عمائم ، وبعضهم فى أكفان والبعض الآخر بملابسهم . وفيهم جرحى لاتزال آثار الجروح فى أجسادهم ، وقد أخف سمو الأمير عبد الله لمشاهدة المكان المكتشف والجثث ، فإذا ثبت أنهم من شهداء مؤتة صدرت الأوامر بتشييد ضريح فخم لهم ، ينقلون إليه بكل احترام ،

وهناك حادثة أخرى تشبه هذه ، ذكرتها الجرائد وذكرناها فى الرد عليه فى مجلة نور الإسلام الأزهر الصادرة فى جمادى الآخرة من هذه السنة وقد حضر تلك الحادثة جمع كبير على رأسهم الملك فيصل

وعندنا بمصر حوادث كثيرة من هذا القبيل ، ذكرتها الجرائد فى حينها ، ولكن الأنبياء والأولياء ليس لهم ميزة ماعند صاحب المنار : ولهذا مقام آخر نذكره فيه.

وقد رأيت فى مقالاتنا ، كيف قال إن الملائكة هى القوى الطبيعية واستبعد ما قاله المسلمون ، وأقام على بطلانه ذلك الدليل الفاسد ، من أنك لاتحدد أمكنتها ، ولاترسم مساكنها وإنك لاترى من يكون منهم عن يمينك ، ومن يكون عن يسارك ، وقد شنعنا عليه بأنه لايلزم من عدم رؤيتهم عدم وجودهم لأننا لا نرى الله عزوجل .

ونحن موقنون بوجوده . أو نقول شيئا آخر ربما كان أكثر موافقة لعقله : إن المكروبات كانت غير مرئية ، حتى ظهر الميكرسكوب (المجهر المعظم) وكذلك غيرها ، فهل كانت غير موجودة فى الواقع؟

وقد سمينا هذا المنطق الذى انتحاه الشيخ فى استدلاله ، بمنطق النعامة ، التى إذا رأت مايخيفها جعلت وجهها فى الرمل ، اعتقاداً منها أن كل ماغاب عن البصر فقد غاب عن الوجود .

ولاينبغى أن نتشدد فى مناقشة الشيخ ، بعد أن عرفنا أن منطقه الذى يسير عليه فى استدلاله ،إنما هو منطق النعامة ،وكثير من الناس من لايعرف إلا هذا المنطق .

وإذا عرفت ذلك ، لم تستغرب مانتلوه عليك اليوم ، من ترهات الشيخ وأضاليله ، التى نكل الحكم فيها إليك ، بعد تبيين مواضعها من (المنار) مجلدا وصحيفة : ومما لا ينبغى إغفاله فى هذا المقام :

أن صاحب المنار يقول فى التنصل ، مما أحرجناه به ، إنه وإن ذكر الباطل فى موضع ، فقد ذكر الحق فى موضع آخر فعلى قارئ المنار (إذا بناء على هذا المبدأ) ألا يثق بشئ رآه فيه حتى يطالع الثلاثة والثلاثين مجلدا ، ثم ننصح له ، أن يفتش بعد ذلك كله عما يريد أن يأخذ من تلك المجلدات فإن الشيخ غير موثوق بنقله ، ولا بفهمه كما قلنا فى مقالنا الأول ، والمتناقض لا يصح أن يعتمد عليه فى شئ من الأشياء ، والكاذب لا نصدقه فى كذبه ، ولا فى صدقه . ولنقتصر فى المقدمة على هذا ، ونذكر لك تلك المخازى فنقول :

شيء من بلايا صاحب المنار ومخازيه

فى المنار المجلد العشرين الملحوظات الآتية :

١ — ٧٩ و ٨٠ و ٨١ فيها تجهيل لمن يقولون فى اللوح المحفوظ ، والقلم والكتابة والكاتبين ونحوها بما هو مقرر فى كتب العقائد .

٢ — وفيها تأويل اللوح المحفوظ بلوح الوجود ، والواقع الذى لاحق إلا ما وافقه ، فليس مخلوقا مستقلا كما يقول علماء المسلمين .

٣ — ٩٠ و ٩١ فيها أن كتابة الأعمال هى تأثير الأعمال فى النفس أو حفظ صورها وآثارها فى النفس وأن ذلك أمثل ما أولت به كتابة الأعمـــال ، وهو خرق لإجماع المسلمين وكلام لا يعرفه إلا الباطنية ، وهو بعد ذلك إنكار للكاتبين على الرغم من صريح القرآن الشريف .

٤ — ٢١٤ فيها أن اسم الجن والشياطين يطلق فى لغة العرب على بعض الحشرات والحيوانات الضارة أو القبيحة ، وعلى ما يؤثر

عن أهل الكتاب وغيرهم من العالم الروحى الغيبى وقد ذكر بعض خصائصه ثم قال بعد ذلك ، والأكاذيب عن جميع الأمم فى ذلك كثيرة والشبهات غير قليلة ولكن قل المصدقون بها فى بلاد العلم والمدنية يريد أن يشكك القارئ فيما يعرفه من دين الإسلام عن الجن .

وانظر إلى أى حد بلغ افتتان الشيخ بالأوروبيين الذين يعبر عنهم أرباب العلم والمدنية أى وأما نحن فأرباب الجهل والبهيمية . ومن ذا يبلغ الشيخ أن علمهم إنما يوثق به فى الماديات والطبيعيات ، لا فيما وراء الطبيعة ، فهم أجهل الناس به وأبعدهم منه وكل معلوماتهم إنما تدور على الحس والمشاهدة .

وقد قلنا فى بعض ما كتبناه أن هذه مرتبة الحيوان الذى لا يصدق إلا ما شاهده بعينه ، ولا يعرف إلا ما وقع عليه حسه ، بخلاف الإنسان الذى متعه الله بمواهب عقلية وخصائص روحانية يعرف بها ما لم يصل اليه الحس ، ولا وقع عليه البصر .

ولكن الشيخ يريد أن يكون مجددا عصريا . فلما فاته التجديد فى الماديات كالأوروبيين شرع يجدد فى الدين يرمى ذويه بالخرف على نحو ما فعل الأوروبيون مع الفلاسفة الأقدمين ، ولكن فاته أن الأوروبيين فعلوا ذلك فى الحسيات ، التى قام عليها برهان الامتحان ، ودليل التجربة ، أما غير الحسيات من عوالم ما وراء الطبيعة ، فالأوروبيون فيه مخرفون جاهلون ، لا علماء محققون .

ثم نقول لصاحب المنار : ألا تتقى الله فى تلك الأمة المسكينة ، التى كاد يقضى عليها تقليد الأوروبيين وتقديسهم ، حتى اختل أمرهم ، وضاع رشدهم ، أفتريد أن تزيدهم فناء فى الأوروبيين كى يقلدوهم فى كل شىء ، حتى فى أمور الدين ، ومسائل اليقين عند المسلمين .

ولننتقل إلى خزية أخرى فنقول :

٥ – ٣٣٠ وبعدها فيها تكفير المتبركين بالآثار ، والمتوسلين بالصالحين ، وأنهم مشركون إشراك قوم إبراهيم عليه السلام .

٦ – ٣٩١ فيها شك وتشكيك فى نبوة آدم ، ورسالته عليه السلام . فقد عرفنا من ذلك ، أن إنكار أبى زيد لنبوة سيدنا آدم فى حادثته المشهورة ، كان مأخوذا من المنار ، فصدق حدسنا أن كل ماقاله أبو زيد الذى كان يرد عليه الشيخ رشيد ، ويسميه ملحد دمنهور ، كان مأخوذا من المنار ، وما هو إلا قليل من كثير وربما بينا ذلك بعد.

٧ – ١٨٦ و ٢٦١ و ٣٣١ فيها كلام فى الشفاعة ، تلمح فيه اعتقاده فى أحاديث الشفاعة فكأنه يريد أن ينكرها ، أو يشكك فيها ، فلا نطيل فى ذلك الآن.

وفى الجزء الثامن من المجلد الثانى والثلاثين يلاحظ الآتى :

٨ – ٥٦٥ و ٥٦٧ فيها تشنيع وافتراء على معتقدى الولاية والكرامة والوسيلة ، وأنهم عبدة القبور واتهام من لايكفرهم من العلماء ، بأنهم يغرون الناس بعبادة القبور . ثم نقول ، وأن إفساد هؤلاء

الخرافيين للبشر ، لأشد من إفساد المنكرين للآيات المكذبين بها ، بناء على مزاعم باطلة يتهمهم بها .

ونحو ذلك فى صحيفة ٥٧٤و٥٧٥ تحت عنوان (سبب عبادة المسيح وبعض الصالحين) والشيخ لا يعرف معنى العبادة ، كأنه يظن أنها التعظيم ، فهو يقول تعظيم غير الله عبادة ، وكل عبادة لغير الله شرك ، مع أننا رأينا إخوة يوسف قد سجدوا ليوسف ، وليس هناك تعظيم أبلغ من السجود ، ورأينا الملائكة سجدت لآدم .

ولو كان التعظيم شركاً ، ما أمر الله به ، لأن الله لا يأمر بما هو من جنس الشرك فى شريعة من الشرائع ، على أن تعظيمنا إياهم إنما هو لكونهم أصفياء الله المقربين ، فالتعظيم فى الحقيقة ليس إلا لله وقد قلنا فى بعض ما كتبناه أن الخلف بيننا وبين الوهابية ، الذين يدافع عنهم الشيخ رشيد ، إنما هو فى كون الأرواح بعد الموت لها شعور وإدراك ، وعمل ودعاء ، كالأحياء . أم ليس لها ذلك فنحن نقول بثبوت هذه الأشياء للكاملين غير المشغولين بأنفسهم ، وهم يقولون : إنهم ليسوا كذلك ، ولا فرق بينهم وبين الجمادات أو المعدومات عندهم ، وعلى كل حال فالخلف فى ذلك لا يوجب كفراً ولا فسقا فما معنى تكفير المسلمين بذلك واستباحة دمائهم من أجله ؟ ولسنا نحتم على الوهابيين أن يعتقدوا أن للأموات شعورا وإدراكا وأنه يمكنهم الدعاء والتوسل إلى الله . كما قال صلى الله عليه وسلم فى حديث عرض الأعمال (وَإِن وَجَدْتُ غيرَ ذلِكَ اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ) لا نحتم عليهم ذلك وإن نطقت به الأحاديث الصحيحة ، بل المتواترة ،

وانعقد عليه إجماع الأمة قبل ظهور هذه الفرقة . ولكن الذى نريد منهم أن يعتقدوا ما شاءوا أو يتركوا الناس يعتقدون ما شاءوا ؛ ولا يكفرونهم ولا يستبيحون دماءهم لخيال فاسد ، لا يوجد إلا فى رؤوسهم ، وشبهة فارغة لا تنقدح إلا فى نفوسهم ، يرتكبون بها أكبر الجرائم ، وأعظم المآثم .

وما نريد بذلك كله إلا حقن دماء المسلمين وعدم تفكيرهم بتلك الكلمات الفارغة .

والخلاصة أنه لابد أن يكون هناك فصل آخر فى العبادة ؛ لا تتحقق حقيقتها إلا به ، حتى تكون مختصة بالله ، ويكون فعلها لغيره شركا . ولعل الشيخ يعقل هذا فهذا ما نريده من الوهابية . وإن كان الشيخ لا يعرف محل النزاع ، ولا مثار الخلاف بيننا وبينهم ، والشيخ متى قال شيئاً ، فمحال أن يرجع عنه ، ولو أقمت له ألف برهان ، ومن ذلك أننا خطأناه فى التعبير بالقبوريين وقلنا له إن الجمع لا ينسب إليه ، وإنما ينسب إلى الواحد ، فقال إن القبوريين علم . فقلت له أنه ليس بعلم عند أحد شم رائحة العلم .

وقد قال ابن مالك :

والواحد اذكر ناسبا للجمع   ما لم يشابه واحدا بالوضع

أى مالم يشابه الجمع المنسوب إليه ، كما هو واضح ، ولكن الشيخ يصر على خطئه ، ولا يرجع عنه ، وكأنه على نهج أولئك المتكبرين الذين قال الله فيهم : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ

فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [١]

ومن ذلك قوله فى إبليس : إنه القوة الشريرة التى (تعيق) الإنسان عن بلوغ درجات الكمال ، والواجب أن يقول (تعوق) ومن ذلك تعرف أن للشيخ نحوا خاصا ، وصرفا خاصا ، كما أن له منطقا خاصا ، أسميناه بمنطق النعامة ، أو المنطق القلمونى ؛ فلنسم هذا النحو بالنحو القلمونى أيضا :

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

ولنقف هنا رحمة بالشيخ ، وإشفاقا على القارىء ، فإلى اللقاء قريبا إن شاء الله . وستعرف أن الشيخ موافق للطائفة الأحمدية القاديانية فيما نتلوه عليك بعد .

---

(١) الأعراف الآية : ١٤٦

إلى شيخ الدعاوى وصاحب الحديث عن نفسه

ليست العبرة بكثرة الهذيان ... إنما العبرة بقوة البرهان

هذى كثيراً فقلنا لا نرد على ... هاذٍ فأضحى ينادى أنه بطل

بيّنّا ما صرح به صاحب (المنار) فى تفسيره عند قوله: (وإذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) (صحيفة ٢٦٧ وما بعدها إلى ٢٧٦) من أن الملائكة هى القوى الطبيعية، وأن إبليس هو القوة الشريرة المودعة فى نفس الإنسان التى لا يمكن إخضاعها ولا تذليلها وأن ما يسميه الماديون قوى طبيعية هو ما يسميه المسلمون ملائكة، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات أى فالأسماء مختلفة والمسمى واحد.

وقد سقنا بعض النصوص الدالة على ذلك من كلامه وعلقنا عليها وعجبنا أجد العجب من إنكاره ذلك ورميه إيانا بالافتراء والبهتان بعد تلك العبارات الصريحة التى أطال فيها ثم حصنها من جميع نواحيها بدفع الشبه عنها والرد على مخالفيها، كما أنه جعل قصة آدم وحواء قصة خيالية تمثيلية فليس هناك جنة دخلها آدم لا أرضية ولا سماوية ولا شجرة نهى عنها، إلى آخر ما سطره فى صحيفة ٢٨١ وما بعدها من "الجزء الأول من تفسير المنار" مما لو جوزناه لارتفعت الثقة

بكل ما جاء فى الدين أصولا وفروعا، ولم يكن القرآن عربيا مبينا، بل كان رموزا وألغازا، أو على الأقل مجازات بلا قرينة.

ومن العجيب وليس من صاحب المنار عجيب أنه يبقى النزول على حقيقته فى حديث النزول، والاستواء على حقيقته فى آية الاستواء ولا يحمل ماجاء فى الملائكة على حقيقته تقربا للماديين واستعظاما لهم. وإذا لم يكن صاحب المنار سلفيا ماديا فمن ذا يكون؟ وإذا لم يكن يعرف حدود الإمكان وما ينتهى إليه الممكن وما يستحيل وما يجوز فمن ذا يعرف غيره؟ ولو جرينا على طريقته من جواز التأويل والتمثيل فى معاملاتنا ومخاطباتنا لفسد العالم كله. وقد قلنا إن هذا هو ما أراده الباطنية قبل صاحب المنار، وما أشبه طريقتهم بطريقه فإنه يذكر الحق بعبارة موهمة أو محتملة، ثم يكر عليها بتحبيذ الرأى المادى وإيراد الشبه على غير الرأى المادى حتى يخيل للقارئ أن هذا هو لباب العلم الذى قلما يظفر به فى غير المنار.

وفى طى هذا وصية له بالاحتفاظ به والحرص عليه، وقد يذكر من كلمات الصوفية ما يجعل القارئ يظن أنه من أولياء الله المقربين أو ملائكته المطهرين على نحو ما يفعل صاحب كتاب إخوان الصفا.

وها أنذا أسوق لك بقية تشكيكه فيما يعتقده المسلمون من أن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل. فبعد ما أورد عليه الشبه التى سمعتها فى مقالنا السابق أراد أن يقتلع تلك العقيدة من النفوس حتى لا يبقى لها ظل ولا أثر فى القلوب. وقد رأى أن يؤثر على القارئ

بأسلوب شعرى يحرك الخيال فقال وكأنه من علماء وحدة الوجود [1] « ولو علموا أن العالم بأسره فان فى نفسه وأن ليس فى الكون باق كان أو يكون إلا وجه الكريم . وأما ما كشف من الكون وما لطف وما ظهر منه وما بطن إنما هو فيض من جوده ونسبة إلى وجوده » إلى كلام طويل استمده من كلام الصوفية ثم قال « لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لأنفسهم أن تجول فى تلك الشئون حتى تصل إلى مستقر الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شىء من وساوس الوهم ولا توجد طائفا من الخوف » .

ونقول إن نفوسنا قد وصلت إلى مستقر الطمأنينة وليس فيها أدنى خوف ولا شك ، بل نعجب كيف يجئ الخوف والشك والأمر فى غاية الوضوح . فإن إثبات الملائكة على ما يفهم المسلمون ليس فيه إلا إثبات عالم آخر له أحكام أخرى ، وقد متعه الله بمواهب وخصائص لا توجد فى غيره ممن أين يجئ القلق ولماذا تذهب الطمأنينة وتحل الحيرة محلها ؟ ألم يخلق الله الهواء على مانعرف من اللطافة ؟ فما المانع أن يخلق الله خلقا ألطف من الهواء ويمتعه بقدرة وإرادة واختيار ويعطيه من التصرف ماشاء . ومن ذا الذى أحاط

(١) هذه العبارات التى علقنا عليها فى هذا المقال وماقبله هى من صحيفة ٢٧٠ – ٢٧٣ من الجزء الأول من تفسير المنار .

بجميع العوالم خبرا وقد قال تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ) [1] (وَمَا أُوتِيتُم من الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [2] . (سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِما لا يَعْلَمُون) [3]

إنى اعجب جد العجب ممن يتوقف فى ذلك ويجعل هذا محلا للحيرة وعدم الطمأنينة ويظن أن الإيمان به متعسر أو متعذر . ثم نقول للأستاذ أتجمع بين المتضادات فتتكلم فى تقرير مذهب الماديين بلسان الصوفية يا أستاذ أأعجمى وعربى؟ إن هذا لشئ عجاب. ولكن هذه طرق معروفة لتلك الطوائف والغرض منها معروف لنا ولغيرنا.

ثم نقول بعد كل تنزل ما معنى هذا الاستدلال وأى ارتباط بينه وبين ما يدعيه ؟ فهل كون العالم فانيا فى نفسه وكونه فيضا من جوده تعالى ينتج ما يريده من أن الملائكة هى القوى الطبيعية وأى علاقة بين هذا وذاك .

ثم يقول بعد ذلك لتجعله – إن كنت سليم القلب – من الروحانيين أو الملائكة المقربين (على رأى المسلمين) مانصه ، أليست هذه القوى أشعة من ضياء الحق . أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة ،

(١) سورة المدثر ٣١
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٥
(٣) سورة يس ، الآية ٣٦

ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها لا ندرك كنهه لاحتجابه عنا بما نتصور من حياتنا واختيارنا ، ألا تراها تواق بأسرارها من ينظر فى آثارها ويوفيها حق النظر فى نظامها يستكثر من الخير بما يقف عليه من شئونها ومعرفة الطريق إلى استدراز منافعها .

وأقول : لماذا كل هذا ألأجل أن نجعلها هى الملائكة ولا نستبعد أن يكون فيها حياة وشعور الخ ؟ : أليس إثبات عالم آخر نسميه ملائكة أهون من ذلك كله ؟ ، أليس اتباع المعقول والمنقول أولى من تلك الخيالات الفارغة التى تشبه خيالات المحمومين ، اللهم إن هذا افتتان بما ظهر فى عالم المــادة وما أحدثوه فيها من مدهشات وعجائب ولكن الشئون الآلهية فوق ذلك كله (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[1] وقد أذكرنى ذلك قولهم «كن يهوديا حقا وإلا فلا تلعب بالتوراة» . ونحن نقول له «كن مسلما حقا وإلا فلا تلعب بالقرآن» . أليس هذا الخيال أشبه شيء بخيال ذلك الملحد الذى جعل الأثير إلها وتخيل فيه سمعا وبصرا حيث يقول :

فلعل الأثير خير سميع	ولعل الأثير خير بصير
ولعل الأثير خير إله	ولعل الأثير خير نصير

ثم نقول بعد ذلك كله : أى لاقة بين هذا الدليل وتلك الدعوى على نحو ما أوضحناه فيما قبله ؟

(١) سورة النحل ، الآية ٧٤

ثم أراد زيادة التشكيك فقال : «أفلا تزعم أن لله ملائكة فى الأرض وملائكة فى السماء هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ومن يكون عن يسارك ، هــل ترى أجسامهم النورانية تضيىء لك فى الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام ، فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفه سلفك وبالعبارة تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها . أفلا يكون ذلك أروح لنفسك وأدعى إلى طمأنينة عقلك ؟ » .

وأقول ما هكذا ينبغى أن يكون العلماء ولا أهل الدين يعبر بالزعم فيما جاء عن النبى متواترا من أن لله ملائكة فى الأرض وملائكة فى السماء ، ثم يطعن فى ذلك بأنك لا تعرف أين هى فى الأرض ، وأنك لا تحدد أمكنتها ولا ترسم مساكنها ، وأنك لا تعرف من يكون منهم عن يمينك ، ومن يكون عن يسارك إلى آخر ما قال : وإنى آسف أشد الأسف إذ يصدر ذلك ممن يزعم أنه أحد شيوخ المسلمين وهل عدم تحديد امكنتها ومعرفة مساكنها يدل على عدم وجودها ؟ ومن الذى يستدل بعدم رؤية الشيء على عدم الشيء ؟ أفلا يجوز أن تكون من اللطافة بحيث تخفى عنك ، أو تكون أنت من قصور البصر بحيث لا تراها وهل تنكر الكرام الكاتبين وقد صرح القرآن بهم من أجل أننا لا نرى من فى يميننا ومن على يسارنا ، اللهم إن هذا مخجل لأهل الدين بل لاهل المنطق وإن لم يكونوا من ذوى الدين .

فإننا لو قطعنا النظر عما جاء فى الدين من المتواترات لكان الدليل الذى زعموه غير صحيح أمام العقل والمنطق . ولكنك عرفت أن للشيخ منطقا خاصا لايعرفه غيره . ومن العجيب أنه يرمينا بعد ذلك بالجمود .

فليت شعرى أينا الجامد ؟! أنحن الذين عرفنا عظمة العلم وسعة القدرة الإلهية أم هو الذى وقف عندالظواهر ولم يجاوز دائراة الحس ؟ (رمتنى بدائها وانسلت) — (هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ)(1) .

ومن أعجب العجب أنه يقول : إن هذا الإصلاح الذى قام به يتوقف عليه حفظ الدين ، وما أدرى أهذا يحفظ الدين أم يهدمه ؟ وليت شعرى ، ماذا يصنعون فى الإيمان بالله تعالى ؟ أيقولون فيه ما قالوه فى الملائكة أم ماذا ؟ فإن حقيقته تعالى أخفى من حقيقة الملائكة بلا مراء فيمكنهم أن يقولوا فى قوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)(2) (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ)(3) إلى أمثالها من الآيات الخ ، إنما القوى المنبثة فيما حولك وعن يمينك وعن شمالك وأن هذه القوى يتخيل الإنسان فيها — شعورا وعقلا ، إلى آخر ما قالوه فى الملائكة . وبذلك ينقطع عرق الخلاف بيننا وبين الماديين فى كل شىء حتى فى وجود الله عز وجل ، وإذن يكون الإصلاح أتم والوفاق أعم . فكل ما ذكروه فى الملائكة يمكنهم أن يذكروه فى تلك الآيات بأتم معانيه ، فإن كان عدم رؤية الشىء دليلا على عدمه فى الواقع وعدم رسم مساكن الأشياء وتحديد

(1) سورة المائدة ، الآية ٥٩ (2) سورة الحديد الآيه رقم ٤
(3) سورة البقرة ، الآية ١١٥

أمكنتها مقتضيا عدمها ودليلا على انتفائها . نقول لو تم هذا الأساس لما قام هذا الدليل بعينه فى حق الله عز وجل فإنك لا تراه ولا تحدد له مكانا ولا ترسم له مسكنا الخ الخ . فماذا نقول لهؤلاء ، وبماذا تخاطبهم .

وما أصيب شىء من الأشياء مثل ما أصيب به المنطق فى هذا العصر من أولئك الأغبياء ، ولنصطلح على تسمية هـذا المنطق الفاسد بالمنطق القلمونى ، أو منطق النعامة ، فقد ذكروا أن النعامة إذا رأت الصياد جعلت وجهها فى الحائط كى لا تراه ، وتظن لمزيد غباوتها أنه إذا غاب عن نظرها فقد غاب عن الوجود . وهذا مبنى لدى النعامة على الأساس الذى بنى عليه الشيخ رشيد استدلاله من أن عدم رؤية الشىء دليل على عدمه فى الواقع ، فليكن موسوما عندنا وعندكم بمنطق النعامة أو المنطق القلمونى

ولا داعى لأن تعلق على قوله إن الله ذكرها لك بما كان يعرفه سلفك وبالعبارة التى تلقفتها عنهم الخ . فإن الأمر فيها أظهر من الشمس وأوضح من الحس ، وهل هناك فرق بين هذا وبين ما قاله رؤساء الإلحاد فى أمثاله من أن القرآن يذكر الأساطير ،

وقد تعبت من التعليق فلنقتصر على هذا وفيه مقنع وكفاية ، وأظنك بعد هذا فى عجب شديد من صاحب المنار كيف ينكر ذلك ويقول إننا افترينا عليه بعد ما قرره غاية التقرير وكرره غاية التكرير ، فأينا المفترى ؟! وأنى آخذ بيدك مرة أخرى فأضعها على ما افتراه تلبيسا وتدليسا على نحو ما يفعل المبشرون سواء بسواء ، فإنه نسب ذلك . الرأى الفاسد إلى بعض المفسرين كما قلنا ولا زالت

أكرر أنى أتحداه أن يبين لنا ذلك المفسر الذى ذكر تلك الخرافة ، وإلا فلست مفتريا كما يقول ، بل هو المفترى على الله بذكر ما لم يرده فى كلامه وعلى الرسول فى مخالفة ما عرف من الدين بالضرورة وعلى العلماء فى الافتراء عليهم ونسبة ما لم يقولوه إليهم غشا وتدليسا وبعد فيصعب علينا أن نقول أنه متخبط لا يدرى ما يقول ، أو أنه غير ثابت على عقيدة واحدة أو أنه يلبس على الناس بذكر الحق والباطل شأن ذوى الأغراض السيئة . ولكن نكل الحكم إليك بعد ما قصصناه عليك ويكفى هذا التعليق اليوم .

وأما ما نسبه للشيخ الغزالى فسنبين خطأه فيه أو سوء قصده بأوضح الأدلة إن قدر لنا أن نكتب فى الموضوع بعد ، ولتكن هذه فرية ثالثة على الغزالى أيضا . ولكن نبادر فنقول للقراء إنه يستحيل أن يقول الشيخ الغزالى أن الملائكة هى القوى الطبيعية والشيخ لا يفهم الأشياء بالعقل وإنما يفهمها بالهوى . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله .

أسال الله أن لا يجعلنا ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا ولا ممن يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شىء ، بمنه وكرمه :

قد أضاء الصبح للناس طرا ليس بعد الحق إلا الضلال

حديث الغرانيق (١)

ورد من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد عبد الحميد قاضى مديرية دارفور سؤال يتلخص فيما يأتى :

إن مما ندين الله عليه تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به ، وأنه من عند الله : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلا وَحْىٌ يُوحَى) (٢) .

وقد جاء فى بعض الكتب أن سبب نزول قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ) (٣) أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغ فى قراءة سورة النجم قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى) (٤) ألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » .

فكيف يتفق جريان مثل هذا على لسانه صلى الله عليه وسلم مع قوله تعالى : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى) ومع اعتقادنا بالعصمة ، وأنه النبى المعصوم ، وهو المقتدى به فى أقواله وأفعاله ؟

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثامن — المجلد الرابع سنة ١٣٥٢

(٢) سورة النجم ، الآيتان ٣ ، ٤

(٣) سورة الحج ، الآية ٥٢ .

(٤) سورة النجم ، الآيتان ١٩ ، ٢٠

وقد بعثنا إلى فضيلته جوابًا مفصلًا تلخيصه فيما يأتى :

الجواب

الذى نعتقده ويجب أن يعتقده كل مسلم أن هذه القصة باطلة موضوعة ، فإن المسألة من أصول العقائد التى لا تكفى فيها أخبار الآحاد ، بل هى من القطعيات لا من الظنيات ، وأن البرهان العقلى لقائم على كذبها . ولنسق لك شيئًا مما قاله أئمة النقل والعقل فى المسألة :

قال البيهقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . وقال القاضى عياض فى الشفاء : يكفيك فى توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل .

وفى « البحر لأبى حيان » أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد ابن إسحاق جامع السيرة النبوية ، فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وصنف فى ذلك كتابًا . وقال الشيخ أبو منصور الماتريدى : الصواب أن قوله : « تلك الغرانيق العلى » من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة ، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين الشبه ليرتابوا فى صحة الدين .

الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية ، ويلزم على هـذه الرواية أمور كثيرة كل منها باطل وغير معقول :

١ – منها تسلط الشيطان عليه صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم بالإجماع معصوم من الشيطان ، ولا سيما فى مثل هذا من

أمور الوحى والتبليغ والاعتقاد ، وقد قال سبحانه وتعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)[١] وقال تعالى : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمنوا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[٢] فإذا كان ذلك فى عباد الله المخلصين ، فكيف بسيد الخلق أجمعين ؟ .

٢ – ومنها زيادته صلى الله عليه وسلم فى القرآن ما ليس منه ، وذلك مما يستحيل عليه صلى الله عليه وسلم لمكان العصمة .

٣ – ومنها اعتقاد النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه متناقضًا مع ما ذكر معه من الآيات غاية التناقض ، فإنه ذم الأصنام بما لا يزيد عليه فى هذه السورة ، فقال : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)[٣] وقال فى حق عابديها : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى)[٤] إلى غير ذلك .

فكيف يقال إنهم فرحوا بمدح أصنامهم ، وسجدوا معه فى آخر السورة ؟ وكيف ينسب ذلك التناقض الشنيع والخطأ الفظيع له صلى الله عليه وسلم !

---

(١) سورة الحجر ٤٢ ؛ وسورة الإسراء ٦٥ .
(٢) سورة النحل ، الآية ٩٩ .
(٣) سورة النجم ، الآية ٢٣ .
(٤) سورة النجم ، الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠

٤ – ومنها أنه إما أن يكون معتقدًا ما فهموه من مدح آلهتهم ، وهو محال عليه صلى الله عليه وسلم ، أو غير معتقد فيكون مُقِرًا لهم على الباطل ، بل على الكفر .

٥ – ومنها كونه صلى الله عليه وسلم اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه الملك ، وهو يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم على غير بصيرة فيما يوحى إليه .

٦ – ومنها أن هذا يوجب جواز تصور الشيطان بصورة الملك ملبسًا على النبي ، ولا يصح ذلك كما أوضحه القاضى عياض فى الشفاء . وقال أبو بكر بن العربى : تصور الشيطان فى صورة الملك ملبسًا على النبى كتصوره فى صورة النبى ملبسًا على الخلق ، وتسليط الله له على ذلك كتسليطه فى هذا ، فكيف يسوغ فى لب سليم استجازة ذلك!

والحاصل أن حديث الغرانيق مخالف للقواطع ، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعنى قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا)(١) . . . إلخ . لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة . وسنسمعك شيئًا فى ذلك . وكون الشيطان ألقى ذلك على لسان بعض الرواة أقرب فى العقل من كونه ألقاه على لسان النبى صلى الله عليه وسلم .

وبعد ذلك كله يلزم على ما ذكروه أن يكون للشيطان تسلط على وحى كل رسول وكل نبى زيادة على تسليطه على القرآن العزيز ، لقوله تعالى : (... مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي

(١) سورة الحج ، الآية ٥٢

أُمْنِيَّتِهِ)(١) فإن الآية تقتضى على تفسيرهم أن هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله وصفوته من خلقه جميعا ، إذ الضمير فى (تمنى) يعود إلى ما قبله من الرسول العام ، إذ هو نكرة واقعة فى سياق النفى ، وقد اقترنت بمن الاستغراقية ، وهى حينئذ تكون نصًا فى العموم .

ولا نزال نكرر أن « العصمة » من العقائد التى يطلب فيها اليقين ، فالحديث الذى يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أى وجه جاء . وقد قدمنا لك أن الأصوليين عدوا الخبر الذى يكون على تلك الصفة من الخبر الذى يجب أن يقطع بكذبه .

وقد علم ما للناس فى ابن أبى صالح كاتب الليث وأن المحققين على تضعيفه ، ولا نطيل فى ذلك ، ويكفينا قول البيهقى وأمثاله من أئمة الحديث فضلًا عن تلك الحجج العقلية ، وأما قول من قال إنه تكلم بذلك ساهيًا أو ناعسًا فيرده ما قرروه فى علم النفس من أن الإنسان لا يتكلم حال عدم الشعور إلا بما يكون مستقرًا فى نفسه ، منتقشًا فى قلبه مستوليًا على لبه ، فيظهر حينئذ على لسانه من غير قصد ولا روية . وهل يمكن أحدًا أن يقول إن مدح الأصنام كان فى نفسه صلى الله عليه وسلم حتى يظهر على لسانه ساهيًا أو ناعسًا ؟ اللهم إن ذلك غير معقول ولا مقبول !

تفسير الآية على سبيل الاجمال :

المراد من الآية على سبيل الاختصار أن الله تعالى ما أرسل رسولًا من الرسل ولا بعث نبيًّا من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول

(١) سورة الحج ، الآية ٥٢

يتمنى الإيمان لأمته ، ويحبه لهم ويرغب فيه ، ويحرص عليه كل الحرص ، ويعالجهم عليه أشد المعالجة ، وفى جملتهم نبينا صلى الله عليه وسلم الذى قال له الرب سبحانه وتعالى : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)(١) وقال تعالى : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)(٢) وقال تعالى : (أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)(٣) وقال : (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)(٤) إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى .

ثم الأمة تختلف كما قال تعالى : (وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ)(٥) فأما من كفر فقد ألقى الشيطان فى نفسه الوساوس القادحة فى الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضًا لا يخلو من وساوس ، لأنها لازمة للإيمان بالغيب فى الغالب ، وإن كانت تختلف فى الناس بالشدة والضعف ، والقلة والكثرة ، فمعنى (تمنى) : أنه يتمنى الإيمان لأمته ، ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح ، فهذه أمنية كل رسول ونبى ، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه فى قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم ، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ، ويحكم فيهم الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ، ويبقى ذلك عز وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به .

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٦
(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٣
(٣) سورة يونس ، الآية ٩٩
(٤) سورة فاطر ، الآية ٨
(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٥٣

فتحصل من هذا أن الوساوس تلقى أولًا فى قلوب الفريقين معًا ، غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين .

وصفوة القول : أن التفسير الصحيح لهذه الآية هو الذى يجمع بين أمور ثلاثة : العموم الذى فى أولها ، والتعليل الذى فى آخرها من قوله تعالى : (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ)(١) (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ)(٢) ، مع كونه يعطى للرسالة حقها .

وقد سمعت القول الفاصل فى ذلك ؛ وليس يخفى عليك ما سواه ، والله يتولى هدانا جميعًا بمنه وكرمه .

---

(١) سورة الحج ، الآية ٥٣
(٢) سورة الحج ، الآية ٥٤

إنَّ اللهَ لا يستحيي مِنَ الحق (١)

صاحب المنار يخطىء فى المعقول
ويدلس فى المنقول واليك البرهان

أما خطؤه فى المعقول فيكفى فى إثباته ما ادعاه فى تفسيره من أن الملائكة هى القوى الطبيعية كالحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيسية والجاذبية « ولعلها من الملائكة المقربين » وقد نقل ذلك عن بعض المفسرين ، وإنى أتحداه أن يذكر لنا ذلك المفسر ، ولو سلمنا صحة ذلك النقل « مع قطعنا بكذبه » لكان تسليمه إياه وعدم تعليقه عليه التزاماً لصحته . بل الأمر لم يقتصر على هذا فإنه حبذه غاية التحبيذ ورد على مخالفيه القائلين إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكيل .

واستدل على عدم وجود الملائكة بأنك لاتحدد أمكنتهم ولا تعرف مساكنهم ولا ترى من يكون منهم على يمينك ومن يكون منهم على شمالك وإنهم لا ينيرون لك فى الظلام ، إلى آخر ما تهكم به على القائلين بأنهم أجسام نورانية ، وقد قلنا له إن عدم رؤية الشىء لايدل على عدم وجوده ، ولو كان عدم رؤية الشىء دليلا على عدم وجوده ماكان هناك من يؤمن بالله عز وجل فإنه لم يره أحد .

(١) مجلة الإسلام — السنة الثانية — العدد العشرون — جمادى الأولى — سنة ١٣٥٢

وهناك فرق كبير بين عدم الدليل على الشىء والدليل على عدمه ، مع أن قول المعصوم عندنا هو أكبر دليل ، وما معنى الإيمان بالغيب إذا كنا لا نؤمن إلا بما رأينا .

وما الفرق إذًا بيننا وبين الماديين ، وقد قلنا له : إن هذا الاستدلال مخجل لأهل المنطق ولو لم يكونوا أهل الدين ، وقد تخيل أن فى هذه القوى إدراكاً وشعوراً وإن لم يكن من جنس إدراكنا وشعورنا . ولكن لايسهل عليه أن يقول مثل ذلك فى سجود الشمس لله تعالى كما فى الحديث ، إلى كلام طويل عريض له مقال خاص إن شاء الله .

أما ما يقوله الماديون ويلهج به الأوربيون فهو على العين والرأس لا يقبل ردًا ولا تأويلا .

بل يؤول له صريح القرآن ليقال إنه عصرى ومجدد .

ثم يزعم بعد ذلك أنه أراد بذلك هداية الماديين .

وما أدرى أهذا هداية للماديين أم ضلال للمسلمين وفتنة للجاهلين ؟ « فقد أراد أن يأخذهم فأخذوه وأن يهديهم فأضلوه » .

وقد قلنا له أى فرق بينك وقد تخيلت فى هذه القوى الطبيعية شعورا وإدراكاً وبين ذلك الملحد الذى تخيل فى الأثير مثل ما تخيلت حيث يقول :

فلعل الأثير خير سميع   ولعل الأثير خير بصير
ولعل الأثير خير إلَه   ولعل الأثير خير نصير

ومن العجيب أنه يرمى غيره بالجمود ولا أدرى من الجامد ، أذلك الذى يقول إن العوالم كثيرة لا يعلمها إلا الله (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)(١) وأن العلم لا غاية له (وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)(٢) « ولذلك أمرنا أن نؤمن بالغيب ولا نقتصر على الحس » أم ذلك الذى لا يعرف إلا المحسوس ولا يمكنه أن يخرج من تلك الدائرة الضيقة التى يشاركه فيها الحيوان الأعجم الذى لا يؤمن إلا بما وقع عليه بصره وأدركه حسه .

وقد دافع الشيخ رشيد عن نفسه بأنه وافق المسلمين فى أن الملائكة عالم نورانى مستقل فى موضع آخر غير تفسير البقرة ، ولم يدر أن هذا معناه أنه متخبط أو متلون .

يوافق المسلمين فى موضع والماديين فى موضع آخر ، ولكن :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا   فلا يسع المضطر إلا ركوبها

وقد طال بنا القول فى هذا على غير قصد منا . وعسى أن يتبين به مقدار منطق الشيخ ونبوغه فى صناعة الاستدلال والبرهان .

وأما تدليسه فى النقل وعدم تحريه فيه فقد قال فى (منار ذى الحجة سنة ١٣٥٠ هـ) إن حديث توسل آدم عليه السلام بنبينا صلى الله عليه وسلم قد ذكره القاضى عياض فى الباب الأول من الجزء الأول من الشفاء ، فرجعنا إليه فلم نجد لذلك أثرا ولا خبرا وأمامك (المنار) المذكور فارجع إليه ، ثم إلى كتاب الشفاء فى الباب المذكور .

(١) سورة المدثر الآية ١٣
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

وقال فى الجزء الأول من المجلد الثانى والثلاثين من المنار أن ابن حزم توفى فى القرن السادس ، مع أنه توفى سنة ٤٥٦ هـ . أى فى منتصف الخامس تقريباً .

وقال ردا على الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الرحمن الجمجمونى عندما اعترض عليه فى التشنيع على كعب الأحبار وقال له : إن البخارى وغيره يروون عنه . فكتب عبارته هذه فى (الجزء الأول من المجلد السادس والعشرين بصحيفة ٧٣) ثم رد عليها وأراد أن يلبس على القراء بأن البخارى لم يرو عن كعب الأحبار فقال فى صحيفة ٧٧ ما نصه : « وقد صرح الحافظ الذهبى فى الطبقات ، بأنه ليس له شىء فى صحيح البخارى وغيره » وأنت إذا راجعت « طبقات الحفاظ للذهبى » وجدت ترجمة كعب الأحبار بالجزء الأول بصحيفة ٤٥ وفيها مانصه حرفياً : (وله — أى كعب الأحبار — شىء فى صحيح البخارى وغيره) . فانظر كيف دس فى كلام الذهبى كلمة (ليس) لتقلب الكلام من الإثبات إلى النفى . فهل رأيت فى أمانة النقل أعظم من هذه الأمانة التى تقلب الشىء إلى ضده ؟

وقد كان يظن أن « طبقات الحفاظ للذهبى » لا توجد عند كثير من الناس ، فلما عرف أن الأمر قد اتضح وأن تلبيسه هذا قد عرف وهدد بنشر ذلك فى الجرائد خاف أن يفتضح أمره ويظهر سره ، فاعتذر اعتذارا غير مفهوم ولا معقول فى قصة يطول شرحها ولعلنا نعود إليها .

وفى الجزء الثانى من المجلد ٣٣ استشهد على رأيه فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذان بعبارة المقريزى الذى أنكر على الطبندى الذى كان محتسباً بمصر .

وقد كان من الأمانة أن يبين أن هذا الإنكار من المقريزى كان سببه المنافسة التى كانت بينه وبين الطبندى فى وظيفة الحسبة . إذا كان المقريزى يرى أن الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم بدعة مذمومة فما باله لم يأمر بإبطالها وقد كان بيده الأمر عندما عاد لوظيفة الحسبة مرارا لغاية سنة ٨١٠ ، ولو كان الأمر على غير هذا ولم يأمر بإبطالها عندما كان محتسباً مع كونه يعتقد أنها منكر لكان ملوماً أكثر من الطبندى الذى أمر بها وهو يعتقد أنها غير منهى عنها ، وكان عليه أن يذكر مع ذلك أنه كان فى ذلك العصر من كبار العلماء من تعنو لهم الوجوه مثل البلقينى المتوفى ٨٠٥ وقد كان ممن بلغ درجة الاجتهاد على ما يقول السيوطى وغيره ومثل الحافظ العراقى وتلميذه الحافظ ابن حجر العسقلانى وغيرهم ، لم ينقل عنهم أنهم أنكروا ذلك ولو كان منكرا ما أقروه ولا سكتوا عليه خصوصاً البلقينى فإنه كان مسموع الكلمة وكان يحضر مجالس تولية السلاطين كما فى « حسن المحاضرة ». فكان مقتضى الأمانة أن يذكر ذلك كله ولا يكتم من الحقيقة شيئاً .

وبعد هذا كله فكتب الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة بين أيدينا وأقوالهم معروفة فضلا عن الأدلة الواضحة التى ذكرنا كثيرا

منها فى مجلة الأزهر ولو فرضنا أن هناك خلافاً لم يكن هناك وجه للإنكار على فاعليها فإن المنكر لا ينكر على فاعله إلا إذا كان مجمعاً على إنكاره ، ولكنهم بهت لا يطلبون الحق ولا يستطيعون الإنصاف ، وسترى بعد هذا من أمانتهم وعقليتهم ما يضحك الثكلى ويبكى الحليم. وسنحاكمهم أمام العقل والنقل . وإن كان القوم يخطئون فى المعقول ويدلسون فى المنقول . وسترى من ذلك شيئا كثيرا إن شاء الله .

تعليقات :

تعالوا نتحاكم إلى العقل والمنطق [1]

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعيــاءُ

إلى جميع المسلمين شرقاً وغرباً :

نريد أن نبين جلية الحق للقراء فيما كان بيننا وبين الشيخ رشيد مما لعلهم عرفوا مداه ، أو سمعوا صداه (وليعلم الشيخ رشيد أننا فى أول المعركة) إن صاحب (المنار) قرر فى تفسير قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [2] من سورة البقرة صحيفة ٢٦٧ جزء أول من تفسير (المنار) أن (الملائكة عبارة عن القوى الطبيعية) وستسمع ذلك بغاية التفصيل، فشنعنا عليه فى (مجلة الأزهر) الصادرة فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣٥١ بأن ذلك يخرق الإجماع، ويصادم الكتاب والسنة مع شنائع أُخرى نأتى عليها بعد. فقامت قيامة الشيخ رشيد وملأ الدنيا صراخاً وعويلا وكتب فى ذلك كثيرا — وكثيرا جدا كما يقولون — وقد شتم كثيرا واقذع كثيرا ولكن لا يهمنا ذلك . فكم شتمت (الحمارة) الأُستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بل كم قالوا فى رسول الله

(١) مجلة الإسلام — السنة الأولى — العدد ٥٠ — شوال — سنة ١٣٥١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٣٠

صلى الله عليه وسلم . (سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) [1] وما أحسن قول من قال :

ما كل شىءٍ له جــواب جــواب ما يكره السكوت

ونحن نلخص لك ما كتب تلخيصاً وجيزا ، ثم نرد عليه فنقول :

يلمس القارئُ من كتابات الشيخ المتضاربة التى يقول فيها بعضهم : أنا لا أدرى أيريد الشيخ من كتاباته الطويلة التى توجب الدوار أن يثبت أم يريد أن ينفى ؟ نقول يلمس القارئُ من تلك الكتابات أنه فى حيرة شديدة وارتباك بالغ ،ولا بد للمرتبك أن يتذبذب هنا وهناك . ولا يثبت على حال واحد . (والمبطل لابد أن يتناقض شاءَ أم أبى) .

وحاصل تلك الكتابات على ما فيها من طول وفضول أجوبة ثلاثة ، وأظن الشيخ لا يحس بذلك أو لا يعرفه .

(الجواب الأول) يريد إثبات افترائنا عليه وكذبنا فيما رميناه به من أنه ذكر ذلك فى سورة البقرة فيجيب عنه بأنه ذكر فى سورة النساءِ ، أن الملائكة عالم غيبى مستقل . فهل يرى أحد شم رائحة العلم أن ذلك يثبت افتراءنا عليه وأى علاقة بين هذا البرهان وتلك الدعوى؟ وسترى من ذلك شيئاً كثيرا . وقد قلنا إن هذا أشبه شىءٍ بمن ضبط متلبسا بجريمة السرقة فأخذ يدافع عن نفسه بأنه تبرع بكذا وكذا لبعض الجمعيات الخيرية . ومن الذى يبلغ الشيخ أن هذا فرار من الجواب لا تقرير له أو نقول إن هذا مثبت للتهمة لا ناف لها.

فهو إلى الآن لم يجب عما اتهمناه به بحرف واحد . وأين سورة البقرة من سورة النساءِ؟ولكن الشيخ يستدل بالجزئى على الكلى

(١) سورة الاحزاب الآية ٦٢

أو بالشىء على ما يباينه عكس ما يوجبه المنطق الصحيح . فهو يقول : سورة النساء ليس فيها إلا عقيدة المسلمين وإذن فكل سورة كذلك. أفلا تعجب من هذا المنطق القلمونى (١) .

(الجواب الثانى) إنه يتحكك بشيخنا وشيخه الشيخ محمد عبده وكان يجب عليه أن يقية بنفسه من ذلك الذى يقول فيه إنه كفر رميناه به . ونقول له بعد ذلك (والله لا يستحى من الحق) (والتصريح لابد منه فى هذا المقام مقام المحاكمة) إننا لا نصدق نقلك ولا نثق بفهمك

وقد أخبرنى بعض كبار الشيوخ أنه كان يحرف فى النقل ويخطىء فى الفهم . وكان الأستاذ الإمام يتألم من ذلك كثيرا . ولكن لأمر ما كان يعطف عليه . ثم نقول : إن المسألة من أصول الدين ولا ينبغى أن يكون الحكم فيها لغير الدليل والبرهان ، والشيخ رشيد يتمدح دائماً بالاستقلال ويكثر من ذكر الأحرار المستقلين فى المفهم. فما باله لا يرى لنفسه وجوداً الآن .

لا يستوى الخصلتان الجبن والصلف   بغياً وجبناً وإسفافاً وثرثرة

وقد قالوا قديماً : « كن ممن يعرف الرجال بالحق ولاتكن ممن يعرف الحق بالرجال » وبعد هذا كله فلماذا لم يعلق عليه إذا كان غير صحيح فى نظره ؟ بل أقره وحبذه . أليس هـذا غشا للمسلمين أو سلوكا لطريق المبشرين ؟ ولا بأس أن نقول لصاحب المنار (ولا أدرى أيعرفه أم لا) ما قاله علماء البحث والمناظرة أنه متى التزم صحة المنقول كان قائلا به . ومتى كان قائلا به كان محاسباً عليه . فليختر ما شاء من

(١) القلمون : من أعمال طرابلس الشام ، على ماق (الأعلام للأستاذ الزركلى رحمه الله).

جواب المنع وجواب التسليم ، ولعله يفهم هذا . وقد رجوناه مرارا ورجونا القراء أن يرجوه معنا فى ألا يتحكك بالأستاذ الإمام فإن ذلك لا ينفعه ولا يفيده . ولا نعرف للأستاذ الإمام شيئاً صحت نسبته إليه فى التفسير غير جزء (عم) أما ما عدا ذلك فهو بنقل الشيخ رشيد وهو غير مأمون عندنا لا فى النقل ولا فى الفهم .

(الجواب الثالث) إنكاره ما نسبناه إليه وادعاؤه أننا افترينا عليه وهو موضوع اليوم . وستعرف جلية الحق فيما نتلوه عليك . وأرجو ألا تسأم فقد جعلتك قاضياً فيجب أن تدرس القضية درساً يمكنك من الحكم الصحيح وإنى أعجب له كيف ينكر ما يمكن القارىء أن يطلع عليه فيراه بعينيه ويلمسه بيديه ؟ ولكن :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا   فلا يسع المضطر إلا ركوبها

وإليك بيان ذلك . يقول الشيخ رشيد تمهيدا لما يريد فى تفسير قوله تعالى «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (١). إلخ : إن القصة التى وردت فى هذه الآيات من باب المتشابه فإما أن يلتزم التفويض كما هو مذهب السلف . أو التأويل كما هو مذهب الخلف . ثم نقل عن بعض المفسرين (ولا ندرى) من هو ولعله من الباطنية إن صح أن يكون له وجود) إن القصة من باب التمثيل . وأن المراد من الملائكة القوى الطبيعية . وأطال فى ذلك جداً (من صحيفة ٢٦٧ إلى ٢٧٥ من الجزء الأول من تفسير المنار) ثم حبذ ذلك غاية التحبيذ ، وأورد شبها كثيرة على اعتقاد أن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل . وستسمع شيئاً من ذلك ، ثم قرب ما يقول بما استطاع من التقريب.

(١) سورة البقرة الآية ٣٠

فمن ذلك تسميته تلك القوى الطبيعية أرواحاً وأن الإنسان قد يتخيل فيها حياة وشعورًا . وإذا كانت كذلك فلا مانع من تسميتها ملائكة . ويقول العاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات فما يسميه الماديون قوى طبيعية هو ما يسميه غيرهم ملائكة . وقد عبر القرآن عنها بالملائكة موافقة لما كانوا يسمعونه من آبائهم الأقدمين .ويقول إن المراد من سجود تلك الملائكة لادم عليه السلام هو تسخيرها له وانقيادها لطاعته . وأن المراد من إبليس هو تلك القوة الشريرة المودعة فى نفوسنا التى لا يمكننا إخضاعها وتذليلها . إلى كلام طويل يجب أن يكون فى رسالة خاصة مع بيان ما فيه .

وله فى قصة آدم وجنته ما يقرب من ذلك حيث يقول (فى صحيفة ٢٨١ إلى آخر ٢٨٣ من الجزء المذكور) إنه يصح أن تكون قصة تمثيلية وأن المراد من آدم هو الفرع الإنسانى كله . وأن المراد من الجنة هو دور الطفولة ، الذى لا تعب فيه ولا نصب ولا هم ولا غم ، إلى آخر ما يجعله قصة خيالية ليس لاشخاصها وجود فى الخارج . على نحو مافعل الباطنية والبابية فى القرآن حتى مرقوا من الدين كله بتلك التأويلات الفاسدة التى لا يصح أن تكون كلامنا فضلا عن كلام الله تعالى ، أو نقول : على نحو ما فعل أبو زيد الذى كان يرد عليه الشيخ رشيد ويسميه ملحد دمنهور ولوجوزنا هذ التأويلات فى مخاطباتنا ومعاملاتنا لفسد العالم كله .

ولنسق لك شيئاً من عباراته بنصها ثم نعلق عليها (مناقشة فى كلامه) ؛ يقول فى الرد على المنكرين عليه إن الملائكة هى القوى

الطبيعية ما نصه : (لا أعرف ما الذى فهموه من لفظ روح أو ملك وما الذى يتخيلونه من لفظ قوة) ثم قال : (أوليست القوة هى ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له فإذا سمى الروح لظهور أثره قوة أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحاً فهل يضر ذلك بالدين أو ينقص معتقده شيئاً من اليقين) هذا كلامه . (وأقول أولا : لا أدرى كيف يذكر ذلك لبيان براءته مع أنها تثبت التهمة عليه غاية الإثبات . ولعله أراد أن يكون مادياً صريحاً بالبرهان الذى يبرر ماديته ؛ ثم نقول ليس الكلام فى تسميته تلك القوة روحاً للطافتها أو خفاء حقيقتها إلخ ؛ فالأسماء لا حجر فيها ولا مشاحة فى أن يصطلح كل إنسان على ماشاء ، ولكن الكلام فى أن هذا المراد من الملائكة التى ذكرها القرآن ، وقال إنها سجدت لآدم إلا إبليس وأنها حاورت ربها وأن هؤلاء الملائكة هم الذين قال لهم الله (إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُون)[1] وأن آدم قال لهم (أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[2] إلخ . إلخ .

فالذى نعتقده أنها ذوات عاقلة يتأتى منها السجود والحوار والتعليم والتعلم إلى غير ذلك ، ونعتقد أنها ليست جزءا من المادة الصماء ، البكماء ، العمياء . ولا قوة منطبعة فيها . ومن اعتقد ذلك لم يكن مؤمنا بالملائكة التى آمن بها المسلمون . ثم أراد أن يشكك الناس فيما يعتقدونه من أمر الملائكة فقال : (ولو أن مسكينا من عبدة الألفاظ من أشدهم ذكاء وأذربهم لسانا أخذ بما قيل له إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معنى نورانية الأجسام وهل

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠
(٢) سورة البقرة ، الآية ٣١

النور وحده له قوام يكون به شخصا ممتازا بدون أن يقوم بجرم آخر . ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء ، وما معنى قابلية التشكل ؟ وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب فى أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد ؟ وكيف يكون ذلك ألا يقع فى حيرة . ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث فى لسانه من العقد ما لا يستطيع حله .

وقال فى ذيل الصحيفة فى قولهم إنها أجسام نورانية : هذا هو التعريف المشهور فى كتب الكلام وغيرها . وأول ما يعترض به عليه أنه لا يصح فيه معنى الجسم فى اللغة ولكنه صار مألوفا وإن لم يكن مفهوما اه .

فانظر إلى هذه الصرائح ثم إلى إنكاره لتعجب كثيرا ، ثم نقول : إن القرآن نطق بأن الملائكة تتشكل كما قال العلماء . قال عز وجل فى قصة مريم : (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[1] وجاءت له السنة الصحيحة : ففى الحديث المتفق عليه فى بيان صفة الوحى : أن الملك كان يتمثل له صلى الله عليه وسلم رجلا فيكلمه فيعى ما يقول . وفيه أيضًا أنه كان يجيئه فى صورة دحية الكلبى ، وقد جاءه فى صورة أعرابى فى حديث الإيمان والإسلام والإحسان . وفى الصحيح أيضًا أنه رآه على كرسى بين السماء والأرض ، وفيه أنه رآه قد سد الأفق . فكيف غاب ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه عن محدثنا الكبير الشيخ رشيد ؟

(١) سورة مريم ، الآية ١٧

ومن العجيب قوله : (وهل النور وحده له قوام يكون به ممتازًا . . . إلخ) فإننا لم نقل إنه نور كهذا النور الذى نشاهده . وإنما قلنا إنه نورانى . وشتان ما بين العبارتين ومن الذى ينكر أن فى الاجسام ما هو ظلمانى ونورانى . ولطيف وكثيف . ومعتم ومشع . وهل يستطيع أحد أن يسوى بين الراديوم والفسفور أو الأكسجين وبين غيرها . فلو فرضنا أن الله خلق من الراديوم أو الفسفور أو الكهرباء مخلوقًا كما خلق الجن من النار ، أفلا يكون نورانيًا ممتازًا عن غيره وقد كانوا يقولون إن العناصر أربعة لكل منها أحكام خاصة تباين أحكام غيره ، وقد أصبحوا يقولون إنها نحو الثمانين . وبالضرورة لكل واحد منها ظواهر تباين ظواهر الآخر وما يدرينا أنها عند الله ألوف مؤلفة ولكل واحد منها ظواهر تخصه . وهل هذا إلا حصر لمقدورات الله تعالى التى لا تتناهى فيما عرفنا ، على أن ذلك غير صحيح بالنسبة إلى ما عرفنا أيضًا كما قلنا . هذا وقد قال كثير من العلماء إن الله يخلق الذوات من المعانى وهو على كل شيء قدير .

وقد خلق الأشياء من العدم وأخرج الضد من الضد مستندين فى ذلك إلى ما ورد من وزن الأعمال وذبح الموت بين الجنة والنار ومجيء سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان تحاجان عن صاحبهما . ومن قيام الأمانة والرحم على جانبى الصراط يمنة ويسرة ، وكل ذلك فى الأحاديث الصحيحة . وقد جاء فى السنة من ذلك شيء كثير : (كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[1]

(١) سورة آل عمران ، الآية ٤٧

فما معنى تلك الطنطنة وهاتيك الجعجعة ؟ وأما قوله إن كون الملك جسمًا غير مفهوم فهو غير مفهوم ، فما المانع من أن الله يركبه من عناصر لطيفة نورانية كما قلنا أو يخلقه من عنصر واحد بسيط ، وأى مانع فى العقل يمنع من ذلك .

ولا بأس أن نتمم هذا الموضوع بما نقل عن علماء الأرواح مما يزيل استبعاد تشكل الملك . فقد سألوا الأرواح أو الجن التى يستحضرونها عن ملابسها وصورها التى تظهر بها من أين تأخذها فأجابت أنها تأخذها من الأثير الذى هو مالئ الكون كله فبواسطته يمكنها أن تظهر بكل مظهر وتتشكل بكل شكل ومن العار أن يعترف علماء الاسبرتزم (استحضار الأرواح) بذلك ويعرفوه ويؤمنوا به ونحن هنا ننكره . وقد جاء فى كتابنا وسنة نبينا بل لم يتم الوحى الذى هو أصل الدين كله إلا به ؛ وأما ما يقرره الفلاسفة من أنها جواهر مجردة فلا يفهمه الشيخ — ولا بالتفهيم فلا نفيض فيه .

وبعد هذا فما لنا ولمعرفة كنه الأشياء وحقائقها ؟ فليس النزاع فى ذلك وإنما النزاع فى وجود شىء خارج عن المادة وقواها يسمى ملائكة وفى أن الإيمان بكل ما فى المادة من خصائصها وظواهرها لا يعد إيمانًا بالملائكة التى أرادها الله . ولا ينبغى أن يروغ الشيخ عن محل النزاع إلى هنا وهناك فإن الأمر معروض على الخاصة لا على العامة . وهل الجهل بكنه الملائكة يدعو إلى ذلك كله ؟

أم الحق أنها أهواء معها براعة فى التلبيس ونبوغ فى التدليس ومع هذا فالشيخ يدعى أنه سلفى لا يرى غير مذهب السلف الذين

يفوضون ولا يؤولون . ولكن المبطل لا بد أن يفتضح أمره ويظهر سره مهما حاول كتمانه أو نمق بيانه .

وليعلم بعد هذا أننا لم ندرك كنه أنفسنا بل ولا كنه شىء من الأشياء التى يقع عليها حسنا وإنما نعرف منها ظواهرها لا غير — وأما حقيقتها وكنهها ولماذا كانت تلك الظواهر وكيف تكونت هذه الأشياء وما أوائلها فلا سبيل إلى معرفته . وقد نقلنا ذلك عن أساطين علم الطبيعة بأوروبة فى مقالاتنا التى رددنا بها على الطبيعيين فى مجلة الأزهر من سنتها الأولى ، خصوصًا العدد الثانى من تلك السنة ، فليس الجهل بالكنه خاصًا بالملائكة؛ بل هو عام فى كل شىء . وبعد هذا فلو كان الإيمان متوقفًا على معرفة الكنه لم يكن أحد مؤمنًا بالله عز وجل.

ثم قال مفرعًا على ما ذكره من تلك التشكيكات : (فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذى وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة) ونقول له إنها علوم بلغت عندنا أعلى مراتب اليقين ولله الحمد . وما ذكرته من الشبه هو أوهى من بيت العنكبوت .

ثم نقول لك ولمن هو على مذهبك : ارجعوا إلى أنفسكم فإن الذى وقر فيها هو مذهب الماديين لا مذهب المسلمين . فإن الله لا يريد أن نؤمن بتلك القوى التى نعرفها فى المادة ولو كان الأمر على ما زعمتم لكان الماديون أرسخ قدمًا منا فى الإيمان بالملائكة ، وليت شعرى ما فائدة ذلك العناء فإنى أراه عبثًا صرفًا لا ينفعنا ولا ينفع الماديين فإن ذلك غير كاف فى الإيمان بالملائكة .

والحقيقة أنكم وافقتم الماديين ولم يوافقوكم وأردتم أن تأخذوهم فأخذوكم .

أسأل الله ألا يجعلنا ممن كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ولا ممن ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا . ولا ممن يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وموعدنا ببقية التعليقات المقال الآتى وسترى فيه أعجب من هذا .

تفسير قوله تعالى :
إِنَّ فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين (١)
(بيان بعض آيات الله فى مخلوقاته)

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إِنَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (٢)

اعلم أن الله أمرنا بالتفكر فى مخلوقاته وما أودعه فيها من الأسرار الناطقة بوحدانيته وعظيم قدرته وبديع حكمته ، وذكر لنا نماذج من تلك الآيات فى كتابه العزيز فقال : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (٣) وقال : (وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) (٤) وقال : (وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ) (٥) (وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) (٦) .

وقد قال بعض فلاسفة الأوربيين : « يكفينى فى الدلالة على الله وإبطال قول الماديين وجود الأنثى بجانب الذكر ، فمن الذى أشعر المادة الصماء العمياء أن بقاء نوع الإنسان يتوقف على وجود المرأة بجانب

---

(١) مجلة الازهر – الجزء الثانى – المجلد الخامس – سنة ١٣٥٣
(٢) سورة الجاثية ، الآية ٣ ، ٤ (٣) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠
(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٧
(٥) سورة الروم ، الآية ٢٠ . (٦) سورة الروم ، الآية ٢١

الرجل ، فأوجدت له الأنثى ومتعتها بكل ما يوجب ميل النفس إليها ، وفرقت بينها وبينه فى الخصائص والمميزات حتى فى صوتها ؟ إلخ » .

وقال تعالى : (وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)(١) (وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِن فَضْلِهِ)(٢) (وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)(٣) (وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)(٤) وقال تعالى : (وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(٥) وقال : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ . مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)(٦) وقال عز من قائل : (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعلوم . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ)(٧) . وقال : (أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)(٨) وقال : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِىٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)(٩) وقال : (أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ)(١٠)

(١) سورة الروم ، الآية ٢٢ (٢) سورة الروم ، الآية ٢٣
(٣) سورة الروم الآية ٢٤
(٤) سورة الروم ، الآية ٢٥ (٥) سورة الذاريات ، الآية ٢١
(٦) سورة عبس ، الآية ١٧ ، ٢١ ، ١٩
(٧) سورة المرسلات ، الآيات ٢٠ ،٢١ ،٢٢ ،٢٣ (٨) سورة يس ، الآية ٧٧
(٩) سورة القيامة ، الآيات ٣٦ ،٣٧ ،٣٨ ،٣٩ (١٠) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥

وقال : (هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)(٣) . وقال : (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)(٢) وقال : (وَكَأَيِّن مِنْ ءَايَةٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)(٣) . إلى آخر ما جاء فى الكتاب العزيز مما لا يكاد يحصى .

وقد روى : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . بل جاء فى بعض الروايات : « خير من ستين سنة » . وفى بعضها « خير من ثمانين سنة » . ولكنها قد تكلم فيها وهى صحيحة المعنى .

فرب فكرة توصلك من محض الإيمان وصريح الإيقان ، وتعرفك من عظمة الله وجلاله مالا تنفع فيه عبادة السنين المتطاولة ولا الجهود الشاقة . وأنى لعبادة الظواهر أن تصل من تطهير القلوب إلى ما تصل إليه الفكرة فى بديع صنع الله الذى يملأ قلبك هيبة وخشوعاً وسرك عظمة وإجلالا .

وعن عطاء ابن أبى رباح قال : « انطلقت أنا وعبيد بن عمير بن قتادة الليثى قاضى أهل مكة إلى عائشة رضى الله عنها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زر غبًّا تزدد حبًّا » قال ابن عمير : فاخبرينا

(١) سورة الزمر ، الآية ٩
(٢) سورة المجادلة ، الآية ١١
(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

بأعجب شىء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فبكت وقالت : « كل أمره كان عجباً : أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى، ثم قال : ذرينى أتعبد لربى عز وجل ، فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلى ، فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال : يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : وَيْحَكَ يابِلَالُ وما يمنعنى أنْ أبكى وقد أنزل الله علىّ فى هذه الليلة (إنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لَآيَاتٍ لِأُولى الأَلْبابِ) [1] ثم قال : « وَيْلٌ لِمنْ قَرَأها ولَمْ يتفكَّرْ فِيها » .

رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وابن أبى الدنيا فى التفكر وابن عساكر ، كلهم عن عطاء .

وفى بعض الروايات « ثم قام فصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة » ويعجبنى كثيراً قول من قال :

تبصر حيث كان لك التبصر ... وفى ذات الإله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر ... تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠

إلى أن قال :

شموس فى البرية طالعات ... نجوم فى الدياجى مشرقات
عيون من لجين شاخصات ... على قضيب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وكان سفيان الثورى كثيراً ما ينشد :

إذا المرء كانت له فكرة ... ففى كل شىء له عبرة

وليست دلائل الوحدانية وآيات القدرة مختصة بشىء دون شىء ، بل هى فى الصغير كما هى فى الكبير ، وفى الحيوان كما هى فى الإنسان ، وفى البر كما هى فى البحر ، وفى الأرض كما هى فى السماء ، ولله در أبى العتاهية حيث يقول :

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

ويقول أمية بن أبى الصلت :

هاج لقلب من هواه أدكار ... وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات ... وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى كل فج ... مشرقات وفى الدجى أقمار

إلى أن قال :

والذى قد ذكرت دل على الله ... نفوساً لها هدى واعتبار

وقبل الخوض فى تفاصيل بعض الجزئيات نذكر كلمة وجيزة عن سعة الكون وعظمته فنقول :

كنا نقول فيما رويناه عن سلفنا الصالح أن الأرض بالنسبة إلى السماء الأولى كحلقة ملقاة فى فلاة ، والسماء الأولى بالنسبة إلى الثانية كحلقة ملقاة فى فلاة ، وهكذا إلى أن نقول : إن السموات السبع بالنسبة إلى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة ، وكذلك نسبة هذه العوالم كلها إلى العرش .

ونقول عند الرفع من الركوع : « ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات وملء الأرض وملء بينهما وملء ماشئت من شيء بعد » ؛

فاسمع الآن مايقوله أرباب العلوم الحديثة الذين لا يروون عن رسول ولا يقولون بالروايات والأخبار ، ولكن بالمشاهدات التى أوصلتهم إليها آلاتهم الحديثة مثل التلسكوب « المنظار المقرب » والشعاع الطيفى الذى جعل ما كان مغيباً خفيًّا مشاهداً محسوساً .

وقد اصطلحنا فى بيان المسافات البعيدة على ذلك المقياس الذى نعرفه فى عباراتنا العصرية أعنى الكيلو متر ، ولكنهم رأوا أن ذلك المقياس ضئيل جداً لا يغنى فتيلاً فى موضوع بيان سعة العوالم وبيان أبعادها . فماذا جعلوا من المقاييس ؟ جعلوا المقياس لذلك شيئاً يسمى برسكا ، وما البرسك ؟

هو مقدار سير النور مدة ثلاث سنوات وسدس ، وما مقدار ما يسيره النور فى سنة ؟ أو نقول : وما هى السنة النورية ؟ .

السنة النورية أمر يفوق الوصف ولا يكاد يصدقه العقل ، فإن النور يسير فى الثانية ٣٠٠ ألف كيلومتر . وإياك أن تقول أن ذلك فى الدقيقة وإنما هو فى الثانية التى هى جزء من ستين جزءاً من الدقيقة . فما بالك إذا جرى سنة ثم ثلاث سنين وسدس ، وهو ما جعلناه مقياساً . فانظر الآن ما يكتبونه عن بعض السدم البعيدة عنا .

يقولون إن سديم (ماجلون) يبعد عن الأرض ٣٥ ألف برسك ، أى نحو ١١٠ ألف سنة نورية ، وإن السدم التى تمكن العلم من قياسها هى كما يأتى :

١ — ستة سدم تبعد عنا ٦٥ برسكا ، أى نحو ٢٠٧ سنة إذا سرنا إليها بسرعة النور .

٢ — ثلاثة نجوم سديمية معروفة باسم (نوفا) تبعد عنا ١٧٥ برسكا ، أى نحو ٤٣٥ سنة نورية .

٣ — خمسون سديماً مظلماً ونيراً تبعد عنا ٣٢٠ برسكا أى نحو ١٠١٤ سنة نورية .

٤ — سبعون سديماً تبعد عنا ٩٠٠ برسكا . وندع الحساب إليك فلا نطيل به .

٥ — تسعة وستون سديماً تبعد عنا ٢٣ ألف برسك .

٦ – سديمان حلزونيان على بعد ٢٠٠ ألف برسك .

وهذا البيان مأخوذ من تقرير رفع إلى أكاديمية العلوم بفرنسا فى شهر مارس سنة ١٩٢٣ .

وقد قال بعضهم عندما أدهشته سعة العوالم : إن هذه العوالم لا نهاية لها . وقد وقفت آلاتهم الحديثة على عظمتها وشدة التفنن فيها أثناء تلك العوالم ولا يدرون ماوراء ما اكتشفوه . ألا يعرفنا ذلك صغرنا وضآلة أمرنا ويفهمنا معنى قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)[١] وقوله : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)[٢] وَقَوْلُهُ : (وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ)[٣] . وقوله صلى الله عليه وسلم « سبحانك لانحصى ثناءً عليك أنت كما أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » .

ويعجبنى قول اللورد (أُوفبرى) الإنجليزى فى كتابه (محاسن الطبيعة) عندما ذكر شيئاً من سعة العوالم التى لا تكاد تتناهى : « فليكسر الحسّاب أقلامهم وليطووا أوراقهم ، فإن الأمر فوق العد والحساب .

وقد ذكروا أن أرضنا هذه أصغر من الشمس بألف وأربعمائة مرة . وذكروا أن الشعرى أضوأ من شمسنا هذه بنحو خمسين مرة ، وأن بنات نعش أضوأ منها بنحو ثلاثمائة مرة ، وأن السماكين أضوأ منها بنحو ستمائة مرة ، ولكن بعدها الشاسع جعلنا منها إلا الضوء الضئيل .

(١) سورة يس ، الآية ٣٦
(٢) سورة المدثر ، الآية ٣١
(٣) سورة النحل ، الآية ٨

أما شمسنا هذه فهى قريبة منا قرباً نسبياً ، فإن الضوء ياتينا منها فى مدة ثمانى دقائق وثمانى عشرة ثانية .

وقد اقتضت حكمة الحكيم أن يجعل الأرض على هذا البعد ، لأنه لو جعلها بعيدة جداً لم ننتفع بحرارة الشمس ولا ضوئها هذا الانتفاع . وإذاً لا يكون على الأرض نبات ولاحيوان . ولو جعلها قريبة من الشمس جداً لكانت كنار جهنم ، فلم يعش عليها حيوان ولا إنسان . فسبحان الحكيم العليم .

وإنى أود أن تتخيل الأرض حينما كانت كتلة نارية كما هو باطنها الآن أو أشد ، وقد ذكروا أنه يصهر الصخور . فقل لى بعيشك كيف صارت بعد ذلك محل العجائب والغرائب ؟ فقد جعلها الله مخزناً لكل ماتحتاج إليه من مساكن وملابس وغذاء ودواء ، بل من رجال ونساء ، فإننا خلقنا منها (وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)[١]

فكم يكون دهشك إذا قارنت ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه إلى حالتها الأولى عندما كانت كتلة نارية ، وهل يشتمل الشىء على ضده ؟ وهل يكمن فيه ما يباينه؟ وهل يكون من عناصره ما يتنافى هو وحقيقته ؟ وماذا عسى أن تكون تلك؟ النار التى اشتملت على تلك؟ العجائب والأسرار حتى أصبحنا نطلب منها ما نأكل وما نشرب وما نلبس وما نسكن وما ننكح . إلخ ؟

(١) سورة الروم ، الآية ٢٠

فسبحان من لا يعرف قدره غيره ؛ ولا يبلغ الواصفون صفته (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَٰلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)[١] .

ولا بأس أن نقول بعد هذا كلمة صغيرة عن السلسلة الحيوانية التى تبتدئ بتلك المكروبات المتناهية فى الصغر :

فقد ذكروا أن آلاف الآلاف منها تعيش فى نقطة ماء صغيرة وتنموا هناك وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البر فى القفار . ويقولون : إن هذه الحيوانات لا يساوى هيكل الواحد منها جزءا من ١٨٧ مليون جزء من القمحة . ومع هذا الصغر المتناهى لهذه الحيوانات كان لكل حيوان منها ما يهضم به طعامه وما تتم به حياته من الأعضاء الباطنة والظاهرة ، فإذا تناهى الحيوان فى الصغر فماذا عسى أن تكون تلك الأعضاء .

وقد كنا نمثل بالذرة لأصغر الأشياء ونؤمن تقليدا للقرآن بأن هناك أشياء أصغر من الذرة حيث أشار إليه فى بعض آياته ، ونقول ليتنا نعرف ما هى تلك الأشياء التى تكون أصغر من الذرة ، فإن الله يقول فى بيان سعة علمه المحيط بكل شىء : (وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ)[٢] حتى أبانت لنا الاكتشافات الحديثة أمر المكروبات فى صغرها ، وأسمعتنا غريب حديثها ، فقلنا عن عيان ووجدان : صدق الله العظيم حيث يقول : (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٥

(٢) سورة يونس ، الآية ٦١

إِلَّا قَلِيلًا)[١] (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[٢] .

ثم تترقى فى سلسلة الحيوان من تلك الحيوانات الدنيا إلى أن تصل إلى نوع الحيوانات العليا كالفيل بل ما هو أعظم من الفيل مثل الهيئة التى تزيد على الفيل خمس مرات . ثم من حيوانات البحر ما يكبر جدا حتى يظن أنه جزيرة فى البحر .

وفى البخارى أن المسلمين وقعت لهم سمكة « من البحر الأحمر » أكلوا منها شهرا ، وكان أطول رجل فيهم يركب على جمل ويمر من تحت أنحناء ضلع من أضلاعها . أو كما ورد .

فانظر رعاك الله إلى هذه السلسلة العجيبة التى لا تتقيد بقيد ولا تنضبط بحال . فإن قلنا : لابد لها من فقار كالبقر والطير والضفادع والسمك ، ينقضه أننا وجدنا الحياة بلا فقار فيما هو أسفل منها كالعنكبوت والحشرات الدنيا . وإن قلنا إن الحياة لابد فيها من قشور فى ظاهر الحيوان ، رأينا الحيوانات الهلامية لا قشور فيها . وإن قلنا إنه لابد من رؤوس ، كذبتنا الحيوانات التى ليس لها رؤوس . وإن قلنا إنه لابد أن يكون الحيوان صلب الجسم ، ورد علينا النقاعيات والاسفنجيات ، إلى آخر مالا يمكننا شرحه .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(٢) سورة فصلت الآيتان ٤١ ، ٤٢

فها أنت ذا ترى الحياة عامة شاملة لا تتوقف على حال من الأحوال فلا يصد عنها بر ولا بحر ولا هواء ولا رخاوة فى الجسم ولا عدم الرأس ولا فقد الفقرات ، ولا قلة الحواس .

ثم انظر بعد هذا تجد حيوانات يقتلها الأكسوجين وتعيش تحت التراب ، أو نقول لا يمكنها أن تعيش فى الهواء الخالص ، وحيوانات لا تعيش إلا فى الهواء كالطيور ، وحيوانات لا تعيش إلا فى البر كالإنسان ، وأخرى لا تعيش إلا فى الماء كالأسماك .

فسبحان القادر على كل شىء (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)(١) (أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)(٢) (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)(٣) (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)(٤) «سُبْحَانَكَ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» .

وان شئت أقرب من ذلك كله فانظر إلى نفسك ومافيها من عجائب الصنع وبدائع الخلقه ، وما اشتملت عليه من الأسرار الظاهرة والباطنة وقد قالوا قديما : « نظرك فيك يكفيك » .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٢
(٢) سورة السجدة ، الآية ٧
(٣) سورة الملك ، الآية ٣
(٤) سورة الأنعام ، الآية ٩١

ولنقل كلمة إجمالية جدا عن بعض ما فى الانسان :

إن فى الجسم الإنسانى أكثر من مائتى عظم ، ولكل منها شكل مخصوص يناسب ما نيط به وما خلق لاجله ، ولولا ذلك لتعطلت حركاتنا التى نأتيها كل وقت وساعة . ثم انظر كيف خلق لك الكبد والمعدة والرئتين والكليتين الخ . الخ ، وكيف ناط كل واحد منها بعمل مخصوص ، ثم أوجد لك الفم وأنبت فيه الأسنان المختلفة ليقع بها الهضم الأول ، ثم جعل لك غطاء يغطى مجرى النفس عند البلع ، وجعل لك مجرى مخصوصاً للطعام والشراب وآخر للنفس ، وجعل للمعدة بابين للدخول والخروج ، وأمعاء دقيقة وأمعاء غليظة ، ثم جعل سبيلين بعد ذلك لإخراج الفضلات التى لو بقيت فى الإنسان لأهلكته .

ثم انظر بعد ذلك إلى ما فيك من المفاصل وتركيبها العجيب ، ولولا ذلك لاختلت أحوالك ووقفت أعمالك ، وكنت إذا أردت أن تنام وقعت على الأرض دفعة واحدة كالشجرة حين تقع ، أو الحائط عندما تسقط .

ثم انظر إلى العين وتركيبها الذى يدهش الأنظار ويحير الأفكار .

فانظر إلى ما اختير لها من وضعها فى الحجاج ، وجعلها أمام البدن لتكون حارسة للأعضاء الشريفة التى غطاؤه ضعيف كالبطن والوجه إلى أسرار أخرى .

وأيضا الأعضاء الخارجية كاليدين والرجلين من الأمام ، فتكون العين مشاهدة لأعماله . وماذا يكون الحال لو وضعها فى رأسك أو فى رجلك .

ثم انظر كيف كان الجفن يمنع الأذى عن العين والغبار والدخان والضوء عند الإقفال ، والأهداب تمنع الغبار ، وتدخل الضوء عند الحاجة إليه كما فى أوقات هبوب الرياح . وقد قال بعض الفلاسفة : «يكفينى هدب العين فى الدلالة على الله » .

ثم انظر كيف ركبت العين من ست طبقات بديعة الصنع غريبة الترتيب وهى : القرنية والعنبية والعنكبوتية والشبكية والمشيمية والصلبة . وهذا شرح طويل لا يسعه هذا المقال . ثم انظر كيف جعل داخل الأنف مصفاة تقيك ما عسى أن يكون من غبار يعكر عليك صفوك ويكدر منك أنفاسك .

ولا يمكننا أن نسير بك فى بحر تلك العجائب التى لا يدرى الناظر فيها أيها أعجب .

ولو شرحت لك عجائب الأذن لكان عجبك أكثر ودهشك أشد ولو ذكرنا لك ما للكرات البيضاء والحمراء من الوظائف ، وما يذكرونه الآن عن الغدد التى اكتشفوها حديثاً وما لها من الوظائف التى هى أعجب من كل عجيب ، لطال القول واتسع المجال .

ولو ذكرنا ما وراء ذلك من أسرارك الباطنة كالشعور والإدراك والتذكر والتخيل ، إلى غير ذلك ، لوقعنا من الروحانيات فى بحر

لا يعرف له ساحل ولا يدرك له قرار (وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلاَّ هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا)(١) .

وإجمال القول أننا غارقون فى الآيات ، ولكننا لا نلتفت إليها لكثرتها وتكررها ، حتى أصبحت مألوفة معتادة ، وكل ما تكررت مشاهدته سقط وقعه . وها هى ذى النجوم تطلع كل ليلة ، والشمس تشرق كل نهار ، ولا نكاد نلتفت إليها أو نفكر فيها ، لكوننا نراها كل يوم وكل ليلة .

وقد كنا ننظر إلى الطيارات أول ما ظهرت ، فلما تكررت رؤيتها سقط وقعها فلم تنفعل النفس بها فلا نكاد نلتفت إليها الآن .

ولو قال لك قائل : أنه رأى نقطة ماء قذرة لا يعبأ بها . ثم رأى رجلا سميعاً بصيراً مناضلاً مجادلاً فيلسوفاً قد خرج من تلك النقطة الحقيرة ، لعددته مصاباً فى عقله أو هازئاً بك غير محترم لعقلك . ولكنك تشاهد ذلك الذى عددته خرافة أو جنوناً كل يوم ، فما ذلك الشجاع الباسل ، ولا ذلك العالم المتفنن ، ولا تلك الغوانى الفاتنات ، إلا من نقطة ماء قذرة تعافها النفس وينفر منها الطبع نقلتها القدرة الالهية فى تلك الأطوار العجيبة حتى جعلتها من نوع البشر ذى السمع والبصر ، فسبحان القادر الذى لا تحد قدرته ولا تتناهى عظمته (إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)(٢) .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٤٨
(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٠

وقبل إلقاء القلم نتحفك بما ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : روى أن واحدا قال له : إنى أتعجب من أمر الشطرنج ، فإن رقعته ذراع فى ذراع ، ولو لعب الإنسان ألف مرة لم يتفق مرتان على وجه واحد . فقال عمر رضى الله عنه : هنا ما هو أعجب من ذلك وهو أن مقدار الوجه شبرا فى شبر ، ثم إن مواضع الأعضاء التى فيه كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا تتغير البتة . ثم إنك لا ترى شخصين فى الشرق والغرب لا يشتبهان فى الصورة اشتباها يوجب أن لا يتمايزا ، بل سمعت من بعض المبرزين فى الطب أننا لو قارنا بين أنفين فضلا عن الوجهين لم نجدهما يتماثلان من كل وجه . فسبحان اللطيف الخبير .

وقد قالوا إن لبنان كل إنسان هيئة خاصة لاتماثلها هيئة بنان إنسان آخر من كل وجه . ولهذ تراهم يلزمون الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب أن يوقع بإبهامه فى الامور الرسمية علماً منهم أن إبهامه لا يماثله إبهام شخص آخر ولا يمكنه فيه ادعاء التزوير .

ولعل القرآن خص البَنَان بالذكر فى قوله تعالى :(بَلَى قَادِرِينَ عَلَىٰٓ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)[1] لهذه الحكمة ، ولعل فيه حكماً أخرى ولقد تعرض المفسرون لشئ منها .

ولا بأس أن نذكر لك هنا ما يروى عن أبى حنيفة مما يناسب هذا المقام : يقال إنه جاء جماعة من الدهرية لأبى حنيفة رضى الله عنه

(١) سورة القيامة ، الآية ٤

وطلبوا منه دليلاً على وجود الله عز وجل ، فقال : ما تقولون فى خشب قطع من الأشجار بلا نجار ، واجتمع من تلقاء نفسه ثم كون سفينة تجرى فى البحر ، وهى مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال ، فقد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهى مع ذلك كله تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يرعاها ؟!

فهل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا : لا ، هذا شئ لا يقبله العقل. فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله ! إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد يرعاها ولا ربان يدبر أمرها ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتشتت أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع يكلؤه وحكيم يدبره ؟! فاعترفوا جميعاً وقالوا : صدقت .

وقد أشير إلى هذا الدليل الذى يذكر عن أبى حنيفة فى القرآن الشريف حيث يقول : (وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)[1] .

ولنختم مقالنا هذا بقوله تعالى :(يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ. وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ)[2] .

ولنقف اليوم عند هذا الحد ، ولعلنا نعود إليه فى فرصة أخرى إن شاء الله .

(١) سورة الروم ، الآية ٢٥ . (٢) سورة الحج ، الآية ٧٣

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[2] :

رأينا أن نفسر لك الآية الكريمة تفسيراً يوضح معناها ويبين مغزاها وإن كان موجزا ، ثم نذكر لك بعد ذلك متممات فيها فوائد بديعة وأنظار رفيعة ، فنقول :

(إن فى خلق السموات والأرض) وما فيهما من الآيات البينات والبدائع المدهشات التى ستسمع بعضها ، وتخصيصها بخصائصها التى كان يجوز عليها ألا تكون بها ، وأن تتصف بأضدادها .

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أى تعاقبهما وكون كل منهما خلفا للآخر ، أو اختلاف كل منهما فى نفسه ازدياداً وانتقاصاً أو ظلمة ونوراً .

(١) مجلة الأزهر – الجزء الأول – المجلد الثامن – المحرم سنة ١٣٥٦
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤ .

(وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ) من التجارات المختلفة وتبادل المنافع بين الأمم ، فيأخذ الشرقى ما نبت فى الغرب ، ويأخذ الغربى ما نبت فى الشرق .

الفلك يستعمل مفرداً كقوله تعالى : (فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)[1] وجمعا كما فى قوله : (فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ)[2] . أما الاستدلال به فمن حيث أن إلهام صنعته من الله تعالى ، وكذا العلم بكيفية إجرائه وتسخير الريح والبحر لذلك ، أو أنه سبب الاطلاع على البحر وعجائبه وعلى كل حال فمادة الفلك والبحر والريح وفعل الإنسان وإصلاح أمره كله من خلق الله تعالى (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)[3] (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)[4] .

(وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) بتهييج قواها النامية ، وإظهار ما أودع فيها من أنواع النبات والأزهار والأشجار (بَعْدَ مَوْتِهَا) باستيلاء اليبس عليها حسبما تقتضيه طبيعتها .

(وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ) : معنى بث الدواب تكثيرها بالتوالد والتولد .

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) أى تقليب الله تعالى لها جنوبا وشمالا ، وقبولا ودبورا ، حارّة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وعقيما وملقحة ،

(١) سورة الشعراء ، الآية ، ١١٩ وسورة يس ، الآية ٤١
(٢) سورة يونس ، الآية ٢٢
(٣) سورة الصافات ، الآية ٩٦ .
(٤) سورة هود ، الآية ١٢٣

مرة بالرحمة ومرة بالعذاب. وليس يخفى ما فى تصريف الرياح من تربية النبات وبقاء حياة الحيوانات التى تدب على وجه الأرض .

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) : معنى تسخير السحاب : أن الله يمسكه بين السماء والأرض ، مع أن الطبع يقتضى صعوده إن كان لطيفا وهبوطه إن كان كثيفا ، ثم يسوقه إلى ما شاء من بلد ميت فيحيي به الأرض بعد موتها .

(لَآيَاتٍ) أى : آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة .

(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : فيه تعريض بأن من لم يتفكر فى آيات الله فهو بمعزل عن العقل .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)(١) (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)(٢) إلخ .

هذا وقد أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » .

وإنما قيل آيات بصيغة الجمع نظرا إلى المذكورات كلها ، ويصح أن يراد كل واحد منها على حدته ، فإن من تأمل فى هذه الآيات وجد كل واحدة منها مشتملة على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده تعالى

(١) سورة محمد ، الآية ١٢ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩

ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية ، إذ كل منها قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار مغينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده ، فضلا عن وجوده على الوجه الخاص المستتبع لتلك الآثار الجليلة وهاتيك المنافع الجميلة .

وبعد : ففى الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية ، وتنبيه على شرف علم الكلام وفضل أهله وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة .

تتمات :

١ – إذا نظرت إلى النهار والليل فى السنة كلها وجدتهما يتساويان . أى أن ساعات أحدهما فى السنة تساوى ساعات الآخر .

٢ – اختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها فى البروج الشمالية والجنوبية يدعو إلى اختلاف الحرارة والبرودة فى الأقطار المتباينة وهبوب الرياح ، فترى الأمطار تتساقط من السماء تبعا لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لدوران الأفلاك وسير الشمس فى البروج . وبذلك الترتيب البديع تنشأ ممالك النبات والحيوان والإنسان . أما الرياح فتهب فتسير السفن كما تسير السحب ، فلا يتحرك السحاب إلا بالرياح ، وهى المسخرة بالحرارة المنبعثة من الأجرام العلوية .

ولا شك أن هذا العالم على هذا النسق يحتاج أدناه إلى أعلاه ، فالأعلى مفيد للأسفل ، والأسفل مستمد من الأعلى ومستفيد منه ، وعليه أصبح هذا العالم كجسم واحد .

ومادورة المياه والرياح المسخرات ودورات الشموس أو الأقمار إلا كدورة الدم فى أجسامنا . ولاجرم أن الجسم الواحد مديره واحد فارتباط العوالم واستمدادها يدل دلالة واضحة على أن مدبرها واحد لاشريك له . وقدجعل الحكماء من أدلة التوحيد وحدة النظام : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا)(١) ». (إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)(٢) .

فهذه الآية دليل على مانطقت به الآية السابقة فى قوله تعالى : (إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ)(٣) . فارتباطها بما قبلها كارتباط الدليل بالدعوى . وإذا نظرت إلى مافيها من النعم الكبرى والرحمة العظمى وجدتها مشيرة لمحبة الله عزوجل من أعماق القلوب : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه » ولذلك عقبها بقوله تعالى : «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ »(٤) فما أعظم هذا التناسق ، وماأبدع هذا الارتباط .وبهذا تعلم أن ارتباطها بما بعدها كارتباط السبب بالمسبب والمقدمات بالنتيجة التى هى غاية الغايات ونهاية النهايات ، وهى محبة الله تعالى التى هى حياة القلوب وألذ من كل مطلوب . وربما أطلنا الحديث معك فيها بعدُ إن شاء الله.

وحدثتنى ياسعد عنهم فزدتنى ... شجوناً فزدنى من حديثك ياسعد
هواهم هوى لايعرف القلب غيره ... فليس له قبل وليس له بعد

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢
(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٩١ .
(٣) سورة النحل ، الآية ٢٢
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

٣ – لو جعل الله الأرض على غاية القرب من الشمس لم يعش عليها نبات ولاحيوان ، فإنها على ذلك الفرض تكون قطعة من جهنم . ولو جعلها على غاية البعد لم يعش عليها نبات ولاحيوان ،لأن الشمس ضرورية للحيوان والنبات .

فانظر إلى تلك الحكمة الباهرة والنعمة الظاهرة.

وإذا نظرت إلى أن الأرض كانت جزءًا من الشمس ثم انفصلت عنها على ما يقررونه الآن ، أخذ منك العجب كل مأخذ من تلك الأرض التى أودع الله فيها بذور الحياة لكل نبات وحيوان وإنسان مع كونها قطعة من الشمس التى هى نار ملتهبة وليت شعرى ما للنار وبذور الحياة– ثم جعلها مخزنا لكل مانريد .

فسبحان من جعلها كنزاً ثمينا نستخرج منه كل مانحتاج إليه من الدواء والغذاء والفواكه الشهية والرياض البهية وكل مانشاء (حتى الرجال والنساء) لأن النطفة من الغذاء ، والغذاء من النبات والنبات من الأرض (وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)(١) أليس من العجب العاجب أن تكون فى الأرض هذه العجائب كلها التى لايعرف لها أول ولاآخر : أما جنس الحيوان والنبات ففيهما من العجائب مالا يدركه سائر الناس مهما عاشوا دهوراً وأجيالا . وانظر إلى ماقالوه إن آلاف الآلاف من الحيونات تعيش فى نقطة (ماء) صغيرة وتنمو هناك وتتكاثر كما تعيش حيوانات البر فى القفار .

(١) سورة الروم ، الآية ٢٠

فانظر رعاك الله إلى مسألة الحياة : تجد أمرا مدهشا ، ونبأ محيرا . ستجد أنها لا تتوقف على حال من الأحوال فإن قلنا لا بد لها من فقار كالبقر والطير والضفادع والسمك ، ينقضه أننا وجدنا الحياة بلا فقار فيما هو أسفل منها كالعنكبوت والحشرات والشبث وأمثالها . وإن قلنا إن الحياة لا بد فيها من قشور فى ظاهر الحيوان رأينا الحيوانات الهلامية لا قشر لها . وإن قلنا إنه لا بد أن يكون الحيوان صلبا وجدنا النقاعيات والإسفنجيات ليست كذلك .

ثم انظر نظرة بسيطة فى جسم الإنسان تجد فيه العجائب الناطقة بحكمة مبدعة وقدرة خالقه . فإن فى الجسم الإنسانى أكثر من مائتى أعظم ، ولكل منها شكل مخصوص ، ولولا ما فيها من الإتقان والحكمة لعاقت حركاتنا التى نأتيها كل وقت كما نشاء .

ثم انظر إلى ما هو أدق من هذا تجد الخالق الحكيم قد جعل لأجل وصول الأصوات إليك عجائب وغرائب من صيوان وصماخ وطبلة وثلاث عظيمات ودهليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية ، وسائل ورملات حافظات للصوت ، وعصى وشعرات فى القوقعة ، وأعصاب سمعية ، إلى آخر ما لا يمكننا تفصيله . والعين فى تركيبها وطبقاتها وفائدة كل طبقة منها أعجب وأغرب . فسبحان الحكيم العليم القادر العظيم .

وهى أمور لا يسعنا إلا الإلماع إليها والدلالة عليها ، أما تفصيلها فلا تفى به المجلدات . وهل العلوم على كثرتها والكتب على تنوع ما فيها من يوم خلق الله العالم إلى أن تقوم الساعة ، والمكتشفات التى برز فيها المبرزون وسيبرزون منها أكثر مما يتخيلون ، هل كل ذلك إلا شرح لتلك العوالم التى أشارت إليها الآية الكريمة ؟

وحاصل القول : إننا غارقون فى الآيات البينات ، والنعم الفائضات من مبدع الأرض والسموات ولكن لاعتيادها وعدم انقطاعها لا نلتفت إليها ، لأن كل مبذول لا تأبه له النفس ولا ينفعل به القلب .

وقد رأينا أن نختم هذا المقال بشىء عن اللورد أفبرى الإنكليزى الفيلسوف الشهير فنقول :

كلام اللورد اقبرى :

« تتالت العصور ، وتوالت الدهور ، والبشر معجبون مسحورون بجمال القبة الزرقاء وجلالها ، يتطاولون إلى إدراكها بالخيال ، ويستنزلونها إلى الارض بالقرائح ، فلم يستطيعوا من أمرها ويخبروا من خبرها إلا بما هو مشوب بالأوهام وشبيه بالأحلام » .

إلى أن قال فى الكلام على الشمس :

« إنها محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضا ، فهى التى تبخر مياه البحر وترفعها غيوما فى الجو وتنزلها أمطارا على الأرض حيث تجرى جداول وأنهارا تروى زرعنا وتنمى غرسنا ، وتثير الرياح وتهيج الأنواء فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجى السفن والمراكب فى عباب المحيط » إلى أن قال :

« أما عدد النجوم فمضرب المثل لما لا يحصى ولا يحصر ، وقولنا : كنجوم السماء ورمال البحر عدا ، مالوف متداول . والحقيقة أن النجوم التى ترى بالعين المجردة معدودة محصورة ، وهى نحو ٣٠٠٠ فقط ،

ولكن المنظار المقرب يرينا نحو ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ والمنظر الطيفى أظهر ملايين الملايين » . إلى أن قال :

« أما أبعاد النجوم وأحجامها فتقضى بالعجب العجاب ككثرتها الفائقة الحصر . فالشعرى اليانية نجمة أثقل من الشمس جرما بعشرين مرة ونورها خمسون ضعف نور الشمس ، وهى أبعد منها مليون ضعف بعدها عنا » . إلى أن قال :

« وثلاث من بنات نعش : مايا ، وألكترا ، وألسيون ، يفضحن الشمس وَيَفُقْنَهَا نورا ونارا : الأولى بأربعمائة ضعف ، والثانية بأربعمائة وثمانين ، والثالثة بألف ضعف . أما سهيل فهو أسنى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة . والسماك الرامح « المرزم » أسطع منها (ثمانية آلاف مرة) . إلى أن قال :

« أما السماك الرامح فهو على حد علمنا أسرع النجوم سيرا وأشدها تألقا وأكبرها حجما ، تقدر سرعته بثلاثمائة ميل فى الثانية الواحدة . ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وحجمه ثمانون ضعف حجمها . أما بعده عنا فتخيله لنفسك عندما تعلم أن نوره لا يصلنا فى بضع دقائق كنور الشمس وهى على «٩٢٥٠٠٠٠٠ ميل منا » بل فى سنين « وفى لا أقل من مائتين من السنين » . ويزعم الفلكيون أن بعد الثريا نحو ألف وخمسمائة بليون من الأميال » . إلى أن قال :

« إن السماك الرامح يسير ٢٢٠٠٠ ميل فى الدقيقة ، أو ٣٢٠٠٠٠٠٠ ميل فى اليوم » . إلى أن قال :

« ولنعلم أيضا أن فى السماء غير العوالم التى تبدو للعيان ما لا يعد ولا يحصر من الأجرام الخفيه ، إما لفرط بعدها أو صغر حجمها أو ضعف نورها » . إلى أن قال :

« وقد اتخذ الفلكيون سرعة النور مقياسا عليه وأساسا لتقدير تلك المسافات العظيمة فقالوا مثلا : إن سرعة النور ١٨٠٠٠٠ ميل فى الثانية ،ومئات من السنين تمضى وتمر قبلما ينتهى إلينا نور نرى به مصدره السديمى » . إلى أن قال :

« ولئن أخذتنا الحيرة واستولى علينا الذهول لدى تأمل أبعاد الأجرام السماوية وضخامة أحجامها وعظمة تلك العوالم التى لا تعرف لها نهاية . فكم عسى أن نحير أذهاننا ونذهل عقولاً إذا بحثنا فى الوقت الذى انطوى دون وجودها والزمان الذى مضى عليه » . إلى أن قال :

« هنا ليكسر الحساب قلمه ، وليضرب التاريخ بيراعة عرض الحائط ، وليقف الذهن كليلاً والعقل مخبولاً ، وليطلق الخيال فى هذا المجال ولا أخاله إلا رائدا مردودًا يؤثر الاحتباس تحت القبة الزرقاء المشهودة يخبط خبط عشواء فى ظلمات الأزل الشديدة » اهـ .

ولنقهر العلم على ترك الجولان فى هذا الميدان فهو بحر لا ساحل له ، وسنعود إليه إن شاء الله .

ولنتل هنا قوله تعالى : (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)(١) .

(١) سورة الملك ، الآية ٤

فى ترجمة معانى القرآن[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

كثر الأخذ والرد هذه الأيام فى مسألة (ترجمة القرآن) . وقد تجاوز كثير من الكتاب حدود الأدب فى الانتصار لرأيه (على أننى أعتقد حسن النية من الفريقين) . ولكن آفتنا فيما نرتئيه الإفراط أو التفريط ، وعيبنا هو الاندفاع بالعاطفة بلا تدقيق ولا تمحيص . وأكثر ما يقع بين الناس من الخلاف لو استعمل فيه المنطق الصحيح وروعى جانب الإنصاف ولم يتمسك كل فريق بظواهر الألفاظ التى قد تبدو من مخالفة فى الرأى ولم تغلب فيه الحدة على الرفق والأناة لكان تدارك ذلك الخلاف هينا ولأمكن الاتفاق فيه على نقطة الوسط التى شط عنها الفريقان بحمية الدفاع عن النفس والأنفة من الانهزام (وقل أن ينجو من حكم العاطفة أو سلطان الأنانية ومحبة التغلب والظهور) .

ويعجبنى قول بعضهم : (أقبح الكلام إكثار تنبسط حواشيه وتنقبض معانيه فلا يرى له أمد ولا ينتفع به أحد) وأقرب ما نستشهد به على هذا مسألة اليوم التى تبارت فيها الأقلام ، واشتد فيها الخصام مع كونها من أوضح الواضحات وأول الجليات . فإن (ترجمة القرآن) بالمعنى المعروف فى التراجم بحيث تقوم الترجمة مقام الأصل من كل

(١) مجلة الإسلام — السنة الخامسة — العدد العاشر — ربيع الأول — سنة ١٣٥٥

وجه ، وتعطى أحكامه بكل اعتبار غير جائزة ، بل غير ممكنة باتفاق الفريقين . وتفسير القرآن بأى لغة من اللغات جائز باتفاق الفريقين ولا يستطيع أحد أن يمنعه . وقد وقع بالفعل من علمائنا منذ زمان بعيد . فإنه كلام بشرى يجوز ترجمته لكل لغة .

ولا فرق بين أمور الدين والدنيا فى هذا ، فإن كل إنسان حر فى اختيار اللسان الذى يريد أن يعبر به عما فى ضميره سواء كان كلامه أم كلام غيره وتبعة ذلك عليه ، وخطؤه أو صوابه ليس راجعاً إلا إليه .

وقد اجتمعت جماعة كبار العلماء ومحصت الموضوع وقبلته بعد تلك التحفظات التى تجعله تفسيراً لا مراء فيه ، وقد جاء فى ملخص تلك التحفظات فى أهرام الأربعاء ٨ أبريل ما يفيد ذلك صريحاً (وما فى القرار أوسع مما فى الأهرام) .

غير أن لنا كلمة يجب أن نسجلها لنتخلص بها أمام الله والناس مما عسى أن يكون عمداً أو خطأ .

ذلك إنا نرى طرح كلمة (ترجمة) بالكلية ، فإنها تثير الشكوك والأوهام من القارئين والسامعين ، كما أنها بعد تمام المشروع قد توقع فى روع كثير من جهلة المسلمين والأوربيين إن هذه الترجمة التى أشرفت عليها أكبر هيئة علمية هى القرآن بعينه وأن لها جميع أحكامه . حتى إذا وجد فيها خطأ من اللجنة الأولى التى فسرت القرآن أو فيما يترجم عنها لبعض اللغات الأخرى كان منسوباً للقرآن ، وربما تعددت التراجم فكانت الأخطاء فى النهاية كثيرة خطيرة ، أما المقدمة التى سنضعها للترجمة فلا نأمن بها من ذلك الخطر .

فإن ذوى الأغراض الذين يكيدون للإسلام يمكنهم أن يحذفوها عندما يطبعون تلك الترجمة توصلًا بذلك إلى ما يريدون ومن الجائز القريب كما قلنا أن يقع الخطأ منا معشر المسلمين : (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)[١] فضلًا عما يكون من الأخطاء الأخرى المقصودة أو غير المقصودة .

وعلى كل حال فما فى القرآن من أسرار ومقاصد لا يمكن أن يأتى عليه البشر ، كيف وللقرآن ظهر وبطن وحد ومطلع ، وفيه كليات يدخل تحتها ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، ومتشابهات لا يصل إلى كنهها غيره عز وجل مما وقف أمامه العلماء مفوضين أو مؤولين ، وفيه من التعبير عن الحقائق ما تقضى منه العجب حيث يعبر بالعبارات التى تساير كل عصر وتتفق وكل اكتشاف ، حتى إذا تبين خطأ فى تفسيرها بمقتضى اكتشاف جديد نسب لمفسرى الآيات لا لها ووجدت هى أكثر انطباقًا على ما قضى به العلم الممحص والاكتشاف الجديد مما يدهش اللب وينطق بأنه ما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

وقد عد السيوطى مما يحتاج إليه المفسر (علم الموهبة) . قال وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم .

وإليه الإشارة بالحديث : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) إلى آخر ما قال .ويقول الآلوسى بعد ذلك : أما من صرف عمره

(١) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

بوساوس أرسطاليس واختار شوك القنافذ على ريش الطواويس فهو بمعزل عن فهم غوامض الكتاب وإدراك ما تضمنه من العجب العجاب .

وقال ابن عباس : (القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون لا تنقضى عجائبه ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال ، وحرام وحلال وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه ، وظهر وبطن ، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء) . فكيف تأتى عليه التراجم وهو خارج عن طوق البشر فى نظمه وأسلوبه ومعانيه ، وأسراره وإشاراته ، وقد قال تعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ)[١] فهو الذى لا تخلق جدته على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه كما فى الحديث المرفوع والموقوف .

وخلاصة القول : إننا نلح كل الإلحاح فى أن لا يسمى ذلك البيان ترجمة وإنما يسمى (تفسير القرآن بلغة كذا) وإذا لا نجد معارضا ولا مرتابا .

فإن أحدا لا يستطيع أن يمنع ترجمة كلام الرازى أو الزمخشرى أو ابن جرير . . . إلخ إلخ.وقد قال صلى الله عليه وسلم : (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) وإذا ينطق هذا العنوان نفسه بأنه شىء آخر غير القرآن ولا يماثله بأى وجه من الوجوه فلا يغتر بتلك التسمية أحد . ولا يجد مبشر يكيد للإسلام منفذا ينفذ منه لما عسى أن يكون من مقاصده الخبيثة وشباكه التى يتفنن فيها ولا يألوا جهدا فى نسجها

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣٨

من خيوط العنكبوت كما هو معروف ، وقد عرض هذا الاقتراح على فضيلة الشيخ المراغى فى جلسة كبار العلماء . فقال إذا اتفقنا على المعنى بعد تمحيص الموضوع فلا تهم الألفاظ وقد اتفقنا على المعنى ولله الحمد ، فنطالب فضيلته، وجميع القائمين بالأمر أن يدعو كلمة (الترجمة) ويطرحوها ظهريًا ولا يعبروا إلا بكلمة (التفسير) .

وأرى من الواجب التشدد فى ذلك وعدم التساهل فيه . فيجب أن نحتاط ذلك الاحتياط ، وأن ننتقى لوضع التفسير الذى يراد ترجمته علماء موثوقًا بدينهم وعلمهم وورعهم وتحريهم ، ونعدل عن أولئك المجددين المتشدقين الذين أولعوا بكل جديد من الآراء من غير بحث ولا تمحيص (مع أن ذلك الرأى عند ذويه قد يكون فى محل الظن أو التخمين على نحو ما يفترضون من الفروض العلمية التى قد توصلهم بعد إلى حقائق يقينية فيكون عندنا محل الجزم وهو عندهم لم يجاوز حدود الفروض .

إذا نحن عدلنا عن هؤلاء واحتطنا فى انتقاء من يضع ذلك التفسير من العلماء الذين يعرفون قدر العلم ولا يحترمون إلا البرهان حيثما وجدوه (يَسْتَمِعُون الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُون أَحْسَنه) لا فرق عندهم بين قديم وحديث فهم أصلب عودًا من أن يتأثروا بكل ما سمعوه وأكبر عقلا من أن يخدعوا بزخارف الأقوال أو ينقادوا لكل ذى رأى مهما كان من عظماء الرجال ـ نكون قد أدينا الواجب وخرجنا من العهدة إن شاء الله .

ومن الغريب أن عندنا من يتبجح على أئمة المسلمين وسادات المتقدمين وينقادوا انقياد الأطفال لما ينقل عن الأوربيين ، وهذا

شر ما ابتلينا به فى ديننا ودنيانا فصرنا ننفر من القديم ونرحب بالجديد ونحتقر الحكماء من أسلافنا ونقلد السفهاء من الأوربيين وأذيال الأوربيين .

وبعد ذلك كله أرى أن الأفضل فى الدعاية إلى الإسلام والأجدى عليه إنما هو عمل رسائل تبين فيها محاسن الإسلام وأحكامه ومزاياه التى انفرد بها ورسائل يرد فيها على الطاعنين ويبين بها خطأ المترجمين وتعصب المتعصبين ونحو ذلك .

وإذا اقتضى الحال تفسير آية من الآيات أو حديث من الأحاديث فلا بأس أن نفعل على نحو ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتابه إلى هرقل ثم نقتصر على هذا . مع ملاحظة أن الأحكام التكليفية مثل الطهارة والصلاة والزكاة والحج مجملة فى القرآن غاية الإجمال .

ولا حاجة بنا فى الدعاية إلى الإسلام إلى تفسير القرآن كله . وهذه الرسائل أخف على المؤلفين والمترجمين والقارئين والسامعين وأبعد من إثارة الشكوك والأوهام والشبه التى قد يؤدى إليها القصور فى فهم بعض آيات القرآن .

هذا ـ ما نراه خيرًا للإسلام وأكفل للغاية المطلوبة من الدعاية إليه وانتفاع الناس بعملنا الجديد .

أسأل الله أن يقينا شر الفتنة ، وأن يرشدنا إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة بمنه وكرمه .

سورة الأعلى (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا وقد أسند إلينا تحرير فصل التفسير لهذه المجلة أن نبدأ بتفسير (سورة الأعلى) لما فيها من الأسرار التي تأخذ بمجامع القلوب . فإن فيها أمورا أربعة هي مجامع السعادات كلها :

(أولها) : الإلهيات . وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى » .

(ثانيها) : ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم . وقد أشير إلى ذلك بقوله : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى . إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) . وفي ذلك من التوحيد ورجع الأمر كله إليه تعالى ما لا يخفى .

(ثالثها) : انقسام المستمعين إلى من ينتفع بإرشاد الأنبياء وإلى من لا ينتفع به ، وبيان أحوال كل واحد من هذين القسمين . وقد أشير إلى ذلك بقوله : (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى . سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) .

(١) مجلة الأزهر – الجزء الأول – المجلد التاسع – المحرم سنة ١٣٥٧

(رابعها) : التنبيه على أن خيرات الآخرة أفضل وأبقى من خيرات هذه الدنيا ، والأفضل الأبقى أولى بالتحصيل له والحرص عليه ، مع بيان ما يوصل إلى ذلك من تزكية النفوس وعبادة القدوس عز وجل بقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وبذلك يتم كل ما يحتاج الإنسان إليه من معرفة الله عز وجل ، ومعرفة ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة أحوال الناس واختلافهم في الاستعداد ، ومعرفة الآخرة وما فيها من نعم جسيمة ونار أليمة .

ثم ختم السورة بقوله : (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) تنبيها على أن كل ما جاء من الأنبياء ممن أنزل الله عليه كتاباً أو صحيفة ليس المقصود منه إلا هذه الأشياء الأربعة ، فإنها لم تدع شيئاً من مسائل السعادة والفوز في الدنيا والآخرة إلا بينته .

ومن وقف على أسرار هذه السورة الشريفة امتلأ إيمانا وإيقانا بأن القرءان تنزيل من حكيم حميد : « قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » (١) ، وعلم حقا أنه لا هداية إلا باتباع نهجه القويم وصراطه المستقيم . فسبحان من خلق الخلق وعلم استعدادهم ومراتبهم ، وما جبلوا عليه من الأحوال المتباينة والنزعات المتضادة « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (٢)

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦

(٢) سورة الملك ، الآية ١٤

البيان التفصيلى لمعنى السورة الشريفة :

« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » : التسبيح : التنزيه . وتنزيه الاسم الكريم هو ألا تبقيه على ظاهره إذا كان ما وضع له فيما تعورف بين الناس مما لا يليق به تعالى ، وألا تطلقه على غيره إذا كان مختصاً به تعالى كالاسم الجليل ، أو على وجه يشعر بأنه تعالى هو وغيره فيه سواءٌ إن لم يكن مختصاً . ومن تنزيه الاسم أن تصونه عن الابتذال ، فلا تتلفظ به فى محل لا يليق به كبيت الخلاء ، ولا تذكره إلا مع الخشوع والتعظيم .

ومن تعظيمه ما حكى عن إمامنا مالك رضى الله عنه : أنه كان إذا لم يجد ما يعطى السائل يقول : ما عندى ما أعطيك ، أو ائتنى فى وقت آخر ، ونحو ذلك ، ولا يقول نحو ما يقول الناس : يرزقك الله أو يعطيك الله . فسئل عن ذلك فقال : إن السائل أثقل شيء على سمعه وأبغضه إليه قول المسئول له ما يفيد رده وحرمانه ، فأنا أجل اسم الله سبحانه أن أذكره لمن يكره سماعه ولو فى ضمن جملة ! وهذا منه ـ رضى الله عنه ـ غاية فى الورع والدقة .

ولك أن تعتبر لفظ الاسم مقحما ، فكأنه قال : سبح ربك . والإقحام فى لغة العرب قد يكون لضرب من التعظيم . فإن المذكور إذا كان فى غاية العظمة لا يذكر هو بل يذكر اسمه ويمجد ذكره ، كما يقال : سلام على المجلس العالى والأعتاب السنية ، ونحو ذلك . فالمعنى : نزه ربك عما لا يليق به من الأوصاف .

واستدل لهذا بما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »(١) قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوها فى ركوعكم ، فلما نزلت « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : اجعلوها فى سجودكم . ومن المعلوم أن المجعول فيهما سبحان ربى العظيم وسبحان ربى الأعلى .

وبما أخرج الإمام أحمد وأبو داود والطبرانى والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : سبحان ربى الأعلى . وهو استدلال قوى من السنة .

وفى الكشاف أن المراد بتسبيح اسمه تعالى تنزيهه عما لا يصح فيه من المعانى التى هى إلحاد فى أسمائه سبحانه كالتشبيه مثلا ، وأن يصان عن الابتذال والذكر ، لا على وجه الخشوع والتعظيم .

الخلاصة :

أنه يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته جل وعلا عن النقائص ، ويجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لذلك عن سوء الأدب والذهاب بها مذهب المجسمة والمشبهة .

وإجمال القول أنه إن كان « سبح » بمعنى نزه ، فكلا الأمرين من كون « اسم » مقحما وكونه غير مقحم ، وتعلق التسبيح به على الوجه الذى سمعت ـ محتمل غير بعيد . وإذا كان معناه قل « سبحان » فكونه مقحما متعين . وقد علمت ما يدل له .

---

(١) سورة الواقعة ، الآية ٧٤ ، ٩٦

و « الأعلى » صفة الرب . والمراد بالعلو العلو : بالقهر والاقتدار ، لا بالمكان والجهة ، لتنزهه عن ذلك . وهذا العلو واجب لله فى ذاته وصفاته وأفعاله : فأما فى ذاته فبأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض ، وأما فى صفاته فبأن تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ، وأما فى أفعاله فبأن تعتقد أنه مالك مطلق عليم حكيم ، فلا اعتراض لأحد عليه فى أمر من الأمور ، سواء علمت الحكمة أو جهلتها . ولا معنى لذلك بعد إيمانك بأنه حكيم عليم :

دع الاعتراض فما الأمر لك ... ولا الحكم فى دوران الفلك
ولا تسأل الله عن فعله ... فمن خاض لجة بحر هلك

وقد كتبنا بتوسع فى هذا الموضوع برسالتنا : تفسير قوله تعالى : « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ »[1] .

وبالجملة فهو أعلى من كل ما يصفه به الواصفون ، ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون. فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا ، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا .

ويحسن بنا أن نلفت نظرك إلى أن السياق يدل دلالة واضحة على أن المراد بالعلو : علو الاقتدار والعظمة والملك ، لا علو المكان والجهة ، لأن العلو الحسى عبارة عن كونه تعالى فى غاية البعد عنا . وهذا لايناسب استحقاق التسبيح والثناء والتعظيم . أما العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالتخليق والإبداع فيناسب ذلك . والسورة ها هنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لأجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٣

ثم تراه بعد ذلك أردف قوله « سبح اسم ربك الأعلى » بقوله : « الذى خلق فسوى » . والخالقية والتسوية المبنية على الحكمة تناسبان العلو بحسب القدرة لا العلو بحسب الجهة .

واعلم أن السلف قائلون باستحالة العلو المكانى عليه تعالى ، خلافا لبعض الجهلة الذين يخبطون خبط عشواء فى هذا المقام ، فإن السلف والخلف متفقان على التنزيه .

والفرق بين مذهبيهما أن الخلف يعينون المعنى التنزيهى المراد ، والسلف ينزهون ولا يعينون فيقتصرون على صرف اللفظ عن ظاهره ، ويكلون المعنى المراد لله تعالى .

وكل ما ورد فى آيات الصفات وأحاديث الصفات من المتشابهات فهو مصروف عن ظاهره عند السلف والخلف (فإياك والغلط) . فإن الله تعالى لم يشارك الخلق فى شىء من الأشياء ، وإن وقعت المشاركة فى الأسماء . فانظر إلى العلم مثلا ، وهو مما وصف به الخالق والمخلوق ، تجده فى القديم مباينا له فى الحادث كل المباينة ، فإن علمنا مستفاد من الحواس أو من التفكير والنظر ، وهو انتقاش وانفعال . وعلم الله تعالى منزه عن ذلك كله .

وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء . فإذا كان هذا التباين واقعا بين الحوادث فما بالك به بين الخالق والمخلوق ؟

وقد نص المحققون على أن كل عالم من العوالم له أحكام تخصه . ومن الغلط البين قياس عالم على عالم آخر فى أحكامه وما ينسب إليه .

وأين عالم الأجسام من عالم النفوس ، وعالم النفوس من عالم العقول على ما بينته الفلسفة وأطال فيه القدماء؟ ولكن الشارع قد يتنزل فى التعبير إلى مستوى العقول المحجوبة بالحس رحمة بالجمهور ، ثم لا يدع ذلك حتى يزيل ما عسى أن يعلق بالأوهام من ظاهره ، فيقول : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)(1) .

(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ)(2) . (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ)(3) إلى غير ذلك من التنزيه ، فيشعر قلوبنا أن المقصود مما جاء فى آيات الصفات وأحاديث الصفات مما يوهم التشبيه أو نسبة الحوادث إليه تعالى بمقتضى تلك التعبيرات التنزلية إنما هو أرواحها لا ظواهرها ، بشهادة النصوص الأخرى الدالة على التنزيه الذى قامت عليه البراهين العقلية . وهذا إجماع من السلف والخلف كما عرفت . ولكن كثر الجاهلون وتفيهق الثرثارون(4) .

وقد نرى من المفيد للجمهور أن نطيل فى هذه المقامات ، ونكرر تلك البيانات . فهذا هو مقتضى الحال الذى عرفناه من الاستفتاءات الكثيرة ، وبلغناه عن دروس بعض الحمقى الذين قرءوا فى الكتب ما لا يستطيعون هضمه ولا يعرفون مغزاه .

(1) سورة الشورى ، الاية ١١

(2) سورة الأنعام ، الآية ٩١ .

(3) سورة الإخلاص ، الآية ٤

(4) الذين يزعمون أنهم أهل سنة وحديث :

فرقة تدعى الحديث ولكن   لا يكادون يفقهون حديثا

ولا بأس ، والمقام مقام إطناب ، وتصحيح العقيدة بتخليصها عن شوائب الأوهام يحتاج إلى كثرة تذكير ومزيد تكرير — أن نلفت نظرك إلى ما جرى بيننا وبين بعض المتعلمين العصريين ، مما أجدره بالذكر فى هذا المقام لكثرة فوائده ومزيد عوائده ، قال حضرته :

ما تقول فى مشكلة التوحيد ؟ فقلت له : وما مشكلة التوحيد ؟ فقال : قول العلماء : إن الله ليس فوق ولا تحت ولا فى جهة من الجهات ، مع أن الذى لا يكون فوق ولا تحت ولا فى جهة من الجهات يكون معدوما . فقلت له : ما أهونها مشكلة! فقال : مشكلة المشكلات ومعضلة المعضلات وقد رأيتها فى كتاب لبعض العلماء ولم يجب عنها وسماها مشكلة التوحيد !

فقلت له : إنى أجيب عنها وأنا نائم ، فإن ما ذكرتموه إنما هو أحكام الماديات والله منزه عن المادة وعلائقها ، ولو كان ماديا ما صح أن يكون إلها . وما تخيلتموه من أنه لابد من أحد المتقابلين ولا يصح ارتفاعهما جميعا فهو مشروط بالقابلية ، وإلا ارتفع المتقابلان معا ، بل يكونان محالين عند عدم القابلية . ألا ترى أن الإنسان لا بد له من أن يكون عالما أو جاهلا ولا يصح ارتفاعهما عنه ، ولكن الحجر لا يقال له عالم أو جاهل لعدم القابلية ؟ فكذلك الحق عز وجل لكونه غير مادى لا يجوز أن يتصف بشىء من هذه المتقابلات ، فإن القابل

إنما هو المادة . بل الفلاسفة يخيلون تلك المتقابلات على جميع المجردات كالأرواح والملائكة . وبهذا يرتفع الإشكال الذى تصور أولئك الحمقى أنه لا يرتفع وسموه مشكلة التوحيد :

فعندما وصلنا إلى ذلك الحد قال ذلك السائل : فكيف هو ذلك الإله وكيف تصل العقول إليه ؟

فقلت له : إن هنا مقامين : مقام الاستدلال على وجود الله تعالى ، ومقام معرفته بالكنه والحقيقة .

أما وجوده والاستدلال عليه فأظهر من الشمس وأوضح من الحس . فإن كل شىء من الأشياء وكل ذرة فى الأرض والسماء تدل عليه وتشير إليه : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)(١) .فوجودها ناطق بوجوده ، وإمكانها ناطق بوجوبه ، وما فيها من سر عجيب وترتيب غريب ناطق بعظيم قدرته وبديع حكمته وسعة علمه وإتقان تدبيره وعدم نهاية كمالاته وعلو أسمائه وصفاته : (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)(٢) . (أَوَ لَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)(٣) . (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فجعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)(٤) . (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٢) سورة الطارق ، الآية ٥ — ٧ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٦٧

(٤) سورة القيامة ، الآية ٣٧ — ٣٩ .

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا(١)) إلخ إلخ . وقد قالوا قديما : (نظرك فيك يكفيك) .

ولعمرى لقد أودع فى الإنسان من الأسرار والعجائب ما يدهش الناظر ويبهر المفكر . وقد دهش الناظرون فى الإنسان من علماء الفزيولوجيا . بل كل علم من العلوم إذا تعمق فيه صاحبه رأى من الآيات البينات والدلائل الواضحات والبراهين القاهرات ما يجعله يقول بلسان حاله أو مقاله : سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . فسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى . وقد قيل قديما :

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

(وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)(٢) .

أما المقام الثانى وهو الوصول إلى كنهه تعالى فأمره أيضاً فى غاية الجلاء والوضوح . فإن إله العالمين الذى ليس كمثله شىء يجب أن يكون متعالياً عن العقول ، ويستحيل أن يخضع لمحدثات الأفكار ومبتدعات الأنظار ، بماله من قواهر الأنوار ومدهشات الأسرار ، ولو لم يكن كذلك ما صح أن يكون رب العالمين .

ومن أين لذى الألواث البشرية والأدناس الطبيعية أن يدرك القدوس الأعلى الذى تقدست ذاته عن أن تراها العيون أو تدنو منها الظنون ؟ !

(١) سورة قاطر ، الآية ٢٧ .   (٢) سورة الإسراء ، الآية ٤٤

وقد قلت فى بعض ما كتبته : أنا لا أومن بإله محدد يصل إليه عقلى ، أو يمكننى أن ألمسه بيدى ، أو أصل إليه برجلى ، فإنه إذاً يكون ماديا تسرى عليه نواميس المادة لا محالة . أما الإله الذى أومن به فهو فوق الحدود والقيود ، ليس كمثله شئ وهو السميع البصير . فكيف تطبق عليه النواميس وهو قاهرها ؟ أم كيف يقاس بالماديات وهو مصورها ؟ !

وقد شط بنا القلم ، ولكن إلى ما دعت إليه الحاجة وأوجبته الضرورة واقتضاه جهل كثير من الناس فى هذا العهد الذى تراكمت ظلماته وتعاظمت آفاته ، وتكاثر مدعوه وقل منصفوه . فإلى الله المشتكى وبه المستعان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الذِى خَلَقَ فَسَوى . وَالَّذِى قدَّرَ فَهَدَى) : (١)

عرفت مما كتبناه قبلا أن المراد من تسبيح الاسم تنزيهه عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائفة ، وعن إطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه ، وعن ذكره لا على وجه الإعظام والإجلال . أو أن المراد سبح ربك الأعلى ، وكلمة الاسم مقحمة كما يدل عليه . ما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم لما « اجعلوها فى سجودكم » ، نزلت : والذى يقال فى السجود هو « سبحان ربى الأعلى » إلى آخر ما ذكرناه .

أما قوله تعالى : (الذِى خَلَقَ فَسَوَّى) فهو صفة أخرى للرب ، أو خبر لمبتدإ محذوف ، أو منصوب على التعظيم . وقد قصد بذلك الثناء على الله وبيان صفاته الجليلة وآياته البديعة التى هى برهان على أنه الرب الأعلى ، الذى تجلت قدرته فى مخلوقاته ، وبهرت حكمته فى بديع مصنوعاته . والمراد : أنه سبحانه وتعالى خلق كل شىء فسوى خلقه بإعطائه ما به يكون كماله ويتيسر معاشه ويتم بقاؤه .

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثانى – المجلد التاسع – صفر سنة ١٣٥٧

أما قوله (وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى) فالمراد به : أنه تعالى قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها : (إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[١] . ثم وجه سبحانه وتعالى كل واحد منها إلى مايصدر عنه وينبغى له طبعا أو اختيارا ، ويسره لما خلق له بخلق الميول والإلهامات ، وإيداعه من القوى مايعينه على ماأريد منه .

ولو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت فى كل منها ماتحار فيه العقول وتضيق عنه دفاتر النقول .

ومن التسوية أن جعل قامة الإنسان مستوية معتدلة ، وخلقته حسنة ، على ماقال : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[٢] . وقد أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس ، على حسب معيشته وحياته التى قدرت له ، وانظر إلى حال الحيوانات الدنيا والعليا والبرية والبحرية والهوائية والبحرية وما بينها من الاختلاف ، حتى أن بعضها يعيش فى التراب ويقتله الأكسوجين ، وبعضها بالعكس من ذلك . ولكل طريق مرسوم وخطة ينتهجها يكون بها صلاحه وبقاؤه (أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)[٣] . إلى آخر مادهش له علماء الحيوان .

ولاتزال الاكتشافات تظهر من أسرار الله ماتحار فيه الأفكار ولاتحيط بدقائقه ساميات الأنظار . ولعلك سمعت ما اكتشفوه الآن من الغدد وما نيط بها من الغايات وبديع الآيات .

---

(١) سورة القمر ، الآية ٤٩

(٢) سور التين ، الآية ٤

(٣) سورة طة ، الآية ٥٠

وبالجملة : فقد جعل الله تعالى جميع الأشياء مستوية فى الأحكام والإتقان «لا أنه سبحانه أتقن بعضا دون بعض» . وفى ذلك من الاستدلال على وجوده تعالى وحكمته ما لا يخفى . فإن الإنسان إذا نظر إلى شىء محسوس فرآه قد وضح بشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما ، وكان موافقا فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة فى ذلك الشىء المحسوس والغاية المطلوبة ، حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل أو بغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة — علم على القطع أن لذلك الشىء صانعا صنعه ، ولذلك وافق شكله ووضعه وقدره تلك المنفعة .

قال ابن رشد : لاشىء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصنعة فى الإحكام .

وقد تبين من هذا أن من أجل الطرق التى نصبها الله لعباده ليعرفوا منها أن العالم مخلوق ومصنوع هى مايظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التى فيه على اختلاف ألوانها وأشكالها ،

وبخاصة الإنسان ، وهى طريقة نسبتها فى الظهور إلى العقل نسبة الشمس فى الظهور إلى الحس .

وحيث انجر بنا القول إلى هذا فلنذكر لك شيئا مما فى خلقة الإنسان الذى أودعه الله من الخصائص والأسرار فى صورته ومعناه مايعجز عنه لسان البيان . وطالما كان يدور بنفسى أن أعمل رسالة فى تفسير قوله تعالى : (أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وقوله : (لقدْ خلقْنا

الْانْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) على نحو رسالتنا فى تفسير قوله تعالى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) .

وقد قالوا قديما : نظرك فيك يكفيك . وقال تعالى : (وَفِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[1] .

فلننتهز هذه الفرصة ونذكر شيئا قليلا من بدائع خلقة الإنسان ، فنقول : انظر كيف دور سبحانه الرأس ، وشق فيه السمع والبصر ، والأنف والفم ، وسائر المنافذ ، فجعل العين للبصر .

قال الغزالى : ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء ، وهو أمر يعجز عن شرح سره أعلم العلماء وأكبر الأطباء . وانظر كيف ركب هذه العين من سبع طبقات : القرنية ، العنبية ، العنكبوتية ، الشبكية ، المشيمية ، الصلبة ، الملتحمة . ولكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة ، ولو فقدت طبقة منها لتعطلت عن الإبصار . وانظر إلى هيئة الاشفار التى تحيط بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقى العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبار وغيره . فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق فى غير وقتها .

وقد أذكرنى ذلك قول بعض الفلاسفة من الأوربيين : يكفينى هدب العين فى الدلالة على الله .

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢١ – ٢٢

ولابأس أن نذكر لك قول الآخر : يكفينى فى الدلالة على الله خلق الأنثى بجانب الذكر ، فمن أعلم الطبيعة العمياء الصماء أن بقاء النوع لايكون إلا بخلق الذكر والأنثى .

ولاغرو : فهى آية تسترعى الأنظار ، وتستهوى العقول والأفكار ، حيث خلق لك أنثى من نوعك تماثلك صورة وشكلا ، وتخالفك ترتيبا ومعنى ، وهيأ كلاً منكما لما يراد منه وإن خلقكما جميعا من ماءٍ مهين ، ولا فرق بينكما فى عناصر التكوين ، ولكن يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم .

وقد امتن علينا سبحانه وتعالى بذلك مبينا أنها من الآيات البينات والدلائل الواضحات فقال عز من قائل : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّـوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[1] .

ومما يحسن ذكره ها هنا قول فكتور هوجو : « إن القول بأن العين لم تخلق للإبصار وإنما وجدت هكذا فكان بها الإبصار ، لمن أفظع أنواع الجنون التى تلم بالعقل الإنسانى » . ثم قال الغزالى : ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه ، جعل شعرها على قدر لايزيد زيادة تضر بالعين ، ولاينقص نقصا يضر بها .

---

(١) سورة الروم ، الآية ٢١

وأستلفت نظرك بعد هذا كيف خلق فى مائها ملوحة لتقطيع مايقع فيها ، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلا لينصرف مايقع فى العين لاحد الجانبين .

ثم انظر إلى الفم واللسان وما فى ذلك من الحكم ، وكيف جعل الشفتين سترا للفم كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه ، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال ، فلولاهما لتشوهت الخلقة ، ومع ذلك هما معينان على الكلام ، وبعض الحروف يتوقف عليهما ولايكون إلا بهما . وكيف جعل اللسان للنطق والتعبير عما فى ضمير الانسان ، فضلا عن تقليب الطعام وإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه ، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع .

ثم جعل الأسنان أعدادا متفرقة ولم تكن عظما واحدا ، فإن أصاب بعضها ثلَم انتفع بالباقى . وقد جمع فيها بين النفع والجمال ، وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لمزيد الحاجة إليها . واقتضت الحكمة أن جعل الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام مع كونهما جمالا للفم ، فأحكم أصولها ، وحدد رءوسها ، وبيض لونها مع حمرة ماحولها ، وجعلها متساوية الرأس ، متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم .

ثم انظر كيف خلق فى الفم نداوة محبوسة لاتظهر إلا فى وقت الحاجة إليها ، وهى «الريق» ولو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويها للإنسان . وحكمتها أن يبل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم .

فإذا فقد الأكل عدمت تلك النداوة الزائدة التى خلقت للترطيب وبقى منها مايبل اللهوات والحلق ، لتصوير الكلام ، ولئلا يجف ، فإن جفافه يجلب للإنسان أعظم الضرر .

ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه إذ جعل للأكل لذة الأكل ، فجعل الذوق فى اللسان وجميع أجزاء الفم ، ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من الملذوذ ، فيجد فى ذلك راحة فى الطعام والشراب إذا دعت حاجة إلى تناوله ، وليجتنب الشىء الذى لايوافقه ، ويعرف بذلك حد ماتصل الأشياء إليه فى الحرارة والبرودة .

ثم انظر إلى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء ، وذلك سر لايعلم حقيقته إلا البارى سبحانه . وقد جعل فى الأنف حاسة الشم ليستدل باستشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه ، ليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب الخبائث ، وليستنشق أيضا روح الحياة غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه .

ثم انظر إلى الأذن كيف جعل فيها انحرافات واعوجاجات لتطول المسافة قليلا فلايصل الهواء إلا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة واحدة فيؤذيها ، ولكى يعرقل سير ماعسى أن يدخل إليها من الدبيب والحشرات ، فإذا دخل إلى المعوج من تلك الانعطافات وقف هناك فسهل إخراجه .

وكانت العينان فى وسط الوجه والأذنان فى جانبيه ، لأن العين محل الملاحة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذى يمشى بين يدى الإنسان .

وأيضا كان جعلهما فى الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان وأمامه وعن يمينه وعن يساره سواء ، فتأتى المسموعات إليهما على نسبة واحدة ، وخلقت العينان بغطاء والأذنان بغير غطاء ، وهذا فى غاية الحكمة ، إذ لو كان للاذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء ، والصوت عرض لإثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ماتراه العين فإنه أجسام وأعراض لاتزول أثناء كشف الغطاء .

ثم انظر إلى بقية الاعضاء الظاهرة كاليدين والرجلين ، ثم الباطنة كالمعدة والقلب والكبد والرئتين والأمعاء والكليتين (ولاتنس السبيلين) وما فيك من القوى المختلفة من الغاذية والنامية والجاذبة والدافعة والمصورة وما نيط بكل من الوظائف والأعمال . حتى أنك تجد فى الحلق منفذين : منفذاً للنفس ، ومجرى آخر بجانبه للطعام والشراب . وقد اقتضت الحكمة أن تجعل هناك غطاء يغطى مجرى النفس عند بلع الطعام ، وهو المسمى بلسان المزمار ، لئلا تدخل فيه اللقمة التى قد تسبب الموت . وما أسرع ماينفتح ويعود حال الأكل . إلى آخر ما لا يمكن تفصيله فى عجالة كهذه .

فلنقل كما قال على رضى الله عنه : سبحان من بصر بشحم وأنطق بلحم ، وأسمع بعظم . (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)(١) . (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى : فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ

(١) سورة الطارق، الآية ٥

الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)(١) . (خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)(٢) (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)(٣) .

وبعد هذا كله إذا نظرت إلى الإنسان من حيث روحه وتفكره وإدراكه وتخيله وما أعطى من القدرة على التفنن فيما يريد ، والوصول إلى أسرار الملك والملكوت ، وجدت باطنه أعجب من ظاهره ، وروحه أسمى من جسمه .

وبالجملة : فالإنسان إذا تفكر فى نفسه استنارت عنده آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل . فإنه إذا نظر فى نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات شاهدة لمدبرة ، دالة عليه ، مرشدة إليه .

ولنقف هنا اليوم إشفاقا على القارىء أن يمل . ولندع مجالا لحضرات الكتاب الفضلاء سائلين الله أن ينور بصائرنا ، ويصلح سرائرنا ، ويعرفنا نفوسنا ، فإن من عرف نفسه عرف ربه .

(١) سورة القيامة ، الآية ٣٧ — ٣٩
(٢) سورة الانفطار ، الآية ٧ و ٨
(٣) سورة الطور ، الآية ٣٥

سورة الأعلى (١)

قال الله تعالى : (وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى . سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى . إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ . إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) :

ذكرنا لك طرفا من تقدير الله تعالى المبنى على العلم والحكمة فى خلق الإنسان ، ونذكر لك اليوم نماذج صغيرة فى خلق بعض العوالم فنقول :

من تقديره تعالى المنطوى على الأسرار العجيبة والحكم الغريبة التى لا يحيط بها إلا رب العالمين ، أن فاوت بين أشكال الكواكب ومقاديرها ، وألوانها وحركاتها ، وأماكنها ومداراتها ، فجعل منها الكبير ، والصغير ، والمتوسط ، والأبيض والأحمر ، إلى غير ذلك .

ثم جعلها مختلفة المنازل: فمنها ما يتوسط قبة الفلك ومنها ما يكون فى جوانبها ، ثم خالف بينها فى الحركة التى تقطع بها البروج : فمنها ما يقطع الفلك فى شهر ، ومنها ما يقطعه فى عام ، ومنها ما يقطعه فى ثلاثين عاما ، ومنها ما يقطعه فى أضعاف ذلك .

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثالث — المجلد التاسع — ربيع الاول سنة ١٣٥٧

ثم أنها دائبة الحركة لا تفتر ولا تنى على مر الدهور وكر العصور :

شموس فى البرية مشرقات نجوم فى الدياجى لامعات
بطول الدهر دوما سابحات إلى ما لست أدرى طائرات
يطير له بها الجرم السميك

فسبحان من قدرها أحكم تقدير ، ودبرها أحسن تدبير .

ثم انظر بعد ذلك إلى كثرتها التى تفوق الحصر ، وإلى اختلاف طلوعها وغروبها ، فبينما ترى كوكبا يأخذ فى الغروب إذ كوكب آخر قد طلع وهو آخذ فى الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر فى الربع الشرقى ، وكوكب آخر فى وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته ، إلى آخر مالا يأتى عليه البيان . وقد ذكرنا منه جملة فى بعض ما كتبناه عن اللورد أوفبرى وغيره .

ويحسن بنا هنا أن ننشد قول القائل :

عجباً للطبيب يلحد فى الخا لق من بعد درسه التشريحا
ويرينا علم النجوم الذى يو جب للدين أن يكون صريحا

ثم لننتقل إلى ما فى الأرض من التقدير البديع ، فترى الحق سبحانه وتعالى جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومسكن الإنسان وجعلها ذلولا تطؤها الأقدام ، وتنبت فيها الزروع ويعمل منها اللبن وتبنى فيها الأبنية ، ولو جعلها من حجر أو حديد لم تمكن

المعيشة عليها لإنسان ولا حيوان ، فهى ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وهى له كفات ، فى حياته ومماته .

و بالجملة فقد هيأها لكل ما يراد منها ، فأخرج منها ماءها ومرعاها ، وجعل فيها كل ما يحتاج إليه من على ظهرها من النبات والأقوات ، والفواكه والثمار ، والورود والأزهار ، فلك فيها كل ما تميل إليه نفسك ويصبو إليه حسك ، من منظور ومسموع ، ومشموم وملموس ، وما تحتاج إليه من الغذاء والدواء ، بل أوجد منها الرجال والنساء :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)(١) .

فليت شعرى ما هذه الأرض التى أخرجت لنا جميع الأشياء حتى الرجال والنساء ، وماذا أودع فيها حتى آتتنا كل ما نحتاج إليه مما يكون وجودنا متوقفا عليه .

ومن آيات الأرض التى اقتضتها عناية الحكيم تعالى أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، فهذه سهلة وهذه حزنة ، وهذه تنبت وتلاصقها أرض لا تنبت وهذه خصبة وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ويليها رخوة ، وهذه سوداء ويليها أرض بيضاء ، وهذه تصلح لنبات كذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره « ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، وليكون ذلك سببا فى التآلف والتعارف » إلى غير ذلك من الأسرار . ويكفيك فى هذا قوله تعالى : (وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى

(١) سورة الروم ، الآية ٢٠

بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(١) .

فاشكر الهك الذى نوعها هذا التنوع ، وفرق أجزاءها هذا التفريق وخص كل قطعة منها بما خصها به ، وألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج الماء والمرعى ، وأمسكها عن الزوال ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ووضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها .

وهيأها مسكنا ومستقرا للأنام ، وجعلها ذلولا غير مستصعبة ولا ممتنعة : ووطأ منها كبها وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها وأخرج ثمارها ، وصدعها عن النبات وأودع فيها جميع الأقوات ، وبسطها وفرشها ومهدها وطحاها ودحاها وجعل ما عليها زينة لها .

وهو الذى يمسكها أن تتحرك الحركات المهلكة فيسقط ما عليها من بناء ، ويموت ما عليها من حيوان وإنسان . وهو الذى أنشأ منها النوع الإنسانى الذى هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات وجعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والمعادن والأرزاق والحيوان والذى جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت فى

(١) سورة الرعد ، الآية ٤

القرب لاشتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أبدان الحيوان والنبات .

وهو الذى جعل فيها الجنات والحدائق والعيون ، وجعل باطنها بيوتاً للأموات ، وظاهرها بيوتاً للأحياء . وهو الذى يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس فتأخذ فى الحمل مما يتخلق فى بطنها ، فإذا كان وقت الولادة وجاءها المخاض اهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج . فحرارة الربيع للإخراج ، وحرارة الصيف للإنضاج ، وبالجملة لو لم يكن هذا التدبير العجيب لاختلت مصالح العالم وفسد نظام الكون .

ومما يحسن أن نلفت نظرك إليه ، ولعلك حريص عليه ، أن الأرض فيما اثبتته الاكتشافات الجديدة ، وهو مذهب قديم أيضاً كما فى كتب الفلسفة القديمة ، إن لها حركتين : حركة حول نفسها ، وحركة حول الشمس ، وأنها تسير بغاية السرعة ونحن عليها لا نحس بشىء من ذلك . فأى تدبير أحكم هذا الصنع ، وأى علم أتقن هذا الإبداع ، وأى قدرة نفذته وأحكمت تلك العلاقات التى بين الأرض والشمس ، بل بين عالم الأرض وعالم السماء ؟ وأمر الشمس فى جريانها وتدبيرها مع توابعها من السيارات أعجب من ذلك كله .

ولنتل هنا قوله تعالى : (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ

الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[1] .

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

والخلاصة الوجيزة : أن المراد بالتقدير والتسوية أنه تعالى خلق ما أراد على وفق ما أراد ، موصوفاً بوصف الإحكام والإتقان ، مبرأ عن الاضطراب والتشويش .

والهداية قد تكون هداية فكر وتعقل كما فى هداية الإنسان إلى كثير من مصالحه وقد تكون هداية جبلية بالإلهام كما فى الحيوان . « وإبداع تلك القوى الطبعية فى الأشياء هو نوع من الهداية والتسخير » وقولهم إن كذا طبيعى معناه أنه إلهى لا تعمّل فيه . وكل ما كان جبليا لا دخل لصاحبه فيه قيل له طبيعى ، إشارة إلى أنه على غاية ما يكون من الإتقان ، لأنه إلهى محض لا دخل لعمل الفكر فيه . فإذاً قولنا : طبيعى ، مرادف لقولنا : إلهى .

أما قوله تعالى : (والذى أخرج المرعى) فاعلم أنه سبحانه لما بين ما يختص به الناس أو هو ظاهر فيهم ، أتبعه بذكر ما يختص به غير الناس من النعم ، فقال : (والذى أخرج المرعى) أى هو الذى أنبت العشب ، فلا ينبغى أن يعبد غيره من الأصنام التى يعبدها المشركون . والمرعى : ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش . وروى عن ابن عباس أنه الكلأ الأخضر .

(1) سورة يس ، الآية : ٣٨ – ٤٠

أما الغثاء : فهو ما يبس من النبات فحملته الأودية والمياه وألوت به الرياح .

وأما الأحوى : فهو الأسود . وقال بعضهم : الأحوى هو الذى يضرب إلى السواد . وقال الفراء وأبو عبيدة : الأحوى هو الأسود لشدة خضرته ، كما قيل مدهامّتان ، أى سوداوان لشدة خضرتهما .

وهذه الأوصاف يتضمن كل منها التدريج ، ففى الوصف بها تحقيق لمعنى التربية ، وهى تبليغ الشىء كما له شيئاً فشيئاً ، وفى نقل الأشياء من طور إلى طور ومن حال إلى حال دليل على تصرف القادر العظيم والإله الحكيم ، كما قال بعد أن بين أطوار الإنسان من النطفة والعلقة والمضغة ثم نفخ الروح فيه (فتبارك الله أحسن الخالقين)(١) وكما قال (مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً)(٢) وقد أفاض علماء التوحيد فى تغير العالم ودلالته على الحدوث ، والبرهنة بذلك على وجوده تعالى وقدرته ومشيئته وحكمته .

أما قوله : (سنقرئك فلا تنسى) فهو بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم إثر بيان هدايته تعالى العامة لكافة مخلوقاته ، وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحى وحفظ القرآن الذى هو هدى للعالمين . ويستبين منه التسبيح الذى ينزه به ربه المأمور به فى أول السورة . فإن تنزيهه تعالى وما يليق به من جلال وكمال يجب أن يؤخذ من الوحى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٤
(٢) سورة نوح ، الآيات ١٣ ، ١٤

ولا من خلفه ، لا من كلام أرباب العقول الذين يصيبون ويخطئون . والسين للتنفيس أو التأكيد .

أما قوله : (إلا ما شاء الله) ففيه احتمالان : أحدهما أن يقال : هذا الاستثناء غير حاصل فى الحقيقة ، وأنه عليه السلام لم ينس بعد ذلك شيئاً . قال الكلبى : أنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئاً . وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله : (إلا ما شاء الله) أحد أمور :

١ – التبرك بذكر هذه الكلمة على ما قال تعالى : (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله)(١) . وكأنه تعالى يقول : أنا مع أنى عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الأمور على التفصيل لا أخبر عن وقوع شىء فى المستقبل إلا مع هذه الكلمة ، تبيينا لكون الأشياء كلها مرتبطة بمشيئتنا ، وتعليما لكم أن ترجعوا كل شىء إلينا ، فعليكم أن تقولوها فى كل شىء ، وأن تلاحظوها عند كل عمل .

٢ – قال الفراء : أنه تعالى ما شاء أن ينسى محمداً عليه السلام شيئاً ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لذلك لقدر عليه كما قال : (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك)(٢) ، ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك . وقال لمحمد عليه السلام : (لئن أشركت ليحبطن عملك)(٣) مع أنه عليه السلام ما أشرك البتة ، فهى من هذا القبيل .

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٣ ، ٢٤ (٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٦
(٣) سورة الزمر ، الآية ٦٥ .

وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته . فكأن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاؤه عليه السلام على التيقظ فى جميع الأحوال .

٣ ـ يصح أن يكون الغرض من قوله (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) نفى النسيان رأسا كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهيمى فيما أملك إلا ما شاء الله ، ولا يقصد استثناء شىء .

٤ ـ قال مقاتل : إلا ما شاء الله أن ينسيه ، ويكون المراد من الإنساء هاهنا نسخه كما قال : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا)(١) فيكون المعنى : إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها فيأمرك ألا تقرأه ولا تصلى به ، فيصير ذلك سببا لنسيانه وزواله عن الصدور .

أما قوله تعالى : (إنه يعلم الجهر وما يخفى) ففيه وجهان :

أحدهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ مع جبريل عند الوحى مخافة النسيان ، فقيل له : إن الله عالم بجهرك فى القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام ، وعالم بالسر الذى فى قلبك وهو أنك تخاف النسيان ، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه . ويكون مثل قوله :
(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)(٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠٦
(٢) سورة القيامة ، الآيات من ١٦ — ١٨

والثانى : أن يكون المعنى فلا تنسى إلا ما شاء الله أن ينسخ فإنه أعلم بمصالح العبيد فينسخ حيث يعلم أن المصلحة فى النسخ .

أما قوله تعالى : (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) فاليسرى هى أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه وجوه :

أحدها أن المعنى سنقرئك فلا تنسى ونوفقك للطريقة التى هى أسهل وأيسر يعنى فى حفظ القرآن .

وثانيها : قال ابن مسعود : اليسرى الجنة . والمعنى نيسرك للعمل المؤدى إليها .

وثالثها : نهون عليك الوحى حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به .

ورابعها : نوفقك للشريعة وهى الحنيفية السمحة السهلة .

واللفظ محتمل لذلك كله ، فالأولى أن يراد ذلك كله ، فهو تعالى ييسره لكل ما هو خير وسعادة .

وقد قال (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (١)) بنون التعظيم لتكون عظمة المعطى دالة على عظمة العطاء . وقد دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتحه على أحد غيره . وكيف لا وقد كان صبيا لا أب له ولا أم ، نشأ فى قوم جهال ، ثم إنه تعالى جعله فى أفعاله وأقواله قدوة للعالمين وهاديا للخلق أجمعين ، حتى استحق أن يقال له : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(٢) بل أن يقسم الحق بحياته حيث يقول : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)(٣) .

(١) الأعلى آية ٨
(٢) سورة القلم ، الآية ٤
(٣) سورة الحجر ، الآية ٧٢

ثم يقول له :

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)(١) . فسبحان من حباه وأعطاه ، وجعله أشرف خلق الله . نسأل الله أن يجعلنا من محبيه ومحبوبيه بمنه وكرمه .

وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام ، مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما فى قوله تعالى (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)(٢) ، للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها ، بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها . وذلك نظير قوله صلى الله عليه وسلم : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» .

وبالجملة فالمعنى : نوفقك توفيقا مطرداً لاصعوبة فيه ، ولا مشقة تعتريه ، فى كل باب من أبواب الدين ، علما وتعليما ، واهتداءً وهداية ، فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحى والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية ، مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة والسلام وتكميل غيره ، كما تفصح عنه الفاء فى قوله تعالى : (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى) .

هذا واعلم أن عادة القرآن أن يرجع الأمور كلها إلى الله تعالى ، مبينا أنه لا شىء يخرج عن مشيئته وإحاطته ، فيقول : (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)(٣) ويقول : (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)(٤)

(١) سورة الضحى ، الآية ٥
(٢) سورة طه ، الآية ٢٦
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٦٠
(٤) سورة الكهف ، الآية ١٧

ويقول : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ)(١) . ويقول : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)(٢) . ويقول : (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ)(٣) . ويقول : (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٤) . ويقول : (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)(٥) . ويقول : (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)(٦) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : (كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) . ويقول فى تفسير الإيمان (وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) .

إلى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة مما يثبت إحاطة الربوبية ، ويبين أن الله هو مسبب الأسباب وفاتح كل باب .

وهكذا يجب أن يكون رب العالمين ، وأقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، ولكن ينبغى أن تعلم أنك من الأسباب أيضا ، وقد خلقت خلقة عجيبة ، فجعل فيك من العلم والاختيار والاستعداد لقبول ما جاءت به الرسل ، ومن العقل والفكر ما يعرفك النجدين ، ويهديك إلى سعادة الدارين ، ما لم يجعله لغيرك ، وإن كان ذلك كله على حد محدود وقدر معلوم لا يخرجك عن إحاطته أو يجعلك مستطيعا لمخالفة مشيئته

(١) سورة التكوير ، الآية ٢٩
(٢) سورة الأنفال ، الآية ٢٤
(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٠
(٤) سورة فاطر ، الآية ٢
(٥) سورة يس ، الآية ٨٣
(٦) سورة هود ، الآية ١٢٣

أو منازعة ربوبيته ، مع ملاحظة أن النظام العام للعالم قد يقضي بوجود الشر القليل لما يترتب عليه من الخير الكثير . وقد قالت الفلاسفة : أن ترك الخير الكثير من أجل شر قليل شر كثير .

ولتلاحظ مع هذا أن للإمكان حدودا ، وللممكن استعدادا خاصاً يقتضي أحكاماً خاصة . والإمداد إنما يكون على قدر الاستعداد ، وما وراء هذ لا يكون ، وبعد ذلك كله سر القدر والحكمة التي اختص بها تعالى ، والعلم الذي كان به نظام المكوّنات وتدبير المخلوقات ، ذلك النظام الذي روعي فيه حال الممكنات كلها لا شخصك الضئيل . وقد قال تعالى : (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[1] ، (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)[2] .

فاعرف قدرك ، وقف عندما جاء به الشرع ، وإياك أن تتعداه ، واتهم عقلك وقدس رسولك ، واعرف سعة العلم وعظمة الربوبية .

وقد دللتك على ما يسعدك في الدنيا والآخرة ، وما يجب لضعيف مثلك مع من لا يعلم عظمته إلا هو ، والله يتولى هداك .

قال تعالى (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ)[3] :

اعلم أن كمال حال الإنسان في أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه ، وقد ورد «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ» .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥
(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦
(٣) سورة الأعلى ، الآيه ٩

ولما كان صلى الله عليه وسلم كاملا في نفسه بمقتضى قوله تعالى : (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ) أمر بأن يكمل غيره ليكون تاما وفوق التمام فقيل له : (فذكر) لأن التذكير يقتضي تكميل الناقصين وهداية الجاهلين. ومن كان كذلك كان فياضا للكمال ، فكان تاما وفوق التمام .

والمراد بتعليق الأمر بالتذكير على الانتفاع به ، الحث على التأمل والنظر حتى ينتفعوا بالتذكر ، كما يقول المرء لغيره إذا بين له الحق : «قد أوضحت لك السبيل إن كنت تعقل» . فيكون مراده الحث على القبول والانتفاع به . أو نقول : إن هذا التعليق يجري مجرى تنبيه الرسول أنه لاتنفعهم الذكرى ، كما يقال للرجل : «ادع فلانا إن أجابك» وكأنك قلت : «ما أراه يجيبك» . ولك أن تقول : ان التذكير واجب في أول الأمر ، فأما التكرير فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود .

على أن المالكية صرحوا بأنه لايجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا إذا ظنت الإفادة . وقد أنكر عليهم بعض الشافعية ، ولكن هذا هو المعقول ، فإن الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها ولو على سبيل الظن لم تشرع ، وأفعال العقلاء تصان عن العبث .

وللمالكية أن يتمسكوا بظاهر هذه الآية ، وبمثل قوله تعالى في الآية الأخرى : (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)[1] . وعلى كل حال فعلى المؤمن أن يكون حكيما في كل ما يأتي ويذر . والشريعة لاتعرف إلا الحكمة . ولكن لابد أن ننبه مع هذا على أن الناس الآن قد تهاونوا في

---

(١) سورة ق ، الآية ٤٥

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى وصلنا إلى مانحن فيه من شيوع المنكرات واقتراف جميع المحظورات . وفى رأيى أن العلماء لو تضافروا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعرّفوا الناس أن ذلك واجب عليهم لافرق بين صغير وكبير ، لخف الأمر ودب الحياء فى النفوس من الناس إن لم يكن من الله . ولكنا على ماقال الأولون : « افتضحنا فاصطلحنا » .

ثم بين تعالى من تنفعه الذكرى فقال (سيذَّكَّرُ مَن يَخْشَى) . والخشية إما حاصلة بالفعل ، وإما حاصلة بالقوة محتاجة لمن يثيرها من القلوب ، و إما غير حاصلة بالفعل ولا بالقوة فلا مطمع فيها . فالأول حال الخاصة ، كما يشير إليه قوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[1]. والثانى حال العامة . والثالث حال المتكبرين والمعاندين ، فإنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، (وإن يَرَوا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يتَّخذُوه سَبِيلًا ، وإن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذوه سَبِيلًا)[2] .

وقد سمى الله ذلك تذكيرا لقوة الدلائل وظهورها ، فكان العلم بالحق حاصلا ثم زال أو نقول : ان كل مولود يولد على الفطرة ، ففيه أصول الخير والإحساس بالحق والدين ، ولكن تفسد فطرته باتباع الشهوات واقتراف المنكرات ، وصحبة الفاسقين والجاهلين والمعاندين ، كما تفسد العين الصحيحة لعدم حفظها من الآفات وقلة تعهدها بما ينفع النظر ويجلو البصر .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

والأرواح محتاجة إلى الرياضة بعلوم الدين ، ومذاكرة الكتاب والسنة ، وكتب المواعظ كإحياء علوم الدين وغيره . كما أن الأجسام محتاجة للرياضة البدنية .

أما قوله : (ويَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى. الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى)[1]

فنحيلك فيه على ما بيّناه قبلاً من أن أصناف الخلق ثلاثة : العارفون والمتوقفون ، والمعاندون . فالقسمان الأولان لابد أن يكون لهما خوف وخشية بالفعل أو القوة . وصاحب تلك الخشية لابد وأن يستمع إلى الدعوة وينتفع بها ؛ فيكون الأشقى هو المعاند الذى لايستمع إلى الدعوة ولا ينتفع بها . فلهذا قال تعالى (وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى. الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى) .

وقد تفسد نفس الإنسان بالكبر والعناد حتى لا ينفع عنده برهان ولا يؤثر فيه بيان . وقد قال الله تعالى فى حق قوم هذا شأنهم : (ولَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)[2] .

فانظر إلى أى حد وصلوا من التصلب فى العناد ومجافاة الحق حتى أنكروا المحسوس . ونظير ذلك قوله تعالى : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فى قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِم لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحرٌ مُبِينٌ)[3] . ويقول فى الاية الأخرى : (وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وكَلَّمَهُمُ الْموْتَى وَحشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا

(١) سورة الأعلى ، الآيتان ١١ ، ١٢
(٢) سورة الحجر . الآيتان : ١٤ ، ١٥
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٧ .

لِيُؤْمِنُوا)(١) .ويقول : (ولئن أتيتَ الذينَ أُوتوا الْكِتابَ بِكُلِّ آية ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ(٢))إلى غير ذلك مما بيَّن لنا أن الفطرة قد تصل إلى حد من الفساد لا مطمع فيه .

وعلى كل حال فالإنسان مجمع العجائب والغرائب ، فقد يلطف حتى يكون ألطف من الهواء وأسلس من الماء ، وقد يكثف حتى يكون كالحجارة أو أشد قسوة ..

ومما يحسن التنبيه عليه فى هذا المقام أن هذه الخصال الممقوتة : من الكبر والحرص والحسد ونحوها ، إنما خلقت فى الإنسان لحكم بليغة ، وقد جعل لها الحق سبحانه وتعالى مصارف لو صرفت فيها لكانت فضائل لا رذائل ، وكان هذا موضع الابتلاء والامتحان . ولنقص عليك شيئاً من ذلك فنقول : مثلا خلق فيك الحسد لتصرفه فى المنافسة فى فعل الخير والغبطة عليه والمسابقة إليه ، وخلقت فيك غريزة الكبر لتستعملها فى التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن رآه يختال بين الصفين فى الحرب « هذه مِشْيَةٌ يُبغضها اللهُ إلا فى هذا المَوْطن » وقال فيمن فرط فى بعض آداب الصلاة حرصا عليها : « زادك الله حرصاً ولا تعُد » . وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه فقال : يَأَيُّهَا النَّبى جاهد الْكُفَّارَ والْمُنافقينَ وأَغْلُظْ عَلَيْهِم)(٣) وقال (وَلْيجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً)(٤) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١١
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٥
(٣) سورة التوبة ٧٣ والتحريم ٩
(٤) سورة التوبة ، الآية ١٢٣

وخلق فيك غريزة الحرص لتصرفها فيما ينفع ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « احرِص علَى مَاينْفَعُكَ وَلَا تَعجز » . وخلق فيك الشهوة القوية لتقومَ بما جعله لك من التزوج بأربعة والتسرّى بما شئت ليحفظ بذلك بقاء النوع ويكثر من أفراده ، وهو أحب مخلوقاته إليه « ولذلك علَّمه الأسماء كلَّها وأسْجدَ له ملائكته ».

وجعل فيك غريزة حب المال لتنفقه فى مرضاته ، وتتزود منه لمعادك . وجعل فيك غريزة حب الجاه لتصرفه فى تنفيذ أوامره وإقامة دينه ،ونصر المظلوم وإغاثة الملهوف وإعانة الضعيف وقمْع أعداء الله.

وهكذا جميع القوى التى ركبت فيك جعل لها مصرفا ، وقد أودعها الله فيك لمصالح اقتضتها حكمته ، فليس المطلوب تعطيلها ، وإنما المطلوب صرفها فى مجاريها ، واستعمالها فى موضع دون موضع ومحل دون محل على حسب ما يقضيه الشرع والعقل والحكمة ، وهو موضع الابتلاء وسلم الارتقاء ، وميدان العقل والذكاء ، إلى آخر ما يرشدك إليه قلبك الطاهر ونفسك الزكية .

واعلم أن الكبر من أعظم الآفات بل هو أُسها وجِماعُها . وهو الداء العضال الذى لا تنفع معه موعظة ولا يفيد فيه دواء .وإذا عجز الرسل وهم أعظم أطباء النفوس عن هداية المتكبرين ،فغيرهم بالأولى . وقد قال تعالى : (سَأَصرفُ عنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِها وإنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يتَّخِذُوه سَبِيلًا ، وإنَّ يروْا سبيلَ الْغَيّ يتَّخذُوهُ سَبِيلًا)(١) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦

وماذا ترجو ممن انتحل لنفسه خاصة الألهية والألهية تأبى المشاركة فكيف تسمح نفسه الجاهلة المتألهة أن تكون سامعة لغيرها أو تابعة لمن سواها ؟ فإذا ترسخ ذلك الخلق الذميم فى النفس اعتقد صاحبه أنه أسمى من غيره ، وأن كل من عداه دونه .

وقد قال الإمام الغزالى : إنّ فى النفس غريزة الترفع على الغير ، وهى تريد أن تقول : « أنا ربكم الأعلى » كما قال فرعون ، إلا أن فرعون ،وجد من يقبل منه ذلك ولا يعارضه ، فكيف مع هذا يقبل المتكبر النصح من غيره ، أو يصغى للحق من نبى أو رسول ؟ وكيف لا يحقد على غيره إذا رأى فيه فضيلة ترفعه عليه وهو لا يرى إنسانا أحق بالتبجيل والتعظيم منه .

فلا غرو إذاً أن يدفعه كبره إلى كل رذيلة ، ويحول بينه وبين كل فضيلة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخلُ الْجنّةَ منْ كَانَ فِى قَلْبِه مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ » ، لأن الكبر كما عرفت يورط صاحبه فى الأخلاق التى تورثه المقت فى الدنيا والآخرة .

وبالجملة فالمتكبر لا يرجى له فلاح ولا ينتظر منه صلاح (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)(١).

وانظر إن شئت إلى ماحكاه الله عن أولئك المتكبرين فى قوله (أنؤمنُ

(١) سورة غافر ، الآية ٣٥

لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا)(١) . (إنْ أنتُمْ إلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)(٢) (وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إذاً لَخَاسِرُون)(٣).

فانظر إلى ذلك المنطق الغريب ، بل الضلال البعيد الذى خيل لهم أن مَنْ كان مثلهم فى البشرية يجب أن يكون مثلهم فى كل شىء « وهكذا تكون فلسفة المتكبرين وعلوم الجاهلين » .

والخلاصة أن هؤلاء ما منعهم عن اتباع الرسول، صلى الله عليه وسلم ، إلا جهلهم وتكبرهم وأنفتهم من أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وإلا فبراهين صدقه ،صلى الله عليه وسلم أوضح من الشمس وأجلى من الحس . ومن نظر فى هذا القرآن وما فيه من العلوم والمعارف وأصول السعادات ومجامع الخيرات ولم يَشُكَّ فى أنه تنزيل من حكيم حميد .

فإن كان الفلاسفة الأولين والمحدثين لم يصلوا من الاصلاح العلمى والعملى ،ولا من الآثار التى ظهرت فى الوجود وبقيت على ممر العصور ، إلى إلى عشر معشار ما جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من الإصلاح الروحى والجسدى والاجتماعى والفردى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ عَلَى أنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لَا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)(٤) . وقال برناردشو المعاصر لنا :

« إن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه اليوم ، لتم النجاح فى حكمه ، ولقاده إلى الخير وحل مشاكله بوجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٤٧ (٢) سورة إبراهيم ، الآية ١٠
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٣٤ (٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٨

ولو نظرت فى حال الأُمة العربية فى همجيتها أيامَ الجاهلية ، ثم نظرت فى حالها بعد الإسلام مادياً وأدبياً ، لعرفت تلك المعجزة الكبرى التى أتى بها ذلك الرسول الأُمى الذى ما قرأ كتاباً ولاخطه بيمينه .

ولعمرى إنها لأكبر الآيات وأبهر المعجزات . وهذه المعجزات المعونة فى نظر المتبصرين أكبر من المعجزات الحسية التى أفاضت فيها كتب السير وامتلأت بها أسفار المؤرخين .

كفاك بالعلم فى الأُمى معجزة   فى الجاهلية والتأْديب فى اليتم

فإذا نظرت مع هذا إلى أن ما جاء به ، صلى الله عليه وسلم ،من التوحيد وأُصول الدين قد شهدت به العقول السليمة والفطر الطاهرة ، ووافقه عليه أربعة وعشرون ألفا ومائة ألف نبي كلهم جاءوا بالتوحيد وإثبات الصانع عز وجل ، وادعوا الوحى وأقاموا على ذلك البراهين ، وهو عدد يحيل العقل تواطؤهم على الكذب ، ثم نظرت فى حالهم فوجدتهم على خلاف أهل الدنيا فلا يتنافسون ولا يتحاسدون ولا يتكاذبون ، ولو كانوا فى عصر واحد وصقع واحد كإبراهيم ولوط مثلا . ثم انظر إلى من تعرف من المتزاحمين على الدنيا فى الصغير والكبير حتى العلماء .

ثم ألفت نظرك بعد ذلك كله إلى زهده صلى الله عليه وسلم ،فى الدنيا ونعيمها ، وعدم طلبه أجرًا على أعماله الشاقة ، وما كان عليه من الشمائل الشريفة والأخلاق الكريمة ، واستواء الشريف والوضيع

عنده فى الحق ، واعتراف السحرة والكهان فيما مضى ، والفلاسفة اليوم بقصور ما عندهم عمّا عنده ، فضلا عن كونه كان مجاب الدعوة وكان يخبر بالمغيبات الكثيرة فتقع كما أخبر .

وفى القرآن من ذلك شيء كثير . وكذلك فيه تنويه ببعض معجزاته الحسية خلافا لمن جهل ذلك ؛ وذلك مثل قوله : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى »[1] وقوله : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)[2] . إلى غير ذلك ، ثم بقاء دينه وقرآنه وآثاره وأنصاره حتى اليوم . ونحن نعلم ذلك كله إما بالمشاهدة وإما بالتواتر ، وهما يوجبان العلم الضرورى ، كما بين فى محله .

أقول : من نظر فى ذلك كله وأَضعافه وأضعاف أضعافه كان صدق الرسول عنده من أوضح الواضحات وأول الضروريات بشهادة العقل والنقل والوجدان والبرهان والحدس والحس ، إلا عند من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان الفسيح ، ولندع تفصيله إلى لسان حاله الفصيح : ولنرجع إلى التفسير فنقول :

أما النار الكبرى فإما أن يراد بها نار جهنم فتكون الصغرى نار الدنيا . وإما أن تكون الصغرى والكبرى فى الآخرة فإن فيها نيرانا مختلفة ودركات متفاوتة ، كما أن فى الدنيا ذنوبا ومعاصى متفاوتة ، فكما أن الكافر الذى كذب بالحق وتولى عن قبوله هو أعظم المجرمين كذلك هو أعظم المعذبين فى الاخرة ويصلى أعظم النيران .

(١) سورة الأنفال ، الآية ١٧
(٢) سورة القمر ، الآية ١

هذا والآية نزلت على ماقيل فى الوليد المخزومى وعتبة بن ربيعة وأُبىّ بن خلف ، وهى منطبقة على كل مَنْ شاكلهم فى كِبْره وتعنُّته فى كفره . وقد أفادت الآية أن هناك من يصلى أقل من النار الكبرى فانها بينت أن الذى يصلاها هو الأشقى ، فيكون للشقى نارٌ أخف منها فتكون الأقسام ثلاثة :

المتقى الذى يخشى ربه ، والأشقى الذى كذب وتولى ، و بينهما أرباب المعاصى والذنوب التى لم تصل إلى ذلك الحد .

أما قوله : (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى)[١] فالمراد أنه لايموت فيستريح ، ولا يحيا حياة تنفعه ، كما قال : (لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا)[٢] . وهذا على مذهب العرب : تقول للمبتلى بالبلاء الشديد : لا هو حى ولا هو ميت .

وقد قالت سليمى زوجة صخر أخى الخنساء لمن سألها عنه :

لا هو حى فيرجى ولا هو ميت فيبكى . فسمعها صخر فانشأ قصيدته المشهورة التى أولها :

أرى أم صخر لا تملُّ عيادتى ... ومَلَّت سُلَيْمى مضجعى ومكانى
لعمرى لقد نبهت من كان نائما ... وأسمعت من كانت له أذنان
فأى أمرئ ساوى بأم جليلة ... فلا عاش إلا فى شقى وهوان

وإنما قيل (ثم) للإشارة إلى أن هذه الحالة أفظع وأعظم من الصلى ، فهو متراخ عنه فى مراتب الشدة . وفيه إشارة إلى أن العذاب

(١) سورة الأعلى ، الآية ١٣
(٢) سورة فاطر ، الآية ٣٦

الروحانى أشد من العذاب الجسمانى وقد يصل إلى حالة يهون عندها كل شىء . وليس أوضح فى بيان هذا من قوله تعالى فى حق الكافر : (ويَأْتِيهِ الْموتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ)[١] .

وكذلك النعيم الروحانى أعظم وألذ من النعيم الجسمانى ، بل هو النعيم على الحقيقة (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[٢] .

أسال الله أن يديم علينا نعمة الإيمان ، وأن يميتنا على الإيقان والإحسان بمنّه وكرمه .

قال الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ من تَزَكَّى) : أى فاز من كان عمله زاكياً ، وذلك إنما يكون إذا تطهر من الشرك والمعاصى . ومن اقتصر من المفسرين على التطهر من الشرك فلكون ذلك هو الأهم ، ولكونه أنسب بما تقدم فى الآيات قبلا .

وعلى كل حال فالتزكية على درجات متفاوتة جدا فهى مقولة بالتشكيك المختلف المراتب البعيدة .

وقيل (تزكى) : أى استكثر من التقوى ، مأخوذ من الزكاء وهو النماء . ومعلوم أن التقوى درجات متفاوتة ، وكلها زكاءٌ ونماءٌ لدى النظر الصحيح .

هذا ويمكنك أن تأخذ تفصيل التزكى الذى نيط به الفلاح من بيان القرآن نفسه ، حيث يقول : (قَد أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِين هُمْ

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١٧
(٢) سورة السجدة ، الآية ١٧

فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)[1] إلى آخره . ومن ذلك البيان قوله : (فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)[2] ، ثم قال بعد تلك الأوصاف (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[3] .

(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى [4]) :أى تذكر ما لربه من العظمة والجلال ، وأنه سيقف بين يديه وسيجزيه بكل ما عمل . (فصلى) أى صلى الصلوات الخمس امتثالاً لأمره وقياماً بواجب ربوبيته .

ويجوز أن يكون قوله (تزكى) إشارة إلى التصديق بالجنان ، (وذكر اسم ربه) إلى النطق باللسان ، و (صلى) إلى العمل بالأركان لما أن الصلاة عماد الدين ، وأفضل الأعمال البدنية ، وناهية عن الفحشاء والمنكر ، فلا بدع أن تذكر ويراد جميع الأعمال البدنية . ويجوز أن يكون قد اقتصر على ذكر الصلاة لأن الفرائض والواجبات البدنية لم تكن تامة يوم نزول السورة .

ومن البعيد غير الظاهر قول بعضهم : إن المراد من (تزكى) أخرج الزكاة مطلقاً ، أو زكاة العيد ، لأن المعتاد فى التعبير عن إخراج المال أن يقال : زكى ، ولا يقال : تزكى ، وإن كانت تزكية النفوس إنما تكون بفعل كل محمود وترك كل مذموم فيدخل فيها إخراج الزكاة ، بل عدم التفريط فى واجب من الواجبات . وبالجملة : المتزكى يتحلى بكل فضيلة ، ويبتعد عن كل رذيلة .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١ — ٢
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢ — ٣
(٣) سورة البقرة ، الآية ٥
(٤) سورة الأعلى ، الآية ١٥

ولا يسهل علينا أن نترك هذا المقام من غير أن نقول كلمة فى التربية وما فيها من نقص عندنا :

معلوم أن التزكى الذى حث عليه القرآن وناط به الفلاح فى قوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى) وقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا)[1] إلى غير ذلك إنما هو نتيجة حسن التربية والتعليم ، وليس أجدى على الإنسانية ولا أضمن لسعادتها من تعاليم الدين ،وغرس مراقبة الله تعالى فى النفوس ، مع بيان محاسن الأخلاق التى يجب التحلِّى بها ، وبيان مساوئها التى يجب البعد عنها ، إلى آخر ما جاء فى الشريعة المطهَّرة . ولاتكون التزكية الصحيحة إلا بهذا .

وعلى المربى أن يعرِّف التلاميذ أنه لابد فى نيل السعادة من الضغط على النفوس وكبح جماحها ، وقمع هواها ، وعدم الاسترسال مع شهواتها ، وبيان أن لها أخلاقاً غريزية يجب مراقبتها والاحتراس منها ، فإنها مجبولة عليها ، فلا بد من محاربتها بسلطان العقل وسلاح الدين والعلم ، وذلك مثل الكبر ، وسوء الظن ، والترفع على الخلق ، ومثل الحسد وحب الاستئثار ، والتفرد بكل نعمة ، والعلو على كل أحد حتى قال الغزالى : « إن فى كل نفس ربوبية كامنة ، فهى تشتهى أن تقول : أنا ربكم الأعلى ، كما قال فرعون » ولكن ظروفها لا تسمح لها بذلك . ومثل محبة المال غير المعتدلة التى أتعبت الناس وكانت أس البلاء

(١) سورة الشمس ، الآية ٩

ومنبع الشقاء ، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة . ومثل محبة النساء ، تلك المحبة التى كادت تطغى على كل شىء ، والتى فعلت الأفاعيل بالبنات والبنين ، خصوصاً فى هذا العصر الخليع . ومثل محبة الجاه المفرطة ، مع بيان جهل النفوس الغريزى فى الإنسان ، كما قال تعالى فى حقه : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا)(1) .

ولا تنس قول الله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ)(2) (وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِى الْمأْوى)(3) . (وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)(4) . إلى آخر ماجاء فى الكتاب والسنة وهو كثير .

ثم العناية بغرس مكارم الأخلاق فى النفوس : مثل الشجاعة ، والحلم ، والكرم ، والرحمة بالضعيف ، ومواساة المحتاج والشفقة على كل ذى روح ، والمحبة لعموم المسلمين ، وبيان أن الإيمان لا يتم إلا بذلك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » . وكما قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَايُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

ولعمر الله لو تمت المحبة بين الناس لكانوا فى أبهج عيش لا يماثله إلا عيش أهل الجنة فى الجنة . إلى آخر مالا تسعه هذه العجالة . ولعلنا نعرض له فى فرصة أخرى .

(1) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢
(2) سورة ص ، الآية ٢٦
(3) سورة النازعات ، الآية ٤٠ — ٤١
(4) سورة يوسف ، الآية ٥٣

أما التربية عندنا فهى عبارة عن تلقين بعض نظريات ناقصة ، ولا فائدة للنظريات فى تربية الملكات وتكوين الأخلاق ، بل لابد من العمل وتكرار العمل ، والمراقبة التامة للعاملين ، والقدوة الحسنة فى المعلمين .

وبكل أسف نقول : إن غالب الأساتذة عندنا إنما يقومون بما يفرضه عليهم البرنامج الذى يسألون عنه «والذى يجب تعديله وإطالة النظر فيه» بل الأمر عندنا أشد وأنكى من ذلك كله ، خصوصاً فى تربية البنات واختلاطهن بالبنين ، وغرامهن بروايات الغرام ، مما جعل التعليم الذى يقصد به تزكية النفوس وسيلة من أكبر وسائل الفساد (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

ومسألة التربية من أول ما يجب على الحكومة إصلاحه والتفكير فيه ، فإن سعادة الأمة مرتبطة بتربيتها وتهذيبها ، وعلى قدر ما يكون لها من صلاح التربية وفسادها يكون حظها من السعادة أو الشقاوة .

وقد يقول قائل : إن كثيرًا من الأوربيين على حظ كبير من الأخلاق : فنقول له : إن الأوربيين درسوا علم النفس دراسة صحيحة ، وعرفوا منابع الأخلاق وغرائز النفوس ، فاهتدوا إلى مصالح دنياهم علماً وعملا ، أما نحن فقد درسنا ذلك العلم دراسة نظرية لا عملية ، مع أن الإسلام لا يقيم وزناً لغير العمليات . وكم تطالعنا الجرائد كل يوم بما يندى له جبين الحياء وتبكى له عين الدين ، مما لا يمكننا أن نذكر شيئاً منه هنا .

ولندع هذا الموضوع ، ولنعد إلى التفسير فنقول :

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : ولكن أنتم لاتزكون أنفسكم بل تؤثرون . وأما قوله : (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) فهى جملة فى محل النصب على الحال من فاعل تؤثرون ، مؤكدة للتوبيخ والعتاب ، أى تؤثرونها على الاخرة والحال أن الآخرة خير فى نفسها ، كما أن نعيمها مع كونه فى غاية ما يكون من اللذة والبهجة خالص من جميع الشوائب والمنغصات ، مع كونه أبديًا لا انصرام له . ولله در القائل :

أشد الغم عندى فى سرور ... تيقن عنـه صاحبه انتقالا

قال ابن مسعود لأصحابه يوما : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ فقالوا : لا ، قال : « لأن الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ، وأن الآخرة زويت عنا ، فأحببنا العاجل وتركنا الآجل » . وذلك مصداق قوله تعالى : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ)(١) . وأى قدر للدنيا التى يزيد منكرها على معروفها ، ولا يفى مرجوها بمخوفها ، إن أحسنت مرة أساءت مرارًا ، سلامتها مقدمة السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها الزائل لا يثمر إلا الحسرة والندم ، إن أعطت واحدًا من بنيها جميع ما طلعت عليه الشمس ، جعلته حصيدًا كأن لم يغن بالأمس تمنى أصحابها سرورًا ، وتعدهم غرورًا ، حتى يأملون كثيرًا ، ويبنون

(١) سورة القيامة ، الآية ٢٠ - ٢١

قصورًا ، فتصبح دورهم بعد القصور قبورًا ، وجمعهم بورًا ، وسعيهم هباءً منثورًا .

أفان بباق تشتريه سفـاهة ... وسخطا برضـوان ونارا بجنة
أأنت عـدو أم صديق لنفسه ... فإنك ترميهـا بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما ... فعلت لمستهم لها بعض رحمـة
فيـا عاملا للنار جسمك لين ... فجربه مرات بحر الظهيرة

وأبلغ من ذلك كله قول الله تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ . كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(١) . وألفت نظرك إلى التعبير بدار السلام وما فيه من التعريض بدار الآفات .

ويقول صلى الله عليه وسلم نصيحة لنا وخوفا علينا : « وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّى أَخْشَى أَنْ تَبْسُطَ عَلَيْكُمُ الدنْيَا كَمَا بَسَطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أَهْلَكَتْهُمْ » وكقوله صلى الله عليه وسلم : « مَا رَفَعَ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الدنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ » .

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤ - ٢٥

وأبلغ وصف لها ما جاء فى سورة الحديد من قوله تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا . وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(١) .

وكيف يؤثر العاقل الدنيا على الاخرة مع كون الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، والدنيا بعد ذلك ممتزج خيرها بشرها ونعيمها بألمها ، ومع تلك العيوب كلها فالدنيا فانية والآخرة باقية ، والباقى خير من الفانى بالضرورة .

ثم قال تعالى : (إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) : يعنى أن فلاح من تزكى . . . إلخ : منصوص عليه فى صحف إبراهيم وموسى . وقيل : إن الإشارة راجعة لكل ما فى السورة . والظاهر أنها راجعة لقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) . . . إلخ . ويدل له بعض ما ورد فى كتب السنة .

هذا وقد روى عن أبى ذر أنه قال : يا رسول الله : ما كانت صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : « كانت عبرا كلها ، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم يغضب ، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل » أخرجه ابن الأثير فى جامعه .

(١) سورة الحديد ، الآية ٢٠

وكانت صحف إبراهيم عشرة ، وكذا صحف موسى عليه السلام ، والمراد بها ما عدا التوراة . وفى حديث أبى ذر الذى أخرجه ابن عساكر وغيره : أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب : أنزل على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

وقد ذكروا أن مما فى صحف إبراهيم : « على العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، فإن من حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ، وعلى العاقل أن يكون طالبا لثلاث : لقمة لمعاشه ، أو تزود لمعاده ، أو تلذذ فى غير محرم » . وما أحسن قول من قال :

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا وما أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

قال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والاخرة من خزف يبقى لكان ينبغى لنا أن نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى ، فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى . فأصبحنا على ما قال القائل :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وبعد : فما فى هذه الآيات كاف فى نيل كل سعادة ، والبعد عن كل شقاء ، لأن قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) إشارة إلى تطهير النفس عن كل ما لا ينبغى ، أما فى الأمور النظرية فعن جميع العقائد

الفاسدة ، وأما فى القوة العملية فعن جميع الأخلاق الذميمة . وقوله : (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) إشارة إلى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى . وأما قوله : (فَصَلَّى) فهو إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله تعالى .

وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع . ولهذا قال : (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى) .

وقد روى عن أبى ذر أنه قال : هل أنزل عليك يا رسول الله شىء مما فى صحف إبراهيم وموسى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا أبا ذر : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) . ولعل هذا هو السر فيما روى عن ابن عباس من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى الوتر بسبح اسم ربك الأعلى . كما أخرجه الترمذى وغيره . وقد سئلت عائشة : بأى شىء كان يوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : « كان يقرأ فى الأولى بسبح اسم ربك الأعلى ، وفى الثانية بقل يا أيها الكافرون ، وفى الثالثة بقل هو الله أحد والمعوذتين » . أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى .

فكان صلى الله عليه وسلم يختم عمله بالوتر المشتمل على هذه السورة التى تحث على تسبيح الله وتنزيهه ، وتذكير من يخشى ، وبيان أن طريق الفلاح إنما هو تزكية النفوس بامتثال أوامر الله تعالى ، والحث على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة التى هى خير وأبقى ، وأن ذلك مندوب إليه محثوث عليه فى صحف إبراهيم وموسى .

ولا بد أن ننبه هنا على أن الدين لا يريد من الناس أن يتركوا

الدنيا ولا يدعوها تستقر فى أيديهم ، أو لا يطلبوا أن يكونوا أرفع أممها وأعز بنيها ، كيف وهو يقول : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[١] ويقول : (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)[٢] ؟ إلى غير ذلك . فما أراد من المؤمنين إلا أن يصيروا أحرارًا فيها غير مستعبدين لها . فما أحب لهم إلا أن يكونوا أعزاء لا أذلاء ، ملوكًا لا عبيدًا ، فهو يريد منهم أن يجعلوها وسيلة لا مقصدًا ، عالمًا أنهم إذا قاموا بتعاليم دينهم جاءتهم الدنيا وهى راغمة ، فكانت فى أيديهم لا فى قلوبهم ، وكانوا ملوكًا فى الأرض ملوكًا فى السماء ، يضعون كل شىء فى موضعه ، شأن الحكيم الذى عمل بتعاليم سيده ، فأخذ منها ولم تأخذ منه ، وبعد عنها ولم تبعد عنه .

وقد عجلنا بذكر هذه الكلمة خوفا من ذوى الجهالات وأرباب الغايات ، ممن لا يهضمون الحقائق ولا يعرفون غير الأهواء .

ولنختم هذا المقال بقول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)[٣] ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ . ذَلِكُمْ خَيْرٌ

---

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨

(٢) سورة محمد ، الآية ٣٥

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢٤

لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُون)(١) ، (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا . وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)(٢) .

أسأل الله أن يجعلنا ممن تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، وأن يعرفنا قدر الدنيا التى حقرها صلى الله عليه وسلم غاية التحقير حتى جعلها لا تساوى جناح بعوضة ، كى لا نغتر بها ولا نطمئن إليها بمنه وكرمه .

(١) سورة الصف ، الآية ١٠ – ١١ (٢) سورة القصص الآية ٨٣

سورة العصر (١)

رأينا أن نفسر هذه السورة الكريمة لما فيها من عظيم الفوائد وجليل العوائد على إيجازها واختصارها ، حتى قال الشافعى رضى الله عنه : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم . كيف لا وقد أرشدتهم إلى أن سبيل السعادة إنما هو الإيمان والعمل الصالح الذى يعود عليك وعلى بنى نوعك ، وليس يكفيك أن تعمل ذلك فى خاصة نفسك ، بل عليك أن توصى أخاك بانتهاج الحق والتزام الصبر على ما عسى أن يتلقاه فى هذه السبيل ، مع بيان أنك إذا لم تفعل ذلك أحاط بك الخسر من كل جانب ، كما تدل عليه كلمة (فى) المفيدة للظرفية المحيطة ، مع الإقسام على ذلك ، إلى آخر ما سيتضح له فى تفسير السورة .

ولهذا كله روى الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب : أن الرجلين من أصحاب رسول الله كانا إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة والعصر إلى آخرها ، ثم يتفارقان . وكأنهما يقصدان بذلك القيام بالتواصى بالحق والصبر عند الفراق ، وكأنها وضعت بجانب سورة التكاثر للإشارة إلى أن من ألهاهم التكاثر فى خسر ، وأن من لم يلههم التكاثر هم الرابحون الفائزون ، وليسوا إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

(١) مجلة الأزهر الجزء السادس – المجلد التاسع – جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧

وبالجملة : ففى السورة من الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يحب المرءُ لأخيه ما يحب لنفسه ، مالا يخفى .

البيان التفصيلى :

المراد بالعصر : الدهر ، وقد قرأ على فيما يروى عنه : والعصر ونوائب الدهر . وهو تفسير للمراد بالعصر ، وليس قرآنا ، فهو نظير (حافِظُوا عَلَى الصَّلَوات وَالصَّلَاةِ الْوُسطَى)(١) وهى صلاة العصر.

وقد أقسم به تعالى لما فيه من التقلبات والأعاجيب الدالة على قدرة الله تعالى وسعة تصرفه ، وعظيم سلطانه ، الذى يصرفك كما يشاء ، فينقلك من صحة لمرض ، ومن فقر لغنى ، ومن ذل لعز ، ومن حياة لموت ، إلى آخره .

ومن لطيف ما قيل : إن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت مائة سنة ثم تبت فى اللمحة الأخيرة من العمر ، بقيت فى الجنة أبد الآباد ، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك فى تلك اللمحة التى تبت فيها ، فكان الدهر من أكثر النعم لديك وأجداها عليك .

فلذلك أقسم به لتعلم أن ما يمر من الليل والنهار فرصة ثمينة يجب أن لا تضيعها أو تفرط فى شىء منها : (وهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)(٢) . فيا خسارة من ضيع

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٨
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٦٢

عمره الذى يمكنه أن يربح فيه السعادة الأبدية ويفوز بالنعيم المقيم الذى لا يشوبه كدر ولا يعتريه زوال :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها * وكل يوم مضى نقص من الأجل

وعن بعض السلف : تعلمت معنى السورة من بائع الثلج : كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن ، ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن . فقلت : هذا معنى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ) : يمر به الزمن فيمضى عمره ولا يكتسب فيه شيئا .

ويصح أن يراد بالعصر : أحد طرفى النهار ، وهو الوقت المعروف ، فيكون تعالى أقسم بالعصر كما أقسم بالضحى والفجر ، إلى آخره ، لما فى ذلك من دلائل القدرة ، وكأنه إشارة إلى أنه ينبغى لك أن تتذكر بمضى النهار ومجىء العصر خراب الدنيا ومضى الأجل ، وأن الإنسان الذى يغفل عن ذلك فى خسر .

ويصح أن يكون تعالى قد أقسم بذلك الوقت لتعظيمه ، لأن الصلاة فيه هى الصلاة الوسطى على ما هو المشهور ، وقد ورد تعظيمه فى السنة من وجوه كثيرة ، والقرآن يقول : (وَاذْكُر اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)(١) وفى الحديث : « مَنْ فَاتَهُ صَلَاةُ الْعَصرِ فَكَأَنَّمَا وتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَه » . وإن شئت فاقتصر على أن المراد الدهر ، فهو أقرب وأظهر .

أما قوله : (إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ)(٢) فأل فيه للاستغراق بدليل الاستثناء . والمراد بالخسر : النقصان . وإن شئت قلت : الهلاك

(١) سورة الإنسان ، الآية ٢٥
(٢) سورة العصر ، الآية ٢

وبالجملة : ففى السورة من الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يحب المرءُ لأخيه ما يحب لنفسه ، مالا يخفى .

البيان التفصيلى :

المراد بالعصر : الدهر ، وقد قرأ على فيما يروى عنه : والعصر ونوائب الدهر . وهو تفسير للمراد بالعصر ، وليس قرآنا ، فهو نظير (حافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)[1] وهى صلاة العصر.

وقد أقسم به تعالى لما فيه من التقلبات والأعاجيب الدالة على قدرة الله تعالى وسعة تصرفه ، وعظيم سلطانه ، الذى يصرفك كما يشاء ، فينقلك من صحة لمرض ، ومن فقر لغنى ، ومن ذل لعز ، ومن حياة لموت ، إلى آخره .

ومن لطيف ما قيل : إن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت مائة سنة ثم تبت فى اللمحة الأخيرة من العمر ، بقيت فى الجنة أبد الآباد ، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك فى تلك اللمحة التى تبت فيها ، فكان الدهر من أكثر النعم لديك وأجداها عليك .

فلذلك أقسم به لتعلم أن ما يمر من الليل والنهار فرصة ثمينة يجب أن لا تضيعها أو تفرط فى شىء منها : (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)[2] . فيا خسارة من ضيع

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٨
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٦٢

عمره الذى يمكنه أن يربح فيه السعادة الأبدية ويفوز بالنعيم المقيم الذى لا يشوبه كدر ولا يعتريه زوال :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها * وكل يوم مضى نقص من الأجل

وعن بعض السلف : تعلمت معنى السورة من بائع الثلج : كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن ، ارحموا من يذوب رأس ماله بمرور الزمن . فقلت : هذا معنى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ) : يمر به الزمن فيمضى عمره ولا يكتسب فيه شيئا .

ويصح أن يراد بالعصر : أحد طرفى النهار ، وهو الوقت المعروف ، فيكون تعالى أقسم بالعصر كما أقسم بالضحى والفجر ، إلى آخره ، لما فى ذلك من دلائل القدرة ، وكأنه إشارة إلى أنه ينبغى لك أن تتذكر بمضى النهار ومجىء العصر خراب الدنيا ومضى الأجل ، وأن الإنسان الذى يغفل عن ذلك فى خسر .

ويصح أن يكون تعالى قد أقسم بذلك الوقت لتعظيمه ، لأن الصلاة فيه هى الصلاة الوسطى على ما هو المشهور ، وقد ورد تعظيمه فى السنة من وجوه كثيرة ، والقرآن يقول : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)[1] وفى الحديث : « مَنْ فَاتَهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ » . وإن شئت فاقتصر على أن المراد الدهر ، فهو أقرب وأظهر .

أما قوله : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ)[2] فأل فيه للاستغراق بدليل الاستثناء . والمراد بالخسر : النقصان . وإن شئت قلت : الهلاك

(١) سورة الإنسان ، الآية ٢٥
(٢) سورة العصر ، الآية ٢

وذهاب العمر فى غير فائدة . وإن شئت قلت : إنه فى ضلال مبين وجهالة عمياء . وأى خسر أعظم من ضياع السعادة الأبدية بحقير لايبقى فى يدك منه شىء البتة : (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)(١) . خسر يجعل الكافر يقول : (يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا)(٢) : وليته مع ذلك يبلغ فى حياته الدنيا ما يؤمل ، أو يصل إلى ما يقصد ، هيهات هيهات ! . وإنما هى أوهام خادعة وأمانى باطلة ، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

ألم تر أن المرء طول حياته   يحاول أمرا لا يزال يعالجه
يدور كدود القز ينسج دائما   ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

الخلاصة

أن الناس ـ إلا من استثنى الله ـ فى خسران : فى متاجرهم ومساعيهم ، وصرف أعمارهم فى مباغيهم الدنيوية ، وشهواتهم البشرية . وذلك أن تقرر خسر الإنسان بأن روحه علوية ربانية هبطت إليك كما قال ابن سينا :

هبطت إليك من المحل الأرفع   ورقاء ذات تعزز وتمنع

إلى أن قال فى بيان قصر هذه الحياة وسرعة انقضائها :

فكأنه برق تألق بالحمى   ثم انطفا فكأنه لم يلمع

وقد كنت واصلا من الشرف والرفعة إلى أن الله جعلك خليفة فى الأرض ، وأسجد لك ملائكته ، وقد كان يمكنك بهذا الاستعداد الذى

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢٠٥ — ٢٠٧
(٢) سورة النبأ ، الآية ٤٠

أودعه الله فيك ، وذلك السر الذى أشير إليه بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على صورته » أن جعله قادرا مريدا ، عالما ، سميعا بصيرا ، إلى غير ذلك من النعوت الجليلة والصفات الجميلة .

ويقول الله لإبليس : (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)(١) فانظر إلى ذلك التشريف الذى يسير إلى غاية العناية بالإنسان ، حيث خلق باليدين جميعا ، بخلاف غيره من المخلوقات . ثم انظر كيف نزل من أوج ذلك العز الشامخ الذى كان به فى أعلى عليين مع الأنبياء والمرسلين ، إلى حضيض الحيوانات ، يرتع فى الظلمات ، ويتقلب فى صنوف الآفات ، لمقتضى شهواته البهيمية ، وانهماكه فى مطالبه البدنية . ولله در أحد أئمة الشافعية حيث يقول :

إلى كم تمادى فى غرور وغفلة   وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
أترضى من العيش اللذيذ تعيشه   مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشترى   بملء السما والأرض أية ضيعة
فيادرة بين المزابل أرميت   وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
أفان بباق تشتريه سفاهة   وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت عدو أم صديق لنفسه   فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما   فعلت لمستهم لها بعض رحمة
فيا عاملا للنار جسمك لين   فجربه مرات بحر الظهيرة
وجربه فى لسع الزنانير تجترى   على لسع حيات هناك عظيمة

(١) سورة ص ، الآية ٧٥

إلى آخر ما قال .

وبالجملة : فما أشد خسر الإنسان ، وما أعظم الفرق بين حاله إذا نظر إلى حياته العنصرية وطاعته لسلطان الهوى والشهوة ، وانقياده لنفسه الأمارة بالسوء ، وإلى ما كان عليه حال حياته الروحية قبل تعلق الروح بالبدن عندما كانت تسرح بين أفراد الملأ الأعلى ، وتسبح فى ذلك العالم الذى يبعد كل البعد عن ملابسة الأدناس والألواث .

وعلى كل حال فليس الشأن أن تكون إنساناً حيوانياً ، بل الشأن أن تكون إنساناً روحانياً ولا تكون كذلك إلا إذا سافرت من ظاهرك إلى باطنك ، وهناك تعرف ما حجب عنك من شرفك وعلو قدرك الذى جعل الملائكة تسجد لك قبل أن تنزل إلى حضيض حيوانيتك كما قلنا ، فكن ممن عرف نفسه فعرف ربه ، ولا تكن ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

ومن الغريب أن الإنسان هو الحيوان الناطق ، وأن روح الإنسانية هو ذلك النطق المراد به الإدراك والتفكير ، فإنه المعنى الخاص بالإنسان ، وأما الحيوانية فأمر مشترك بينه وبين الحشرات وجميع الحيوانات ، ومع ذلك لا نجد من أكثر أفراد هذا النوع إلا الحيوانية المشتركة ، لا النطق والتفكير الذى هو ميزتك وروح إنسانيتك .

واختصار الموضوع : أن خسر الإنسان إنما نشأ من ظنه أنه إنسان بجسمه ، غافلاً عما أودع فيه من الأسرار التى تجعله (فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)[1] .

(١) سورة القمر ، الآية ٥٥

ولتعلم أن رأس مال العبد قلبه ، وبضاعته عمره ، فإذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله فهو مغبون ، فاجتهد فيما ينفعك قدر الاستطاعة ، واستغفر من ذنبك وتقصيرك .

وأيقن أن كل لحظة يحضر فيها قلبك أو يذكر فيها لسانك أو يتعظ فيها عقلك ، فهى كنز ثمين ، فاستكثر من الخيرات بقدر ما يمكنك وتباعد عن الغفلات بقدر ما تستطيع ، وسل الله التأييد والتسديد ، ولا تكن ممن قيده عالم الشهادة عن عالم الغيب . وأعلم أن من غفل عن الله ولو فى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، ولذلك قال تعالى : (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)[1]

ولا يفوتك أن سلاح الشيطان إنما هو الشهوات ، فإذا أغلقت بابها لم يجد الشيطان مدخلا إلى قلبك ، وإذا تأملت علمت . فإذا أعدى عدوك نفسك التى هى مركز شهواتك التى يوقد الشيطان بها ناره فى قلبك ، وقد قالوا : من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره . فإن كنت تحبها فأحسن إليها بمخالفتها وسياستها ، واشغلها بمراضى الله ، فإنك إن لم تشغلها شغلتك : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)[2] .

ومما يحسن أن نلفت نظرك إليه : أنه أتى سبحانه وتعالى بمؤكدات كثيرة : فأقسم بالعصر ، وأتى بإنَّ واللاَّم ، وإسمية الجملة ، ثم ذكر (فى) التى للظرفية ، التى تفيد أن الخسر محيط بالإنسان من كل

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣٦

(٢) سورة يوسف ، الآية ٥٣

جهاته . وسر الإتيان بتلك المؤكدات أن الإنسان يجهل خسرانه وينكره ولا يكاد يدركه ما دام لا يشعر بحقيقته العلوية وروحه السماوية . ومن أين له أن يدرك ذلك وهو مكبل بشهواته ، مسجون فى سجن طبيعته ؟

وإجمال القول : أن الآية تشير إلى أن الإنسان فى غاية الخُسران ، كما يرشد إليه تنوين التعظيم ، مع أنه لا يشعر بشىء من ذلك الخسران ، بما زين له من سوء عمله وتحكم شهواته : (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)[1] ويقول تعالى فى الآية الأخرى : (كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ)[2] (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)[3] .

ولنختم كلمتنا اليوم بما ينسب للإمام على كرم الله وجهه ، قال :

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

أسأل الله أن يعرّفنا أسرار إنسانيتنا ، ولا يحرمنا من أنوار روحانيتنا وأن يخلصنا من نفوسنا الأمّارة ، حتى نلقاه آمنين مطمئنين ، راضين مرضيين ، بمنه وكرمه .

(١) سورة فاطر ، الآية ٨
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨
(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

تفسير سورة العصر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) :

ذكرنا أن القرآن يدل على أن الإنسان محيط به الخسر من كل جوانبه ، كما تشير إليه كلمة (فى) ، فكأن الخسر ظرف له يتقلب فيه ولا يخرج عن محيطه (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) إلخ .

وقد قال بعض الحكماء : إذا فسد الإنسان فلا تسل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان أو فساد أو عناد ، فإنه مستعد لشر لا نهاية له كما أنه مستعد لخير لانهاية له ، فإن سار فى طريق الشر أُفيض عليه من وسائله والترقى فيه مالا يعلمه إلا الله ، وإن سار فى طريق الخير أُفيض عليه من وسائله والترقى فيه ما تغبطه عليه الملائكة .

وبالجملة فالإنسان محل الابتلاء والاختيار بين تيارات متعاكسة وعواطف متخالفة ، وأهواءٍ متضادة ، ولا نجاة له من ذلك إلا بالالتجاء إلى الله ، والتزام مارسم له من خطط ومناهج : بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

(١) مجلة الأزهر – الجزء السابع – المجلد التاسع – رجب سنة ١٣٥٧

وقد قال على كرم الله وجهه مبيناً لضعف الإنسان وخلقته العجيبة :

« أعجب ما فى الإنسان قلبه : له مواد من الحكمة وأضداد من الطيش والسفه ، إن سنح له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعف بما يهوى نسى التحفظ وإن ناله الخوف فضحه الجزع ، وإن استفاد مالا أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة شغله الفقر ، وإن جهده الجوع أقعده الضعف ، وإن أفرط فى الشبع أضرته البطنة ، وكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد . وهو لا يكاد يخلو من إفراط أو تفريط » .

وكل هذا يشرح لنا قوله تعالى : (وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا)[1] ، وقوله عز وجل : (لقد خلقنا الإنسان فى كبد)[2] .

وقد جاءت الشرائع لترشده إلى طريق الخير والفلاح ، وتهديه الصراط المستقيم الذى يوصله إلى الفوز الدائم والسعادة الأبدية وما حقرت فى نظره الدنيا وقالت له : إن الاخرة هى دار القرار ، إلا لتريحه من همومها وغمومها ، فإنها منبع البلاء وأس الشقاء ، ولا ينجو من شباكها وارتباكها (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

يريد الله بهذا الاستثناء وهذه الأوصاف أنهم آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) وهو أداء الطاعات وترك المحرمات (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) على المصائب والأقدار ،

---

(١) سورة النساء ، الآية ٢٨

(٢) سورة البلد ، الآية ٤

وماعسى أن يكون من أذى من يؤذيهم عندما يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

فإنهم لشدة محبتهم للصالحات وقوة حدبهم على أبناء جنسهم ومزيد رحمتهم بإخوانهم لايقتصر على مايخصهم ، بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ، ليكملوا فى أنفسهم ، وليكونوا بعد ذلك سببا لكمال غيرهم ، فإن ذلك شأن أهل الدين وورثة المرسلين . وقد قال الله تعالى : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)[1] وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)[2] وقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[3] وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

ويكفينا فى هذا الموضوع أن القرآن يخبرنا عن سبب لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم أنهم : (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ)[4] .

والتواصى بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصى بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف فى القيام بما هو مطلوب واجتناب ما هو منهى عنه ، إذ الإقدام على ماتكرهه النفس والإحجام عما تحبه صعب شديد ، ولاسبيل إلى ذلك كله إلا بالصبر .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠

(٢) سورة التحريم ، الآية ٦

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٠

(٤) سورة المائدة ، الآية ٧٩

ولابد أن يكون لاح لك مما قدمناه أن فى هذه السورة الجليلة وعيداً شديداً يجب الانتباه له والالتفات إليه ، فإنه تعالى حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان متصفا بهذه الأشياء الأربعة : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصىَ بالصبر .

فكما يلزم المكلف تحصيل مايخص نفسه ، فكذلك يلزمه دعاء غيره إلى الدين ، والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبذل النصيحة بقدر المستطاع . وقد بين صلى الله عليه وسلم أن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين وعامتهم ، فإن المؤمن يحب لأخيه مايحب لنفسه .

وقد كرر تعالى التواصى للحض على الدعاء إلى الله ، ثم الثبات عليه بحيث لايضجر ولايمل ، وعلى المؤمن أن يقبل الموعظة الحسنة ولاينفر منها ، فإن ذلك ملاك سعادته . وقد قال عمر بن الخطاب : « رحم الله امرأً أهدى إلى عيوبى » .

وبالجملة : فهذه السورة تنبئنا أن الناس كلهم فى غفلة عما يراد بهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإنهم فى تجارة لن تبور ، حيث باعوا الفانى الخسيس واشتروا الباقى النفيس ، وقدموا الباقيات الصالحات على الغاديات الرائحات ، فيالها من صفقة ماأربحها ، وبغية ما أنجحها :

هذا ويدخل فى عموم الصبر : الصبر عن المعاصى التى تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية ، والصبر على الطاعات التى يشق على

النفس أداؤها ، والصبر على مايبتلى الله عز وجل به عباده من البلايا والمصائب .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، الصبر على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة ، وصبر على البعد عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة .

وقد قالوا : إن الصبر على البلاء بضاعة الصديقين : ويروى عن داود عليه السلام أنه قال : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات .

ويقول بعض العارفين : إن أجر الصابرين فيما فاتهم مما كانوا يريدون : أعظم من النعمة عليهم فيما يعطونه من محبوباتهم فعلى الإنسان أن يدفع الجزع عن نفسه بالتفكير فيما سيناله من الثواب الباقى والنعيم الدائم :

وتأمل كثيرا فى قوله تعالى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)(١) فقد جعل الله تعالى كل شيء بحساب إلا أجر الصابرين فإنه بغير حساب) ولله در من قال :

عطيته إذا أعطى سرور وإن أخذ الذي أعطى أثابا

---

(١) سورة الزمر ، الآية ١٠ .

فأى النعمتين أحق شكرًا   وأحمد عند منقلب إيابا
أنعمته التى أهدت سرورًا   أم الأخرى التى أهدت ثوابا

الخلاصة :

أن الناجين من هذا النوع الإنسانى هم الذين آمنوا بشرف الفضيلة وخسة الرذيلة ، كما يشير إليه قوله تعالى : (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)[١] وهم الذين آمنوا بالجزاء وجميع ماجاء به الرسل ثم عملوا الصالحات بأن يكون كل إنسان نافعاً لنفسه وأهله ولقومه وللناس أجمعين ، بعيداً من أن يضر أحدا « إلا لكف ضرر أعظم منه » ، ثم يدأب على التواصى بالحق والصبر ، فإن التواصى بالحق والصبر حفاظ كل خير ، ورأس كل أمر .

فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضا عليه بأن يدعو كل صاحبه إلى الاعتقاد بالحقائق الثابته التى لا ينازع فيها العقل ولايختلف فيها النقل ، وأن يبعدوا بأنفسهم عن الأوهام والخيالات التى لادليل عليها ولافطرة تهدى إليها .

ومعلوم أن رأس الأعمال الصالحة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْلَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ »

---

(١) سورة الليل ، الآية ٦

ويقول الله تعالى : (واتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)[١] (فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)[٢] ومن الذين ظلموا ، الذين لاينهون عن السوء كما هو واضح من الآية ، فإنه مانجا إلا الذين ينهون عن السوء .

هذا وأظنك فى غنى عن أن أقول لك : إن ذكر الصبر بعد الحق مع دخوله فيه لكمال الاعتناء به ، أو نقول : أن الأول عبارة عن رتبة العبادة التى هى فعل مايرضى الله تعالى : والثانى رتبة العبودية التى هى الرضا بما فعل الله تعالى .

ولنقف هنا اليوم ، ونرجو أن يكون لنا جولة نتمم بها هذا المقام إن شاء الله .

ذكر الله تعالى التواصى بالصبر بعد التواصى بالحق مع كونه داخلا فيه ، تنويها بشأنه ، وتنبيها على رفعة قدره . أو تقول : لما كانت هذه الخصال أعنى قول الحق وملازمة الحق والتواصى بالحق فى الغالب تجلب لصاحبها من الأذى ما قد تكرهه نفسه ، ذكر تعالى التواصى بالصبر وان كان ذلك من الحق ، اعتناءً به وحثا عليه ، فإن من لم يتذرع بالصبر قل أن يثبت فى مقام الدعوة إلى الله عز وجل . وقد قال لقمان لابنه فى وصيته : (وأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٥
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٦٥

وَاصْبِرْ عَلَى ما أَصابكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)[١] يعنى أن ذلك من خصال ذوى العزم . وقال تعالى حكاية عن الرسل : (ولَنَصْبِرَن عَلَى مَا آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوكِّلُونَ)[٢] .

وقال تعالى : (وَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هجْراً جمِيلا)[٣] .

وقال تعالى : (وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)[٤] . وكان بعض السلف يقول : ماكنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى .

وبالجملة : فالدين الإسلامى لا يرضى من بنيه إلا أن يكونوا من الشجاعة فى الذروة العليا ، ومن الثبات بالمحل الأقصى . وانظر إلى تشجيع المسلمين بمدح الخيل التى تعدو ضبحا ، فتورى قدحا ، فتغير صبْحًا ، إلى آخره . وليس أحض على الشجاعة من هذا . فليت شعرى ماذا أصاب المسلمين حتى أصبحوا أجبن الجبناء ، وأذل الأذلاء ، يداهنون فى دين الله ، ولا يبالون امتثال أوامر الله ، « ينفرون من الذل ويمدون أيديهم إلى أسبابه ، ويفرون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه » .

ولا غرو فمن فرط فى تعاليم ربه ، وجهل سنته فى خلقه ، فلابد أن يكون ذليلا عليلا ، وكيف لا يذلون وقد أمرهم الله أن يكونو كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، أو كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى

(١) سورة لقمان ، الآية ١٧
(٢) سورة ابراهيم ، الآية ١٢
(٣) سورة المزمل ، الآية ١٠
(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٤٨

له سائره ، فأصبحوا متفرقين لايلوى بعضهم على بعض ، بل منقسمين متنازعين ، فما أجدرهم بالذل والمهانة .

وإذا فسد الإنسان فلا تسل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان ، وما يحيط به من بلاء وشقاء .

وإن شئت فانظر إلى الأمة الإسلامية حينما كانت متمسكة بدينها عاملة بتعاليم نبيها لم تتفرق بها السبل ، ولا زاغت بها الأهواء ، كيف امتد ملكها فى كل ناحية من نواحى المعمورة ، وكيف عمروا البلاد وأصلحوا العباد ، وكيف أخرجوهم من الظلمات إلى النور باعتراف أساتذة أوربا المبرزون ، مثل جوستاف لوبون الفرنسى الذى يقول : « ما رأى التاريخ فاتحاً أعدل ولا أعظم من العرب » ومثل توماس كرليل الانكليزى فى كتاب الأبطال ، ومثل درابر الأمريكى وغيرهم .

وبالجملة فقد كان المسلمون إذ ذاك أعز الأمم على الاطلاق ، وأرفعها على الإطلاق ، فكانوا ملوكا فى الأرض ملوكا فى السماء ، ثم انظر إلى حالهم اليوم وقد أصبحوا بحيث يطمع فيهم كل طامع ، ويهزأ بهم كل قوى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » . ويقول عليه السلام : « توشك الأمم أن تتداعى لمقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال كما تتداعى الآكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : أمِنْ قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل » . « أى لقلة

شجاعتكم ودناءة قدركم وخفة أحلامكم وعدم اتحادكم » . ثم قال فى آخر الحديث : « ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم » ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » رواه أبو داود والبيهقى فى دلائل النبوة .

وذلك من معجزاته الباهرة صلى الله عليه وسلم ، ويقول تعالى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً)[١] وأى ظلم أكبر من ترك التعاون بين أفراد المؤمنين ، وقد قال الله فيهم : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[٢] . أى ظلم أكبر من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى من العلماء والوزراء والأمراء .

وقد روى الترمذى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ويقول صلى الله عليه وسلم : « إذا هابت أمتى أن تقول للظالم إنك ظالم ، فقد تودع منهم » .

وقال : — بأبى هو وأمى — « لا تقدس أمة لا تقول للظالم إنك ظالم » أو كما ورد .

لقد أصبحنا والله فى خسر عظيم ، وشر جسيم ، وصرنا أعظم تفسير لقوله :

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٥
(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٠

وليس يخفى على القارئ الكريم ما وصلنا إليه من اختلال الأحوال وضياع الأموال وانتهاك الحرمات واقتراف المنكرات ، وإصلاح الظواهر وفساد البواطن ، وفقد الإخلاص ، وذيوع الأغراض واستحكام الأمراض ، والمواطأة على القبائح ، وعدم إنفعال النفوس بارتكاب الرذائل ، وضياع الفضائل ، وكثافة الغطاء على العقول حتى أصبحت تنكر اليقينيات ولا تعترف بالبدهيات وكأنما انقلبت الرءوس وانتكست النفوس ، وانطمست البصائر وفسدت الفطر ، وعميت القلوب ، وأعضل الداء فعجز الأطباء ، وضاق عنه نطاق التعبير ولم تتسع له أودية التحذير ، فإننا فى عصر أولئك الذين تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ، من ذوى الألسنة الثرثارة والقلوب الخوارة ، والشهوات القاهرة والنفوس الفاجرة ، والأفكار الخيالية والنزغات الشيطانية ، وما أجدرهم بما قلناه منذ زمان بعيد[١] :

كل شيء يخاف منه الآنا   قد مضى من يراقب الديانا
ليس إلا شقاشق وكلام   نمقوه كى يخدع الإنسانا
وأمور شكلية ونبوغ   فى رياء يا هول ما قد دهانا
من درى الناس شك فى كل شيء   قد بدا منهم كائناً ما كانا

وليس يخفى عليك أن حوادث القتل والسرقات ، وإحراق الزروع الآن فى بلادنا المصرية ، وصلت إلى حد أنها ترتكب جهاراً نهاراً .

(١) هذا يؤيد أن بعض الشعر الموجود فى هذه المقالات هو من نظم الشيخ يوسف الدجوى رضى الله عنه .

وإن شئت فانظر إلى الخمر التى فعلت الأفاعيل بالناس ، وليت شعرى لماذا لا تمنعها الحكومة الرشيدة المسلمة ولو اقتداء بأمريكا المسيحية عندما منعتها لانتشار أضرارها وكثرة مفاسدها ! ؟ . أفلا تمنعوها أيها الكبراء والوزراء والنواب ولو محافظة على دستوركم الإسلامى الذى يصرح بأن مصر دولة إسلامية ، أم أنتم من الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويكتفون بالأسماء دون الحقائق ، فإن لم يكن لديكم وازع من دين فليكن لديكم وازع من الإشفاق على أبناء أمتكم . والخوف عليهم من ضياع مصالح الدنيا فضلا عن الدين الذى جعل الخمر أم الخبائث ، وحذر منها كل التحذير .

وإن شئت أيها القارئ الكريم وجهة أخرى فانظر مسألة السفور والفجور ، تجدها تدمى العيون وتذيب القلوب ، فقد وصلنا فيها إلى حد الحيوانات بل أشد وأنكى ، ومن أين للحيوان تفنن الإنسان واستعداده الغريب .

ومن المخزيات المبكيات أننا نرى كل يوم من تلك الحوادث ما يندى له جبين الحياء ، ولا نفكر فى شىء يرضى النخوة والرجولة ، ولا نصغى لصراخ الدين أو صوت الضمير ، ولا نلتفت لما توجبه الآداب العامة « ولو على سبيل النفاق » .

ولا بأس أن نقول لك : إن الفلاسفة قرروا أن هناك قانوناً طبيعياً يتبع مقتضيات الأشياء وخصائصها الذاتية ، وقانوناً أدبيا يمليه عليك ضميرك وتؤنبك عليه نفسك ، وقانوناً شرعياً يكمل به الإرشاد وتتم به السعادة ، وهو القانون الذى بعث الله به الأنبياء .

وبكل أسف نقول : إننا خالفنا القوانين الثلاثة : فلم نصغ لصوت ضميرنا ، ولم نعمل بشرعنا ، ولا نظرنا لمقتضيات الحقائق ولوازمها ، وإلا فمن ذا الذى يقول إن اختلاط البنين والبنات وحرية الحركات فى الروحات والغدوات لا تجلب أفظع الويلات وأكبر المحظورات ؟ وهل ذلك التعليم السطحى القليل الضئيل الملتوى المعوج فى البنات والبنين تمكنه أن يقاوم ذلك الأمر الطبيعى الذى هو أعلق شىء بالنفوس ، وأكبر ما رأيت وما سمعت سلطانا على الطبائع البشرية كما يشهد به العقل والحس والشرع والفلسفة ؟ وما كنا نظن أن أحداً يجادل فى الحسيات أو ينازع فيما يرى من المشاهدات ، ولكن الإنسان هو الإنسان .

أما كان يجب على الحكومة ونواب الأمة أن يفكروا فى تلك المسائل التى ستهوى بالأمة إلى مكان سحيق فتسن من القوانين ما يوافق دين الأمة ويحقق مصلحتها ، ويمنع عنها تلك الأوبئة القتالة ، وإلا فما فائدة النيابة عن الأمة ، وما معنى الحكومة والزعامة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وأظن أن من الواجب القانونى ألا نسترسل فى هذا الموضوع أكثر من هذا : فلنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، ولو شئنا لسقنا أحاديث كثيرة فى الرعاة الذين لم يقوموا بما يجب عليهم ، فلنقف عند هذا الحد .

وبعد — فشتان ما بين قانون يضعه أرباب النفوس المجبولة على الجهل والضعف والهوى الذى يضل عن سبيل الله ، وبين القوانين التى هى تنزيل من حكيم حميد .

تلك القوانين الوضعية التى تبيح الزنى رسميا وتحمى فاعليه وفاعلاته . وليت شعرى لماذا لا يمنعونه رسميا ولو اقتداء بانجلترا ، بل تلك القوانين التى تبيح الكفر العلنى وتحمى معتنقيه محافظة على تلك الحرية التى تفوق حرية البهائم ، وما مثلها عندى إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حريته ، فهل تراك أحسنت إليه ؟ تلك القوانين التى تجعل دروس الدين فى المدارس أمراً ثانوياً لا يترتب عليه نجاح ولا سقوط ، فأول ما تغرس فى نفوس النشء بهذا العمل أن الدين فى محل الإهمال ولا ينبغى أن يعتنى به أو يلتفت إليه ، وهى طريقة عملية فى التربية تترك فى نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين وأهون عقيدة فيه .

وها هى ذى أمامنا حوادث فلسطين التى تدمى العيون وتذيب القلوب ، وكان يجب أن يصرخ لها المسلمون فى كل بقاع الأرض ، ولكنهم متفرقون متخاذلون « وهو ما أسقطهم فى نظر الأجانب » فصاروا لا يرقبون فيهم إلّا ولا ذمة حتى أن الإنكليز غيروا ما هو المعروف من سياستهم استهانة بالمسلمين واحتقاراً لهم ، فقد كان المعروف من سياستهم أنهم يحترمون شعور المسلمين ويأبون أن يثيروا الأحقاد والضغائن ، أو يهيجوا الكامن فى النفوس ، محافظة على ما بينهم وبين الأمم الإسلامية من العلاقات والروابط .

ولكنهم فى حوادث فلسطين غيروا خطتهم وخالفوا سياستهم ، كأن المسلمين لا وجود لهم ، وإلا فكيف يرتكبون ذلك الظلم الصارخ الذى لا مبرر له بين سمع المسلمين وبصرهم من أجل اليهود الذين هم

أذل أمة فى الوجود ، ولماذا لا ينتصرون لهم أمام إيطاليا وألمانيا ؟ ولكن ضعف المسلمين وعدم اتحادهم هو الذى أدى إلى ذلك كله .

ووالله إن لم يتحدوا فسيرون أضعاف ذلك وقد أهاب بهم جماعة كبار العلماء فى جلستهم التى انعقدت فى يوم ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٨ ونصحوا لهم جميعاً أبلغ النصيحة ، فعسى أن يثوبوا لرشدهم ، ويعملوا على نصرة إخوانهم التى هى واجبة عليهم بمقتضى الدين والسياسة والإنسانية .

كلمة ختامية للزعماء :

أرى من الواجب على زعماء المسلمين أن يتحدوا تمام الاتحاد ، وعلى الأمم الإسلامية أن تحى رابطة الأخوة التى جعلها الله بين المؤمنين ، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضا ، أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، كما علمهم نبيهم .

فوالله لو اتحدوا تمام الاتحاد لحسبت لهم أوربا ألف حساب ، ولأمكنهم أن يوجدوا القوة الحسية فضلا عن القوة المعنوية ، وكان يمكنهم إذ ذاك إنشاء المعامل والمصانع ، وإعداد أنواع القوى كلها ، وجمع الأموال اللازمة لذلك وهم أغنياء والحمد لله ، وفيهم ممالك مستقلة فكانوا يستطيعون العمل سراً وجهراً ، ويرسمون لذلك فيما بينهم خططا حكيمة ، ويسنون قوانين معروفة ، إلى آخر ما لا نرى الإفاضة فيه ، ولا نستطيع إظهار خوافيه ، وهو يسير عليهم لو وفقوا وأخلصوا ثم

غيروا الوجهة ، ولم يقولوا مثلا نحن مصريون قبل كل شيء : « وكان الواجب عليهم أن يقولوا نحن مسلمون قبل كل شيء » ولو اتحدت آسيا وأفريقيا اتحاد أسلافهم لم تقدر عليهم دولة في الوجود .

أسأل الله أن يصلح شئوننا كلها وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

سورة الإخلاص (١)

رأينا أن نتحف القراء بتفسير سورة (قل هو الله أحد) لما ورد أنها تعدل ثلث القرآن على ماستسمع إن شاء الله .

ولنبدأ بما قيل في أسمائها الدالة على مزيد شرفها فنقول :

هذه السورة تسمى سورة الإخلاص ، وسميت بها لما فيها من التوحيد ولذا سميت أيضا بالأساس ، فإن التوحيد أصل لسائر أمور الدين . وروى الزمخشري عن أنس مرفوعا أن هذه السورة أسست عليها السموات السبع والأرضون السبع . والصحيح أن ذلك غير مرفوع ، والمراد أنه ماخلقت السموات والأرضون إلا لتكون دلائل على توحيد الله تعالى ومعرفة صفاته التي تضمنتها هذه السورة . وذلك أن تقول : إن مصحح إيجادهما ، أي بعد إمكانهما الذاتي ، ما أشارت إليه السورة من وحدته عز وجل ، واستحالة أن يكون له سبحانه شريك ، إذ لولا ذلك لم يمكن وجودهما لإمكان التمانع ، كما هو معروف في علم التوحيد ، وكما يشير إليه قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (٢) :

وتسمى أيضا سورة التوحيد ، وسورة التفريد ، وسورة النجاة ، وسورة المعرفة ، لأن معرفة الله تعالى إنما تكون بمعرفة مافيها . وفي بعض

(١) مجلة الأزهر — المجلد التاسع — الصفحة ٦٢٢ سنة ١٣٥٧

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢

الآثار أن رجلا صلى فقرأ (قل هو الله أحد) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن هذا عبد عرف ربه» .

وسورة النسبة لورودها جوابا لمن قال : انسب لنا ربك ، على ماستسمعه .

وسورة الصمد ، وسورة المعوذة ، لما أخرج النسائي والبزار وابن مردويه بسند صحيح عن عبد الله بن أنيس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدري ثم قال : قل ، فلم أدر ماأقول ، ثم قال : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فقلت حتى فرغت منها ، ثم قال : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَاخَلَقَ) فقلت حتى فرغت منها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هكذا فتعوذ ، وماتعوذ المتعوذون بمثلهن قط» .

وتسمى أيضا سورة البراءة ، قيل : لما روى أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلا يقرؤها فقال : «أما هذا فقد برئ من الشرك . وقد روى الترمذي عن أنس : من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ (قل هو الله أحد) مائة مرة كتب الله تعالى له براءة من النار .

وسورة الإيمان ، لأنه لايتم بدون ماتضمنته من التوحيد .

إلى آخر ماذكره المفسرون ، وهي جديرة بذلك كله كما لايخفى . ولايهمنا تصحيح كل ماقيل من حيث الرواية ، فإن هذه الأسماء التي ذكروها مأخوذة مما تضمنته هذه السورة من أسمائه العليا وأوصافه السنية ، فكلها حق بشهادة معناها وفصيح مبناها :

وهي مكية ، وقيل مدنية ، وقيل تكرر نزولها جوابا للمشركين بمكة ولليهود بالمدينة . وبهذا تعرف مافي قول بعضهم أنها مكية باتفاق. وآيها خمس في المصحف المكي والشامي ، أربع في غيرهما ، بجعل (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) آية واحدة ، وهو المشهور بين القراء .

وقد قرن بين هذه السورة (قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) في صلوات كثيرة لأنهما مقشقشتان : أي مبرئتان من الشرك .

أما الصلوات التي يقرأ فيها هاتان السورتان ، فمثل ركعتي الفجر عند غالب العلماء ، وركعتي الطواف وسنة المغرب . وزاد بعضهم وصبح المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة .

هذا وقد جاء فيها أخبار كثيرة تدل على مزيد فضلها ، منها ماتقدم آنفا . وقد روى عن أنس أن رجلا قال : يارسول الله إني أحب هذه السورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قال : إن حبك إياها أدخلك الجنة . وقد أخرج ذلك الإمام أحمد في المسند عن أبي النضرة عن مبارك بن فضالة عن أنس . وذكر البخاري أن حبها يوجب دخول الجنة ، تعليقا.

وروى مالك عن عبيد الله بن عبد الرحمن قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمع رجلا يقرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجبت ، قلت : وما وجبت ؟ قال : الجنة . وأخرجه الترمذي والنسائي وقال حديث صحيح. وأخرج أبو داود وابن ماجه والترمذي عن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهم إني أسالك بأني أشهد أنك أنت

الله لا آله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى . » وقد قالوا : إن هذا أصح حديث ورد فى اسم الله الأعظم .

وفى المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهد ويقول : إنى أسألك ياالله الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد أن تغفر لى ذنوبى أنك أنت الغفور الرحيم .فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : قد غفر له ، قد غفر له ، قد غفر له . ثلاث مرات .

وأخرج البخارى ومالك وأبو داود والنسائى عن أبى سعيد أن رجلا سمع رجلا يقرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له . وكان الرجل يتقالها ، أى يعدها قليلا نظرا لقلة ألفاظها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده أنها لتعدل ثلث القرآن » .

وأخرج أحمد والنسائى فى اليوم والليلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » .

وبالجملة فقد جاء أنها تعدل ثلث القرآن فى عدة أخبار مرفوعة وموقوفة . واختلف فى المراد بذلك ، فقيل : المراد أنها باعتبار معناها ثلث من القرآن المجزأ إلى ثلاثة أجزاء . وقد اختلفوا فى بيان ذلك . فقيل : أن القرآن يشتمل على قصص وعقائد ، وهى كلها مما يتعلق بالعقائد ، فكانت ثلثا بذلك الاعتبار .

وقال الغزالى فى كتابه «جواهر القرآن» ماحاصله : أنها عدل ثلثه باعتبار أنواع العلوم الثلاثة التى هى أمهات القرآن ، وهى علم المبدإ ، وعلم المعاد ، وعلم مابينهما . وقال بعضهم : المطالب التى فى القرآن معظمها الأصول الثلاثة التى بها يصح الإسلام ويحصل الإيمان ، وهى معرفة الله تعالى ، والاعتراف بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، واعتقاد القيام بين يديه . وهذه السورة تفيد الأصل الأول ، فهى ثلثه من هذا الوجه .

وفى الكشاف أنها تعدل القرآن كله . وهذا إن صح يقال فيه : أنها عدل القرآن باعتبار أن المقصود هو التوحيد وما عداه ذرائع له ووسائل إليه وفروع عنه . وقيل : المراد تعدل الثلث من حيث الثواب لظواهر الأحاديث .

وضعف ذلك بعضهم قائلا : لايجوز أن يكون المعنى : فله أجر ثلث القرآن ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات » فيكون ثواب قراءة القرآن بتمامه أضعافا مضاعفة بالنسبة لثواب قراءة هذه السورة .

وقد أجاب الدوانى عن ذلك بأن للقارئ ثوابين تفصيليا بحسب قراءة الحروف ، وإجماليا بسبب ختمه القرآن ، فثواب (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يعدل ثلث ثواب الختم الإجمالى لاغيره . ونظير ذلك ما إذا عين الإنسان أحدا يبنى له دارا وله فى كل يوم أربعة دنانير ، وعين له إذا أتمه جائزة أخرى غير أجرته اليومية .

وفى شرح البخارى للكرمانى مانصه : «فإن قلت : المشقة فى قراءة الثلث منها فى قراءتها فكيف يكون حكمة حكمها قلت :يكون ثواب قراءة الثلث بعشر ، وثواب قراءتها بقدر ثواب مرة منها ،لأن التشبيه فى الأصل دون الزوائد » .

ولك أن تقول : لامانع من أن يخص الله عز وجل بعض العبادات التى ليس فيها كثير مشقة بثواب أكثر من ثواب ماهو من جنسها وأشق منها بأضعاف مضاعفة ، وهو سبحانه الذى لاحجر عليه ، ولا يتناهى جوده وكرمه وسعة تصرفه ، فلا يبعد أن يتفضل جل وعلا على قارئ القرآن بكل حرف عشر حسنات ، ويزيد على ذلك أضعافا مضاعفة جداً لقارئ الإخلاص بحيث يعدل ثوابه ثواب قارئ ثلث منه غير مشتمل على تلك السورة ، ونفوض حكمة التخصيص إلى علمه سبحانه . وكذا يقال فى أمثال ذلك .

وهذا مراد من جعل ذلك من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وليس هذا بأبعد من تخصيص بعض الأزمنة والأمكنة المتحدة الماهية بأن للعبادة فيه ولو قليلة من الثواب مايزيد أضعافاً مضاعفة على ثواب العبادة فى مجاوره مثلا ولو كثيرة ، بل قد خص سبحانه بعض الأزمنة والأمكنة بوجوب العبادة فيه ، وبعضها بحرمتها فيه ، وله سبحانه فى كل ذلك من الحكم ماهو به أعلم .

وقد روى فى فضلها أحاديث ضعيفة وموضوعة ، والأحاديث الصحيحة الواردة فيها تكفى فى فضلها ،بل قيل لذلك أنها أفضل سورة فى القرآن . ومنهم من استدل عليه بماروى الدارمى فى مسنده عن

المغيرة عن صفوان الكلاعى قال : قال رجل : يارسول الله أى سور القرآن أعظم ؟ قال : (قُلْ هُوَاللهُ أَحَدٌ) . (وفى المسندمن طريق معاذ بن رفاعة وأسيد بن عبد الرحمن عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت فى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم ؟ قلت : بلى : قال : فاقرأنى (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) ثم قال : ياعقبة لاتنساهن ولاتبت ليلة حتى تقرأهن .

وهذا وأمثاله يدل على أنها أفضل سور القرآن مطلقا ، بل على أنها من الأفضل .

وقال ابن الحصار : العجب ممن ينكر الاختلاف فى الفضل مع كثرة النصوص الواردة فيه .

واختلف القائلون بالتفضيل ، فقال بعضهم : الفضل راجع إلى عظم الثواب ومضاعفة الأجر بحسب انفعال النفس وخشيتها وتدبرها وقال بعضهم وهو وجيه : أن الآيات التى تشتمل على تعديد أسماء الله تعالى وبيان صفاته والدلالة على عظمته عز وجل بمعنى أنها أسنى وأجل قدرا مما لاتشتمل على ذلك .

وقيل : إن معنى الأفضلية أن القارئ يتعجل بقراءتها فائدة سوى الثواب الآجل ، ويتأدى منه بتلاوتها عبادة ، كآية الكرسى والإخلاص والمعوذتين ، فإن قارئها يتعجل بقراءتها الاحتراز مما يخشى ، بما فيها من الاعتصام بالله تعالى ، مع مافيها من العبادة لله تعالى ،

فإن فيها ذكره عزوجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فيذكرها القارئ على سبيل الاعتقاد لها وسكون النفس إلى فضل ذلك الذكر وبركته ، وأما آيات الأحكام فلا يقع بنفس تلاوتها إقامة حكم وإنما يقع بها علم .

وبالجملة فالتفضيل بأحد هذه الاعتبارات لاينافى كون الكل كلام الله عز وجل ، وأنه متحد النسبة سبحانه كما لايخفى .

ولنقف هنا اليوم :

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » :

إنما قال : « قل » اعتناء بالأمر واهتماما به ، وإشارة إلى أن كل من ابتلى بالمبطلين فعليه ألا يخاف فى الله لومة لائم ، مع لفت النظر إلى أن هذا من عند الله لامن عند الرسول . ولك أن تقول أتى بها تذكيرا برسالته ، وإعلانا بأنه مأمور بالتبليغ من عند الله تعالى وعلى كل حال فهو من جملة مانزل به جبريل عليه السلام ، وكل مانزل به فهو قرآن ، والقرآن مأمور بتبليغه كما نزل .

ثم أتى بضمير الشأن للتنبيه من أول الأمر على فخامة القصة ، كقولك : هو الأمير قد ركب . كأنه قيل : الشأن هذا ، وهو الله واحد لا ثانى له . مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير فإن الضمير لا يفهم منه إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده فضل تمكن .

ولك أن تقول : إن هذا الضمير يؤتى به ، وإن لم يسبق له مرجع للإيذان بأن ذلك الشأن له من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير* ، وعليه يعود كل ضمير . ويجوز أن يكون هو ضمير المسئول عنه والمطلوب صفته ونسبته ، وهو إله محمد صلى الله عليه وسلم الذى سألوه عنه ، فقد أخرج الإمام أحمد فى مسنده ، والبخارى فى تاريخه والترمذى ، والبغوى فى معجمه وابن عاصم فى السنة ، والحاكم وصححه ، عن أبى بن كعب : إن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وصح رجوع الضمير إلى ذلك المسئول عنه للعلم به من السؤال. والضمير على هذا الوجه مبتدأ والاسم الجليل خبره وأحد خبر بعد خبر وأجاز الزمخشرى أن يكون بدلا من الإسم الجليل على ما هو المختار من جواز إبدال النكرة من المعرفة وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أى هو أحد . وأجاز أبو البقاء أن يكون الإسم الأعظم بدلا من « هُوَ » و « أَحَدٌ » خبره .

هذا ولفظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد ، و « أَحَدٌ » همزته مبدلة من الواو ، وقد قالوا : أن أحدًا إذا استعمل وصفا لم يكن إلا لله تعالى . والمراد أنه تعالى منزه الذات عن جميع أنحاء التركيب والتعدد خارجاً وذهناً ، وعن كل مايستلزم الجسمية ولوازمها ، أو يقتضى المشاركة فيما اختص به تعالى كوجوب الوجود والقدرة الذاتية التى لا نهاية لها ، والحكمة التامة التى تجب للألوهية . فسبحانك لا نحصى ثناء عليك ولو اجتهدنا ، أنت كما أثنيت على نفسك .

هذا وقد ذكروا فروقا بين أحد وواحد ، فقالوا : إن همزة أحد الذى لايستعمل إلا بعد النفى كما فى قوله صلى الله عليه وسلم « أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى » أصلية ، لأنه ليس بمعنى واحد ، فإنك إذا قلت : ما فى الدار واحد ، صح أن تقول : بل اثنان ، بخلاف ما إذا قلت : ما فى الدار أحد ، فإنه للنفى العام . . .

وفرقوا بينهما أيضاً بأن أحدًا لا يبنى عليه العدد ، فلايقال : أحد وإثنان كما يقال واحد وإثنان ، ولا يقال رجل أحد كما يقال رجل واحد ، بل هو مختص به تعالى كما علمت .

والدليل على أنه سبحانه وتعالى واحدًا من جهة العقل : أن الواحد إما أن يكون كافياً فى خلق العالم وتدبيره أولا ، فان كان كافياً كان الآخر ضائعاً غير محتاج إليه ، وان لم يكن كافياً فهو ناقص والناقص لا يكون إلٓها . على أن ما وراء الواحد ليس عدد فيه أولى من عدد ، فيكون وجود أى عدد من ذلك ترجيحاً بلامرجح .

ولك أن تقول : إن أحدهما إذا فعل شيئاً فقد سد باب الفعل على الآخر فلا يمكن نفوذ قدرته فيه ، والإلٓه لا يمكن أن يمنع نفوذ قدرته غيره وإلا لم يكن إلٓها ، إلى آخر ما قرره علماء الكلام فى علم التوحيد .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نجيب داعى الروح فنذكر لك هنا ما يثير محبتك لله وتعلقك به ومعرفتك لعظمته ، فإن هذا هو السعادة الأبدية التى يرى فيها الإنسان مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب بشر ، فنقول ، ونرجو أن تكون من الذين رق ذوقهم ولطف وجدانهم :

*

إذا كنت تحب أحدًا لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء الأمم ، فاحب الله تعالى الذى أتقن هذه العوالم كلها ، وأودع فيها من الأسرار ما أدهش فلاسفة أوربا إشراق شعاع من نور شمسه ، حتى قال سبنسر الإنجليزى ما ترجمته « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الإلٓهية من وراء تلك الحدود التى ينتهى إليها علم الطبيعة » .

ويكفيك ما اشتمل عليه الإنسان من الأسرار المدهشة التى تكفل بها علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء مما بهر علماء الفزيولوجيا فطأطؤا له الرؤوس ، وعشوا أمامه كما يعشو الخفاش أمام الشموس .

وإن كنت تحب أحدًا لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تدبيره من القادة والساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين وقيوم السموات والأرضين ، ورب العالمين ، ومدبر الخلق أجمعين ، من أمره بين الكاف والنون ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

وإن كنت تحب أحدًا لإحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تبريزه فى باب الفضل والمكارم ، فأحب منبع النعم ، ومعدن الكرم . وأين كل ما تتخيله إذا قسته بقطرة من بحار فضله ؟ .

وماذا نعدد لك من نعمه أو نسرد عليك من آثار كرمه بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة فى الوجود ، وأنه رب الكرم والجود : (مَايَفْتَحِ

اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١) .

ولعمر الإنصاف إن هذا المقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام وتخرس فيه الألسن ، فلن تطيق شرح نعمة واحدة من نعمه . وانظر إن شئت لنعمة الهواء التى يتوقف عليها وجود كل حى ، إلى آخرما يتفرع منها ويتشعب عنها .

وان شئت فانظر إلى نعمة الضياء أو الماء وما أودعه فى الأشياء من الكهرباء بباهر حكمته وعظيم تدبيره (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (٢) (وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (٣) .

وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الإنعام الفائض على كل من فى الوجود ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود : الفيلسوف لينه الفزيولوجى الفرنسى الذى كان يدعوه وجدنه فيجيبه ويناجيه شعوره فلا يتغافل عنه ، قال : « ان الله الأزلى الكبير العالم بكل شئ قد تجلى لى ببديع صنائعه حتى صرت مدهوشا مبهوتاً ، فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده سواء فى أصغر الأشياء أو أكبرها . إن المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظيم رحمة الله الذى سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشى و تجددها يقر بجلالته وعظمته .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢ (٢) سورة الأنعام ، الآية ٩٦
(٣) سورة ابراهيم ، الآية ٣٤

ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول :

إذا كنت تحب نفسك وكما لها فأحب من أوجدها فى أحسن تقويم وشق سمعها وبصرها ، وأسبغ عليها نعمة ظاهرة وباطنة ، ولم يقتصر كرمه على إفاضة الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من الكماليات ما تتنوع به لذتك وتتم به بهجتك ، فليس من الوفاء أن تعرض عنه وقد غمرتك نعماؤه ، وأشرق عليك ضياؤه ، وعذب لك ماؤه ، ولطف هواؤه وأنعشتك بدائع أكوانه : من رياض غناء ، وصحار فيحاء ، وأثمار شهية ، وألوان بهية ، ونغمات شجية ، ومناظر تطير بالقلوب إلى حضرة علام الغيوب : من شموس وأقمار ، وأطيار وأزهار ، وليل ونهار .

أما يجب أن تقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات والدلائل الناطقات والنعم الفائضات ، ما قال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادكـ   ـار وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات   وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل   مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا   فى نهار وفى الدجى أقمار
ورياح تهب من كل فج   وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير   جل ربا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على   الله نفوساً لها هدى واعتبار

أو تقول كما قال ذلك القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه — وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم — ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ فى الجو يرسل طرفه — إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول : الله فى عرش مجده — وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مسرة — إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الأنام كثيرة — ولكن جهل المرء لاشك غالبه

أو يقول عندما يرى الأشجار تتهادى فى حلل الأوراق والأزهار معجباً برؤيتها متعجبا من قدرة خالقها :

ياصاحبى تعجبا للملابس — قد حاكها من لم يمد لها يدا

فقل لى بعيشك هل من الحياء ، والحياء خلق كل كريم ، أن تتمتع بما خلق الله لك من الأضواء والإصباح والإمساء ، وما أوجد لك من بديع الأشياء وسخر لك من الأرض والسماء ، وكان الأمر على ما يقول عز وجل : (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)(1) ثم لا تؤدى شكره ولا تعرف قدره ؟

إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا — من أفرط لطفك ربى كيف ينساكا

فإن كان لا يؤثر فى نفسك فائض أنعامه ومزيد إحسانه ولا ما هو عليه من قدرة يتحير فيها الناظرون ، وعظمة لا يصفها

(1) سورة لقمان ، الآية ٢٠

الواصفون ، وعلم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وحكمة أتقن بها جميع الأشياء ، ولا هو متصف به عز وجل من نعوت الجلال وصفات الكمال ، وكان لا يستولى على نفسك إلا سلطان الحس الذى تشاهده بعينك أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل جمال يقع عليه حسك أو يتصل به لمسك فإنما هو ظل من ظلال ذلك الجمال المطلق يجل عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أى مظهر من مظاهره إلا بعض سرائره ، ولا تمثل لك أى مرآة من مراياه إلا بعض مزاياه ، وأنى يسع المحدود من لا يقبل التحديد ، وكيف لا يضيق المقيد بمن لا يدخل فى سجن التقييد ؟

إن قلت هذا فإن الحد يحصره — أو قلت إذا فكلام لست أدريه
أو قلت عندى جاء الظرف يطلبه — والظرف حق ولكن ليس يحويه
ما أن رأيت وجودا لست أدريه — إلا الذى أنا معنى من معانيه

فطوبى لمن شم عرف شذاه ، أو شام برق سناه ، وهنيئا لمن شرب قليلا من مدامه ولو مزجا أو نظر إليه ولو شزرًا ، فإذا لم يدر ما هو تائق إليه ومتلهف عليه قال :

شئ به فتن الورى وهو الذى — يدعى الجمال ولست أدرى ماهو

وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشتاقون إلى الله ، أتدرون لماذا ؟ لأنهم يتوقون إلى إصلاح لا يتناهى ، وجمال لايتناهى وكمال لايتناهى ، وليس ذلك إلا لله .

فارجع إلى سلامة فطرتك ، وحدق ببصر بصيرتك ، وطالع ذلك الجمال الإلهى الذى تجلى على صفحات الموجودات ، واقرأه بين

سطور تلك المبدعات ، ثم انظر رعاك الله إلى أى حد انتهيت ، ولا أظنك إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوى الإحساس بالجمال إلا وقد وصلت إلى معنى يصغر بجانبه اسم الحسن عندما تحس بجمال لايتناهى ، وغرقت فى بحر من الجلال لا يحدو ولا يأتى عليه التعبير . عند ذلك ينطبق لسان حالك منشدا :

عجبت لعاقل فى الناس أضحى   يرى هـذا الجمال ولا يهيم

فاستجل هذا الجمال رعاك الله فى كل شئ تراه من العلويات والسفليات

ان شئت فى ذلك أوشئت فى ملك   أو شئت فى مدر أوشئت فى حجر
فالكل ينطق أن الله خالقه   وهو المليك ورب النفع والضرر

وهل الشمس وهى أظهر ما علمت ، وأبهر ما رأيت ، وأجمل ما وقع عليه البصر ، وأبهى ما وصل إليه النظر ، إلا أثر من آثاره ، ونور من أنواره ، قد كتبت عليها سطور البهاء والجمال ، والعزة والجلال ؟ فنحن نقرأ فيها قدرة نخر لها ساجدين ، وحكمة نقف أمامها مبهوتين ، وجمالا يذوقه الوجدان ، وإن كان لايكفيه ، وتمتلئ به النفس وإن كانت لا تعرفه ، ونطالع فيها رحمة تجعلنا قائلين بلسان الشاكرين . تبارك الله أحسن الخالقين! وحقه ، وما أكبر حقه ، لو تفرغت من الشواغل التى أخذتك ولم تدع منك شيئا لعشقت فذقت فنطقت فقلت :

تراه إن غاب عنى كل جارحة   فى كل معنى لطيف رائق بهج
وفى مساقط أنداء الغمام على   بساط نور من الأزهار منتسج

وفى مسارح غزلان الخمائل فى   برد الأصائل والإصباح فى البلج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا   أهدى إلى صحيرا أطيب الأرج

عظم الله والبرهان وامتلأ الوجدان ، ووصل الأمر إلى حد العيان ، وليس بعد العيان بيان ! ، ولكن قويت الأنوار فغشيت الأبصار وكل ما اعتيدت مشاهدته وتكررت رؤيته سقط عن القلب وقعه وإن عظم نفسه . ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين لا ممن أخلد إلى الأرض من الغافلين الجامدين :

خليلى قد طال المقام على القذا   وحال على ذا الحال ياقوم أحوال
يمر زمانى بالأمانى وينقضى   على غير ما أبغى ربيع وشوال

فاطلب رعاك الله مرافقة سكان الملكوت وعشاق الجبروت ، فإن كنت تحب أحدا لما بينك وبينه من التشاكل والتناسب ، فأحب الملإ الأعلى سكان ملكوت الله تعالى ، فإن فيك ما يشاكلهم تمام المشاكلة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)(١) .

وليس غذاء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا الصفاء ، ولا أمنيته إلا الاطلاق من جميع التقيدات ، والاطلاع على جميع المغيبات ، وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك نسيت عالمك الأول منذ فارقته واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجسمانى الذى لا بد له من الفناء فأنست بالظلمات وتمرنت على احتمال الآفات :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

ولذلك يصف القرآن من هذا حاله بالموت ، لأنه أمات أفضل غريزة فيه ، بل أمات خاصيته التى هو بها إنسان على الحقيقة ، فيقول : (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)(١) .

وقد استولت عليك هذه المطالب الجسمانية حتى أنستك عالم البهجة والبهاء وصرت لا تعرفه ولا تحس به وإنه لموطن روحك ومحل أنسك ، وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل بدنها لا لأجل ذاتها ، وأما مطلبها الذاتى وغذاؤها الأصلى فهو الأسرار والأنوار ، ولما طال بها العهد وهى فى سجن الظلمات ومحل الآفات نسيت ما هى مستعدة له ومخلوقة لأجله ، وهو فى الحقيقة نسيان لنفسه (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)(٢) فكأن لم يكن لها عهد بالصفاء ولا علاقة بعالم الجمال :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا　　أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ، ويخلصها من أمراضها التى أضعفت منها تلك الحاسة العليا ، التى هى مناط لذتها الكبرى ، وشرفها الأعلى ، وخاصيتها الأولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الأنبياء الذين هم أطباء الأرواح وأساتذة النفوس بمنه وكرمه ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

أما قوله تعالى : (اللَّهُ الصَّمَدُ) فهو مبتدأ وخبر . وقيل : الصمد نعت والخبر ما بعده . وليس بشىء . والصمد فى تفسيره عبارات

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٢
(٢) سورة الحشر ، الآية ١٩

كثيرة : قال ابن الأنبارى : لا خلاف بين أهل اللغة أنه السيد الذى ليس فوقه أحد ، وهو من يصمد إليه الناس فى حوائجهم وأمورهم . وقال الزجاج : هو الذى ينتهى إليه السؤدد ويقصده كل شىء ، وأنشد :

لقد بكر الناعى بخير بنى أسد　　بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وكذلك قول الآخر :

علوته بحسام ثم قلت له　　خذها خزيت فأنت السيد الصمد

وهو تهكم من ذلك القائل .

ويقول ابن عباس : إنه السيد الذى كمل فى سؤدده ، والشريف الذى كمل فى شرفه ، والعظيم الذى كمل فى عظمته ، والحكيم الذى كمل فى حكمته . وعن أبى هريرة أنه المستغنى عن كل أحد ، المحتاج إليه كل أحد . وعن ابن جبير : هو الكامل فى صفاته وأفعاله . وعن الربيع : هو الذى لا تعتريه الآفات . وعن مقاتل ابن حيان : هو الذى لا عيب فيه . وعن قتادة : هو الباقى بعد خلقه . ونحوه قول معمر : هو الدائم . وقال مرة الهمدانى : هو الذى لا يبلى ولا يفنى . وعنه أيضاً : هو الذى يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه . وعن الحسن البصرى ومجاهد وغيرهما أنه : الذى لا جوف له . وعن ابن مسعود : الصمد : الذى ليس له أحشاء . وهو رواية عن ابن عباس .

وليس يخفى عليك أن أكثر هذه التفاسير منظور فيها لما جاء في القرآن من وصف الله تعالى بالصمد ، وإلا فهو في لغة العرب لايفسر بهذه الأوصاف التي لا تنطبق إلا على الله عز وجل كما عرفته من الشعر السابق .

الخلاصة :

أن المختار من تلك الأقوال التي ذكرناها والتي لم نذكرها أنه السيد الذي يصمد إليه الخلق ، وهو بمعنى المفعول : أي المصمود إليه ، يقال : صمده وصمد إليه : أي قصده والتجأ إليه . وإطلاق الصمد بمعنى السيد عليه تعالى مما لاخلاف فيه ، وإن كان في السيد نفسه خلاف والصحيح إطلاقه عليه عز وجل .

هذا وقصد المخلوقات إياه تعالى بالحوائج أعم من القصد الإرادي والقصد الطبيعي ، وهو القصد بحسب الاستعداد الأصلي الثابت لجميع الماهيات ، إذ هي كلها متوجهة إليه تعالى في طلب كمالاتها منه عز وجل .

وتعريف « الصَّمَدُ » دون « أَحَدٌ » في الجملة السابقة ، قيل لعلمهم بصمديته تعالى دون أحديته . والأولى أن يقال : أن التعريف لإفادة الحصر ، كقولك : زيد الرجل . ولا حاجة إليه في الجملة السابقة ، فإن مفهوم أحد يقتضي التنزه عن أنحاء التركيب والتعدد مطلقًا ، إلى آخر ما بيناه سابقًا ، مع أنهم لا يعرفون أحديته تعالى ولا يعترفون بها ، فلا محل للتعريف .

ولك أن تقول : إن أحدًا في غير النفي والعدد لا يطلق على غيره تعالى فلم يحتج إلى تعريفه ، بخلاف الصمد فإنه جاء في كلامهم إطلاقه على غيره عز وجل ، أي كما في البيتين السابقين .

وتكرار الاسم الجليل دون الإتيان بالضمير ، قيل : للإشعار بأن من لم يتصف بالصَّمَدِيَّةِ لَمْ يَسْتَحِقِ الأُلُوهِيَّةِ ، وذلك على ما صرح به الدواني مأخوذ من إفادة تعريف الجزأين الحصر ، فإذا قلت : السلطان العادل أشعر بأن من لم يتصف بالعدل لم يستحق السلطنة . وإذا كانت الصمدية لازمة للألوهية لم يستحق الألوهية من لم يتصف بها . ولم يكتف بمسند واحد بأن يقال : الله الأحد الصمد ، للتنبيه على أن كلاًّ من الوصفين مستقل في تعيين الذات والاختصاص بها .

وترك العاطف في الجملة المذكورة لأنها كالدليل على ما قبلها ، فإن من كان غنيًّا لذاته محتاجًا إليه جميع ما سواه ، لا يكون إلا واحدًا وما سواه لا يكون إلا ممكنًا محتاجًا إليه .

والقرآن له عناية بالغة بذكر الأدلة في باب التوحيد تلويحًا وتصريحًا كما لا يخفى على المتأمل البصير .

وبهذه المناسبة نقول : إن قول ذلك الفيلسوف الذي نقلته مجلة الأزهر في عددها الثامن من السنة الماضية : « إن أدلة القرآن على توحيد الله تعالى إجمالية » غير صحيح وكأنه اغتر بما يراه في كتب المتكلمين من العبارات الطويلة والأسئلة والأجوبة ، إلى آخر ما تعرفه من كلامهم ، ولو تبصر قليلًا لعرف أن طريقة القرآن أصح وأوضح وأقرب من تلك الطرق كلها ، وهي نافعة للخاصة والعامة ، بخلاف طريقة المتكلمين والمتفلسفين .

والقرآن يبين في وضوح أن كل شيء آية من آياته ، ودليل على وجوده وعظيم صفاته . وكان بودي أن أبسط الكلام على ما في

القرآن من البراهين والايات التى لم يصل إليها هؤلاء الفلاسفة والمتكلمون ، ويعلم الله أن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن فى غير موضع .

وإن شئت فانظر إلى الاستدلال البديع الذى فى نهاية الإيجاز والإعجاز فى قوله تعالى : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ »(١) وقوله : « أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٢) .

وقد أذكرنى هذا ما قاله بعض فلاسفة المتكلمين ، وأظنه ابن سينا : « كنت أشتهى أن يرى أرسطو ذلك الدليل البديع على البعث فى قوله تعالى : « قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »(٣) .

أما الاستدلال على قدرته وحكمته فى القرآن الشريف فأكثر من أن يحصى ، وأكثر من أن يستقصى فى مثل قوله : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »(٤) ويقول : « فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »(٥) . « أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ »(٦) . « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥
(٢) سورة ابراهيم ، الآية ١٠
(٣) سورة يس ، الآية ٧٨ ، ٧٩
(٤) سورة الطارق ، الآية ٥ — ٧
(٥) سورة الانفطار ، الآية ٨
(٦) سورة البلد ، الآية ٨ — ٩

سُطِحَتْ »(١) ويقول : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ »(٢) إلى آخر تلك الآيات التى أختتمها بقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ »(٣) .

وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفينى فى الاستدلال على الله وجود الأنثى بجانب الذكر » . ويقول تعالى : « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ . بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »(٤) . ويقول تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٥) .

(١) سورة الغاشية ، الآيات: ١٧ — ٢٠
(٢) سورة الروم ، الآيات : ٢٠ — ٢٢
(٣) سورة الروم ، الآية: ٢٥
(٤) سورة النازعات ، الآيات: ٢٧ — ٣٣
(٥) سورة القصص ، الآيتان: ٧١ — ٧٢

ويقول تعالى مخبراً عن الإنسان مستلفتاً نظره إلى تلك الآيات البينات : « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ »[١] . ويقول : « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ »[٢] إلى آخر الآيات التى جاءت فى تلك السورة .

ومن عجيب تصرف القرآن فى الاستدلال على الله ما يسلكه فى كثير من السور من تلك الطريقة البديعة فيقسم بأشياء تستلفت الأنظار ، وتستهوى الأفكار ، لدى من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فيقول تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ »[٣] . ويقول : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . والنهارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . والسَّماءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا »[٤] . ويقول : « أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ »[٥] .

ولعله لا يغيب عنك ما ذكره فى الاستدلال على البعث . وهو استدلال على وجوده تعالى وقدرته ورحمته : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ

(١) سورة القيامة ، الآية ٣٧ — ٣٩
(٢) سورة النمل الآية ٦٠
(٣) سورة التكوير ، الآية ١٥ .
(٤) سورة الشمس ، الآية ١ — ٧
(٥) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥

فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ، ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ، وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا . وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ »[١] . ويقول : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنفُسِكُمْ . أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[٢] ويقول تعالى : « وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ »[٣] .

ولتعلم أن من عادة القرآن التفنن فى ذكر الآيات ، علماً منه بما جبلت عليه النفوس من الجهل والغلظة كما قال فى حق الإنسان : « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا »[٤] ، ويقول : « قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ . كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ . فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »[٥] . ويقول : « إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ

(١) سورة الحج ، الآية ٥ — ٧
(٢) سورة الذاريات ، الآية ٢٠ — ٢١
(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٥
(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢
(٥) سورة عبس ، الآية ١٧ — ٣٢

الْحَبِّ والنوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ . ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا . وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ، وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » [1] . إلى آخر ما جاء فى القرآن الشريف من ذلك وهو كثير : « فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » [2] .

وما أجدرنا أن يقول كل منا كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى » !

فقل لى بأبيك أين هذا من تلك العبارات المظلمات التى تراها مختلطة بتلك الشبهات وهاتيك التشكيكات من التهافت وتهافت التهافت مما يثير الأوهام ويفسد الأحلام ؟ ! « قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ » [3] .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٥ — ٩٩ (٢) سورة يونس ، الآية ٣٢ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٠٤

سورة الاخلاص (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ » :

سبق لك فى تفسير الصمد آراء كثيرة ، ومنها أنه هو الذى لا جوف له ، ومنها أنه الذى لا يخرج منه شىء ، ومنها أنه الذى لم يلد ولم يولد ، فعلى هذا يكون قوله : « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » لازما لكونه صمدًا ، أو تفسيرًا له .

وعلى كل حال فمعلوم أن الولادة تقتضى انفصال مادة منه سبحانه ، وذلك يقتضى التركيب المنافى للصمدية والأحدية الحقيقية ، على ماسبق بيانه ، لأن الولد من جنس أبيه ، والأحد لا يجانسه أحد .

أما نفى المولودية عنه تعالى فواضح جدًّا ، لاقتضائها أنه مادى منفصل عن غيره ، ولا شك أن هذا يقتضى التركيب ، والتجزى ، وسبق العدم ، والمجانسة المستحيلة على واجب الوجود .

وقدم نفى الولادة على نفى المولودية ، لأن فريقًا كبيرًا من البشر

(١) مجلة الأزهر — الجزء الأول — المجلد العاشر — المحرم سنة ١٣٥٨

توهموا أن له ولدًا . وكأنَّه سبحانه يريد أن يسوى بينهما فيقول : إن نفى الوالدية ونفى المولودية متساويان لدى العقل الصحيح ، واستحالتهما عليه أظهر من الشمس وأوضح من الحس .

ولا يمكننا أن نعقل ما يقوله المسيحيون فى هذا المقام من أن هناك ثلاثة هى : «الأب ، والإبن ، وروح القدس» ، وهى جواهر ثلاثة يستقل كل واحد منها عن أخويه ، ومع ذلك فهى إله واحد ، كما يقول قائلهم فى المسيح عليه السلام :

فهو الإله ابن الإله وروحه فثلاثة هى واحد لم تقسم

ولا ندرى كيف تكون الثلاثة واحدًا والواحد ثلاثًا ! وإن قلنا تبعًا لما تفيده بعض عباراتهم : إن الإبن وروح القدس صفتان للأب وهما عبارة عن العلم والحياة ، عجزنا عن فهم كون الصفة إلهًا ، ولم يمكنا أن نفهم الاستقلال الذى يزعمونه .

ومع هذا وأضعافه وأضعاف أضعافه يقولون : كل ذلك مما يجب الإيمان به ولو كان فوق طور العقل . وليت شعرى كيف يؤمن الإنسان بما يعتقد استحالته ، والديانات يصح أن تجيء بما لا يفهم العقل كنهه وحقيقته أو يجهل تفصيله ، ولكنها لا تجيء بما تحيله العقول وتعتقد عدم إمكانه ! « فإن كنت ترى فيها شيئًا من المحارات ، فلست ترى فيها شيئًا من المحالات »

وليس الأمر عندهم قاصرًا على هذا ، فكم لهم من أشياء غير معقولة ولا مقبولة ، مثل قولهم : «إن المسيح أطعم يومًا الحواريين خبزًا

وسقاهم خمرًا ثم قال لهم : أكلتم لحمى وشربتم دمى فاتحدتم معى وأنا متحد مع الأب » وإلى الآن يعمل القسيس مثل هذا العمل ويسميه « العشاء الربانى ! » . والقوم يعتقدون أنه دم المسيح ولحمه .

وإن شئت فانظر إلى رنات أخرى لا تقل غرابة عما سمعت ؛ وذلك مثل قولهم : « إن الله غضب على آدم وذريته من أجل ثمرة أخذها من الشجرة أشد الغضب ، وأنه يلحق بهم كل هوان وعذاب فى الآخرة من أجل تلك الثمرة التى تناولها من الشجرة ، ثم سعى إليه أو إلى ابنه الساعون من اليهود بالقتل – وهى جريمة فوق الأكل من الشجرة مليون مرة – غفر لهم ما تقدم من ذنبهم ورضى عنهم » .

وليت شعرى كيف ذهب عند القتل ما يجب للإله من القوة القاهرة والجبروت والبطش الشديد ؟ ! هذا لعمرى من منطق المجانين الذين لا يفقهون ما يقولون !

ومما يذكر فى هذا المقام أن بعض المسلمين قال لبعض القسوس : إن بعض الناس أخبرنى أن رئيس الملائكة قد مات ، فقال له القسيس : إن ذلك كذب لأن الملائكة خالدون لا يموتون ، فقال له المسلم : وكيف وأنت تقول الآن فى وعظك : إن الإله قد مات على خشبة الصليب ، فكيف يموت الإله وتخلد الملائكة ، فبهت القسيس ولم يحر جوابًا .

ولا نزال نقول : إذا كان الإله يقتل على خشبة الصليب فلمن تكون القوة والجبروت ؟ ومن هو ذلك القاهر فوق عباده الذى بيده أرواح اليهود وغير اليهود ، ومن يحيى ويميت ، ومن يجيب المضطر

إذا دعاه ، ومن ينشئ السحاب الثقال ، وتندك من هيبته الجبال كما اندك جبل موسى عند تجليه تعالى له كما فى التوراة التى بين أيديهم ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

ولله در القائل :

عجبًا للمسيح بين النصارى	وإلى الله والدًا نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنهم بعد قتله صلبوه
فلئن كان مايقولون حقًا	فسلوهم فأين كان أبوه
فإذا كان راضيًا بأذاهم	فاشكروهم لأجل ما صنعوه
وإذا كان ساخطًا غير راض	فاعبدوهم لأنهم غلبوه

ثم نقول : إذا حلت ذات الإله فى المسيح أفلا تكون معها الصفات ؟ وهل يمكن أن تفارق الصفات الذات الموصوفة بها؟ وإذًا فما معنى : أقنوم العلم ، وأقنوم الحياة ؟ وما معنى جعلهما مستقلين؟ وليت شعرى لماذا خصوا : العلم والحياة ؟ أليست الصفات كلها يجب أن تكون مع موصوفها ، أم الملازم له المنتقل إلى المسيح إنما هو العلم والحياة فقط ، وأما بقية الصفات فلم تنتقل إليه ؟ ولا أدرى كيف بقيت بعد انتقال الذات والعلم والحياة ؟ وهل قامت بنفسها فتكون صفات بلا موصوف ، أو قامت بذات أخرى غير الذات المقدسة ؟ وما أدرى كيف تسيغ عقولهم إن الصفة تقوم بنفسها كالجواهر مع فرضها صفة ؟ (هذا خلف) فالصفة صفة والجوهر جوهر لدى كل إنسان عنده مسكة من العقل .

ولعمر العقل والرشد أننا لو لم نبصرهم بأعيننا وتسمعهم بآذاننا لم نصدق أن من العقلاء من يعتقد تلك العقيدة التى يردها الأطفال ، ولايساعدها إلا الخيال أو الخبال . ولو تجرد المبشرون من التعصب وتبرؤا من التقليد الذى صار حجابا على عقولهم ، لخجلوا غاية الخجل من معتقدهم الذى لا يكاد يتصور ، فضلا عن أن يصدق به أو يقام عليه البرهان . وكثيرا ما رده أطفال المسلمين فى مدارسهم عندما رأوه يناقض الفطرة وينافى الضرورة .

وقد أخبرنى بعض أصحابى أن بنته كانت ببعض المدارس الأمريكية فقيل لها : إن الإله يسوع المسيح قد أخذه اليهود وصلبوه وألبسوه تاجاً من الشوك وصاروا يبصقون فى وجهه ، إلى آخره ، فقالت عندما سمعت ذلك على البديهة : إن إلهنا يميت الناس ، وإلهكم تقتله اليهود ويبصقون فى وجهه . ولله در البوصيرى حيث يقول فى لاميته :

جاء المسيح من الإله رسولا	فأبى أقل العالمين عقولا
أسمعتم أن الإله لحاجة	يتناول المشروب والمأكولا
وينام من تعب ويدعو ربه	ويروم من حر الهجير مقيلا
ويمسه الألم الذى لم يستطع	صرفًا له عنه ولا تحويلا
ياليت شعرى حين مات بزعمهم	من كان بالتدبير عنه كفيلا
زعموا الإله فدى العبيد ، بنفسه	وأراه إن كان القاتل المقتولا
أيجوز قول منزه لإلهه	سبحان قاتل نفسه فأقولا
أوجل من جعل اليهود بزعمكم	شوك القتاد لرأسه إكليلا

ومضى لحبل صليبه مستسلما ... للموت مكتوف اليدين ذليلا
ضل النصارى فى المسيح وأقسموا ... لايهتدون إلى الرشاد سبيلا
جعلوا الثلاثة واحدا ولو اهتدوا ... لم يجعلوا العدد الكثير قليلا
وإذا أراد الله فتنة معشر ... وأضلهم رأوا القبيح جميلا

ولو شئنا لأطلنا ، فليعلم المبشرون ذلك ، وليكفوا عن إرسال الرسائل إلينا . وإذا نظرت فيها لم تجد إلا السفاهة والجهالة . وكنا نود أن ينصفوا من أنفسهم ، وينظروا بعقولهم إلى مايقولون ولايغشوا الناس بتلك الترهات وهاتيك الخرافات .

وعار والله على أبناء القرن العشرين الذين يزعمون حرية التفكير أن يعتنقوا دينا وضعه رهبان الكنائس ، كى يستعبدوا به البشر ، ويذلوا به النفوس لسلطانهم الذى امتد إلى الجنة والنار ، حتى صاروا يبيعونهما لمن شاءوا بما شاءوا (ولا غرو فبيدهم غفران الذنوب وزمام القلوب) (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَاأُمِرُوا إِلَّالِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ . سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)(١) .

ولابأس أن نذكر هنا ماجاء فى بعض المجلات ، وهذه عبارة المجلة «قبل الحرب الكبرى كان موسولينى يعِد كتابا عن «جون هوس» المفكر البوهيمى المعروف الذى أحرقه رجال الكنيسة عقابا له على ماأذاع من آراء اعتبرت إذ ذاك إلحاداً وخروجا على الدين ، فقال فى

(١) سورة التوبة ، الآية ٣١

مقدمته : «وإننى لأرجو وأنا أتقدم بهذا الكتاب إلى جمهور القارئين أن أثير فى نفوسهم كل عواطف الكراهية والاحتقار للاستبداد والمستبدين» .

ويقول اللورد هدلى : «عجبا للأوربيين يبحثون عن أحسن المآكل والمشارب والملابس والمساكن ولا يبحثون عن أحسن الأديان» .

وكم للإسلام من شهادات عالية من كبار فلاسفة أوربا وأمريكا .

ونلفت نظر إخواننا المسيحيين إلى ماكتبه «جوستاف لوبون الفرنسى ودرابر الأمريكى وتوماس كرليل الإنكليزى وغيرهم» . وفى اعتقادى أنهم لو قرأوا ذلك بإمعان أو قارنوا بين الإسلام والنصرانية بتبصر وإنصاف لاعتنقوا الإسلام فرحين مستبشرين ، ولأصبح الدين كله لله ، ولأمسى الناس عبيد الله لاعبيد المسيح ولاخلفائه الكاذبين من الأحبار والرهبان.

ونقول هذا نصيحة لإخواننا فى الإنسانية ، وإخلاصا لهم وحبا لسعادتهم فى الدنيا والآخرة وليعلموا أنهم مسئولون ومحاسبون وإن العالم لم يخلق سدى ولم يترك هملا (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخر لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)(١) (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَايُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)(٢) (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٧
(٢) سورة الكهف ، الآية ١١٠

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَانُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)(١) .

أسأل الله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه ، والباطل باطلاً وأن يرزقنا اجتنابه ، حتى نكون من عباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

وصلنا بك أيها القارئ الكريم من سورة الإخلاص إلى قوله : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ونقول اليوم فى الكلام على هذه الآية الشريفة :

إنه تعالى لما بين أنه المصمود إليه فى قضاء الحوائج ، ونفى الوسائط من البين بقوله (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) على ما بيناه ، ختم السورة بأنه ليس هناك شيء من الموجودات مساوٍ له فى شيء من صفات الجلال والعظمة .

وبيان ذلك : أن وجوده تعالى من مقتضيات حقيقته ، فإنه واجب لذاته لا بشيء خارج عنه ، لأن حقيقته غير قابلة للعدم ، وأما صفاته فلا مناسبة بينها وبين صفات المخلوقين ولا اشتراك بينهما إلا فى الأسماء .

وانظر إلى علمه مثلا تجده لا يتصور فيه مساواة أصلا ، لأنه ليس بضرورى ولا استدلالى ، فليس مستفاداً من الحس ولا من الرؤية

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٤

بترتيب المقدمات والنظر فى شرائط الإنتاج ولا من مخبر أو معلم . ويستحيل عليه أن يكون فى معرض الغلط أو الزوال ، إلى آخر ما يرشدك إليه العقل السليم والفهم المستقيم ، بخلاف علوم المحدثات فإنها ليست كذلك فى كل ذلك وهو بعد ذلك لا يغرب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وأما القدرة التى أبدعت السماوات والأرضين فأمرها أوضح من الشمس وأجلى من الحس وكذا بقية صفاته جل وعز من الرحمة والجود والعدل والفضل والإحسان والحكمة التى اتقن بها جميع العوالم العلوية والسفلية ، وقد بهرت الناظرين فيها والمتتبعين لخوافيها : (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)(١) إلى آخر صفاته التى لا تحد ولا يأتى عليها العد ، فسبحان من لا تتناهى كمالاته العليا وأسماؤه الحسنى .

هذا وأما تقديم الخبر وما يتعلق به من الجار والمجرور ، فلكون هذا الكلام سيق لنفى المكافأة عن ذات الله فتقديم ما يفيد ذلك المقصود المسوق له الكلام أولى .

والكفء : المثيل والنظير . قال عطاء فى تفسير الاية : لم يكن له مثيل ولا عديل . وقال مجاهد : لم يكن له صاحبة . وكأنه تعالى يقول لم يكن أحد كفوًا له فيصاهره ردا على من حكى الله عنهم أنهم قالوا : ولد الله وأن الملائكة بنات الله ، وأن المسيح ابن الله . فكأنها دليل لقوله

(١) سورة الملك ، الآيتان ٣ ، ٤

(لَمْ يَلِدْ) ولكننا لا نخصصها بهذا وإن كان ما قاله مجاهد داخلاً فى ذلك دخولا أولياً .

الخلاصة

أن هذه السورة الشريفة يستفاد منها تلك المطالب العالية المبينة لكمال الله وعظمة شأنه . فقوله : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يدل على أنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله (اللهُ الصَّمَدُ) يدل على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه فى جميع الحوائج إلا إذا كان محسنا غاية الإحسان جواداً لاحد لجوده .

وقوله : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) يدل على أنه الغنى على الإطلاق وأنه منزه عن التغيرات ، ويلزم ذلك أنه لا يبخل بشىء أصلا ولا يمكن أن يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضر ، بل بمحض الإحسان وإلا لم يكن الغنى المطلق .

وقوله : (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) إشارة إلى نفى ما لا يجوز عليه من الصفات ، وما يستحيل فى حقه من المشاركات .

وإجمال القول : أنه نفى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله (أَحَدٌ) ونفى النقص والبخل والعجز بلفظ (الصَّمَدُ) ونفى العلية والمعلومية بقوله : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) ونفى الأضداد والأنداد بقوله : (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

ثم نقول بعد ذلك : إنها أبطلت مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة ، كما أبطلت مذهب الصابئين فى الأفلاك والكواكب التى يعبدونها ويعتقدون أنها المؤثرة فى هذا العالم .

وليس يخفى عليك أن كونه صمدا يبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله ، لأنه لو وجد خالق آخر لما كان مصمودا إليه فى جميع الحاجات على ما تقدم فى تفسير الصمد .

وقوله : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) يبطل مذهب بعض اليهود فى عزير ، والنصارى فى المسيح والمشركين فى أن الملائكة بنات الله .

وقوله تعالى : (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) يبطل مذهب الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى . فسبحان من أودع فى كلامه ما يدهش الأنظار ويملأ الأفكار من عظمة الواحد القهار .

واعلم أن للقرآن عناية كبرى ببيان عظمة الله وتوحيده وإن كان معنياً بالترغيب والترهيب وغيرهما من المقامات التى أفاض فيها القرآن إلا أنه يمزج ذلك كله ببيان العظمة والجلال ، وكأن ذلك هو العنصر السارى فى كل شىء ، والأساس الذى يبنى عليه كل شىء ؛ فإن من امتلأ قلبه بعظمة الله لم يفرط فى شىء من أوامر الله .

ولتعلم أن القرآن يرى أن كل شىء آية يجب التفكر فيها ، وحقا هى آية ، فإن كل شىء يوصل إلى الله تعالى . « ومن البدهى أن كل صنعة تدل على صانعها وما هو عليه من علم وحكمة .

ولا شك أن كل ما فى الوجود أثر من آثاره ، وفائض من أشعة أنواره ، فالوجود كله مرآة يتجلى فيها جمال مبدعه الذى يبهر العقول ويملأ النفوس .

فإن شئت فاقرأ فى كتاب الكائنات التى خلقها الله بديع صفاته وعظيم آياته فليست تخلو صحيفة من صحائفه ولا درة من ذراته إلا وفيها آية من آياته ، ودليل ساطع على وحدانية ذاته .

ورق الغصون لدى الرياض صحائف　　مشحونة بأدلة التوحيد

بل كل شىء فى الوجود فيه تلك الأدلة على مبدعه الحكيم وصانعه القدير .

ومن عجيب أمر القرآن فوق ذلك ، أنه كثيراً ما ينبه على أمور مستقبلة تحقق وقوعها بعد ، مثل قوله تعالى : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)(١) وقد خلق ما نشاهده من المخترعات التى هى آيات بينات على ما أودعه رب الأرض والسموات من الأسرار فى جميع الكائنات .

ولنذكر لك بعض تلك الإشارات التى بينتها العلوم الحديثة والاكتشافات الجديدة فكانت آية من آيات القرآن ، ومعجزة لسيد ولد عدنان ، فمنها ما اكتشفوه من أن فى كل نبات ذكرا وأنثى ، فلنحمل عليه قوله تعالى : (وَمِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)(٢) ولنجعله فى تفسيره ، ومن ذلك ما اكتشفوه من أن الرياح تلقح الأشجار ، فلنجعله فى تفسير قوله تعالى : (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ)(٣) .

(١) سورة النحل ، الآية ٨　　(٢) سورة الذاريات ، الآية ٤٩
(٣) سورة الحجر ، الآية ٢٢

ومن ذلك ما ذكرناه فى كتابنا « رسائل السلام » من أن المفسرين ذكروا فى قوله : (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)(١) ما ينبو عنه الذوق السليم والفهم المستقيم من أن المراد بالفلك المشحون هو سفينة نوح عليه السلام ، وأن المراد بذريتهم آباؤهم الذين كانوا فى السفينة ، وأن المراد بمثله فى قوله (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) هو الإبل ، وقلنا : أنه سبحانه وتعالى أشار بتلك الآيات وما يماثلها إلى ما سيوجد من تلك المحدثات والمخترعات ، فنبه سبحانه وتعالى إلى أنه سيخلق فى المستقبل ما لم يخطر لنا على بال ، علما منه تعالى بما سيوجد من بواخر تمخر عباب الماء ، ومناطيد تخترق الهواء وتذهب سابحة فى جو السماء ، وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى تلك البواخر بأشكالها الأنيقة كما فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى حين قام يضحك من النوم فقيل له : ما يضحكك يا رسول الله ؟

فقال ما معناه : (عرضت على طائفة من أمتى يركبون ثبج البحر على الأسرة كأنهم ملوك) .

ولماذا لا نفهم من قوله : (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) أن ذلك المثل إنما هو تلك المناطيد التى تسبح فى الهواء كما يسبح الفلك المشحون فى الماء ويكون الضمير فى قوله (لَهُمْ) عائداً على الذرية باقية على معناها الظاهر

(١) سورة يس الآية ٤١

منها ، غير معدول بها إلى ما يذكره المفسرون من تلك التأويلات البعيدة .

أو ليس هذا أولى من جعل مثل الفلك المشحون هو تلك الإبل التى من عادة القرآن أن يعبر عنها بلفظها ؟ وسيأتى التنبيه عليها فى السورة نفسها فى قوله : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)(١) .

أليس شبه مراكب الهواء بمراكب الماء طيرانًا فى ذلك الغاز السهل ، وجولاناً فى ذلك السيال النهل أتم من شبه الإبل بالسفن ، مع أنه لا داعى إلى العدول عن ذكرها بأسمائها ، ولا لصرف الذرية عن معناها الظاهر منها ، ويكون ذلك آية من آيات القرآن المستقبلة ؟ اللهم أن ذلك سديد وليس ببعيد .

وعندى أن العقل يوجب أن يكون فى القرآن متشابهات تحت طى أستارها رموز وكنوز ، ولا تزال يتجلى منها الشئ بعد الشئ على ممر الأعصار وكر الليل والنهار ، ولا يتم اتضاحها إلا بالدخول فى عالم الآخرة ومشاهدة ما سيكون فيه .

ولا يسهل علينا أن نلقى القلم قبل أن نلفت نظر القارئ إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم أشار إلى كثير مما سيحدث بعده ، وهى من معجزاته الباقية التى تتجدد شيئاً فشيئاً إلى يوم القيامة .

(١) سورة يس ، الآية ٧٢

وقد جاء عنه فى هذا الباب شئ كثير أفرده العلماء بالتأليف ، ومن ذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من أن الساعة لا تقوم حتى يكلم الرجل سوطه . ولماذا لا نطبق هذا على المذياع (الراديو) الذى أصبح يكلم الناس فى كل مكان حتى فى السيارات والطرق ؟

ولنقف هنا اليوم منتظرين الفرص التى تمكننا من اقتحام تلك الموضوعات التى تبين عظمة القرآن وفضل سيد الأكوان ، صلى الله عليه وسلم .

* * *

رأينا بعد تفسير هذه السورة الشريفة بما يسره الله تعالى أن نجيب داعى المقام وننتهز هذه الفرصة فنذكر للقارئ الكريم بعض ماجاء عن فلاسفة أوربا مما يناسب ما نحن فيه علما بأن كثيراً من أبناء هذا العصر يتأثرون بذلك فضل تأثر . وعلى كل حال فقد قالوا قديما :

« والفضل ما شهدت به الأعداء » .

ذكرنا لك فى بعض ما كتبناه أن العقيدة بالله فطرية ضرورية لا يلهيك عنها إلا الغفلات المتراكمة ، أو الجهل الذى يفوق جهل الحيوان ، فإن الحمار مثلا إذا ضرب التفت ليعرف الضارب ، لأنه لا يتصور أن هناك ضرباً بلا ضارب أو أثراً بلا مؤثر . فمن رأى هذا الوجود وما اشتمل عليه من حكم وأسرار وآيات تدهش الأنظار

(١) مجلة الأزهر — الجزء الرابع — المجلد العاشر — ربيع الآخر سنة ١٣٥٨

وتحير الأفكار ، ثم لم ينتقل منها إلى الإحساس بعظمة الواحد القهار المتكبر الجبار ،فهو أجهل من ذلك الحمار ،بل أحط رتبة من الأحجار التى تسبح خالق الليل والنهار : (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)[١] فسبحانه من إله عظيم ، ورب حكيم .

وبالجملة فمن يتأمل فى هذا العالم وما هو عليه من الوضع المنظم والترتيب المحكم الذى وضعه البارئ الحكيم لكيفية التوالد وتكاثر الأجناس مع تباينها ، وتشابه أفراد الأنواع مع مزيد كثرتها وتضامن جميع المخلوقات علويها وسفليها وصغيرها وكبيرها مع ما فيها من الحكم المدهشات ، وترتيب أنواع الكائنات ، وارتباط العلل بالمعلولات ، وضرورة خدمة بعضها لبعض وما أودع فيها من القوى المختلفة والأسباب المتباينة ، وما تشاهده كل وقت من إخراج الحى من الميت والميت من الحى .

من نظر فى ذلك كله علم أن جميع الكائنات معجزات إلهية تفوق المدارك البشرية ، وتنطق بعظمة الله الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٢] (أفلا يَنظرُونَ إلى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤

كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)[١] . (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالترائِبِ)[٢] (وفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[٣] وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)[٤] .

إلى آخر ما جاء فى القرآن وقام عليه البرهان . ولندع ذلك فهو معلوم للقارئين أو لجميع المؤمنين .

ولنتل عليك من كلام الفلاسفة الأوربيين فى تعظيم الله وبيان كبريائه فنقول :

قال الفيلسوف باسكال : « إذا أردنا أن نقرب لك أمر الخالق عز وجل فتصور كرة لا نهاية لها مركزها فى كل مكان ومحيطها ليس له مكان » . وهنا يحسن أن نقرأ قوله تعالى : (وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وفِى الْأَرْضِ)[٥] . (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)[٦] . (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ)[٧] (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا)[٨] .

(١) سورة الغاشية ، الآيات من ١٧ – ٢٠

(٢) سورة الطارق ، الآيات من ٥ – ٧

(٣) سورة الذاريات ، الآيتان ٢٠، ٢١

(٤) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

(٥) سورة الأنعام ، الآية ٣

(٦) سورة البقرة ، الآية ١١٥

(٧) سورة الحديد ، الآية ٤

(٨) سورة المجادلة ، الآية ٧

وقال الفيلسوف اليونانى ابيكتيت : (العقيدة بالله باستحضار عظمته يجب أن تكون مستمرة كاستمرار التنفس) .

وقال شوتانريان : « لم يتجرأ على نكران الله غير الإنسان » .
وقال ش . جوتييه : « الله هو الكائن الذى لا يدرك ولا يوصف ومع هذا فهو ضرورى » . ويقول : « إن ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكتشفه لنا عقولنا » .

وقال لامارتين : « أن ضميرا خاليا من الله كالمحكمة الخالية من القاضى » .

أقول وأثر المحاكم الآن خالية من ذلك القاضى . وقد أذكرنى هذا قول القائل :

عندى ضمير لست أرضى بيعه   بجميع ما فى الأرض من أموال
وهنا ضمائر لو أردت شراءها   لأخذت أغلاها بربع ريال

وقال بيلوتان : « الله هو الحياة العامة فهى الأصل والمرجع لكل حياة »

وبعد : فيحسن أن نورد براهين أشهر الفلاسفة من القدماء والمحدثين على وجود الخالق عز وجل فنقول :

قال المسيو بوستيت فى كتابه المسمى « التذكرة » فى تاريخ البرهان على وجود الخالق «اعتقاد الأفراد والنوع الانسانى بأسره فى الخالق اعتقاد اضطرارى قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ومهما صعد الإنسان بذاكرته فى تاريخ طفولته فلا يستطيع أن

يجد الساعة التى حدثت فيها عقيدته بالخالق تلك العقيدة التى نشأت صامتة وصار لها أكبر الآثار فى حياته فقد حدثت هذه العقيدة فى أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا ، ففى الحالة الأولى يرينا التاريخ الناس حاملين عقيدة فطرية على وجود قدرة خالقة وحافظة للعالم وحاكمة بين الناس بالعدل تكافئ على الحسنة والسيئة سواء فى هذه الدنيا أو فى الحياة المستقبلة » . وقد قرأنا بحثا كتبه الفيلسوف الكبير «مومنيه» يثبت به وجود الخالق قال : إن افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أن الكون خلق بلا فاعل مريد مختار ، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل ، فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكوّن كائنا آخر مماثلا له تماما فى الشكل الظاهرى ومباينا له فى التركيب الداخلى وهو المرأة ، لأجل عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيهما» ثم قال : « أليس يدل على هذا وحدة على أن فى الوجود خالقا مريدا مختارا أبدع الكائنات ونوع بينها وغرز فى كل نوع غرائز ومتعه بمواهب يقوم بها أمره ويرتقى عليها نوعه » ؟

أقول : أشار القرآن إلى ذلك بما يعلو تلك البراهين المنطقية والأساليب الجدلية ، فذكر ذلك البرهان فى قالب يستهوى المدارك والأرواح معا ، فهو أملك للوجـــدان من كل برهان ، وبين أنها آية تسترعى الأنظار وتستهوى العقول والأفكار ، فقال : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(١) . ولاتنس أن للقرآن فى الاستدلال على وجود الله تعالى مايفوق كل دليل ، وله فى

(١) سورة الروم ، الآية ٢١

ذلك سبيل هو أوضح من كل سبيل ، مثل قوله تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)[١] وكقوله : (أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)[٢] إلى غير ذلك مما لا يخفى عليك .

وقد قلنا : إن القرآن ينطوى على شيء كثير مما يعمل فى النفوس أكثر مما تعمل البراهين المنطقية والمحاولات الجدلية .

ويحسن بنا وقد تصدينا للنقل عن الفلاسفة أن نذكر لك هنا المحادثة التى حادث بها سقراط أرستوديم بخصوص الألوهية ، وذلك أنه علم أن ارستوديم هذا ينكر الألوهية إنكارا باتا وقد غلا فى ذلك ، فقال له :

قال لى ياأرستوديم : «أيوجد رجال تعجب بهم لمهارتهم وجمال صنائعهم » ؟

أرستوديم : نعم

سقراط : أخبرنى عن أسمائهم

أرستوديم : أعجب فى الشعر الروائى «بهومير » وفى صناعة التماثيل ببوليكتيت ، وفى التصوير بزوكسيس .

سقراط : أى الصناع فى نظرك أولى بالإعجاب : الذى يصور صوراً بلا عقل ولا حراك أم الذى يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٢) سورة ابراهيم ، الآية ١٠

أرستوديم : وحق «جوبيتير » يريد الزهرة — أن أولاهما بالإعجاب هو الذى يبدع الكائنات المتمتعة بعقل وحياة إذا لم تكن هذه الكائنات من نتائج الاتفاق .

سقراط : ولكن أى الكائنات أولى أن تعتبرها من نتائج الاتفاق أو من نتائج الإدراك التى غايتها ظاهرة ، أم التى منافعها مشكوك فيها ؟

أرستوديم : من العدل أن أقول : إن الكائنات ذات النفع هى أولى بأن تنسب إلى عمل الإدراك .

سقراط : ألا ترى أن الذى فطر الناس قد أعطاهم مالديهم من الأعضاء لغايات ومقاصد خاصة ، فأعطاهم الأعين للنظر والآذان للسمع ؟ وماذا كانت تجدينا الروائح إن لم تكن لنا أنوف ، وهل كنا نشعر بمرارة المر ، وحلاوة الحلو إن لم تكن لنا ألسنة تميز بين هذه الطعوم ؟ ثم ألا ترى من دلائل التبصر والحيطة أن تكون الأعين لرقتها وسهولة تأثيرها قد متعت بالأجفان التى تقفل وتفتح بالإرادة وتنسدل على العينين وقت النعاس وقد حليت أطرافها بأشبه شيء بالغربال من الرمش ليحميها شر الرياح ، وأن الحواجب قد وضعت لتمنع تساقط العرق إليها ، وأن الآذان خلقت قابلة لتمييز جميع الأصوات بدون أن تمتلىء قط — إلى أن قال : كل هذه

الأعمال تدل على تبصر واحتياط إلى أى شىء تعزوها : للاتفاق أم للإدراك ؟

أرستوديم : لا وحق «جوبتير» يريد الزهرة — هذه الأعمال إذا نظر إليها الإنسان تدل على أن قد صنعها صانع يحب الكائنات الحية .

سقراط : وماذا تقول فى الميل المودع فى النفوس للتناسل ، وفى الحنان المخلوق فى قلوب الأمهات للهيمنة على فلذات أكبادهن ، وفى الخوف الموجود فى تلك الكائنات من العطب ؟

أرستوديم : لاشك أن كل هذا يدل على أنه اختراع كائن قرر خلق الحيوان على ماتقتضيه الحكمة .

سقراط : أتعقل أنك قد تحليت بعقل وإدراك وأنت كما تعلم لاتقارن بشىء من الوجود وأن هذه المخلوقات كلها المتمتعة بإدراك مثلك لاتحتاج لعقل يرتب علاقاتها ويقيم أمرها على قاعدة النظام ؟

أرستوديم : أنا أنكر ذلك وحق «جوبتير» فإنى لا أرى ذلك الصانع كما أرى الصانع من الناس .

سقراط : إنك لاترى كذلك روحك التى تتسلط على أعضائك ، فهل تستطيع أن تقول إن جميع أفعالك صادرة بلا عقل ولا إدراك ولكن بالاتفاق ؟ .

كانت نتيجة هذه المجادلة اعتراف أرستوديم بوجود الصانع .

ذكرنا لك كلام سقراط مع ارستوديم فى البرهنة على وجوده تعالى ، واليوم نذكر لك شيئاً من براهين غيره من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين لما فى ذلك من الفوائد لأولئك الذين قلدوا سفهاء أوربا بلا عقل ولا روّية ، فنقول :

قال أفلاطون : «من البدهى أن كل حادث له سبب أحدثه لولاه لبقى فى العدم ولم يخرج إلى الوجود ، ولايعقل حدوث شىء بلا سبب (لأنه لايعقل إيجاده نفسه) .

ومن المعلوم بالضرورة أن العالم حادث ، لأنك تشاهد وجود الأشياء بعد عدمها ، ولأنك تعلم أن هذا العالم ممكن وكل ممكن يجوز عليه الوجود والعدم ، فلا يتأتى إلا بمرجح يرجح وجوده على عدمه ، وهذا بدهى فى الممكن ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان واجبا والواجب لايسبقه عدم ، ولايجوز أن يطرأ عليه عدم ، فإذاً يجب أن تكون هذه الموجودات البديعة لها سبب هو أكمل الأسباب كلها» .

براهين ارسطو : واضع المنطق ويلقب بالمعلم الأول :

قال : «إنا وجدنا المتحركات تتحرك، ولا بد لكل متحرك من محرك ، ولا يجوز أن يذهب إلى غير النهاية لامتناع التسلسل ، فلا بد أن يستند إلى محرك غير متحرك ، ولا يجوز أن يكون فيه معنى ما بالقوة ، فإنه لو كان كذلك لاحتاج إلى شىء يخرجه من القوة إلى الفعل ، فالفعل إذا سابق على ما بالقوة وكل جائز وجوده فى طبيعته معنى ما بالقوة وهو الإمكان والجواز فيحتاج إلى واجب به يجب حتى يظهر إلى الوجود ، فكل متحرك

يحتاج إلى محرك لا محالة : لأن جائز الوجود ليس له فى نفسه إلا الإمكان والقابلية » .

وقال فى إثبات الوحدانية : « محرك العالم واحد لأن العالم واحد ولو كان كثيرا لحمل على واجب الوجود ما حمل على غيره بالتواطؤ فيشملها جنسا وينفصل أحدهما عن الآخر نوعا فتتركب ذاته من جنس وفصل ، فتسبق أجزاء المركب على المركب سبقا بالذات ، فلا يكون واجباً بذاته » .

ثم قال : « إن واجب الوجود لا يتغير ، لأن انتقاله عن حالته يكون إلى الشر لا إلى الخير ، لأن كل رتبة هى دون رتبته وكل شىء يناله هو دون نفسه الكاملة » .

ولنقتصر من براهين الفلاسفة الأقدمين على هذا .

ولنذكر لك من براهين فلاسفة أوربا المحدثين ما تيسر ، لما فى ذلك من الفائدة التى تعود على كثير من القراء إن شاء الله ، فنقول :

قال الفيلسوف الشهير الصيت «ديكارت» الفرنسى :

«إنى مع شعورى بنقص ذاتى أحس فى الوقت ذاته بوجوب وجود ذات كاملة ، وأرانى مضطراً للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهى «الله» » .

ثم قال (وهو وجه آخر من وجوه الاستدلال) : «إنى لم أخلق ذاتى بنفسى ، وإلا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التى أدركها إذًا أنا مخلوق بذات أخرى ، وتلك الذات يجب أن تكون حائز

جميع صفات الكمال ، وإلا اضطررت أن أطبق عليها التعليل الذى الذى طبقته على نفسى » .

ثم قال : « إن عندى شعورا بوجود ذات كاملة لا يفترق فى الوضوح عن شعورى بأن مجموع زوايا المثلث تساوى زاويتين قائمتين . إذًا فالله موجود » .

ولا بأس أن نقول لك : إن ديكارت كان ممعنًا فى الشك فى كل شىء ، وما كان يريد بذلك الشك إلا التوصل للحقيقة ناصعة خالصة من كل تقليد ، فهو أشبه شىء بالرأى الذى يذكر عندنا فى كتب الكلام من أن أول واجب هو الشك . فاعرف ذلك ، وإياك وتقليد بعض الجاهلين الملحدين .

ومما يناسب موضوعنا الذى نحن فيه قوله : « إن فى هذه الشكوك كلها شيئًا لا يتناوله الشك أبدا وهو « أنا » ، وقد كنت مقتنعا بأنى لست بموجود ، ولكنى فى الواقع كنت موجودا ، إذًا استطعت أن أعتقد أو على الأقل أن أتفكر فى شىء ، فإذًا أنا موجود ، ولا يوجد شىء يمكنه أن يقنعنى بأنى لست بموجود مادمت أتفكر ، فقولى : «أنا موجود إذًا» ، هو حقيقة ثابتة لا شك فيها ، كلما قلتها أو تصورتها فى ذهنى .

هنا تمكن «ديكارت» أن يحل نفسه من قيود الشك ، فخرج بعقيدة صريحة واضحة لا تقبل الجدال ، وهى أنه موجود ، ومنها تمكن من اكتشاف حقيقة أخرى جليلة القدر وهى أنه يوجد ذات متصفة بجميع صفات الكمال .

قال : « إن هذه الحقيقة لازم من لوازم فطرتى ، وقد ولدت حاملا أمانتها فى ثنايا ضميرى لأنه كيف يعقل أن أدرك أنى شاك وأنى راغب ؟ أى أنه ينقصنى شىء ، ولم أكن بالغًا نهاية الكمال إذا لم يكن مغروزا فى طبيعتى إدراك وجود ذات أكمل من ذاتى » .

ثم قال : « إن لفظة (الله) إن لفظت بها فإنما أعنى بها هيولى لا نهاية لها ، أزلية دائمة مستقلة عالمة بكل شىء وقادرة على كل شىء ، وإنى أنا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة ما ، وهذه معارف جمة كلما تأملت فيها بدقة ازددت اعتقادا بأنى لم أستنبط الشعور بوجود الله من ذاتى وحدها ، وعليه فيجب أن أستنتج من ذلك أن لله وجودًا مستقلا ، وأن شعورى بوجود هيولى غير متناهية لا يمكن أن يكون أصله من ذاتى أنا ذلك الكائن المتناهى بل غرست فى ذاتى تلك العقيدة من قبل هيولى غير متناهية فى الحقيقة » .

براهين فنيلون :

وهو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال : « لست موجودا من ذاتى ، وكل شىء من هذه العوالم كذلك ، لأنه يجب للموجود من ذاته أن يكون أزليًا ثابتًا فإنه يكون حاصلا من ذاته على علة وجوده ، ولا يكون محتاجا لشىء من الخارج عنه ، فكل ما يمكن أن يأتيه من الخارج لا يعقل أن يتحد به ولا أن يكمله . لأن الحادث المتغير لا يمكن أن يتحد مع الموجود بذاته الذى لا يقبل التغير ، فإن الفرق بين هاتين الطبيعتين يجب أن يكون لانهاية له ، إذا فلا يمكنهما أن يؤلفا مجموعا حقيقيا ، إذًا فالموجود بذاته

لا يمكن أن يزاد شىء على حقيقته ، ولا على رحمته ، ولا على كماله فهو فى ذاته كل ما يمكن أن يكون ، ولا يجوز عليه أن يكون أقل مما هو عليه فالموجود على هذه الصفة هو أرقى درجات الوجود » .

برهان بوسويت :

هو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال : « ليس علينا إلا أن ننظر إلى أنفسنا لنتحقق أننا صادرون من أصل رفيع ، نرى أنفسنا أهلا لأن نفهم الأشياء وندرك الموجودات ؛ وأننا قد نجهل بعضها فنشك فيها ، أو نرى الأحوط ألا نحكم عليها بحكم حتى نصل منها إلى حقيقة ما ، وما ذلك إلا لأننا نعتقد أن بنفوسنا نقصًا يمنعها الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، وإذا كان فى الوجود عقل ناقص يشك ويتردد ويجهل وهو مع ذلك موجود ، فمن باب أولى يكون موجودا فيه عقل كامل ليس عقلنا منه إلا قطرة من بحر أو شعاعا من شمس ، لأنه مما لا يعقل أن نكون نحن وحدنا المتمتعين بعقل وإدراك ، ويكون الوجود العظيم كله خاليا منهما ؛ إذ يقال أنه إذا كان الوجود كله مكونا من مواد صماء عمياء لا عقل لها ولا إدراك فمن أين نشأ للإنسان هـذا العقل والإدراك ؟ (وفاقد الشىء لا يعطيه كما هو معلوم) إذًا فلا بد أن يكون فى الوجود عقل مطلق وإدراك لا حد له » .

برهان ليبنتز :

وهو من أشهر فلاسفة الألمان :

قال فى بعض كتبه : « الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء ، لأن كل ما هو محدود ومتناه ككل شىء تقع عليه أنظارنا وتتأثر له

مشاعرنا ، هو من الممكنات ، أى ليس بضرورى الوجود ، فقد يوجد ، وقد لا يوجد ، وليس فى أحدها شئ يوجب له الوجود بذاته والزمان والمكان والمادة المتحدة فيما بينها أن تستطيع أن تقبل حركات وصورا من نوع آخر غير النوع الحالى ، إذا يجب البحث عن الأولية لوجود العالم الذى هو مجموع هذه الكائنات الممكنة . يجب البحث عنها فى الهيولى التى تحمل معها علة وجودها ، فهى الواجبة الوجود والأزلية .

يجب أن تكون هذه العلة عاقلة لأن الكون الموجود لما كان ممكنا أى قد يكون ولايكون ، ومن الإمكان حدوث ديناوات أخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود ومحيطة بعلاقات أجزائه قبل أن تتمكن من إحداث دنيا جديدة ، ويكون تحديد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعل إرادة واختيار ، ولاشىء يجعل تلك الإرادة فعالة إلا القدرة التى لهذه العلة الحكيمة ، يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه ، وكاملة كمالا مطلقا من حيث القدرة والحكمة . ولما كان الوجود كله مرتبطا بعضه ببعض ومفرغا فى قالب واحد ، فلا سبيل لفرض وجود علة ثانية معها » .

هذا بعض ما قاله أولئك الفلاسفة . وما أجدرنا فى هذا المقام أن نقول :

جلالك ياقدوس ليس له حد ... كذلك صفات القدس ليس لها عد
تعاليت عن وصف الخليقة كلها ... ومن وصف علياك الطهارة والمجد

قضاؤك محتوم وأمرك نافذ ... وماشئت من شئ فليس له رد
لك المثل الأعلى وكل معبد ... كفاه اعتزازا أن يقال هو العبد

ولنكتف اليوم بهذا المقدار مخافة السآمة . وقد نقلنا من تلك الشهادات للدين الإسلامى شيئا كثيرا فى كتابنا (الجواب المنيف) علما بأن الإلحاد قد طم سيله ، وعم ويله ، وظن أربابه أنهم وصلوا من العلم إلى ما لم يصل الأولون (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)[١] وقد بين الله حقيقتهم ومبلغهم من الإنسانية فقال وهو أصدق القائلين : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[٢] (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)[٣] .

غير أن هنا كلاما مهما لكاتبة أمريكية عن الإسلام يحسن أن نذكره لحضرات القراء فى هذه الفرصة : نشرت مجلة بوستن التى تصدر بأمريكا مقالا طويلا لكاتبة أمريكية بعنوان (لا دين أعلى من الحق) استهلته بوصف جامع وثناء عاطر على النبى صلى الله عليه وسلم ، وما أحدثته رسالته فى العالم ، وما كان لبعثته من أثر فى أخلاق الأمم وتطور العقائد من الحضيض إلى الأوج ، إلى غير ذلك من الإصلاح

(١) سورة المجادلة : الآية ١٨
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٩
(٣) سورة الأعراف : ١٩٨

الاجتماعى الذى لاحد له ، ثم أهابت بالناس جميعا ألا يغفلوا عن تعاليمه ، وأن يوجهوا كل همتهم إليها ، ففيها الخير العميم ، وفيها المنافع الكثيرة . فمن قولها فى هذا المقال : « إن مقاييس الإصلاحات الإنسانية هو الخير الذى يمكن أن يصل إلى نوع الإنسان عن طريق ذلك الاصلاح ؛ وتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم قاموس محيط لأرقى مزايا الإصلاحات وأعمها نفعا للبشرية .

فمن تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم : أن كل عمل طيب صدقة وابتسامتك فى وجه أخيك صدقة ، وتوجيه النصيحة إليه بمثابة هدية غالية ، وهداية الحائر إلى الطريق يعد إحسانا ، ورفع الحجر والشوك ونحوهما من الطريق كى لا يتعثر فيهما السارى فى الظلام صدقة وبر عظيم . « أطعموا الجائعين ، واسقوا العطاش ، وعودوا المرضى ، وحرروا الأسارى ، وأعتقوا العبيد وساعدوا كل إنسان » .

هذه من أقوال محمد ونصيحته . وكذلك قوله : أسعدوا القلب الحزين ، وأنقذوا المكروبين وخلصوا الغريم من عبء الدين الثقيل لأن من أخرج المكروب من ضيقه يفرج الله عنه فى يوم القيامة الذى يحقق الله فيه العدل ، وينجز وعده بالجزاء .

وفى ذلك اليوم تمر على الإنسان ذكريات دنياه ليقدم عنها الحساب فبشرى للذين يعاونون إخوانهم فى أوقات ضيقهم ، ويرفعونهم من كبواتهم ، أولئك يساعدهم الله يوم الفزع الأكبر .

تلك وصايا محمد وعظاته البالغة التى تدفعنا لنحمل نور الفرح إلى القلوب التى تراكمت عليها ظلمات الهموم ونور الهداية إلى النفوس التى أغرقتها ظلمات المعاصى .

إن محمداً يبين لنا أن أحب مخلوق إلى الله هو الذى يصدر منه الخير لمخلوقاته ، لأن جميع الناس سواء عند الله ، أفضلهم من سما بالفضل فيهم ، وتعاليم محمد لا تعتبر الإنسان كاملا عند الله بمحض ألفاظه وكلماته ، فالكمال فى الإسلام قائم على الصدق الذى يبدو فى ثلاثة مظاهر من الحياة الإنسانية : الصدق فى القول ، والطهارة فى النية ، وظهور الإيمان فى الحياة العملية .

« قل الصدق إذا نطقت ، أدِّ الشهادة على وجهها ولو على نفسك ، أنجز إذا وعدت » .

أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك . خالف نفسك فى هواها إذا مالت إلى شىء يغضب الله ؛ لا تحمل فى قلبك غلاً ولا حقدًا لأحد ، واغسل يديك من أدران الأذى والاعتداء .

وهذا الدين يحرم على أهله أن يفشى المسلم عيوب غيره ، أو ينقل بين الأصدقاء حديثا يفرق بينهم ، أو أن يتتبع المرء عورات أخيه ويخفى محاسنه ومزاياه .

وهنالك حقيقة عظمى يكاد الإسلام يمتاز بها : وهى أن الإنسان ينبغى أن يعيش من كسب يده : من التجارة ، أو من الصناعة وغيرهما ، وأن الله جلت قدرته يبارك للمجتهدين فى أرزاقهم ، ويعطيهم ثواب العُبَّاد ، ويمنحهم أجر الذين جاهدوا فى نصرة الدين .

نصح محمد لرجل سائل أن يجمع الحطب من الجبال والغابات ويبيعها لكى لا يقع تحت ذل المنة عليه من الناس .

وينصح محمد بأسمى فضائل الأخلاق ، ويدعو إلى أن تصل من قطعك ، وتحسن إلى من أساء إليك ، وأن لا تتكلم إلا بخير ، واذا سكت فليكن صمتك تفكيرا فى الله ومصنوعاته .

أما تعليم العلم وتعلمه : فإن العلم مدين كثيراً لمحمد الذى يعلم أتباعه أن ساعة من الليل فى مذاكرة العلوم أفضل من قضاء الليل كله فى العبادة ، ويعتبر الإسلام أن من اجتهد فى العلم وأصاب الصواب كان له أجران عند الله : أجر نجاحه ، وأجر اجتهاده ، وأن من أخطأ فله أجر اجتهاده . فأى تشجيع على التعليم أسمى من هذا ؟

إن محمدا يعتبر اقتناء العلوم جهادا ، والتكلم بها ذكرا ، والبحث عنها قنوتا ، وتعليمها تصدقاً وإحسانا ، لأن العلم هو المنقذ من الحيرة ، والنور الكاشف للظلمة ، وهو صلة الأرض بالسماء ، وطريق الإنسان إلى الله . العلم هو صديقنا فى صحراء الحياة المجدبة وأنيسنا فى وحشتها ، ومساعدنا عند فقد الأصدقاء ، ومرشدنا إلى السعادة ، وهو الذى ينقذنا من البؤس ويكسبنا زينة مع الفقر ، سلاحنا ضد أعدائنا . ولطالما رفع العلم الخاملين وسما بهم إلى معاشرة الملوك .

تلك هى أقوال الإسلام وتعاليم محمد نقلنا خلاصة منها فى هذه الأقوال الموجزة المجملة غاية الإجمال .

ولقد نشر أصحاب محمد لواء العلم فى كل مكان ، ويظن بعض من يجهل الحق أو يتجاهله أن الإسلام كان دين غزو وفتح . هو قول بلغ أقصى غايات البعد عن الحق المبين .

«حقا إن المسلمين فتحوا ممالك وشادوا امبراطوريات ولكنهم لم يحملوا سيوفا فقط ، بل حملوا عدلا ، ونشروا علما وفناً تجلى فى عبقرية المجتهدين الذين نشطوا بين القرن الثامن والرابع عشر نشاطًا لم يعرف التاريخ مثله شيدوا مدارس وجامعات فى مصر وبغداد وقرطبة فى غرب أسبانيا وما ازدهرت الحضارة فى الدنيا كما ازدهرت فى ظل أتباع محمد» .

« إن المسيحيين فى أوربا لا ينكرون ما اقتبسوه من الأندلس من العلوم والفنون التى كانت حياتهم بعيدة كل البعد عنها فتعلموا الفلك والرياضيات من المسلمين الذين كانوا يترجمون ثم يحققون فتبدو شخصيتهم العلمية والفنية وعليها من الإسلام طابع واضح يشهد بالفضل لتربية محمد صلى الله عليه وسلم التى أثرت فى الدنيا كلها » .

هذه أقوال سيدة منصفة تحب الحق وتجهر به ؛ وإنا نتمنى أن يرشد الله أبناءنا المتعلمين أن يبحثوا عن الحقيقة التى جهلوها حتى يعرفوا أسرار دينهم التى غفلوا عنها ، حتى يعود إليهم مجدهم الذى كانوا فيه عندما كانوا مسلمين حقًا .

أسأل الله أن يعرفنا مزايا الإسلام وعظمة نبى الإسلام بمنه وكرمه .

(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) :

رأينا أن نوفى هذه الفرصة الثمينة حقها، فنكثر من البراهين الدالة عليه تعالى بقدر ما نستطيع، علمًا بأن العقائد قد اعتورتها الشكوك، والنفوس قد لعبت بها الأوهام.

وقد أكثرنا بنوع خاص من أقوال فلاسفة أوربا، لما فى ذلك من التأثير البالغ فى نفوس شبابنا الذين أصبحوا يتهمون أئمة المسلمين ويقدسون أساتذة الأوربيين، ولله فى خلقه شئون.

ومما نقصده أيضا من نقل تلك الآراء والأفكار أن نعرف القارىء أن الطرق الموصلة إلى الله تعالى لا تنحصر. وقد قالوا قديما : إن لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق. وقد وصل الأمر من الوضوح عند بعض أرباب الوجدان من المسلمين أن سمع قائلا يقول : إن الفخر الرازى أقام على وجود الله ألف دليل، فقال « ومتى غاب حتى يستدل عليه » ؟

ولنسق لك بعض تلك البراهين، ولعلها أليق ببعض الاستعدادات فنقول :

قال « نيوتن الإنجليزى » وهو أكبر علماء الفلك فى عصره ومكتشف قانون الجاذبية العامة وقد سأله الناس من كل مكان أن يأتيهم بدليل على وجود الخالق يكون فى درجة المحسوسات، فأجابهم قائلا : « لا تشكوا فى الخالق، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى القائدة للوجود والمنظمة له، لأن ضرورة عمياء متجانسة

فى كل مكان وفى كل زمان لايتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أولى له حكمة تامة وإرادة نافذة.

أقول : أكثر « نيوتن » من كلمة الضرورة، لأن الملحدين يذكرونها كثيرا كلما أحرجوا. وإنى ولا أخفى عليك وقد حاولت كثيرا أن أفهم ذلك فلم أستطع. وليت شعرى ما هى الضرورة التى توجد وتخلق، وترتب وتضع الأشياء فى مواضعها ؟ وما حقيقتها وما صفاتها التى أتت بهذا الإبداع المدهش ؟ وإذا كانت الضروة تفعل ذلك كله، فما بالنا فى هذا الضيق وهذه المصائب فهل اعتراها الوهن أم أدركتها ؟ ثم تبين لى أن للأوهام والخيالات مدركات لايتأتى للعقول أن تدركها لأنها لاتدرك إلا بواسطة وهم فاسد أو خيال كاسد، ولذلك يقول (أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)(١). والأنعام لها قوة الوهم لا قوة التفكير.

ولنرجع إلى كلام نيوتن. قال بعد ما سبق : « من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها ».

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٧٩).

ثم قال : « ومن الجلي الواضح أنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة على مستوى واحد بدون حدوث أى تغير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافاتها المختلفة بالنسبة للشمس ، ولمراكز الحركة ، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها ، فلأجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد . وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجرام السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وتوابعها ، وبين جوبتير « المشترى » . والأرض ، وقرر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها . إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه . كل هذا يشهد بوجوب وجود « سبب » لا أعمى ولا حادث بالاتفاق « كما يزعم الملحدون الجاهلون » على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة .

ثم قال : « ليس هذا كل ما فى المسألة ، فإن الله ضرورى لإدارة هذه الأجرام بعضها على بعض ، وهو الأمر الذى لا يمكن أن يكون من مجرد قوة الجاذبة أو لتحديد وجهة هذه الدورات كما يرى ذلك فى الشمس وتوابعها ، بينما ذوات الأذناب تدور فى كل وجهة على السواء .

ثم قال : « وغير هذا انظر تكون الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين : القسم المضىء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم ، والقسم المعتم يجتمع فى جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها . كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له » .

أليس هذا موافقاً لما نقوله من أن معلومات الله لا تتناهى وكمالاته لا تتناهى .

ثم قال : « انظر كيف كونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ، ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه والأذن بدون إلمام بقانون الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطرى فى نفوس الحيوانات » .

إلى أن قال : « وهذه الكائنات كلها فى قيامها على إبداع الأشكال وأكملها ، ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حى حكيم ، يرى حقيقة كل شىء ويدركه أكمل إدراك ؟ » .

قد أطلنا فى هذا البرهان ، ولعل فى ذلك التطويل فائدة لكثير من القراء .

وقد كان عمدة « نيوتن » فى استدلاله بيان الأشياء التى لا يمكن تعليلها بغير فعل القادر الحكيم .

وأقول : إن نظر علمائنا فى هذا الموضوع أبعد غورًا من غيرهم ، فإنهم إذا ظفروا بعلل الأشياء وأسبابها جعلوا ذلك من براهين حكمة الحكيم ودلائل وجوده ، فإن هذه العلل ليس لها وجود من نفسها ، لأن دلائل الإمكان فيها واضحة ، وكل ما ليس بواجب الوجود فلا بد له من واجب الوجود .

ثم نقول : ما الذى متعها بتلك الخصائص التى جعلتها عللًا وأسبابًا ؟ فقد كان يجوز أن تكون بصفات أخرى وقوى أخرى ، فإنها قابلة لذلك كله بمقتضى إمكانها وتغيرها الذى نشاهده ، فكان وجودها بعد عدم وتمتيعها بتلك القوى المخصوصة من أكبر الأدلة وأعظم البراهين . وليت شعرى لماذا عدد الله العناصر المختلفة حتى جعلها تزيد على السبعين أو الثمانين ، ثم جعل لكل منها خصائص لا توجد فى غيره ، بل قد تكون متضاده ، كالأكسوجين ، والأزت ، والكربون .

فمن ذا أوجدها كلها ومتعها بهذه الخصائص حتى تتعاون على هذا النظام البديع ؟ وليت شعرى ما الذى أوقفها عند هذا الحد فلم تنقص عنه ولم تزد عليه ، غير مشيئة الله الذى علم كل شىء ودبّر كل شىء فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

والحق أقول : إنى لم أر فى هذا الوجود على سعة أكنافه وتباعد أطرافه وكثرة تنوعاته وتشعب مبدعاته ، أجن من أولئك الملحدين : (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

صُنْعًا)[1] . (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)[2] . ويكفينا ما قال الله فيهم : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا)[3] .

ولا يصح أن يذكروا فى عداد العلماء ، فإن الله يقول : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)[4] : فكل من لم يشهد بذلك فليس من أولى العلم .

وقد قال « سبنسر » وهو من أكابر علماء الإنجليز : ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التى عرفها أبناء المدارس ، وإنما الغرض من علم الطبيعة أن نقف على ذلك الجسر الذى ننظر منه إلى ما وراء الطبيعة .

وقال « باكون » وهو من أشهر مشاهير علماء الطبيعة : من أخذ علم الطبيعة بأطراف الشفاه كان ملحدًا ومن شربه عبا أوصله إلى الخالق » .

براهين كلارك : وهو من أشهر فلاسفة الانجليز :

قال : « لا بد لنا من فرض أن شيئًا وجد من الأزل بدليل وجود الأشياء الآن ، وهذا الفرض حقيقة لا شك فيها لأن كل موجود من

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٤
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٤
(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٩
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٨

هذه الممكنات يجب أن يكون هناك سبب أوجده أى أصل قام عليه وجوده ، وهذه الأشياء إما موجودة بذاتها فهى إذن قديمة أزلية ، وهو ما لا سبيل إليه لما نرى فيها من دلائل التغير والحدوث الدالة على أنه ليس لها شيءٌ واجب لذاتها ، وإما أن تكون موجودة بموجد تقدم عليها فيكون هو القديم الأزلى » .

ثم قال كلارك ما ملخصه :

« لا يمكن أن يكون هذا الوجود المادى مستقلًا بنفسه ولا أبديًا إلا إذا كان هو واجب الوجود بذاته ، ولكن مما لا شك فيه أن الوجود المنظور ليس هو واجب الوجود ، لأنه سواءٌ أتأملت فى شكله الظاهرى مع قابلية أجزائه لحركاتها المختلفة ، أم اعتبرت مادته التى هو مكون منها بدون التفات إلى شكلها الذى هى ظاهرة به الآن ، فلا أرى فيها إلا آثار إرادة واختيار ، فمجموعها فى جملته وكل واحد من أجزائها فى موضعه وحركته ومادته وشكله .

وبالجملة كل ما فيه متعلق بغيره غير مستقل وغير معقول أن يكون موجودًا بذاته . وإنى أصرح بأن الوجود لأجل أن يكون صالحًا يجب أن تكون أجزاؤه على الترتيب الذى هو عليه اليوم .

ومما أعده هذيانا القول بأن ذلك الترتيب وجد بضرورة طبيعية ، وهى الضرورة التى يستند عليها الملحدون ويدافعون عنها » . وقد سبق لك أن ذلك لا معنى له إلا فى رؤوس المجانين .

براهين لوك ، وهو من كبار فلاسفة الانجليز :

قال : « إنا نعلم ببداهة العقل أن العدم لا ينتج مطلقًا كائنًا حقيقيًا . ومن هنا يظهر لنا بوضوح جلى وبأسلوب رياضى أنه لا بد من

أن يكون قد وجد شيءٌ فى الوجود من الأزل ، لأن كل ما له بداية يجب أن يكون ناتجًا من شيء تقدمه .

ومما لا ريب فيه أن كل كائن يكتسب وجوده من وجود غيره يستمد منه كل ما هو متمتع به من الخصائص والصفات . إذن فالينبوع الأزلى الذى تستمد منه جميع الكائنات يجب أن يكون هو أصل جميع قواها ووجودها ، فهو إذن قادر على كل شيء ، وغير ذلك فإن الإنسان يرى فى نفسه قوة على العلم ، فيجب أن يكون الأصل الأزلى الذى نتج منه الإنسان عالمًا ، لأنه لا يعقل أن ذلك الأصل يكون مجردًا عن العلم وتنتج منه كائنات عاقله . ومما يناقض البداهة أن المادة المجردة من الحس تمتع نفسها بعقل لم يكن لها من قبل ، فيجب بالبداهة أن يكون أصل الكون عاقلًا – بل لا حد لعقله وهو الله تعالى :

ولنقف هنا اليوم ، ولننشد قول أمية بن الصلت ، ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواه إدكار   وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات   وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل   مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا   فى نهار وفى الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج   وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير   جل ربًا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله   نفوسًا لها هدى واعتبار

ذكرنا لك شيئاً من كلام الفلاسفة الأقدمين والمحدثين في الاستدلال على وجود الله تعالى ، وقد رأينا أن نضرب معهم بسهم في ذلك الموضوع الرفيع بأسلوب بديع ، وقد وجدت من نفسي سائقاً قوياً لأعمال القريحة في ذلك واستخدام القلم فيما هنا لك ، علماً بأن ذلك مطلب الأرواح وهو المقصد الأسمى من بعثة الرسل عليهم السلام . وأي سورة أحق بهذا من سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن بنص الحديث الشريف . ولو كتبنا أسفاراً في بيان صمديته تعالى أو أحديته عز وجل لم نبلغ إلا أقل القليل من دلائل قدرته وآيات عظمته (سبحانك لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك) .

وبالجملة فقد جاءني هذا الإلهام القوي والذي لا يمكنني أن أخالف سلطانه ، أو أدع بيانه ، وهو فيما أعتقد أجل ما ينفع القراء ويبتهج به أهل الذكاء ، فأقول متوخياً طريقة القرآن من وضوح البيان واستثارة الوجدان ، وبالله التوفيق :

١ - إن نسبة الإلحاد إلى علم الطبيعة افتراء على علم الطبيعة ، فإنه لا علاقة له بأوائل الأشياء ولا أواخرها ، وليس في قدرته أن يعرف من أين جاءت ولا إلى أين تذهب ، ولا ذلك من أبحاثه وأنه لينطق بعجزه عما وراء الطبيعة ، ولكنه يقدس بأسراره البديعة ، ذلك الفاعل المستتر بكنهه الظاهر بآثاره ، الذي دق عن رؤية الأبصار وجل عن أن يقع تحت الحس ، ولكنه معروف للعقول مرئي للبصائر فهو كالروح وجودها بدهي في الفطر ولكنها مجهولة عند إرادة التكاليف والتحديد لأنها تعلو عن ذلك بمقتضى طبعها بعد النورانيات عن الظلمانيات ، فتنكرها عوالمك السفلية الكثيفة التي لا تعرف غير المحدود..

٢ - ينطق بوجوده تعالى وعظمته وسعته علمه وباهر ألوهيته ما أودعه في الأشياء من الحكم التي اقتضت أن يوجد لك كبداً تفرز الصفراء ، وغدداً تفرز الريق ، ومجرى للطعام ، ومجرى للنفس ، ومصفاة في الأنف للهواء ، وسدادات تفتح من جانب واحد بغاية الإحكام في الأذين والبطين والشرايين والأوردة . وانظر كيف جعل لك منفذاً للفضلات وبجانب قناة البول قناة أخرى للمني بعد عمل حوض للبول يجتمع فيه وكليتين تفرزانه من الدم ، ثم جعل لك أنثى ، وهيأها لما يراد منها فخلق فيها رحماً وثدياً . إلخ .

وانظر إلى حكمة : الأصابع والأظافر واليدين والرجلين والمفاصل وطبقات العين وخلق اللسان في الفم ، إلى غير ذلك مما يبهرك إن كنت ذا وجدان صحيح .

٣ - من المقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه ، فكيف تعطينا المادة الجاهدة الميتة الحياة والعلم والإدراك ؟ وهل لتلك العناصر المادية كالكبريت والفسفور والأكسوجين والأدروجين [1] والذهب والزئبق إلى غير ذلك من عناصر المادة خير من ذلك أو أثارة من حياة أو علم أو إدراك . وهل إذا اجتمعت الجمادات كونت حياة وإذا انضمت الجهالات كونت علماً عالياً وإدراكاً سامياً . هل كان يمكن للمادة الجاهلة التي تجتمع كيفما اتفق أن تكون معدة وأمعاء ورئتين وكليتين ، وأن تخلق في المعدة ما تحتاج إليه من العصارة المعدية وبجانبها العصارة البنكرياسية

(١) ايدروجين .

ثم تخلق جهازاً للتناسل وتعلم أن ذلك وحده غير كاف فتخلق خلقاً آخر من جنس الخلق الأول وتخلق فيه جهازاً للتناسل يخالف الجهاز الأول ليكون الأول فاعلا والثانى قابلا . ثم تخلق فيه محلا للجنين وتدبر له كيفية غذائه مادام فى الرحم وتخرج له ثدياً يغذيه بعد خروجه وتهيء له لبناً يجرى فيه يناسب حاله وضعفه فى طفولته ويجعل الرجل مجرداً عن ذلك وقد ألقى على كل منهما الشهوة الشديدة إلى الآخر لينساقا إلى ماخلقا له وليحفظ النوع من الفناء والدثور .

بل نقول : هل علمت المادة الصماء العمياء أن الكلبة ستلد أجراء كثيرة ، فجعلت لها أثداء كثيرة وحلمات عديدة رحمة بأولادها التى ستكون بعد ، وهل علمت أن العقاب سيتغذى باللحم فكونت فى البيضة التى يتخلق منها مناشر يقطع بها اللحم كما علمت أن بعض الطيور تأكل النبات وأن بعضها يحتاج إلى حويصلة فلم تكون ذلك فى بيضتها ؟

٤ – إن أعمال الله تعالى لاتتناهى ولا تدخل تحت حصر مما ينبىء عن الاختيار والإرادة فإن الأعمال الطبيعية يجب أن تكون متشابهة بل متحدة . فإن الطبيعة لا تعمل إلا عملا واحداً ووجود الأعمال المتنوعة من خصائص الاختيار والإرادة وليس الاختلاف الذى نشاهده ولا يدخل تحت حصر قاصراً على الأنواع المتباينة بل أفراد النوع الواحد لاتكاد تدخل تحت الحصر مباينة وإختلافاً (يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1] وإن شئت فانظر إلى الأشجار المتجاورة

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦

التى تضرب عروقها فى بقعة واحدة وفروعها فى هواء واحد ، بل انظر إلى أوراق الشجرة الواحدة تجدها لا توافق ورقة منها ورقة أخرى ، فإن حاولت أن ترجع ذلك إلى أسباب ومقتضيات فقل لى من الذى نوع تلك الأسباب وخالف بين تلك المقتضيات إلخ .

٥ – وإن شئت فانظر إلى تعاضد العوالم وخدمة بعضها بعضاً وتوجيهها كلها لغاية واحدة مما لا يتصور مثله للمادة العاجزة التى ليس لها خبر عما يجاوزها فضلا عن البعيد عنها فانظر إلى خدمة العالم العلوى للعالم السفلى .

٦ – وإلى وضع الأرض وغيرها من العوالم العلوية على الأبعاد المتناسبة حتى ينتفع بعضها ببعض ، وحتى لا تختل حركة الجاذبية العامة ، ولو جعلت الأرض قريبة من الشمس جداً لاحترق كل ما عليها بحرارة الشمس ، ولو جعلها بعيدة عنها جداً لم يعش عليها نبات ولا حيوان فسبحان العليم الحكيم .

ومن المدهش كون أوضاعها على نسبة تحفظ بها قوانين الجاذبية فى الجميع بالنسبة لما على يمين الكوكب وما على شماله وما فوقه وما تحته ، إلى آخر ما يحير الحاسبين ويدهش الناظرين .

٧ – وإن شئت فانظر إلى الأرواح والجن وأفاعيلها التى خرقت كل نواميس المادة . وتلك الخوارق يعرفها المسلمون فى أوليائهم بالكرامات وأنبيائهم بالمعجزات ، وقد اعترف بها الآن فلاسفة الأوربيين وأساتذتهم بواسطة استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى الذى أتى بما لايمكن تعليله بالعلل المادية كما هو معروف ، إلى آخر ما لا يتسع له هذا المقام .

٨ – وإنى لأعجب كيف تنسب هذه القدرة الباهرة التى أوجدت هذا الملك العظيم الذى لا يحيط به محيط فى اتساعه وكثرة أنواعه من هواء وماء وأرض وسماء ونجوم وأقمار ، ورياض وأزهار وجبال وبحار إلخ .

عجبت كيف تسيغ العقول ذلك أم كيف تسيغ أن تنسب إلى المادة الجاهلية تلك العلاقات المنظمة التى بين الأشياء والترتيب الغريب المسيطر عليها والحكم السامية المودعة فيها التى اقتضت أن يكون (الأزوت) فى الهواء على نسبة ٩٩ فى المائة (والأكسوجين) فى الهواء على نسبة ٢١ فى المائة ، حتى يتأتى أن يتنفسه الإنسان والحيوان وتصلح به الأشياء .

تلك الحكم التى أوجدت فيك المخ والمخيخ والرئتين وصورت لك فكين وأوجدت بينهما لساناً وعلى طرفيهما أسناناً . ولم تكتف بذلك حتى أوجدت لك غدداً فى ذلك المحل تفرز الريق . إلى آخر مالا يسعنا إلا أن نلمع إليه ، لا أن نأتى عليه .

٩ – عجبت كيف لا يدهشه هذا الإبداع وكثرة الأنواع ، بل اختلاف الصور والأشكال فى النوع الواحد .

وانظر إلى ذرة المكروب من نوع الحيوان إلى أن تصل إلى ما طوله عشرات الأمتار كما فى حيوانات البحر ، وإلى ماله حويصلة ومعدة ومعدتان وثلاثة ، وإلى آكلة النبات وآكلة اللحوم وإلى ماله عيون تزيد على عشرات المئات ، إلى آخر ما بينه علماء الحيوان .

ثم انظر إلى النبات كيف تزيد أنواعه على مائتى ألف نوع إلخ إلخ .

ثم انظر إلى سعة العوالم العلوية وانتظامها وسرعة حركاتها وما قرره فيها المكتشفون .

فيا ليت شعرى ما الذى عرف هذه الاختلافات وتلك التنوعات وهذه النظامات وهذا الإبداع وذلك الاختراع .

١٠ – أم كيف أوجدته المادة التى لا تستطيع أن توجد نفسها . وألفت نظرك إلى هذا الغذاء الذى نأكله كل يوم ولاندرى بشهادة علماء الطبيعة أنفسهم كيف يكون العين والمخ والمخيخ إلى آخر أجزاء البدن ، أم كيف يكون العلف والتبن عيناً فى رأس الحصان ودماً فى جسمه ولحماً فى عظمه وربما سمعت شهادة فلاسفة أوربا فى ذلك . فليت شعرى أى قدرة عملت هذه ، وأى علم نظمه وأى سر أودع فيه ، وأى كيفية تم بها .

١١ – فإن كان لا يدهشك أصل وجود الأشياء من العدم فليدهشك ما فيها من الأسرار وتنوعاتها وكيفية تأثيرها التى لا نعلمها ولا نحس منها إلا بقدرة تعلو عن العقول. ولست أدرى أى سر أودع فى بزرة التوت حتى أوجدت لك الشجرة الضخمة ونوعت أوراقها وثمارها دون شجرة الفول الذى هو أكبر من بزرة التوت بأضعاف كثيرة ، وأى سر أودع فى المعدة حتى صيرت تلك الأشياء الجامدة الغليظة الميتة دماً حياً يجرى فى مجاريه المختلفة إلى القلب ثم يرجع إلى أطراف البدن ست عشرة مرة فى الدقيقة .

ولئن عرفنا تركيب الأشياء فلا ندرى كيف تألفت ولا كيف أثرت . ولا كيف تظهر عنها نتائجها . أفلا تدهشك تلك الأسرار

فتستدل بها على قادر عظيم لا ندرى ما هى الأسرار التى أودعها ونوعها ولا نعلم كيف يفعل . فكما تنزه فى ذاته أن تدركه العقول كذلك تنزه فى فعله عن أن نعلم كيف يكون ، فهل أودعت الأشياء هذه الأسرار فى أنفسها ، وكيف ذلك ! ؟ وهل نوعتها إلى تلك الأنواع التى لا يحيط بها محيط وباينت بينها وخصصت كلاً بكل . إلخ إلخ ؟ وليت شعرى كيف ذلك وهى الصماء البكماء بل الجماد الميت .

١٢ — بل نقول : كيف نعقل وجود المادة ، هل ترى — أيدك الله — أنها وجدت من غير شىء وأودعت تلك الأسرار المتنوعة التى تخرج عن نطاق العد ؛ بل التى لا نهاية لها من غير شىء اللهم إن ذلك كله باطل بالبداهة ولا يتجرعه ولا يكاد يسيغه إلا مجنون فسد عقله أو بطلت إنسانيته وضاعت فطرته التى فطر الله الناس عليها . أن نقول إن ذلك كله قد وجد بأصله وأسراره وحكمه ونظامه بالصدفة كما يقول أولئك المجانين .

وأنت لا تجيز إذا رأيت قصرًا مشيدًا مشتملاً على ترتيب عجيب ونظام غريب كل شىء فيه لغرض من الأغراض وسر من الأسرار أن يكون قد وجد بالصدفة . بل لا تجيز أن يوجد أقل شىء بالصدفة . بل نرجع بك إلى أصل وجود الأشياء من العدم فإن كنت تجيز الصدفة فى ذلك كله ويهضم ذلك عقلك فقد سقطت مكالمتك .

وبعد : فتباً لمن عمى عن رؤية شمسه تعالى المشرقة على جميع الموجودات وباهر آياته التى ملأت الأرضين والسموات ثم ينسب ذلك لعلم الطبيعة زورًا وبهتاناً .

وقد قال « باكون » وهو من أساطين علم الطبيعة : من أخذ علم الطبيعة رشفاً بأطراف الشفاه ألحد ومن شربه عباً أوصله إلى الخالق .

وقال الفيلسوف الكبير « سبنسر الإنجليزى » : ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التى يعرفها تلاميذ المدارس ؛ بل الغرض أن يوقفنا على ذلك الجسر الذى نستشرف منه ما وراء الطبيعة ، وما أجدرنا فى هذا المقام أن ننشر قول القائل :

يامن تفلسف كى يؤيد كفره ... مع أنه لم يدركنه وجوده
خسرت بسوق الفضل صفقة جاهل ... تخذ العلوم ذريعة لجحوده

أو نقول ما قال غيره :

ومن البلوى التى ليس ... لهـا فى النـاس كنه
أن من يعرف شيئاً ... يـدعى أكثر منـه

ولنقف هنا اليوم :

* * *

أسمعناك من دلائل الإلهية وآيات الربوبية ما ينشرح به الصدر ، ويتضح به الأمر ، على نهج ما تفنن فيه كبار الفلاسفة قديماً وحديثاً سالكين فى ذلك طريقة القرآن من الوضوح والبيان ، وسنسمعك اليوم ما يزيد به إيمانك ، ويتم به إيقانك ، إن شاء الله .

ولا غرو فهو أجل المطالب وأعظم الرغائب ، فأقول وبالله التوفيق :

إن رقيق الوجدان كلما لمس شيئاً أو نظر إلى شىء أحس بوجود الله عز وجل ، وكأن شيئاً يضرب على أوتار قلبه الحساسة فتشاهده

روحه من وراء ستر ذلك المنظور أو الملموس فاعله الذى أثر فيه ، ومبدعه الذى تجلى بين خوافيه ، لأن الروح الإنسانية لا تعقل أثرًا بلا مؤثر ، ولا نظاماً بلا منظم ولا حكمة بلا حكيم ، ولا سرًا بلا عليم ، بل وجود الله عز وجل عند الإنسان الذى لم تفسد إنسانيته من أول ما غرس فيه ، فهو أوضح بدهياته ، وأول أولياته ،متى أحس بروحه أحس به ، لأنه لايعقل وجوده بنفسه ، فهو مقترن بوجوده ، والإحساس به ملازم للإحساس بنفسه ، ولا يمكن أن ينطوىء ذلك منه وإن كان يغفل عنه « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ »[1] . « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بل لَايُوقِنُونَ »[2] . « إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ »[3] .

إحساس بين أعماق القلوب وطوايا النفوس ، أقرب إليها من الإحساس بأجسامها لأنها أجنبية عنها يجوز ألا تحس بوجودها كما لا يحس الأجنبى بالأجنبى ، وأما وجودها فلا يمكن أن تغفل عنه ، ومع وجودها وجوده ، وفى أعماقها فيضه وجوده ، وفى أحداقها النظر إليه ، ومركوز فى طبيعتها التعويل عليه حتى من الكافرين : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا »[4] . « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »[5] .وسر ذلك أن طينتها معجونة

(١) سورة لقمان : آية ٢٥
(٢) سورة الطور : آية ٣٥ ، ٣٦
(٣) سورة آل عمران : آية ١٩٠
(٤) سورة يونس : آية ١٢
(٥) سورة الإسراء : آية ٦٧

بمعرفته واللجأ إليه ، والإحساس به مفاض عليها من نوره بحيث يجعلها تذهل عن نفسها ولا تذهل عنه ، فحياتها فى الحقيقة بأنسه ، وفرحها ليس إلا بنور قدسه ، فلا يمكن أن يفارقها إحساسه ، أو يزاولها إيناسه ، ولكن الناس نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فيقهره وعظمة قدرته أذهلهم عنه وأبعدهم منه ، فسبحان من يحول بين المرء وقلبه ، ويضع الحجاب بينه وبين ربه ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد . غاية الأمر أن الأوهام البشرية والخيالات الجسمانية التى لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تتصور غير المكيفات ، ولا تعقل غير المحدودات ، ولا تفهم غير المتشكلات المحصورات ، أرادت أن تعرفه على نحو ما عرفت به مألوفاتها ، وهى لا تعرف إلا ما كان محددًا مقيدًا ، وهو يعلو عن التحديد والتقييد ، فأرادت أن تحصره وهو لا ينحصر ، وأن تكيفه وهو لا يتكيف ، وأن تقيده وهو لا يتقيد ، وأن تنهيه وهو لا يتناهى ، فنفر منها وبعد عنها ، فلم تقع عليه ولم تصل إليه ، ونادى منادى العزة : إنك أيتها العوالم السفلية قاصرة عن درك علاه ، أو بلوغ سناه ، أو معرفة مداه ، فليس فيك صلاحية لذلك ، ولا خلقت قابلة لما هنالك ، فلك حد مرسوم ، ومقام معلوم ، فكما أن العين لا تدرك الهواء وهى واقفة مع رقتها على ما حد لها من درجتها ، كذلك الخيال لا يرتفع عن درجة المحسوسات ، ولا يعلو إلى أفق الروحانيات ، ومحال عليه أن يعرف رب الأرض والسموات ، الذى جل عن الكيفيات وعلا عن القياس وتنزه عن إدراك الحواس .

ولكن فيها أيها الإنسان عالماً يعرف التنزيه ، ولا يقف عند التشبيه ، فيمكنه أن يستلمع شعاع تلك الأنوار ، ويرى عظمة سرادقات الملك القهار ، ويلمح بوارق تلك الحضرات ، ويكتحل بجمال تلك الإشراقات .

وأما أنت أيتها العوالم السفلية فليس مقرك إلا عالم التحديد ، وليس لك من هذا المقام إلا صفة العجز والتقليد ، فقلدى الروح فيما توحيه إليك وتلقيه عليك ، فهى التى تعرف وتعترف ، وتسجد وتقترب ، فليعرف كل عالم من عوالمك قدره ولا يتجاوز طوره ، فإن طلبت أن تعرف عوالمك السفلية فقد طلبت أن تحدده ، والمحدود لا يكون إلَهًا للأشياء ، بل يكون له ما لها ، وعليه ما عليها ، وما هى إلا نزعة عباد الأصنام وإسراء الأوهام .

ولعمرى لو رجعت إلى نفسك ، ولم تتقيد بمألوفات حسك ، لوجدتها أول البديهيات ، وأوضح الواضحات ، لا تحس بوجودك إلا أحسست بوجوده ، غير أنك لا تعرف التحديد ولا تقع عليه بالتكييف والإلَه يجب أن يكون كذلك ، وإلا لم يكن إلَهًا كما قلنا ، بل أقرب لك الأمر بأن روحك وهى التى أمدتك بكل شىء ، وأفاضت عليك كل شىء ، ولست شيئًا إلا بها بل ما أنت إلا هى ، ومع ذلك لا تعرفها ولا تحيط بها لمزيد لطافتها ، وخروجها عن عالم التقييد والتكييف : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[1] .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

فما بالك تطمع فى إدراك اللطيف القدوس الذى فوق كل شىء وما يماثله شىء ؟ جل أن تشبهه الملائكة أو تماثله الروح « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » ، بل أنزل بك إلى ما هو أقرب من هذا ، فإنه لا يمكنك أن تعرف عالم الجن فإنك لا تستطيع أن تعرفه ، بل لديك من الماديات التى بين يدك وتحت أمرك وتصرفك ما لم تصل إليه ولم تعرف كنهه . مثل الكهرباء والسر المودع فى المغناطيس إلى غير ذلك من أسرار الطبيعة التى أودعها الله فى المادة ولم يعرفوا إلا ظواهرها ، لا حقائقها ، بل لم يعرفوا حتى الآن ما هى المادة وما حقيقتها ، إلى آخر ما قرره العلماء من مواقف العقول التى خروا لها ساجدين ، وظلوا أمامها مبهوتين ، مع كونها من العالم الكثيف لا من العالم اللطيف ومن الماديات لا من الروحانيات ، فما أجدرنى أن أنشد قول الغزالى :

قل لمن يفهم عنى ما أقــول ... قصر القول فذا شرح يطول

ثم سر غامض من دونه ... قصرت والله أعناق الفحول

هذا وما تدركه القلوب وتشاهده البصائر أكبر من كل ما يقال ، ومن ذاق نور الوجود الحق بوجدانه وأدرك الأمر من أصله فهو غنى عن البيان ، ومن وصل إلى حد العيان فلا حاجة به إلى البرهان .

وعلى كل حال فنطاق التعبير قصير مهما بالغ صاحبه ، فارجع إلى نفسك تجد الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحس ، وإذا عرفت الأمر من نفسك وجدت كل شىء بعد ذلك أكثف من ذلك الوجدان ولا معنى لأن تطلب شيئًا تجده فى نفسك وتحس به فى أعماق قلبك ، ومن كان فى أصل الشجرة فلا معنى لأن يستدل بأوراقها

عليها ، بل يعرف أوراقها وغصونها وثمارها وخواصها التى هى ظلها ومستمدة منها ، ولا قوام لها إلا بها ، مما يشاهده عيانًا ووجدانًا من أصل تلك الشجرة التى يحس بها مغروسة فى نفسه وبين أعماق قلبه ، وإذا كان الشىء أقرب الأشياء إليك وأخذت تبحث عنه من بعيد كان ذلك سببًا فى عدم وصولك إليه لا فى عثورك عليه .

ولا بأس أن نذكرك بما قلناه فى بعض ما كتبناه : إن الحمار إذا ضربه ضارب ، التفت لينظر الضارب لأنه لا يجوز أن يوجد ضرب بلا ضارب . فمن أنكر وجود الله وهو يشاهد آثار صنعته ومظاهر قدرته وبدائع حكمته ، فهو أجهل من الحمار ، الذى لا ينكر المؤثر مع وجود الآثار .

وقد قال لى يومًا بعض أذيال الماديين : بماذا تردون على الطبيعيين الذين لا يقولون بشىء وراء المادة ؟ فقلت له : إن الرجل العامى المسلم يمكنه أن يفحم أساطين الماديين فضلًا عن العلماء والفلاسفة من الموحدين فإن ما يشاهده ذلك العامى من حوادث الجن التى يعرفها حق المعرفة ، وقد شاهدها مرارًا تخرق كل نواميس المادة التى يقدسها الماديون ولا يثبتون شيئًا وراءها .

وقد جاء فى أحد أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه العبارة : « ليست الفكرة الواحدة إلا اتحاداً يشبه اتحاد حمض « الفوسفوريك » والتفكر نفسه ناتج من الفسفور الذى هو فى تركيب المخ . فرد عليها العلامة الشهير « كاميل فلامريون » قائلا : من أخبركم بذلك

يا حضرات المحررين ؟ إن الناس يتوهمون أن معلميكم يعلمونكم هذه الهذيانات مع أن الأمر بخلاف ذلك ، لأن هذه الادعاءات ليست أمام النظر العلمى إلا هباءً منثوراً . على أنى لا أدرى أى الأمرين يستحق أن يتعجب منه أكثر : أمن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم ، أم من سخافة ادعاءاتهم ؟ » إن نيوتن كان يقول : « يظهر لى » وديكرت كان يقول : إنى استنزل حلمكم فى هذه الفروض ولكن هؤلاء يقولون : نحن نثبت ، نحن ننكر ، هذا موجود ، هذا غير موجود ، العلم قد حكم ، العلم قد أقر ، العلم أدحض ، مع أنه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمى . إلى أن قال : إنكم تتجاسرون أن تعزوا للعلم هذا العبء الثقيل ، ولئن سمعكم العلم أيها السادة لقد حق له أن يضحك استهزاءً من غروركم ، إلى آخر ما قال . .

ولنختم كلمتنا هذه بقول الله عز وجل : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) (١)

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (٢) . فانظر لنفسك وأشفق عليها ، فإن الأمر والله جلل (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) (٣) .

ولنقل من كل قلوبنا : اللهم يا من ليس فى السماء من قطرات ، ولا فى الأرض من حبات ، ولا فى هبوب الريح من ولجات ،

---

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩

(٢) سورة ق ، الآية ١٦

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٧

ولا فى قلوب الخلق من خطرات ، ولا فى أعضاهم من حركات ، ولا فى أعينهم من لحظات ، إلا وهى لك شاهدات ، وعليك دالات ، وبربوبيتك معترفات ، وفى قدرتك متحيرات . فأسألك يا الله بالقدرة التى تحير بها من فى الأرض والسموات ، أن تملأ قلوبنا يقينا ، وأن ترزقنا حبك وحب من أحبك ، وحب ما يقربنا إلى حبك وأن لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بمنك وكرمك .

* * *

رأينا بمناسبة نشاط المبشرين فى هذه الأيام ببلادنا المصرية ، أن نناقشهم مناقشة منطقية فى معتقداتهم أولا ، ثم ندخل معهم فيما شاءوا من الأبحاث بعد ذلك ، ولم نر أنسب لذلك من تفسير سورة الإخلاص ، إذ هى سورة التوحيد التى ترد عليهم رداً صريحاً يؤيده العقل والمنطق ، مبينة أنه تعالى (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ) . أما المسيحيون فيقولون : إن ابن الله نزل جنينا إلى بطن امرأة آدمية ، وجرت عليه الأحداث البشرية والكوارث الدنيوية ، ثم صلب أخيراً .

ولندع محاورتهم اليوم فى هذا وهو من البداهة بمكان ، ولكن نرد عليهم بما جاء فى الإنجيل نفسه من النصوص الصريحة التى تنطق بإنسانية المسيح ، حتى يعلموا أنهم خالفوا المعقول والمنقول .

فنقول وبالله التوفيق : قد أوجبتم الأبوة الإلهية للمسيح لكونه لا أب له من البشر ، فلم لم توجبوها لآدم مع أنه ليس له أب ولا أم

كما يصرح به التوراة والإنجيل ؟ أليس من الواضح عند ذوى العقول أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم عليه السلام أن يكون ابنا لله تعالى ، لزم بالأولى ألا يكون عيسى ابناً لله تعالى لعدم الأب فقط ؟ أليس هذا مصادمة للقياس الأولوى عند كل عاقل ؟

ولندع هذا الآن ولنقل : ألم يبلغكم – وهو فى إنجيل لوقا – أنه قال : « إنه لم يُقبل أحد من الأنبياء فى وطنه فكيف يقبلوننى » ؟ فصرح بأنه من الأنبياء عليهم السلام . وفى إنجيل متى : أن رجلا أقبل على المسيح وقال له : أيها المعلم الصالح : أى خير أعمل لأنال الحياة الدائمة ؟ فقال المسيح « لم قلت لى صالحا ؟ إنما الصالح هو الله وحده » . وإذا كان لم يرض أن يلقب صالحا فهل يسيغ المنطق أنه يرضى أن يلقب إلَهاً مع تصريحه بأنه غيره ؟

وفى الإنجيل أيضاً : أن اليهود لما أرادت القبض عليه رفع بصره إلى السماء وقال : « قد دنا الوقت يا إلَهى فشرفنى إليك واجعل لى سبيلا » . وفى إنجيل لوقا : أنه حينما أحيا الميت بمدينة « نائم » عندما رحم أمه لشدة حزنها عليه فقالوا : أن هذا لنبى عظيم . وهو تصريح بنبوته لا يقبل الجدال . وفى إنجيل يوحنا : أن عيسى قال لليهود : « لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئا لكننى أحكم بما أسمع لأنى لست أنفذ إرادتى بل إرادة الذى بعثنى » .

فهل ترى أصرح من ذلك فى الاعتراف بأنه عبد مربوب قد بعث من قبل سيده ؟ وفى إنجيل يوحنا : أنه أعلن صوته فى الهيكل وقال

لليهود « إننى لم آت من ذاتى ، ولكن بعثنى الحق وأنتم تجهلونه ، وأنا أعلم أنى منه وقد بعثنى » .

فها هو ذا قد جعل نفسه وموضعه معلومين عند اليهود ، وقال إنه لم يأت من نفسه ولكن الله بعثه ، فما زاد فى دعواه شيئاً على ما ادعاه غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وفى إنجيل يوحنا : أنه قال لليهود :

« إن كنتم بنى إبراهيم فاقفوا أثره ولاتريدوا قتلى ، وماقلت لكم إلا الحق الذى سمعته من الله » .

قالوا : لسنا أولاد زنا إنما نحن أبناء الله ، فقال : « لو كنتم أبناء الله لحفظتمونى لأنى رسول منه خرجت مقبلا ولم أقبل من ذاتى ولكن هو بعثنى لكنكم لاتقبلون وصيتى وتعجزون عن سماع كلامى إنما أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته » .

وفى إنجيل يوحنا : « أنه كان يمشى فى ديوان سليمان فأحاطت به اليهود وقالوا له : إلى متى تخفى أمرك ؟ إن كنت المسيح الذى ننتظره فأعلمنا بذلك » .

ولم يقولوا : إن كنت الله . لأنهم لم يعلموا من دعواه ذلك . ولولا اختلاف عند اليهود أن الذى انتظروه هو انسان نبى وليس بإله كما تزعمون .

وفى انجيــل يوحنا : أن اليهود قالوا لكبير من أحبــارهم (نقودمشى) : « اكشف الكتاب تر أنه لايجىء من الجليل نبى » فما قالت

اليهود ذلك إلا وقد أنزل لهم نفسه منزلة نبى فقط . ولو علمت منه ادعاءه الألوهية لشنعوا عليه وهاجوا عليه العامة تقبيحا له وتحريضا على قتله .

وفى إنجيل يوحنا : الإصحاح ٨ العدد ٤٠ « ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله » . فاعترف بأنه إنسان يسمع من الله ، ولم يقل أنه هو الله . ورسالة تيموثاوس الأولى الإصحاح الثانى العدد ٥ : « لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح » .

وفى انجيل يوحنا أيضا : « لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الآب لأن أبى أعظم منى » .

وفى انجيل متى : « ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم وقال إيلى إيلى لم شبقتنى ؟ أى إلهى إلهى لما تركتنى » . وفى صحيفة ٥٠ أيضا « صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح » .

وفى انجيل لوقا مانصه : « ونادى يسوع بصوت عظيم وقال : ياأبتاه فى يدك أستودع روحى » . وكثير من هذا فى الأناجيل يطول ذكره . ولو تتبعنا كل ماجاء فى ذلك لطال المقال واتسع المجال .

ولست تشك فى أن هذه النصوص تنفى ألوهية المسيح رأسا وتقتلع جذور تلك العقيدة اقتلاعا ، فإنه لاريب أنك إن سمحت نفسك بالانقياد إلى الحق وخلعت لباس الهوى أيها المسيحى المنصف ، علمت أن ذلك من أول البدهيات وأوضح الواضحات .

ويمكننا بعد هذا أن نناقشكم معشر النصارى فى عقيدة الصلب أيضا مستندين إلى النقل من كتبكم ، محتكمين إلى مايقضى به الدليل الواضح والمنطق الصحيح فنقول :

جاء فى انجيل لوقا : «أن عيسى عليه السلام صعد إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا ،فبينما هو يصلى إذ تغير منظره عما كان عليه ، وابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق ، وإذا بموسى بن عمران وإليا قد ظهرا له وجاءت سحابة فاظلتهم ، فوقع النوم على الذين معه » . فأى مانع يمنع من أن يكون ذلك قد وقع فى اليوم الذى طلبته فيه اليهود ، ولكن اختلفتم فى نقلها كما اختلفتم فى نقل غيرها ؟ وظهور الأنبياء عليهم السلام وتظليل السحابة ووقوع النوم على التلاميذ ، يكون حينئذ دليلا واضحا على الرفع إلى السماء وعدم الصلب ، وإلا فلا معنى لظهور هذه الآيات .

وثانيها مافى انجيل متى : «أن المصلوب قد استسقى فأعطوه خلا ممزوجا بمر فذاقه ولم يشربه ، فنادى إلّهى إلّهى لم خذلتنى » ؟ مع أن الأناجيل كلها مصرحة بأنه عليه السلام كان يطوى أربعين يوما وأربعين ليلة ويقول للتلاميذ : إن لى طعاما لستم تعرفونه . ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوما وأربعين ليلة ، لايظهر الحاجة للماء بسبب عطش يوم واحد .

وقد جاء فى التوراة أن الله خلق جميع مااللحية فى عصا موسى عليه السلام ، وذلك أعظم من القاء شبه انسان على انسان آخر .

وانى أعجب لمن يصدق أن الله قلب العصا حية تسعى ، وجعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ، إلى غير ذلك من خوارق العادات التى كانت للأنبياء ، كما فى التوراة والإنجيل كقلب الماء خمرا مثلا ، كيف لايصدق أن الله ألقى شبه عيسى على غيره بعد أن رفعه إلى السماء ؟

ولاشك أن الالتباس الذى وقع لليهود عند أخذه حتى دلهم عليه أحد تلاميذه وقال لهم : الرجل الذى أُقبله فامسكوه ، وقال له رئيس الكهنة : أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟ لاشك أن هذا الالتباس العظيم مع تلك الشهرة العظيمة نحو ثلاثين سنة فى المحاورات العظيمة والمجادلات العنيفة كلها تدل على وقوع الشبه قطعا ، خصوصًا أن فى الإنجيل أنه أخذ فى حندس من الليل مظلم من بستان ، فشوهت صورته ، وغيرت محاسنه ، بالضرب والسحب وأنواع النكال .

ومثل هذه الحالة توجب الالتباس قطعا ، فمن أين لكم أو لليهود القطع بأن المصلوب هو عين عيسى عليه السلام ؟ والحق الذى لامرية فيه هو أن الأمر على ماقال الله تعالى : (وما قَتَلُوهُ وماصلَبُوهُ ولَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ، مالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وما قَتَلُوهُ يَقِيناً ، بَل رَّفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ ، وكَانَ اللهُ عزِيزاً حَكِيماً)(١) . وفى الإنجيل أيضا أن يسوع عليه السلام كان مع تلاميذه بالبستان فجاء اليهود فى صلبه فخرج اليهم عليه السلام وقال لهم : من تريدون ؟ قالوا : يسوع ، وقد خفى شخصه عنهم ، ففعل ذلك مرتين ، إلى آخر مالانطيل به .

(١) سورة النساء ، الآية ١٥٧

سورة الشمس (١)

رأينا بعد تفسير سورة الإخلاص أن نشرع فى تفسير (والشمس وضحاها) لتكون هذه الآيات الكونية التى ذكرت فيها كالدليل لما ذكر فى سورة الإخلاص من كونه أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، مع بيان ما اشتملت عليه من الفوائد الجليلة ، من طلب تزكية النفوس ، والتحذير من سلوك طريق المكذبين لرسلهم « كثمود » إلى آخر ماسنقف عليه إن شاء الله تعالى .

ولنقدم قبل ذلك مقدمة ينتفع بها القارئ ويخضع لها السامع فنقول : اعلم أن القرآن هو البحر المحيط الذى يتشعب منه علوم الأولين والآخرين ، إلا أن سر القرآن الأصفى ومقصده الأسمى ، هو دعوة العباد إلى الجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى ، خالق السموات العلى والأرضين السفلى ، ومابينهما وما تحت الثرى .

وإذا نظرت بنور البصيرة التى لم تتراكم عليها الظلمات ولا أفسدتها الآفات ، لم تر فى الوجود غير الله وأفعاله ، التى تقرأ فيها حكمة باهرة وقدرة قاهرة ، ورحمة ليس لها غاية ، وأسراراً ليس لها نهاية .

وقد أكثر القرآن من لفت نظرك إلى تلك الآيات التى امتلأت بها الأرضون والسموات ، وقد تفنن فيها القرآن تفنناً يستولى على

(١) المجلد الحادى عشر — الصفحة ٣٢٧ — سنة ١٣٥٩

العقول ويأخذ بمجامع القلوب ، فتارة يأمرك بالنظر فيها على سبيل الإجمال فيقول : (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ)(١) ، ويقول (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(٢) . وليس يخفى عليك أن الآية الكريمة تشير إلى أن من لم يتفكر فى ذلك فليس من قوم يعقلون .

وتارة يلفت الأنظار بالثناء على المتفكرين فيها ، فيجعلهم من أولى الألباب الذين أثمر لهم ذلك التفكير ذكر الله فى جميع أحوالهم ، فيقول : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)(٣) .

وتارة يلفت الأنظار إليها بالإقسام بها فيقول : (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ...) إلى آخره .

وتارة يبين بها مالله تعالى من عظمة ورحمة وكرم وعناية بخلقه ، وفى الوقت نفسه هى دلائل واضحات وآيات بينات تقسر القلوب على الالتجاء إليه ، والتوكل عليه ، والغرق فى توحيده وتمجيده .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٤
(٣) سورة آل عمران ، الآيتان ١٩٠، ١٩١

ولا بأْس أن نتلو عليك بعض ما جاءَ فى ذلك حتى تعرف الفرق بين تلك الأَدلة المظلمة التى تعرفها فى كتب الفلاسفة والمتكلمين من المتقدمين والمتأَخرين ، حتى تقول بلسان حالك ومقالك : هذا كتاب لا يأْتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد فانظر إن شئت إلى مثل قوله : (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ)[1] وقوله : (هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)[2] وقوله : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنورَ)[3]

واعلم أَن القرآن من عادته زيادة التقرير والتكرير ، علمًا بما عليه الإِنسان من الجهل العميق والحجاب الغليظ (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[4] فتراه يكرر ما تقدم بأُسلوب آخر مع زيادة بيان وتوسع فى البرهان فيقول : (إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْميِّتِ ومُخْرِجُ الْميِّتِ مِنَ الْحىِّ . ذٰلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُوفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيل سَكَنًا والشَّمْسَ والْقَمَرَ حُسْبَانًا . ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُم مِّن نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٦
(٣) سورة الأنعام ، الآية ١
(٤) سورة الملك ، الآية ١٤

يفْقَهون . وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ . فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِبًا . ومِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ . وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ . والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وغَيرَ مُتَشَابِهٍ . انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ . إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ)[1] إلى أن قال : (ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ)[2] .

ثم يقول فى السورة نفسها : (وهُو الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ)[3] ... إلخ . ويقول : (إِنَّ ربَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا . وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ . أَلَا لَهُ الْخَلْقُ والْأَمرُ . تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[4] ويقول : (وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ)[5] ... إلخ . ويقول : (هُو الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ)[6] إلى أن قَالَ : (إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)[7] . ويقول : (قُل مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ . وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ

(١) سورة الأنعام ، الآيات من ٩٥ إلى ٩٩
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٠٢
(٣) سورة الأنعام ،الآية ١٤١
(٤) سورة الأعراف ، الآية ٥٤
(٥) سورة الأعراف الآية ٥٧
(٦) سورة يونس ، الآية ٥
(٧) سورة يونس ، الآية ٦

الْميِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ . وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ . فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)[1] .

ولما كانت هذه الدلائل واضحات يتعجب معها من كفر الكافرين وجحود الجاحدين ، أزال ذلك ببيان سره الراجع إلى تقديره الذى لا يغالب فقال : (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)[2] .

ولنرجع إلى ذكر آيات التوحيد ودلائله فنقول : (اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ . وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ . كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى . يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا . وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ . يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[3] . (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَوْزُونٍ)[4] (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)[5] ويقول : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَالْأَنْعَامَ

(١) سورة يونس ، الآيتان : ٣١ ، ٣٢

(٢) سورة يونس ، الآية ٣٣

(٣) سورة الرعد ، الآيتان : ٢ ، ٣

(٤) سورة الحجر ، الآية ١٩

(٥) سورة الحجر ، الآية ٢٢

خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)[1] . إلى أن قال : (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً . وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[2] .

إلى أن قال : (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ . وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)[3] ويقول : (وَإِنَّ لَكُم فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً . نُسْقِيكُم مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)[4] . ويقول : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)[5] (قَالَ فَمَن رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ : رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)[6] إلى أن قال فى وصفه تعالى : (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا . وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِن نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى)[7] . ويقول : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً . إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)[8] .

(١) سورة النحل ، الآيتان ٤ ، ٥ — (٢) سورة النحل ، الآية ٨

(٣) سو ة النحل ، الآيات من ١٠ إلى ١٣

(٤) سورة النحل ، الآية ٦٦

(٥) سورة الاسراء ، الآية ١٢

(٦) سورة طه ، الآيتان ٤٩ ، ٥٠

(٧) سورة طه ، الآيتان ٥٣ ، ٥٤ — (٨) سورة الحج ، الآية ٦٣

ويقول : (ولَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ . ثُمَّ جعلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ علَقَةً . فَخَلَقْنَا العلَقَةَ مُضْغَةً . فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا . فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا. ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)(١) . ويقول : (وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)(٢) . ويقول : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)(٣) .

إلى أن قال : (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ)(٤) ويقول : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُم لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُم فَمِنْهَا رَكُوبُهُم وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)(٥) . ويقول : (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا من بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)(٦) . (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)(٧) . (إِنَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ . وفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ

(١) سورة المؤمنون الآيات من ١٢ – ١٤
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٥٣
(٣) سورة فاطر الآية ٢٧
(٤) سورة فاطر ، الآية ٢٨
(٥) سورة يس ، الآيات من ٧١–٧٣
(٦) سورة الزمر ، الآية ٦
(٧) سورة الشورى الآية ٢٨

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)(١) . (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُم كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ)(٢) . (وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(٣) . (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)(٤) . ويقول : (وهُو الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)(٥) . (أَلَمْ تَرَوا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)(٦) . (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)(٧) .

وقد ذكر فى سورة الروم عدة آيات واضحة فقال : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وكَذلِكَ تُخْرَجُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)(٨) . ثم قال : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ واخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَات لِّلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ

(١) سورة الجاثية ، الآية ٣، ٤
(٢) سورة ق ، الآية ٦
(٣) سورة الذاريات ، الآية ٢٠، ٢١
(٤) سورة الرحمن ، الآية ١٠ – ١٣
(٥) سورة المؤمنون الآية ٧٨
(٦) سورة نوح ، الآية ١٥، ١٦
(٧) سورة القيامة ، الآية ٣٦ – ٣٩
(٨) سورة الروم ، الآية ١٩ – ٢١

منامُكم بِاللَّيلِ والنَّهارِ وابتِغاؤُكم مِّنْ فَضْلِهِ)(١). (وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوفاً وطَمَعًا)(٢). (وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)(٣) (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَم خَلَقُوا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، بلَ لَّا يُوقِنُونَ)(٤) الخ الخ .

ولنقتصر على هذا وهو قليل من كثير . وقد قال بعض فلاسفة أوربا : يكفينى من آيات الله أنه خلق الأنثى بجانب الذكر ، ومتعها بخصائص ليست فيه ليتم ما أراد منها . (هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٥) . فقارن بين أسلوب القرآن وأسلوب اليونان .

عظم والله البرهان ، وامتلأ الوجدان ووصل إلى حلا العيان ، وليس بعد العيان بيان .

وقد رأينا أن من المناسب جداً لهذا المقام أن نذكر لك شيئا مما قاله المتخصصون عن سعة العالم لتعرف بذلك شيئا من عظمة الله تعالى وتقول ما قاله صلى الله عليه وسلم : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

ولنسمعك بعض ما قال أساطين علم الطبيعة بأوربا فى ذلك الموضوع

(١) سورة الروم ، الآية ٢٣،٢٢
(٢) سورة الروم ، الآية ٢٤
(٣) سورة الروم الآية ٢٥
(٤) سورة الطور ، الآية ٣٥
(٥) سورة آل عمران ، الآية ٦

حتى تعرف أن الملحدين ببلادنا كذبوا على علم الطبيعة الذى لم يأخذوا منه إلا قشوراً ، فتشدقوا بها وكانو قوماً بورا .

ولنبدأ بقول باكون : «من أخذ علم الطبيعة رشفاً بالشفاه كان ملحداً ، ومن شربه عباً أوصله إلى الخالق » .

وقول سبنسر : «ليس الغرض من علم الطبيعة أن نعرف تلك الظواهر التى يعرفها تلاميذ المدارس ، بل الغرض الأسمى أن نقف على ذلك الجسر الذى نستشرف منه ماوراء الطبيعة » .

ولقد صدق ، فالأرض مملوءة بالآيات ، فانظر ترى الأرض يابسة فما أسرع أن تكسى جلابيب سندسية ، وتفرش أنماطا ملونة زبرجدية ، ثم تمدكم بما تأكلون وتعطيكم مابه تتداوون ، ثم هى مهاد لكم عليها تنامون ، وجمال لكم فى رياضها تتنزهون ، وغذاء منها تأكلون ، ودواء به تستشفون ، وجعل السماء قبة صافية ذات جلابيب زرقاء مرصعة بالدرارى الحسان والهواء بينهما يحمل الأضواء يزجى السحاب ، (فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ)(١) . (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(٢) .

ولعمر الحق أن هذا النظام البديع ليدل على قدرة باهرة أوجدته ، وحكمة أبدعته وسوته أحسن تسوية .

أما سعة العوالم فنقربها إليك ببيان سير النور وما يقطعه من المسافات بالنسبة إلى الكواكب المختلفة ، فنقول : إن النور يسير فى الثانية

(١) سورة النور ، الآية ٤٣
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢

الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، فاضربه فى الدقيقة ثم فى الساعة ثم فى السنة إلى آخر ماتستمع ، فهذا النور الذى عرفت سيره السريع يصل إلينا من الشمس فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، ولو أن أسرع قطار جرى من الأرض إلى الشمس ليلا ونهاراً لم يتمكن من وصوله إليها فى أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة ، فماذا تقول إن قلنا لك : أن الشعرى العبور لايصل ضوؤها إلينا إلا فى ٩ سنين نورية ، والنسر الطائر لايصل ضوؤه إلينا إلا فى ١٤ سنة نورية ، والنسر الواقع فى ٣٠ سنة ، والعيوق فى ٣٢ سنة ، والسماك الرامح فى ٥٠ سنة ، إلى أن يصل خمسمائة سنة وألف سنة ، وأكثر من ذلك على مابينوه .

ولذلك يذهب بعضهم إلى أن العوالم لانهاية لها ، وإن كان علماؤنا لايقولون بذلك بناءً على أدلتهم العقلية التى تراها فى كتب التوحيد الفلسفية .

ومجموع الذى علمه نوع الإنسان إلى الآن ٢٢٤ مليونا من النجوم على مايقولون .

ولتعلم أن من النجوم ما هو أضوأ من شمسنا بكثير ، حتى قالوا إن الشعرى تفوقها بخمسين مرة ، وبنات نعش تفوقها بنحو ثلاثمائة مرة ، والسماكين يفوقانها بنحو ستمائة مرة ، وإنما يظهر نور هذه النجوم لنا ضئيلا لشدة بعدها عنا ، وقد عرفت ما يقطعه النور فى الثانية الواحدة فماذا عسى أن يكون ما يقطعه النور بسيره السريع فى تلك المدد المتطاولة التى يحتاج إليها فى وصوله إلينا ؟ .

فسبحان الكبير المتعال الذى تقصر العقول عن درك كماله ، وتخضع السموات ومن فيهن لعظمة جلاله .

ذكرنا لك أن القرآن له عناية كبرى بذكر آيات الأنفس والآفاق علوية وسفلية ، وأنه يتفنن فى ذلك تفنناً عجيباً ، فتارة يقول : (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) (١) ، وتارة يقول : (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (٢) ، وتارة يقول : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) (٣) .

وتارة يقسم بتلك العجائب التى غفل الناس عن النظر فيها والتأمل فى خوافيها ، فهم يمرون عليها وهم معرضون كما فى الآية الكريمة . ولو تأمل الإنسان فى ذلك قليلا لامتلأ قلبه إيماناً ونفسه إيقاناً ، ولوجد من ذلك لذة صافية لا تشبهها لذة ، ونعيما روحانيا لا يقاربه نعيم ، ولكن الناس محبوسون فى سجن الماديات هائمون فى أودية الشهوات ، لا يدرون من أين جاءوا ولا إلى أين يذهبون (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (٤) .

وقد رأيت كلاماً ممتعاً فى هذا الموضوع لبعض الأوربيين الذين نظروا وفكروا ، نسوقه إليك لتعرف الفرق بينهم وبيننا معشر المسلمين الذين ينادى كتابنا بأن فى الأرض آيات للموقنين ، ويصل

---

(١) سورة يونس ، الآية ٦

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

(٣) سورة الغاشية ، الآية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

(٤) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

من تعظيمها ولفت الأنظار إليها أن يقسم بها عسى أن يلتفت لذلك أرباب النفوس الجامحة ، والعقول النائمة ، والقلوب القاسية التى هى كالحجارة أو أشد قسوة ، فنقول :

قال « سينكا » أحد الفلاسفة المعروفين مخاطباً لذلك الإنسان الغافل عن عجائب الكون : « إنك أيها الإنسان لذاهل عن جمال القبة الزرقاء ، فلم تراقب شفقاً ، ولا ساهرت بدراً ولا ساررت نجوماً ، هل فكرت من أين النور لعينيك فتبصر ، والدم لقلبك فتحيا ؟ وهل اتفق لك أن جعت فاشتهيت ما تسد به الرمق لتعرف قيمة نعم الله وآلائه بما خلق لك من مواش وقطعان ، وما أعد لها من كلإ ومرعى ؟ ألا فاحمد ربك الذى برأك من لا شىء ، وأتى بك من العدم وأخرجك من الظلمة إلى النور .

ويقول غيره : « ما الأرض إلا جنة أنزلت فيها آيات الجمال ، ومجرد وجودنا عليها بينة البينات . ألا يذكرك ذلك قوله تعالى : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) (١) ، وقوله (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) (٢) .

فأين ذلك الإنسان الرقيق الوجدان الذى يهيج حبه لله ، النظر فى آيات الله ، وما يقع عليه بصره من مخلوقات الله مما يثير عواطفه

(١) سورة الروم ، الآية ٢٠
(٢) سورة النحل ، الآية ١٠

ويهيج لواعجه . والنظر فى آيات الله يوصل إلى معرفة عظمة الله ، ويبعث على الطمأنينة والسلام ، بل على السرور والحبور . وأن ذلك ليسبغ علينا من آلاء الأفكار البهجة ، ونعمة القناعة والسلام العقلى ، ما يفوق كل ما تصبو إليه النفس من بهجة الدنيا وزخرفها . وشتان ما بين لذة جسمانية ولذة روحانية . فالشمس تشرق لتحييه ، والبدر يطلع ليناجيه ، والعصافير تغرد لتشجيه ، يمر بالأزهار يناديها بأسمائها فتبسم له ثغورها ، وتحدثه حديث تنويرها وتفتيحها ، وبالأشجار فتضحك له أغصانها ، وترقص له أفنانها ، وتسرد على سمعه أنسابها وفصائلها وأنواعها ، يستقبل الفصول ويودعها كأنه يودع خلانا عرف أطوارهم وأخلاقهم ، فهى تمضى وتحفظ لها فى نفسه تذكارات جميلة حتى تعود إليه فى أدوارها وأوانها العام التالى » إلى أن يقول :

« ولو كان شروق الشمس وغروبها ، وما تكون عليه بينهما ، حوادث نادرة الطروء ، لأصبحنا مسحورين بجمال الفجر إذ تطفر الشمس غزالة من وراء الجبال ، ولأمسينا مأخوذين بسناء الشفق إذ تتوارى خلف البحار وحقا أن تلك الأشعة الذهبية التى تنبثق من جبين الأفق صباحاً ومساء ، كنز ثمين يفوق كنوز النضار ، وثروة طائلة تسمو على ثروة الذهب الأبريز .

هب أن خلقا قدر لهم أن يولدوا ويعيشوا فى أحشاء الأرض على أوفر ما يكون من السعة والبحبوحة والرفاهية ، وإذا بهم يشاهدون أرضا مترامية الأطراف ، وخضما متسع النطاق ، وفضاء لا نهاية له ، وغيوما متلبدة ، وسحاباً ممطراً ، ورياحاً عاصفة ، وبروقاً وامضة ،

ورعوداً قاصفة ، ثم تحين منهم التفاتة إلى مليكة النهار فيأخذهم سناؤها ، ويذهلهم جمالها ، وترهبهم عظمتها طالعة من أفق الشروق ، فصاعدة فى قبة الفضاء ، فمائلة إلى أفق الغروب ، إذ يعجبون لها مصباحاً واحدا ينير الفضاء على اتساعه ، ثم تنسدل سجوف الظلام وتتراخى عليهم ستائره وحجبه فيعروهم ذهول الناظر المبهوت ، الجاهل ما سيكون ، وإذا بنجوم وأقمار ظاهرة بعد الخفاء ، بادية بعد الاحتجاب ، تطلع وتغيب ، وتسفر وتحتجب ، متنقلة فى أبراجها ، جادة فى سيرها حسبما تشاء نظاماتها ونواميسها التى رتبتها حكمة الحكيم العليم .

لا مراء أنهم يوقنون لساعتهم بوجود إله عظيم حكيم عليم ، ويؤمنون وطيدا ، ويعتقدون أكيدا أن ما رأوه إنما هو صنعة يدى ذلك الإله الخفى الأسرار ، العظيم الاقتدار ، الذى كان قد أتاهم نبؤه من قبل .

وإذا أطلنا هذه النظرة إلى الإنسان والطبيعة وما يكون فيهما من العجائب ، أفلا نعجب كيف تتحول النباتات والأوراق والأزهار والأثمار والبزور خبزا ولبناً وعسلا . . . » إلى آخر ما قال أولئك الفلاسفة مما لا يمكن إحصاؤه ، ولا يتيسر استقصاؤه .

ولعلك عرفت بذلك كله سر الإقسام بالشمس والقمر ، وفهمت عظمة ذلك القسم على ما يشير إليه قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعلَمُونَ عظِيمٌ)(١) .

(١) سورة الواقعة ، الآية ٧٥–٧٦

ويحسن بعد هذه المقدمة التى هى لب المقصود ، أن نشرع فى التفسير ، فنقول :

الواو فى قوله : (وَالشَّمْسِ) واو القسم ، وجواب ذلك القسم قوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) ، على ما ستسمع . والمراد بضحاها ضوؤها مطلقاً ، أو وقت الضحى الذى يظهر فيه سلطانها ، ويعظم به لمعانها . وقد عرفت أن الله يقسم ببعض مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذى يقسم الله تعالى به يحصل له وقع فى القلب فتكون الدواعى إلى تأمله أقوى .

هذا وقد قال بعض المفسرين : إن الكلام على تقدير المضاف ، أى ورب الشمس وضحاها وقد علمت أنه لا داعى لذلك ، ولا لتحكم الفقهاء فيه بآرائهم ، لأن الله يقسم بما شاء مما عرفت بعض أسراره ولاح لك قليل من أنواره ، على أنه سيقسم به تعالى فى قوله : (وَمَا بَنَاهَا) الخ . وهو لا يلتئم مع هذا التقدير كما هو ظاهر .

ولا نزال نقول : إن الشمس من آيات ربنا الكبرى ، ونعمه التى لا نطيق لها شكرا ، فليس يحصى ما تعلق بها من المنافع ، فإن الناس بدونها لا بقاء لهم ولا حياة ، فإن كل شىء فى هذا العالم من نبات وحيوان وإنسان لابد له من الشمس .

وإن شئت فانظر إلى الناس فى الليل نائمين وكأنهم أموات ، فإذا ظهر أثر الصبح من المشرق صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة فى الأحياء فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة فى الازدياد والقوة والتكامل حتى تصل إلى كمالها وقت الضحوة .

وقد رأينا أن ننقل لك ما قاله اللورد « افبرى » فى هذا الموضوع ، فنقول : « الشمس هى كرة متأججة بنار أشد وطيسا من كل نار على الأرض ، وهى أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة . أما بعدها عنا فنحو ٩٢ر٥٠٠ر٠٠٠ ميل ، هذا وإن هى إلا نجمة وليست هى فى عداد النجوم الكبرى .

وهنالك مشكلة أخرى أعيا حلها النهائى عقول العلماء والفلكيين ، هى أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تشع نفس المقدار أو نحوه من الحرارة مدة ملايين من السنين ، فإن كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها فكيف لم تفن مادتها مع توالى العصور ؟ فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونألف ، وإلا لكفاها ٦٠٠٠ سنة لتحترق وتنفد حرارتها .

« أما فضل الشمس علينا فليس أنها مصدر نورنا ونارنا فقط ، بل هى محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضاً ، فهى التى تبخر مياه البحر وترفعها غيوماً فى الجو ، وتنزلها أمطاراً على الأرض ، حيث تجرى جداول وأنهاراً تروى زرعنا ، وتنمى أغراسنا ، وتثير الرياح ، وتهيج الأنواء ، فتطهر الهواء وتنقيه وتزجى السفن والمراكب فى عباب المحيط ، وهى التى تجر المركبات ، وتدير الآلات البخارية ، وما الفحم الحجرى إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع بها بنو العصور المتأخرة ، ولا حياة لولا الشمس لحيوان ولا لنبات ، فالحيوانات تنتعش بحرارتها ، والأطيار تغرد بأنوارها وتسبح تسبيحاً ، وبحرارتها وأنوارها تبزغ النباتات وتنمو الأشجار ، وتزهو الأزهار

وتنضج الأثمار ، فنحن مدينون للشمس بمأكلنا ومشربنا ، وهى علة وجودنا على هذه الأرض » .

ولنقف هنا تالين قوله تعالى: (إِنَّ فِى خَلْقِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[1] . وقوله تعالى : (إِنَّ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)[2] . (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[3] .

* * *

سبق الكلام على قوله تعالى (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) . أما قوله تعالى (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) فنقول فيه : اختلف المفسرون فى تلو القمر للشمس على أقوال، وأظهرها ما قيل من أن المراد ظهوره عقيب غروبها وذلك عندما يكون بدراً ليلة أربعة عشر . وأقسم به فى هذا الحال لظهور سلطانه ، واستكمال جماله الرائح ، وحسنه البارع

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ ، ١٩١
(٢) سورة الجاثية ، الآيات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦
(٣) سورة محمد ، الآية ٢٤

ولك أن تقول : إنه تلاها فى الضوء لعظمة أمره وقوة نوره إذ ذاك فكأنه شمس ليلية تجلت بعد غروب الشمس النهارية . ويقول قائلون إن المراد أنه تابع لها ومستفيد نوره منها ، فإن نور القمر مستفاد من نور الشمس كما هو معروف .

هذا ، والقمر أقرب الأجرام السماوية إلينا ، وأكبر ما تراه العين بعد الشمس من الكواكب ، وكما أن الأرض تدور حول الشمس فى عام كامل ، فكذلك القمر يدور حول الأرض فى كل شهر مرة . أما ظهوره هلالا ناقصاً فبدرا كاملا ، فلكون نوره مستفادا من نور الشمس وليس ذاتياً له ، فلا غرو أن يختلف باختلاف نسبته إليها قرباً وبعدا ولذلك ينكسف بالكلية عندما تحول الأرض بينه وبينها وهو وقت الخسوف المعروف . والقمر من أكبر النعم وأبهر الآيات وأبهج المناظر التى تورث البهجة والسرور .

ثم قال تعالى : (وَالنَّهارِ إِذَا جَلَّاهَا) : يقسم تعالى بالنهار إذا جلى الشمس وأظهر نورها وسلطانها ، والمراد إذا جلى الله الشمس فى النهار ، فالإسناد مجازى كصام نهاره . وقيل إن الضمير يعود على الأرض ، أى جلى النهار الأرض بعد ما كانت مستترة بظلمة الليل فالضمير عائد على معلوم غير مجهول . ومثل ذلك قول من قال إن الضمير يعود على الدنيا . وقيل إن الضمير يعود على الظلمة المعلومة من المقام .

والمراد بتجليتها على هذا القول إزالتها . والقول الأول أولى لذكر المرجع واتساق الضمائر ، وجوز بعضهم أن يكون الضمير المرفوع المستتر فى

جلاها عائداً عليه تعالى ، كأنه قيل : والنهار إذا جلى الله تعالى الشمس فيه فيكون قد أقسم سبحانه بالنهار فى أكمل حالاته ولكنه بعيد غير متبادر . ثم قال تعالى : (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) :

أى الشمس ، أو يغطى ضوءها . والكلام فى الضمير المنصوب على نحو ما سمعت فى سابقه ، والأولى عوده إلى الشمس لا للأرض ولا للدنيا على ما علمت . وجئ بصيغة المضارع فى (يَغْشَاهَا) إحضاراً للصورة العجيبة التى تأخذ بمجامع القلوب ، وتطير بالنفوس إلى علام الغيوب . وحقا أن غشيان الليل للنهار لمن أبهر الآيات وأعظم النعم المتواترات ، وكذلك مجئ النهار بعده . فسبحان الحكيم العليم .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1] .

وما أشبه حال الناس وهم نائمون بالليل بحالة من فى القبور . وما أشبه حالهم عند الانتباه وقت الصباح بحالهم إذا بعثوا من قبورهم (فَهَلْ مِن مُّدَّكِر) .

ولا بأس أن نقول لك : إن الأولى فى (إذا) أن تكون منصوبة على الظرفية ، مجردة عن الشرطية ، والعامل فيها مضاف مقدر بعد واو

(١) سورة القصص ، الآيات : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣

القسم ، وكأنه قيل : أقسم بعظمة كذا وقت كذا ، لأن الوقت هو وقت ظهور سلطانه ، وتجلى برهانه .

ثم قال تعالى : (والسَّماءِ وَمَا بَنَاهَا) : أى من بناها . وإيثار (ما) على (من) لإرادة وصف العظمة فى من بناها ، والجلال فى من سواها . وإذا أريد ذلك كان المقام لما ، لا لمن ، كما هو مقرر فى محله ، فكأنه قيل : والقادر العظيم الذى بناها : على أن (ما) قد يعبر بها عن ذوى العلم كثيراً . والمراد ببنائها إيجادها

هذا ثم نقول : إن عظمة السماء لتأخذ بلب من ينظر إليها متأملا فيها ، فلا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السموات العلى إلا ويغض إجلالا وإعظاما .

انقضت العصور وتوالت الدهور والبشر معجبون مسحورون بجمال القبة الزرقاء وجلالها ، يتطاولون إلى إدراكها بالخيال ، ويستنزلونها إلى الأرض بالقرائح ، فلم يستطلعوا من أمرها ، ولم يخبروا من خبرها شيئاً إلامشوباً بالأوهام ، وشبها بالأحلام . والفضل الأكبر فى تقديرها قدرها ، وتعريف ما يقرب من الحقيقة فى شأنها ، إنما هو فضل علم الفلك الذى عرفنا أن النجوم تزيد على مئات الألوف ، وأن نور بعضها لا يصل إلينا إلا بعد ألف سنة وأكثر من سرعة النور الذى يسير فى الدقيقة ٩٢ مليونا من الأميال . فهو الذى عسى أن يكون أنبأنا عن عظمة تلك القبة الزرقاء التى نوه بشأنها عز وجل فى مواضع كثيرة من القرآن .

ولنتل هنا قوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [1] . (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) [2] . (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) [3] .

ولنقف هنا سائلين الله التأييد والتسديد ، منشدين قول القائل :

يا خالق الخلق يامن لا شريك له ... طوبى لمن عاش بين الناس يهواكا
والله ما أنست روحى ولا فرحت ... فى الدهر ما بقيت إلا بذكراكا
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا ... من فرط لطفك ربى كيف ينساكا

* * *

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) :

قلنا فيما سبق : إن القرآن له عناية كبرى بلفت الأنظار إلى الآيات الكونية وما فيها من العبر والدلائل على عظمة الله ومزيد حكمته فتراه يقول : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) [4] ، ويقول

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٩٠، ١٩١ (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥
(٣) سورة يونس ، الآية ٦ (٤) سورة فصلت ، الآية ٣٧

(وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)[1] ويقول : (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[2] ، ويقول : (اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)[3] . وهذا كثير جدًا فى القرآن الشريف .

يريد بذلك تعالى أن يوقظ النفوس من رقدتها وينبه العقول من غفلتها إلى أن عظمة الله أظهر من الشمس ، وهو سبحانه وتعالى أدنى إلى الإنسان من النفس .

ولنذكر لك بعض ما قال العلماء فى هذا المقام ، نحاول بذلك تثبيت إيمانك ، وتتميم إيقانك ، فنقول : انظر إلى هاتين الآيتين (اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) وما تضمنتا من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم ، فتسكن فيه الحركات وتأوى إليه الحيوانات إلى بيوتها ، والطير إلى أوكارها ، لتستجم فيه وتستريح من كد السعى والتعب ، حتى إذا أخذت النفوس راحتها وسباتها ، واستعدت إلى معايشها وتصرفها ، جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار ، يقدم جيشه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومزقها تمزيقا ، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون ، فانتشر الحيوان ، وتصرف الإنسان فى معاشه ومصالحه ، وخرجت الطيور من أوكارها . فياله من تدبير حكيم ، وعمل عظيم ولكن تكرره كل يوم أسقط وقعه فى القلوب فلم تنفعل به النفوس ، لأن كل ما كثرت

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٧ (٢) سورة الانبياء ، الآية ٣٣
(٣) سورة غافر ، الآية ٦١

مشاهدته ضعف التأثر به والالتفات إليه ، فسبحان من لا ضعف فى قدرته ، ولا قصور فى حكمته ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

بل نقول : إن من آياته الباهرة أن يعمى الله عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه . « ومن العجب أن يقف الإنسان فى الماء إلى حلقه ثم ينكر وجود الماء ويستغيث من العطش » .

ثم تأمل بعد ذلك — رعاك الله — حال الشمس والقمر فى طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتى الليل والنهار ، ولولا طلوعهما وغروبهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون فى معايشهم ويتصرفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانوا يَتَهَنَّوْنَ بالعيش مع فقد النور ؟ ثم تأمل الحكمة فى غروبهما ، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى النوم ، وجمود الحواس .

ومن البين أنه لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم كما ينطفئ السراج عندما تذهب الحاجة إلى نوره ليقروا ويهدءوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين ، بهما تمام مصالح العالم .

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى منبها عليه ، لافتا النظر إليه ، كما سبق لك بمثل قوله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا

إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[1] .وقال فى السورة الأخرى : (تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا . وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)[2] . فبين سبحانه وتعالى كون كل واحد منهما يخلف الاخر، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثاً حتى يزيله عن سلطانه أيضاً .

وإن شئت بعد ذلك فتأمل أحوال هذه الشمس فى انخفاضها وارتفاعها لإقامة الفصول الأربعة، وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلا واحـــد لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه، فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع الشتاء، ولو كان شتاء لفاتت منافع الصيف ، وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفاً كله، ففى الشتاء تختبئ الحرارة فى بطن الأرض وأجواف الأشياء، فتتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ، ويستكثف الهواء، ويكثر السحاب والمطر والثلج والبرد، وبذلك حياة الأرض وأهلها، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها ، وتزايد القوى الطبيعيـــة ، واستخلاف ما حللته حرارة الصيف من الأبدان :

وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء، فيظهر النور والزهر بالشجر ، ويتحرك الحيوان للتناسل . وفى الصيف يمتد الهواء ويسخن جداً، فتنضج الثمار، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط

---

(١) سورة القصص ، الآيات ٧١، ٧٢ (٢) سورة الفرقان ، الآيات ٦١، ٦٢ .

التى انعقدت فى الشتاء، وتغيب البرودة وتهرب إلى الأجواف ولهذا تبرد العيون والآبار، ولا تهضم المعدة الطعام التى كانت تهضمه فى الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التى سكنت فى البطون، فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه .

فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان، وصفا الهواء وبرد، فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء ، لئلا تنتقل الحيوانات وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيعظم أذاه ، أما إذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه ، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتى شدة البرد بعد استعداد وقبول . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين .

وتأمل حكمته تعالى فى سير الشمس وما فيه من المصالح والحكم ، فأنه لو كانت تطلع فى موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات ، لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، ويكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليه ، والنهار سرمدا على من هى طالعة عليهم ، فيفسد هؤلاء وهؤلاء . فاقتضت الحكمة الإلهية، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربى، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى إلى المغرب فتشرق على ما كان مستورا عنها فى أول النهار، فيختلف عندهم الليل

والنهار فتنتظم مصالحهم . ولنقف هنا والمقام مقام إطناب ، سالكين فى ذلك مسلك القرآن ، منشدين قول القائل :

وحدثنى ياسعد عنهم فزدتنى   شجوناً فزدنى من حديثك ياسعد
هواهم هوى لايعرف القلب غيره   فليس له قبل وليس له بعد

(وَالشَّمسِ وَضُحَاهَا ، وَالقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيلِ إِذَا يَغْشَاهَا ، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) :

قدم الشمس وما معها على السماء وما بناها ، لأن الغرض من ذلك أخذ النفوس بذكر تلك الآيات إلى الله تعالى ، والاعتراف بقدرته وعظمته ، فهو من باب تقديم الدليل على المدلول ، والمقدمات على النتيجة وكأنه سلك سبيل الترقى ، فكان ذلك كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى يفاع عالم الربوبية ، وبيداء كبرياء الصمدية .

وفى قوله : (وَمَابَنَاهَا) إشارة إلى حدوث السماء وكل مافيها ، ومنها الشمس والقمر ، فإن كل ذلك لا يكون إلا بتقدير مقدر وتدبير مدبر .

هذا ، وعبر (بما) للإشارة إلى الوصفية ، وأنها محل الاعتناء . وهم يفعلون ذلك إذا كان الوصف عجيب يريدون لفت النظر إليه . وكأنه قيل والقادر العظيم الشأن الذى بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤها والمراد ببنائها إيجادها

وكذا الكلام فى قوله تعالى (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) أى بسطها .

هذا وفى السماء آيات بينات ، وعجائب مدهشات . ويكفيك منها أنها واقفة فى الجو على ثقلها وعظمتها وكثرة ما فيها من أجرام لا عدد لها ، بغير ممسك يمسكها من فوقها ، ولا عمد ترفعها من تحتها ومن البدهى أنه لابد لها من مخصص يخصصها بحيز مخصوص وسمك مخصوص ، لابد لذلك من مخصص قادر حكيم عليم .

فإن قلت : إن الأشياء لها مقتضيات ولوازم بمقتضى طبعها وجبلتها على ما يقول الطبيعيون . قلنا لك بعد تسليم هذا وعدم مناقشتهم فيه : من الذى طبعها على ذلك وأعطاها تلك الخصائص ؟ لاشك أن جعلها متفاوتة لكل منها طبع مخصوص ومقتضى مخصوص أدل دليل على المخصص والمرجح الذى خلق كل شىء ثم هداه وهدى إليه أفلا يجوز فى العقل ألا توجد تلك العناصر التى أوصلوها الآن إلا نحو الثمانين ؟ فمن الذى أوصلها إلى ذلك الحد ومتعها بتلك الخصائص ؟

ولنعد إلى الكلام فى السماء فنقول :

إن هذه الأجسام إنما وقفت فى الجو العالى بقدرة الله تعالى وعظيم تدبيره . وإياك أن تصغى لحديث الجاذبية الذى يتشدق كثير من العصريين . فالجاذبية مطعون فيها كما يعرفه المتخصصون وعلى فرض تسليمها فخلقها فى الأشياء من أعجب الآيات وأكبر الدلالات ، لأن الممكن ليس له شىء من نفسه كما هو مقرر فى محله ، فلا بد أن يرجع الأمر أخيرا إلى الله تعالى ، فهو رب الأرباب ، ومسبب

الأسباب (إليه يرجع الأمر كله) . ولعله معلوم لك أن هذه الأجسام في ذاتها قابلة للحركة والسكون ، فجعلها متحركة بحركة مخصوصة لا بدله من فاعل مختار ، فضلا عن تخصيصها بحيز مخصوص ، وانتقالها إلى حيز مخصوص . وليس يخفى عليك بعد ذلك أن قطعها الفلك في مدة مخصوصة ثم عودها لمثل ذلك طول الدهر ، من أعجب العجب الذي لا يمكن تعليله بسبب . وليت شعري ما الذي أوجب أن تكون تلك الحركات بعضها مشرقية وبعضها مغربية وبعضها إلى الشمال وبعضها إلى الجنوب ، وبعضها سريع وبعضها بطيء .

وإجمال القول أنك إذا نظرت في اختصاص كل شيء من هذه العوالم الفائتة الحصر بوضعه وموضعه ، وصفته وطبيعته ، وحليته ونعته ، وخصائصه ومقتضياته ، وجدته ليس إلا من الله تعالى ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن (يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) .

ثم انظر بعد ذلك في الأرض لتعلم أن زيادتها ونقصها عما هي عليه أمر جائز ، وقبولها لأجزاء أخرى غير تلك الأجزاء التي فيها أمر جائز . أليس من الجائز ألا تكون فيها تلك العناصر التي تحتاج إليها العوالم من الغذاء والدواء ، وإثباتها لجميع الأشياء حتى الرجال والنساء بمقتضى ما أودع فيها الحكيم العليم والقادر العظيم ؟

(١) سورة الرعد ، الآية ٢

ثم انظر بعد ذلك كيف جعلها من الشمس على مسافة مخصوصة حتى تنتفع المخلوقات بضوئها وحرارتها ، فلو كانت بعيدة جدا عن الشمس لما أمكن ذلك ، ولو كانت قريبة جدا من الشمس لم يعش عليها إنسان ولا حيوان . أليس كل ذلك من الآيات الباهرة ، والبراهين الظاهرة ، والنعم المتواترة ؟

وإن شئت فانظر إلى الجبال التي جعلها الله أوتاد الأرض وفيها من المنافع مالا يأتي عليه البيان . ولعله لا يغيب عنك ما فيها من المعادن والجواهر التي تفوق العد ، مما أفاد العالم أكبر فائدة ، وانتفاعنا بالجبال في نعمة المياه والأمطار غني عن البيان . ولهذا يقرن الله ذكر الأنهار بالجبال في كثير من الآيات كقوله : (رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ، وَأَسْقَيْنَاكُم مَاءً فُرَاتاً)[1] .

وإن شئت بعد ذلك فانظر إلى ما تنبته الأرض من النباتات التي لا تحصى عداً ، وفيها من النافع والأسرار ما يدهش العقول ويملأ النفوس بعظمة الله تعالى ورحمته ومزيد أنعامه . وليس يخفى عليك ما قال الله تعالى : (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[2]

ولعلنا لا نحتاج للتنبيه على أن بعض الشجرة يكون نَوراً[3] وبعضها ثمراً ، وبعضها ورقاً ، وبعضها خشباً ، إلى آخر ما يرشدك

(١) سورة المرسلات ، الآية ٢٧ (٢) سورة الرعد ، الآية ٤
(٣) بفتح النون : يعني زهرا .

إليه الوجدان والبرهان. أليس ذلك كله برهاناً ساطعاً ودليلًا قاطعاً على تقدير العزيز العليم ؟ ومن أعجب العجب ما يقولون من أن بعض أنواع الورد يكون أحد وجهيه فى غاية الحمرة ، والثانى فى غاية السواد ، مع كون نسبته إلى الشمس والهواء و الماء والتربة واحدة.

ولننشد فى هذا المقام قول القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه ... وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكّون والإيمان ملء قلوبهم ... ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرىء فى الجو يرسل طرفه ... إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله فى عرش مجده ... وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرىء ما سبح الله مرة ... إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الأنام كثيرة ... ولكن جهل المرء لاشك غالبه

أو نقول ما قاله ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع إلى قلبه ويستمع من حديث لبه ، حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادكار ... وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات ... وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل ... مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا ... فى نهار وفى الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج ... وبروق وراءها أمطار

إنّ شأن الإله شأن كبير ... جل رباً وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله ... نفوساً لها هدى واعتبار

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) : يقال طحاها ودحاها ، أى بسطها وأوسعها . والمادة تدل على ذلك ، حتى فى قول الشاعر :

طحابك قلب فى الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب

فكأنه يقول : ذهب القلب كل مذهب فلم تضق به النواحى ولم ينحصر فى مذهب واحد ، يقال طحا يطحو وطحا يطحى ، فهو من ذوات الواو والياء.

وكأن القرآن يرد قول من قال من المبطلين بقدم السماء والأرض وأنهما غير محتاجين لمن يوجدهما فذكر بيانها وطاحيها هو الله عز وجل .

هذا ، ومن عادة القرآن أن يذكر الناس بآياته الأفقية والنفسية وقد قال تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) (١) .

وآيات الأرض كثيرة : منها أنها ممكنة يجوز عليها الوجود والعدم ، فلابد لها إذا من موجد يرجح وجودها على عدمها . ولا شك أن من أكبر الآيات البينات وجودها بصفاتها المشاهدة ، وقد كان يجوز عليها غيرها . وتخصيصها بما ينفعنا فى كل ما نحتاج إليه على ما مستمع آية كبرى .

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣

ومن آياتها بروز جانب منها عن الماء ووجود البحار فى جانب آخر على ذلك النمط البديع الذى وصل غاية الإبداع ، وقد انتفعنا به غاية الانتفاع .

ومنها سعتها ، على ما أشارت إليه الآية هنا .

ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى : (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) (١) ، ولا ينافى ذلك كونها كروية فإنها كبيرة ذات سطح واسع يستقر عليه الإنسان والحيوان .

ومنها أنه مهدها وجعلها فراشاً وذلولاً كى تستقر عليها الحيوانات ولا يتألم ما عليها من المخلوقات ولولا أنه ذللها لما استطاعت أن تطأها الأقدام ، ولا أن نستعمل فيها الفأس والمعول لدورنا وزروعنا ، فهى ذلول مسخرة لما يريد الإنسان منها . فسبحان من جعلها كفاتاً للأحياء تحملهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم فى بطنها ، وسبحان من طحاها فمدها وبسطها ووسعها وهيأها لما يريد منها ، فأخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل الفجاج . وقد جعلها الله ساكنة ليهدأ من عليها ولا ينزعج بحركتها .

وإن ذهبت مع الذاهبين إلى أنها متحركة سريعة جدا ، كما هو الرأى الجديد ، فالأمر أعجب فإن تلك الحركة التى لا نحس بها ولانعرف لها سببا معقولا ،لامن ذاتها ولا من غيرها ، لهى العجيبه كله ، ولعلك لم تنس ما قلناه فى الجاذبية وأن أدلتها لم تتم إلى

(١) سورة الغاشية ، الآية ٢٠

الآن . ولك أن تختصر الطريق وتقول لهم : ما الذى أمسك العوالم كلها فى الفضاء الذى لانهاية له غير قدرة من يقول للشىء كن فيكون ؟

وبعد : فلو شاء لجعلها فى غاية الصلابة والشدة كالحديد ، فكان لا يمكن حفرها ولا شقها ولا البناء فيها ولاغرسها ، ولو كانت رخوة غير متماسكة لم يمكن ذلك أيضا ، فإنه لا يستقر إذا عليها الحيوان ولا بقية الأجسام .

فاقتضت حكمته أن تكون بين الصلابة المفرطة ، والدمانة المفرطة . ولو فرضنا أن الأرض كلها من الذهب والفضة أو بقية الجواهر لفاتت مصالح الإنسان والحيوان ، وتعطلت المنافع التى تراد منها فى سائر ضروب المصالح .

لهذا قال بعض الفلاسفة : إن التراب أشرف من الذهب والفضة . ويكفى أنك خلقت من التراب « وإلى الآن تخلق من التراب » ، فإن النطفة من الغذاء ، وهو إما لحوم الحيوانات أو النباتات ، ولحوم الحيوانات من النبات ، والنبات من التراب ، فأنت من التراب حتى الآن . فسبحان الحكيم الخبير ، العليم القدير .

وما كان للذهب تلك المنزلة الرفيعة إلا لقلته وعزته ، بخلاف التراب ، بناء على ما سمعته من القاعدة المطردة فى مخلوقات الله تعالى . وانظر إلى الهواء وحاجة الناس إليه ، ولكن لما كان ملء الوجود لم نأبه ولم نلتفت إليه .

ولا بأس أن نشير إلى حكمة كبرى من حكم الله تعالى التى نوهنا عنها فنقول : إنه سبحانه جعل كثرة الأشياء وسهولتها على قدر الاحتياج إليها ، فلما كان الهواء يحتاج إليه كل أحد فى كل نفس من أنفاسه جعله مالئاً للوجود كله ، ولما كانت حاجة الناس إلى الماء أقل من حاجتهم إلى الهواء لم يجعله فى السهولة كالهواء ، ولكنه جعله كثيرا متيسرا لايحتاج الإنسان فى حصوله عليه إلى ثمن ولا مشقة فعزة الأشياء لازمة لقلتها لا للاحتياج إليها . وقد قال القائل :

سبحان من خص القليل بعزة ... والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل من ... فى الكون محتاج إلى أنفاسه

ولنرجع إلى بقية الكلام على الأرض وآياتها فنقول :

لم يجعلها سبحانه وتعالى شفافة لأن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور ، وما كان كذلك لا يقبل السخونة فيبقى فى غاية البرودة فلا يستقر عليه الحيوان ولا يتأتى فيه إنبات النبات ، لأن ذلك كله بفضل قبولها لأشعة الشمس التى لولاها لم يكن على الأرض نبات ولا حيوان : (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [1] .

وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف عليه ، فاقتضت حكمته أن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أن تكون مستقراً للإنسان والحيوان والنبات .

(١) سورة يس ، الآية ٣٨

ومن آياته أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، مع أنها قطع متجاورة متلاصقة ، فهذه تصلح لنبات كذا ، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره ، ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، وينتفع بعضهم من بعض . وهذه سبخة مالحة ، وهذه بضدها ، إلى آخر صفاتها الكثيرة وأحوالها المتنوعة .

فسلها من نوعها هذا التنويع ، ومن فرق أجزاءها هذا التفريق ، ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ، ومن أمسكها عن الزوال ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ، ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها حتى كان منها الدواء والغذاء « بل الرجال والنساء » ، ومن هيأها مسكنا ومستقراً للأنام ، ومن جعلها ذلولاً غير مستصعبة ولا ممتنعة ، ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها ، وأخرج ثمارها ، ومن صدعها عن النبات وأودع فيها جميع الأقوات ومن بسطها وفرشها ومهدها ، وذللها وطحاها ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ، ومن الذى يمسكها أن تتزلزل فيسقط ما عليها من دور وقصور ، أو يخسفها بمن عليها فإذا هى تمور .

ومن الذى أنشأ منها النوع الإنسانى الذى هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ونوحا ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، ومحمداً — صلى الله عليه وسلم — عليهم أجمعين ، وأنشأ

منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين ، ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق والمعادن والحيوان ، ومن جعل بينها وبين الشمس هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت فى القرب لاشتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أبدان الحيوان والنبات . وبالجملة كانت تفوت هذه الحكمة التى بها انتظام العالم :

فإن شئت بعد ذلك فانظر إلى تلك البذرة الصغيرة كبذرة التوت مثلًا كيف توضع فى الأرض فتخرج منها شجرة ذات فروع وأغصان تظلل العدد العديد من الناس .

فبالأرض من آية تكفى وحدها برهانا ساطعا ودليلًا قاطعا على وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله ! ولا بأس أن نلفت نظرك إلى وجود هذه العناصر المختلفة المتعددة وما أودع فيها من الخصائص والمنافع إلى آخر ما لا يمكننا الإفاضة فيه ، ولا الوصول إلى خوافيه :

وصلنا من تفسير سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) إلى قوله تعالى : (ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) : يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت نظر عباده إلى أنفسهم وما فيها من العجائب والغرائب ، فقال :

(ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) : أى خلقها مستوية فى أحسن صورة من الصور فى ظاهرها وباطنها . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » :

وفى صحيح مسلم : « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء . فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » .

وعلى كل حال فأقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، فينبغى أن يتفكر فيها ، وكيف خلق من قطرة ماء مهين فصار إنسانا عاقلًا يتيه على المخلوقات . وحقًّا إذا تفكر الإنسان فى نفسه استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل فإنه إذا نظر فى نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدات لمدبِّره دالة عليه مرشدة إليه ، إذ يجده مكونا من قطرة ماء مهين صارت لحوما منضدة ، وعظاما مركبة ، وأوصالًا متعددة ، مأسورة مشدودة بحبال العروق ، والأعصاب قد شدت وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلًا : على ما يقول الكثير من علماء التشريح الأولين ، ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ومستقيم ومنحن ، وقد شدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، لأجل مختلف الصنائع التى تراد منها .

وجعل فيه تسعة أبواب ، فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات التى يؤدى احتباسها إلى الأضرار البليغة ، وجعل داخل أبابى

السمع ممرًّا قاتلًا للحشرات لئلا يلج فيها دابة تخلص إلى الدماغ فتؤذيه ، وجعل داخل بابي البصر مالحا لئلًّا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم ، وجعل داخل باب الطعام والشراب مهيأً لإساغة ما يأكله وما يشربه . جعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء ، مركبين فى أعلى مكان منه ، وفى أشرف عضو من أعضائه طليعة له ، وركب هذا النور فى جزء صغير جدًّا يبصر به السماء والأرض وما بينهما ، وجعل العين مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فوق بعض ، حماية له وصيانة وحراسة ، وجعل عليها غلقا بمصراعين أعلى وأسفل ، وركب فى ذيل المصراعين أهدابا من الشعر وقاية للعين وزينة وجمالًا .

وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر يحفظان العين من العرق النازل ، ويتلقيان عنهما ما ينصب من هناك . وجعل سبحانه لكل طبقة من العين وظيفة مخصوصة ، ولكل واحد من الرطوبات مقدارًا مخصوصاً لو زاد على ذلك أو نقص عنه لاختلت المنافع وضاعت المصالح المطلوبة .

وجعل هذا النور الباصر فى قدر عدسة ، ثم أظهر فى تلك العدسة صورة السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والعالم العلوى والسفلى مع اتساع أطرافه وتباعد أقطاره . واقتضت حكمته أن جعل فيها سبحانه بياضاً وسوادًا ، وجعل القوة الباصرة فى السواد ؛ وجعل البياض مستقرًا لها ومسكناً ، وزين كلا منهما بالآخر ، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب ، وجعلها سودًا ، إذ لو كانت بيضاً

لتفرق النور الباصر فضعف الإدراك فإن السواد يجمع البصر ويمنع من تفرق النور ، وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة التى إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه الأجفان متحركة بغاية السهولة فى الانطباق والانفتاح بلا تكالف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات . ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً لانزال نراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات .

وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه فيوصلانه إليه جعلهما مرآتين للقلب يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض والخير والشر والبلادة والفطنة والزيغ والاستقامة ، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة . فالعين مرآة للقلب وطليعة ورسول . ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء وأبعدها تأثرًا بالحر والبرد . وليس ذلك بسبب الغطاء الذى عليها من الأجفان ، فإنها ولو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك مع أنها من الأعضاء اللطيفة .

هذا بعض ما ذكره علماؤنا الأقدمون ، وللأطباء العصريين ماهو أعجب وأغرب . ولعلك اطلعت على بعض ما اكتشفوه من أسرار الغدد التى كانت مجهولة . وقد قال بعض فلاسفة الأوربيين : يكفينى هدب العين فى الدلالة على الله . إلى آخر كلامهم فى هذا .

* * *

قال الله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) :

ذكرنا لك بعض ما اشتملت عليه خلقة الإنسان من الحكم العالية والأسرار السامية ، والأمر أكبر من أن نأتى على تفصيله . وعلى كل حال فمن نظر إلى وظائف الأعضاء كالكبد والمعدة والأمعاء والرئتين ، ثم تهيئة السبيلين ، وما أودعه الله العينين والأذنين واليدين والرجلين إلخ ، أخذ منه الدهش كل مأخذ وامتلأ قلبه بعظمة الله تعالى وعظيم حكمته ، ومختلف نعمته ، فنطق لسانه قائلا : سبحانك لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

وقد رأيت أن أذكر لك فى هذا المقال بعض مافى الفم واللسان والريق والأسنان من اللطائف التى من علينا بها اللطيف الخبير ، فنقول :

جعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة والريق يتحلل إليه دائماً لا يفارقه ، وجعله حلواً لا مالحاً كماء العين ، ولا مُرًّا كالذى فى الأذن ، ولا عفناً كالذى فى الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها ، حكمة بالغة ، فإن الطعام والشراب يخالطه ، بل هو الذى يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء فلولا أنه حلو لما التذ إنسان بل ولا حيوان بطعام ولا شراب ، ولا ساغه إلا على كره وتنغيص . ولما كان كثير من الطعام لايمكن إحالته إلا بعد طبخه ، جعل الرب – تعالى – آلة للتقطيع والتفصيل ، وآلة للطحن فجعل آلة القطع وهى الثنايا وما يليها حادة الرءوس ليسهل بها القطع ، وجعل النواجذ وما يليها من الأضراس

مسطحة الرءوس عريضة ليتأتى بها الطحن ، وجعلها فى أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم ، وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ليتأتى بها القطع والطحن ، وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر إذ ربما كلت إحدى الآلتين أو تعطلت أو عرض لها عرض فينتقل إلى الآلة الأخرى .

وأيضاً لو كان العمل على جانب واحد دائماً أوشك أن يتعطل ويضعف وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم وتخرج من خلاله نابتة كما ينبت الزرع فى الأرض ولم يكسها سبحانه لحماً كسائر العظام سواها إذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة. ولما كانت العظام محتاجة إلى لحم يكسوها ويحفظها ، ويتلقى عنها الحر والبرد ، ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة الحيوان إلا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الإنسان محتاجة إلى ذلك من وجه مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها ، وجعلت هى المكتسية العارية لتمام المنفعة بذلك ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته كسائر عظامه لعدم حاجته إليها ، خلاعنها وقت استغنائه عنها بالرضاع وأعطيها وقت حاجته إليها .وفيه حكمة أخرى وهى أنه لو نشأ معه من حين يولد لأضرت بحلمة الثدى ، إذ لا عقل له يمنعه عن عضها فكانت الأم تمتنع عن رضاعه .

ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالاة التى بينها وبين المعدة فإنه يسلم إليها الشىء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه إلى اللسان فيعجنه ، ثم يسلمه إلى الحلق فيوصله إلى المعدة فتنضجه وتطبخه ، ثم ترسله المعدة إلى الأمعاء ليتم هضمه فيها ، وتميز هناك الخبيث المؤذى من الطيب النافع فترسله إلى الكبد فيفرز الصفراء ثم يرسله إلى القلب . وبعد

عملية الأذين والبطين وملاقاة الهواء فى الرئتين يرسل إلى الأبهر[١] ، ثم يتفرع منه إلى جميع أنحاء البدن فيعطى كل عضو ما يناسبه والمقدار الذى يليق به ، فسبحان الحكيم العليم .

ومن المعلوم أن الإنسان إذا عجز من قطع شىء وطحنه عجزت المعدة عن إنضاجه وطبخه ، فإذا كلت الأسنان كلت المعدة ، إذا ضعفت ضعفت ، إلى آخر ما يطول القول فيه ، ولا يمكننا أن نصل إلى خوافيه . وإن شئت فانظر فى أهون شىء عليك وأيسره لديك ، وهو الشعر ، وكيف خلا منه جسد المرأة التى تحسن بها الرقة والنعومة ، بخلاف الرجل .

ولنلفت نظرك إلى شعر الرأس وما فيه من الحكم والمنافع . فمنها وقايته عن الحر والبرد وما عسى أن يكون عند الاصطدام ، فضلاً عما فيه من الحسن . أما السبب الذى صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن فهو أن البخار من شأنه أن يصعد من جميع البدن إلى الدماغ . وكان هذا الشعر نامياً على الدوام لأن البخار يتصاعد إلى الرأس أبداً وهو مادة الشعر ، فكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد ، وزيادة لوقايته وغطائه .

وأما شعر الحاجبين ففيه مع الحسن والزينة والجمال وقاية العين مما ينحدر من الرأس وجعل هذا المقدار ، فلو نقص عنه لزالت منفعة الجمال والوقاية ، ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائماً منتصباً ، وأن يكون باقياً على عدد واحد فى مقدار واحد ، جعل منبت الشعر فى جرم صلب

(١) هو الأورطى .

شبيه بالغضروف يمتد فى طول الجفن لئلا يطول وينمو ، وهكذا كما نشاهد النبات الذى ينبت فى الأرض الرخوة اللينة كيف يطول ويزداد ، والذى ينبت فى الأرض الصخرية لا ينمو إلا نمواً يسيراً ، فكذلك الشعر النابت فى الأعضاء اللينة الرطبة فإنه سريع النمو كشعر الرأس .

وأما شعر اللحية ففيه منافع ، منها الزينة والوقار والهيبة ولهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوى اللحى من الرجال .

ثم انظر كيف هيأ المرأة لما يراد منها فخلقها قابلة للتلقيح والحبل والولادة وتربية الطفل بلبن ثدييها وشدة عطفها ، كما هيأ الرجل لما يراد منه . وقد قلنا إن بعض فلاسفة الأوربيين قال : «يكفينى فى الدلالة على الله وجود المرأة بجانب الرجل لبقاء النوع واستمرار وجوده» .

هذا بعض ما قاله العلماء .

ولنختم كلمتنا هذه بقول الله تعالى : (يَٰأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ)[١] .

* * *

قال الله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) . . . إلخ : ترى وقد طال بك العهد أن نذكر لك ملخصاً بسيطاً عن هذه الآية التى سمعت بعض ما قيل فيها قبل تلك الفترة فنقول : يصح أن نحمل

(١) سورة الانفطار ، الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

النفس فى الآية الشريفة على الجسد ، ويكون المراد بتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح ، وجعل كل عضو ذا وظيفة خاصة كما بينه علم الفزيولوجيا .

وإن حملناها على الروح المدبِّرة ، فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة ، كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكرة ، إلى آخر ما قرره علماء النفس . هذا ويصح أن يراد بالنفس نفس خاصة من بين النفوس وهى النفس المحمدية .

وقد قرروا أن كل كثرة لا بد فيها من واحد يكون هو الرئيس . فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان ، والحيوان جنس تحته أنواع ورئيسها الإنسان والإنسان أصناف ورئيس النوع كله النبى صلى الله عليه وسلم . وقد كان الأنبياء كثيرين ، فلا بد أن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق . فقوله : (ونَفْسٍ) إشارة إلى تلك النفس التى هى رئيسة العالم المركبات .

ويصح أن يراد كل نفس ، فإن النفوس كلها ذات عجائب وغرائب ، ولذلك يقول الله فى الآية الأخرى : (وفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[١] ، فتكون الآية شاملة لجميع النفوس كما فى قوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ)[٢] وذلك لأن الحيوان أنواع لا يحصى عددها إلا الله ، كما قال بعد ذكر بعض الحيوانات : (ويخْلُقُ ما لَا تَعْلَمُونَ)[٣] . ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرها بالفصل المقوم لماهيته والخواص اللازمة لذلك الفصل .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٢١

(٢) سورة التكوير ، الآية ١٤ (٣) سورة النحل ، الآية ٨

ومن الذى يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض فضلًا عن التوغل فى بحار أسرار الله سبحانه .

أما قوله تعالى : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا) فللسلف فيه عبارات متقاربة يرجع غالبها إلى أنه ألهم المؤمن المتقى تقواه وألهم الكافر فجوره بخلقهما مستعدين لذلك . قال سعيد بن جبير : ألزمها فجورها وتقواها . وقال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه إياها بالفجور . واختار الزجاج والواحدى ذلك .

والإلهام هو أن يوقع الله فى قلب العبد شيئا . وأصل معنى الإلهام من قولهم : لهم الشىء والتهمه إذا ابتلعه . وقد استعمل ذلك فيما يقذفه الله تعالى فى قلب العبد لما بينهما من المشابهة . وقال ابن زيد : إن الله تعالى خلق فى المؤمن تقواه وفى الكافر فجوره .

وقد ذكرت هذه الآيات للدلالة على أن الله تعالى مدبِّر للأجسام العلوية والسفلية البسيطة والمركبة وللنفوس الإنسانية على ما هو الظاهر (وإلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)[١] .

هذا وقد بقى شىء واحد يختلج فى القلب : أنه هل هو بقضائه وقدره ، وكيف يكون ذلك مع سؤاله عنه وتعذيبه عليه ، وهو الأفعال الإنسانية الاختيارية ؟ فنبه سبحانه بقوله : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورها وتَقْوَاها) على ذلك أيضا ، وأنه منه وبه ، وأن كل شىء بقضائه وقدره ، وقد ثبت بالأدلة المعقولة والمنقولة أن كل شىء واقع بقضائه

(١) سورة هود ، الآية ١٢٣

وقدره ، وداخل تحت إيجاده وتصرفه . أما مذهب المعتزلة فهو أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة خلقها الله فيه ، وهو مذهب مردود بالبراهين المذكورة فى كتب الكلام . وأما قولهم : لو كانت أفعال العبد بخلق الله لما عذبه عليها فهو اعتراض على الله تعالى ، وهو الذى (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[1] . وكل شىء قضاه فهو لحكمة يعلمها هو ، وإن لم نطلع عليها :

حكم حارت البرية فيها ... وجدير بأنها تختار

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

هذا ، وبعضهم يقول : إن إرادتك صالحة للأمرين ، فأنت مسئول عن توجيهها لأحدهما بخصوصه إلى آخر ما قالوه . ولنا رسالة فى تفسير قوله تعالى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) بغير ما قاله المفسرون يحسن الاطلاع عليها . وما أحسن قول القائل :

دع الاعتراض فما الأمر لك ... ولا الحكم فى دوران الفلك
ولا تسأل الله عن فعله ... فمن خاض لجة بحر هلك

(مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ . وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)[2] .

* * *

قال الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) :

تقدم الكلام على النفس وإنه يصح أن يراد بها كل نفس ويصح أن يراد بها نفس آدم عليه السلام . والمعنى : لقد أفلح من زكاها :

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٣
(٢) سورة الكهف ، الآية ١٧

أى فازت وسعدت نفس زكاها الله ، أى أصلحها وطهرها من الذنوب ، ووفقها للطاعة . (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) : أى خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى وأفسدها . وأصله من دس الشىء إذا أخفاه ، وهو جواب القسم على ما هو الظاهر . فكأنه سبحانه وتعالى أقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره وزكاه ، وخسارة من خذله وأضله .

عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول : « اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

فاطلب التقوى من الله فى كل وقت ، فإن الله تعالى قد ندبك إليها فقال تعالى : (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1] . وقال تعالى : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)[2] . وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : « إنى ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » .

فإن أردت التوبة فينبغى لك ألا تخلو من التفكر طول عمرك ، فتفكر فيما صنعت فى نهارك ، فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها ، وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك واستغفر الله وتب إليه فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك ، ولا توبخها وأنت ضاحك فرح ، بل وبخها وأنت جاد صادق مظهر للعبوسة ،

(١) سورة النور ، الآية ٣١
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٢

حزين القلب منكسر ذليل فإن فعلت ذلك أبدلك الله بالحزن فرحًا ، وبالذل عزًا ، وبالظلمة نورًا ، وبالحجاب كشفًا .

وعن الشيخ مكين الدين الأسمر ، رحمه الله تعالى ، وكان من السبعة الأبدال قال : كنت فى ابتداء أمرى أخيط وأتقوت من ذلك ، وكنت أعد كلامى بالنهار فإذا جاء المساء حاسبت نفسى فأجد كلامى قليلًا ، فما وجدت فيه من خير حمدت الله وشكرته عليه وما وجدت فيه من غير ذلك تبت إلى الله واستغفرته . إلى أن صار بدلًا ، رضى الله عنه . واعلم أنه إذا كان لك وكيل يحاسب نفسه ويحاققها فأنت لا تحاسبه لمحاسبته نفسه ، وإن كان غير محاقق لنفسه فأنت تحاسبه وتبالغ فى محاسبته . فينبغى أن يكون عملك كلّه لله تعالى . ولا تظن أنك تفعل فعلًا والله تعالى لا يحاسبك ولا يحاققك عليه .

واعلم أنه إذا وقع من العبد ذنب وقع معه ظلمة ، فمثال المعصية كالنار ، والظلمة ، دخانها كمن أوقد فى بيت خمسين سنة ألا تراه يسود ؟ فكذلك القلب يسود بالمعصية ولا يطهر إلا بالتوبة إلى الله . فإذا تبت إلى الله زالت آثار الذنوب . ولا يدخل عليك الإهمال إلا بإهمالك متابعة النبى — صلى الله عليه وسلم — .

ولا تحصل لك الرفعة عند الله تعالى إلا بمتابعة النبى — صلى الله عليه وسلم — . والمتابعة له عليه الصلاة والسلام على قسمين : جلية وخفية ، فالجلية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وغير ذلك ، والخفية أن تصل إلى الجمع — فى صلاتك — على الله تعالى ، والتدبر فى قراءتك

وحضور قلبك وصفاء ذهنك . فإذا فعلت الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جمعًا ولا تدبرًا فاعلم أن بك مرضًا باطنًا من كبر أو عجب أو غير ذلك . قال الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [1] فيكون مثالك كالمحموم الذى يجد فى فمه السكر مرًا .

واعلم أن المعصية مع الذل والافتقار خير من الطاعة مع العز والاستكبار . قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [2] ومفهوم هذا أن من لم يتبعه فليس منه . وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ [3] فأجابه سبحانه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [4] . فالمتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبيًا كسلمان الفارسى — رضى الله عنه — لقوله صلى الله عليه وسلم : « سَلْمَان مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ » ومعلوم أن سلمان من أهل فارس.

ولكن بالمتابعة قال عنه صلى الله عليه وسلم ما قال تعليمًا وإرشادًا لمزية المحبة والمتابعة . وكما أن المتابعة تثبت الاتصال ، كذلك عدمها يثبت الانفصال . وقد جمع الله الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه متابعة النبى — صلى الله عليه وسلم — . فتابعه بالقناعة بما رزقك الله تعالى ، والزهد المتابعة فذلك دليل على محبة الله له .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦
(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٦
(٣) سورة هود ، الآية ٤٥
(٤) سورة هود ، الآية ٤٦

قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)[1] . وإذا طلبت الخير كله فقل : اللهم إنى أسألك المتابعة لرسولك صلى الله عليه وسلم فى الأقوال والأفعال والنيات . ومن أراد ذلك فعليه بعدم الظلم لعباد الله فى أعراضهم وأنسابهم .

نسأل الله أن يوفقنا لما يرضيه ، ويرزقنا متابعة نبيه صلى الله عليه وسلم بمنه وكرمه .

* * *

قال الله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا . فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) : الأظهر أنه كلام مستأنف جىء به لبيان أنه من دس نفسه لقى الوبال والخسران كما كان لثمود وأمثالهم . وقيل إنه جواب القسم ، أو كلام سيق للدلالة على جواب القسم ، فكأنه قيل : وحق هذه المذكورات وتلك الآيات البينات لينتقمن الله ممن كذبوك ولم يؤمنوا برسالتك ، فإن ذلك شأنه مع أعداء رسله .

وإن شئت قلت : ليدمدمنَّ الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحًا عليه السلام ، وأما حذف اللام من جواب القسم فهو كثير ، لا سيما مع الطول كما هنا .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣١

هذا ، والطغوى مصدر من الطغيان بمعنى تجاوز الحد فى العصيان ، وقد فرقوا بين الاسم والصفة فى فعلى من بنات الياء فقلبوا الياء واوًا فى الاسم وتركوا القلب فى الصفة فقالوا فى الصفة امرأة صديا وخزيا ، وفى الاسم تقوى وطغوى . ومنهم من قال : إن طغى واوى ويائى فيقال طغوت وطغيت طغوانًا وطغيانًا . والباء للسببية أى فعلت التكذيب بسبب طغيانها على الله تعالى . ويصح أن يراد بالطغوى العذاب الذى جاوز الحد ، فتكون الباء للتعدية كما فى قوله تعالى : (فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)[1] .

(إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا) : متعلق بكذبت أو بطغوى . وانبعث مطاوع بعثه بمعنى أرسله ، والمراد إذ ذهب لعقر الناقة (أَشْقَاهَا) : أى أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف [وقدار بوزن غلام] أو هو ومن تصدى معه لعقرها من الأشقياء ، وهما اثنان على ما قال الفراء ، أو أكثر على ما قال غيره . وأفعل التفضيل إذا أضيفت إلى معرفة يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث . وقد جعلوا أشقى قبيلة ثمود لمباشرتهم العقر مع إشراك الكل فى الرضا به مع ما يعلمه الله فيهم من بقية الخبائث .

(فَقَالَ لَهُمْ) أى لثمود أو لأولئك الأشقياء بناء على أنهم جمع . (رَسُولُ اللَّهِ) هو صالح عليه السلام ، وعبر عنه بعنوان الرسالة إيذانا بوجوب طاعته وبيانًا لغالية عتوهم وتماديهم فى الطغيان ، وهو السر فى

---

(١) سورة الحاقة ، الآية ٥

إضافة الناقة إليه تعالى فى قوله . (نَاقَةَ اللهِ) وهو منصوب على التحذير بفعل محذوف وجوباً كما قال ابن مالك :

إياك والشر ونحوه نصب محذر بما استتاره وجب

والكلام على حذف مضاف أى احذروا عقر ناقة الله . والمعنى على ذلك وان لم يقدر فى نظم الكلام .

(وَسُقْيَاهَا) أى واحذروا سقياها فلا تتعرضوا بمنعها عنها .

(فَكَذَّبُوهُ) أى فى وعيده إياهم كما قال تعالى (وَلَاتَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(١) .والمراد أنهم كذبوه فى خبر حلول العذاب بهم إن فعلوا ما حذرهم منه (فَعَقَرُوهَا) أى فنحروها أو فقتلوها ، وضمير الجمع للأشقى ، وجمعه على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله .

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ) : أى فأطبق عليهم العذاب . وقال فى القاموس معناه أتم العذاب عليهم : وإن شئت قلت كما قال بعضهم : الدمدمة إهلاك باستئصال (بِذَنْبِهِمْ) بسبب ذنبهم المحكى . والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإيذان بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب

(فَسَوَّاهَا) الضمير للدمدمة المفهومة من دمدم ، أى فجعل الدمدمة سواء بينهم فلم ينج منهم أحد . ولك أن تقول إنه عائد على ثمود والتأنيث باعتبار القبيلة كما فى طغواها وأشقاها ، والمعنى أنه سواها بالأرض .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٧٣

(وَلَايَخَافُ) أى الرب عز وجل (عُقْبَاهَا) أى عاقبتها وتبعتها كما يخاف الإنسان عاقبة مايفعله وتبعته ؛ وهو عبارة عن إهانتهم وأنهم أذلاء عند الله تعالى . والواو للحال أو للاستئناف .

هذا ، وثمود قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام . وسميت باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح . وقال عمرو بن العلاء : إنما سموا بذلك لقلة مائهم ، فهو من ثمد الماء إذا قل . والثمد الماء القليل

هذا ويجوز فى ثمود الصرف وعدمه باعتبار الحى أو القبيلة . والله أعلم .

تفسير سورة الانشراح (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) :

يريد سبحانه وتعالى أن يذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– بنعمه عليه ، وفى هذه السورة وما قبلها كبريات النعم وأصولها ، ولا تنس الآيات الأخرى التى أثنى الله فيها على نبيه –صلى الله عليه وسلم– منوها بما أعطاه من الآيات الكبيرة ، والفضائل الغزيرة ، مثل قوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(٢) وناهيك بشئ يعظمه الله تعالى ، ومثل قوله تعالى : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)(٣) وقوله : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)(٤) ، وقوله : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)(٥) ، ومخاطبته له بالرسول نحو : (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ)(٦). على حين أنه ينادى الأنبياء بأسمائهم ، نحو :

(١) مجلة الأزهر – الجزء الرابع – المجلد الرابع عشر – ربيع الآخر – سنة ١٣٦٢
(٢) سورة القلم ، الآية ٤
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩
(٤) سورة النور ، الآية ٦٣
(٥) سورة الحجرات ، الآية ٢
(٦) سورة المائدة ، الآية ٦٧

(يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ)(١) ، (يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)(٢) ، (يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)(٣) إلى غير ذلك وهو كثير .

ومما جاء فى ذلك وهو من أبلغها ، إقسام الله بحياته –صلى الله عليه وسلم– حيث يقول :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)(٤) إلى ما لا يكاد يحصى ، (يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً ، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)(٥) – وفى هذه السورة أنه رفع له ذكره . وفى الحديث « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع » الخ

أسأل الله أن يجعلنا ن عارفيه وأول محبيه بمنه وكرمه .

ولنرجع إلى التفسير فنقول : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) هذا الاستفهام إنكارى أو تقريرى ، وهو يتضمن إثبات الشرح ، والإنكار على من ينفيه ، وكأنه قيل : قد شرحنا لك صدرك ، ولذلك عطف عليه بطريق الإثبات قوله : (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ) الخ . والمعنى أننا وسعناه بما أودعنا فيه من العلوم والحكم حتى وسع شئون النبوة والرسالة وما يلزم لذلك من دعوة العالم للدين الحق فأزلنا عنه الضيق والحرج وعن الحسن : ملأناه حكمة وعلما .

(١) سورة ص ، الآية ٢٦
(٢) سورة مريم ، الآية ١٢
(٢) سورة مريم ، الآية ٧
(٤) سورة الحجر ، الآية ٧٢
(٥) سورة الاحزاب ، الآية ٤٦

أما قوله : (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ) فمعناه أننا خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بواجبها .

ومما يحسن أن ننبه عليه أن الأنبياء قد يعاتبون على ترك الأفضل وإن أتوا بالفاضل . وهذا فى الحقيقة نوع من التعليم والإرشاد . ووضع الوزر عنه غفره له أو حمايته من ارتكابه أو تخفيف ما كان يشق عليه -صلى الله عليه وسلم- من دعوة المشركين وتصلب المعاندين . والوزر فى اللغة : الحمل الثقيل .

أما قوله تعالى : (الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) فمعناه أثقل الظهر حتى سمع منه صوت الانتقاض .وأما رفع ذكره فمما لا يأتى عليه البيان. وانظر إن شئت إلى الأذان الذى قرن فيه اسمه باسم الله تعالى ، وكذلك فى الإقامة ، وعند إرادة الدخول فى الإسلام .

وانظر إلى القرآن فى ذلك حيث يقول : (أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)[١] ، (وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ)[٢] ، (وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)[٣] (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)[٤] الخ الخ . وفى الآخرة آدم فمن دونه تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، وكل نبى يقول يومئذ : نفسى نفسى عند ما يطلب للشفاعة ، أما هو فيقول أنا لها أنا لها .

(١) سورة النور ، الآية ٥٤
(٢) سورة النساء ،الآية ٦٩
(٣) سورة التوبة ، الآية٦٢
(٤) سورة النساء ،الآية ٨٠

أما قوله :(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) فمعناه إن مع الشدة التى أنت فيها من مقاساة إبلاء المشركين إظهارك عليهم . وقيل كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر ، فقيل له خولناك ما خولناك وسنتم نعمتنا عليك وعلى من معك .

وجئ بلفظة (مَعَ) للتنبيه على شدة قربه : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[١] .

وقد قال صلى الله عليه وسلم عندما نزلت : لَنْ يَغْلِبَ عسْرٌ يُسْرَين. ومعنى ذلك إنّ العسر معرفة وليس نكرة ، ومن القواعد إن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عينًا ، والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت كانت غيرا .

ثم قال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ،وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) أى إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد فى عبادة الرب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد فى الدعاء . وتقديم الجار والمجرور يفيد أن الرغبة لا تكون إلا فيما عند الله عز وجل ، وأن القلب لا ينبغى أن يكون مشغولا إلا به ولا معولا إلا عليه . وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

(١) سورة النحل ، الآية ٤٠

تفسير سورة الزلزلة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا ، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ، يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

هذه السورة مكية على الأصح . وقد جاء عن ابن عباس عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن « إذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن » أخرجه الترمذى .

والمراد أن الأرض تتحرك حركة شديدة ، وذلك عند قيام الساعة حتى ينكسر كل ما عليها من شدة الزلزلة ولا تسكن حتى تلقى ما على ظهرها من جبل وشجر وبناء .

وفى وقت هذه الزلزلة قولان : أحدهما وهو قول الأكثرين أنها فى الدنيا ، وهى من أشراط الساعة وهى التى يموت فيها جميع الخلائق . والثانى أنها زلزلة يوم القيامة .

وقوله تعالى : (وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) اختلف فيه : فمن قال إن الزلزلة تكون فى الدنيا قال : أثقالها كنوزها وما فى بطنها من الدفائن والأموال فتلقيها على ظهرها . ويدل على هذا ما روى عن

(١) مجلة الأزهر – الجزء الخامس – المجلد الرابع عشر – جمادى الأولى – سنة ١٣٦٢

أبى هريرة -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قتلت ، ويجىء القاطع فيقول فى هذا قطعت رحمى ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قطعت يدى ، ثم يدعونه فلا يأخذون شيئا » . أخرجه مسلم . وأفلاذ الكبد جمع فلذة ، شبه ما يخرج من باطنها بقطع الكبد واستعار القىء للإخراج ومن قال إن الزلزلة تكون يوم القيامة قال : أثقالها الموتى ، فتخرجهم إلى ظهرها.

(وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا) أى مالها تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة ولفظت ما فى بطنها ؟ وفى الإنسان وجهان : أحدهما أنه اسم جنس يعم المسلم والكافر ، وهذا على رأى من جعل الزلزلة من أشراط الساعة فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك ، والثانى أنه الكافر خاصة لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها والكافر جاحد لها فإذا وقعت سأل عنها .

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) فيقول الإنسان مالها . والمعنى أن الأرض تحدث بكل ما عمل على ظهرها من خير أو شر ، فتشكو العاصى وتشهد عليه ، وتشكر الطائع وتشهد له . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) . فقال : أتدرون ما أخبارها؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) أى أمرها بالكلام ، وأذن لها أن تخبر بكل ماعمل عليها . قال ابن عباس : أوحى إليها ، قيل إن الله تعالى يخلق فى الأرض الحياة والعقل والنطق حتى تخبر بكل ماعمله الإنسان .

قوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ) أى عن موقف الحساب بعد العرض (أَشْتَاتًا) أى متفرقين فآخذ ذات اليمين إلى الجنة وآخذ ذات الشمال إلى النار (لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) قال ابن عباس ليروا جزاء أعمالهم . وقيل معناه ليروا صحائف أعمالهم التى فيها الخير والشر فيعرفوا مايستحقونه من الثواب والعقاب .

أما قوله تعالى (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) أى وزن نملة صغيرة (خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) قال ابن عباس : ليس مؤمن ولاكافر عمل خيرا أو شرا فى الدنيا إلا أراه الله إياه يوم القيامة . وقال محمد بن كعب القرظى : (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) من كافر يرى ثوابه فى الدنيا فى نفسه وولده وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير ، (وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) من مؤمن يرى عقوبته فى الدنيا فى نفسه وولده وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر .

وقيل نزلت هذه الآية فى رجلين ، وذلك أنه لما نزلت (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)(١) وكان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يطعمه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك ويقول

(١) سورة الإنسان ، الآية ٨

هذا ليس بشىء يؤجر عليه إنما يؤجر على مانعطيه ونحن نحبه ، وكان الآخر يتهاون فى الذنب الصغير مثل الكذبة والنظرة وأشباه ذلك ويقول : إنما وعد الله النار على الكبائر ، وليس فى هذا إثم ، فأنزل الله هذه الآية يرغبهم فى القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكثر ، ويحذرهم من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر ، ويبين لهم أن الذنب الصغير يكون فى عين صاحبه مثل الجبل العظيم يوم القيامة .

قال ابن مسعود : أحكم آية فى القرآن (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية الجامعة الفاذة (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . وقد تصدق عمر بن الخطاب وعائشة كل واحد منهما بحبة عنب وقالا فيها مثاقيل كثيرة . قلت إنما كان غرضهما تعليم الغير وإلا فهما من كرماء الصحابة رضى الله عنهم . وقال الربيع بن خيثم : مر رجل بالحسن وهو يقرأ السورة فلما بلغ آخرها قال : حسبى قد انتهت الموعظة . وقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : لو لم ينزل على الناس إلا سورة العصر لكفتهم ونحن نقول أيضا : لو لم ينزل على الناس إلا هذه الآية لكفتهم .

أسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا بمنه وكرمه .

تفسير سورة العاديات (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ، أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) .

أقسم الله تعالى بهذا القسم البديع على أن الانسان كفور غير شكور ، فقال : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً) أى الخيل التى تعدو فى الجهاد فتضبح ضبحا . فقوله (ضَبْحا) مفعول مطلق لفعل محذوف أو هو حال مؤول باسم الفاعل أى والعاديات ضابحة الخ . والضبح هو أصواتها عند عدوها. ومن بدائع القرآن ترغيب الناس فى الجهاد بتعظيم كل شىء يمت إليه بصلة حتى الخيل التى تستعمل فيه . وإذا كانت تلك المنزلة من التعظيم للخيل فما بالك بفضل المجاهدين .

ولاعجب فقد قارنا بين طريق القرآن فى البرهنة وطريق العلماء فى أدلة التوحيد ، وذكرنا مابينهما من الفرق ، فالقرآن يعمد إلى ماهو المعروف المحسوس بطريقة تأخذ بالقلوب فيقول مثلا (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) (٢) ويقول : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ

(١) مجلة الأزهر الجزء السادس — المجلد الرابع عشر — جمادى الآخرة — سنة ١٣٦٢

(٢) سورة الغاشية ، الآية ١٧ — ٢٠

غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » (١) . ويقول فى الاستدلال على البعث حين قال المنكر : (مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ : قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) (٢) على حين أن العلماء يسلكون فى أمثال ذلك تلك الطرق المتوعرة التى لاتخفى عليك . وقد قال ابن سينا فى برهان البعث الذى ذكره القرآن : كنت أشتهى أن يراه ارسطاطا ليس . أى ليعرف الفرق بين أدلة القرآن وأدلة الفلاسفة ، فسبحانه من حكيم عليم . اللهم إنا نسألك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزننا ، وذهاب همنا وغمنا ، وأن تجيرنا من الفتن المضلة ماظهر منها وما بطن ، بفضلك وكرمك ياأكرم الأكرمين .

ثم قال تعالى : (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) : الإيراء : إخراج النار ، والقدح: الصك . يقال قدح فأورى . أى فالتى تورى النار من حوافرها عند قدحها الأحجار فى جريها . وانتصاب قدحاً كانتصاب ضبحاً .

(فَالْمُغِيرَاتِ) : أسند الإغارة التى هى مباغتة العدو للنهب أو للقتل أو للأسر إلى الخيل لا إلى أهلها إيذاناً بأنها العمدة فى إغارتهم . (صُبْحاً) أى فى وقت الصبح ، وهو المعتاد فى الغارات ، فإنهم يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ويهجمون عليهم صباحاً ليروا مايأتون وما يذرون .

أما قوله تعالى : (فَأَثَرْنَ به) فهو عطف على اسم الفاعل المتقدم . وقد قال ابن مالك :

* واعطف على اسم شبه فعل فعلا *

(١) سورة الطور ، الآية ٣٥ (٢) سورة يس ، الآية ٧٨ — ٧٩

وإن شئت فقل عطف على الفعل الذى دل عليه اسم الفاعل ، إذ المعنى : واللاتى عدون فأورين فأغرن فأثرن ، أى فهيجن بذلك الوقت (نَقْعاً) أى غباراً . وتخصيص إثارته بالصبح لأنه لايثور أو لايظهر ثورانه بالليل . وقيل النقع : الصياح والجلبة ، وقرىء (فَأَثَّرْنَ) بالتشديد بمعنى فأظهرن به غباراً لأن التأثير فيه معنى الإظهار .

(فَوَسَطْنَ بِهِ) أى توسطن بذلك الوقت . ويصح أن يكون الضمير راجعاً للنقع ، أى توسطن ملتبسات بالنقع . (جَمْعاً) من جموع الأعداء . والفاءات للدلالة على ترتب مابعد كل منها على ماقبله ، فإن توسط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الإغارة المترتبة على الإيراء ، المترتب على العدو .

وقوله تعالى : (إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) أى لكفور، مأخوذ من كند النعمة كنوداً ، وهو جواب القسم . والمراد بالإنسان بعض أفراده ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى أناس من بنى كنانة سرية واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصارى وكان أحد النقباء فأبطأ عليه صلى الله عليه وسلم خبرها شهراً ، فقال المنافقون : إنهم قتلوا ، فنزلت السورة إخباراً للنبى صلى الله عليه وسلم بسلامتها ، وبشارة له بإغارتها ، ونعياً على المرجفين فى حقهم ماهم فيه من الكنود . ولك أن تقول : فيه إشارة إلى أن الإنسان كنود بطبعه مالم يهذبه الدين والعلم : (قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)(١) .

(١) سورة عبس ، الآية ١٧

هذا ، وفى تخصيص خيل الغزاة بالإقسام بها من البراعة مالا مزيد عليه ، كأنه قيل : وخيل الغزاة التى فعلت كذا وكذا وقد أرجف هؤلاء فى حق أربابها ماأرجفوا إنهم لمبالغون فى الكفران .

(وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ) أى وإن الإنسان على كنوده (لَشَهِيدٌ) يشهد على نفسه بالكنود بلسان حاله لظهور أثره عليه .

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ) أى المال ، كما فى قوله تعالى (إِنْ تَرَكَ خَيْراً) (١) (لَشَدِيدٌ) أى قوى مطيق مجد فى طلبه وتحصيله متهالك عليه . يقال : هو شديد لهذا الأمر وقوى له إذا كان مطيقاً له . وقيل الشديد البخيل ، أى إنه لأجل حب المال وثقل إنفاقه عليه لبخيل ممسك ، فاللام إذن للتعليل . ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكنود ، للإيماء إلى أن من جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق حب المال لأنهم بما يظهرون من النفاق يعصمون أموالهم ويحوزون من الغنائم نصيباً .

وقوله تعالى : (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ) الخ : تهديد ووعيد . والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى يتمادى فى جهله فلا يعلم حاله إذا بعثر من فى القبور من الموتى . وإيراد (ما) لكونهم إذ ذاك بمعزل عن رتبة العقلاء .

(وَحُصِّلَ) أى جمع محصلا ، أو ميز خيره من شره (مَا فِى الصُّدُورِ) من الأسرار الخفية التى من جملتها مايخفيه المنافقون من الكفر والمعاصى فضلا عن الأعمال الجلية .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٠

(إِنَّ رَبَّهُم) أى المبعوثين ، كنى عنهم بعد الإحياء الثانى بضمير العقلاء بعد ماعبر عنهم قبل ذلك (بما) التى لغير العقلاء بناءً على تفاوت مابين الحالين ، (بِهِمْ) بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها . (يَوْمَئِذٍ) يوم إذ يكون ماذكر من بعث مافى القبور وتحصيل مافى الصدور (لَخَبِيرٌ) أى عالم بظواهر ماعملوا وبواطنه علماً موجباً للجزاء الحق متصلا به ، كما ينبئ عنه تقييده بذلك اليوم ، وإلا فمطلق علمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون ، ولا اختصاص له بذلك اليوم ، وقوله تعالى : (بِهِمْ) و(يَوْمَئِذٍ) متعلقان بخبير قدما عليه لمراعاة الفواصل ، والله أعلم .

تفسير سورة القارعة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ . يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَالْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ . وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ٱلْمَنْفُوشِ . فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ) .

(ٱلْقَارِعَةُ) : أصل القرع الصوت الشديد ومنه قوارع الدهر أى شدائده . والقارعة من أسماء القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها وشدائدها ، وقيل سميت قارعة بصوت إسرافيل لأنه إذا نفخ فى الصور مات جميع الخلائق من شدة صوت نفخته .

أما قوله : (مَا ٱلْقَارِعَةُ) : فهو استفهام يراد به التهويل والتعظيم ، لأنها فاقت القوارع فى الهول والشدة . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ) : معناه لا علم لك بكنهها لأنها فى الشدة بحيث لا يبلغها فهم ولا يصل إليها وهم ، وكيفما قدرت أمرها فهى أعظم من ذلك .

(يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَالْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ) : الفراش هذا الحيوان الذى تراه يتهافت فى النار ، سميت بذلك لفرشها وانتشارها . وإنما شبه الخلق عند البعث بالفراش لأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة بل كل واحدة تذهب إلى غير جهة الأخرى فدل بهذا التشبيه

(١) مجلة الأزهر الجزء السابع – المجلد الرابع عشر ، – رجب سنة ١٣٦٢

على أن الخلق فى البعث يتفرقون فيذهب كل واحد إلى غير جهة الآخر . والمبثوث : المتفرق . وقد قال فى الآية الأخرى : « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ »[١] ، وإنما شبههم بذلك لكثرتهم وعدم توجههم إلى جهة واحدة لحيرتهم ومزيد دهشتهم .

(وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) : أى كالصوف المندوف ، وذلك لأنها تتفرق أجزاؤها فى ذلك اليوم حتى تصير كالصوف المتطاير عند الندف . وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال كأنه تعالى نبه على تأثير تلك القارعة فى الجبال العظيمة الصلدةالصلبة حتى تصير كالعهن المنفوش فكيف حال الإنسان الضعيف عند سماع صوت القارعة ؟

ثم لما ذكر حال القيامة قسم الخلق على قسمين فقال تعالى : (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) : يعنى رجحت موازين حسناته ويصح أن يكون جمع موزون فيكون المراد به العمل الذى له قدر وخطر عند الله تعالى ،وأن يكون جمع ميزان وهو الذى له لسان وكفتان توزن فيه الأعمال فيؤتى بالحسنة فى أحسن صورة فتوضع فى كفة الميزان فإن رجحت فله الجنة ، ويؤتى بالسيئات فى أقبح صورة فلا يكون لها وزن . هذا ، وقد قيل إنما توزن أعمال المؤمنين ، فمن ثقلت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن ثقلت سيئاته على حسناته دخل النار فيقتص منه على قدرها ثم يخرج منها فيدخل الجنة ، أو يعفو الله عنه بفضله وكرمه .

(٢) سورة القمر ، الآية ٧

وأما الكافرون فقد قال فى حقهم : (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)[١] وقال كثير من العلماء إن معنى الآية أننا لا نقيم لهم وزنًا نافعاً . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى دار الدنيا مع ثقله عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلًا وإنماخفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا .

أما قوله تعالى : (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) : أى مرضية فى الجنة فيكون اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، وقيل إنها بمعنى عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها ، فالمراد بها النسب « كلابن وتامر » .

(وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) : أى رجحت سيئاته على حسناته (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) : أى مسكنه النار ، سمى المسكن أمًّا ، لأن الأصل فى السكون الأمهات . وقيل معناه فأم رأسه هاوية فى النار ، والهاوية اسم من أسماء النار والمراد أنها مهواة لا يدرك قعرها فيهوون فيها على رءوسهم .

(وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ) : يعنى الهاوية ، يريد أنك لا تدرك كنهها وحقيقتها فهى فوق ما يقدر المقدرون ويتوهم المتوهمون . ثم فسرها فقال : (نَارٌ حَامِيَةٌ) : أى حارة قد انتهى حرها .

ويكفيك قول الله فى حقها : (نَارٌ حَامِيَةٌ) . نعوذ بالله وعظمته منها والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٥

تفسير سورة التكاثر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

قوله عز وجل : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) : أى شغلتكم المفاخرة والمباهاة والمكاثرة بكثرة المال والعدد والمناقب عن طاعة الله ربكم واشتغالكم بما ينجيكم من سخطه .

ومعلوم أن من اشتغل بشىء أعرض عن غيره ، فينبغى للمؤمن العاقل أن يكون سعيه وشغله فى تقديم الأهم وهو ما يقربه من ربه عز وجل ، فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأحسن المراتب ، والاشتغال به يمنع الإنسان من الاشتغال بتحصيل السعادة الأخروية التى هى سعادة الأبد .

ويدل على أن المكاثرة والمفاخرة بالمال مذمومة : ما روى عن مطرف ابن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) فقال : يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت ، أو أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ؟ . أخرجه الترمذى وقال

(١) الجزء الأول – المجلد الخامس عشر – المحرم سنة ١٣٦٣ مجلة الأزهر

حديث حسن . وأخرج البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه ماله (كالعبيد) وأهله ، وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .

(حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) : أى حتى متم ودفنتم فى المقابر ، فإنه يقال لمن مات : زار قبره وزار رمسه فيكون معنى الآية : ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت وأنتم على ذلك .

هذا ، وقد قيل إن هذه الآية نزلت فى اليهود ، قالوا نحن أكثر من بنى فلان وبنو فلان أكثر من بنى فلان ، فشغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً . وقيل نزلت فى حيين من قريش وهم بنو عبد مناف وبنو سهم ابن عمرو ، كان بينهم تفاخر فتعادوا القادة والأشراف ، فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً ، وأكثر عدداً ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثرهم بنو عبد مناف ، ثم قالوا : نعد موتانا وذوى الشرف منا ، فعدوا الموتى حتى زاروا القبور فعدوا من فيها ، فقالوا هذا قبر فلان وهذا قبر فلان ، فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا فى الجاهلية أكثر عدداً فأنزل الله هذه الآية ، وهذا أصح . وكأنه تعالى يعجبهم من أنفسهم ويقول : هبوا أنكم أكثر منهم عدداً فماذا ينفعكم ؟

ثم رد الله تعالى عليهم فقال (كلا) أى ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء بالتكاثر والتفاخر . وقيل المعنى : حقاً ، فإن (كلا) تستعمل

للردع والزجر ، وتستعمل أيضاً بمعنى حقاً ، وهى صالحة هنا للمعنيين .

(سَوْفَ تَعْلَمُونَ) وعيد لهم .

(ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) كرره تأكيدا . والمعنى سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت . فهو وعيد بعد وعيد .

(كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) أى علماً يقينيا . وجواب لو محذوف والمعنى لو تعلمون علما يقينياً لشغلكم ماتعلمون عن التكاثر والتفاخر .

(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) اللام تدل على أنه جواب قسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد وأن ما أوعدوا به لا يدخله شك ولا ريب . والمعنى لا بد أن تروا الجحيم بأبصاركم بعد الموت .

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا) يعنى مشاهدة بعد مشاهدة (عَيْنَ الْيَقِينِ) . وإنما كرر الرؤية لتوكيد الوعيد .

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) : يعنى أن كفار مكة كانوا فى الدنيا فى الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه لأنهم لم يشكروه حيث عبدوا غيره ، ثم يعذبون على ذلك .

وذلك أن الكفار لمّا ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله والاشتغال بشكره سألهم عن ذلك .

وقيل إن هذا السؤال يعم الكافر والمؤمن ، وهو الأولى لكن سؤال الكافر توبيخ وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه ، والمؤمن يسأل سؤال تشريف لأنه شكر ما أنعم الله به عليه وأطاع ربه . ويدل على ذلك ما روى عن الزبير قال : « لما نزلت (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ

عن النعيم) قال الزبير : يارسول الله وأى نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : أما أنه سيكون » أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن .

واختلفوا فى النعيم الذى يسأل العبد عنه ، فروى عن ابن مسعود رفعه قال : لتسألن يومئذ عن النعيم قال : الأمن والصحة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم فيقال له : ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد ؟ » أخرجه الترمذى .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فإذا هو بأبى بكر وعمر ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يارسول الله ، قال : وأنا ، والذى نفسى بيده لقد أخرجنى الذى أخرجكما فقوموا ، فقاموا معه ، فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلا . فقال لها — رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان — يريد أبا طلحة صاحب البيت قالت ذهب يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى . قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا ، وأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم شاة : فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : والذى نفسى بيده

لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم .

وأخرجه الترمذى بأطول من هذا ، وفيه : ظل بارد ورطب طيب وماءٌ بارد . وروى عن ابن عباس قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العبيد فيم استعملوها والله أعلم بذلك منهم . وقيل يسأل عن الصحة والفراغ والمال . وأخرج البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

وقيل الذى يسأل عنه العبد هو القدر الزائد على ما يحتاج إليه فإنه لابد لكل أحد من مطعم ومشرب وملبس ومسكن . وقيل يسأل عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ويسأل عن الإسلام فإنه أكبر النعم . وقيل عما أنعم به عليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنقذكم من الضلال إلى الهدى ، وأخرجكم من الظلمات الى النـــور وامتن به عليكم .

تفسير سورة الهمزة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَاالْحُطَمَةُ . نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ . فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) .

(وَيْلٌ) : مبتدأ خبره (لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) وساغ الابتداء به مع كونه نكرة لأنه دعاءٌ عليهم بالهلكة . والهمز الكسر ؛ واللمز الطعن . وقال مجاهد : الهمز باليد والعين ، واللمز باللسان . وقد شاعا فى الطعن فى أعراض الناس . وبناءُ فُعَلة يدل على أن ذلك عادة مستمرة قد ضرى بها وقرىء (لِّكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمْزَةٍ) بسكون الميم . وهو الذى يأتى بالأضاحيك .

قيل نزلت فى الأخنس بن شريق فإنه كان مشغوفاً بالغيبة والوقيعة . وقيل فى أمية بن خلف . وقيل فى الوليد بن المغيرة .

واختصاص السبب لايستدعى خصوص الوعيد بهم ، بل كل من اتصف بوصفهم القبيح فله ذنوب كبرى مثل ذنوبهم . (الَّذِى جَمَعَ مَالًا) نكر المال للتفخيم والتكثير كما يدل عليه قوله (وَعَدَّدَهُ) أى جمع بعضه على بعض وأحصى عدده ، وهو مثل قوله تعالى (وَجَمَعَ فَأَوْعَى (٢))

(١) مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر – الصفحة ٢٣٠ – سنة ١٣٦٣

(٢) سورة المعارج ، الآية ١٨

قال السدى وابن جرير : الهاه جمع ماله بالنهار ، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة .

(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) أى يعمل عمل من يظن أن جمعه المال يخلده فى هذه الدار .

أو نقول : طول المال أمله ومناه الأمانى البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن المال تركه خالداً فى الدنيا لايموت . وقد قيل إن هذا تعريض بالعمل الصالح والزهد فى الدنيا ، وأنه هو الذى أخلد صاحبه فى الحياة الأبدية والنعيم المقيم . أما المال فليس بخالد ولا مخلد ، والجملة مستأنفة ، أو حال من فاعل (جَمَعَ) .

(كَلَّا) ردع له عن ذلك الحسبان الباطل (لَيُنبَذَنَّ) الجملة جواب قسم مقدر ، وهى استئناف مبين لعلة الردع ، أى والله ليطرحن بسبب تعاطيه لما ذكر (فِى ٱلْحُطَمَةِ) أى فى النار التى من شأنها أن تحطم وتكسر كل مايلق فيها كما أنه كان شأنه كسر أعراض الناس والطعن فيهم .

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ) لتهويل أمرها ببيان أنها ليست من الأمور التى تنالها عقول الخلق .

(نَارُ اللهِ) خبر مبتدإ محذوف ، والجملة لبيان شأن المسئول عنها أى هى نار الله (الموقدة) بأمر الله عز سلطانه (الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) أى تعلو أوساط القلوب وتغشاها . وتخصيصها بالذكر لِمَا أن

الفؤاد ألطف مافى الجسد وأشده تألما بأدنى أذى يمسه ، أو لأنه محل العقائد الزائغة ، والنيات الخبيثة ، ومنشأ الأعمال السيئة .

(إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) أى مطبقة من أوصدت الباب وآصدته أى أطبقته .

(فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) أى موثقين فيها بأن توصد عليهم الأبواب ، وتمدد على الأبواب العمد استيثاقا فى استيثاق .

هذا ، ومن تأمل فى هذه السورة ظهر له العجب العجاب من التناسب ، فإنه لما بولغ فى الوصف فى قوله تعالى (هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) قيل الحطمة للتعادل ، ولمَّا أفاد ذلك كسر الأعراض قوبل بكسر الأضلاع المدلول عليه بالحطمة ، وجىء بالنبذ المنبىء عن الاحتقار فى مقابله ماظن الهامز اللامز بنفسه من الكرامة . ولمَّا كان منشأ جمع المال استيلاء حبه على القلب جىء فى مقابله بقوله (تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ). ولما كان من شأن جامع المال المحب له أن يوصد عليه قيل فى مقابله (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) ولما تضمن ذلك طول الأمل قيل (فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) .

وقد رأيت أن أثبت هنا بيتين من نظمنا القديم لِمَا لهما من المناسبة وهما :

تمضى علينا ليال ثم يعقبها   أيام لهو بها أيامنا صرمت
نلهو ونلعب والأعمار ذاهبة   والموت يفجؤنا والنفس ماانعظت

تفسير سورة قريش (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ).

قوله عز وجل : (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) اختلفوا فى هذه اللام ، فقيل هى متعلقة بما قبلها ، وذلك أن الله تعالى ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم بما صنع بأصحاب الفيل حيث قال :

(فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش) أى أهلك أصحاب الفيل لتبقى قريش وماألفوا من رحلة الشتاء والصيف .

وقد اختلفوا فى هذه اللام من وجه آخر ، فقيل هى لام التعجب ، أى أعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت . فكأنه قال تعجيبا للسامعين أعجبوا لذلك . وقيل هى متعلقة بما بعدها ، أى فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، وليجعلوا عبادتهم شكرًا لهذه النعمة . والمعنى لإيلاف قريش هاتين الرحلتين بلا خوف ولا وجل .

وقريش هم ولد النضر بن كنانة . عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة

(١) مجلة الأزهر — المجلد السادس عشر — الصفحة ١٤٩ — سنة ١٣٦٤

واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وقد ورد عن سعيد بن زيد « من أراد هوان قريش أهانه الله » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب . وسميت قريش من القرش والتقرش وهو الجمع والتكسب ، وذلك لأن قريشا كانوا تجارًا وعلى جمع المال حراصاً .

وقوله تعالى : (لإيلافهم) هو بدل من الأول تفخيما لأمر الإيلاف وتذكيراً لعظم المنة فيه . (رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) قال ابن عباس : كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف . وقال الأكثرون : كانت لهم رحلتان فى كل عام للتجارة : رحلة فى الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ ، ورحلة فى الصيف إلى الشام ، وكان الحرم مجدباً لازرع فيه ولاضرع ، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم ، وكانوا لايتعرض لهم أحد بسوء ، وكانوا يقولون : قريش سكان حرم الله وولاة بيته ، فكانت العرب تكرمهم وتعظمهم لذلك ، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ، ولولا الأمن بسبب جوار البيت لم يقدروا على التصرف ولشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام .

قال ابن عباس : كانوا فى ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين ، فكانوا يقسمون ربحهم بين الغنى والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم . وقال الكلبى : كان أول من حمل السمراء ، يعنى القمح إلى الشام ، ورحل إليها الإبل : هاشم بن عبد مناف ، وفيه يقول الشاعر :

قل للذى طلب السماحة والندى ... هلا وردت بآل عبد مناف

الرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين هلم للأضياف

والخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافى
والقائمين بكل وعد صادق والراحلين برحلة الإيلاف
سفرين سنهما له ولقومـــه سفر الشتاء ورحلة الأصياف

قوله عز وجل (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) يعني الكعبة وذلك أن الإنعام على قسمين دفع ضر وهو ماذكره فى سورة الفيل ؛ والثانى جلب نفع وهو ماذكره فى هذه السورة ، ولما رفع الله عنهم الضر وجلب لهم النفع ، وهما نعمتان عظيمتان ، أمرهم بالعبودية وأداء الشكر . أو نقول أنه تعالى لما كفاهم أمر الرحلتين أمرهم أن يشتغلوا بعبادة رب هذا البيت ،فإنه هو الذى (أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) .

ومعنى الذى أطعمهم من جوع ؛ أى من بعد جوع بحمل الميرة إليهم من البلاد فى البر والبحر وقيل فى معنى الآية : أنهم لما كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجوع فقالوا : يامحمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخصبت البلاد وأخصب أهل مكة بعد القحط فذلك قوله تعالى (الَّذِى أَطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) أى بالحرم وكونهم من أهل مكة فلم يتعرض لهم أحد فى رحلتهم .وقيل آمنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالإسلام . والله اعلم .

ومن نظر فى طريقة استدلال القرآن يرى العجب العجاب ولا يكفيه إلا أن يضع يدك فيما يريد الاستدلال عليه بطريقة محسوسة

جاعلا فى كل شىء آية ، وتمهيد الطريق إليها نعمة [حتى رحلة الشتاء والصيف] بخلاف طريقتنا فى كتب العقائد التى نذكر فيها الشبه والمعميات .

وإن شئت فانظر إلى مثل قوله تعـالى : (وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)(١) .ثم يقول :(سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)(٢) . ثم يلفت نظرك إلى بعض آياته الأخرى فيقول. (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ)(٣) .ويزيدك بيانا فيقول (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(٤) .

ثم انظر كيف يلفت نظرك إلى الشمس والقمر وعجيب أمرهما وإتقان نظامهما فيقول :

(وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(٥) .

(١) سورة يس ، الآية ٣٣ (٢) سورة يس ، الآية ٣٦
(٣) سورة يس ، الآية ٣٧ (٤) سورة القصص الآيات ٧٢ ، ٧٢
(٥) سورة يس ، الآيات ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

ومن هذا القبيل قوله (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)(١) .

هذا ، وأَلفت نظرك إلى هذا الاستدلال الواضح المختصر حيث يقول فى الا ستدلال على الله :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ)(٢) ويقول : (أَفَلَا يَنْظُرُون إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)(٣) ويقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وغَرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُه كَذَلِكَ)(٤) ويقول فى تعليمه لرسوله صلى الله عليه وسلم النظر فى آياته ومخاطبته تعالى بها (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)(٥) . وهكذا كله آيات بينات وحكم بالغات .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وجلاء أحزاننا وذهاب همنا وغمنا ، برحمتك يا أرحم الرحمين .

(١) سورة يس ، الآيات ٧١، ٧٢، ٣٧ (٢) سورة الطور ، الآيتان ٣٥، ٣٦
(٣) سورة الغاشية، الآيات ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠ (٤) سورة فاطر ، الآيتان ٢٧، ٢٨
(٥) سورة آل عمران ، الآية ٢٧

تفسير سورة المـاعون (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ . وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) . هى مكية ، وقد نزلت فى العاص بن وائل السهمى ، وقيل فى غيره . ومعنى الآية : هل عرفت الذىيكذب بيوم الجزاء والحساب ؟ فإن لم تعرفه (فذلك الذى يدع اليتيم) .

ولفظ (أَرَأَيْتَ) إستفهام والمراد به المبالغة فى التعجب من حال هذا المكذب بالدين . وهو خطاب للنبى صلى الله عيله وسلم . وقيل هو خطاب لكل أحد ، والمعنى : أرأيت الإنسان أو يأيها العاقل هذا الذى يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ؟ (فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ) أى يقهره ويدفعه عن حقه . والدع : الدفع بعنف وجفوة . والمعنى أنه يدفعه عن حقه وماله بالظلم ، وقيل بترك المواساة له وإن لم تكن المواساة واجبة . وقيل يزجره ويضربه ويستخف به . وقرئ يدعو بالتخفيف أى يدعوه ليستخدمه قهرا .

(وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) : أى لا يطعمه ولا يأمر بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء ، وهذا غاية البخل لأنه يبخل بماله وبمال غيره فلا يأمر غيره بالإطعام .

(١) مجلة الأزهر — المجلد السادس عشر — الصفحة ٢٤٦ — سنة ١٣٦٤ هـ

قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)يعنى المنافقين،ثم نعتهم فقال تعالى : (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) . روى البغوى بسنده عن سعد قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذين هم عن صلاتهم ساهون ، فقال : المراد بذلك إضاعة الوقت .

وقال ابن عباس : هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس ويصلون فى العلانية إذا حضروا معهم لقوله تعالى : (الذين هم يراءون) وقال تعالى فى وصف المنافقين : (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) (١)

وقيل ساه عنها لا يبالى صلى أم لم يصل .

وقيل لا يرجون لها ثواباً إن صلوا . ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا .

وقيل هم الذين إن صلوها صلوها رياء ، وإن فاتتهم لم يندموا عليها .

وقيل هم الذين لا يصلونها لوقتها ولا يتمون ركوعها ولا سجودها .

وقيل لما قال تعالى : (عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) بلفظة (عن) ، علم أنها فى المنافقين ، والمؤمن قد يسهو فى صلاته ، والفرق بين السهوين أن سهو المنافق ألايتذكرها ويكون فارغاً عنها والمؤمن إذا سها فى صلاته تداركه فى الحال وجبره بسجود السهو .

وقيل السهو عن الصلاة هو أن يبقى ناسياً لذكر الله فى جميع أجزاء الصلاة ، وهذا لا يصدر إلا من المنافق الذى يعتقد أنه لافائدة

(١) سورة النساء ، الآية ١٤٢

فى الصلاة ، فأما المؤمن الذى يعتقد فائدة صلاته وأنها عليه واجبة ويرجو الثواب على فعلها ويخاف العقاب على تركها فقد يحصل له سهو فى الصلاة ، يعنى أنه يصير ساهياً فى بعض أجزاء الصلا بسبب وارد عليه بوسوسة الشيطان أو بسبب حديث النفس وذلك لايكاد يخلو منه أحد ، فثبت بهذا الفرق أن السهو عن الصلاة من صفات المنافق والسهو فى الصلاة من صفات المؤمن .

(الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) يعنى يتركون الصلاة فى السر ويصلونها فى العلانية . والفرق بين المنافق والمرائى أن المنافق هو الذى يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، والمرائى يظهر الأعمال مع زيادة الخشوع ليعتقد فيه من يراه أنه من أهل الدين والصلاح . أما من يظهر النوافل ليقتدى به ويأمن على نفسه الرياء فلا بأس به .

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) روى عن على أنه قال هى الزكاة ، وهو قول ابن عمر والحسن وقتادة والضحاك . ووجه ذلك أن الله تعالى ذكرها بعد الصلاة فذمهم على ترك الصلاة ومنع الزكاة .

وقال ابن مسعود : الماعون الفأس والدلو والقدر وأشباه ذلك ، وهى رواية عن ابن عباس .

وقال مجاهد : الماعون العارية . وقال عكرمة الماعون أعلاه الزكاة المفروضة وأدناه عارية المتاع .

وقال محمد بن كعب القرظى : الماعون المعروف كله الذى يتعاطاه الناس فيما بينهم . وقيل الماعون الماء والملح والنار ، ويلتحق بذلك البئر والتنور فى البيت ، فلا يمنع جيرانه من الانتفاع بهما . ومعنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة ، فإن البخل بها فى نهاية القبح . قال العلماء : ويستحب أن يستنكر الرجل فى بيته ما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ويتفضل عليهم بهذه الأشياء ولا يقتصر على الواجب . والله أعلم .

شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن (١)

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

يمدح الله تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأنه اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم ، وقد ورد فى الحديث أنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء .

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن أبى فليح عن واثلة يعنى ابن الأسقع ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » .

وقد روى من حديث جابر بن عبد الله أن الزبور أنزل لثنتى عشرة خلت من رمضان ، والإنجيل لثمانى عشرة ، والباقى كما تقدم . رواه ابن مردويه .

(١) مجلة الأزهر – المجلد السادس عشر – الصفحة ٢٩٣ – السنة ١٣٦٤
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨٥

وأما الصحف والتوارة والزبور والإنجيل فتنزل كل منها على النبى الذى أنزل عليه جملة واحدة . وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك فى شهر رمضان فى ليلة القدر منه ، كما قال تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاه فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ) [١] وقال : (إِنَّا أَنْزَلْنَاه فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ)[٢] ثم نزل بعده مفرقا على حسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم . هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس .

وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أنزل الله القرآن فى النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل فى بيت العزة ثم أنزل على رسول الله صلى الله عيه وسلم فى عشرين سنة لجواب كلام الناس . وفى رواية عكرمة عن ابن عباس قال : نزل القرآن فى شهر رمضان فى ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة ، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ، ولا يجئ المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه ، وذلك قوله : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً)[٣] .

أما قوله (هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ من الْهُدَى والفُرْقَانِ) فهو مدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه . (وَبَيِّنَاتٍ) أى ودلائل وحججا بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها ،

(١) سورة القدر ، الآية ١ (٢) سورة الدخان ، الآية ٣

(٣) سورة الفرقان ، الآيتان ٣٢، ٣٣

دالة على ماجاء به من الهدى المنافى للضلال ، والرشد المنافى للغى ، ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام .

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْه) هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر إن كان مقيماً فى البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح فى بدنه أن يصوم لامحالة . ونسخت هذه الاية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدى ، وبإطعام مسكين عن كل يوم كما فى الآية المتقدمة .

(وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَو عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) : معناه من كان به مرض فى بدنه بحيث يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره فى السفر من الأيام ، ولهذا قال (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) أى إنما رخص لكم فى الفطر فى حال المرض وفى السفر فى حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم .

وها هنا مسائل تتعلق بهذه الآية ، إحداها : أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيماً فى أول الشهر ثم سافر فى أثنائه فليس له الإفطار لعذر السفر والحالة هذه لقوله (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر .

وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم فى كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين . وفيما حكاه عنهم نظر ، فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج فى شهر رمضان

لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبا الصحيحين .

الثانية : ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار فى السفر لقوله (فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) والصحيح قول الجمهور أن الأمر فى ذلك على التخيير وليس بحتم لأنهم كانوا يخرجون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان فمنهم الصائم ومنهم المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام. بل الذى ثبت عن رسول الله —صلى الله عليه وسلم أنه كان فى مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت فى الصحيحين.

عن أبى الدرداء قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان فى حر شديد حتى أن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعبد الله ابن رواحة .

الثالثة : قالت طائفة منهم الشافعى أن الصيام فى السفر أفضل من الإفطار لفعل النبى —صلى الله عليه وسلم— كما تقدم ، وقالت طائفة بل الإفطار أفضل أخذا بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله —صلى الله عليه وسلم— أنه سئل عن الصوم فى السفر فقال : « من أفطر فحسن ، ومن صام فلا جناح عليه » وقال فى حديث آخر « عليكم برخصة الله التى رخص لكم » . وقيل إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر أن رسول الله —صلى الله عليه وسلم — رأى رجلا قد ظلل عليه فقال ما هذا ؟ .

قالوا صائم . فقال : « ليس من البر الصيام فى السفر » أخرجاه فى الصحيحين .

الرابعة : القضاء هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق ؟ فيه قولان : أحدهما أنه يجب التتابع لأن القضاء يحكى الأداء . والثانى لا يجب التتابع بل إن شاء تابع ، وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل ، لأن التتابع إنما وجب فى الشهر لضرورة أدائه فى الشهر ، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام عدة ما أفطر ، ولهذا قال تعالى : (فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) . والله أعلم .

تفسير سورة الكوثر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

هي مكية على مذهب الجمهور. قوله عز وجل (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) الكوثر نهر فى الجنة أعطاه الله رسوله –صلى الله عليه وسلم– . وقيل الكوثر القرآن العظيم . وقيل هو النبوة والكتاب والحكمة . وقيل هو كثرة أتباعه وأمته . وقيل الكوثر الخير الكثير كما فسره ابن عباس . وهو ظاهر بدخول كل ما ذكر فيه . روى البخارى عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : الكوثر الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : إن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه .

والكوثر فوعل من الكثرة . والعرب تسمى كل شيء كثير فى العدد أو كثير القدر كوثرا . وبعضهم يقول : الكوثر الفضائل الكثيرة التى فضل بها على جميع الخلق .

فكل ما جاء فى تفسير الكوثر قد أعطيه النبى –صلى الله عليه وسلم– ، أعطى النبوة والكتاب والعلم والحكمة والشفاعة ، والحوض المورود ، والمقام المحمود ، وكثرة الأتباع والإسلام وإظهاره على الأديان كلها ، والنصر على الأعداء ، وكثرة الفتوح فى زمنه وبعده إلى يوم القيامة .

(١) مجلة الأزهر – المجلد السادس عشر – الصفحة ٤٢١ – سنة ١٣٦٤

وأولى الأقاويل فى الكوثر الذى عليه جمهور العلماء أنه نهر فى الجنة ، عن أنس قال : بينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يارسول الله ؟ قال « أنزلت على آنفا سورة الكوثر » ثم قرأها ، قال أتدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإنه نهر وعدنيه ربى عز وجل ، حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمتى ؛ فيقول ما تدرى ما أحدث بعدك .

وللبخارى قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : لما عرج بى إلى السماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت ما هذا ياجبريل ؟ قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فإذا طينه أو طينته مسك أزفر .

عن أنس –رضى الله عنه– قال : سئل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : ما الكوثر ؟ قال نهر أعطانيه الله ، يعنى فى الجنة ، أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزور ، قال عمر : إن هذه لناعمة ، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أكلتها أنعم منها . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن ابن عمر قال ، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأشد بياضا من الثلج . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وأخرج البخارى عن عامر بن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ قال : سألت عائشة عن قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ) فقالت : الكوثر نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم شاطئاه در مجوف آنيته كعدد نجوم السماء .

وروى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ أبداً » .

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) معناه أن ناسا كانوا يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله فأمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصلى له وينحر له متقرباً إلى ربه بذلك . وقيل معناه : فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وانحر نسكك . وقيل معناه فصل الصلاة المفروضة بجمع وانحر البدن بمنى . ومعنى الآية قد أعطيتك مالا نهاية لكثرته من خير الدارين ، وخصصتك بما لم أخص به أحداً غيرك ، فاعبد ربك الذى أعطاك هذا العطاء الجزيل والخير الكثير ، وأعزك وشرفك على كافة الخلق ورفع منزلتك فوقهم ، فصل له واشكره على إنعامه عليك ، وانحر البدن متقربا إليه .

(إِنَّ شَانِئَكَ) يعنى عدوك ومبغضك (هُوَ الأَبْتَرُ) يعنى هو الأذل المنقطع دابره .

نزلت فى العاص بن وائل السهمى ، وذلك أنه رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خارجا من المسجد وهو داخل فالتقيا عند باب بنى سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس فى المسجد فلما دخل العاص قالوا له من الذى كنت تتحدث معه ؟ فقال ذاك الأبتر ، يعنى به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وكان قد توفى ابن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خديجة .

وقيل إن العاص بن وائل كان إذا ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال دعوه فإنه رجل أبتر لاعقب له فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله تعالى هذه السورة ورد عليهم اشنع رد ، فقال : إن شانئك يامحمد هو الأبتر الضعيف الوحيد الحقير ، وأنت الأعز الأشرف الأعظم . والله أعلم .

تفسير سورة الكافرون (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُّمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) .

تسمى المقشقشة أى المبرئة من الشرك والنفاق ، وتسمى أيضاً سورة العبادة ، وكذا تسمى سورة الإخلاص . وهى عند ابن عباس والجمهور مكية ، وآيها ست بلا خلاف ، وفيها إعلان ما فهم مما قبلها فى قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) ويكفى ذلك فى المناسبة بينهما .

أخرج أبو يعلى والطبرانى عن ابن عباس مرفوعا : « ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تعالى؟ تقرءون (قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) عند منامكم . وروى الديلمى قال قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : « المنافق لا يصلى الضحى ولا يقرأ قل يأيها الكافرون » . ويسن قراءتها مع سورة (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) فى ركعتى سنة الفجر التى هى عند الأكثرين أفضل السنن الرواتب ، وكذا فى الركعتين بعد المغرب . وعند المالكية يقتصر على قراءة الفاتحة فى سنة الفجر . وهذه السورة تشتمل على ترك عبادة غيره سبحانه وتعالى ، فصارت بهذا الاعتبار ربع القرآن.

(١) مجلة الأزهر المجلد السابع عشر – الصفحة ٦٧ سنة ١٣٦٥

(قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) : قال أجلة المفسرين : المراد بهم كفرة من قريش مخصوصون قد علم الله أنهم لا يتأتى منهم الإيمان أبداً .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن سعيد مولى أبى البخترى قال لقى الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود ابن عبد المطلب وأمية بن خلف رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقالوا : يامحمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله فإن كان الذى نحن عليه أصح من الذى أنت عليه كنت قد أخذت منه حظا . فأنزل الله تعالى (قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) الخ .

وفى رواية أن رهطا من عتاة قريش قالوا له –صلى الله عليه وسلم– : هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فقال عليه الصلاة والسلام : معاذ الله أن أشرك به سبحانه غيره . فقالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك . فنزلت . فغدا صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام عليه الصلاة والسلام على رءوسهم فقرأها عليهم فأيسوا .

ولعل نداءهم (بيا) للمبالغة فى طلب إقبالهم لئلا يفوتهم شىء مما يلقى إليهم ، وبالكافرون دون الذين كفروا لأن الكفر كان دينهم القديم ، أو لأن الخطاب مع الذين يعلم استمرارهم على الكفر فهو كاللازم لهم .

وفى ندائه عليه الصلاة والسلام بذلك فى ناديهم ومكان بسطة أيديهم دليل على عدم اكتراثه صلى الله عليه وسلم بهم ، إذ المعنى قل يامحمد للكافرين : يأيها الكافرون .(لا أَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ

ما أَعْبُد ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) . يتراءى أن فيه تكرارًا للتأْكيد ، فالجملة الثالثة المنفية توكيد للأُولى على وجه أبلغ لاسمية المؤكدة . والرابعة توكيد للثانية ، وهو الذى اختاره الطيبى وذهب إليه الفراءُ وقال إن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتهم تكرار الكلام للتأْكيد والإفهام ، فيقول المجيب : بلى بلى ، والممتنع لا لا ، وعليه قوله تعالى « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

وقول الشاعر :

هــلا سأَلت جموع كنـ دة يوم ولوا أَين أَينا

وهو كثير نظماً ونثرًا ، وفائدة التأْكيد هنا قطع أَطماع الكفار وتحقق أنهم باقون على الكفر أبدا . هذا ، والمعنى : لاأفعل فى المستقبل ما تطلبونه من عبادة آلهتكم ولا أَنتم فاعلون فيه ما أَطلب من عبادة إلهى ، وما كنت عابدًا قط فيما سلف ما عبدتم فيه ، وما عبدتم فى وقت ما ما أنا على عبادته .

ونفى عبادتهم فى الحال أو الاستقبال معبوده عليه الصلاة والسلام بناءً على عدم الاعتداد بعبادتهم لله تعالى مع الإشراك المحيط لها وجعلها هباءً منثورًا :

إذا صافى صديقك من تعادى فقد عاداك وانقطع الكلام

(لَكُمْ دِينُكُمْ) هو عند الأكثرين تقرير لقوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) كما أن قوله تعالى (وَلِيَ دِينِ) عندهم تقرير لقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) . والمعنى أن دينكم وهو

الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول إلىّ كما تطمعون فيه فلا تعلقوا أمانيكم الفارغة فإن ذلك من المحالات ، وأن دينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى لا يتجاوزه إلى الحصول لكم لأن الله تعالى قد ختم على قلوبكم لسوءِ استعدادكم ، أو لأنكم علقتموه بالمحال الذى هو عبادتى لآلهتكم أو استلامى لها .

والله أعلم .

الجزء الرابع

الفتاوى

تعليم القرآن

جاءنا هذا السؤال من أحد تجار الغردقة :

عندنا رجل كلما ذكر بمجلسه تعليم القرآن يقول : هذا الزمن ليس زمن القرآن وليس فى تعليم القرآن فائدة ، إنما الفائدة كلها فى تعليم المدارس . وكلما اجتمع بمن له ابن فى المكتب الذى يعلم القرآن يقول له هذا خطأ منك لأن القرآن ليس فيه فائدة ، والاشتغال به تضييع زمن على الأولاد ، فنرجو أن تبينوا ماذا عليه شرعاً فى النهى عن تعليم القرآن .

حسن مدنى أحمد
التاجر بالغردقة

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه .

هذا الرجل الذى ينهى عن تعليم القرآن ويذم من يتعلمه قد ارتكب إثماً عظيماً واقترف ذنباً كبيرًا هو من أكبر الكبائر ، وفى الوقت نفسه غاش للأمة غير ناصح لها حتى فى دنياها ، فإن الأمة ما تدهورت هذا التدهور الأدبى والمادى إلا بالتفريط فى دينها وتضييع العمل بكتابها وسنة نبيها والقضاء عليه بسبب تلك التعاليم الإلحادية .

وأما قوله : إن الفائدة كلها فى المدارس . فقول باطل ورأى جاهل . فإن الدين يغرس فى قلبك الصدق فى القول والعمل ، والاستقامة والإخلاص

ومراقبة الله عز وجل فى كل شىء . وغير خاف عليك ما يترتب على ذلك من تقدم التاجر فى تجارته ، والزارع فى زراعته والصانع فى صناعته ، وتعلم القرآن يحث على تعلم العلوم النافعة ، وعلى الأخذ بكل مفيد صالح من الصنائع والفنون فالدين هو أكسير الحياة الطيبة ، ومنبع القوة الروحية ، والبهجة النفسية .

وقد قال تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)[1] . ولم يدع مفهوم ذلك من سوء الحياة ومرارة العيش لمن لم يكن كذلك ، بل صرح ، به فى سورة أخرى فقال :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)[2] وأتى بمن التى هى من صيغ العموم تنبيهاً على أنه لا سبيل إلى الراحة ، ولا وسيلة للسعادة غير الدين . فإن السعادة الحقيقية ليست إلا فى النفوس ، ولا يصلح النفوس وينقيها من أوضارها التى تشقيها وتتعبها غير الدين .

ولنسق لك بعض ما جاء فى السنة مما يناسب هذا الموضوع :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الَّذِى لَيْسَ فِى جَوْفِهِ شَىْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ » رواه الترمذى والحاكم . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَصْغَرَ الْبُيُوتِ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ شَىْءٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ » رواه الحاكم موقوفاً وقال : رفعه بعضهم .

---

(١) سورة النحل ، الآية ٩٧
(٢) سورة طه ، الآية ١٢٤

وعن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وعَلَّمَهُ » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه . وعن أبى أمامة الباهلى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ » الحديث . رواه مسلم . وعن سهل ابن معاذ عن أبيه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تاجاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِى بُيُوتِ الدُّنْيَا فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِى عَمِلَ بِهِ » رواه أبو داود والحاكم . وعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ ، لَا يَنْبَغِى لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجِدَ مَعَ مَنْ وَجِدَ وَلَا يَجْهَلُ مَعَ مَنْ جَهِلَ وَفِى جَوْفِهِ كَلَامُ اللهِ » . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ ، قالوا : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قال : « أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُهُ وَخَاصَّتُهُ » رواه النسائى وابن ماجه والحاكم . وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يَا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَغْدُوَ فَتُعَلِّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّىَ مِائَةَ رَكْعَةٍ ، وَلَأَنْ تَغْدُوَ فَتُعَلِّمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّىَ مِائَةَ رَكْعَةٍ » . رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

وعن على — رضى الله عنه — قال : أما إنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « أَمَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ ، قلت : فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَارَسُولَ الله ؟ قال : « كِتَابُ اللهِ تَعَالَى فِيهِ نَبأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُم وحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِى غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ تَعَالى ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ الذِّى لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ ، وَلَا تَنْقَضِى عَجَائِبُهُ ، وَهُوَ الذِّى لَمْ تَنْتَهِ الجن إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ » (١) مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم » . أخرجه الترمذى .

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، ويحفظنا من مضلات الفتن بمنه وكرمه .

(١) سورة الجن ، الآية ٢

حكم شرب الدخان فى مجالس القرآن (١)

*

جاءنا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

.... نرجوا أن تفتونا فى حكم شرب الدخان فى مجالس القرآن على صفحات (نور الإسلام) ولكم منا الشكر ومن الله جزيل الثواب .

محمد عبد الرحمن

مدرس بدمنهور

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه . أما بعد فقد سألت عن حكم الدخان فى مجالس القرآن ، ولنذكر قبل ذلك حكم الدخان فى نفسه ثم نتبعه بما سألت عنه ، فنقول :

إن الدخان من الأشياء المستحدثة التى لم تكن معروفة فى عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — ولا فى عهد السلف الصلح والمتقدمين من الأئمة المجتهدين وأتباعهم ، وإنما ظهر فى آخر القرن العاشر الهجرى كما نص عليه اللقانى فى رسالة وضعها فيه .

لهذا لم يكن لتناوله حكم منصوص فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما هو الشأن فى كثير من الوقائع

(١) مجلة الأزهر — العدد الخامس — المجلد الأول — جمادى الأولى ١٣٤٩

المعروفة فى عهد الوحى والتنزيل ، ولم يستنبط الأئمة المجتهدون ولا المتقدمون من أصحابهم حكمه من الكتاب والسنة كما هو شأنهم فى تعريف أحكام الجزئيات التى عرضت مما لم ينص عليه لعدم وجوده إذ ذاك .

وقد وقع للمتأخرين خلاف فى حكم تناوله ، فمنهم من قال بحله ومنهم من قال بحرمته . والحق فى ذلك أنه لا ينبغى إطلاق القول بالحل والحرمة فإن الحكم بأحد الأمرين على الإطلاق لايخلو عن إفراط أو تفريط ، فإذن يجب النظر لحال شاربه ومايترتب على شربه ، فمن كان يضره شرب الدخان ويؤثر فى صحته حرم عليه شربه للإجماع على تحريم ما يؤذى البدن ، فإن حفظ البدن من الكليات التى أجمعت الشرائع على وجوبه ومن لا يضره شربه ولكن يحتاج لثمنه فى ضرورياته المعيشية سواءٌ أكان ذلك لنفسه أم لمن تجب عليه نفقته كزوجته وذوى قرابته حرم عليه شربه أيضا ، وإن لم يكن هناك ضرر بدنى أو مالى فلا وجه للحرمة . ويمكن الرجوع فى تعرف الضرر البدنى إلى الأطباء ، وأما الضرر المالى فأمر يعرفه الإنسان من نفسه .

ومن الناس من يزعم أن شرب الدخان حرام على الإطلاق مستنداً فى ذلك إلى كونه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار ، وهو فى ذلك مخطئٌ ، فإن البدعة المنهى عنها شرعاً هى الأمر المحدث الذى لم يشهد بجوازه أصل من كتاب أوسنة أوإجماع أو قياس ، إلى آخر ما قرره العلماء ، وكيف يسوغ القول بأن كل محدث محرم ، وكثير من الملابس والأزياء وغيرها لم يكن معروفاً فى عهد النبى -صلى الله عليه

وسلم- ولا فى عهد الصحابة والتابعين ، ولا يصح الحكم عليه بالتحريم لمجرد كونه محدثاً .

*

هذا حكم الدخان فى ذاته .

أما شربه فى مجالس القرآن فهو حرام ، فإن المطلوب شرعاً من حاضرى مجلس القرآن الإصغاء إليه والتدبر لمعانيه ، قال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(1) . وقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)(2) . ومعلوم أن زيادة الإيمان بسماع ما يتلى من القرآن إنما يكون بالإصغاء إليه والتدبر لمعانيه ، ولا يتم مع التلهى بشرب الدخان.

على أنك تعرف ما فى شربه من الإخلال بالتوقير والإجلال ، وهو لا يشرب فى حضرة الأمراء والعظماء إجلالًا لهم ، فكتاب الله أحق بالإجلال والتوقير ، مع ما فى شربه من الإيذاء لغير من يشربه من الحاضرين ، فإن له رائحة كريهة يتضرر بها من لم يتعود شربه نظير ما قالوه فى حرمة حضور المجامع والمجالس لمن أكل ثوماً أو بصلاً ولم يجد ما يزيل به رائحته ، حتى أباحوا له التخلف عن الجمعة نظراً لما يترتب على ذلك من تأذى الناس وضررهم ، فضلاً عن تأذى الملائكة الذين يحضرون مجالس الخير التى من أفضلها مجالس القرآن .

(1) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤

(2) سورة الأنفال ، الآية ٢

والخلاصة أن شرب الدخان فى مجلس القرآن محرم للإيذاء ومناف للأدب المطلوب من الحاضرين والتدبر لسماع الذكر الحكيم .

وأما شربه فى غير ذلك فقد يكون محرماً وقد لايكون ، إلا أنه لا يصل إلى الإباحة الصرفة على مايقول بعضهم ، فتركه حينئذ من الورع . وقد قال صلى الله عليه وسلم « دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ »

حكم شرب الدخان فى المساجد (١)

وجاءنا من حضرة السائل ما نصه :

س : أفيدونا على صفحات مجلة الأزهر (نور الإسلام) عن حكم شرب الدخان فى المساجد زادكم الله علماً . والسلام عليكم ورحمة الله .

حسن عمران
العلاقمة شرقية

الجواب

ج : صرح علماء المالكية بأن أكل البصل والثوم ونحوهما فى المسجد حرام ، وكذا دخول آكلهما ، حتى جعلوا من أسباب التخلف عن صلاة الجمعة أن يأكل شيئاً من ذلك ولا يجد ما يزيله ، وسر ذلك عندهم هو تأذى الناس المجتمعين للجمعة ، وكذلك الملائكة الذين يحضرون مشاهد الخير مع المؤمنين . فإن ثبت أن للدخان رائحة كريهة يتضرر منها الناس والملائكة على نحو ما ذكرنا كان شربه فى المسجد حراماً كأكل البصل والثوم .

ونرى من الإخلاص للدين والعلم أن نقول : إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد يصح أن تختلف فيها الأنظار ، وإذا رجحنا فيها شيئاً

---

(١) مجلة الأزهر – العدد الثامن – المجلد الأول – شعبان ١٣٤٩

فإننا نكتب عن رأينا وعن رأى فريق من علمائنا ، والخير كله فى التوسط والاعتدال ، والشر كله فى الإفراط والتفريط ، وكثيراً ما نلاحظ فى المسائل ما يترتب عليها ، وما عسى أن تجر إليه .

ولنقتصر اليوم على هذا . وموعدنا فى بقية المسائل العدد المقبل إن شاء الله .

حديث: لا يبيع حاضر لباد (١)

ورد إلى إدارة المجلة من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

جاء فى مجلة (الأزهر) فى (العدد الخامس من المجلد الرابع) صفحة ٢٤٥ فى بعض فتاويكم فى البيع بالزيادة الفاحشة حديث استدللتم به ، وهو « لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ ، دَعُوا النَّاسَ فِى غَفَلَاتِهِمْ يَرْزُقُ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » . ونريد أن نعرف من خرج هذا الحديث ، وهل هو صحيح أم لا ؟ ثم إن الجملة الأولى فى الحديث تفيد النهى عن بيع الحاضر للباد ، والجملة التى تليها وهى : « دعوا الناس فى غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض » تفيد عدم النهى عن البيع .

فظاهر الحديث يفيد التناقض ، وكذا يفيد عدم النصح الناس بعضهم لبعض .

فنرجو من فضيلتكم تحقيق الموضوع ، وإثبات أيهما أصح ، وأيهما يوافق الشريعة الغراء . والسلام عليكم ورحمة الله .

احمد ابراهيم محمود
بقنا

(١) مجلة الأزهر – الجزء السادس – المجلد الخامس – سنة ١٣٥٣

الجـواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

الحديث صحيح لا شك فيه ، وقد أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما كما ستعرف ، غير أن لفظه (فى غفلاتهم) مدرجة من بعض الرواة ، وهو هكذا فى كتب الفقه بهذا الإدراج ، والفقهاء كثيرًا ما يكون بما يذكرونه مثل هذا الإدراج ، كثيرًا ما يروون الحديث بالمعنى ، وهو جائز على الأصح عند المحدثين للعالم العارف بالمعنى المقصود .

أما قولك : إن فيه تناقضاً بين قوله : « لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ » وقوله : « دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقُ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » فغير واضح ، لأن المعنى أن الحاضر العارف بأثمان السوق لا يكون سمسارًا للبادى الذى يجهلها ، فلتدع من جاء من البادية يبيع باجتهاده ، ويأخذ منه المشترى باجتهاده .

والبيع والشراء مبنيان على المغالبة والاجتهاد من كل من البائع والمشترى . فالجملة الثانية وهى قوله : « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » مؤكدة لما يستفاد من الأولى وهى قوله : « لايبع حاضر لباد » لامناقضة لها كما تقول .

وأما قولك : إن فى ذلك عدم النصح فغير واضح أيضًا ، لأننا لم نعمل عملًا يسمى غشًا ، ولا قلنا قولًا يخالف الحقيقة أو يعد كذبا ، وليس فى المسألة إلا ترك البائع يبيع كما يشاء ، والمشترى يشترى كما يشاء . وسنة البيع والشراء مبنية على أن الصفقة تكون رابحة للمشترى مرة وللبائع أخرى ، ولا شىء فى ذلك ما لم يوجد غش

أو كذب أو تلبيس ، وكل ذلك منفى فى موضوعنا هذا . وأظن أن الأمر صار واضحًا لا شبهة فيه .

أما الحديث المذكور فهو صحيح ، رواه كثير من المحدثين تارة باللفظ وتارة بالمعنى :

فعن جابر رضى الله عنه قال : « نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ ، وَدَعُوا النَّاسَ يَرْزُقُ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » أخرجه مسلم فى صحيحه ، وأبو داود فى سننه ، والترمذى فى جامعه ، والنسائى فى صحيحه .

وفى أخرى للبخارى ومسلم وأبى داود والنسائى عن أنس : « نَهَى عَنْ بَيْعِ حَاضِرٍ لِبَادٍ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ » . وفى أخرى لأبى داود والنسائى « وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ أَوْ أَبَاهُ » ، إلى غير ذلك ، والله أعلم .

الصّلاة على النبى «صلى الله عليه وسلم» بعد المغرب

وورد أيضًا من حضرة صاحب التوقيع هذا السؤال :

مولاى : كثير من الناس يصلى على النبى بعد السلام من صلاة المغرب بصيغة « اللهم صل عليه » مائة مرة ، فهذا جعلنى غير مستريح الخاطر من جهة هذه الصلاة ، فلذا اضطررت للكتابة إلى فضيلتكم فى هذا الصدد ، راجيًا التكرم بالرد على صفحات (مجلة الأزهر) حتى يتميز الحق من الباطل . وأبتهل إلى الله تعالى بالدعاء أن يعلى شأنكم ويطيل عمركم .

وتفضلوا بقبول فائق احترامى .

عبد المجيد أبو بكر عزت
مدرس بمدرسة الحوطا الغربية الالزامية

الجــواب

الاستغفار والصلاة على النبى –صلى الله عليه وسلم– والدعاء عقب كل صلاة مفروضة مندوب مرغب فيه . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ حِينَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) » .

ولا فرق بين كون ذلك من واحد أو من جماعة ، غير أن رفع الصوت إذا أدى إلى التشويش على المتلبسين بعبادة أخرى من صلاة أو تفكر ونحو ذلك ، منع ، لعارض التشويش ، وعليك بالاعتدال ، وإياك والإفراط فى كل ما تأتى وتذر .

وأما الصيغة التى يصلى بها على النبى –صلى الله عليه وسلم– فهو مخير فيها وكذلك العدد الذى يشاؤه ، وكلما أكثر ازداد من الخير . غير أنه يطلب منه ألا يقتصر على الصلاة ، بل يضم إليها السلام ، ويذكر الآل أيضًا ؛ فهذا هو الأكمل والأفضل . وربما أفضنا فى بيان فضل الصلاة عليه – صلى الله عليه وسلم – فى فرصة أخرى إن شاء الله .

الرضاع [1]

وورد أيضًا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

يوجد ببلدة الحامولى التابعة لمركز أبشواى بمديرية الفيوم رجل عالم تلقى العلم بمعهد طنطا من زمن ، يفتى لأهل بلده وضواحيها بأن الداية التى تولد النساء وترضع البنين والبنات بمجرد وضع الحمل لمدة يومين وثلاثة حتى ينزل اللبن بثدى المرأة التى وضعت حملها لا يحرم زواج بعضهم لبعض . وكذا الغزية التى ترضع أطفال البلد الذكور والإناث ، فإنهن كمنفعة عامة ، فهن لا يحرمن أحدًا على أحد . ومثلهن المستأجرة التى ترضع ابن هذا وبنت ذاك. ثم قال : إن الجارة إذا أرضعت أولاد الغير لا يحرم بعضهم على بعض ، والحرمة لا تكون إلا للمرضعة نفسها ولأصولها وفروعها فقط ، لمن أرضعته ، سواء أكانت غزية أو داية أو جارة أو مستأجرة .

فألتمس من مكارم فضيلتكم الإجابة الشافية عن هذا الموضوع ، جعلكم الله نوراً وهدى للناس فى الدارين .

الفنيمى ابراهيم عوض
رئيس مدرسة الحامولى الالزامية — فيوم

الجواب

كل من أرضعتهم القابلة من أطفال النساء بعد الولادة يصيرون إخوة من الرضاع لا يجوز بعضهم لبعض. وكذلك جميع من أرضعته المرأة المستأجرة من أولاد الناس يصيرون إخوة بالرضاع : لا يجوز

نكاح الذكر منهم للأنثى . وأيضًا جميع من أرضعته المرأة الغنية المشهورة بالغزية من أطفال الناس عند جوبها البلاد إخوة من الرضاع لا يجوز نكاح بعضهم لبعض .

قال الله تعالى فى بيان المحرمات : ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ [1] .

وفى الصحيحين عن النبى –صلى الله عليه وسلم– : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وقد حكى بعضهم الإجماع على أن الرضاع يحرم كالنسب إلا فى مسائل ليست هذه منها .

(١) سورة النساء ، الآية ٢٣

النشوق فى رمضان ـ الزنى

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤالان الآتيان :

قال السائل بعد الديباجة :

١ ـ هل النشوق مباح فى رمضان أم لا ؟ أرجو شرح حكمه بالبيان الشافى .

٢ ـ زنى رجل بامرأة فهل يجوز له أن يتزوج ابنتها ؟ أرجو أن تفتونا فى ذلك بحكم الشرع الشريف حتى يتبين الرشد من الغى . جزاكم الله عنا خير الجزاء .

محمد محمد عمر شاهين

مدرس بمدرسة بركة الرطلى الالزامية

الجواب

١ ـ يمنع النشوق وشرب الدخان . ومتى وصل النشوق أو الدخان للحلق أدى إلى الفطر ووجب القضاء . ويكره مضغ شيء كاللادن أو التمر يمضغ لإطعام صبى مثلا ، فإن تحلل منه شيء ووصل إلى الحلق أفطر الصائم ووجب عليه القضاء ، وإلا فلا .

٢ ـ الأرجح من مذهب مالك أن من زنى بامرأة جاز له أن يتزوج ابنتها التى لم تتخلق من مائه ، لأن الزنى لا قيمة له فى نظر الشارع فى مثل هذا ، والمعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، فلا ينشر الحرمة ، والمقابل يقول بالتحريم . أما بنت الزنى التى تخلقت من مائه فلا يجوز له التزوج بها ، خلافا للشافعية ، ويوافقهم ابن الماجشون من المالكية .

وقد قال فى أقرب المسالك : «ولايحرم الزنى على الأرجح» . قال الشارح : «فمن زنى بامرأة جاز له أن يتزوج بأصولها وفروعها ، وجازت هى لأصوله وفروعه» وقال فى الرسالة : «ولايحرم بالزنى حلال» .

وقال فى متن الدردير أيضا : «وحرم الأصل والفرع وإن من زنى» . أى يحرم على الشخص نكاح أصله كأمه وجدته ، كما يحرم عليه نكاح فرعه ، سواء أنشأ عن نكاح أم عن سفاح كالبنت التى تخلقت من مائه ، والله أعلم .

الصلاة خلف المخالف

وورد أيضاً من حضرة صاحب التوقيع ما يأتى :

١ – رجل مالكى المذهب صلى الظهر خلف إمام شافعى ، وبعد تمامها أعاد الإمام صلاته مع جماعة أخرى ، فهل صلاة المالكى صحيحة أم لا ؟

٢ – رجل مالكى المذهب صلى إماما لشافعية ، وبعد الصلاة أعادوا صلاتهم خلف غيره ، فماذا يكون الحكم : هل صلاته صحيحة أم لا ؟

زيدان سعد راغب الطحاوى

الجـواب

صلاة المالكى فى الصورتين صحيحة . أما فى الأولى فلأنها فرض خلف فرض ، وإعادة الشافعى لها لايؤدى إلى كون صلاته الأولى وقعت نافلة حتى تبطل صلاة المالكى خلفه . فهذا هو الذى ينبغى التعويل عليه ولايلتفت لخلافه .

وأما فى الثانية فلأن الإمام المالكى أدى صلاته مستوفية لشروطها وأركانها ، فلا يؤثر فيها إعادة المأموم الشافعى بعد الفراغ ولو تكررت مرارا ، والله أعلم .

الأيمان غير المعتبرة

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

إمام مسجد تفوه بألفاظ تجعله فى عداد الفقراء غير الصابرين ، فسمع هذا القول رجل يحقد على الإمام فقال : « أكون على غير دين الإسلام إن صليت خلف هذا الإمام » . ومن هذا اليوم ترك الصلاة خلف الإمام حتى فريضة الجمعة ، فهل يعتبر ذلك يمينا يجب التكفير عنه ؟ أرجو الإيضاح ولفضيلتكم أجمل الشكر .

استبان ابراهيم منصور مساعد

الجـواب

من قال : هو يهودى أو نصرانى إن فعل كذا ، لايلزمه غير الاستغفار ولو فعل المحلوف عليه . قال الشيخ العدوى فى حاشية أبى الحسن بعد كلام : « ولو قال إن فعل كذا يكون مرتدا أو على غير ملة الإسلام فكذلك » يريد لاشىء عليه غير الاستغفار ، لأن هذه الألفاظ لاتنعقد بها يمين . واليمين إنما تكون بالحلف بالله أو صفة من أصفاته ، والله أعلم .

يوسف الدجوى المـالكى

الكراء

وورد من حضرة صاحب التوقيع سؤال قال فيه بعد الديباجة :

إن إنسانا اكترى حانوتا من آخر بخمسة وسبعين فرنكا فى كل شهر ، فإذا انقضى الشهر أعطى صاحب الحانوت ماذكر ، ولا زالا على ذلك مدة تتفق عن سنتين ، ثم إن المكرى قال للمكترى : عجل لى كراء ثلاثة أشهر وأكريها لك بستين فرنكا . وعقدة الكراء الأول لازالت على حالها بحيث إذا تمت الثلاثة الأشهر رجعا للكراء الأول ، وهو خمسة وسبعون فرنكا . فهل هذه المسألة تجوز أم لاتجوز؟

فذهب الفقير وهو كاتب الحروف لفضيلتكم إلى الجواز ، لأن مسألة ضع وتعجل المنصوص عليها بالمنع عند الفقهاء لاتجىء هنا لعدم الدين بالكلية فى ذمة المكترى .

وذهب الغير من حذاق بلدنا إلى المنع متمسكا بتلك القاعدة ، لأنه إذا انقضى الأجل يقبض من نفسه لنفسه تلك الزيادة وهى خمسة عشر فرنكا ، وقد قرروا أن من عجل ما أجل عد مسلفا ، فيكون سلفا جر نفعا ، فقلت له : إنما يظهر ذلك لو كان المكترى ذمته عامرة بالدين ، وحيث أنه لادين عليه بالكلية فأى شىء يضعه حتى يحكم على هذه الصورة بالمنع ، وتكون حينئذ من مشمولات ضع وتعجل ؟ فصمم على المنع .

ومن أجل هذا الاضطراب كاتبت فضيلتكم قاصداً تبيين ماهو الحق فى المسألة — : أهو الجواز أم المنع ؟

ابن فقرون أحمد بن الحاج القربى المالكى

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فجوابنا عما سألت عنه هو أن صورة الحل التى لاشك فيها هى ألا يكون المكرى والمكترى متمسكين بالعقد الأول ، ولا متفقين على ما فيه . ولهما بعد الأشهر الثلاثة أن يرجعا إليه إن شاءا ،

وأما ما دام الاتفاق بينهما على أن العقد الأول باق كما فى نص السؤال ، فالحيلة واضحة ، ونقص الأجرة انما هو للتعجيل . فإن العقد الأول لم ينفسخ ، وسيرجعان للعمل به بعد تلك المدة بناءً على مابينهما من الاتفاق ، وهنا ظاهر جدا فى أنه لم يبطل أثره ، وأن النقص إنما هو للتعجيل ، والعقد على ماهو عليه . وقد يكون هذا فى أثناء الشهر .

والعمل على أن الشهر متى حل لزمت الأجرة المكترى ، بل تسليم المفاتيح وتمكينه من الانتفاع يعد قبولا والتزاما لأجرة الشهر فى العرف .

وبهذا الاتفاق القولى أو العرفى الجارى مجرى المعاطاة فى البيع صارت ذمته مشغولة بأجرة هذا الشهر على مقتضى العقد الأول ، فإذا عجل له ستين فرنكا عد مسلفا وقد انتفع بالخمسة عشر الباقية ، ولا مناص من ذلك فى الشهر الأول الذى حصل فيه الاتفاق على النقص والتعجيل . على أن ذلك إن كان فى آخر الشهر وقبل حلول الشهر الذى

يليه فلا يجدى أيضا ، لاتفاقهما على بقاء العقد الأول كما هو مصرح به فى نص السؤال .

هذا هو مقتضى قواعد مذهب مالك الذى مبناه على منع الحيل وسد الذرائع .

فالملخص ألا يكون بينهما اتفاق أصلا ، وأن يخرجا من الاتفاق الأول الذى كان فى العقد الأول إلى اتفاق جديد ساكتين عما وراء ذلك . ولهما بعد انقضاء المدة أن يرجعا للعقد الأول إن شاءا . أما الاتفاق على بقاء العقد كما هو صريح السؤال فلا ينبغى أن يفعله من يستبرئ لدينه وعرضه . وملاك الدين الورع .

ولا يسهل على وأنا مالكى عمرى أن أفتى بغير هذا ، والله يتولى هدانا جميعا بمنه وكرمه .

القراءة على الأموات (1)
وكون الله فى السماء

جاءنا خطاب مطول من الأستاذ محمود على أحمد المدرس بمدرسة المنتزه ، تكلم فيه عن التوسل وأنه يجب أن يكون قاصراً على الأعمال ، وعن القراءة للميت . ويرى حضرته أنه لافائدة فيها للأموات ؛ وعن كون الله فى السماء . ويرى وجوب ذلك وأن القرآن يدل عليه وكذا السنة .

أما التوسل بالأعمال فهو مشروع ، به ورد الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أبو عبد الله البخارى وغيره ، ولكن التوسل ليس مقصوراً على هذا وإنما هو نوع من أنواعه ، فإن سر التوسل أن تسأل الله بما أحب من الأعمال الصالحة أو غيرها : كأن تسأله بصفاته العليا وأسمائه الحسنى ، أو بمن أحب : كأن تسأله بأنبيائه وأصفيائه .

ولا وجه لقصره على الأعمال كما يرى حضرته بل كل محبوب لله يصح التوسل به سواء كان عملا أو غيره ، والنبى أشد حبا لله من جميع مخلوقاته لايوازيه فى ذلك عمل ولا غير عمل .

وقد أوسعنا الكلام فى ذلك بما يشفى ويكفى ، فارجع إليه إن شئت . ولا داعى لأن نطيل بذكر كلام السائل فى هذا .

القراءة على الميت :

كتب السائل كثيراً نقتصر منه على المهم . والكاتب يرى أن القراءة بدعة لافائدة فيها للميت .

(1) مجلة الأزهر – العدد الأول – المجلد الثانى – المحرم سنة ١٣٥٠

قال العلامة ابن عابدين فى شفاء العليل : «وظهر فى هذه السنة الإيصاء بدراهم تدفع لقراءة الصمدية » وتاريخ الفراغ من تأليف هذه الرسالة سنة ١٢٢٩ أى أنها بدعة منذ ١٢٠ سنة .

وقال العلامة النووى فى شرحه لصحيح مسلم : «وأما قراءة القرآن وجعل ثوابها للميت فذهب الشافعى -رحمه الله- إلى أنها لاتلحق بالميت ، وقال الإمام البركوى فى خطبة له : « والصلاة والسلام على حبيبه الذى نهى أمته عن الأكل بالقرآن والدين » وقال الإمام الفيروزبادى : «ولم يكن من عادة السلف أن يجتمعوا للميت ويقرءوا له القرآن الخ » .

ثم قال السائل مفرعا على ذلك : «فكل مالم يكن مشروعا منع التعبد به وهو مردود على صاحبه ، وإذا كان كذلك فما وجه التعب فيما لافائدة فيه للميت ؟ ويستفاد من ذلك أن قراءة القرآن لم تشرع للأموات ، وسواء كانت القراءة بسورة (الإخلاص) أو غيرها من القرآن فلم تشرع البتة . وأما حديث « اقرءوا على موتاكم يس » فقد نقل عن الدارقطنى أنه قال : « هذا حديث مضطرب الإسناد مجهول المتن ولايصح »ووافق على ذلك الإمام الرازى فى شرحه للجامع الصغير. هذه عيون ماكتب السائل فى موضوع القراءة :

ونحن نقول له :

(أولا) إننا إذا كتبنا عن شىء سئلنا عنه فإنما نذكر مانرجحه من آراء العلماء فى المسألة ، وليس معنى ذلك أنه لاخلاف فيها ، بل معناه

أن المختار هو مانذكره ، وقلما تجد مسألة مما يسأل عنه السائلون لاخلاف فيها . ولهذا ننصح لكل مشفق على دينه محتاط فى أمره أن يكون أحد رجلين : فإما باحثاً منقبا عن كل ماقال العلماء غير مقتصر على بعض الآراء ، ولا مغتر بما يزينه كثير من أرباب الأهواء ، ويكون مع ذلك فيه أهلية المقارنة بين الأقوال ، والموازنة بين الأدلة ، قد جرد نفسه من النزعات الخفية قدر الاستطاعة بحيث يكون متهماً لنفسه غير مسارع للحكم بما يراه أول وهلة : شأن أئمة الهدى وعلماء السلف الذين كانوا يحتاطون لدينهم ويخافون على أنفسهم ، وسيرتهم فى ذلك معروفة مشهورة . هذا أحد الرجلين .

أما الرجل الثانى فهو رجل نظر لنفسه بالإنصاف فرآها قاصرة عن بلوغ ذلك المدى ، ورأى الأدلة متشعبة والأمر واسعًا يحتاج إلى فهم دقيق وعلم غزير يحيط بالأدلة وما يعارضها ، وبالعمومات وما يخصصها وبالمطلقات وما يقيدها ، وبالنصوص وما ينسخها ، وبالظواهر وما يقدم عليها ، وبالضعيف وما يرجح عليه ، إلى آخر ذلك البحر الزخار ، فعرف قدره ، ولم يتعد طوره ، فاختار ما عليه السواد الأعظم من المسلمين ، ولم يشذ عنهم فى قليل ولا كثير ، عالمًا أن الذئب إنما يأخذ الشاة القاصية .

ويكفى أن نستشهد فى هذا الموضوع بأن الكاتب حفظه الله نظر فى كتب أعرفها أنا ويعرفها هو فخرج منها بعقيدة أن الله فى السماء ،

وسنفيض القول فيها . ولنرجع إلى مناقشة الأُستاذ فى بعض ما قال فنقول :

إن الذى نقله عن ابن عابدين إنما يفيد كون الإيصاء هو الذى حدث فى السنة التى ذكرها للقراءة التى هى محل النزاع . ثم ليسمح لنا أن نسائله : لماذا لم ينقل عن الرسالة المذكورة إلا هذه العبارة ، وفيها كثير مما يؤيد رأينا من وصول القراءة للأموات ؟ ! وكذا عبارة صاحب القاموس لا تفيد غير أن الاجتماع للقراءة على نحو مخصوص بدعة ، وليس هذا محل النزاع . على أن فى « سفر السعادة » أشياء كثيرة أُخذت عليه .

أما عبارة البركوى فهى ناطقة بأن النهى إنما هو عن الأكل بالقرآن والدين ، وأين هذا مما نحن فيه ؟ والعجب كل العجب بعد ذلك من نتيجتك التى استخلصتها من تلك النصوص حيث تقول : فالقراءة على الأموات لم تشرع البتة وقد أغفلت آراء محترمة لعلماء محترمين من أئمة الهدى لم تقم لها وزنًا ، وليس هذا من شأن من خلا من العصبية وتجرد عن الأهواء ودعا للحق والهدى بنزاهة وإخلاص .

ولا أدل على أن هناك شهوة خفية مما ذكرته حضرتك فى حديث « اقرءوا يٰس على موتاكم » عن الدارقطنى ، وكان الواجب أن تذكر ما قاله غيره فى الحديث أيضًا .

قال فى (نيل الأوطار الجزء الرابع ص ٥٢) : « اقرءوا يٰس على موتاكم » أخرجه أبو داود وأحمد فى مسنده والنسائى وابن حبان وصححه . وقال أحمد فى المسند : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان

أن المشيخة كانوا يقولون إذا قرأت — « يعنى يٰس » — لميت خفف عنه بها . وأسنده صاحب مسند الفردوس ، وقال الطبرى فى الحديث : « إن المراد الميت الذى فارقته روحه . وحمله على المحتضر قول بلا دليل » أو نقول : مجاز بلا قرينة ، وقد ذكر شراح الكنز فى مذهب الحنفية أن كل عمل صالح يصل ثوابه إلى الميت سواء كان قراءة أو غيرها . فلينظر حضرة الكاتب هذا مع مااستنبطه من عبارة ابن عابدين الحنفى .

وأما ما نقله عن الإمام النووى فى شرح مسلم فلا أجد عنه جوابًا أحسن من أن أنقل لك نصوص الشافعية أنفسهم :

قال فى (شرح الروض فى كتاب الإجارة) : فــرع الإجارة للقراءة على القبر مدة معلومة أو قدرًا معلومًا جائزة للانتفاع بنزول الرحمة حيث يقرأ القرآن كالاستئجار للأذان وتعليم القرآن ويكون الميت كالحى الحاضر سواء أعقب القراءة بالدعاء أو جعل أجر قراءته له أم لا ، فتعود منفعة القراءة إلى الميت فى ذلك ، ولأن الدعاء يلحقه ، وهو بعدها أقرب إجابة وأكثر بركة ، ولأنه إذا جعل أجره الحاصل بقراءته للميت فهو دعاء بحصول الأجر له فينتفع به. فقول الشافعى « إن القراءة لا تصل إليه » محمول على غير ذلك .

بل قال السبكى تبعًا لابن الرفعة بعد حمله كلامهم على ما إذا نوى القارىء أن يكون ثواب قراءته للميت بغير دعاء : على أن الذى دل عليه الخبر بالاستنباط أن القرآن إذا قصد به نفع الميت نفعه ، إذ قد ثبت أن القارىء لما قصد بقراءته نفع الملدوغ نفعته ، وأقر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « وما يدريك أنها رقية » وإذا نفعت الحى بالقصد كان نفع الميت بها أولى لأنه يقع عنه من العبادات

بغير إذنه ما لا يقع عن الحي . وفي (الرملي على المنهاج) في باب الوصايا أن الدعاء بوصول ثواب القراءة للميت مقبول قطعًا ، فإنه إذا كان مقبولًا بما لا حق فيه للداعي فكيف بما له فيه حق وعمل . أي فهو مقبول من باب أولى .

وقال ابن الصلاح : وينبغي الجزم بنفع قوله : اللهم أوصل ثواب ما قرأناه ، لأنه إذا نفعه الدعاء بما ليس للداعي فماله أولى ، ويجري هذا في سائر الأعمال .

وقال الشبراملسي على الرملي : إنه إن نوى ثواب قراءته أو دعا عقبها بحصول ثوابها للميت أو قرأ عند قبره حصل له مثل ثواب قراءته وحصل للقارئ أيضًا الثواب ، فإذا سقط ثواب القارئ لمسقط كأن غلب الباعث الدنيوي فينبغي ألا يسقط مثله بالنسبة للميت فيما إذا كانت القراءة بأجرة ، وينبغي أن تكفي نية القارئ الثواب للميت ولو لم يدع ، واختار السبكي وابن حجر والرملي وغيرهم جواز إهداء ثواب القراءة للنبي -صلى الله عليه وسلم- قياسًا على الصلاة عليه .

نصوص المالكية :

قال في الشرح الكبير : إن قراءة القرآن على الموتى ليست من عمل السلف الصالح ، لكن المتأخرون على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر وجعل ثوابه للميت ، ويحصل له الأجر إن شاء الله ، وهو مذهب الصالحين من أهل الكشف . وقال في التوضيح في باب الحج : والمذهب أن القراءة لا تصل للميت ، حكاه القرافي في قواعده والشيخ ابن حمزة

وفيها ثلاثة أقوال : تصل مطلقًا ، لا تصل مطلقًا ، والثالث : إن كانت عند القبر وصلت وإلا فلا .

وفي آخر نوازل ابن رشد في السؤال عن قوله تعالى : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)(١) قال : وإن قرأ الرجل وأهدى ثواب قراءته للميت جاز ذلك وحصل للميت أجره . وقال ابن هلال في نوازله : الذي أفتى به ابن رشد وذهب إليه غير واحد من أئمتنا بالأندلس أن الميت ينتفع بقراءة القرآن ويصل إليه نفعه ويحصل له أجره إذا وهب القارئ ثوابه له . وبه جرى عمل المسلمين شرقًا وغربًا ، ووقفوا على ذلك أوقافًا ، واستمر عليه الأمر منذ أزمنة سالفة .

ومن اللطائف أن عز الدين بن عبد السلام الشافعي رئي في المنام بعد موته فقيل له : ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن للموتى ؟ فقال : هيهات ، وجدت الأمر على خلاف ما كنت أظن .

وفي الحطاب والخرشي أجازها ابن حبيب لخبر « اقرءوا يس على موتاكم » وهذا مقابل لقول مالك بعدم الوصول ، ولعل ذلك لم يصح عن مالك ، سلمنا صحته فتحمل الكراهة على فعله استنانًا . ونقل ابن الفرات في باب الحج عن القرافي : الذي يتجه أنه يحصل لهم بركة القرآن كما يحصل لهم بركة الرجل الصالح يدفن عندهم . والقراءة للميت وإن حصل الخلاف فيها لا ينبغي إهمالها فلعل الحق

(١) سورة النجم ، الآية ٣٩

الوصول ، فإن هذه الأمور مغيبة عنا وليس الخلاف فى حكم شرعى إنما هو فى أمر هل يقع كذلك ، وكذا عادة التهليل اليوم ، ويعتمد فى ذلك على فضل الله تعالى .

وقال فى المدخل : من أراد ثواب وصول القراءة فلا نزاع ، فليجعل ذلك دعاءً بأن يقول : اللهم أوصل ثواب ما أقرؤه إلى والدى مثلًا ، وفى مجموع الأمر ما يؤيد ذلك .

هذه نصوص العلماء سردناها عليك ، ووكلنا الحكم فيها إليك ، فكيف يحل مع هذه النصوص أن تقطع بعدم نفع الميت بالقراءة (البتة) ؟

هذا ومعلوم أن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال مع أن فى الباب غير الضعيف كما بيناه فى كتابتنا الأولى ، وقد قلنا أن الضعيف إذا عمل به المسلمون التحق بالصحيح لأنه يصير كالمجمع عليه ، ولا فرق بين الإجماع القولى والإجماع العملى ، وقلنا أيضًا إن القياس يقتضيه ، وقد وردت الأحاديث التى لا شك فيها بوصول ثواب غيرها من الصدقة والصلاة والصوم والحج ، فكيف القطع بعد ذلك بأنه لا فائدة فيها للميت البتة .

إنى أحب من أهل الدين والعلم أن يعلموا أن من أدلة الدين شيئاً غير ما يتشبثون به من النصوص التى جمدوا عليها يسمى القياس وهناك أنواع أخرى من الاستدلال عول عليها العلماء فى كثير من المسائل : ويعجبنى فى هذا الموضوع قول من قال من المالكية : لا ينبغى

ترك القراءة للأموات فإنه خلاف فى الواقع المغيب عنا ، فلعل الواقع الوصول . وغير خاف عليك بعد ذلك أن مسائل الفقه ظنية ، ولعلنا نحرم الميت من ثواب كثير بترك القراءة له . هذا ما نراه ولا نفتى بغيره ، ويكفى هذا فى موضوع القراءة .

أما ما ذكر السائل من كون الله فى السماء ، تلك العقيدة التى تصادم البراهين العقلية كل المصادمة فنرجئ الكلام فيه لعدد آخر فإن الكلام فى ذلك طويل وجليل [1] .

(١) تقدم فى (مقالات التوحيد والعقائد) ذلك ببسط وتفصيل .

حكم ترجمة الخطبة (١)
بغير العربية بعد تلاوتها بالعربية

ورد إلى مجلة الأزهر السؤال الآتى :

س : إن فى بلدتنا بمباى التى هى من أشهر بلاد الهند مسجدا جامعا هو أكبر المساجد فيها ، وهو مبنى على طبقتين : العليا والسفلى ومقام الإمام إنما يكون فى الدرجة التحتانية دائما ، وفى خارج بناء الطبقتين بجانب الشرق عرصة واسعة وخمسة سطوح مختصة بالصلاة وفى المسجد والفناء والأسطح سعة عظيمة تكفى لسبعة آلاف رجل مع هذا فى صلاة العيدين . المسجد مع المواضع الملحقة المذكورة لا يسع كثرة المصلين بل يحتاج الأمر إلى مزيد الاعتناء والاهتمام لنحو ثلاثة آلاف رجل على الشوارع العامة فى الجنوب والشرق خارج المسجد وأهل الدرجة العليا والدرجة السفلى من المسجد ، وأهل ملحقات المسجد والمصلون بالشوارع كلهم يصلون فى الفطر والأضحى خلف إمام واحد شافعى يخطب بالعربية فقط ويقتدون به ، فالمؤتمون وإن كانوا فى أماكن متعددة لكن الصلاة إنما تكون خلف إمام واحد .

ولما كان لا يبلغ ما يقول الخطيب إلى آذانهم لأجل البعد فيما بينهم وبينه كانوا لعدم سماع خطبته لايعتنون بها ، فكانوا يرجعون بعد صلاة العيدين بمجرد تمام الصلاة إلى بيوتهم ولاينتظرون استماع الخطبة ، لأجل هذا رأينا فى السنة الماضية أن ننصب فى الدرجة

(١) مجلة الأزهر – الجزء الرابع – المجلد الثانى – ربيع الآخر سنة ١٣٥٠

العليا وجميع الأماكن المذكورة حتى الشوارع رجالا آخرين غير الإمام يخطبون بالعربية ، وبعد تمام الخطبتين بالعربية يترجمون لهم بالأردو (لسان الهند) فهل تعيين هؤلاء الرجال للاستماع ، والترجمة بعد الخطبة العربية على النهج المذكور لتعليم الأحكام يجوز فى مذهب الإمام الشافعى أم لا ؟ وهل يجوز للخطيب يوم الجمعة أن يخطب بالعربى ثم يترجمها بالأردو قبل الصلاة أم لا ؟ وأنا المفتقر الى الله تعالى .

عبد القادر لهلهى
الناظر للمسجد المذكور وأوقافه

الجــواب

يشترط لصحة صلاة الجماعة شروط : منها أن لايتقدم المأموم على الإمام ، ومنها أن يعلم المأموم بانتقالات الإمام كانتقاله من القيام إلى الركوع ومن الركوع إلى الاعتدال ومن الاعتدال إلى السجود وغير ذلك ، حتى يتمكن من متابعته فيما يفعل ، فمتى علم بانتقالات الإمام ولو بسماع صوت مبلغ وتابعه صحت الصلاة وانعقدت جماعة ولا يضر كون المأموم مرتفعاً عن الإمام أو عكسه فى مذهب الشافعية فإن ذلك مكروه فقط إلا عند الضرورة وهى موجودة عندكم ، فالكراهة منتفية أيضاً ولله الحمد ، فلو صلى الإمام بالمسجد والمأموم بسطحه أو كان المسجد طبقتين والإمام بالطبقة السفلى والمأموم بالعليا كما هو فى مسجدكم صحت الصلاة .

وكل ماتقدم شرط فى صحة صلاة الجماعة سواء كانت الصلاة فرضاً أو نفلا طلبت فيه الجماعة كصلاة العيد والتراويح .

هذا : أما ما سألتم عنه من إقامة رجال يترجمون الخطبة بالأردو للحاضرين من المصلين ، فجوابه أنه جائز فى الفطر والأضحى ، سواء كان المترجم واحدا أو متعددا ، وسواء كان مرة واحدة أو مرارا كثيرة ، فكل ذلك جائز لاشئ فيه . وليعلم أن سماع الخطبة فى العيدين ليس واجباً وإنما هو سنة .

أما خطبة الجمعة فيجب أن تكون باللغة العربية فى المشهور من مذهب الشافعية ، ويجب أن يسمعها أربعون من أهل الجهة وإن لم يعرفوا لغة الخطيب أو لم يفهموا معنى الخطبة ، فإنه لا يشترط فهم معناها ، فإن شئتم اقتصرتم على إلقائها بالعربية ، ولا يضر سماع غير الأربعين ، وإن شئتم ترجمتها للمصلين بلغتهم فافعلوا ذلك بعد الصلاة لا قبلها ، محافظة على الموالاة بين الخطبة والصلاة فليتنبه لذلك ، وأنتم وما تريدون بعد الصلاة ، فلكم إن شئتم تجعلوها خطبة بالأردو ، ولكم أن تجعلوها درسا واحدا أو متعددا .

ولا أدرى لماذا يعيدها المعيدون بالعربية ثم يترجمونها على ما يقول السائل .

والخلاصة أنكم إذا اقتصرتم على الخطبة العربية صح وإن لم يسمعها جميع الحاضرين أو لم يفهموها ، فإنه لايشترط سماع الجميع ولا فهمهم للخطبة ، وأما بعد الصلاة فللإمام أن يترجمها وكذلك لغيره منفردا أو متعددا ، وإن عملتم دروساً بعد الصلاة تلقى فى نواحى المسجد وما اتصل به يبين فيها موضوع الخطبة أو غيره كان ذلك حسناً ومفيدا . والله يتولى هدى الجميع .

الشريعة منبع السعادة (١)

سر معى على ما أحب عسى أن تجد ما تحب ، وإياك والرعونة فطالما حرمت أهلها من خيرات وحجبت عقولهم عن حقائق ، فحرك معى الفكر أيدك الله وتجرد عن كل ما تملك نفسك وانطبع فى مرآة قلبك عن تقليد واستحسان لا عن دليل وبرهان .

وإذا غلب عليك الإنصاف وصادفك الرشد وفعلت ما اتفقنا عليه وجدت الشريعة قد جاءت بسعادة الروح والبدن جميعا ، والإنسان كما تعلم مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى أرضى ، وإنك لا تسعى وراء مطالب الأبدان وما تحتاج إليه إلا من حيث إنك حيوان لا من حيث إنك إنسان ، وتعلم أن كل حيوان يطلب المطاعم والمشارب وما يقيه من الحر والبرد إلى غير ذلك ، وأنه لا قيمة لما يشاركك فيه الحيوانات وإن كنت فى طلبه أوسع تدبيرا وأتقن صنعا وأعظم تفننا ، واستحققت بذلك أن تكون سيد الحيوانات .

ولكن الوصف الذى صيرك إنسانا وألحقك بالملائكة هو أنك أعطيت نفساً شريفة تشاكل بها الملائكة وتستعد لأن تعرف من جلال الله تعالى وجماله ما لا يعرفه غيرك ، ويمكنك أن تترقى فى الكمالات دائما وتنخرط فى سلك العالم الأعلى الذى لا يلحقه ألم ولايشوبه نقص

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثامن — المجلد الثانى — شعبان ١٣٥٠ .

وأن تفارق عالم الحيوان الذى تؤذيك فيه البعوضة ويسقمك فيه الحر والبرد ، وتزعجك الأحلام وتخيفك الأوهام .

وبمقتضى ذلك الجزء الروحانى الذى ليس له حد محدود فى الترقى فى الكمالات « وعلى قدرها تكون اللذة والنعيم » كانت هذه الحياة الحيوانية غير كافية لروحك ولا موفية حق استعدادك ، فكان لك بمقتضى حكمة الحكيم حياة أخرى لا تنفد حتى يتأتى لك فيها أن تأخذ كل ما يقتضيه استعدادك وتوجبه حقيقة ذاتك مما لم يخلق له الحيوان ولا يمكنه أن يصل إليه ، ولولا ذلك لكان غيرك من المخلوقات أسعد منك حالا وأنعم منك بالا ، ولكان إيجادك على هذا الوجه من السفه بمكان ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)[1] .

إن لذة هذا الجزء الروحانى إنما هى بالعلوم والمعارف والأنوار والأسرار ، وإنه قد يصل إلى حد تنفعل عنه الأشياء كلها ويكون فى نعيم بلا كدر وصفاء بلا تشويش[2] وقد جاءت الشريعة تعالجك من الأمراض التى أحاطت بك ، وتحاول أن توصلك إلى هذا الحد وتظهر فيك خاصة الإنسانية .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٥

(٢) قد ورد التشويش والتهويش جميعا ، خلافا للحريرى الذى جعل التشويش لحنا .

ولا تعجل على – يرحمك الله – فإنى معترف معك بأنها جاءت تحث على مصالح الأبدان وسعادتها أيضا ، فإذا قد جاءت الشريعة بسعادة الأبدان والأرواح ، وإن شئت فقل بسعادة الدنيا والاخرة فشرعت العبادات البدنية عسى أن تدخل إلى قلبك من الأنوار وتذكرك من العظمة الإلهية ماتوفى به قسط الروح ومايجلو مرآة القلب مما تراكم عليها من ظلمة وعلا عليها من صدأ ، وما تنتفع به فى مصالح البدن أيضا ، فإنه إذا انجلت مرآة قلبك تجلى فيه الحق حقا والباطل باطلا ، وظهر لك قبح الصفات الذميمة من الحقد والحسد والطمع والشره وحسن العفة والسخاء والشجاعة والاقتصاد وسلامة الصدر إلى آخر الفضائل والرذائل ، وتقوى عقلك بذلك المدد النورانى ، فاجتنبت مايشينك وتحليت بما يزينك فطاب عيشك وتم سرورك .

وإلا حقت عليك الكلمة وأحاطت بك الشقوة ، ولم تنفعك أموالك ولا أولادك ، متى كنت فيها على غير تأييد إلهى ونور ربانى (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا)[1] فيضيع منك طيب الحياتين ويفوتك تحصيل السعادتين (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)[2] بصرك الله فى أمرك وهداك إلى رشدك ، ولا جعلك ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، بمنه وكرمه .

(١) سورة التوبة ، الآية ٥٥

(٢) سورة طه ، الآية ١٢٤

حكم الانتفاع بالمرهون (١)
من أرض وغيرها

جاءنا هذا الخطاب من صاحب الإمضاء :

سيدى المحترم صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى :

تحية وسلاما . وبعد . فهأنذا أكتب إليكم اليوم متطلعا لذلكم القبس الذى بددتم به ظلام الباطل ، فطالما أتيتم بحججكم الباهرة على أضاليل المغررين ، وأظهرتم الحق واضحاً جلياً لذى عينين ومن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

أريد أن أستطلع رأى فضيلتكم فى نوع من المعاملات جرى التعامل به بين الناس واشتهر أمره فيما بين الخاص والعام ، ذلك النوع من المعاملة هو أن يعطى شخص شخصًا آخر مائة جنيه مثلا ، فى نظير أن يحبس قطعة من الأرض على سبيل الرهن ، ويكون للمرتهن بمجرد العقد أن يتصرف فى الرهن كيف شاء ، فإما أن يؤجرها إلى الراهن ويضم قيمة الإيجار إلى المبلغ الأصلى ، وبذلك تزداد المائة باطراد كل سنة ، وإما أن يؤجرها إلى غير الراهن ويأخذ قيمة الإيجار لنفسه بدون أن يخصمها من أصل المبلغ ، وإما أن يزرعها هو ويأخذ الزرع من غير أن يكون للراهن أى نصيب فيه ، وفى جميع الحالات تبقى الأرض تحت يده على سبيل الرهن ، فهل هذا يجوز ؟

(١) مجلة الأزهر – الجزء العاشر – المجلد الثانى – شوال سنة ١٣٥٠

أرجو أن تجيبوا عن هذا السؤال على صفحات مجلة نور الاسلام إحقاقاً للحق ولكم جزيل الأجر وخالص الشكر .

ع . ح بالبريجات

الجـواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد ، فقد دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على تحريم الربا بسائر أقسامه ، واتفق العلماء من السلف والخلف على أن منها ربا بالقرض ، وقد اشتهر فى ذلك قولهم : « كُلُّ قَرْضٍ جَرَّ نَفْعًا فَهُوَ رِبًا » بحيث صار كالضرورى بين أهل العلم ،

وهذا النوع من المعاملة الوارد بالسؤال وهو أن يعطى شخص شخصاً آخر مائة جنيه مثلا فى نظير أن يحبس قطعة من الأرض على سبيل الرهن ويكون للمرتهن بمجرد العقد الانتفاع بالمرهون بوجه من الوجوه التى ذكرها حضرة السائل فيه ربا القرض من غير شك .

ومما يوضح ذلك أن شرط الانتفاع بالمرهون شرط باطل ينافى مقتضى القرض ، إذ هو تمليك مال على أن يرد مثله فقط ابتغاء الثواب الأخروى طلباً لمرضاة الله تعالى ، وينافى أيضاً مقتضى الرهن ، إذ هو شرعاً جعل عين متموّلة تحت يد الدائن بدينه يستوفى منها عند تعذر الوفاء ، وإذاً فلا سبيل لحل انتفاع المقرض المرتهن بالمرهون فهو حرام لمكان الزيادة التى لا حق له فيها .

والربا فى الأصل الزيادة . وقد تقرر بالاتفاق التحريم لكل قرض اشترط فيه أن تكون منفعة المرهون للمقرض مطلقاً من غير تفصيل ، إلا ما يذكر عن الشافعية من أن محل التحريم وقوع الشرط الباطل فى صلب العقد ، ولكن من المقرر عندهم أيضاً أن المجلس حريم العقد فله حكمه ، فإن تواطأ المتعاقدان على ذلك قبل العقد ، فلا حرمة ، على ما يراه كثير منهم ، لكن قال محققون منهم أيضاً : هذا من حيث الظاهر ، وأما من حيث الباطن فحرام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى » .

هذا وقول الحنفية : نماء المرهون يتبعه ؛ ليس معناه أن المرتهن يستحقه ملكا كما قد يتوهم بعض الناس ؛ بل المعنى أن النماء يكون مرهوناً كالأصل ، فالدائن المرتهن لا يستحق شيئاً من المنفعة ولا يحل له ذلك ، حيث إن الزيادة لا يقابلها شىء من القرض .

ولكن هل لنا حالة يمكن أن يكون للمرتهن فيها حق الانتفاع باعتبار آخر ؟ يتضح لك جواب هذا السؤال مما يأتى :

قال الإمام ابن رشد فى بداية المجتهد : « والجمهور على أن ليس للمرتهن أن ينتفع بشىء من الرهن » وقال قوم : إذا كان الرهن حيواناً فللمرتهن أن يحلبه ويركبه بقدر ما يعلفه وينفق عليه . وهو قول أحمد واسحاق بما رواه أبو هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « الرَّهْنُ مَحْلُوبٌ وَمَرْكُوبٌ » انتهت عبارته .

وهذا الحديث روى أيضاً بغير هذا اللفظ : قال صلى الله عليه وسلم : « الظَّهْرُ يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا ، وَلَبَنُ الدَّرِّ يُشْرَبُ

بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا ، وَعَلَى الَّذِى يَرْكَبُ وَيَشْرَبُ النَّفَقَةُ » أخرجه الدارقطنى والحاكم والبيهقى وابن حبان .

ورأى الجمهور أنه يخالف أصولاً مجمعاً عليها وآثاراً ثابتة لا يختلف فى صحتها (كما فى شروح البخارى ونيل الأوطار وغيرها) فقال بعضهم : إنه منسوخ ، ويدل لذلك حديث ابن عمر – رضى الله عنهما – عن البخارى وغيره : « لَا تُحْلَبُ مَاشِيَةُ امْرِىءٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِ » . وتعقب بأن التاريخ لا يعرف حتى يقال بالنسخ ، لذلك ذهب الأكثر إلى التأويل فيتعين حمل الحديث على ما إذا امتنع الراهن من الإنفاق على المرهون ، فيباح حينئذ للمرتهن ، وهو قول الأوزاعى والليث وأبى ثور رحمهم الله تعالى .

ومما يدل للجمهور أيضاً حديث أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – « لا يَغْلَقُ[1] الرَّهْنُ مِنْ صَاحِبِهِ الَّذِى رَهَنَهُ : لَهُ غُنْمُهُ وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ » قال فى (منتقى الأخبار) : رواه الشافعى والدارقطنى ، وقال : إسناد حسن متصل ، وقال شارحه : إنه رواه أيضاً الحاكم وابن حبان فى صحيحه ، وإنه روى من طرق مختلفة : منها صحيح ومنها ضعيف ، وإنه روى مرفوعاً وموقوفاً ومرسلا . ومن هنا يظهر أنه صالح للاحتجاج به للجمهور ، بل الحديث إذا روى من طريق صحيح وآخر ضعيف كان أقوى مما إذا روى من طريق صحيح فقط .

(١) غلق الرهن كفرح : استحقه المرتهن . فمعنى لا يغلق الرهن : لا يملكه صاحب الدين بدينه بل هو لصاحبه فإن تعذر الوفاء بيع واستوفى منه . ومعنى له غنمه وعليه غرمه أن له زيادته ونماءه وإذا نقص أو تلف فعليه .

الخلاصة

أن التحريم متفق عليه فى غير مسألة المركوب والمحلوب ، ونقول فى غير مسألة المرهون إذا كان حيواناً محتاجا للنفقة ، أما فيها فقد قيل بالحل ، ولكن الجمهور على خلافه ، ولا شك أن الأرض المرهونة ليست كالحيوان حتى تقاس عليه ، فلا يجوز أن يكون القرض على رهنها سببا فى الانتفاع بها اتفاقاً ، فإن محل الخلاف بين الجمهور وغيرهم إنما هو الحيوان كما علمت .

وبعد فالمؤمن ينظر لنفسه ويستفتى قلبه وإن أفتاه المفتون ، ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، ولذلك لم نعرج على ما عسى أن تكون قد سمعت مما يخالف ما كتبناه ، والله يتولى هدى الجميع .

حكم الصلاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد الأذان[1]

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتى :

حضرة صاحب الفضيلة المرشد الأكبر سيدى الشيخ يوسف الدجوى المحترم .

بعد الاحترام والتحية لنا سؤال نرجو من فضل سيادتكم التكرم بإجابتنا عنه فإننا لا نثق إلا بكم ، أما أولئك المتشدقون فلا نثق بهم ولا نأخذ ديننا عنهم : ذلك أن لنا جامعاً منسوبا إلينا ، ولنا مؤذن يؤذن الآذان الشرعى على المئذنة ويعقبه الصلاة على النبى –صلى الله عليه وسلم– فاعترضه آخر قائلا له : لابد أن تستغفر الله لأنك أتيت جرماً بصلاتك على النبى بعد الأذان الشرعى .

ونحن متعطشون لفتواكم فهى لنا بمثابة نور يسطع وسط الظلمات فيبددها ، حتى نكون بعد ذلك على طمأنينة بمعرفة أننا على الحق ، وحاشا أن نكون فى ليل دامس مادام فينا الشيخ الدجوى وأمثاله . ونحن لجوابكم منتظرون ولفتواكم سامعون ، أدامكم الله قوة للدين ونبراساً للحائرين .

يوسف محمد صقر

(١) مجلة الازهر – الجزء الأول – المجلد الثالث – المحرم سنة ١٣٥١

الجواب

الصلاة على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعد الآذان لا بأس بها ، وحاشا أن تكون جرماً ، فقد نص العلماء على أنها بدعة حسنة حدثت زمن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٧٨١ وقد استحسنها العلماء على اختلاف مذاهبهم ولم يمنعوا منها ، فقول القائل للمؤذن أنك أتيت جرماً بصلاتك بعد الآذان كذب وجهل ، وماأتى بالجرم غيره .

وقبل أن نتكلم فى المسألة من الوجهة العلمية بما يناسب الخاصة ننصح للعامة قبل ذلك ألا يجادلوا تلك الطائفة ولا يخوضوا معهم فى البحث ، فإنهم يلبسون عليهم بما يذكرونه من كلمات مموهة أو أحاديث لم يدروا لها معنى ولم يعرفوا لها مغزى ؛ وأين هم من الاستنباط والأخذ من السنة والقرآن ؟ فذلك بحر لا ساحل له اضطرب فيه العلماء الأعلام والأئمة العظام .

وليعلم القارئ الكريم أن المجتهد الذى يأخذ من الكتاب والسنة لا بد أن يكون عارفاً بمواقع العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ، مقدماً الخاص على العام والمقيد على المطلق ، عالماً بتاريخ النصوص حتى يعلم الناسخ والمنسوخ ، محيطاً بمواردها ، عارفاً درجة كل حديث ، باحثاً عما عسى أن يكون فيه من علة خفية لا يعرفها إلا حذاق الحفاظ عالماً بطرق الترجيح حتى يقدم بعضها على بعض عند التعارض ، غير خاف عليه مواقع الإجماع والاختلاف . .

وليعلم أن للعلماء اختلافاً كثيراً فيما بنوا عليه مذاهبهم وفيما يقدم من الأدلة وما لا يقدم منها كعمل أهل المدينة عند مالك مثلا إلخ إلخ . ولابد بعد ذلك أن يكون فيه استعداد للاستنباط من الكتاب والسنة ، محيطاً بكل ما يتوقف عليه ذلك مما بينه علماء الأصول . وليعلم أن العلم وحده غير كاف فى الاجتهاد ما لم يصحبه الاستعداد الرفيع وذلك النور الذى يسطع فى قلب من شاء الله من خاصة عباده ، ولذلك كان كبار المحدثين وعظماء الحفاظ مقلدين لا مجتهدين ، علماً منهم أن سعة الاطلاع لا تكفى وحدها فى الاجتهاد .

وربما كان بعض الحفاظ المقلدين أكثر حديثاً من بعض الأئمة المجتهدين ، ولكن هؤلاء الحفاظ كانوايقلدون أولئك الأئمة اتهاماً لنفوسهم واستقصاراً لمداركهم واحتياطاً لدينهم ، ومعرفة بأقدار أولئك المتبوعين ، علماً منهم أن لهم من معرفة روح الشريعة ومن الذوق الخاص فى أسرارها والحدس الذى يعرفون به مالا يعرفه غيرهم من خفايا الدقائق ما ليس لأُلئك المقلدين وإن كانوا حفاظاً متقنين .

وقد قالوا : إن المحدث كالصيدلى والمجتهد كالطبيب . ولا شك أن الصيدلى إذا جعل نفسه طبيباً قتل من المرضى أكثر ممن صادف دواؤه الداء فيهم فكأن هؤلاء الحفاظ هم المشار إليهم فى حديث البخارى بذكر الأجادب من الأرض التى أمسكت المـاء فانتفع الناس وشقوا وزرعوا. وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِن سَامِعٍ ورُبَّ حامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ » .

ثم نقول بعد هذا : أنه قد وصل بعض المتمسكين بظواهر الأحاديث إلى حد التشبيه والتجسيم فى حقه تعالى اغتراراً بآيات الصفات وأحاديث

الصفات ؛ ولو قلد غيره من أئمة الدين لنجا من ورطة التشبيه والتجسيم ولكنه أراد أن يستقل وهو غير أهل للاستقلال فضلّ من حيث لا يشعر ، فالذى نريده من العامة وننصح لهم به ألا يصغوا لأولئك المهوشين الذين يلبسون عليهم بذكر الآيات والأحاديث ولكن يقولون لهم : أنهم مقلدون والمقلد يلزمه أن يتبع الجمهور لا من شذ عنهم .

وقد اجتمعت ببعض من يحبذ آراء ابن تيمية ويدعو إلى اتباعه فقلت له : « أنا لا أتبع ابن تيمية مطلقاً لأنى إن كنت قد بلغت درجة الاجتهاد فلا أتبع غيرى ، وإن لم أبلغ درجة الاجتهاد كنت مع الجمهور لا مع من شذ عنهم ، فذلك أحوط فى الدين وأقرب إلى العقل والنقل » .

بل نقول : إننا إذا وازنا بين أولئك المتشدقين وبين إمام واحد من الأئمة كالشافعى أو مالك مثلا ، لم نجد نسبة بينهما ، وما لنا نذكر مالكاً والشافعى ونحن إذا وازنا بينهم وبين أتباع أئمة الهدى بل كبار علماء العصر وجدنا البون شاسعاً والفرق عظيماً .

فكيف يحل للمقلد أن يترك أولئك العظماء المشهود لهم بالدين والفضل ويتبع أولئك المتشدقين الذين شذوا عن السواد الأعظم ، وأوقعوا الفرقة بين المسلمين ، وتحكموا فى دين الله فأرادوا أن يلزموا الناس بمذهبهم الخاص ، مع أننا لا نعترف لهم بإمامة ولا اجتهاد ، بل لا نعترف لهم بنظر دقيق ولا فهم صحيح ؟ فأين هم من درجة الاجتهاد وبينهم وبينها أبعد مما بين السماء والأرض (ومن لى بأن تدرى بأنك لاتدرى) ؟

على أنهم لو كانوا مجتهدين حقاً ما صح أن يلزموا الناس مذهبهم ، فإن مسائل الفروع يكفى فيها الظن ، وقد جاء فى الحديث « أَنَّ مَن اجْتَهدَ فأَخطأَ كَانَ لَهُ أَجْرٌ ، وَمَنْ اجْتَهَد فأَصابَ كَانَ لَهُ أَجْرَانَ » . فالمدار على أن يكون الحامل له على العمل امتثال أمر الشارع حتى لايكون خارجاً على الله ورسوله .

وقد كان أئمة الهدى يقلد بعضهم بعضاً ويثنى بعضهم على بعض ولا يرون بأساً باتباع غيرهم ، وها هو ذا الإمام مالك لم يرض من الخليفة العباسى أن يحمل الناس قسرا على موطئة — وهو هو عند مالك — احتراماً لرأى غيره من العلماء واتهاماً لنفسه التى يجوز عليها الخطأ ، وعلماً بأن مسائل الفقه ظنية يكفى فيها الظن ، بل بعض أئمة الهدى قلد غيره فى بعض المسائل كأبى يوسف الذى قال : « نقلد إخواننا الحجازيين » عندما أخبروه بأن البئر التى توضأ منها وقعت فيها فأرة ، إلى آخر ما لا يسعه هذا المقال .

فالخلاصة أن المقلد لبعض الأئمة كالشافعى مثلا يلزمه ألا يخوض مع أولئك المتحذلقين فى الأدلة ، وإنما يقول لهم : إن أمامى أعظم فى نفسى منكم ، ولا يحل لى أن أترك الفاضل وأتبع المفضول ، ولا أدع العالم وأتبع الجاهل . هذه هى النصيحة التى أردنا أن نسديها للعامة .

ولنقل كلمة فى الموضوع تناسب الخاصة :

لا شك أن الصلاة على النبى – صلى الله عليه وسلم – من أعظم القرب ، وقد طلبها منا القرآن العزيز والسنة الشريفة ، ولا داعى للإطالة فى هذا.

وقد جاء فى خصوص الصلاة بعد الأذان أحاديث صحيحة : منها ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَايَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَىَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَىَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّها مَنْزِلَةٌ فِى الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِى إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةَ » رواه مسلم فى صحيحه .

ونقول : على فرض أن ذلك الحديث لم يرد وصلينا عليه صلى الله عليه وسلم بعد الأذان لم يكن هناك بأس ، وحصل لنا الثواب العظيم بذلك ، فإن النبى – صلى الله عليه وسلم – أمرنا بالصلاة عليه ولم يلزمنا بوقت مخصوص ولا كيفية مخصوصة فلنا أن نصلى عليه فى أى وقت شئنا وبأى كيفية أردنا حيث إنه لم يرد نهى عن شىء خاص ولا أمر بشىء خاص بل وكل ذلك إلى اختيارنا ، وليس هذا إلا استعمالا للمطلق فى بعض جزيئاته (وهو بالضرورة لابد أن يستعمل فى بعض جزئياته وهى كلها فيه على السواء) .

وقد قال البيانيون : إن استعمال الكلى فى بعض جزيئاته من حيث تحققه فيه ليس مجازا بل حقيقة .

فإذا صلينا على الرسول – عليه الصلاة والسلام – بعد الأذان بمقتضى ذلك الإطلاق بأى كيفية من الكيفيات ، كان طاعة يثاب عليها فاعلها الذى أتى بها على أنها من أفراد ذلك المطلق غير معتقد سنية تخصيصها بذلك الحال أو تلك الكيفية خلافاً للمشددين أو المتشدقين . وليس يخفى عليك الفرق بين من يأتى بها بمقتضى الأمر العام ومن يأتى بها لأجل كون تلك الكيفية الخاصة سنة أو لكون ذلك الوقت مطلوباً من حيث خصوصه ، فكيف وقد ورد الحديث الصحيح بالصلاة عقب الأذان ؟ وقد ترك تلك الكيفيات الخاصة إلينا – صلى الله عليه وسلم – نختار منها ما شئنا .

فيجوز لسامع الأذان المطلوب منه ذلك أن يصلى سراً أو جهراً كما يشاء ، فأصل الصلاة مطلوبة وكيفيتها مباحة فكذلك المؤذن يطلب منه الصلاة بعد الأذان ويباح له أن يصلى سراً أو جهراً كما يشاء ، لأننا لم نلزم فيها بكيفية خاصة ، ولا نعتقد أن الكيفية المخصوصة سنة من حيث خصوصها ، بل نقول إنها من تلك الحيثية مباحة .

ولهذا كله قال العلماء المحققون غير الجامدين : إنها بدعة مستحسنة ولم يروا بأساً برفع الصوت بها بعد الأذان . على أن فى الجهر بها فائدة جليلة وهى تذكير السامعين بها ، فيكون وسيلة لإتيانهم بما ورد فى ذلك الحديث المتقدم متى سمعوا ذكر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، وبدون ذلك قلما يأتون بها ، بل كثير منهم لا يعرف ذلك الحديث الذى طلبها منا بعد الأذان .

وليت شعرى هل يقول أولئك الجامدون : أنه لابد من تحرى الكيفية التى كان عليها الناس زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم– عندما كانوا يصلون عقب الأذان ، فلا يجوز أن نرفع صوتنا أكثر مما كانوا يرفعون ، أو نخفضه أكثر مما كانوا يخفضون ، وإذا كانوا قد أتوا بها فى « ثانية » مثلا أو ثانيتين أن نخالفهم فى ذلك فنجعلها فى ثلاث أو أربع مثلا ، إذا أتوا بها قائمين لم نأت بها قاعدين إلى غير ذلك ؟! أم هو الجمود الذى يبرأ منه الإسلام خصوصاً إذا أحدث فتنة قد توقع فى الكبائر من أجل مسألة غاية أمرها أن تكون خلاف الأولى لو تنزلنا وسلمنا لهم وجهة نظرهم ، مع أن الأمر فيها على خلاف ما ظنوا ؟

وليعلم أن البدعة المنهى عنها التى لا ترجع إلى دليل من أدلة الشرع ؟! فلا يقبلها كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس ، أما ما يكون داخلاً فى عمومات الكتاب أو السنة أو يمكن استنباطه بوجه من الوجوه ، فليس من البدعة المنهى عنها وإن لم يكن فى زمنه –صلى الله عليه وسلم– ولا زمن أصحابه .

ويكفى هذا الإيجاز ، والمنصف يكفيه القليل ، والمتعسف لا ينفعه الكثير .

عبد الله بن سلام (١)
وكعب الأحبار – ووهب بن منبه

ورد إدارة المجلة السؤال الآتى :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قرأت بإحدى المجلات الجملة الآتية :

« تظاهر جماعة من أحبار اليهود بالدخول فى الإسلام ليصيبوه فى مقاتله إذ عجزوا عن هدمه بمناوأته وجهاً لوجه ، وقد نالوا بعض بغيتهم بتسميم العقول وبث الأضاليل فى النفوس ، وهكذا فتنوا الناس بالخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان ، ورأس هؤلاء الذين اندسوا بين المسلمين لإفساد عقائدهم ثلاثة : « كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام » » .

فهل هؤلاء الثلاثة كما ذكر الكاتب ؟ أرجو بيان الجواب على صفحات مجلة الأزهر حيث أن هذه الجملة تخالف عقيدة كثيرين من المسلمين . أسأل الله أن يلهمنا الصواب ، والسلام عليكم ورحمة الله .

محمود الشربينى

بفارسكور

(١) مجلة الأزهر : الجزء الثالث . المجلد الثالث – ربيع الأول سنة ١٣٥١

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما بعد فإن كثيراً من الناس يجازف فيما يكتب ولا يتحرى الصواب فيما يحرر ، وقد رأينا بعض المشهورين بالأدب والتاريخ من كبار الكتاب بمصر يقرنون عبد الله بن سلام الصحابي الجليل بعبد الله بن سبأ اليهودي الخبيث الذي نفي مراراً ، وأضل الناس بدعوتهم إلى التغالي في حب علي – كرم الله وجهه – ، وبغض عثمان – رضي الله عنه – كيداً للإسلام والمسلمين ، فأين هذا من ذلك . ولكننا في عصر أصبح الناس فيه فوضى في كل شيء حتى العلم والدين .

ولنقص عليك بعض ما قال العلماء في عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه فنقول : جاء في (تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي) ما نصه :

عبد الله بن سلام

هو عبد الله بن سَلَام بن الحارث الحبر أبو يوسف الإسرائيلي حليف الأنصار ، أسلم وقت مقدم النبي – صلى الله عليه وسلم – المدينة ، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله (عبد الله) وشهد له بالجنة ، وفيه نزلت « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ »[1] وقوله تعالى : « وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ »[2] وكان عبد الله من علماء أهل الكتاب

(١) سورة الأحقاف الآية ١٠

(٢) سورة الرعد ، الآية ٤٣

وأفاضلهم في زمانه بالمدينة ، روى عدة أحاديث ، حدث عنه أنس بن مالك وزرارة بن أوفى قاضي البصرة ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو يوسف المقبري ، وأبو بردة بن أبي موسى ، وابناه يوسف ومحمد ابنا عبد الله وآخرون ؛

روى معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن يزيد بن عميرة قال : لما احتضر معاذ قيل له : أوصنا ، قال : إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما ؛ فالتمسوا العلم عند أبي الدرداء أو سلمان وابن مسعود وعبد الله بن سَلَام ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّهُ عَاشِرُ عَشَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ » أخرجه الترمذي . وروى مالك عن سالم أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال : « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد إنك في الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) متفق عليه .

روى عاصم بن بهدلة عن مصعب عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَدْخُلُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فدخل ابن سلام ، ومن غير وجه أن ابن سَلَام رأى رؤيا فقصها على رسول الله فقال له : « تَمُوتُ وَأَنْتَ مُسْتَمْسِكٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » .

وعنه أنه مر يحمل حزمة حطب فقيل له : أليس قد أغناك الله عن هذا ؟ فقال : بلى ولكني أردت أن أقمع الكبر . واتفقوا على موته سنة ثلاث وأربعين اهـ ؛

(١) سورة الأحقاف : الآية ١٠

كعب الأحبـــار

هو كعب بن ماتع الحميدى ، من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب ، أسلم فى زمن أبى بكر ، وقدم من اليمن فى دولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ، وروى عنه جماعة من التابعين مرسلا ، وله شئ فى صحيح البخارى وغيره . اهـ .

(وهب بن منبه)

هو الحافظ أبو عبد الله الصنعانى عالم أهل اليمن ، ولد سنة أربع وثلاثين ، روى عن أبى هريرة كثيراً ، وعن عبد الله بن عمر وابن عباس وأبى سعيد وجابر بن عبد الله وغيرهم ، وعنده من علم أهل الكتاب شئ كثير ، فإنه صرف عنايته إلى ذلك وبالغ ، وحديثه فى الصحيحين عن أخيه همام ، ولهمام عن أبى هريرة نسخة مشهورة أكثرها فى الصحاح رواها عنه معمر ، وقد طال عمر همام وعاش إلى سنة نيف وثلاثين ومائة ، وحدث عن وهب ابن أخيه عبد الصمد وأقاربه ، وعمرو بن دينار وإسرائيل أبو موسى ، وسماك بن الفضل وعوف الأعرابى وآخرون ، وكان ثقة واسع العلم مثل كعب الأحبار فى زمانه .

قال العجلى : كان وهب ثقة تابعيا ، وكان على قضاء صنعاء . وقيل كان والده من أهل هراة ممن بعثهم كسرى لأخذ اليمن ، وأسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم . وعن وهب قال : يقولون عبد الله

ابن سلام أعلم أهل زمانه وكعب أعلم أهل زمانه ، أفرأيت من جمع علمهما ؟ يعنى نفسه . قال مثنى بن الصباح : لبث وهب عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والفجر وضوءاً . ولوهب ترجمة طويلة فى تاريخ دمشق :

فها أنت ذا ترى (عبد الله بن سلام) من أكابر الصحابة قد نزل فى حقه قرآن مثل قوله تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة . فكيف يسوى بعبد الله بن سبأ الضال المضل ؟ وهل هذا إلا خلط يحرمه الدين والعلم جميعاً ، ويسخر منه التاريخ لدى عارفيه ؟

وأما كعب الأحبار ووهب بن منبه فهما من العدول الثقات . وقد سمعت أن وهباً كان يصلى الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة ، وكان ابن عباس ينقل عن كعب الأحبار ويرجع إليه هو وغيره من الصحابة .

وأما ما يرويه هو ووهب بن منبه رضى الله عنهما فلم يسنداه إلى الرسول ولم يكذبا فيه على أحد من المسلمين ، وإنما كانا يرويانه على أنه من الإسرائيليات ، ولستَ مكلفاً بتصديقه ولا الإيمان به .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نلفت نظرك إلى أن ابن جرير الطبرى وغيره من المفسرين قد يذكرون أشياء غير صحيحة ، ولكن عذرهم فى ذلك أنهم يذكرون السند ، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند

فقد خرجوا من العهدة ، فإن أحوال الرجال كانت معروفة فى العهد الأول ، وبذلك يعرف ما يروونه من ضعف وصحة .

ولكن خلت العناية الآن بذلك العلم ، فعلى من يشتبه فى شيء مما يذكرونه أن يبحث عن رجال السند الذى ذكروه ، ليعرف ما عسى أن يكون من راو ضعيف أو وَضَّاع ، ولينظر مع هذا أهو إسلامى أم إسرائيلى ، وليعط كلا حكمه ، فإن لم يفعل فليست التبعة عليهم بل عليه.

أسأل الله أن يرزقنا الأدب فى حق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى حق سلفنا الصالح ، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفه عين بمنه وكرمه .

صَاحبُ المنار[١]
والصَّلاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد الأذان

رحم الله امرءا عرف قدره

كتبنا فى الجزء الأول الصادر فى شهر المحرم من هذه السنة جواباً عن سؤال ورد إلينا يقول كاتبه : إن بعض الناس قال لمن أتى بالصلاة عقب الأذان : إنك أتيت جرماً ، فقلنا له : إن ذلك ليس جرماً وحاشا أن يكون جرماً فإن العلماء صرَّحوا بأنها بدعة حسنة ، ويصرح الشافعية بأنها سنة عقب الأذان من المؤذن وغيره ، وروينا فى ذلك ما جاء فى صحيح مسلم : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ » الحديث .

ثم قلنا ما ملخصه : إن المؤذن ممن سمع الأذان ، وكل من سمع الأذان طلب منه الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – بمقتضى هذا الحديث الصحيح ، ثم هو مخير بعد ذلك ، فإن شاء ذكرها سرا وإن شاء ذكرها جهرا ، فكل ذلك محصل لامتثال الأمر النبوى ، فإنه لم يلزمنا صلى الله عليه وسلم ، فى ذلك كيفية مخصوصة ، فأصلها مطلوب بالأمر العام الذى ورد به القرآن ، وهى بعد الأذان مطلوبة طلباً خاصاً بمقتضى هذا الحديث . أما الكيفية فهى موكولة إلى اختيارنا ، ولو كانت الكيفية المخصوصة لازمة للزمنا أن نبحث عن درجة جهرهم

(١) مجلة الأزهر – الجزء الخامس – المجلد الثالث . جمادى الأولى ١٣٥١

وأسرارهم وسرعتهم فى النطق بها وإبطائهم فى ذلك ، إلى آخر ما قلناه فى تلك المقالة .

ثم قلنا : لا يصح أن يرمى من أتى بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بالإجرام ، ومن فهم أنها داخلة فى البدعة التى هى ضلالة فهو جاهل وجامد لا ينبغى أن يعد فى سلك العلماء .

والخلاف بين من يقسم البدعة إلى حسنة ، وغيرها ، وبين من يرى أن البدعة لا تكون حسنة ، وهو خلاف لفظى فى الحقيقة ، فإن الأول أراد البدعة اللغوية ، والثانى أراد البدعة الشرعية ، وقد نقل ذلك التقسيم عن الإمام الشافعى نفسه — الذى ليس من علماء القرون الوسطى — بل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة سيئة » يوافق هذا التقسيم الذى لم يفهمه الشيخ ، فشنع عليه اغترارا بكلام من لا يرى التقسيم .

وقد قلنا : إن من فوائدها بعد الأذان تذكير الناس بالعمل بالحديث المتقدم ، بل الخروج من الإثم الذى يراه بعض العلماء فى ترك الصلاة عليه — صلى الله عليه وسلم — عند ذكره ، وقد سمعوا ذكره فى الأذان فوجب عليهم أن يصلوا عليه — صلى الله عليه وسلم — وإلا أثموا على هذا الرأى ، فلو لم يكن إلا تذكيرهم بهذه السنة أو بهذا الواجب لكفى .

فقامت قيامة الأستاذ الشيخ رشيد من أجل ذلك ، فكتب فى (مناره) ما أكِلُ الحكم فيه إليك بعد أن أتلوه عليك .

قال : « إنها بدعة فشت هى وأمثالها فى أمصار المسلمين بجهل المعممين أدعياء العلم بالسنة » إلى أن يقول : وإننا لنعجب أشد العجب إذ نرى بعض كبار علماء الأزهر يفتون الناس ببدعة الزيادة فى الأذان ويزعمون أنها حسنة ، إلى أن يقول : إن لهم إذًا أن يزيدوا فى الصلاة ركعات أو سجدات ، وهل يوجد دليل على امتناع ذلك وأمثاله غير كونه مخالفاً للمأثور ؟ وما الفرق إذًا بين الأذان وغيره ؟ أما إنه لو فعل هذا كثير من العوام لأفتاهم باستحسانها مفتى مجلة نور الإسلام (يعنى الشيخ الدجوى) » .

وأرجوك كل الرجاء أن لا تسأم من الأخذ والرد مع الشيخ حتى تعرف منزلته من العلم ومكانه من المنطق ، ثم نذكر لك بعد ذلك مقدار تصلبه فى الدين ، واحتياطه للكتاب والسنة ، وهو اكتشاف غريب وتفكهة لذيذة .

١ — فنقول لفضيلة الأستاذ : ليس هذا زيادة فى الأذان ، وإنما هو شىء فعل بعد انتهاء الأذان ، فأين هذا من ذاك ! وليس هناك من يجعل الزيادة من الأذان ، بدليل أنها تترك فى أذان المغرب ، وبدليل أنهم تارة يطيلون وتارة يقصرون ، وبدليل ما ذكره هو أنهم قد ينادون شيخ العرب (السيد البدوى) فهل يفهم أن ذلك كله من الأذان ؟ بل قد يذكرون شيئاً من القصائد فى مديحه صلى الله عليه

وسلم بعد الأذان ، فهل يعتبر ذلك كله من الأذان ؟ اللهم إن الأمر واضح حتى عند العوام .

٢ ـ أما قياسه ذلك على زيادة ركعة أو سجدة فى الصلاة فهو قياس ينبغى أن نتعجب منه أشد العجب ، فإننا لم نجعل ذلك من أجزاء الأذان ولا أدخلناه فيه ، فهو بمنزلة الذكر بعد الصلاة ، أو بمنزلة الصلاة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الفراغ منها ، على أن الأذان لا يصح أن يقاس على الصلاة من كل وجه .

٣ ـ وإنى لأعجب أشد العجب من مجتهدنا الجديد الذى برز فى علم الأصول ، وقتل المنطق بحثاً حيث يقول : ما الفرق بين الأذان وغيره . مع كون الفرق فى هذا القياس الذى أراد أن يجعله برهانه الساطع ودليله القاطع أوضح من الصبح عند صغار الطلبة . ومن الذى لا يفرق بين الزيادة فى الشيء والزيادة عليه بعد الفراغ منه ؟ ولا بأس أن نفكهك بشيء من علم الشيخ وذوقه الرفيع .

يقول : إن هؤلاء القبوريين يدعون البدوى وأمثاله من دون « الله أى فهم كفرة » فانظروا أولا لسوء عقيدة الشيخ فى المسلمين ، وثانياً إلى خطئه فى التطبيق ، وثالثاً إلى ذوقه فى الإتيان بما لا علاقة له بالمقام ، بل نداء السيد البدوى مما يرد عليه لو كان يدرى ، ورابعاً إلى خطئه النحوى فى قوله القبوريين ، وابن مالك يقول : « والواحد اذكر ناسباً للجمع » .

ولكن الشيخ أرفع من أن يقلد ابن مالك أو سيبويه . ومن لطائفه أنه يعبر عن عصور التنور والعلم عندنا بالقرون الوسطى تقليداً للأوربيين .

٤ ـ ثم نقول : ألا يكفى ذلك كله فى أن تكون المسألة محل نظر يصح الاجتهاد فيها لهذه الوجوه كلها ، فلا يضيق صدر الشيخ ممن يخالفه فيها ، وغاية أمرها بعد كل تنزل أن تكون خلاف الأولى بالكيفية المخصوصة لو سلمنا وجهة نظرهم ؟ ! .

٥ ـ ألَمْ يقرر العلماء أن الأمر لا يكون منكرًا يجب النَّهْىُ عنه إلا إذا كان مجمعاً على إنكاره ، أو كان فاعله يرى أنه منكر ؟

٦ ـ وبعد هذا يحسن بنا أن نناقش الشيخ مناقشة خفيفة فى عباراته البليغة .

يدعى أنه لا يوافق على هذه البدعة وأمثالها إلا أدعياء العلم المعممون الجاهلون ؟ فليت شعرى أيجهل الأستاذ أن ذلك مذكور فى كل مذهب من المذاهب الأربعة ، وربما كان فى كل كتاب من كتبه ، أم يرمى أولئك المعممين كلهم بالجهل والغباوة ؟

٧ ـ ولماذا يعجب أشد العجب من فتوى بعض كبار العلماء باستحسان هذه البدعة ؟ أليس موافقاً لغيره ممن لا يحصى كثرة من علماء المذاهب ؟ وهل هناك محل للعجب بعد ما امتلأت الكتب بذلك ؟

٨ – بل ذكر حضرته قبل ذلك بقليل أن علماء القرون الوسطى قسموا البدعة إلى حسنة وغير حسنة ، وقال : إن المعممين أفتوا باستحسانها ، فأى معنى لأن يعجب أشد العجب لمفتى مجلة نور الإسلام عندما يقول ذلك ؟ .

٩ – ألم يكن فيما قاله هو ما يجعله يحس بما فى كلامه من تناقض أو شبه تناقض ، حيث دهش غاية الدهش مما ذكر هو أنه كان معروفاً لدى علماء القرون الوسطى ؟ فما الموجب للعجب ولأشد العجب حينئذ ؟ ولكن الشيخ لا يحس بما يقول .

١٠ – ألم يبلغ الشيخ أن بعض تلك الطائفة التى بذروا فيها تلك البذور الخبيثة قد أثاروا بسبب ذلك شرًا كبيرًا فى كثير من البلدان ، ووصل الأمر فيها إلى حد سفك الدماء ، وإبطال صلاة الجمعة . وإفساد أمر البلد كلها بما حصل بينهم من التشاحن والتباغض ؟ أليسوا بمنزلة من يبنى قصراً ويهدم مصراً لو فرضنا أنهم بانون !

خلاصة المقام

١١ – والخلاصة التى ينتفع بها القارىء فى هذا المقام أنه قد خفى الفرق بين الزيادة على الأذان والزيادة فيه على مجتهد آخر الزمان الشيخ رشيد ، ولذلك استباح لنفسه أن يقول إن مفتى مجلة نور الإسلام لو سئل عن زيادة ركعة فى الصلاة لأفتى باستحسانها .

ونقول زيادة فى الإيضاح واهتماماً بالموضوع : إن أمر الصلاة والسلام على النبى –صلى الله عليه وسلم– بعد الأذان هين جدًا ، ومن الجرم أن يسمى جريمة ، ولسنا أول من قال إنها بدعة مستحسنة ، بل علماء

المذاهب الأربعة مصرحون بذلك ، وليس كل ما لم يفعل على عهده صلى الله عليه وسلم يكون بدعة سيئة ، ومن فهم أن ذلك داخل فى قوله فى الحديث : « وكل بدعة ضلالة » فهو من أقل الناس علماً ، وأضيقهم عقلا ، كما أنه ليس ذلك زيادة فى الأذان حتى يشبهه بركعة فى الصلاة ، أو يقول إنه زيادة فى العبادة المشروعة ! بل هو عبادة مستقلة ، كما إذا قرأنا القرآن مثلاً بعد الصلوات ، أو صلينا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكذلك الصلاة والسلام بعد الأذان سواء بسواء ، ولكن شيخ المنار ليس من أهل المنطق ولا الأصول ، ولا صلة له بصناعة البرهان ، فهو يرخى لقلمه العنان : فيما يجول برأسه بلا ميزان يضبطه ، أو أصل يرجع إليه ، شأن من يأخذ علمه عن الأوراق لا عن العلماء :

ولا نزال نقول له : أترمى علماء المذاهب كلها بهذا ، فإنهم قائلون باستحسانها ، فتقول إنهم لو سئلوا عن زيادة ركعة فى الصلاة لأفتوا باستحسانها كما قلت ذلك لمفتى (مجلة الازهر) ، أم ذلك خاص بنا لغير معنى معقول ؟ وليس يبعد على الشيخ أن يرمى من شاء بما شاء أو يرجع بلا مرجع ، ولهذا لم يتعرض لما ذكرناه فى مقالنا من التوجيه والاستدلال ، لأنه لا صبر له على الحوار المنطقى ولا الجدل العلمى ، وكأنه من قسم العامة الذين أشرنا إليهم فى صدر ذلك المقال ، لا من الخاصة الذين تكلمنا معهم فى آخره .

وقد سقنا لهم من الأدلة الصحيحة ما يقنع المنصف ، وقلنا : إن الصلاة مطلوبة وكيفيتها مباحة ، ولو كان استعمال العام فى بعض أفراده يخصصه ، أو المطلق فى بعض جزئياته يقيده ، لكان كل عام

مخصصا ، وكل مطلق مقيداً ، لأن العام أو المطلق حين استعمل لم يكن إلا فى بعض جزئياته ، ولكن الشيخ لا يعرف هذا ولا يحسنه ، ولذلك عدل عن الكلام فيه ، ونحن لا نستطيع أن نحاور إلا أهل البرهان وأرباب المنطق .

ألم يكن اجدر بهم أن يقتنعوا أو ينصفوا فيقيموا لأولئك العلماء وزناً ، أو يقولوا : إن المسألة محل نظر فيصح فيها الاجتهاد ، وما يصح فيه الاجتهاد لا يتصلب فيه أهل العلم هذا التصلب ، ولا يجمدون فيه هذا الجمود ؟

مضحكات أو مبكيات

١٢ – هذا ، ثم نقول لحضرة العلامة المجتهد : مالك تأتى بالمتناقضات فتشن الغارة على مسألة يصح فيها اختلاف النظر والأمر فيها واسع ، ولا تحتاط هذا الاحتياط فى مسألة الربا المجمع على تحريمه ، وتبيح الانتفاع بالأرض المرهونة قياساً على ما قال بعض العلماء فى الانتفاع بالحيوان المرهون الذى يركب ويحلب بنفقته ، كما فى الحديث ، وهو قياس مع الفارق الواضح ، إن كنت تعرفه أو سمعت به ؟ !

١٣ – بل رأينا منك ما هو أطم وأدهى أيها المحتاط فى ترك الصلاة على النبى عقب الأذان ، رأيناك لم تحتط فى (تفسيرك) هذا الاحتياط عند ذكر الملائكة فى سورة البقرة ، فأخذت تتقرب من الماديين لتكون

مجدداً وعصرياً بتأويل كتاب الله على غير ما أراد الله ، بما يخرق الإجماع ، بل يصادم المعقول والمنقول . فقررت أن الملائكة عبارة عن القوى الطبيعية .

وليت شعرى هل تلك القوى الطبيعية هى التى وقع الحوار بينها وبين الله تعالى بقولها : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١) وهل تلك القوى الطبيعية هى التى أوجب الله علينا الإيمان بها وقال فى حقها : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً) (٢) إلى آخر ما جاء فى الكتاب العزيز مما لا يعلم تأويله إلا شيخ المنار والراسخون فى علم المادة !

١٤ – ومثل ذلك ما قرره فى المكروبات عند ذكر الجن فى القرآن .

وليت شعرى هل هذه المكروبات الجنية هى التى كانت تعمل لسليمان ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ؟ وهل هى التى قال عفريت منها لسليمان عليه السلام : أنا آتيك به « بعرش بلقيس » قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ؟ وهل هى التى قالت لقومها : إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . إلخ إلخ ؟

١٥ – ومثل ذلك ما قاله فى مذهب دَرْوِنْ فى أول تفسيره لسورة النساء ، وأنه يجوز تطبيق القرآن عليه . وما أدرى كيف يفعل فى قوله

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠ (٢) سورة النساء ، الآية ١٣٦

تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)[1] إلى آخر ماجاء فى الكتاب والسنة ، مع أن كثيرا من الأوربيين أنفسهم يأبون هذا المذهب كل الإباء .

وهل يبقى مع تلك التأويلات وثوق بكتاب الله الذى أصبح قابلا لكل تأويل ، وأصبح المراد منه غير معروف حتى فى أصول الدين ، كالإيمان بملائكة الله تعالى ؟ فمرحى مرحى أو برحى برحى .

فأى خدمة أعظم من هذه الخدمة لدين الله وكتاب الله ، وأى إصلاح أكبر من هذا الإصلاح «الدينى والمدنى والسياسى» وأى اجتهاد أجل من هذا الاجتهاد الذى يفوق اجتهاد الإسماعيليه والبابية ؟! .

وهل هناك فرق بين هذا وبين تأويل الملاحدة من الباطنية الذين أطنب الشيخ فى الرد عليهم والتشهير بهم ، ونسى أن له من الترهات ما يفوق ترهاتهم حتى صدق عليه قول القائل : رق حتى انقطع ، وحاق حتى وقع :

أمور تضحك السفهاء منها ... ويبكى من عواقبها اللبيب

١٦ – وهل نسى الشيخ ما كنا نكتبه تحت عنون «صاحب المنار وآدم عليه السلام» حتى تدخل بيننا السيد عبد القادر التلمسانى رحمه الله حينما جمعنا لأجل الصلح ببيت السيوفى ، الاتفاق على مايرضى الله ورسوله ؟

(١) سورة آل عمران ، الآية ٥٩

١٧ – وهل نسيت ياحضرة الغيور على دين الله ما كان منك من تأبين رؤساء الإلحاد مما أفضى إلى التقاضى أمام مجدى باشا عليه رحمة الله ؟ وأن الشيخ ليعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان ، بل أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله كما فى الحديث الشريف الذى لايجهله الأستاذ «ومن ذاق حلاوة الإيمان يحب المرء لايحبه إلا الله» ويقول الله فى كتابه العزيز : (لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ)[1] فهذا كلام الله ورسوله ، ولكن الشيخ لا تحكم عليه سنة ولا كتاب ولا منطق ، وكل ذلك تحت سلطانه وتصرفه وبديع تأويله .

ولقد كتبنا فى هذه المجلة كلمة عن إنكار الملائكة ، ورأينا أن نستر عليه فلم نصرح باسمه ، ولكن أبى عليه ذوقه وعقله إلا أن يضطرنا للتصريح ، ولعله أنفع للقارىء وأبلغ فى النصيحة .

١٨ – وهل نسى الشيخ ما أفتى به من حل صلاة التلاميذ المسلمين مع النصارى بالكنيسة ، ليغرس فى قلوبهم الخالية النقية تلك الطقوس النصرانية ، وينقش فى نفوسهم الساذجة ما يسمعونه من القسوس والمبشرين هناك .

(١) سورة المجادلة ، الآية ٢٢

عظيمة العظائم

بل وصل الأمر من اجتهاد مجتهدنا « الذى يبحث فى جميع شئون الإصلاح الدينى والمدنى والسياسى » كما يقول فى مناره ـ أن اجترأ على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم عن أبي ذر من أن الشمس تسجد تحت العرش ، وقال : إن الأنبياء لا تعرف هذه العلوم ، ولو كان رشيدًا لم يضق صدره بذلك ولوسعه إيمانه بالغيب ، فإن لم يسعه إيمانه بالغيب فكان ينبغى أن يسعه علمه بسعة لغة العرب وكثرة مذاهب البيان فيها . فإن ضاق علمه كما ضاق إيمانه فما كان ينبغي أن تضيق سياسته وهى التى وسعت الشرق والغرب.

وبيان ذلك أنه كان يستطيع أن يقرر فى الحديث ما قرره العلماءُ فى قوله تعالى حكاية عن الأرض والسماء : (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (١) وقوله تعالى : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون) (٢) وقوله تعالى : (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) (٣) وقوله تعالى : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِى السَّمَوَاتِ وَمَافِى الْأَرْضِ » (٤) وقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْده وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (٥) حتى قال كثير من العلماء : إنه بلسان المقال لا بلسان الحال ، بدليل قوله : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فإنا نعرف ما يدل عليه حالها ، فالذى

---

(١) سورة فصلت ، الآية ١
(٢) سورة النور ، الآية ٢٤
(٣) سورة الملك ، الآية ٨
(٤) سورة الحشر ، الآية ١ ، وسورة الصف ، الآية ١
(٥) سورة الإسراء ، الآية ٤٤

لانفقهه إذا هو مقالها لا حالها ؛ وقد سبح الحصى فى كفه صلى الله عليه وسلم .

وإن لم يتسع صدره ولا إيمانه لذلك فكان عليه أن يخرج ذلك على وجه من وجوه المجاز أو الكناية ، ووجوه المخارج كثيرة ، وما أوسع لغة العرب لدى من يعرفها ؛ وكان ينبغى إذ لم يتسع صدره ولا إيمانه ولا علمه لشىءٍ من ذلك أن تتسع سياسته لحسن المخرج منه بأية وسيلة غير تجهيل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو أن يرمى البخارى أو غيره من رواة الحديث بالخطأ والكذب ، ولا يتعرض لرسول الله ، فقد كان تكذيبهم أهون من تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، فما أضيق دينه وعلمه وسياسته ، وإن كان يبحث فى شئون الإصلاح الدينى والمدنى والسياسى.

وإنى أُحِسّ منك بامتعاض شديد غيرة على المقام النبوى ، ولعلك تستبعد صدور ذلك من الشيخ أو لاتصدقه ، فلننقل لك عبارته بنصها وفصها وما طعن به على أحاديث كثيرة فى البخارى غير هذا الحديث ، ثم ترقى من تكذيب الرواة فى تلك الأحاديث إلى تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث :

قال فى مناره الصادر فى آخر رمضان سنة ١٣٢٧ صفحة ٦٩٧ من مجلد السنة المذكورة ما نعرض عليك محصله لتحكم فيه ، وليتضح به الموضوع الذى نحن فيه » فإنه كالمقدمة له : رد الأحاديث التى فى البخارى وغيره الناطقة بأن آية « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » كانت قرآناً يتلى ، وأن عمر قال ذلك بمجمع من الصحابة ولم

ينكر عليه أحد ، وهو معروف لا مراء فيه ، ويستند حضرته فى ذلك الرد إلى ما تعرف منه مقدار علم الشيخ وتفكيره ، يقول إن ذلك لو تم لكان يتخذ شبهة على القرآن من حيث حفظه وضبطه وعدم ضياع شيء منه !

ولم يفرق الشيخ بين النسخ الذى يكون من قبل الشارع ولا يعرف إلا من جهته ولا يكون إلا فى زمنه بإرشاده وتبيينه ، وبين التفريط فى القرآن وضياع شيء منه .

ثم رد الحديث الصحيح الذى رواه البخارى فى سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، رد ذلك بتمويهات وخيالات لا نطيل بها .

ومن المعلوم أن الأنبياء تجوز عليهم الأمراض البدنية والأعراض البشرية ولا فرق بين السحر الذى يؤذيه فى بدنه ولا تسلط له على الوحى وبين كسر رباعيته يوم أُحد . وكان عليه وهو المحدث الكبير – فيما يزعم – أن يطعن على سند الحديث ويجرح أحد رجاله ، أو يبين أن فيه علة خفية كما يصنع أرباب هذا الشأن ، وقد طعن فى أحاديث أُخرى يطول فيها القول . ثم قال بعد ذلك كله مترقياً من رد روايات البخارى إلى رد كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى جرأة لا يصح أن تكون من مسلم يؤمن بالله ورسوله .

قال مانصه : « ومثل هذا وذاك ما خالف الواقع المشاهد كرواية لسؤال عن الشمس أين تذهب بعد الغروب والجواب عنه بأنها تذهب فتسجد تحت العرش وتستأذن الله تعالى بالطلوع . إلخ ». إلى أن قال :

« فالشمس طالعة فى كل وقت لا تغيب عن الأرض طرفة عين كما هو معلوم بالمشاهدة علماً قطعياً لا شبهة فيه » أى فكلام النبي كذب لا شبهة فيه ! ! إلى أن قال : « والأنبياء لا تتوقف صحة دعوتهم ونبوتهم على العلم بأمور المخلوقات على حقيقتها » إلى آخر ما قال ، أى فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف ما عرفه الشيخ رشيد ، بل لم يدرك المشاهد المحسوس .

وليت شعرى ما الداعى إذاً له صلى الله عليه وسلم أن يدخل فى شيء لا يعرفه ولا سئل عنه ، بل هو الذى لفت نظر أبى ذر إليه وقال له حيث غربت الشمس : « أَتَدْرِى أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ فَقَالَ : الله ورسوله أعلم إلخ ». أما الشيخ رشيد فلا يقول : الله ورسوله أعلم ، بل يقول : أنا أعلم ! ، وإن جوزنا عليه الخطأ فى المشاهد المحسوس كما هو رأى الشيخ ، فكيف نثق به فيما أخبر به من المغيبات التى هى وراء الحس والمشاهدة !

هذا ولتلاحظ أن الشيخ رشيد يؤول لنظريات الأُوربيين التخمينية كتابَ الله بما لا يخطر لأحد على بال . وإن نظرت فى منار شعبان من تلك السنة أيضاً وجدت من السخافات ما يضحك الثكلى ويبكى الحليم .

وبعد فلابد أن يكون الشيخ مكذباً لله أيضاً فى قوله : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ)(1) الخ ، فإنه أثبت السجود للشمس ، كما أثبته الرسول

(١) سورة الحج ، الآية ١٨

صلى الله عليه وسلم ، ولا فرق بينهما ، فما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر ، فالشيخ إذاً مخطىء لله ورسوله ، مكذب للقرآن والسنة . **وإن شئت فقل مجهل لهما ! .**

ولولا ضيق المقام لسردنا على القارىء الكريم ما يلهيه عن أكبر المصاب ، أو يغنيه عن أعظم الألعاب . ويكفى هذا اليوم ، ونصوص المنار عندنا إذا أرادها القارىء ، وإنى لأعلم أن الشيخ سيكيل لنا من السب والأقذاع ما يعرفه منه القراء ، ولكن هناك فرق بين قول باللسان وكلام يشبه الهذيان ، وبين ما يشهد له الوجدان ويقام عليه البرهان .

الرضاع (١)

ما قولكم دام فضلكم فى رجلين تزوجا ورزقهما الله بولدين يكبر أحدهما عن الآخر بسنة ، ورزق الله هذين الرجلين بنات ، ويريد الولد الصغير أن يتزوج بأخت الكبير الصغيرة ولكن أم الولد الكبير التى هى أم للصغيرة قالت إنها أرضعت الولد الصغير ليلة كاملة مع ابنها الكبير ، مع العلم بأن فى الدار معها ناساً من أقربائها لا يعلمون بهذا الرضاع أصلاً وينكرونه على تلك المرأة التى هى أم الولد الكبير وأم البنت الصغيرة . فما هو الحكم الشرعى مفصلاً فى هذا الباب ؟ .

أحد القراء

الجـواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن الرضاع يحرم ما حرم النسب ، قال صلى الله عليه وسلم « يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ » . والرضاع عند المالكية يتحقق بوصول لبن المرضعة لجوف الرضيع ولو مصة إذا كان فى مدة الحولين من ولادته ، قال تعالى (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) .

---

(١) مجلة الأزهر – الجزء التاسع – المجلد الثالث – رمضان ١٣٥١ .

فمدة الرضاع الكامل سنتان ، وألحق المالكية بهما شهرين من السنة الثالثة لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه :

ومن أرضعت ولداً فبناتها وبنات زوجها ما تقدم وما تأخر أخوات له ، ويثبت الرضاع عندهم بإقرار أم الولد غير الرشيد ذكراً كان أو أنثى على الراجح فى المذهب إذا كان إقرارها بالرضاع قبل العقد . وعلى ذلك فإقرار أم البنت فى الحادثة المسئول عنها معتبر عند المالكية متى كانت البنت غير رشيدة بأن كانت صغيرة أو سفيهة ، فإن كانت رشيدة فإقرار الأم بالرضاع لا يحرمها على من يريد تزوجها : نعم يندب له أن لا يتزوجها احتياطاً وتورعا ، كما أنها إذا أقرت بالرضاع ثم رجعت عنه فلا عبرة بإقرارها . والله ولى التوفيق .

الصلاة خلف جزار (١)

ورد إلى المجلة السؤال الآتى :

ما حكم صلاة من صلى خلف جزار يزاول المهنة بيده ويقوم بعلف البهائم وخدمتها فيصيبه رشاش الدم وفلذات الدهن وقذارة الأرواث ويتصاعد من مجموعها رائحة كريهة تؤذى القريب منه والبعيد؟ وهل يصلى بالناس من يجهل مع حضور من يعلم؟ وهل يصلى بالناس من يبغضه الناس ؟ إنا منتظرون إماطة اللثام عن حكم من نصب مثل هذا الرجل إماماً :

محمد الشريف كساب

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فاعلم أيها المستفتى أن الجزار ونحوه من أصحاب المهن التى لا تخلو عن مباشرة النجاسة يعفى عما يصيب ثيابهم منها متى كانوا يجتهدون فى درئها لعسر التحرز ، وقد يشهد لذلك قوله تعالى : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (٢) وقوله عليه الصلاة والسلام : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » .

(١) مجلة الأزهر – الجزء التاسع – المجلد الثالث – رمضان – ١٣٥١

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٨

ويستحب إعداد ثوب خاص للصلاة به . وعلى ذلك فصلاة الجزار بثيابه التى يباشر فيها المهنة صحيحة والنجاسة معفو عنها . وأما إمامته فمكروهة لمن ليس مثله .

أما مثله من ذوى الأعذار المقتضية للعفو عن النجاسة فلا يكره أن يكون إماماً له .

وأما رائحة ثيابه فهى مانعة من حضوره الجماعة متى كانت تؤذى غيره ، فعليه أن يخلعها قبل الذهاب إلى المسجد وإلا حرم عليه دخوله فضلاً عن أن يكون إماماً للناس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لَا ضَرَرَ ولَا ضِرَار » .

وأما إمامة الجاهل ففيها تفصيل : فإن كان جهله يؤثر فى صحة صلاته بأن كان لا يحسن قراءة الفاتحة أو لا يحسن الوضوء أو الاغتسال من الجنابة ، أو ترك فرضاً من فروض الصلاة كالطمأنينة فصلاته باطلة فضلاً عن إمامته ، وإن كان جهله لايؤثر فى صحة الصلاة فصلاته وإمامته صحيحتان ولو لم يميز الفرائض من السنن إذا كان يعتقد أن فى الصلاة فرائض وغير فرائض ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « صَلوا كَمَا رَأَيْتُمُونِى أُصَلِّ » فمتى كانت الصلاة مستوفية لجميع ما يعتبر فى صحتها شرعاً فهى صحيحة والاقتداء أيضاً صحيح . نعم الفقيه أحق بالإمامة من الجاهل الذى تصح إمامته .

وأما إمامة من يكرهه أهل بلده ففيها تفصيل أيضاً : فإن كانت الكراهة لأمر دينى فإمامته مكروهة حيث كرهه النفر اليسير الذين ليسوا من ذوى الفضل والعلم ، فإن كرهه أهل البلد كلهم أو أكثرهم أو كرهه أهل الفضل وإن قلوا ، حرمت إمامته لقوله صلى الله عليه وسلم : « لَعَنَ اللهُ منْ أَمَّ قَوْماً وَهُمْ لَهُ كَارِهُون » والله أعلم .

صلاة جار المسجد
فى بيته مع زوجه

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتى :

رجل بجوار المسجد يتخلف عن صلاة الجماعة مكتفياً بأنه يصلى فى بيته مع زوجه جماعة ، فهل عليه فى تخلفه شىء « أم أن جماعته فى بيته كجماعته فى مسجده » ؟ نرجو من فضيلتكم التكرم بالجواب ولكم الشكر ومن الله الأجر .

سعد السيد الدمنهورى

الجواب

أن صلاة الرجل مع زوجه يحصل بها فضل الجماعة الوارد فى قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بسبع وعشرين درجة » وأقل الجماعة اثنان ولو رجلا وامرأة ، ولذلك نص المالكية على أن من صلى إماماً لامرأة فلا يطلب منه إعادة الصلاة فى جماعة لحصول فضلها بصلاته مع المرأة .

نعم صلاة الفرائض فى المساجد أفضل ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ الصَّلاةِ صَلاتُكُمْ فى بيوتكم إلَّا الْمَكْتُوبَةَ » يعنى الفريضة ، وما كانت الصحابة رضوان الله عليهم يتركون الجماعة فى المساجد اكتفاء بالصلاة مع أزواجهم .

(١) مجلة الأزهر – الجزء التاسع – المجلد الثالث – رمضان سنة ١٣٥١

العقيقة – سر الختان
فى الدين الإسلامى

سيدى الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى .

السلام عليكم ورحمة الله .

تلقيت بيد الشكر بحثكم القيم الجليل فى بيان الفطرة وما خلقه الله فيها ، فقد وصلنا بما بينتموه فى حديث الفطرة إلى أن دينه الحنيف مركز فى النفوس وفى الطبائع ، وأن طبيعة الطفل من ناحية علم النفس تأبى إلا أن تتقبله ، وهى معودة إليه بالطبع . ولقد تعلمون خطورة بحثى إذا عرفتم أننى أقوم به فى بلاد لا أثر لدين الله فيها ، وأن هم علمائها موجه إلى إثبات منابع الأخلاق من ناحية الطبيعة . وسأكون فى الطرف الثانى من التناقض لآرائهم ، وبتعبير آخر : « سأكون أول من يقيم الدين فى مالطة » إن سمحت لى أن أخاطبك بهذا المثل العامى ، والله الموفق والمعين ، إليه غايتنا وعليه توفيقنا .

ولقد يسرك جداً أن آراءك هنا عرفت قيمتها ، ورجح وزنها ، وكانوا معجبين بك إذ وصلت إلى ما لم يصلوا إليه إلا بالتجاريب والبحث المادى والعلمى ، وفقك الله ووفقنى إلى نصرة الدين .

هذا وأرجو إذا سمح لكم وقتكم إمدادى بشىء عن المسائل الآتية :

١ – رأى الدين فى العقيقة التى تعمل بمناسبة ولادة الطفل .

(١) مجلة الأزهر – الجزء الأول – المجلد الرابع – المحرم ١٣٥٢ .

٢ ـ رأيه فى الختان .

٣ ـ رأيه فى حادث شق صدر[1] النبي صلى الله عليه وسلم الذى أعده ربه من صغره لتلقى وحيه الجليل . وحسبكم منى أن أكون إلى جانبكم كالمقاتل الشريف فى نصرة دين الله . والسلام عليكم ورحمة الله .

ابراهيم سلامة
مفتش بالمعارف وعضو بعثتها بفرنسا

الجـواب

بسم الله الرحمن الرحيم

العقيقة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما العقيقة ، وهى ما يذبح سابع ولادة المولود مما يصح أن يكون ضحية ، ففيها أسرار بديعة ومصالح كثيرة راجعة إلى المصلحة المالية والمدنية والنفسية ، وقد كانوا يفعلونها فى الجاهلية ، فاستبقاها النبى صلى الله عليه وسلم ، ورغب الناس فيها بعد إصلاح مقاصدهم ، مع مخالفة أهل الجاهلية فى بعض المسائل كما ستعرفه .

فمن تلك المصالح ـ ولعله أقلها ـ التلطف بإشاعة نسب الولد ، إذ لا بد من إشاعته لئلا يقال فيه ما لا يحبه ، وكثيرا ما يكون لذلك داع كبير فى القضايا كما هو معروف ، ولا يحسن أن يدور فى ـ

(١) تقدم فى القسم الذى يتعلق بالمقالات الخاصة بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم .

الطرقات فينادى أنه ولد له ولد ، فكانت العقيقة أفضل وسيلة لهذا الغرض .

ومنها إتباع ملكة السخاء وعصيان داعية الشح الذى أحضرته النفوس . ومنها أن النصارى كان إذا ولد لهم ولد صبغوه بماء مخصوص يسمونه المعمودية ليكون نصرانيًّا حقًّا ، وفى مشاكلة ذلك نزل قوله تعالى : (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً [1]) فاستحب أن يكون للمسلمين فعل بإزاء فعلهم ذلك ، يشعر بكون الولد حنيفيًّا تابعا لملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

وأشهر الأفعال المختصة بهما المتوارثة فى ذريتهما : ما وقع له عليه السلام من همه بذبح ولده ، ثم نعمة الله عليه أن فداه بذبح عظيم .

وأشهر شرائعهما الحج الذى فيه الحلق والذبح ، فيكون الذبح عن المولود تشبها بهما ، وتنويهاً بملتهما ، وإعلانا بأن الولد تابع لهما وعلى دينهما ، إذ فعل ما هو من أعمال هذه الملة الحنيفية .

ومنها أن هذا الفعل فى بدء ولادته يخيل إليه أنه هم ببذل ولده فى سبيل الله ثم فداه كما فعل إبراهيم عليه السلام ، وفى ذلك تحريك سلسلة الإحساس بالانقياد والخضوع . وقد حث على ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله : « مَعَ الْغُلَامِ عَقِيقَةٌ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ » .

وقد كان أهل الجاهلية يقدمون تلك الذبائح لأصنامهم ، فجاء الإسلام بتقديمها لله تعالى وذكر اسمه عليها بدل الأوثان . وكانوا

(١) سورة البقرة ، الآية ١٣٨

يكرهون كسر عظامها ، فجاء الإسلام بإباحة ذلك ، مخالفة لهم ، وإبعادا للمسلمين عن التطير والتشاؤم ، وتخليصا لهم من اتباع الأوهام والوساوس .

هذا وفى العقيقة أيضا شكر لتلك النعمة التى أنعم الله بها عليهم ، ولذلك استحب لهم أيضا أن يتصدقوا بشىء قليل من الفضة يوم السابع شكرا للنعمة . ويلتحق بما ذكرناه من التنويه بشأن الدين ما يفعل من الأذان فى أذن المولود ، فإن الأذان فى الأذن من شعائر الإسلام وأعلام الدين المحمدى . ومن المقاصد الشرعية أن يدخل ذكر الله فى تضاعيف الأعمال ليكون كل ذلك ألسنة تدعو إلى الحق وإلى دين الله . ومن ذلك أنه يستحب أن يختار للمولود بعض الأسماء التى تشعر بذلك : كعبد الرحمن ، وعبد الله ، ومحمد ، وأحمد . وقد جاء الترغيب فى ذلك : ففى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَحبَّ أَسْمائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وعبْدُ الرَّحْمَنِ » وفى مسند أبى داود والنسائى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سَمُّوا بِأَسْماءِ الْأَنْبِياءِ » الحديث . فذلك كله تنويه بالدين ، وكأنه إقرار بأنه من أهله .

الختان

الختان سنة من سنن الدين ، وهو من الكلمات التى ابتلى الله بها خليله إبراهيم فأتمهن ، وكان عليه العرب قبل الإسلام اتباعا لأبيهم إبراهيم عليه السلام .

وأما حكمته فهى المبالغة فى تنظيف البدن من الأدناس والأرجاس بقدر الإمكان . وللدين الإسلامى عناية كبرى بالنظافة والحث عليها . ومن ذلك طلبه قص الشارب ، وتنظيف الإبط ، وإزالة الأظفار ، وإيجاد الطهارة للصلاة . ولا شك أن إزالة القلفة أضمن لذلك وأعون عليه

وفى نظافة الظاهر إشعار بالحث على نظافة الباطن ، وإشارة إلى أن فى النفوس أشياء من مساوىء الأخلاق تجب إزالتها والتنزه عنها ، فكما تزيل شعث ظاهرك يجب أن تزيل شعث باطنك وإن كان خلقيا جبليا تعانى فى إزالته آلاما ومشاق وتحتاج فيه إلى صبر ومجاهدة ، وهو موضع الابتلاء والاختبار ، فإنك لم تخلق كاملا ، ولكن خلقت قابلا للكمال مكلفا به مأمورا بتحصيله . وهذا هو الفرق بينك وبين الملائكة والحيوان الأعجم . وفى الختان أيضا من الفوائد ما يمكنك أن تقف عليه من حذاق الأطباء مما لا يحسن أن نفيض فيه .

هذا والختان شريعة التوراة أيضا .

فضل الصلاة وبيان أسرارها [١]

وشرح حديث شريف

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نهراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فيه كُلَّ يومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ أَفَيُبْقِى ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ شَيْئاً ؟ قَالُوا : لَا يُبْقِى ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ شَيْئاً . قال : فذلِكَ مثلُ الصَّلواتِ الْخَمْسِ : يَمْحُو اللهُ بِهَا الْخَطَايَا » . أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وفى لفظ آخر : « إنما مَثَلُ الصلاةِ كَمَثَلِ نَهرٍ عذْبٍ غَمْرٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَقْتَحِمُ فِيهِ كُلَّ يومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ » . أخرجه مالك فى الموطأ من حديث طويل . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » .

أخرجه أبو داود . وفى رواية : « حزنه » بالنون ، والمراد نزل به وأهمه . إلى غير ذلك وهو كثير .

فاعلم أن الصلاة أعظم العبادات شأنا وأوضحها برهانا وأكبرها أثراً فى تطهير القلوب والنفوس ، ولذلك اعتنى الشارع بها أعظم عناية ، حتى قال : « من ترك الصلاة فقد كفر » وقال : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » .

(١) مجلة الأزهر – الجزء التاسع – المجلد الربع – سنة ١٣٥٢

وقد جرى على ظاهر تلك الأحاديث الإمام أحمد ، فكفر تارك الصلاة ، ووافقه على ذلك ابن حبيب من كبار علماء المالكية . وكأنهم رأوا أن الصلاة من أعظم شعائر الإسلام وعلاماته التى إذا فقدت حكم بفقده لقوة الملابسة بينها وبينه ، فإن الصلاة هى المحققة لمعنى إسلام الوجه لله ، فكأن من لم يكن له حظ منها لم يبوّ من الإسلام إلا لا يعبأ به .

وبالجملة فهى فى نظر الشارع أعظم شعائر الدين . ولذلك أوصى بها الصغار والكبار ، وحذرهم غاية التحذير من التهاون بها والتفريط فيها ، لتكون ملكة راسخة فى النفوس ، بحيث تكون صبغة لها متمكنة منها مسيطرة عليها ، حتى تمنعها من اقتراف الذنوب بسلطانها القاهر وما تورثه فى النفس من الخشية والمراقبة ، ولذلك يقول الله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)[١] ويقول : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)[٢] وسنشرح ذلك تمام الشرح :

ومن المعلوم أن كل إنسان إنما تحكم فيه خلائقه وملكاته التى انصبغت بها نفسه ، وانتعش بها قلبه .

ولتلك الحكمة البالغة أمرنا أن نعلم الصبى الصلاة لسبع ، ونضربه عليها لعشر ، حتى نصادف منه قلباً خالياً قبل أن تفرقه الأهواء التى تجعل النفس شعاعا والقلب أوزاعا .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

(٢) سورة المعارج ، الآيات ١٩ – ٢٣

وسر ذلك أن الصلاة أعظم وسيلة تقرب العبد من مولاه وتمنعه من التردى فى أسفل سافلين ، فإنها مقدسة للنفس كل التقديس ، حتى ترتفع بها إلى عالم الملكوت.

والمصلى إذا قصد من الصلوات أرواحها لا أشباحها ومعانيها لا صورها ، فلابد أن يخوض فى لجة عظيمة من الرحمة . وكأنه بدخوله فى الصلاة قد اندرج فى سلك الملائكة ، وخرج من هذا العالم بالكلية ، ولهذا يحس المؤمنون الكاملون بأنها تطرح عنهم أثقالهم .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أَرِحْنَا بِهَا يَابِلَالُ » ويقول : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلَاةِ » ، لما كان يحس فيها من الرحمات والفيوضات ، والانسلاخ من عالم الآفات والظلمات ، والاستغراق فى عظمة رب الأرض والسموات .

وقد جعل الله الصلاة المفروضة مثنى وثلاث ورباع لتكون كأجنحة الملائكة ، فكأنه أراد أن يجعلك كالملائكة ويجعل الصلاة لك أجنحة تطير بها إلى الله تعالى مثنى وثلاث ورباع . كما أنه جمع لك فيها بين أنواع العبادات التى تفرقت فى صنوف الملائكة الذين منهم الراكع والساجد والقائم والمسبح ، فجمع لك فيها بين القراءة والتسبيح والركوع والسجود والثناء والدعاء ، لتحظى بالفضائل كلها وتذوق من تلك الحضرات ما قدر لك .

ولذلك كانت الصلاة معراج المؤمنين ، وقرة عين الواصلين ، حتى أنهم إذا أتموها وأرادوا الخروج منها قالوا : السلام عليكم ،

يريدون بذلك التسليم على الملائكة والمؤمنين . وكأنهم يقولون لهم : إننا كنا مع الله تعالى لا معكم ، ومن كان مع رب العالمين لم يكن مع أحد حتى الملائكة المقربين :

والخلاصة أن المصلى قد خضع لله بقلبه ، وذكر الله بلسانه ، وعظمه غاية التعظيم بجسده ، فقام بين يديه يناجيه ويضرع له ، ثم تدرج فى التعظيم وترقى فى الإجلال فأتى بالركوع ثم بالسجود الذى هو أكبر مظهر للعبودية .

ولما كان الحق متعالياً عن الجهة أقام التوجه إلى بيته مقام التوجه إليه :

كلمة تفصيلية عن بعض ما فى الصلاة من الأسرار :

إذا قام المسلم إلى الصلاة قال قبل الدخول فيها تلك الكلمات المعروفة فى الأذان والإقامة . وكأنه يريد بذلك أن يشعر نفسه بأن الله أكبر من كل شىء . وقد أراد أن يدخل حضرته ويشتغل بمناجاته ، فعليه ألا يشغل قلبه بشىء سواه ، ثم يشعرها بعقد الإيمان الذى ربط قلبه عليه ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم يخاطب نفسه آمراً إياها بالإقبال على الصلاة والقيام بواجباتها قائلاً لها : يا نفس أقبلى على الصلاة ، يا نفس أقبلى على الفلاح ، فإن « حى » فى لغة العرب تستعمل لطلب الإقبال ، فكأنه يقول لنفسه : إن هذا هو فلاحك فأقبلى عليه ولا تعدلى عنه ، فالعاقل لا يعدل عما فيه فوزه وفلاحه ، ثم يؤكد ذلك ببقية كلمات الإقامة ، مما يملأ النفس خشوعاً وهيبة وتنبهاً ويقظة ، لما هى مقبلة عليه ومتوجهة إليه .

ثم يرفع يديه عند الدخول فى الصلاة ، وكأنه يشير بذلك إلى طرح الدنيا وراء ظهره ، قائلاً لنفسه : الله أكبر من كل شئ ، فلا تعولى إلا عليه ، ولا تلتفتى إلا إليه ، ثم يقول : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين .

أو يقول : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له .

أو يقول : تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، إلى آخر ما هو معروف .

يقول ذلك لأجل أن يحرك من نفسه الإحساس بعظمة الله تعالى ويوقظها للإخلاص فى عملها والحضور فى صلاتها .

وإذا كان الإنسان بحضرة الملك لايفكر فى غير مناجاته وما يليق بعظمته ، فكيف بحضرة الله عز وجل وهو يخاطبه بقوله : (إِيَّاكَ نَعبدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[1] . ثم إنه يقرأ الفاتحة بعد ذلك ، فيثنى على الله تعالى الثناء الواجب تقدمه بين يدى الدعاء ، فيقرع به باب الكرم ويحرك به سلسلة الإجابة ، ويقضى به واجب التعظيم وآداب المواجهة ، قائلا : (الْحَمْدُ لله)[2] أى أن كل حمد فى الحقيقة إنما هو لله عز وجل لأنه هو المنعم لاغيره ، فكل نعمة صادرة منه وراجعة إليه (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ)[3] (فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ)[4] .

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٥
(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٢
(٣) سورة فاطر ، الآية ٢
(٤) سورة يس ، الآية ٨٣

ثم يشعر نفسه وجب ذلك الحمد من التربية العامة لجميع العوالم بقوله : (ربِّ الْعَالَمِين)[1] .

وانظر ماذا يخالج قلبه من عظمته تعالى عندما يتصور سعة العوالم وعظمتها ، وما اشتملت عليه من العلويات والسفليات التى أصبحوا يقولون إنها لانهاية لها ، وإنما خلق الله من النجوم والشموس والكواكب المختلفة الأحوال والأشكال مالا يعلمه إلا الله الذى قدرها أحسن تقدير ، ودبرها أحكم تدبير ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وفى كل أرض مايحفظها ، لأنه الرحمن الرحيم .

ثم ينتقل من ذلك إلى أنه مع تلك الرحمة البالغة يجب أن نرهب منه غاية الرهبة ، وأن نستقيم على السنن السوى ، فإنه لابد من الجزاء على ماعملنا من خير وشر ، فى يوم يدان فيه كل عامل بعمله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَه)[2] فيعرف نفسه أن ذلك الإله العظيم الذى لاحد لعظمته هو مالك يوم الدين .

وعندما يمتلئ قلب المصلى بنعوته الجلالية والجمالية يقول : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) لأنه لايستحق العبادة غيرك ، ولايملك المعونة على الحقيقة أحد سواك ، ثم يطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذى يعلمه هو ، ولا نعلمه إلا بتعليمه تعالى وهدايته سبحانه ، وهو

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٢
(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان ٧ ، ٨

صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وكأنه وهو العليم الحكيم يقول لنا : إن الناس منقسمون إلى هذه الفرق الثلاث ، فإن شئت فكن من المنعم عليهم ، أو من الضالين الذين جهلوا طريق السعادة وما رسمه الله لعباده من سبل الهداية ، و المغضوب عليهم الذين عرفوا طريق الهدى فتنكبوه ، وسبيل الرشاد فعدلوا عنه ، فهو يحذرنا من الانحراف عن الصراط المستقيم ، فإن من انحرف عنه كان من إحدى الطائفتين لامحالة .

ولو ترك المصلى سبحانه وتعالى ولم يعلمه هذا الدعاء الكلى الجامع ، لدعا بالأدعية الجزئية ، ولم يسأل غير المطالب المحدودة التى تمليها عليه شهواته ، وترشده إليها نزعاته .

والقول المختصر فى ذلك أن الله أنزل الفاتحة يعلم الناس فيها كيف يحمدونه ويثنون عليه ، ويقرون له بتخصيص العبادة والاستعانة به تعالى ، على مايقتضيه التقديم فى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) ويعلمهم سبحانه كيف يسألونه الطريقة الجامعة لأنواع الخير ، ويتعوذون به من طريقة المغضوب عليهم والضالين .

ولايسع المقام غير هذا التلميح ، فلننتقل إلى مابعد ذلك ، فنقول : إن المصلى بعد أن يقرأ الفاتحة يقرأ فى الركعتين الأوليين من القرآن ما يزيد ذلك الذى وقر فى قلبه تأكيداً وتشييداً ويملأ نفسه إيماناً وتوحيداً ،

فيقرأ مثلًا قوله تعالى : (اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَاتَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)(١) أو سورة الإخلاص ، أو بعض آيات الوعظ ، أو سور الزجر ، فيزداد خشوعاً وخضوعاً ، فلا غرو أن يركع لتلك العظمة قائلا فى ركوعه : «سبحان ربى العظيم» .

ثم يرى أن ذلك غير كاف فى التعظيم ، فيخر ساجداً لله تعالى إبرازا للعبودية فى أعظم مظاهرها . ولما كان أعظم مايحبه الله تعالى هو التواضع ، لأنه أخص أوصاف العبودية ، وما خلقنا الله تعالى إلا لنتصف بالعبودية ، ونقوم بحق الربوبية التى أخص أوصافها العظمة والكبرياء ، كرر المصلى السجود إظهاراً لما امتلأ به قلبه من عظمة الربوبية وذل العبودية . وقد ورد «أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد» .

وسر ذلك أن بعد العبد من ربه على قدر ما فيه من الأنانية والكبرياء وقربه منه على قدر مافيه من تواضع وخشوع .

ثم يكرر ذلك كله فى كل ركعة من صلاته ، فإذا أراد الخروج من الصلاة كان بمنزلة من يريد الانصراف من حضرة الملك ، فيثنى عليه أبلغ الثناء ، ويحييه أفضل التحيات ، ثم يطلب منه ماشاء من المطالب ، فكذلك المصلى عندمايريد الانصراف من حضرته تعالى يقول : إن كل تحية وتعظيم لايستحقها فى الحقيقة إلا الله ، فكل تحية زاكية مباركة طيبة ليست إلا لله عز وجل .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥

وهذه الصلوات التى نقيمها لاينبغى أن تكون إلا لرب العالمين لا للمربوبين المقهورين .

ثم أمرنا بالسلام على النبي تنويهاً بذكره ، وإظهاراً للإقرار برسالته ، وأداءً لبعض حقه ، ثم يعمم المصلى بقوله : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فإذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح فى السموات والأرض ، ثم يأتى بالتشهد بعد ذلك لأنه أعظم الأذكار ، وهو بعد تجديد لعقد الإيمان أمام الله قبل الانصراف من حضرته ، ثم يختار من الدعاء بعد الصلاة على النبي التى هى مقدمة ووسيلة لإجابته أعجب الادعية إليه .

وسر الدعاء فى ذلك المقام أن المصلى عند مايصل إلى آخر الصلاة يكون قد خاض فى بحر من الرحمة ، وكاد ينسلخ من عالم الحس ويلتحق بعالم القدس «أو تم له ذلك إن كان من أهله» وحينئذ لايسقط له مطلب ولايرد له دعاء ، ثم ينصرف من الصلاة مسلماً على من معه من الملائكة والمؤمنين ، لأنه لم يكن معهم ، بل هو راجع من الملأ الأعلى ، أو نقول من معية الله عز وجل كما أشرنا إليه .

فهل ترى أن من صلى هذه الصلاة يبقى عليه شيء من دنس الطباع أو ظلمات النفوس ؟

وقد علم الله أنه لابد لنا من الاشتغال بأمور الدنيا ومقارفة مانتلوث به أثناء اشتغالنا بأمورها ، فأمرنا بتكرير الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، فهى بمنزلة الدواء الذى نكرره كلما خفنا من صولة

المرض أو خشينا من تحركه ، فإذا غشيتنا بعض الظلمات ، ولعبت بنا بعض الشهوات ، تداركنا الله بالصلاة الأخرى ، فأزالت مالحقنا من آفات وما وقعنا فيه من زلات ، فجددت لنا تنبه النفس ويقظة القلب ، فزالت عنا الغفلة وعاودتنا المراقبة ، فسبحان الحكيم العليم اللطيف الخبير :

وأظن أنك بعد ذلك لاتشك فى أن الصلاة بمنزلة ذلك النهر الذى يكون على باب أحدنا ، فكلما أحسسنا بشيء يدنسنا تطهرنا به ، فزالت الأدناس وذهبت الألواث ، كما سبق فى الحديث الشريف الذى صدرنا به المقال ، وكما قال تعالى : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)(١) .

الخلاصة

أن المصلين يسيرون فيما بين الصلاتين بذلك النور الذى اكتسبوه منها ، حتى إذا كاد ينمحى بسبب المعاملات الدنيوية والدخول فى مضايقها وظلماتها ، تداركهم الله بالوقت الثانى ، فقاموا للصلاة يستدركون ماعسى أن يكون قد فرط منهم فيما بين الصلاتين .

ولا شك أن من حافظ على الصلوات لايزال معه بقية من نورها فلو فرضنا أن اقترف بعض الهنات والهفوات لم تصل ظلمة الخطايا والغفلات إلى جذر القلوب ، فتكون تلك الهفوات كغبار مر على ظاهر

(١) سورة هود ، الآية ١١٤ .

العين ثم أزيل قبل أن يستقر فيها بفضل الصلاة التى تليها : وبهذا تبين غاية البيان سر قوله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)[١] وقوله : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)[٢] وهذا هو الدوام المتيسر عندما امتنع الدوام الحقيقى . ولنقف هنا ، ولعل لنا عودة .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

(٢) سورة المعارج ، الآيات من ١٩ – ٢٣

مسائل تتعلق بصلاة الجمعة[١]

جاءتنا أسئلة كثيرة فى هذا الموضوع نقتصر منها على سؤالين ، وفى الجواب عنهما جواب عن كل ما ورد إلينا فى هذا الموضوع :

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير مولانا الشيخ يوسف الدجوى من هيئة كبار العلماء حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فنرجو الجواب عن مسألة ، شرحها : أن هناك بلدة قاضيها الشرعى واحد ، وسوقها واحد ، وحاكمها واحد ، تشتمل على قرى متعددة لا تبعد الواحدة عن الأخرى بميل ، وبين بعضها بساتين ليست مسكونة ، وكل قرية مستقلة بمنافعها الخاصة كجامع الجمعة وغيره : فهل والحالة هذه إذا حضرت صلاة الجمعة فى قرية ولم يوجد من أهلها إلا اثنا عشر رجلاً وكان فيها من القرية الأخرى ما يفى بالعدد المذكور نتمم بهم العدد ، نظرا إلى أنهم من بلد واحد ، أم لا ، نظرا إلى أنهم من قرية مستقلة ونصليها ظهرا ؟

جاءنا هذا السؤال وطلب منا مرسلوه أن نعرضه على فضيلتكم ، ولكم الشكر ومن الله الأجر .

سليمان الزوبى

برواق المغاربة بالأزهر الشريف

(١) مجلة الأزهر – الجزء التاسع – المجلد الرابع – سنة ١٣٥٢

نحن أهالى ناحية الجرفية مركز قنا ومديرية قنا ، نظرا لما يلحق بعضنا من المشقة للذهاب إلى بلدة الشيخ عيسى لصلاة الجمعة فقد أقمنا جمعة فى بلدتنا التى يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة نفس تقريبا ، وتبعد عن قرية الشيخ عيسى بألفى متر تقريبا ، فقيل لنا إن صلاة الجمعة لا تصح فى بلدتكم لأنها تابعة لبلدة الشيخ عيسى . فأفتونا هل تصح الجمعة فى بلدتنا أم لا تصح ؟ ولكم من الله الأجر والثواب .

محمد الراوى أحمد ومحمود جودة الجرفى

الجواب

يجب لتوضيح الموضوع أن نجعل الكلام فى مقامين :

المقام الأول : صحة الجمعة فى كل قرية من هذه القرى، وعدم صحتها إلا فى قرية واحدة منها .

المقام الثانى : انعقادها بمن ليسوا متوطنين بقريتها وعدم انعقادها بهم .

المقام الأول :

القرى المتقاربة يجب على أهلها جميعًا أن يؤدوا جمعة واحدة فى المسجد العتيق ، وهو الذى أقيمت الجمعة فيه أولًا ، أى قبل إقامتها فى غيره ، وإن تأخر أداؤها فيه عن غيره فيما عدا الجمعة الأولى .

فكل من كانت قريته خارجة عن قرية المسجد العتيق بما لا يزيد عن ثلاثة أميال وثلث يجب عليهم السعى لأدائها فى العتيق ، فإن جمعوا فى غيره فجمعتهم باطلة ، إلا إن كان إحداث الجمعة عندهم

لضيق العتيق مع عدم إمكان توسعته ، أو لعداوة بينهم وبين أهل القرية التى فيها العتيق بحيث يخشى من حضورهم معهم فى مسجد واحد حدوث فتنة ، فإذا تكون جمعتهم فى مسجدهم صحيحة .

وكذا إن حكم حاكم بصحتها فى غير العتيق صحت الجمعة .

ومن كانت قريته تبعد عن قرية العتيق بثلاثة أميال وثلث فجمعتهم فى مسجدهم صحيحة ، ولا يجب عليهم السعي لأدائها فى العتيق .

المقام الثانى :

من شرط صحة الجمعة أن يحضرها اثنا عشر رجلًا سوى الامام أحرار متوطنون بقريتها ، أى مقيمون بها بنية التأبيد .

أما المقيم بقرية خارجة عنها وهو ممن يجب عليه السعى لها كما قدمناه فإن الجمعة تجب عليه تبعا لأهل القرية ولا تنعقد به ، فلا يعد من الاثنى عشر .

وحيث إن القرى المسئول عنها كل منها مستقل بمرافقه عن الأخرى ، فلا تعد كقرية واحدة ، ولا يعتبر المتوطن بقرية خارجة عن قرية الجمعة متوطنًا بقريتها .

فإذا لم يحضر من المتوطنين بقرية الجمعة الاثنا عشر فلا تصح الجمعة . وإذا حضر العدد صحت إقامتها إلى ما قبل غروب الشمس بزمن يسع ركعة من العصر ، وإن حرم تأخيرها عن آخر وقت الظهر المختار ، وهو ما قبل دخول وقت العصر بزمن يسع ركعة من الجمعة .

والله يتولى هدى الجميع .

ثبوت شهر رمضان بواسطة التلغراف ونحوه

حضرة الأجل الفاضل العالم العلامة الشيخ يوسف الدجوى المحترم ، حفظه الله تعالى علاه ، ولطف به وتولاه ، آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : فإنا لكم من المحبين ؛ ولقد اطلعنا على بعض مقالات لكم مدرجة فى (مجلة الأزهر) ، فسررنا بها غاية السرور ، سائلين المولى أن يمتع الإسلام بحياتكم .

هذا وإنا نحب أخذ رأيكم فى مسألة العمل بالبرقيات التى ترد لنا عن ثبوت الأهلة بما تقتضيه القواعد الشرعية ، لا سيما على مذهب الإمامين الجليلين : مالك والشافعى رضى الله عنهما ، بما هو مشروح فى السؤال وهو هذا :

ما قولكم دام فضلكم فيما إذا وردت برقية من الحجاز أو الشام مثلًا إلى البحرين برؤية هلال شهر رمضان أو شوال ، مع ما هو معلوم من مباشر عمل البرقية غالبا ، وتغاير حكومة المحلين المذكورين ، فهل يعمل بالبرقية المذكورة فى مسألة الإمساك والإفطار أم لا ؟ وإذا قلتم بالعمل بها فما وجهه ؟ وإن قلتم بعدمه فما السبب فى ذلك ؟ بينوا لنا ما يلزم فى ذلك بالتحقيق ، ولكم من الله الأجر ومنا الشكر ، والسلام عليكم ورحمة الله .

من محبيكم قضاة محكمة الشرع بالبحرين :

الجواب

قد نص فى مذهب مالك رضى الله عنه على أنه إذا ثبت شهر الصوم لدى حاكم وإن لم يحكم به ، ونقل ذلك الثبوت إلى جهة أخرى بواسطة

رجلين عدلين أو جماعة كثيرة يفيد خبرهم العلم بمضمونه أو الظن القريب منه ، أو بواسطة رجل واحد عدل ، فإن الشهر يثبت فى حق أهل الجهة المنقول إليها ، ويجب عليهم الصوم بناءً على ذلك الخبر ؛ فإن المسألة من باب الرواية التى يكفى فيها خبر العدل الواحد ، وإن كان ثبوت الشهر عند مالك لا بد فيه من عدلين رأيا الهلال أو جماعة مستفيضة .

ولا عبرة باختلاف المطالع عنده ، فيجب الصوم سواءٌ اختلف مطالع الهلال فى الجهتين المنقول منها وإليها أم اتحد ، وسواءٌ تقاربت الجهتان أم بعدتا ، إلا إذا كان البعد بينهما شاسعا جدًّا فلا يثبت لحكم بالنسبة لأهل إحدى الجهتين بثبوت الشهر فى الجهة الأخرى . ومثل ذلك البعد الشاسع ما بين خراسان (بالمشرق) والأندلس (بالمغرب) .

ونص المالكية أيضاً على أنه يعتمد فى الصوم والفطر على القرائن الدالة عادة على ثبوت شهر رمضان أو شوال ، كصوت المدافع ، وإضاءة المآذن ، كما يعتمد على صوت المؤذن فى معرفة وقت الصلاة ، لجرى العادة بتوجيه الإنكار الشديد إليه من جماعة المسلمين لو كذب .

ونص مولانا الشيخ عليش فى فتاويه على أنه يعمل بالإشارات التلغرافية فى الصوم ، لأن التلغراف أداة معتبرة للتخاطب من المسافات البعيدة والقريبة بين ملوك العالم وحكامهم والناس أجمعين .

وعلى أن من أفطر فى رمضان بعد وصول خبر الصوم له بواسطة السلك متأولاً بأن هذا الخبر مبناه أقوال المنجمين التى لا تعتبر فى ثبوت الشهر شرعاً ، فإنه يجب عليه الكفارة « فضلا عن القضاء » لأنه متأول تأويلا بعيدا لجهله وسوء ظنه ، فلا عبرة بتأويله « وألفت نظرك لجعله ذلك جهلا وسوء ظن » .

الخلاصة

والخلاصة أن مدار وجوب الصوم فى رمضان ، والفطر أول شوال ، على الظن الغالب بثبوت شهر الصوم أو الفطر .

وحيث إن الغالب فى الأخبار التى ترسل بواسطة التليفونات أو التلغرافات السلكية أو اللاسلكية إنما هو الصدق فى المسائل الدينية كصوم رمضان ، فنرى أنه يجب صوم رمضان والفطر أول شوال بناء على الإخبار بهما من هذا الطريق ، إلا إذا تباعدت الجهتان جدا كما تقدم ، وإن كان عامل التليفون والتلغراف قد يكون غير عدل شرعاً ، أو اختلفت حكومة الجهتين المنقول منها وإليها ، فذلك لا يمنع غلبة الظن التى هى مناط العمل بالأحكام الشرعية العملية ، كأحكام الصوم والصلاة وما إليهما من المعاملات ، فإن الشارع جلت حكمته لم يكلفنا فى العمل بالقطع واليقين دفعاً للحرج (وما جعل عليكم فى الدين من حرج)[1] .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٨

ومعلوم أن الأحكام العملية يكفى فيها الظن ، وأنه لا يجب فيها اليقين وقد قالوا : إن غلبة الظن فى دخول وقت الصلاة كافية ، وقالوا : وإن المجتهد يجب عليه العمل بما أداه إليه ظنه .

وإن المسائل القطعية ليست من مباحث الفقه . ولا يعقل فى الملة الحنيفية السمحة التى تقول : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)[1] . وتقول : « إنَّ هذا الدينَ يُسْرٌ » إلا هذا .

ولو قلنا : إن أخبار البرقيات السلكية واللاسلكية لا يعول عليها بناء على هذه الاحتمالات لوصمنا الدين الإسلامى البعيد النظر الواسع الحكمة بالجمود الذى يبرأ منه وينعاه على أهله ، ولصيرناه مضغة فى أفواه أعداء الدين ، وسخرية بين الزنادقة والملحدين .

ولو فرضنا أن عامل التليفون غير عدل أو غير مسلم لم يضر ذلك شيئاً ، لأن الخبر ليس منه ، وإنما هو مأمور بتوصيله إلى الجهة المعينة ، فهو كالبريد الذى يحمل الرسائل .

وعلى كل حال فليس هناك معنى لأن يغلب على ظن الإنسان ثبوت رمضان بأى وسيلة من الوسائل التى تحتف بها القرائن الموجبة لغلبة الظن ثم يصبح مفطرا بعد ذلك . ولا شك أنه قد وجدت وسائل كثيرة فى هذا العصر لم تكن معروفة فى العصور الأولى . والمدار فى كل ذلك على حصول المقصود الذى هو الظن الغالب ، والحكم يدور مع

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦

علته وجودا وعدما «وإلا لم تكن الوسيلة وسيلة بل كانت مقصدا» ، وقد فرضناها وسيلة والشارع لم ينط الأحكام إلا بحصول الظن الغالب ، فهذا هو اللائق بنظر الإسلام الواسع ، حتى يكون دين العصور كلها والأمم كلها ، وتكون حجته قائمة على المخالفين فى كل زمان ومكان .

ـ نعم : بعض الأحكام العملية لا يثبت عند الاحتمال وقيام الشبهة ، كوجوب القصاص فى الجناية على النفس ، ولكن ذلك لدليل خاص كقوله صلى الله عليه وسلم : « ادْرءُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ » وذلك لخطر القصاص . هذا ما نقول به ولا نفتى بشىء سواه .

نسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويمنعنا من الخطل ، وأن يلهمنا الرشد فى العلم والعمل ، ولا يكلنا لأنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

مسألة تتعلق بالبيع والدين والربا

قال السائل بعد الديباجة :

نرجو الإفادة عن مسألة صورتها : رجل تداين من آخر بضاعة معلومة بثمن قدره ألف فرنك مثلا إلى أجل معين ، وعند انتهاء الأجل طلب صاحب الدين من المدين دينه ، فقال المدين : لا أملك شيئاً أدفعه لك إلا أن تبيعنى بضاعة أخرى تساوى ألف فرنك نقدا بألف ومائة مؤجلة لنبيعها الآن بألف وندفع لك الألف السابق ، فوافقه صاحب الدين على ذلك ، وأخذ البضاعة وباعها ودفع السابق . فهل العقدة الثانية ممنوعة شرعاً ، وما جعلت إلا للتخلص من المطالبة بالدين السابق مع زيادة مائة فيه ، أم هى عقدة جديدة منفصلة عن الأولى ، وحينئذ تكون جائزة شرعاً وليس فيها فسخ دين فى دين ولا شىء من الموانع ؟

سليمان الزوبى

برواق المغاربة بالأزهر الشريف

الجـواب

قرر العلماء أنه يحرم فسخ الدين فى الدين . ومن صوره تأخير الدين الذى حل أجله إلى أجل آخر مع زيادة فيه ، كأن يكون لشخص على آخر عشرة جنيهات مؤجلة إلى أجل معين فيعجز المدين عن قضائها عند الأجل ، فيتفق مع دائنه على تأخيرها إلى أجل آخر نظير زيادة اثنين ، فتكون العشرة إثنى عشر ، وهذا هو ربا الجاهلية بعينه ، وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع :

وقالوا أيضاً : إن كل عقد حلال فى ظاهره ولكن قصد به التحايل على أمر ممنوع شرعاً ، يكون محرماً متى كان ذلك الممنوع يكثر قصده للمتعاقدين بحسب العادة . ولذلك أمثلة مبسوطة فى كتب الفقه .

وحيث إن أغلب المعاملات الواقعة بين الناس فى هذا الزمان لا تخلو من ربا ، إما صراحة أو ضمنا ، نظرا لاستحكام حب المال فى النفوس ، والميل إلى مجاراة غير المتدينين فى استثمار الأموال ، والحصول على ربح فيها من أى طريق كان .

وحيث إن العقد الواقع بين المتداينين لا يقصد منه إلا الاحتيال على تأخير الألف الذى فى ذمة المدين إلى أجل آخر فى نظير زيادة المائة وجعل الدين ألفاً ومائة ، وذلك مما يكثر قصده للمتبايعين وأمثالهما نظرا لحالة المعاملات الآن كما قدمناه ، فنرى إن ذلك العقد محرم ، ويجب فسخه ورد المبيع إلى بائعه ، ولكن حيث أن المبيع قد فات بخروجه عن ملك المشترى فلا سبيل إلى رده للبائع الآن ، إنما الواجب الآن الغاء المائة الزائدة وإبقاء الدين ألفاً فقط كما كان .

ولا يحل للدائن أخذها ، ولا للمدين إعطاؤها (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ، وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ)[1] ونسأل الله التوفيق والتأييد .

(١) سورة البقرة ، الآيتان ٢٧٩ ، ٢٨٠

سنة الجمعة القبلية

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتى :

اطلعنا على مقال مسهب فى بعض المجلات تحت عنوان « الصلاة قبل الجمعة وبعدها » تعرض فيه كاتبه للركعتين اللتين قبل الجمعة ، وقال : إنهما بدعة لا ينبغى فعلهما ، وأطال فى ذلك .

وقد تعرض للحديث الذى رواه ابن ماجه فى سننه من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يركع قبل الجمعة ، وطعن فيه ، مع أن مذهب الشافعى رضى الله عنه يرى طلبهما وسنيتهما .

والآن وقد وقفنا بين بين ، نرجو من قادة الدين أن يقولوا القول الفاصل فى ذلك لنعرف ما هو الحق ، ونقف على دليل الشافعى إن كان له دليل . نرجو الإفادة قطعاً للشك ، وتحقيقاً للحق ، وإزهاقاً للباطل ، إن الباطل كان زهوقاً .

ولفضيلتكم جزيل الشكر ، ودمتم للدين .

عبد الله العرابى

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه :

قبل أن نخوض بك فى غمرات البحث والاستدلال ، يجب أن

(١) مجلة الأزهر – الجزء العاشر – المجلد الرابع – سنة ١٣٥٢ .

تعرف أن هنا شيئاً ينبغى التنبه له ، وهو أن المسائل الاجتهادية الفرعية يكفى فيها الظن ولا ينبغى فيها التنازع :

وكل من طلب فيها الدليل القطعى فهو إما جاهل لا ينبغى أن يكون فى عداد العلماء ، وإما سيءُ القصد لا يريد إلا الظهور بأية وسيلة ، وإن لبس على المسلمين ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، وهذا هو الغالب على تلك الطائفة . ولذلك تراهم متناقضين ، فترى الواحد منهم تارة من الظاهرية ، وطوراً من الباطنية ، وحينا يدعى الاجتهاد المطلق فيخرج على الأئمة الأربعة ، زاعماً لنفسه درجة هو أبعد الناس منها ، وتارة تراه غريقاً فى تقليد ابن تيمية من فرقه إلى قدمه : والمبطل لابد أن يتناقض شاء أم أبى ، ولسان حاله يقول :

طوراً يمان إذا لاقيت ذا يمن ... وإن لقيت معدياً فعدنانى

ولو عقلوا لعرفوا أن الناس لا يتركون أئمتهم المشهود لهم بالخير والدين والعلم والتبريز فى كل فضيلة ، ويتبعوا هؤلاء المشهود لهم بما لانطيل القول فيه ، وهو غنى عن البيان .

هؤلاء يجازفون فى كل ما يعن لهم ، ولا يبالون بخرق الإجماع ، لهذا أنكروا شد الرحال لزيارته – صلى الله عليه وسلم – وهو مجمع عليه ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم سلفيون أهل كتاب وسنة .

وأى شيء يريدون بعد أن عرفنا صلى الله عليه وسلم أن « المخطئ له أجر والمصيب له أجران » فلم يكتف برفع الوزر عن المخطئ بل جعل له أجراً . وقد عرف ذلك العلماء من أئمة الهدى ، حتى ذهب

كثير منهم إلى أن الحق يتعدد تبعاً لظن المجتهد ، فإن الله لم يكلفه إلا بما أداه إليه اجتهاده ، فكأن الحق بالنسبة إليه هو ما اعتقده ، وليس المقصود من التكليف إلا تحقيق العبودية ، وعدم الخروج على الله ورسوله ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وقد قالوا : إن المجتهد يجب عليه اتباع ظنه ، ويحرم عليه التقليد . فأى شيء بقى بعد ذلك ؟ ولكنهم ملبسون يريدون التهويش حباً فى الظهور ، أو جاهلون لا يمكنهم التعمق فى البحث ولا الوقوف على منازع الأئمة ، ولا ما أصله العلماء فى ذلك .

وإن من أكبر بلايانا التى نئن منها ولا ندرى منتهاها وجود طائفة بيننا لا تفهم ولا تقلد من يفهم (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّاهُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنهُ هُوَ السمِيعُ الْبَصِيرُ)(١) . ولو كان عندهم أدنى شفقة على المسلمين أو إخلاص لهم لعرفوا أن الدين النصيحة ، وأنه ليس من الدين ولا من العقل أن نعرض العامة للخوض فى الأدلة والموازنة بين المجتهدين ، فذلك ليس من شأنهم ولا هو فى متناول قدرتهم ، ولا نتيجة له إلا ضعف الثقة بأئمتهم وتشكيكهم فى دينهم وعقيدتهم .

على أن أولئك المهوشين ليسوا فى العير ولا فى النفير ، ولا من العلماء فى قليل ولا كثير ، فليس من المعقول كما قلنا أن يترك الناس ما عرفوه من مذاهب الأئمة المشهود لهم بالخير والصلاح والدين والورع

(١) سورة غافر ، الآية ٥٦

والبحث والتحرى ، إلى هؤلاء الذين يسيرون وراء الخيال وليس يعنيهم إلا أن يقال .

والآن نذكر لك مما استدل به الشافعى – رضى الله عنه – على سنة الجمعة ما يكفى بعضه للاجتهاد المعقول المقبول .

ولا نزال نكرر أن الظن كاف فى هذا الباب ولا يطلب غيره ، وأنه متى وصل إليه المجتهد وجب عليه اتباعه والقول به . وهاك قليلا من كثير :

فمن ذلك ما رواه عبد الله بن الزبير عند ابن حبان فى صحيحه والدارقطنى والطبرانى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ إِلَّا وَبَيْنَ يَدَيْهَا رَكْعَتَانِ » ومن ذلك ما رواه الطبرانى فى الأوسط « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً » ذكره العينى فى (عمدة القارىء) ولم يعلق عليه ، وقد ساقه للاستدلال .

وقال فى الفتح : روى الطبرانى فى الأوسط عن على « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً » وعلق عليه بقوله : وفيه محمد بن عبد الرحمن السهمى ، وهو ضعيف عند البخارى وغيره . ولكن هذا الطعن الذى ذكره الفتح لا يمنع الاستدلال به ، لا لأن الجرح غير مفسر كما قال بعضهم ، بل لأن الطعن غير متفق عليه ، فإن البخارى ضعفه ، ولكن إماماً آخر من أئمة الحديث وثقه وهو ابن عدى ، فيصح أن نقول : إن هذا مثل عكرمة الذى وثقه البخارى واحتج به ، وضعفه غيره ، ومثل سويد بن سعيد الذى احتج

به مسلم وقد اشتهر الطعن فيه . وبالجملة فحديثنا هذا غير متفق على تجريح رواته ، فيصح الاحتجاج به عند من لا يرى تجريح محمد بن عبد الرحمن السهمى المذكور .

وعن ابن عمر أنه كان يطيل الصلاة قبل الجمعة ويصلى بعدها ركعتين ، ويحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك . رواه أبو داود . وقال العراقى : إسناده صحيح .

وقال المنذرى : أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه من وجه آخر بمعناه . وروى الترمذى : « مَنْ صَلَّى فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ : أَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشاءِ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ » . ونحوه فى مسلم من حديث أم حبيبة ، غير أنه لم يذكر هذا التفصيل . وفى رواية عن أم حبيبة بنت أبى سفيان : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عشرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعاً غَيْرَ فَرِيضَةٍ إِلَّا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ » .

أفترى أن ذلك مطلوب كل يوم إلا يوم الجمعة الذى تتأكد فيه الطاعة ، ويزداد فيه الحرص على العبادة وعمل الخير ؟ !

وقد صرح الحديث بالتعميم فقال : كل يوم ، كما سمعت . وفصل الترمذى فى روايته المتقدمة هذه الركعات غاية التفصيل . ورواية الترمذى وإن لم يذكر فيها لفظ كل يوم ففيها ذكر النكرة فى سياق الشرط وهو يفيد العموم ، ولا معنى لإخراج يوم الجمعة الذى هو أفضل الأيام وأولاها بالصلاة والعبادة .

وعن أبي هريرة – رضى الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم قال – :
« مَنِ اغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَصَلَّى مَاقُدِّرَ لَهُ ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرُغَ الْإِمَامُ مِنْ خُطْبَتِهِ ثُمَّ يُصَلِّى مَعَهُ ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى » الحديث . رواه مسلم . وجاء فى بعض الروايات عند الإمام أحمد بلفظ : « فإن لم يجد الإمام خرج صلى ما بدا له ، وإن وجد الإمام قد خرج ، جلس فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعته » الحديث .

فجعل الغاية خروج الإمام وهو لا يخرج إلا بعد الزوال . وقال أبو عيسى الترمذى : إن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – كان يصلى قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً . وإليه ذهب سفيان الثورى وابن المبارك. وروى الشافعى عن ثعلبة بن أبى مالك عن عامة الصحابة أنهم كانوا يصلون نصف النهار يوم الجمعة . إلى غير ذلك وهو كثير . وبعض هذا كاف للاستدلال على ماذهب إليه الشافعى رضى الله عنه .

وهنا روايات ضعيفة لا بأس أن نسمعك شيئاً منها وليس التعويل عليها ، فإن عندنا غيرها على ما سمعت . ولا شك أن كثرة الروايات تفيد قوة الظن ويؤكد بعضها بعضاً . ولا داعى لأن نقول أن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال ، فالأمر هنا أعظم من ذلك ، ولو لم يكن للشافعى إلا قياس الجمعة على الظهر ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَ يَدَىْ كُلِّ فَرِيضَةٍ صَلَاةٌ » وقد أخرجه ابن حبان فى صحيحه وغيره لكفى وشفى ، وقضى على تلك الجعجعة الحمقاء .

وهاك بعض الروايات الضعيفة التى وردت فى الموضوع :

روى الشافعى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – صلى الله عليه وسلم – نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة ، ولكن فى إسناده إبراهيم بن أبى يحيى وإسحاق بن عبد الله بن أبى فروة ، وهما ضعيفان . ورواه البيهقى من طريق أبى خالد الأحمر عن عبد الله – شيخ من أهل المدينة – عن سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه . ورواه الأثرم بسند فيه الواقدى وهو متروك . ورواه البيهقى أيضاً بسند فيه عطاء بن عجلان وهو متروك أيضاً . وفى بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة وقال : « إِنَّ جَهَنَّمَ تُسْجَرُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ » . وفيها ليث بن أبى سليم وهو ضعيف . ومن ذلك حديث ابن ماجة الذى فيه بقية بن الوليد وغيره من الضعاف . فهذه الروايات الكثيرة يقوى بعضها بعضاً وإن كان فيها مقال . وقد تقدم لك ما يصح الاعتماد عليه من غير هذه الروايات .

والخلاصة أن الصلاة قبل الجمعة مرغب فيها عموماً وخصوصاً . وقد قال بعض العلماء : لم يتمسك المانع من الصلاة قبل الجمعة إلا بحديث النهى عن الصلاة وقت الزوال ، وهو مع كون عمومه مخصصاً بيوم الجمعة ليس فيه ما يدل على المنع من الصلاة قبل الجمعة على الإطلاق ، فإن غاية ما فيه المنع فى وقت الزوال وهو غير محل النزاع .

وعلى كل حال فما تقدم كاف للمنصف ، ولا حاجة للإطالة فيه .

وبعد : فهؤلاء الناس إنما يقصدون التلبيس على المسلمين وإيقاع الشقاق فيما بينهم بتفريق كلمتهم وفصم عرى وحدتهم ، حباً فى الظهور. فعلى ولاة الأمر أن يردعوهم عن ذلك بالزجر البليغ والتأديب الشديد ، كما كان يفعله الحكام فى العصور الأولى ، وكما تفعله الحقانية الآن مع من يحكم برأيه ويقضى بمذهبه الخاص :

فعلى الوعاظ وأئمة المساجد ألا يتعرضوا لمن يقلد إماماً من الأئمة الأربعة ، ويدعوه وما اختار لنفسه من تلك المذاهب التى تلقاها المسلمون بالقبول ، وقامت البراهين على أنها مستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله.

وإنى مالكى والمالكية لا يرون سنة الجمعة . ولكنى لا أحب الخروج على أئمة الهدى وورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسائل الاجتهادية يكفى فيها هذا وأقل من هذا على ما شرحنا لك . وما من أمة لا تعظم أئمتها ولا تحترم علماءها وعظماءها إلا ذهب ريحها وحق القول عليها .

نسأل الله أن يقينا شر مضلات الفتن ، ومزالق الأهواء بمنه وكرمه .

وقوع الذباب فى الطعام (١)

والحديث الوارد فى ذلك

س : حضرة صاحب الفضيلة أستاذى الجليل الشيخ يوسف الدجوى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فقد أمر الأطباء بمحاربة الذباب وإبادة جراثيمه لما يشاهد فى وقوعه على القاذورات فيحمل منها ثم ينتقل بعد ، ويقع على الوجوه والأعضاء . وفوق هذا فإنه سبب لنقل العدوى من الأجسام المصابة بالحمى إلى الأجسام السليمة ، وقد ورد فى الحديث الصحيح (إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن فى أحد جناحيه شفاء وفى الآخر داء).

فأكتب إلى فضيلتكم راجياً بيان التوفيق بين ما يرشد إليه هذا الحديث ، وبين ما يقرره الأطباء فى خطر الذباب ، ونحن بصفتنا الإسلامية نقبل ونطيع لهذا الحديث .

وأرجو أن تتفضلوا بنشر هذا البيان على صفحات مجلة الإسلام ودمتم للفضل والعلم .

محمد حمدى حسن

الواعظ الدينى بواحة سيوه

---

(١) مجلة الإسلام — السنة الثانية — العدد السادس والثلاثون — رمضان — سنة ١٣٥٤

وقد جاءنا سؤال آخر يسأل مرسله فوق هذا عن عدم تنجيس الطعام بذلك الذباب .

وأقول مستعيناً بالله :

الجـواب

قبل كل شيء نذكر لك هذا الجواب المختصر ، وهو يعتبر قاعدة عامة تنفع فى هذا الموضوع وفى غيره :

« سئلت منذ زمان بعيد عن هذا الحديث فقلت للسائل (ببساطة) : الأمر فى مثل هذا سهل جدا ، فالحديث الذى فيه الشبهة لايخلو إما أن يكون فيه احتمال للصدق أو لا ، فإن كان فيه احتمال للصدق ولا مانع من تحقق معناه ، وليس هناك قادح فيه من الحس أو العقل فهو على العين والرأس ، وكلام الرسول مقدم على كل شيء :

وإن قام البرهان الحسى أو العقلى على كذبه حكمنا بأن الحديث مختلق على النبى – صلى الله عليه وسلم – وأنه لم يقله . وقد بين ذلك فى علم الأصول وغيره غاية البيان ، وجعلوا ذلك من علامات وضع الحديث . فأى وقفة تبقى بعد ذلك فيما يكون من هذا القبيل . (هذا ما قلته للسائل فى ذلك الوقت) . أما اليوم فنخوض بك غمرات التفصيل والتحليل وليكن ذلك جواباً بالتسليم وهذا جواباً بالمنع ، فنقول :

مقدمة :

يتوهم بعض الناس أن العلم قد يعادى الدين ويباينه لأن بعض النظريات العلمية المعروفة لاتتفق هى وبعض النصوص الدينية ظاهرا .

غير أن المتأمل الذى يحقق ويبحث يعلم أن كثيرا من نظريات العلم يطرأ عليها التغيير . وأن كثيرا من الآراء العلمية التى كان يرى أصحابها أنها هى الثابتة والتى أفضى إليها البحث قد أظهرت الاكتشافات الحديثة خطأها وعدم صحتها .

من يتحقق هذا ويعلمه ، وهو ما تدل كل الدلائل عليه ، يجزم بأن ما يرى من الآراء العلمية فى ظاهرة مخالفاً للدين لا يباينه فى الواقع ونفس الامر ، وأن الصحيح فى الأمر هو ماذهب إليه الدين وأن الرأى العلمى هو الذى لم يتضح ولم يستوف الباحثون بحثه . وإنا ناقلون لك كثيرا من الشواهد على ذلك .

ولكنى أحب أن أعلمك قبل كل شيء أننا لسنا ممن يعادى الجديد أو ينكر فضل تقدم العلوم الطبيعية والمكتشفات الحديثة فى هذا العصر إلى حد لم يكن يحلم به أهل العصور الأولى . ومن ذا يستطيع أن ينكر ما بهرنا به العلم من فوائد يرتقى بها العمران ، وعوائد قد عادت بالخير العميم على نوع الإنسان .

ولكن هناك ظاهرة من الظواهر لا تكاد تفارق كثيرا من الباحثين وهى فى الحقيقة ظاهرة من ظواهر الضعف الخلقى . تلك الظاهرة التى لايكاد الباحث يخلص منها أو ينفك عنها ، هى تلك الكبرياء الممقوتة التى تخيل له أنه قد قتل الأشياء بحثاً وأحاط بها خبراً . فتراه (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً)[1] يتكلم فى كل شيء ويحكم على كل شيء ،

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

حتى أنه كثيراً ما يعتقد أن الخارج عما وصل إليه من النواميس وحدده من القوانين لا تصيب له من الصحة ، مادام مجاوزاً دائرة فهمه وحدود علمه ، حتى إذا جاء من بعده ضحك من غروره وهزئ بما كان يتبجح به من معلوماته ، مبيناً ما كان له من زلات وما تورط فيه من جهالات . وقد ترى ذلك الهازئ الساخر قد وقع فيما اعترض به على السابقين وكان فوزه فيما استدركه عليهم من أكبر الأسباب لأن يطغى عقله فتزل قدمه .

ولو وقفوا عندما وصلوا إليه من المعلومات الحقة التي تشهد لها الحس وأقرها الامتحان وقام عليها البرهان ولم يتعرضوا لما سوى ذلك لكانوا في أمن الزلل وعصمة من الخطل ولكن طغيان نفوسهم أبى عليهم أن يعرفوا قدرهم أو ينسبوا أنفسهم لجهل أو قصور .

الخلاصة

إن من تأمل فيما يتجدد كل يوم من العلم الحديث ويظهر من آن لآخر من أسرار الكون لا يشك في أن العلم البشري لا يزال طفلا وأن الناس ما أوتوا من العلم إلا قليلا ، وهذا هو مقتضى الضعف البشري ، وهو لازم من لوازم وجوده بموجب خلقته وتكوينه . وبهذا يتبين أن قول المتبجحين من قصار النظر أنهم عرفوا ما يمكن ، وما لا يمكن ظنا منهم أنهم أحاطوا بنواميس الكون غرور يبرأ منه التحقيق العلمي ويستهزئ به النظر الواسع المدقق ولنا على ذلك الشواهد الكثيرة والأمثلة العديدة .

١ — لو قال قائل إن الهواء أو الماء مؤلف من عدة عناصر لسخر منه أساطين علماء الطبيعة الأولون ، وعده أكابر علماء الفلسفة السابقون

قائلا بالجهل منابذاً للعلم لا يدري ما يقول فإنهم كانوا مجمعين على أن كلا منهما عنصر بسيط ، وقد قامت البراهين الملموسة من عهد غير بعيد على أن قولهم هو الجهل وأن ماسموه علماً ولم يكن محلا للشك ليس بعلم ، وجدير أن يقذف به في عالم الميتولوجيا وإن شهد أهل زمانهم بأنهم المتخصصون في ذلك .

٢ — لو واجه أولئك العلماء باحث بأن بعض الفلزيات كالذهب عنصر بسيط ، للقي منهم أشد الإنكار والعامة تكون في جانب المنكرين لامحالة لما يرون فيهم من الزعامة لهذا الشأن وقد أصبح اليوم إنكار هذا الأمر هو الجدير بأن ينكر ، إلى غير ذلك من الأمور العديدة التي تجدد بها العلم .

هذا الجسم الإنساني كم فيه من جزء كانوا يظنون إنه لا منفعة فيه . ثم تبين بعد ذلك أن فيه عدة منافع وناهيك ما يقولون الآن في الغدد وما اكتشفوه فيها من الأسرار والخصائص .

ولا يزال العلم بأسرار ما أودع الله في مخلوقاته في دوره الأول . ولذلك يقول القرآن الكريم : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[1] ولا يزال قوله تعالى : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)[2] صادقاً (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)[3] حتى تقوم الساعة . ولا ينبغي أن ينخدع منخدع بكثرة

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣
(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦
(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٢

ما ظهر من الآلات الدقيقة كالمجهر (المنظار المعظم) فإن المنصفين من أهل العلم لا يزالون يقولون فى بعض الحيوانات التى تسبب بعض الأمراض أنها تحت المجهر . يريدون أن المجهر لا يزال قاصرًا عن كشفها وإنما عرفوها بآثارها ، ولا يزال كثير من الأمراض مجهول الميكروبات إلى اليوم رغم تقدم الأبحاث العلمية والتفنن فى صناعة الآلات الكاشفة . وكم من شىء فى العقاقير الطبية يعرف تأثيره فى بعض الأدواء ولا يدرى لماذا يكون هذا التأثير . ولذلك نرى الطب كل يوم فى تطور حتى لقد قال لى بعض حذاق الأطباء الذين مارسوا صناعة الطب زمانًا طويلًا : إننا اليوم نسخر من أشياء تلقيناها فى المدرسة وكانت إذ ذاك هى العلم الذى لا يعول على غيره . وما يدريهم أن ما هم عليه الآن ستظهر فيه الاكتشافات المقبلة من الخطإ ما ظهر لهم فى خطإ من قبلهم ، وقد قرر ذلك غاية التقرير وزير خارجية إنجلترا سابقًا المسيو بلفورعندما رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبردج الجامعة فى أغسطس سنة ١٩٠٤ م . ولا بدع فبحر عجائب أسرار القدرة الربانية مشحون بالدرر ، ولا يدرك غوره أحد ، ولا ينتهى منتهٍ إلى كل ما فيه ، وأنى للمتناهى أن يبلغ ما لا يتناهى .

هذا وأن من الحقائق الفلسفية المقررة الثابتة التى تكاد تلحق بالبديهيات أن هناك فرقًا بين عدم العلم بالشىء وبين عدم الشىء فى نفسه وأن الأول لا يستلزم الثانى ، وإن عدم الدليل على الشىء ليس دليلًا على عدمه .

وبعد فإذا عرفت ما أسلفناه حق المعرفة وهو الحق الذى لا مرية فيه أمكنك أن تضع يدك على الجواب الجملى ، ومع هذا فلا بأس أن نتكلم بشىء من التفصيل المتعلق بنقط السؤال :

الجواب التفصيلى عما جاء فى السؤال

كيف يأمر النبى – صلى الله عليه وسلم – بغمس الذباب فى الإناء إذا وقع فيه مع أنهم يقولون إنه خلق من القاذورات وأنه ينقل عدوى كثير من الأمراض ؟]

جوابه : إن كون الشىء من القاذورات لا يمنع أن يكون دواءً لبعض الأدواء ، بل قد يكون نفس المستقذر هو الدواء النافع للمرض الذى يداوى به وكيف يستبعد ذلك وكثير من الأمراض يتداوى منها بها ، أو يكون طريق الوقاية منها بالحقن ، وهل عملية التلقيح للوقاية من الجدرى إلا بالمادة المعروفة (وقد استبان حديثًا إن من أنجع الأدوية للأمراض المستعصية الحقن بمادة المرض نفسها فيأخذون دواء من السائل المخاطى ومن الدم ومن المدة ... إلخ) أفلا يكون فى ذلك ما يكفى .

وكثير من هذه الأدوية ليست من القاذورات فحسب بل هى القاذورات نفسها ، وقد يكون فيها الجراثيم للأمراض الكثيرة . أفيسلم ذلك للأطباء ، وينكر على سيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام فلينصف المنصفون ، ومن المجرب أن لسعة الزنبور تفيد كثيرًا فى بعض الأوجاع الروماتزمية ، وقد رأينا من استفاد منها . وأى قذر أقذر من دم الكلب وهو الدواء المعروف الآن للشفاء من الكلب حتى لقد أنشدنا بعض ظرفاء الأطباء قول ذلك الأديب الخليع :

* وداونى بالتى كانت هى الداءُ *

(وأما الجواب عن السؤال الثانى) فإنه لا غرابة فى أن يكون الشىءُ بعضه سم والبعض الآخر ترياق ، وعدم وقوف الأطباء على ذلك لا يقتضى عدم وجوده ؛ وهذه مسألة ليس مرجعها إلى علم التشريح فإنه إنما يتكلم على بعض الوظائف للأعضاء بحسب ما ظهر لأصحابه وهو قليل من كثير . وقد قال بعضهم : الفرق بيننا وبين آبائنا اعتقادنا أننا جهلاء واعتقاد آبائنا أنهم علماء ، أفليكن هذا من ذلك الخفى .

وقد أسلفنا أن عدم العلم بثبوت الشىء لا يقتضى نفيه .

ومن ادعى إحاطة العلم بكل ما فى الأشياء من الخواص فقد كذب على العلم وحمله ما هو منه برىء . والخالق الذى جمع فى جسم الحيوان بين القوى المتضادات والعناصر المختلفات قادر أن يجعل فى أحد الجناحين سما وفى الآخر ترياقا .

والأطباء صادقون فى دعوى أنهم لم يعلموا ولكن لا يضر ذلك شيئاً كما أوضحناه ، على أن المكتشفات الجديدة قد أيدت الحديث تمام التأييد . وستسمع شيئاً من ذلك بعد فانتظر .

(وأما الجواب عن السؤال الثالث) فمذهب الشافعى – رضى الله عنه – أنها إذا ماتت فى الإناء لسبب غمسها وهى حية فيه فإنها لا تنجسه أخذاً من هذا الحديث الشريف فإنه قال رضى الله عنه إن الأمر بغمسها فى الاناء قد يفضى إلى موتها فى الإناء فلو كانت تنجسه ما أمر بغمسها

فيه . وأما لو تعمد طرحها فيه وهو غير مأمور به فإنها تنجسه حينئذ ، لأن النص إنما هو فيما لو وقعت بنفسها ، فغمسها حينئذ من التداوى الذى لا بد منه كما ستعرف ذلك .

الطب الحديث وما يقوله فى الموضوع بخصوصه

(وهو آية من آيات النبوة ومعجزة من معجزات الدين الإسلامى)

رأينا بحثا ممتعا لحضرة الأستاذ الفاضل إبراهيم أفندى مصطفى عبده معيد فى الصيدلة وتركيب العقاقير بكلية الطب . ألقاه فى جمعية الهداية الإسلامية يوم الخميس ٢٩ من شوال سنة ١٣٤٩ – ١٩ مارس سنة ١٩٣١ م وهى محاضرة طويلة نقتطف منها ما يأتى :

قال بعد أن ذكر الحديث الذى فى سؤال السائل ما نصه :

وقع كثير فى خطإ تكذيب هذا الحديث زاعمين عدم مطابقته للحقيقة ، وذلك قبل أن تدحض مفترياتهم الأبحاث العلمية الجديدة منذ بضع سنين وتكشف عما تضمنه من بليغ الحكمة .

ولو أنهم جاروا السلف الصالح فى التصديق لكان خيراً لهم .

ويحق لنا أن نضم هذا الحديث إلى المعجزات العديدة التى جاء بها خاتم المرسلين منذ أكثر من ثلاثة عشرة قرنا . وأن ما يقدمه الذباب للناس من المنافع لآية عظيمة على وجود الخالق وقدرته . كما أنها توضح الحكمة فى ضربه مثلا فى القرآن الكريم لتعجيز الكافرين .

ومعلوم أن الذباب يقع على العفونات والمواد القذرة المملوءة بالجراثيم التى تولد الأمراض المختلفة ، أتدرون ما هو العمل الجليل الذى خص به الذباب وسخر له .

فكما أن الذباب ينقل بعض الجراثيم بملامسته مصدرها فإنه أيضاً يأكل منها أكثر مما ينقل .

وليس كل واجبه تقليل نسبة وجود الجراثيم فحسب ، بل إن ما يتناوله منها فى فمه يتحول داخل جسمه إلى ما سماه علماء الطب بالبكتريوفاج . أو (مبعد البكتريا) الذى ينتصر على كثير من جراثيم الأمراض فيبيدها على بكرة أبيها . ولا يمكن لتلك الجراثيم أن تبقى أو يكون لها أى تأثير فى جسم الإنسان فى حالة وجود البكتريوفاج . فسبحان الخلاق العظيم .

والآن أسمعكم ما جاء بمجلة التجارب الطبية الإنجليزية عدد ١٠٣٧ عام ١٩٢٧ قالت :

لقد أطعم الذباب من زرع ميكروبات بعض الأمراض ، وبعد حين من الزمن ماتت تلك الجراثيم واختفى أثرها وتكونت فى الذباب مادة مفترسة للجراثيم تسمى (بكتريوفاج) ولو عملت خلاصة من الذباب فى محلول ملحى لاحتوت على البكتريوفاج التى يمكنها إبادة أربعة أنواع من الجراثيم المولدة للأمراض ، ولاحتوت تلك الخلاصة أيضاً على مادة خلاف البكتريوفاج نافعة للمناعة ضد أربعة أنواع أخرى من الجراثيم اهـ .

وقد برهن على ذلك أيضا الأستاذ الدكتور دريل مندوب الصحة البحرية والكورينتينات المصرية فى الهند للبحث عن ظهور الكوليرا بها وأنجع الطرق لمقاومتها وقدم تقريراً مفصلا فى ديسمبر سنة ١٩٢٧ م

عما أجراه مع زملائه من الأبحاث الفنية والتجارب العلمية ؛ فقد ذكر فى تقريره أن البكتريوفاج أجسام حية صغيرة الحجم جداً أمكن تكوينها ورؤيتها بترسيب ذرات الفضة عليها وأنه حصل على البكتريوفاج وتمكن من زرعه وتنميته وإذابته فى الماء وإعطاء محلوله إلى المرضى بنسب مخصوصة ، وبزيادة الجرع وتنظيم تناولها كان المريض ينال الشفاء فى يومين أو ثلاثة ، وتمكن أيضا من استخراج البكتريوفاج من براز الناقهين واستعماله لنفس الغرض وكان يضع من زرع البكتريوفاج فى بئر القرية فإذا شرب منه أهلها زالت عنهم أعراض الكوليرا .

وبذلك برهن على أن الذباب ينقل البكتريوفاج من براز الناقهين إلى آبار الماء فيشربه الأهالى ويتناولون الأطعمة التى ينقل الذباب إليها البكتريوناج ، فسرعان ماتخف عنهم وطأة الكوليرا ثم تزول .

وأجريت مثل تجارب الأستاذ دريل فى البرازيل عن الدوسنتريا الحادة ، واستعمل البكتريوفاج فى ايطاليا فى علاج الحمى التيفودية وكذلك ضد جراثيم الاستافيلوكوك فأفاد .

واطلعت على تفصيل قوة البكتريوفاج فى مقاومة وإبادة الجراثيم فى كتاب باللغة الانجليزية اسمه (تمهيد البكتريولوجى العملى) الذى يدرس فى كلية الطب المصرية يكاد يذكر أنها غير محدودة .

فمعنى الحديث بعد ماتقدم (فليغمسه ثم لينزعه) أو حسب الرواية الأخرى (فليغمسه كله ثم ليطرحه) أن الحكمة فى الغمس لإدخال البكتريوفاج فى الشراب ، والبكتريوفاج يقتل الجراثيم التى

تكون منها . والمقصود بالغمس جميع جسم الذبابة ، لأن الحديث لم ينص على غمس الجناحين فقط :

وهذا يدل على أن ذكر الداء والشفاء فى الجناحين لفظى لا يفهم منه قصر الضرر والمنفعة عليهما دون باقى الجسم ، وبما أن الجناحين جزء من الجسم فإن الطب لاينفى وجود ميكروب الداء وبكتريوفاج الشفاء فيهما . وبذلك تتحقق صحة الحديث ومطابقته للأبحاث الفنية .

والسبب فى التعبير بالجناحين أنهما أهم الأجزاء فى الذبابة إذ بدونهما تشل عن الطيران ولزيادة التأكيد فى غمس الجسم كله لأن الجناحين أعلى أجزائه ولتقريب المعنى المراد إلى أفهام العرب خاصة والناس عامة .

ولعل الأبحاث الطبية فى المستقبل تكشف عن أسرار أخرى فى الذباب . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

هذا مانقله ذلك الفاضل عن تلك المجلات الأوربية ، فليت شعرى ماعسى أن يقول المتفيقهون وهى معجزة أوضح من الشمس وأظهر من الحس .

(كلمة ختامية لابد منها) ربما يفهم بعض قاصرى النظر مما قدمناه أننا نقول بعدم الاحتياط من الذباب ، وحاشا أن نقول ذلك فى الدفاع عن الحديث فإن الحديث لايفيد ذلك ولا يقتضيه .

وغاية مايقوله الحديث هو أنك إذا فرطت فيما يجب عليك من توقى الذباب بكل مايمكنك حتى وقع فى طعامك ، فالخلاص من تلك الميكروبات التى ينقلها إلى طعامك يكون بغمسه كله لذلك السر الذى شرحناه فيما تقدم وبينه أساطين العلم الطبيعى بأوربا . وقد صرح الحديث نفسه بأن فيه داءً (والحمية رأس الدواء) فهو بمنزلة من يقول لك : إذا وصل السم إلى جوفك لسبب من الأسباب فترياقه كذا وكذا . فهل ترى أن من وصف لك دواء السم المهلك فقد أمرك بتعاطيه . والأمر أوضح من أن نطيل فيه أو يتشبث به بعض القاصرين أو المتعنتين .

حكم شراء السماد وغيره من البنك[1] بفوائد معلومة

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الجليل الشيخ يوسف الدجوى إمام السنة ونور الأمة .

السلام عليكم ورحمة الله : — وبعد : فما قولكم دام فضلكم فى معاملة المزارعين مع البنك من حيث شراء السماد بالأجل على حسب نص الاستمارة المرفقة طى الخطاب هذا . وخصوصاً بيان تفسير المادة الرابعة من صحيفة ٢ التى تنص أن الفائدة هى من ٠٥ ./. إلى ٠٧ ./. فنرجو من فضيلتكم الحكم الشرعى وبيان من يجيز ذلك — أفيدونا مأجورين أثابكم الله لازلتم للسنة ناصرين .

ابنكم : موسى عبد العاطى
خادم العلم الشريف باولاد سلامة

وجاءنا سؤال آخر بهذا المعنى بتوقيع أحمد المصرى بالبلقون كفر الدوار — بحيرة .

الجـواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه — وبعد

فإن بيع الأسمدة بالطريقة المبينة فى الاستمارة التى أرسلتموها هو من الربا ، وهو حرام من أكبر المحرمات . وقد آذن الله من لم ينته عنه

(١) مجلة الإسلام — السنة الثانية — العدد الرابع والأربعون — ذو القعدة — سنة ١٣٥٢

بحرب من الله ورسوله ، ولعن رسول الله آكله وموكله وكل من له تدخل فيه وقد ذكر فى الإستمارة الفوائد ثلاث مرات وخصوصاً فى المادة الخامسة ، ولا يغتر مغتر بتسميتها فوائد. فكما أن تسمية الخمر بغير اسمها لا تخرجها عن كونها خمراً محرمة . فكذلك تسمية الربا بالفوائد لاتحله .

وقد أذهب الله البركة من المزروعات وترا كمت على الأمة الأزمات بشؤم الربا ومخالفة الله ورسوله ، وهكذا يستحق من يترك العمل بدين الله العالم بما يوجب الشقاوة والسعادة . وقد أرسل إلينا الرسول الأعظم — صلى الله عليه وسلم — ليقينا مواطن الهلكة فى الدنيا والآخرة . ونحن نتهافت على المعاصى تهافت الفراش على النار .

وليس هناك طريق للسعادة فى الدارين إلا التزام تعاليمه — صلى الله عليه وسلم — كما قال تعالى (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)[1] .

البيع لأجل والزيادة فيه

وهنا طريقة أخرى لو سلكها الناس لخلصوا من الربا المحرم وهى طريقة سهلة وأظن أن البنك لا يأباها لأنها لا تضيع عليه شيئاً مما يريد :

ذلك أن يشترى منه الناس السماد أو غيره لأجل مسمى وليجعلوه كما يشاؤون ، ولا بأس أن يكون الثمن فى هذا المؤجل أزيد من ثمن

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٢

الحاضر . فإن زيادة الثمن لأجل الأجل لاشىء فيها ، فإن الأجل له حصة من الثمن ولا يلزم أحدا ببيع المؤجل كالمعجل .

ولكن يجب أن تعرف أن العقد لابد أن يكون هكذا من أول الأمر فيقول لك البائع : إذا دفعت الثمن الآن كان بكذا ، وإذا دفعته بعد شهرين مثلا كان بكذا ، فلك أن تختار أيهما شئت .

وليكن ذلك من أول الأمر على التعيين فتعقد البيع معه على المؤجل أو المعجل . وإذا أخذته مؤجلا ثم جاء الأجل ولم تدفع فلا يجوز أن تزيد لأجل التأخر فيلزمك أن تؤجل للأجل الذى تستطيع الدفع فيه ويكون الثمن على مايريد البائع والمشترى .

والخلاصة أنك مخير بين أمرين إما أن تشترى نقدا وتقبضه الثمن حالا . وإما أن تشترى لأجل من أول الأمر على التعيين ولو بثمن أزيد من الحال . (فتكون عقدة البيع من أول الأمر على أخذ كذا بثمن كذا إلى أجل كذا) .

فهذا لا شىء فيه وهو طريق سهل سلوكه ولكن الناس تهاونوا فى دينهم كثيرا مع سهولة الأمر ووضوح طريق الرشد .

والله يتولى هدانا جميعاً بمنه وكرمه .

الصلاة والصيام فى السفر (١)

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى حامل لواء العلم أدامه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فأرجو من فضيلتكم الإجابة بالحكم عن السؤال الآتى .

١ ـ ما حكم الصلاة والصيام فى السفر ؟ .

٢ ـ ما مقدار المسافة التى تقصر فيها الصلاة ويفطر فيها المسافر ؟ .

٣ ـ ما حكم من ركب قطارا أو طيارة من مصر إلى الاسكندرية أو العكس هل تجرى عليه أحكام المسافر من قصر وإفطار أم لا ؟ .

الرجاء الإفادة بالجواب الشافى عن هذه الأحكام جعلكم الله سراجاً منيرا يقتدى بكم فى كشف غوامض الأمور ، وأرجو نشر ذلك فى مجلة الإسلام لأجل اطلاع الجمهور عليه ولكم الشكر وهذه الأسئلة حصل عنها مشاحنة بين قبائل العربان برمل الاسكندرية ومن عاداتهم السفر واخترنا فضيلتكم حكما بيننا فى ذلك .

محمود عمر الهابيين
برمل الاسكندرية

(١) مجلة الإسلام — السنة الثالثة — العدد الرابع عشر — الصفحة ١٩ — سنة ١٣٥٣

الجــواب

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

١ ـ أما سؤالك عن حكم الصلاة والصيام فى السفر فهو سؤال مجمل فإن أردت وجوبها فالجواب أن الصلاة واجبة . وأما الصوم فليس بواجب .

وإن أردت القصر فى الصلاة وما هو الأفضل فى الصيام فالجواب أن قصر الصلاة سنة فى السفر ، ولا يقطع حكم السفر إلا نية إقامة أربعة أيام .

وأما الفطر فيه للقادر على الصوم بلا مشقة تلحقه فهو خلاف الأفضل عندنا . وفى المقام أحكام وتفصيلات تكفلت بها كتب الفقه وأظنها لا تعنى السائل .

والمراد بالسفر فى كل ذلك سفر القصر وسيأتى بيانه .

٢ ـ أما مسافة القصر فهى أربعة برد : والبرد ثلاثة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل معروف لديكم ، وكانوا يقدرونها بالمسافة التى بين مصر ومحلة روح .

٣ ـ حكم من ركب القطار أو الطيارة أنه يفطر إن شاء ويقصر الصلاة ، فإن السفر مظنة المشقة على كل حال والدين لم ينط القصر إلا بالسفر لا بالمشقة . فسفر الملوك الأزمنة الأولى أو هذه الأزمنة لا تعب فيه أصلا بل يصح أن تقول إنه رياضة لذيذة بها كل وسائل الراحة .

ولكن علمت أن السفر مظنة التعب للمسافر على كل حال ففيه مخالفة عاداته وشغل فكره وتوقع ما هو جائز مما عسى أن يكون من الحوادث إلى غير ذلك على أن التشريع دائماً إنما يعتبر حال غالب الناس وعامتهم ولا نظر له إلى ما يكون نادراً أو غير متيسر إلا للخاصة وعلى كل حال فدين الله يسر والشريعة السمحة لم تفرق بين أنواع السفر ولا ربطت الحكم بما يتخيله كثير من الناس .

هذا ما سمح به الوقت وقد كتبته على عجل وهو كاف إن شاء الله .

سؤالان وجوابهما (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد :

جاءنا هذا السؤال من حضرة صاحب التوقيع قال بعد الديباجة :

وبعد فما قولكم دام فضلكم فيمن كان خارجاً عن بلد الجمعة بأكثر من فرسخ ودون مسافة القصر فصلى بالناس الجمعة إماماً وليس هذا بمقيم مدة تقطع حكم السفر ، هل صحت صلاة الجمعة أم بطلت ؟ وما القول المشهور فى مذهب الإمام مالك رضى الله عنه . نرجو منكم القول الفصل فى ذلك للإرشاد ، أدامكم الله ذخراً للدين وملجأً للسائلين وهو بالإجابة جدير .

ملحوظة : الذى صلى حاكم شرعى .

السيد حمدين الحاج سليمان
تاجر بواد مدنى — السودانى

الجواب

إن الإمام فى الجمعة يجب أن ينوى إقامة أربعة أيام متى كان خارجاً عن ثلاثة أميال وثلث هذا مشهور مذهب مالك ، وهناك قول آخر للناصر اللقانى وبعض المالكية بأن الإمام لا يشترط فيه ذلك متى كان داخل مسافة القصر ، فإذا خرج عنها فلابد أن ينوى إقامة أربعة أيام .

(١) مجلة الإسلام — السنة السابعة سنة ١٣٥٧

هذا ما يقوله المالكية . فصاحبك إن كانت مسافته أكثر من ثلاثة أميال وثلث فالجمعة غير صحيحة على مذهب جمهور المالكية وصحيحة على قول الناصر اللقانى ، وإن كانت أقل من ذلك فهى صحيحة فإنه يجب عليه السعى للجمعة فى تلك المسافة والله أعلم .

وجاءنا من حضرة صاحب التوقيع . قال بعد الديباجة : نرجو الإفادة عن زكاة الحرث على المذاهب الأربعة فى (مجلة الإسلام) فى أقرب وقت لأن عندنا غلالا موقوفة لحين رد فضيلتكم ولفضيلتكم جزيل الشكر .

محمد أبو زيد سليمان
العلامية مركز أخميم جرجا

الجواب

إن علماء المذاهب الثلاثة : الشافعية والمالكية والحنابلة قد أجمعوا على أن زكاة الحرث فرض عين على من ملك هذه الأراضى أو استأجرها سواء كانت هذه الأرض خراجية أو عشرية خلافاً للحنفية حيث قالوا : إن الأراضى الخراجية كأرض مصر لا زكاة عليها ، ويعرف ذلك بغاية السهولة من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة والله أعلم.

حول القبور (١)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه :

وبعد فقد قال العلامة خليل فى باب الجنائز :

(والقبر حبس لا يمشى عليه ولا ينبش مادام به « أى الميت » إلا أن يشح رب كفن غصبه إلخ.) وكتب عليه شارحه الخطاب ما يأتى :

إن العلماء قد اتفقوا على أن الموضع الذى يدفن فيه الميت وقف عليه مادام منه شىء موجوداً فيه حتى يفنى ، فإذا فنى حينئذ يدفن غيره فيه فإن بقى شىء من أعضائه فالحرمة قائمة بجميعه ولا يجوز أن يحفر عليه ولا يدفن معه غيره . ولا يكشف عنه اتفاقاً إلا أن يكون موضع قبره قد غصب .

ثم قال بعد قول خليل : (إلا أن يشح رب كفن غصبه) أى فيجوز نبشه ليأخذ الكفن صاحبه وكذلك إذا احتاج إلى المقبرة لمصالح المسلمين (أى فيجوز نقل ما فيها إلى مكان آخر) كما فعل سيدنا معاوية رضى الله عنه فى شهداء أحد :

عن جابر رضى الله عنه قال لما أراد معاوية إجراء العين إلى جانب أحد أمر منادياً فنادى فى المدينة : كل من له قتيل فليخرج إليه

(١) مجلة الإسلام — السنة الثالثة — العدد السادس — الصفحة ٢٠ — سنة ١٣٥٣

ولينبشه وليخرجه وليحوله . قال جابر : فأتيناهم فأخرجناهم من قبورهم رطاباً يتثنون « ينعطف بعضهم على بعض من الرطوبة » أ هـ .

فى الرهونى : وأما بناء المسجد للصلاة فيه على المقبرة العافية فلا كراهة فيه . لأن المقبرة والمسجد حبسان على المسلمين لصلاتهم ودفن موتاهم . فإذا غصت المقبرة بالقبور ولم يمكن التدافن فيها أو استغنى عن التدافن فيها واحتيج إلى أن تتخذ مسجداً يصلى فيه فلا بأس بذلك . لأن ماكان لله فلا بأس أن يستعان ببعض ذلك فى بعض . على ما كان النفع فيه أكثر والناس إليه أحوج .

فيتضح من ذلك أن نبش القبور ونقل ما فيها من العظام لا يجوز إلا لمصلحة ضرورية كإجراء نهر فيها .

ومثل ذلك ما إذا احتيج لها لتوسيع الطريق أو خيف على المقبرة الغرق .

وأن بناء المسجد على المقبرة التى درست جائز من غير كراهة متى اقتضته المصلحة . وإذا فنقل العظام من المقبرة المسؤول عنها بهذا الاستفتاء يظهر أنه كان محرماً لأن اتخاذها مسجداً كان ممكناً بدون النقل المذكور ، غير أن هذا لا كلام فيه الآن فإنه قد وقع وانقضى بما له وما عليه .

وإنما الكلام فى المسجد الذى بنى فى هذه المقبرة ، والذى نراه أن يكمل وتقام فيه الصلاة لأن نبش القبور إخراج ما فيها من بقايا

الموتى إنما حرم لانتهاك حرمتهم وتأذيهم بذلك كما ورد (أن الميت ليتأذى مما يتأذى منه الحى) .

وحيث أن فى إعادتهم إلى المقبرة إهانة أخرى وإيذاء جديدًا لهم فلا يجوز الإقدام على ذلك ، ولتبق هذه العظام حيث استقرت ويغفر الله للناقل إن لم يكن له وجه صحيح ، على ما بيناه . وهو ولى التوفيق وله الحمد فى الأولى والآخرة .

غلطات قلّ من يتنبه لها (١)

يظن كثير من الناس أننا فى نهضة ؛ وما أدرى ما الذى فعلناه وأى تقدم تقدمناه . إنى بحثت طويلا فلم أر لتلك النهضة التى يزعمونها أثراً غير فساد الأخلاق فى الرجال والنساء وشيوع المحسوبية التى تقدم غير المستحق على المستحق حتى صار كل شىء مرتبطا بها .

وظهور النزعات المختلفة التى فرقت كلمة الأمة وفصمت عرى وحدتها فزادتها ضعفا على ضعفها فما أثر هذه النهضة إلا تأخر فى الأخلاق تأخر فى الآداب ، تأخر فى العدالة ، تأخر فى الدين ، تأخر فى التجارة تأخر فى الزراعة ، تأخر فى مرافق الحياة كلها وشؤون الاقتصاد جمعاء .

أما موقفنا السياسى فلم يتقدم أنملة إلا فى خطب الخطباء وكلام الزعماء ، ولعل أكبر مظاهر هذه النهضة كثرة الحاصلين على الشهادات الذين يئنون فلا يرثى لهم ، ويصرخون فلا يلتفت إليهم . ثم شدة إقبال الأمة على المدارس بلا عقل ولا روية قياسا على أوربا غير شاعرين بالفروق بيننا وبينها ؛ فالبيئة هنا غيرها هناك . والتربية العملية التى تغذيها روح العمل هناك وتنميها المظاهر المختلفة ووجود المصانع والمعامل والشركات ثم وجود المستعمرات التى تقبل العاطلين ولا ترد الجاهلين ولا تحاسب القادمين ، ثم النفسية المخصوصة التى تخالف نفسية المصرى من كل وجه فيقبل صاحبها أن يكون بالهند وبالسودان على حين أن المصرى يئن من وجوده بقنا أو بأسيوط إلخ إلخ .

(١) مجلة الإسلام – السنة الثانية – العدد التاسع عشر – سنة ١٣٥٢ – الصفحة ١١

كل هذه فروق بيننا وبينهم فقياسا عليهم هو من باب القياس الحمارى ، فقد ذكروا أن حماراً كان يحمل حملا من الملح فا عترضه نهر فى الطريق فاقتحمه ، فلما خرج منه وجد الحمل قد خف عليه ، فعندما رجع حمله صاحبه حملا من القطن فلما وصل النهر فى رجوعه اقتحمه بعنف وشدة لأنه قاس القطن على الملح ، ولم يعرف الفرق بينهما فزاد بلاؤه وتضاعف عناؤه .

وللتعليم بعد ذلك أثقال ينوء بها صاحبها فإنه يجعل لصاحبه نفسية مخصوصة ودرجة مخصوصة (فى الواقع أو فى زعمه) :

ويوجب عليه واجبات كثيرة (لو كان غير متعلم لم يكن فى حاجة إليها ولكفاه القليل وأقنعه اليسير) فيكون لديه أزمة الوظائف وإلحاح هذه الواجبات وشدة هذه النفسية المتغطرسة .

فقل لى بعيشك ماذا يكون حاله وكيف تكون حياته :

وأنكد الناس عيشا من تكون له نفس الملوك وأرزاق المساكين

وكثير من الناس يظن أن التعليم يهذب النفوس ويملؤها فضلا ونبلا حتى ظنوا أن اختلاط الجنسين لا ضرر فيه بعد هـذا التعليم ، وهو كلام فاسد ورأى آفن يكذبه العيان . فإن شر المتعلمين والمتعلمات أكثر من شر الجاهلين والجاهلات كما هو مشاهد ومعروف .

وسر ذلك أن التعليم الذى يورث النفوس خشية ومراقبة ويملؤها من الفضيلة ويأخذ بها عن الرذيلة إنما هو التعليم الدينى . وقد أقفرت منه النفوس بل لا نكاد نرى الخارجين على الدين إلا من المتعلمين هذا

التعليم المدنى الذى تركوا فيه التربية الدينية وراءهم ظهريا بل أزالوا من نفوس النشء احترامهم للدين وأهل الدين فصيروهم بذلك ماديين لا يعروفون للروحانيات معنى ولا يذوقون لما جاء فى الدين طعما ، فأقفرت نفوسهم من فضائل الإسلام التى هى سلوة لكل محزون وأنس لكل خائف ، كما أقفرت جيوبهم من المال وظواهرهم من نعيم الدنيا . وقد أحسوا بأن هذا الضرب من التعليم لا يورث النفس قداسة ولا فضيلة فى الرجال ولا فى النساء بل يزيدها شرا . فإذا سمعوا من خطباء الفتنة ودعاة الشيطان أن التعليم يقاوم ما فى النفوس من الشهوات ويمنع ما فى الاختلاط من الآفات أهاب بهم صارخ يصرخ من أعماق نفوسهم وقرارة وجدانهم أن هذا كذب صراح يكذبه العيان والبرهان ، ولو قال قائل : ولهذا كله أصبحت أزمة الزواج أشد من أزمة الوظائف .

إن هذه النهضة لم نر لها أثراً بارزاً غير فساد الأخلاق ، وبعبارة أخرى غير تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال ، لم يكن مبعداً كثيراً ، والنفوس لا تعرف غير ما أشربت من هواها .

يقضى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

والخلاصة أن الناس لو اعتنوا بشئونهم الاقتصادية فأصلحوها ثم أرسلوا أبناءهم إلى موارد الرزق الطبيعية وطرقه المختلفة على مقتضى

السنن الإلهية ، ثم ربوهم على الدين والقناعة ومراقبة الله تعالى وغرسوا فى قلوبهم إجلال الرسول وما جاء عنه والتصديق بأمور الآخرة وما أعد فيها للمؤمنين حتى تكون عزاء لهم فى الظروف الحرجة ، واقتصروا من التعليم على ما ينفعهم فى الدين والدنيا وأشربوا نفوسهم أن السعادة كلها فى التزام آداب الدين وما نقل عن سيد المرسلين . لو فعلوا ذلك لكانوا فى صفاء وهناء ولزال هذا البلاء وذاك العناء .

الخُلق الكامل (١)

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . والصلاة والسلام على سيد السادات سيدنا محمد معدن الأسرار ومنبع الأنوار وعلى آله وأصحابه الذين عملوا بإرشاده ففازوا بسعادة الدارين وانتشر ذكرهم فى الخافقين فكانوا ملوكا فى الدنيا ملوكا فى الآخرة .

وبعد فإنما يكمل الإنسان ويعظم قدره ويعلو شأنه ويعيش عيشة رغدة هنيئة بأخلاقه الفاضلة وسجاياه الطيبة وخلاله الحميدة وأعماله المجيدة ويكون نجاحه فى أعماله وفوزه فى حياته على نسبة ما يتحلى به من شتى الأخلاق ورضى الصفات ، والأمة لا يتسنى لها أن تتبوأ عرش عزها وتبنى شامخ مجدها وتوطد دعائم ملكها إلا إذا أخذت من الفضائل بأوفر نصيب .

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا　　فليس وراءها للعز ركن

وما رأينا أمة ذلت بعد عز وهانت بعد كرامة وأدبرت أمورها بعد إقبال وصارت إلى التدهور والانحلال إلا بعد أن انغمست فى حماة الرذائل وتفشت فيها أوباء الشر والفساد .

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم　　فأقم عليهم مأتما وعويلا

ولا يغنى العلم وجده شيئا فى أمة فسدت أخلاقها وساءت طباعها وقبحت أعمالها بل قد يكون العلم أداة للشر ووسيلة للإجرام وداعيا

---

(١) مجلة الإسلام — السنة الثانية — العدد ٢٣ — سنة ١٣٥٢

إلى الافتتان فى طرق التدمير والهلاك ولذلك قال بعض الحكماء « نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم » وقال حكيم الشعراء

وليس بعامر بنيان قوم   إذا أخلاقهم كانت خرابا

ولعل ما تضج منه السماوات والأرض من الحوادث التى يموج بها العالم فى هذا العصر وقد عيت بها حيل المفكرين أكبر دليل على ما نقول وذلك لأن الناس وجهوا عنايتهم إلى دراسة العلوم والفنون ونشرها بكل الوسائل الممكنة وأهملوا جانب الأخلاق .

إن الرجل لا يكون مصلحا حقا إلا إذا كانت وجهته قبل كل شىء تقويم أخلاق الأمة وتهذيب نفوسها وغرس الأصول الطيبة والمبادىء الصحيحة فى أفئدة الناشئين منها .

وبهذا كله نعرف قيمة ما يسديه الأستاذ الجليل والمربى القدير (جاد المولى بك) إلى أمته من وقت لآخر بتلك المؤلفات القيمة والكتب الخلقية العظيمة التى تهديها سواء السبيل وتسمو بها إلى الحياة الطيبة حياة الحكمة والرشد والفضيلة والمروءة وغيرها من الخلال التى تكفل لها السعادة والهناء وأحدث ما أشرقت علينا شمسه من أسفاره الجليلة النافعة (كتاب الخلق الكامل) الذى طبع منه الجزء الأول وهو كما يدل عليه عنوانه نبراس يستضىء به المستبصرون وأقوم هاد يهتدى به الضالون وأنصح مرشد يسترشد به الناشئون وهو يصور لنا نزعات المؤلف وميوله أجمل تصوير وينبئنا بما طبعت عليه نفسه الكريمة من حب الدين الحنيف وشغفه ببيان أسراره ونشر مزاياه فقد جعل القرآن

رائده ونعم الرائد (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فيما ذهب إليه من آراء وما استنبطه من أخلاق ، فكان موفقا فيما حققه وبينه ولقد دل الكتاب على رسوخ مؤلفه فى العلم وإحاطته بكل ماله أدنى ملابسة بالأخلاق فهو يذكر آراء العلماء القدماء والمحدثين الشرقيين منهم والغربيين ويضع الكثير منها على بساط البحث . ثم يعقب بحثه برأيه الخاص الناصح وهذه هى الطريقة المثلى فى المباحث العلمية القيمة يخرج منها المطالع وقد ألم بالموضوعات إلماما حسنا وكون رأيا نافعا بل عرف خلاصة ممحصة وتحقيقات مبرهنة .

وقد نهج المؤلف فى كتابه خير منهج فى تقويم الأخلاق المعوجة وغرس المبادىء الفاضلة الشريفة واستئصال الرذائل الذميمة بأسلوب سلس قريب المأخذ سهل التناول لا يعزب عن فكر المتعلمين ولا ينبو عنه ذوق العلماء المتضلعين ونحا فى تقسيمه وتبويبه أحسن منحى ، فأوجز فيما يجب فيه الإيجاز وأطنب فيما يجب فيه الإطناب . انظر مثلا إلى ما قاله فى تربية الطفل تجده قد عنى به أعظم عناية فبين ما يجب على أبويه ومن يتعهده بالتربية من تثقيفه بالمعلومات الصحيحة النافعة وطبعه على مكارم الأخلاق وشريف العادات والحيلولة بينه وبين ما يجره إلى مهاوى الرذيلة والأعمال الممقوتة وأوضح الطريق التى تتبع فى تثقيفه وتهذيبه حتى يشب فاضلا كاملا حصيف الرأى راجح العقل راقى الشعور سليم الوجدان ناهضا باحتمال أعباء الحياة وتكاليف الأيام طموحا إلى العلا سباقا إلى كل ما يرقى شأنه وشأن بلاده .

ومما راقنى منه فى هذا الباب أنه جعل تعاليم الدين هى الأساس لبناء الأخلاق الفاضلة وتشييد دعائم الإصلاح فى الأمم وأفاض فى بيان الذرائع التى تذرع بها الدين الإسلامى فى تكوين الأخلاق وتربية النفوس والأخذ بها من كل نواحيها إلى ما يحقق هناءها ويضمن سعادتها ، ولقد أعجبت كثيراً بما بينه المؤلف الفاضل من أسباب السعادة التى هى مطمح أنظار الناس ومنتهى ما تصبوا إليه نفوسهم وتتوق إليه أفئدتهم فجلاها لهم وأوضح سبلها ومزق حجبها وقرب مأخذها وجعلها لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين .

وقصارى القول إن هذا السفر خير ما قرأناه فى كتب الأخلاق فهو كتاب علمى جامع يشرح الموضوعات شرحًا وافيًا ويفيض فى بيان الطرق القويمة فى تربية النفوس تربية فاضلة ولقد جاء خلاصة لما وصلت إليه آراء رجال الأخلاق إلى الآن فى الشرق والغرب ونتيجة اهتدت إليه عقولهم وانتهى إليه بحثهم فما أجدر الناشئين باحتذائه والكبير باقتفائه .

ولو أن هذا الكتاب ظهر فى أمة تقدره قدره لسارعت إلى اقتنائه والانتفاع بما جاء فيه وأن وزارة المعارف ومعاهد التعليم لتحسن صنعًا إذا قررت مطالعته ودراسته للناشئين حتى يشبوا ذوى نفوس كريمة وشيم عظيمة وهمم عالية ومبادىء إسامية تتكون بما فيه من فلسفة عقلية ودينية وموازنة صحيحة بين ما جاء عن حكماء الشرق والغرب قديماً وحديثاً ، فجزى الله المؤلف العظيم خير الجزاء وأكثر من أمثاله ونفع الأمة بجليل أقواله وعظيم أعماله بمنه وكرمه .

الجمع بين البنت وامرأة أبيها (١) فى عصمة رجل واحد

ورد إلى إدارة المجلة ما يأتى :

تزوج رجل امرأة وأنجب منها بنتًا ، فتزوجت البنت رجلًا ، ثم ماتت أمها فتزوج والدها امرأة أخرى ثم توفى ، أيحل لزوج البنت زواج امرأة أبيها أم لا؟

زكى عبد الجواد ابراهيم
مدرس بمدرسة كفر المناش – ببا

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

يحل لزوج البنت أن يتزوج امرأة أبيها ، لأن الضابط فى ذلك أننا نقدر إحداهما ذكرًا والأخرى أنثى ، فإذا حلت الأنثى للذكر جاز الجمع بينهما ، وإلا لم يجز الجمع . ولا بد أن يكون التقدير المذكور لكل منهما ، فلا يجوز مثلًا أن يجمع بين البنت وخالتها ، لأننا لو قدرنا البنت ذكرًا لم يجز أن ينكح الأخرى لأنها خالته ، ولو قدرنا الخالة ذكرًا لم يجز له أن ينكح الأخرى لأنها بنت أخته .

أما مسألتنا هذه فالتحريم فيها على هذا التقدير ليس إلا من جهة واحدة ، فإن البنت لو قدرت ذكرًا لم يحل له نكاح امرأة أبيه ، ولكن

(١) مجلة الأزهر – الجزء الأول – المجلد الخامس – المحرم سنة ١٣٥٣

امرأة الأب لو قدرت ذكرًا لجاز له نكاح الأخرى ، فإنها تكون أجنبية منه . ولا يتصور فى هذا الحال أن تكون بنت زوج ، بل تكون بنت رجل أجنبي .

والمسألة واضحة لا تحتاج إلى إطناب . وقد علمت القاعدة فى ذلك .

هل للحسد تأثير فى المحسود ؟

وجاءنا من حضرة محمد محمد نصار بزفيتة مشتول السؤال الآتى :

هل لعين الحاسد تأثير يعود على المحسود ؟ فإن عندنا قوماً ينكرون ذلك . نرجو شرح هذا الموضوع شرحًا وافيًا ، مع إقامة الدليل القاطع من الكتاب والسنة .

الجـواب

نعم للحسد تأثير كبير . وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، ويدل عليه كتاب الله أيضا . وهو من قبيل التأثير النفسانى الذى لا يتوقف على تلك القوانين المعروفة فى تأثير الأجسام .

ومن الغلط البين إنكار كل ما لم يعرف سره ولم يوقف على كنهه . ومن الجهل الفاحش أن ترجع كل شيء إلى ما عرفت من نواميس المحسوسات ، وأن تقيس ما لم تعلم على ما علمت ، فإن لكل عالم من العوالم أحكامًا تخصه .

وقد أمر الله نبيه أن يستعيذ من شر حاسد إذا حسد ، ووصى يعقوب صلى الله عليه وسلم بنيه عندما توجهوا إلى مصر ألا يدخلوها من باب واحد وأن يدخلوها من أبواب متفرقة خوفًا عليهم من الحسد ، كما عليه جمهور المفسرين ومحققوهم .

وقد روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « الْعَيْنُ حَقٌّ » وروى مسلم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ » .

والنصوص صريحة فى ذلك ، وهى كثيرة ، وكل شيء لا يودى إلى قلب حقيقة ولا مصادمة برهان قاطع فهو من الممكنات التى يجوزها العقل . وما أخبر الشرع بوقوعه من ذلك وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وإنكاره .

وإجمال القول أن قول المنكرين مدفوع بالأدلة المتكاثرة وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفًا وخلفًا وبما هو مشاهد فى الوجود .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ » . وكان يقول : « كَانَ أَبُوكُمَا إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ » .

وقد قالوا إن النفوس الخبيثة التى تقوى فى خبثها ويتأصل الشر فيها بسبب من الأسباب كالرياضة والمجاهدة والمثابرة على خطتها الشريرة مثلًا ، يمكنها أن تتسلط على من أرادته بالتوجه التام والعزيمة الصادقة ، إلى أن يحصل تأثره بنحو مرض وذبول جسم ، وقد يصل ذلك إلى الهلاك .

وكما يحصل تأثير جسم عنصرى فى جسم عنصرى كالأدوية والسموم فى متعاطيها ؛ كذلك يحصل تأثير نفس قوية فى نفس أخرى . وها هى ذى نفوسنا تؤثر فى أبداننا ، فاذا قويت أمكنها أن تؤثر فى غير بدنها ، كما قرره فلاسفة الإسلام وغيرهم . والأشياء المحسوسة مختلفة الخواص كما هو معروف ؛ فكذلك النفوس مختلفة أيضًا جد الاختلاف .

الخلاصة

والخلاصة أن الروح لها من التأثيرات العجيبة ما يزيد على كل ما تعرف من تأثيرات الأجسام ؛ فإنها أقبل للفيض الإلهى فى كل شىء . وكل ما كان من العالم الأدنى فهو تحت تصرف ما يكون من العالم الأعلى ، دون العكس ، ولكن تأثيراتها ليست على نحو ما تعهد من قوانين تأثيرات الأجسام ؛ فإنها تؤثر فى الأشياء البعيدة عنها من غير مماسة ولا مجاورة .

وحال الحاسد مع المحسود هو من هذا القبيل ، والحوادث فى ذلك متواترة ، وإن شئت فقل مشاهدة محسوسة .

فإن كنت ممن لا ينكر المتواترات ولا يؤول القطعيات ، فانظر كيف يؤثر الحاسد بنفسه الشريرة فى المحسود ، ولو كان من أقوى الأقوياء وأعظم الأشياء ، بمجرد توجهه إليه وانفعال نفسه باستحسانه .

وأما تعليل الدكتور رشدى بك فى كتابه فى التنويم المغناطيسى لذلك بأنه من تأثير الاعتقاد ، فلا يكاد يقرب من الصواب ، فإن الحاسد يؤثر فى الحيوان الأعجم ، وفى النباتات والأشجار مما لا يتأتى منه الاعتقاد . وإن أردت البرهان الحسى على ما ذكرناه من كلام أرباب العلوم الحديثة والمكتشفات الجديدة فطالع ما ينقل عن علماء الأبنوتزم « التنويم المغناطيسى » حتى تعرف مقدار ما وصلت إليه روح المنوم — بالكسر — من التأثير فى المنوم — بالفتح — الذى يكون طوع إشارته فى كل شىء ، حتى لو أمره أن يقتحم لجة البحر أو وهج النار ما استطاع أن يخالف له أمرا أو يعصى له إرادة .

بل ذكروا أغرب من هذا ، وهو أنه إذا وقع فى نفسه أن يقتل أحدا بادر المنوم إلى قتله من غير أن يأمره بشىء أو يتلفظ له بكلمة . ولا بعد فى هذا فإن النفوس تحس بما فى النفوس ، فإذا أحست به « وقد فرضناها خاضعة لسلطان هاتيك النفس الأخرى منفذة لإرادتها » لم يكن ما سمعناه عنهم بدعا من العلم أصلًا .

وللتنويم المغناطيسى عجائب كثيرة تكبت الماديين وتشهد للروحانيين ، وكلها تؤيد ما جاء فى الكتاب والسنة من عمل الأرواح

التى خرقت نواميس المادة وقضت على الماديين : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[١] .

ويمكن كل إنسان الآن أن يعرف تلك العجائب النفسية بالمشاهدة ، فإنها أصبحت لمس اليد ورأى العين . ولا يمكننا فى هذه العجالة أكثر من هذا .

أسأل الله ألا يجعلك ممن كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه بمنه وكرمه .

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣

خروج النساء من البيوت[١]

ورد إلى إدارة المجلة من أحد مشتركيها بالفيوم السؤال الآتى :

هل يجوز خروج النساء من البيوت أو يحرم لقوله تعالى : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)[٢] ؟ وما رأى السادة العلماء فى حال النساء الان مما هو معروف للجميع ؟

الجـواب

أمر الله تعالى نساء النبى — صلى الله عليه وسلم — بالمكث فى البيوت وعدم الخروج ، فقال : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) وهو أمر يدخل فيه جميع النساء[٣] ، لأنه لا دليل على الخصوصية ، بل غيرهن أولى بذلك .

وقد أخرج الترمذى والبزار عن ابن مسعود — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا » .

غير أن هذا الحكم مقيد بما إذا لم توجد ضرورة دينية أو دنيوية تقتضى خروجها ، فيجوز أن تخرج للحج مثلا لقوله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)[٤] ، وفى الحديث الصحيح

(١) مجلة الأزهر — الجزء الرابع — المجلد الخامس — سنة ١٣٥٣ هـ
(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣
(٣) أنظر تفسير القرطبى
(٤) سورة آل عمران ، الآية ٩٧

أن النساء قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : « غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ فَاجْعَلْ لنا يَوْماً مِنْ نفْسِك ، فَوَعَدَهُن يَوْماً لَقِيَهُنَّ فِيهِ ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ فَقَالَ لَهُنَّ : مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَاباً مِنَ النَّارِ . فَقَالَتِ امْرَأَةٌ : وَاثْنَيْنِ ؟ فَقَالَ : وَاثْنَيْنِ » الحديث .

فأنت ترى من الآية أن الله طلب من الناس الحج ، وهو يستدعى الخروج إلى مكة ، ومن الحديث أن النساء طلبن سماع العلم وتخصيص يوم لهن فأجابهن النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وهو يستدعى الخروج أيضا بلا مرية . وما حضور النساء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وسؤالهن عن أمر دينهن بقليل .

الخلاصة

إن فى خروج المرأة تفصيلًا ، حاصله عندنا معشر المالكية أن المرأة إذا كانت عجوزًا لا أرب للرجال فيها جاز خروجها فى كل وقت لقضاء حوائجها ، وجنازة أهلها وأقاربها ، ومجالس العلم والوعظ ، وإن كانت شابة غير مخشية الفتنة ، جاز خروجها أيضًا لجنازة أهلها وقرابتها وقضاء حوائجها إذا لم تجد من يقوم لها بذلك ، وذلك بشروط :

١ – أن تلبس خشن الثياب لا رقيقها .

٢ – وأن لا يبدو منها ما يحرم النظر إليه .

٣ – وأن تكون الطريق مأمونة .

٤ – وأن لا تمس طيبًا ولا تبدى زينة .

وإن كانت مخشية الفتنة حرم خروجها مطلقًا .

أما كشف عنقها وصدرها وذراعيها وساقيها فلا يجوز بوجه من الوجوه . وكذلك مصافحتها بلا حائل حرام ولو لم يثر فتنة ولم يحرك شهوة . فيجب على الناس أن يتنبهوا لذلك ، حتى لا تقع المصافحة بين الجنسين إلا بحائل . وقد تساهل الرجال والنساء الآن فى ذلك كل التساهل .

أما إذا خشيت الفتنة ولم يؤمن الفساد ، فلا يجوز كشف وجهها ولا شيء من بدنها بحال من الأحوال عند جميع العلماء .

والشريعة نظر واسع وحكمة بالغة ، فتراها تحرم وسائل الفساد وكل ما يفضى إليه ولو فى بعض الناس سدًا للذرائع ، وحسمًا لمادة الشرور ، علمًا منها بأحوال النفوس البشرية وما جبلت عليه . ولذلك حرمت الخلوة بالأجنبية ولو مع أصلح الصالحين وأورع الورعين . فهذا هو حكم الله ودينه .

وقد أطنب القرآن فى ذلك غاية الإطناب لأجل ما فيه من الشرور وما يجر إليه من المفاسد كما قلنا . واقرأ إن شئت قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (١)) ، وقوله عز وجل : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٥٩ .

أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ . وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ . وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١)) ، إلى غير ذلك من أمر الرجال والنساء بغض الأبصار والبعد عما عسى أن يؤدى إلى ما لا تحمد عقباه شاءوا أم أبوا . والاختلاط أس الشقاء والحمية رأس الدواء .

فانظر إلى أى حد وصل النساء الآن من التهتك وعدم المبالاة وكأن امرأة القرن العشرين لا تريد أن تكون كما خلقها الله ، فتراها تخرج إلى الأسواق بلا ضرورة ، بل تغشى المجالس والمجامع بدون حياء ولا احتشام ولا تحفظ . وهو انقلاب فظيع وفساد كبير .

وقد جعل الله لها فى المجتمع وظيفة خاصة وأعمالاً تستغرق كل أوقاتها لو أرادت أن تقوم بها على ما يجب عليها .

وليس قسطها من الواجب فى تربية الأطفال وإصلاح شئون البيت وما يوجب للرجل فراغ قلبه لمهمته الشاقة وإعداد وسائل الراحة والهناءة له ، حتى يكون البيت جنته التى يأوى إليها من شقائه ويستريح فيها من عنائه بأقل من قسط الرجل فى واجبات الحياة .

والحكمة تقتضى توزيع الأعمال وتخصيص كل بما يليق به ، بل الحق سبحانه وتعالى راعى ذلك فى خلقه ، فخلقهم مختلفى الاستعداد ليختص كل بما هو أولى به ، فسبحان الحكيم العليم .

(١) سورة النور ، الآية ٣١

وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء . (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (١)

وقد اعتاد الناس رؤية تلك المنكرات فصاروا لا يستنكرونها ، ولا تنفعل نفوسهم من أجلها ، غافلين عن مقتضى الطباع وما للشهوات البشرية من السلطان الأكبر على النفوس ، ولذلك حرم الدين لمس المرأة بكل وجه من الوجوه ولو بلا شهوة ، ونهى أن يختلى الرجل بالمرأة ولو كانا صالحين عفيفين ، سدا للذرائع وقطعا لوسائل الفتنة كما قلنا .

ولسنا نعلم شهوة من الشهوات لها ذلك الأثر البالغ والسلطان القاهر فى نفس الإنسان بمقتضى جبلته البشرية وتكوينه الطبعى أعظم من ميل الرجال إلى النساء وميل النساء إلى الرجال . وكم قد سمعنا من الحوادث المؤلمات ما فيه مزدجر ، ورأينا من المشاهدات المخزيات ما فيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولكننا فى زمان فسدت فيه النفوس ، وانقلبت فيه الرؤوس ، فظهر التدهور والانحطاط بمظهر الرقى والنهوض ، وسيئات الأعمال ومساوئ الأخلاق بمستطرفاتها ومحاسنها ، وشواذ الآراء وفاسدات العقائد بصورة التجديد والابتكار ، والتمسك بالفضائل والآداب بصورة التأخر والجمود :

تشكل فينا كل شىء بشكل ما ... يباينه والناس عنه نيام

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٩

فإلى الله المشتكى وبه المستغاث من زمان لبست فيه الرذيلة ثوب الفضيلة ، وتجلت فيه الفضيلة بصورة الرذيلة .

والرزية كل الرزية عدم الإحساس بذلك ، وفقد الحمية الدينية والنخوة الإنسانية والرجولة الصحيحة ، وتتابع الناس على ذلك من غير شعور ولا تبصر . وكيف يستحى الإنسان من الإنسان وهما سواء فيما يقترفان ، ولا يزالان كذلك حتى يبطل منهما الإحساس بالرذيلة ، ويسهل عليهما القضاء على الفضيلة :

هذا الزمان الذى كنا نحاذره   فى قول كعب وفى قول ابن مسعود

---

(١)

صلاة الجمعة لغير المستوطنين

وورد أيضا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

هل تجب الجمعة على قوم أقاموا ببلدة وعمروها غير مستوطنين لها ؟

محمود شحاته
بالغردقة

الجواب

استيطان البلد أى نية الإقامة فيه على التأبيد شرط لصحة الجمعة ووجوبها أصالة عند المالكية . فإذا عمر قوم بلدا وأقاموا به غير مستوطنين له ، لم تجب عليهم الجمعة ولا تصح . ومع هذا لو ارتحل منهم شخص إلى بلدة الجمعة وأقام بها أربعة أيام وجبت عليه الجمعة تبعاً لأهل هذه البلدة . فالوجوب الأصلى يستدعى الإقامة على التأبيد ، والوجوب التبعى يستدعى إقامة أربعة أيام فقط . والله أعلم .

توسعة المسجد من المقبرة

وجاءنا من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

هل يجوز نبش المقابر ونقل ما فيها من عظام ورفات ، وجعل ميضأة المسجد ومراحيضه مكان المقبرة عند الحاجة ؟

ابراهيم لاشين
من كفر ابرن

الجواب

صرح العلماء فى باب الجمعة أن المسجد العتيق إذا ضاق يوسع من المقبرة . وكذلك صرحوا فى باب الوقف أن المسجد يوسع من المقبرة والطريق . لكن ينبغى أن يعلم أن المسجد هو المكان المعد للصلاة ، فليست الميضأة والمراحيض من المسجد ، وإنما وضع كل منهما تسهيلاً على المصلين فى الوضوء وقضاء الحاجة . وإذا لا يجوز جعل الميضأة والمراحيض مكان المقبرة ، لأن هذا العمل ليس من توسعة المسجد فى شىء .

والفرق أن إقامة الجماعة فى المسجد سنة يقاتل على تركها ، بل قيل إنها واجبة ، والوضوء من الميضأة لا فضل فيه بل الوضوء فى البيت أفضل . والله أعلم .

متى تجب الزكاة فى النقدين والحب

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى أيضا :

متى تجب الزكاة فى النقدين : الذهب والفضة ، وما مقدارها ؟

ومتى تجب فيما يخرج من الأرض العشرية أو الخراجية ، وما مقدارها فى كل منهما ؟

محمد محمد جمال الدين
بالساحل

الجواب

كل من ملك نصاب النقدين وهو عشرون دينارا ذهباً أو مائتا درهم فضة ، وحال الحول على ملكه النصاب ، وجبت عليه الزكاة ، وهى ربع العشر ، فيخرج نصف دينار من العشرين ، وخمسة دراهم من المائتين ، إلا أن يكون عليه دين يساوى النصاب أو ينقصه فلا زكاة عليه . ومن خرج له من أرضه حب مقدار النصاب وجبت عليه الزكاة وهى العشر إن سقى بغير آلة كالمطر ، أو نصف العشر إن سقى بآلة كالدواليب (ومنها الوابورات) . ولا فرق فى ذلك بين أن تكون الأرض خراجية أو عشرية عند مالك ، فإن ذلك لا يسقط الزكاة كما أنها لا تسقط بالدين على مالك النصاب من الحبوب التى تخرجها الأرض . والله أعلم .

البيع نقداً وبأجل

ورد إدارة المجلة سؤال من أحد التجار يقول فيه :

إن البيع عند التجار يجرى على نوعين : فتارة يكون بالنقد ، وتارة يكون لأجل . فأما البيع بالنقد فمعروف أن التاجر يحدد له ثمناً بعد أن يضيف إليه ربحاً بسيطاً مراعياً فيه عدة عوامل : منها مزاحمة أقرانه فى السوق ، ومنها أن يقبل الناس على متجره وهم واثقون برخص أثمانه ، ومنها أن يتمكن من قضاء مصالحه بالنقد الذى يبيع به ، كسداد دين أو شراء بضائع بالنقد ، أو مصروفاته ومصروفات محله . الخ الخ .

ومن أجل هذه العوامل وغيرها ربما ألجأته الضرورات إلى أن يتنازل عن جزء من أرباحه أو أرباحه كلها ، بل ربما اضطر إلى ترك شىء من رأس ماله حينما يكون محتاجاً للنقد .

وتختلف هذه الحالة عند البيع بالأجل ، فعند بيعه بالأجل عليه أن يراعى عوامل عديدة : منها مقدرة المشترى على كيفية السداد إن كان لميعاد قصير أو ميعاد بعيد ، ومنها تقديره لمصروفات يضطر لصرفها كسفريات ومخاطبات ، ومنها انعدام بعض هذه الديون أو هلاك جزء منها .

ففى هذه الحالة يضطر التاجر أن يعمل لمثل هذه الأحوال حسابها ، ولا يمكن أن يبيع مبيعاته لأجل بثمن واحد ، فلكل مشتر لأجل ظروف فى السداد كما أسلفنا .

فلهذا نجد أن البضاعة التى يكون ثمنها نقداً مائة قرش ربما يضطر إلى بيعها لأجل بمائة وعشرة ، ولمشتر آخر بمائة وعشرين أو ثلاثين .

فما رأى الشرع الشريف فى هذا البيع ؟ وهل للربا دخل فى هذه الحالة ؟ .

الجواب

أن البيع فى جميع هذه الصور التى ذكرت فى السؤال حلال لا شىء فيه ، فإن العلماء صرحوا بأن الأجل له حصة من الثمن . فلا غرو أن تختلف الأثمان باختلاف الآجال نظراً إلى تلك الأمور التى ذكرها السائل .

ولا يعقل فى الشريعة التى هى تنزيل من حكيم حميد ألا تراعى مصالح الناس فتكلفهم أن يبيعوا المؤجل كالمعجل ، أو تجعل ما قرب أجله مثل ما بعد أجله ، فليس فى ذلك شىء محرم ، إلا أن يبيع بثمن لأجل ، فإذا لم يدفع عند الأجل زيد فيه بحسب التأخير ، فهذا هو المحرم .

وأما البيع بثمن متفق عليه من أول الأمر فلا شىء فيه كائناً ما كان . فعلى التجار ألا يغشوا ولا يحلفوا ، ولهم أن يبيعوا بما يشاءون ، بشرط أن يكون ذلك معروفاً متفقاً عليه عند البيع بحيث لا يزيد ولا ينقص .

أما إذا كان بحيث كلما تأخر عن الدفع زيد عليه شىء فى نظير ما يزاد على الأجل الذى حددوه عند البيع ، فذلك ربا محرم كما قلنا ، وهو موجب للعنة الله تعالى ، فليحذر منه المسلم الذى يشفق على دينه ونفسه . والله يتولى هدى الجميع .

الحلف بأيمان المسلمين

وجاء من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

ما هو اللازم فى قول الشخص ، وأيمان المسلمين لا أفعل كذا ثم فعل ، أو لأفعلن كذا ثم لم يفعل ؟ .

محمد شعبان رفاعى
خادم القرآن الكريم بالقوصية

الجــواب

إيمان المسلمين من صيغ العموم ، يتناول كل ما اعتيد الحلف به .

فلذا قال المالكية فى قول الشخص : أيمان المسلمين تلزمنى : إنه يلزمه كل ما اعتيد الحلف به من المسلمين . والمعتاد الآن فى عرف مصر الحلف بالله وبالطلاق . وحينئذ فاللازم لمن حلف بذلك كفارة يمين وبت من يملك عصمتها . ولا يلزمه مشى إلى مكة ولا صيام ولا عتق كما كان فى العصور الأولى ، لعدم من يحلف بذلك الآن . هذا هو المشهور فى مذهب مالك ، وهو المفتى به عند المالكية .

وقد نقل بعض العلماء الخلاف فى هذا اللفظ فقال : وليس لمالك فى « أيمان المسلمين » كلام ، وإنما الخلاف فيه للمتأخرين : فقال الأبهرى : يلزمه الاستغفار فقط ، وقيل كفارة يمين ، وقيل ثلاث كفارات « نظراً للفظ الجمع الذى أقله ثلاثة » .

وكل ذلك ما لم ينو طلاقاً . وإلا لزمه . وقيل بت من يملك عصمتها ، وعتق من يملك رقبته ، وصدقة بثلث ماله ، ومشى بحج ، وكفارة يمين ، وصوم سنة .

وقد قدمنا لك ما هو المشهور من مذهب مالك ، وأنه يراعى ما اعتيد الحلف به فى كل بلد من البلدان وزمن من الأزمان ، وأن المعتاد الآن بمصر هو الحلف بالله وبالطلاق لا غير .

ومما يحسن التنبيه عليه أن الشافعية يقولون : أن من حلف بأيمان المسلمين لا يلزمه طلاق ، وإنما يلزمه كفارة يمين . وقد تقدم لك أن بعض المالكية يوافقونهم على ذلك . ومنهم من يقول : يستغفر الله ولا شيء عليه . ودين الله يسر ، والحمد لله على اختلاف المذاهب .

والله أعلم .

حكم أكل الفسيخ

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

هل يجوز أكل الفسيخ أم يحرم ؟ .

عبد ربه طه
مهندس كوبرى سنباره

الجــواب

لسمك لا شك فى طهارته ، ولكن الدم المسفوح نجس ، وهو السائل عن مقره فى حال الحياة بنحو الفصد أو بعد الموت ولو بعد التذكية الشرعية من سائر الحيوانات ولو من السمك ، خلافاً للقابسى ، وتبعه ابن العربى حيث قالا : إن الدم المسفوح من السمك طاهر .

فالسمك إذا ملح ووضع بعضه على بعض حتى صار فسيخاً ولم يتحلل منه دم مسفوح ، يكون طاهراً على القولين يحل أكله ، سواء أكان ذلك من الصف الأعلى أم من بقية الصفوف .

أما إذا خرج منه دم مسفوح بواسطة الضغط عليه بمثقل مثلا ، فقد صار نجساً لا يحل منه إلا الصف الأعلى « وليغسل قبل أكله » دون بقية الطبقات السفلى على القول المشهور الذى به الفتوى ، فإنها تنجست بمرور الدم عليها ، ولا يمكنك تطهيرها لامتزاجها به : ويحل أكل جميعه على مالابن العربى والقابسى .

وعلى المشهور إن شك كونه من الصف الأعلى أو غيره أكل ، لأن الطعام لا يطرح بالشك . هذا حكم الفسيخ على مذهب مالك .

ومذهب الحنفية : أن السمك لادم له، والسائل منه رطوبة . فإذا ملح حتى صار فسيخاً يحل أكله ، سواء أكان ذلك من الصف الأعلى أم من الصف الأسفل أم من بقية الصفوف ، ما لم يخش ضرره ، وإلا حرم للضرر لا للتنجيس . ودين الله يسر .

وبعد : فالورع تركه على كل حال .

البيع بالزيادة الفاحشة

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

هل يحرم البيع بالزيادة المتفاحشة على الثمن المعتاد أو يجوز ولو كانت تلك الزيادة فوق فائدة الربا بكثير ؟

عبد الوهاب حسنين وهدان
بتفهنا العزب

الجواب

متى علم البائع والمشترى قيمة السلعة التى تباع بها فى الأسواق وحصل الغبن بزيادة فى الثمن غير معتادة ، أو نقص فيه كذلك ، فالبيع صحيح ولا حرمة فيه ؛ ولو كان الربح فوق فائدة الربا بكثير :

وما مثل هذا إلا كزارع وضع قليلاً من الحب فى أرضه فأنبتت عشرة من الأرادب ، فالطريق مشروع ، والكسب حلال ورزق ساقه الله إلى التاجر والزارع :

أما إذا جهلت قيمة السلعة ، فإن استسلم أحدهما لصاحبه بأن أخبره بجهله وائتمنه فيما يخبره به وما يحدده من الثمن ، فقال البائع للمشترى : قيمتها فى السوق عشرون ، فإذا هى عشرة ، أو قال المشترى للبائع : قيمتها فى السوق عشرة ، فإذا هى عشرون فللمغبون الرد ، وعلى صاحبه المؤتمن الكذوب الحرمة . فإن لم يستسلم لصاحبه مع جهل القيمة ، بل باع أو اشترى على المغالبة والمشاحة فحصل الغبن المتفاحش ؛ فالبيع صحيح لا رد فيه ولا حرمة على المشهور .

وقال بعضهم : إن وصل الغبن الثلث فأكثر من قيمة السلعة ، فسخ البيع إن قام المغبون فى أثناء السنة من يوم البيع . وقد أفتى به ابن عرفة والمازرى والبرزلى . ومشى عليه ابن عاصم فى التحفة . لكن رده ابن رشد بقوله : أنه غير صحيح لحديث « لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ ، دَعُوا النَّاسَ فِي غَفَلَاتِهِمْ يَرْزُقُ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » .

قال فى أقرب المسالك وشرحه : ولا رد بغبن ولو خالف العادة فى القلة أو الكثرة ، كأن يشترى ما يساوى درهماً بعشرة أو عكسه ، إلا أن يستسلم أحد المتبايعين لصاحبه بأن يخبره بجهله ، كأن يقول المشترى : أنا لا أعلم قيمة هذه السلعة فبعنى كما تبيع الناس ، فقال البائع : هى فى العرف بعشرة ، فإذا هى بأقل . أو يقول البائع : أنا لا أعلم قيمتها فاشتر منى كما تشترى من الناس ، فقال : هى فى عرفهم بعشرة ، فإذا هى بأكثر ، فللمغبون الرد على المعتمد « بل باتفاق ، ولم يخالف فيه أحد » . وإنما الخلاف فى الغبن من غير استسلام ، إذا كان المغبون جاهلا ، فإن كان عارفاً فلا رجوع له اتفاقاً ، فإن استسلم الجاهل فالرد متفق عليه . والله أعلم .

بدع الذكر [1]

جاءتنا أسئلة كثيرة عما أحدثه الناس فى مجالس الذكر من البدع التى لا يقرها عقل ولا دين ، ومما جاء فيها أن بدع الذكر قد تكاثرت بسبب عدم العناية بالتنفير عنها ، فسدلت على رفيع جلال الإسلام وبديع رونقه ستارًا أى ستار ، وأحدثت أضرارًا عظيمة ومفاسد جسيمة . ومن شرها مزج الذكر باللهو كالدف والشبابة ، والذكر بأصوات ساذجة مثل (ها) و (هى) ، ومثل اللهج أثناء الذكر بأصوات يخجل اللسان من ذكرها والقلم من تسطيرها .

ثم ذكر السائل شيئاً من الألفاظ التى يقولونها حال غيبتهم على ما يزعمون لا نستطيع ذكرها فى المجلة .

ثم قال بعد ذلك : ومن عذلهم شهروا فى وجهه السلاح بدعوى أنهم إنما يصدر عنهم ما ذكر فى حال غلبة ناشئة عن الذكر ، ومن مدهشات العجائب أنه يوجد بقرية قريبة منا تسمى (محلة الأمير) رجل أبوه كان أحد شيوخ طريقة تسمى الحبيبية ، وهذا الرجل يؤيد تلك البدعة التى لا حد لشناعتها ولا منتهى لفظاعتها بكل ما أوتى من قوة ، حتى خدع الناس أيما خديعة ، وصار عقبة فى سبيل من يحاول تطهير ساحة الدين منها . ولا وسيلة لكف شرور مثله أو تخفيفها سوى

(١) مجلة الأزهر — الجز السادس — المجلد الخامس — سنة ١٣٥٣

فتوى تصدر فى (مجلة الأزهر) التى يحترمها الجميع . ولا سيما إن عززت بفتوى من مشيخة الطرق الصوفية .

فأنشدك الله أيها المجاهد الغيور أن تسرع بما تقدر عليه من تلك الكتابة الصافية الشافية فى الموضوع . وأقسم عليكم بالحق تعالى أن تغيثوا هذا الدين ، فقد تلاعب به أولئك الفجار إلى حد أشعر بخلو قلوبهم من استشعار شىء ما من عظمة الجبار ، عظمة سطوته .

انتهى المقصود من السؤال الذى جاءنا من بعض أفاضل مديرية البحيرة ، وفى غيره ما يوافقه فى مغزاه ومرماه .

ونحن نقول : إن الذين يعملون هذه الأعمال المنكرة داخلون فيمن قال الله فيهم : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً) [1] ، ومن الذين اتخذوا آيات الله هزوا . وسيقال لهم : (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) [2] ولا ندرى كيف يتكلمون بذلك الهذيان الذى تقشعر منه الجلود وتصطك الأسماع على ما جاء فى سؤال السائل .

وإنه لأكبر برهان على أنهم كانوا فى أحوال ظلمانية لا نورانية ، ووساوس شيطانية لا إلهامات ربانية . فإن الذكر يورث القلب أسرارًا وأنوارًا ، فإذا تكلم صاحبه تكلم بالمعارف واللطائف لا بالبهتان والهذيان فكلامهم بالفحش على ما يقول السائل أكبر برهان على أنهم ما كانوا يتلقون إلا عن الشياطين ولا يسيرون إلا فى ظلمات بعضها فوق بعض .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٥
(٢) سورة التوبة ، الآية ٦٥

فما أدل الأثر على المؤثر والدخان على النار والغايات على المبادىء والنتائج على المقدمات ! .

وإذا كان فى سماع الآلات المجردة خلاف طويل عريض ، وقد ألف فيه ابن حجر كتابه المسمى بكف الرعاع ، وأقام فيه البراهين على تحريم سماعها ، فما بالك إذا كانت فى مجلس يذكر فيه اسم الله تعالى ؟!

وإنه ليجب أن تخشع الأصوات للرحمن وتطرق الرءوس وتخضع القلوب إعظاماً لهيبته وجلاله . وكيف يتفق ذلك مع تلك الآلات الملهية عن ذكر الله وعن الحضور مع الله كما هو المطلوب من الذاكر ؟ ! فآلات اللهو يجب تنزيه تلك المجالس الشريفة عنها .

وربما زادوا الطنبورة نغمة ، فغنوا بالخمريات التى تحبب الخمر إلى النفوس ، ثم يقولون : إن المراد بالخمرة خمرة الأرواح لا الأشباح! وقد يكون ذلك صحيحاً إلا أنه غير مأمون ولا معروف ، وقد أوشكت الدنيا أن تخلو من ذويه ، وأن لايوجد فيها أحد الآن من ذائقيه ، إلا من اصطفاهم الله بعنايته الخاصة ، وقليل ما هم . ويوشك أن يجر ذلك إلى مالا تحمد عقباه ، خصوصاً مع الآلات والأوتار . وأين مايفهمه العامة مما يفهمه أهل المحبة الإلهية من قول ابن الفارض :

خفف السير واتئد يا حادى   إنما أنت سائر بفؤادى

إلى أن قال :

ما شممت البشام إلا وأهدى   لفؤادى تحية من سعادى

أو قول غيره :

أهل الهوى تعرف قدر الهوى   وإن هذى الجهال قالوا سلام

إلى غير ذلك مما يحرك النفوس إلى حمى الكئوس ، ويهيج فى أرباب الشهوات ذكرى الغانيات . والسماع لا يحدث فى النفوس جديداً ، وإنما يهيج منها ما استقر فيه من خير أو شر

وقد سئل مالك عن الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق ، حتى لقد روى عنه أن الإنسان إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب . ومن عرف النفوس واستدراجها لصاحبها من حيث يشعر ولا يشعر ، لم يمكنها من أن تخطو خطوة واحدة فى طريق يوشك أن يؤديها إلى الفساد ، ويسير بها إلى غير السداد .

وقد قال بعض العلماء : كيف لايحرم سماع الآلات وهو شعار أهل الخمور والفسوق والفساد والمجون ؟ وما كان كذلك لم يشك فى تحريمه ولا فى تفسيق فاعله وتأثيمه . ولا ينفعهم تلك التعللات الباطلة ، ولا قولهم أن المراد بالخمرة خمرة الأسرار ، وبالحانة حانة الحضرات ، كما سمعناه من بعضهم ، فإن ذلك كله الآن خيالات وترهات ، وماهى إلا تلبيسات من الشيطان وألوان براقة من الهذيان .

ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بما ارتكبوه حتى وقعوا فى حق السلف الماضين – رضى الله عنهم – ، ونسبوا إليهم اللهو واللعب ، لأنهم يعتقدون أن السماع الذى يفعلونه اليوم هو الذى كان السلف – رضوان الله تعالى عليهم – يفعلونه :

وقد أذكرنى ذلك قول الإمام الكبير والمحدث الشهير رزين العبدرى : ما أتى بعض المتأخرين إلا من وضعهم الأسماء على غير مسمياتها . ولهذا شرح طويل .

ولننقل لك عبارة الإمام القرطبى – رحمه الله تعالى – فى تفسيره حين تكلم على قصة السامرى فى سورة طه :

سئل الإمام أبوبكر الطرطوشى – رحمه الله – : ما يقول سيدى الفقيه فى مذهب الصوفية الذين يجتمع منهم جماعة فيكثرون من ذكر الله وذكر محمد – صلى الله عليه وسلم – ، ثم أنهم يوقعون بالقضيب على شىء من الأديم ، ويقوم بعضهم ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ، ويحضرون شيئاً يأكلونه : هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ « ولعمرى أن هؤلاء أحسن حالاً ممن نراهم اليوم وجاء بعض وصفهم فى السؤال ». أفتونا يرحمكم الله .

فقال فى الجواب : هذه الأشياء كلها بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسول الله . وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار : فقاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعُبّاد العجل . وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ، وإنما كان مجلس النبى – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار .

ولعل من الفائدة الكبرى فى هذا المقام أن ننقل لك عبارة الإمام الكبير ابن قدامة جواباً عن مثل هذا السؤال : قال رحمه الله : أن فاعل هذا مخطىء بساقط المروءة ، والدائم على هذا الفعل مردود الشهادة فى الشرع غير مقبول القول ، فإن هذا معصية ولعب ، ذمه الله تعالى ورسوله ، وكرهه أهل العلم وسموه بدعة ، ونهوا عن فعله ، ولا يتقرب إلى الله سبحانه بمعاصيه ، ولا يطاع بارتكاب مناهيه .

ومن جعل وسيلته إلى الله – سبحانه – معصيته كان حظه الطرد والإبعاد ، ومن اتخذ اللهو واللعب ديناً كان كمن سعى فى الارض بالفساد ، ومن طلب الوصول إلى الله – سبحانه – من غير طريق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسنته فهو بعيد من الوصول إلى المراد .

وقد كرهه الأئمة كما ترى ، ولم ينضم إليه هذه المكروهات من الدفوف والشبابات ، فكيف به إذا انضمت إليه واتخذوه دينا ؟ فما أشبههم بالذين عابهم الله تعالى بقوله : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً) [1] « المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق » .

وقال الله سبحانه لنبيه : (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) [2] فأما فعله فى المساجد فلا يجوز ، فإن المساجد لم تبن لهذا ، ويجب صونها عما هو أدنى منه ، فكيف بهذا الشأن الذى هو شعار الفساق ومنبت النفاق ؟ ؟ وقد روى عن عمر بن عبد العزيز

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٥
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٧٠

أنه قال : « إنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء » .

فما بال الواحد من هؤلاء المدعين مذهب التصوف يلتفت عن طريقة رسول الله يميناً وشمالا ، ويطلب الوصول إلى الله – سبحانه – من سواه ، ويبتغي رضاه فيما عداها ! ؟ .

وبعد فإنا نرحب بذكر الله في كل زمان ومكان ، سرًا وجهرًا ، انفرادًا واجتماعاً ، ولكن بشرط أن يراعوا آداب الذكر وما يجب له ، فلا يتخذوا آيات الله هزوا ، ولا يلحدوا في أسمائه . أسأل الله أن يقينا شر مضلات الفتن ، وأن يهدينا الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين بمنه وكرمه .

سر تعدد الزوجات (1)

لسنا نذهب في تعليل ذلك إلى ما قاله المسيو (دولست) من أن الذكر من الشرقيين أكثر قوة من الغربي ولذلك قال بعض المشتغلين بعلم طبائع الأمم : إن تعدد الزوجات أمر من ضروريات الأمم الشرقية لما فيهم من القوة العظيمة . أي فيجب في الشريعة العامة التي جاءت للأمم كلها أن تراعىَ ما يناسب طبائع الجميع . ولذلك قال الكونت هنري كيستري ، أنه ليصعب جدا على الغربيين أن يقدروا شريعة القرآن في تعدد الزوجات حق قدرها لما بينهم وبين الشرقيين من الاختلاف الكلي . كما أني لست أعلل ذلك بما يعلل به بعضهم من أن العرب كانوا يتزوجون كثيراً بلا حد . فلو جاء الإسلام بقصرهم على واحدة كان ذلك صعباً جداً على قريش وغيرهم من قبائل العرب الذين اعتادوا الكثرة ، كغيلان الذي أسلم على عشرة نسوة » .

وممن علل بذلك الكونت هنري كيستري حيث يقول : « إن ذلك ربما أدى إلى تزعزع عقيدتهم في الدين الجديد . فهذا أباح لهم تزوج الأربع تخفيفاً للشر وتأليفاً لقلوبهم ببعض ما ألفوه . فهو لم يفعل ذلك إلا لمصلحة الإسلام كما تقتضيه الحكمة البالغة .

ولست أقول في ذلك أيضاً ما يقوله المسيو (ريفيل) : إننا لو رجعنا إلى زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – ومكان ظهوره لما وجدنا

(1) مجلة الإسلام – السنة الثالثة – العدد ٤٥ – ذو القعدة سنة ١٣٥٣ هـ .

عملا يفيد النساء أكثر مما أتاه عليه السلام فهن مدينات لنبيهن بأمور كثيرة لسنا نعلل بشيء من ذلك كله وإن كان له من النظر قسط ومن الحق وجه ولكنا نعمد بك إلى ما هو أقرب من هذا أو أولى بالاعتماد عليه : إنك تعلم أن الرجال معرضون لأخطار الحروب المهلكة ومخاوف الأسفار فى البر والبحر التى تحدث كثيراً لركاب البواخر من الغرق وغيره كحوادث الترام ومخاطر الطيران ومهاوى الجنايات منهم على غيرهم ومن غيرهم عليهم ومعاناة الأشغال التى تكون لاستخراج المعادن من مكانها أو اللآلىء من مستقرها مما عسى أن يكون معرضاً لخطر البراكين أو غيرها وما يلتحق بذلك من أخطار السباق على الخيول ، أو المصارعة المعتادة فى أوربا وأمريكا وما يكون من بعض الطبقات الدنيا من الفظائع التى كثيراً ما تودى بحياتهم أو حياة غيرهم .

وإن شئت ضممت إلى هذا ما تسمعه من حوادث الانتحار أو رمى الكثير بنفوسهم فى البحر تخلصاً من مضايق الحياة ومتاعب العيش كما يقع ذلك كثيراً بانجلترا وغيرها مما يتناقص به الرجال تناقصاً كثيراً : ثم ألقِ ببصرك إلى ما ليس بالبعيد مما فعلته الحروب الطاحنة مثل الحرب الروسية اليابانية أو الترنسفالية الإنجليزية أو العثمانية البلقانية . وأفظع من ذلك كله تلك الحرب الكبرى التى لاتزال ماثلة فى الأذهان بويلاتها ومصائبها . ولو نظرت فى التاريخ لوجدته يفيض أنهاراً من الدماء من كل ينابيع الشقاء قديماً وحديثاً . وقد ذكر القرآن والتوراة أن فرعون كان يذبح أبناء إسرائيل ويستحيي نساءهم وأنه غرق فى البحر مع أمم كثيرة يقدرها بعضهم بستمائة ألف فى يوم واحد .

وأظنك لا تشم فى أن هذا كله لايكاد يوجد فى النساء حتى حوادث الانتحار الفردية (إلا على سبيل الشذوذ فى ندور من الأحوال) .

وقد دلت الإحصائيات الرسمية على أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال ، وأصبح ذلك مما لاشك فيه . فقل لى بعيشك : إذا حصلت هذه الحوادث وكان الرجل مقصوراً على زوجة واحدة . فماذا تصنع تلك النساء ومن ذا يقوم بإعفافهن إذا كان لايجوز للرجل أن يتزوج إلا واحدة . بل من يؤدى واجباتهن ويقوم بحاجاتهن وهى كثيرة متوقفة على الرجال لامحالة ، فإن المرأة ضعيفة بمقتضى خلقها كما أثبت ذلك علماء التشريح ،ولئن فرضنا أن فى تلك الأمة من ذوى الإحساس والهمة من يقوم بشئونهن على ما يجب كما يردن وتريد الإنسانية (وهو فرض لايكون ولئن كان فلن يدوم) . أفلا يلحقهن من المنة أو العار ماينغص عيشهن ويكدر صفوهن بتلك الصدقات التى هى عنوان المذلة وبرهان المهانة ومجلبة العار لهن ولأقاربهن .

وأما إذا تزوجن كانت نفقتهن واجبة على الزوج فلا يمكنه أن يفرط فيها ولا أن يدع أمرها يوماً من الأيام لغيره بعد ما أخذ على عهدته من يوم ذلك الزواج أن يذود عنها عوادى الدهر وغوائل الحياة لمكان ذلك من نفوس الأزواج وما يكون بين الزوجين من أواصر المحبة إلى غير ذلك من الروابط التى لايستهان بها فى نظر العقل والدين والعرف وبهذا تتم السعادة والهناءة لهن مادياً وأدبياً . وفى الشريعة الإسلامية من واجباتهن على الأزواج ما يضمن لهن كل راحة وينقذهن من كل شقاء .

وإنى أزيدك الأمر بياناً فأقول :

لو فرضنا ـ وهو فرض واقعى مشاهد ـ أن أمة قوية اعتدت على أمة أخرى فأبت حميتها وتصلبها فى وطنيتها واستماتتها فى سبيل الذود عن استقلالها إلا أن تنتصر على ضعفها أو تموت بعزمها وشرفها . فلم تزل تحارب حتى آخر لحظة من حياتها . فهل من المصلحة بعد تلك الحرب التى استأصلتهم وتركت نساءهم أرامل لايجدن كفيلا ، ولا يهتدين سبيلا ألا يتزوجن أحدًا من الأمة الظافرة التى معها نساؤها فيضيع ذلك العدد العديد من النساء ، ويسجل عليهن الشقاء والبلاء ، طلباً لراحة تلك الزوجات المنفردات ، ورغبة فى هنائهن . إن للشارع الحكيم ـ ياحضرات المتفيهقين نظرًا واسعاً ، ومرمى بعيدًا يحيط بمصالح الأمم ولا يقصر نظره على السعادة الفردية والمسائل الجزئية ، كما تنظرون متوهمين أنكم تسعون فى سعادة المرأة غائباً عن نظركم القاصر أنكم مجدون فى شقائها من حيث لا تشعرون .

هذا ، ومن جهة أخرى تعلم أن الرجل يولد له إلى ما بعد الثمانين وأما المرأة فقلما تلد بعد الخمسين . فلو أوجبنا على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة لتعطل شطر كبير من أعمارهم من وجود النسل فيه . وهو ما يعود على الأمة بالقلة (والقلة مناط الذلة وفقد القوة) .

وإنا نرى الملوك يتحملون كل عناء ، ويستعملون من الوسائل مالا يدخل تحت حصر فى الحصول على التحالف أو الاتفاق مع الدول الأخرى طمعاً فى أن تزداد قوتهم ، وتقوى شوكتهم ويكثر عددهم

ويتزايد مددهم عند الحروب واشتداد الكروب . فما بالك إذا كانت الأمة غنية بأبنائها غير محتاجة إلى سواها لكثرة عددها . أفلا تكون القوة أمتن . والوصول إلى الرفعة أقرب ، والفوز فى ميدان الحياة أعظم . ومن للأمم بتلك الوسيلة التى هى أضمن الوسائل لنيل الشعوب مجدها ورفعتها .

وأما رقى أوربا وارتفاع شأنها دون أمم الإسلام فهو راجع إلى أسباب أخرى لو وجدت فينا لكنا اليوم أرفع الأمم وأعظم الشعوب كما كنا كذلك بالأمس . وأن الحكومات التى تتخذ من وسائل الصحة ما يحفظ لها كثرتها وقوتها فتحارب الأوبئة الفتاكة خوفًا على نقص الأمة وضعفها ، لو اتسع نظرها لسارعت إلى غايتها المنشودة بتلك الوسيلة الإسلامية فإنها من أعظم الطرق إليها : ولحاربت تلك الأفكار المنحرفة كما تحارب الأوبئة الفتاكة . فإن مكروباتها أقتل للأمم وأفتك بالشعوب من مكروبات الكوليرا وجراثيم الطاعون .

وإن قلة الزواج فى نظر الباحث المدقق لمن قبيل تلك الأمراض التى تحاربها الحكومات بجد واجتهاد . هل من الحكمة أن نحجر على الرجل ألا يتزوج غير زوجته التى وصلت إلى سن اليأس وهو بعد لم يصل إليه . ولعله يأتى بعد بكثير من الرجال العاملين . أليس فى منعه من ذلك قطع لأكبر وسائل القوة ، وسد لأعظم طرق الرفعة للأمم والشعوب . ومعلوم أنه إذا امتنع التعدد قل النسل لا محالة ؛ فيتناقص عدد الأمة فيقع الرعب فى قلوبها واللين فى قناتها ؛ فيطمع فيها أعداؤها ، وتمتد إليها أيديهم بالسوء فتتعاصى على البقاء وتنقاد إلى عوامل الفناء .

وإن كثيراً من المفكرين ليوجس خيفة من تلك الأفكار الجديدة التى أوقعت كثيراً من الفتيات فى هوة العار والدمار فضلاً عما يكابدن فى طلب العيش من العناء والشقاء . وانظر إلى تلك العادة المسيحية (الاقتصار على واحدة) وما توجبه مع تلك المرأة التى بلغت سن اليأس ، وقارن بينها وبين تلك السنة الإسلامية التى راعت مصلحة الأمم وقدمتها على مصلحة تلك العجوز فلم تهرم الرجل بهرمها ، ولا أيأسته بيأسها . بل انظر إلى ما عسى أن يكون من تزوج الرجل بالمرأة العقيم .

فإن المسيحية توجب عليه أن يذهب ذكره من الوجود بذهاب شخصه ، وليس فى ذلك فناؤه فقط بل ثمه مع هذا فناء خفى تدريجى للشعب نفسه ، حيث يفقد قوة كبيرة كان يحصل عليها لو كان الرجل مسلما يرى كثرة الزواج فيمد الأمة بعشرة أو عشرين تنتفع بهم فى مصانعها ومزارعها ومتاجرها فضلاً عن حروبها وأزماتها .

وإن فرنسا لتئن من قلتها الآن أنينا شديدا وتريد أن تجعل الزواج جبريًا لهذا الغرض الذى شرحناه ، وقد رأيت أن بعض فلاسفة الألمان يغبط المسلمين الذين يصيرون فى الزمن اليسير ذوى عدد كثير بفضل كثرة الزواج الذى جاء به نبيهم (الحكيم العظيم) ولنضرب لك مثلاً بالرجل المسيحى الذى يتزوج امرأة فيجدها عقيما . أليس من الجائز القريب أن هذا الرجل كان يولد له عدد كثير من الأولاد كعشرة مثلاً . وأن يلد كل واحد من العشرة عشرة ، وذلك كله لايستغرق نصف قرن . فتكون تلك الأمة قد فقدت فى ذلك الزمن مائة شخص من فرد

واحد من أفرادها . كما أن السنة الإسلامية أكسبت أممها ذلك العدد العظيم فى تلك المدة اليسيرة .

ومما يلتحق بذلك قول الكونت هنرى متألماً من قلة الزواج عندهم : (إن أهل الشرق لا يعرفون العزوبة وهى المصيبة التى جلبها التمدين على الغربيين) . ونعلم فوق هذا أن المرأة قد يعتريها مرض تطول مدته أو يكون مزمنا أو معديا . بل نقول : يجوز أن يباين الرجل المرأة نفسا وخلقا وتربية وأدبا وأن تباينه فى ذلك .

فقل لى بعيشك ماذا يفعل المسيحى (أو من يريد أن يكون مسيحياً فى مسألة الزواج) لا بد له أن يفعل أحد أمرين : فإما أن يصبر ويعانى مشقة مقاومة الشهوة الطبيعية فيحصل له ضرر عظيم وإما ألا يمتنع عن تلك الزوجة فيكون الضرر أعظم والويل أشد ، وإما أن يضطر إلى الفسوق والفجور . ولعل هذا هو السبب فيما يقوله (الكونت هنرى كيسترى) : من أن ما يحصل من ذلك فى عاصمة باريس وبرلين ولندرة يزيد على ما يحصل من ذلك فى الشرق كله . إلى أن قال : (وأما ما يتعوده المراهقون من الأمر القبيح فمما لا وجود له فى الشرق إلا بطريق الاستثناء لسهولة الزواج) وقد ثبت بالإحصاء الرسمى أن أولاد الزنى فاقوا فى باريس عن ثلاثين فى المائة وفى ميونيخ عن أربعين . وفى فيينا عن خمسين وفى بروكسل عن ستين . فذلك التعدد واقع فى تلك الأمم بصورة غير مشروعة متناهية فى الفظاعة وأضراره على المرأة والنسل أشد فظاعة وأقوى قبحا .

ولعل المشرعين والمنفذين الذين سنوا لهم تلك العادة – التى خالفوا فيها التوراة ولم يصرح بها الإنجيل – شركاؤهم فى تلك الجرائم .
ولعمر الحق إن هذه الأسباب تكاد تكون موجبة لكثرة الزواج لا مبيحة لها فقط .

ولنمسك عنان القلم اكتفاء بما قدمنا ، ولو شئنا لأطلنا .

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يعرفنا مزايا ديننا القويم بمنه وكرمه .

جواز التقليد (١)
والرد على من يحرمه

*

حضرة خادم السنة والإسلام ، وعلامة العلماء الأعلام ، صاحب الفضيلة سيدى الشيخ يوسف الدجوى . أبقاكم الله تعالى فى سعادة وأمان ، راغمين أنف كل زائغ فتان .

وبعد : فعندنا طائفة ليس لها شغل إلا بالحط من قدر الأئمة والطعن عليهم ، وذم مقلديهم بأقبح الذنب ، حتى أن بعضهم ألف رسالة فى ذلك ، وهى مرسلة إليكم . وهم ينادون بتحريم التقليد وأنه من الكبائر . وبعضهم يجعله كفراً مثل كفر الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، ويقولون : إن الواجب على العامى أن يطلب من العالم الذى يستفتيه ذكر الدليل من الكتاب أو السنة ، ويجب على العالم أن يذكر له ذلك وينهاه عن تقليده أو تقليد غيره ، فإنه لا يجوز اتباع آراء الرجال ، ويجب الرجوع فى كل شىء إلى الكتاب والسنة .

فنسألكم بالله – عز وجل – أن تغيثونا ببيان الحق ، فإنهم شوشوا على العامة وآذوا الخاصة إيذاء بليغا . وليس لنا إلا (الأزهر الأنور) وعلماؤه الذين يرجع إليهم فى المهمات ، وتكشف بهم جميع المعضلات .
أبقاكم الله حصنا للدين وملجأ للمسلمين – آمين .

عبد الله بن رابح بالجزائر

---

(١) مجلة الأزهر – الجزء العاشر – المجلد الخامس – سنة ١٣٥٣ هـ .

الجــواب

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

هذه نزعة من شر النزعات التى ابتلى بها المسلمون من أولئك الذين يدعون الاجتهاد ، ويثيرون فى الأرض الفساد ، ويبذرون بذور الشقاق والانقسام ، ويهونون أمر سلفنا الصالح فى نفوس العامة « شأن الخوارج الذين هم شر الطوائف » ويزجون بأولئك الجهال فيما لا يحسنونه ، فيعرضونهم بذلك لكل خطر وفتنة .

وهى شنشنة نعرفها من إخوانهم عندنا بمصر (إنْ فِى صُدُورِهِمْ إلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ)[1] . وكنا نود أن يكونوا من الذين يقولون : (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا)[2] ولكن أخبرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه سيلعن آخر هذه الأمة أولها ، وأن ذلك من علامات الساعة ، وسيتخذ الناس فى آخر الزمان رؤساء جهالاً فيسألونهم فيفتون بغير علم ، فيضلون ويضلون . وما كانوا رؤساء إلا لتلك الدعاوى الكاذبة .

وقد روى عن على -رضى الله عنه- : « إذا أعرض الله عن العبد أورثه الإنكار على أهل الدين » . وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- « أخوف ما أخاف على أمتى كل متفيهق عليم اللسان » .

أما أئمة الإسلام المتقدمون فلا يضرهم ذلك شيئا ، لأن الأمة كلها

(١) سورة غافر ، الآية ٥٦
(٢) سورة الحشر ، الآية ١٠

على توقيرهم وإجلالهم ومعرفة فضلهم ، إلا تلك الشرذمة التى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه :

وسعى إلى بعيب عزة نسوة   جعل المليك خدودهن نعالها

وأما اختلاف الأئمة وما يطنطنون به حوله فهو من الرحمة الكبرى بهذه الأمة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : « ما يسرنى أن أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رحمة » وقد قال يحيى بن سعيد وهو من كبار المحدثين من التابعين : أهل العلم أهل توسعة ، وما برح المفتون يختلفون ، فلا يعيب هذا على هذا. على أن الناس لو أخذوا من القرآن والسنة كما يريد هؤلاء لما وقف بهم الاختلاف عند حد ، ولأصبحت المذاهب أربعة آلاف بدلا من أربعة ويومئذ يكون الويل كل الويل للمسلمين . « لا أرانا الله ذلك اليوم » .

وأما دعواهم حرمة التقليد فيردها العقل والنقل « ومن العجب العاجب أنهم يحرمون التقليد ولكن يدعون الناس إلى تقليدهم » !

ولو لم نسمع تلك الأصوات المنكرة ما صدقنا أن أحداً فى الوجود يحرم التقليد ويوجب على الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت استعدادهم أن يأخذوا من الكتاب والسنة :

وأنه ليدل على فساد ما قالوا المعقول والمنقول ، فإن العامى مكلف بالأحكام قطعا ، ولا يمكنه أن يأخذ الأحكام من الكتاب والسنة قطعا لما سنبينه .

وأما النقل فقد كان الصحابة والتابعون يفتون السائلين بالحكم ، فتارة يذكرون مأخذه إذا اقتضت الحال ذلك ، وتارة يقتصرون على ذكر الحكم ، وذلك معلوم على القطع من حالهم . ولو كان الأمر على ما زعم هؤلاء لا لتزموا ذكر الدليل لأولئك السائلين الذين كان يمكنهم أن يفهموه ولا يضلوا فيه لأنهم من أهل اللغة .

وكذلك كانت رسله — صلى الله عليه وسلم — إلى البلدان ، كمعاذ ابن جبل وأبى موسى الأشعرى : يعلمون الناس الأحكام من غير التزام ذكر الدليل . بل قال معاذ للنبى — صلى الله عليه وسلم — :أنه إذا لم يجد الحكم فى كتاب الله ولا سنة رسول الله اجتهد رأيه ، — وأقره صلى الله عليه وسلم — على ذلك . وخيَّر عمر شريحا . فى أن يجتهد رأيه فيما اشتبه عليه وأن يراجعه فيه ، وإن كان ذلك أحب إلى عمر .

ويقول الله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ)[١] أى عما اشتبه عليكم لاعن دليله . فلم يشترط القرآن غير أن يكون المسئول من أهل الذكر .

ولا شك أن الأئمة المسلمين من أهل الذكر الموثوق بأمانتهم وعدالتهم، ودينهم وعلمهم ، وليس يسألهم المستفتى عن آرائهم البحتة بالضرورة ، وإنما يسألهم عن حكم الله المأخوذ من كتاب الله وسنة رسول الله ، لكونهم أعلم به منه ، بخلاف الأحبار والرهبان ، فإنهم كانوا يحللون ويحرمون بأهوائهم .

(١) سورة النحل ، الآية ٤٣

والمدار على أن يحصل للمستفتى ظن قوى بأن هذا هو حكم الله ، فإذا حصل له ذلك الظن بموجب ثقته بإمامه الذى اتبعه ، وجب عليه العمل به ولايجوز له مخالفته بوجه من الوجوه .

وما أدرى كيف يبيحون لكل إنسان أن يأخذ دليل الحكم من الكتاب والسنة .

وكيف يأخذ الحكم من الحديث مثلاً وهو لايمكنه أن يعرف درجة الحديث ولا ماله من معارض ولا مافيه من تخصيص عام أو تقييد مطلق أو نسخ ناسخ ، ولا مابينه وبين غيره من ترجيح الخ الخ . .

فإذا قالوا : أنه يسأل العالم عن ذلك كله فقد هدموا مابنوا ، ورجعوا إلى التقليد الذى فروا منه . فإن العالم إنما يتكلم فى ذلك كله برأيه ، فلم يخرجوا من تقليد آراء الرجال كما يقولون .

ولو كانت الشريعة جاءت بهذا الحرج لكلفت الناس شططا : ولم تكن شريعة سمحة تسع الأمم كلها وتصلح للأزمان كلها ، ولم يقل الله فى شأنها : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)[١] فعجبًا لأولئك الذين يعمدون لأكبر ميزة للشريعة الإسلامية فينقمونها عليها !

وإذا تأملت بنور الله فى ذلك الموضوع بهرك مافى تلك الشريعة من السعة والرحمة والحكمة . وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصًا على التخفيف على أمته غاية الحرص ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم . حتى أنه لما نزل القرآن على حرف مازال يتشفع حتى نزل على سبعة أحرف .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦

وكان يكره المشددين المنفرين ويغلظ القول لهم ، وينكر على من يبحث عن البواطن ، أو يشتد على عباد الله غلوا وتعمقا وجهلا بمقاصد الشريعه ، ولذلك اشتد على أسامة حين قتل من قال لاإله إلا الله ، مع كون أسامة –رضى الله عنه– كان متأولا ، ولكن حكمته –عليه السلام– أعلى وأتم ، فإنه يكتفى من الناس بظواهرهم تأليفا لهم ورحمة بهم ، علما بأن ذلك أليق بضعفهم وجهلهم ، وأقرب إلى إصلاحهم ، فهو يتدرج بهم بحكمته الكبرى حتى يوصلهم من الكمال إلى ماقدر لهم عن طيب نفس من حيث يشعرون أو لايشعرون .

ولو أردنا أن نبين آثار رحمته ومزيد حكمته التى اقتضت بقاء شريعته واندراج الكافة فى سلك أمته لضاق المجال وطال المقال .

وانى أعجب لهؤلاء كيف لايجيزون للعامة أن يتدخلوا فى دقائق السياسة ، ولا للجاهل بصنعة من الصنائع أن يتولاها بلا تعلم ومزاولة ، ثم يجيزون بل يوجبون عليهم أن يخوضوا فى القرآن والسنة بأفهامهم وأوهامهم التى تشبه أوهام الأطفال ولا ترتكز إلا على الخيال :

ولكنها الأيام قد صرن كلها   عجائب حتى ليس فيها عجائب

وليت شعرى هل لهذا الجاهل الذى أباحوا له أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يخالف علماء المسلمين ، ويستظهر على سائر الأحكام التى ثبتت بالقياس فى عهد الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين حيث يجد لها دليلا من الكتاب والسنة على زعمه ؟ ! وما أظن أحدا من ذوى الدين والعلم يستطيع أن يقول ذلك غير تلك الفرقة المجازفة التى تخطت طورها ولم تعرف قدرها .

وهل فى الكتاب والسنة مايدل على جميع الحوادث وأحكامها دلالة وضعية بدون حاجة إلى الاستنباط والقياس المستلزم لمعرفة العلة وشروطها ومسالكها وقوادحها وغير ذلك ، أم يقولون إن العامى يمكنه أن يعرف ذلك ولايخطئ فيه بدون علم ولا بصيرة ؟ !

ولعمر الله أنى لا أرى هذا الرأى إلا فتحا لباب الأهواء التى تجعل الكتاب والسنة لعبة لأولئك المتهوسين الذين هم من ذوى الجهل المركب والخيالات الفاسدة .

ومما لاشك فيه أن الأهواء تختلف جد الاختلاف ، وأن الجهال إنما يستمدون من العواطف والأوهام ، لامن العقول والأفهام . فماذا يكون الحال إذا سلطناهم على الشريعة يفهمونها بآرائهم ، ويلعبون فيها بأهوائهم ؟ !

هذا ومعلوم أن المستفتى لايسأل العالم عن رأيه ولا مايستحسنه بمحض هواه ، ولكن يسأله عن حكم الله فى المسألة ، وسؤاله لأهل الذكر عن حكم الواقعة إنما هو ليجيبه المسئول بما يعلمه من الكتاب والسنة ، فسؤاله عن حكم الله لاعن آراء الرجال التى لم تستند إلى كتاب أو سنة كما يتوهمون ثم يشنعون .

وكيف تجىء هذه الخيالات أو تروج تلك الترهات فيمن لايدين إلا بقول النبى –صلى الله عليه وسلم– ، ولا يعتقد حلالا إلا ما أحله الله ورسوله ولا حراما إلا ماحرمه الله ورسوله ؟ لكن لما لم يكن له علم بما جاء عنه –صلى الله عليه وسلم– ، ولا بطريق الجمع بين المختلفات من

كلامه : ولابطريق الاستنباط من دلالة الإشارة مثلا ، سأل عالما راشدا ، معتقدا أنه مصيب فيما يقول : فإن خالف مايظنه أقلع من ساعته عما أفتاه به .

فكيف ينكر هذا أحد ، مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزالا فى المسلمين من عهد النبى -صلى الله عليه وسلم-؟!ومن الذى يعتقد أن هناك فقيها أوحى الله إليه ؟ فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه الم بكتاب الله وسنة رسوله ، ولولا ذلك ماقلد مؤمن مجتهدا .

وعلى كل حال فمن ذهب إلى هذه النزعة الحمقاء فقد أنكر على كل من فوق البسيطة من جميع المسلمين الذين قلدوا الأئمة وأخذوا بكتب الفروع ، وما كتب الفروع إلا شرح للكتاب والسنة ، فما الذى يوجب التنفير والتحذير مما مرجعه إلى الكتاب والسنة ؟ وهل يمكن العامة أن يفهموا الكتاب والسنة لولا ماكان من أئمة الهدى -رضى الله عنهم- ؛ كيف وفيهما المجمل والمبين ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والناسخ والمنسوخ ، والمنطوق والمفهوم ، وغير ذلك ؟

وقد قال ابن عباس « إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون ، لاتنقضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته . وعرفنا -صلى الله عليه وسلم- أن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً ، « ولكن هؤلاء يريدون أن يطلعوا بغير مطلع ، ويجتهدوا بغير علم ، ويتكلموا بغير عقل » . وكم سر وحكمة نبهت عليهما الإشارة ولم تبينهما العبارة .

ولعمرى إن أكثر من يدعون العلم اليوم لايفهمون وجه الدلالة ولامدرك الأئمة ، خصوصا إذا كان الدليل ذا مقدمات يتوقف تقريب

الاستدلال بها على أمور قلما يكون لأمثالهم إلمام بها . فما أبعد ماطوحت بهم الطوائح ، وما أعجب مابلغ بهم الاعجاب .

إن الأخذ من القرآن والسنة يحتاج إلى علم واسع ونور ساطع يفرق صاحبه به بين الحق والباطل ، فضلا عما يحتاج إليه من لغة ونحو وصرف ، ومعان وبيان وأصول الخ . وقد رأينا المعتزلة يقولون إن القرآن يشهد لمذهبهم ، والخوارج يدعون أن القرآن ناطق بنحلتهم ، والباطنية يزعمون أن للقرآن معنى آخر غير معناه الظاهر ، والبابية يعتقدون أن له معنى غير ما فهمه الجميع ، إلى آخر الفرق الضالة والنحل الزائفة . فهذه الفرق كلها كانت تستمد من القرآن على زعمها ، فكيف ندعه بعد ما رأينا ذلك كله لأهواء الجهلاء وآراء الأغبياء ؟

وقد كان كبار المحدثين المخاصين يقلدون الأئمة المجتهدين ، علما منهم بأن رواية الحديث لا تكفى فى الاجتهاد . وقد قالوا : إن المحدث بمنزلة الصيدلى والمجتهد بمنزلة الطبيب . ولقد رأينا من الناس من ضل بظواهر المتشابهات من القرآن والأحاديث .

الخلاصة

والخلاصة أن أقوال المجتهدين المأخوذة من الكتاب والسنة ضرب من البيان والتفسير .

وقد عرّفوا الاجتهاد بأنه :استنفاد الجهد بالنظر فى المآخذ الشرعية لتحصيل علم أو ظن بحكم شرعى .

أما دعوى وجوب الأخذ من الكتاب والسنة لكل أحد فباطلة بإجماع الصحابة ، فإنهم كانوا يفتون العوام ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد والنظر كما قلنا ، وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم . وأيضا الإجماع منعقد على أن العامى مكلف بالأحكام ، وتكليف طلب رتبة الاجتهاد تكليف بالمحال ، فليس عليه إلا أن يعرف حكم الله بأى طريق على مقتضى ظنه . «ووجوب العمل بالحكم عند الظن معلوم لانزاع فيه » .

ومن المعلوم أن تقليد الأئمة ليس تركا للآيات والأحاديث ، بل هو عين التمسك بهما . فإن الآيات والأحاديث ماوصلت إلينا إلا بواسطتهم ، مع كونهم أعلم ممن بعدهم بصحيحها وحسنها وضعيفها ، ومرفوعها ومرسلها ، ومتواترها ومشهورها ، وآحادها وغريبها ، وتأويلها ، وتاريخ المتقدم والمتأخر منها ، والناسخ والمنسوخ ، وأسبابها ولغاتها ، وسائر علومها مع تمام ضبطهم وتحريرهم لها ، وكمال إدراكهم وقوة ديانتهم ؛ واعتنائهم وورعهم ونور بصائرهم ، فتفقهوا فى القرآن والأحاديث على مقتضى قواعد العلوم التى لابد منها فى ذلك ، واستخرجوا أسرار القرآن والأحاديث ، واستنبطوا منها فوائد وأحكاما ، وبينوا للناس مايخفى عليهم على مقتضى المعقول والمنقول ، فيسروا عليهم أمر الدين ، وأزالوا المشكلات باستخراج الفروع من الأصول ورد الفروع إليها ، فأستقر من الدين لأمة محمد — صلى الله عليه وسلم — بسببهم الخير العميم كما قال إمام الحرمين .

كلمة ختـامية

إن أمثال هؤلاء المتهورين لا يصح أن يكونوا من أئمة الهدى ولا علماء الدين ، فإن أخص أوصاف الأئمة والعظماء ، الرزانة والأناة واحترام غيرهم من العلماء والشفقة على الأمة ووراثة الرسول صاحب النظر الواسع والحكمة البالغة والسماحة المتناهية .

وينبغى أن يعرفوا أن كل ما هو محل للنظر وموضع للاجتهاد يجب ألا يتنازع فيه الناس ، فالأمر فيه واسع ، فكم اختلف الصحابة والتابعون وتابعوهم مع محبة بعضهم لبعض ، حتى قاسم الإمام مالك الإمام الشافعى ماله مرارا ، وقد خالفه فى أشياء كثيرة وهو تلميذه . وقد قالوا : إن المنكر لا يجب إنكاره إلا إذا كان مجمعا على إنكاره .

وإنى أكرر عجبى منهم كيف يلزمون غيرهم باتباعهم وهو ينادى بخطئهم ويقيم البرهان من الكتاب والسنة والعقل والنقل على ذلك ، بل نتنزل قليلا ونقول لهم : أفتوجبون علينا تقليدكم وأنتم تحرمون التقليد ، أم ماذا ؟

هذا والله غض من شأن الأمة وعلمائها وأئمتها ، وهى تلك الأمة التى أدهشت التاريخ وأنطقت أعداء الاسلام بفضـل الإسلام ، وقد صورتموها يا حضرات المتفيهقين بصورة الأغنام التى تتبع كل ناعق ، وهى من الحكمة والفلسفة بالمحل الذى لا ينكره منصف أوربى فضلا عن عالم إسلامى .

وأما رميكم إياهم بأنهم كانوا يتبعون أئمتهم اتباعًا لا مناقشة فيه ولا تبصر معه ولا حياة فى ذويه فهو غير صحيح ، فإنهم كانوا عقلاء حكماء مخلصين على بصيرة من أمرهم فكان كلٌ يقف عند حده ولا يتخطاه ، فإذا ظهر له الحق ، اتبعه لا محالة ، فإن المسلمين عمومًا لا يريدون إلا اتباع الرسول لا غير ، وإذا اتبعوا إمامًا فإنما يتبعونه فى أن هذا هو سنة الرسول وشريعته فيما يعتقدون. ولا يتصور غير هذا .

أما كونه مخطئًا فى الواقع أو مصيبا فذلك شيء لم يكلفهم الله به ، ولا يخلو منه مجتهد ولا مقلد ، والخطأ إلى من يجتهد وليس أهلا للاجتهاد أقرب منه إلى من يقلد المجتهد الموثوق به المشهود له بالامامة .

وهذا تنزل اقتضاه المقام ، وإلا فاجتهاد من ليس أهلا للاجتهاد من أكبر الكبائر وأعظم الجنايات على الدين وأهله .

على أن أتباع الأئمة لم يكونوا من تقليدهم على ما يزعم هؤلاء ، فإنا نرى أبا يوسف ومحمد كثيرًا ما يخالفان أبا حنيفة ، بل لا نكاد نجد مسألة لا يذكر فيها ذلك الخلاف الذى يبين استقلالهم وشدة حرصهم على اتباع الحق متى ظهر دليله .

وها هو ذا الإمام الشافعى يقرر فى مذهبه الجديد أن المغرب لا يمتد وقته إلى الشفق . ولكن أصحابه عدلوا عن قوله اتباعًا للدليل . وكذلك لا يرى صوم أحد عن الميت ، وخالفه أصحابه اتباعًا للدليل . وكم لابن عبد البر وأبى بكر بن العربى المالكيين من مخالفات فى مذهب مالك ، وكذا غيرهما . إلى آخر ما لا يسعه هذا المقال .

ولكن كانوا يعرفون درجتهم ، فما يتبين لهم دليله اتبعوه وقالوا به ولو خالف الإمام ، وما لم يتبين لهم فيه شيء كانوا فيه على رأى الإمام وعلمًا بأنه أعلم منهم بالسنة وأعرف بروح الشريعة .

وهكذا يجب أن يلتزم كل إنسان حده ولا يتعدى درجته . فكان لكبار الأئمة الاستقلال التام ، ولأكابر تابعيهم الاستقلال الجزئى من التضعيف والترجيح ، وللعامة الاتباع ، فإنه لا يصح فيهم غير هذا ؛ وهو عين الحكمة .

ولولا ذلك لصار الدين لعبة بيد الجهال ، وهذا ما نخاف منه ونحاول القضاء عليه . وليس معنى ذلك أننا نقول بعدم جواز الاجتهاد ، أو أنه أغلق بابه كما يقولون ، فإن أبواب فضل الله لاتغلق . وهل هذا إلا حجر على الله -عز وجل-؟ ولكن هناك فرق كبير بين إمكان الشيء ووقوعه ، وبين إسناده إلى أهله وإسناده إلى غير أهله :

وقد أصبحنا فى زمان ضاعت فيه الحدود ، وتعدى كل إنسان طوره ، ولم يعرف قدره ، وهى أكبر مصائبنا وأعظم بلايانا التى نئن منها ولا نعلم منتهاها :

ليت شعرى عواقب الأمر ماذا ... وإلى ما بنا المآل يؤول

وإنا نحكم القراء الكرام بيننا وبينهم ، فنبسط وجهة نظرنا ونظرهم ، وطريقتنا وطريقتهم بالاختصار ، عسى أن ينقطع المراء والجدال :

نحن نرى أن الناس على درجات شتى فيما وهبهم الله من الاستعداد الفطرى ، وفيما أحاط بهم من ضروب التربية المختلفة والبيآت المتنوعة وما قدر لهم من فنون الشواغل ، وما عنوا به مما أقامهم الله فيه .

نرى أن كل طبقة لها حكم يخصها ، فمن وصل إلى درجة الاجتهاد وجب عليه الاجتهاد وكان آثماً بتركه ، ومن وصل إلى درجة الترجيح وجب عليه ذلك .

ومن قعد به استعداده أو تربيته أو بيئته ،أو ما أحاط به فى شواغل المعيشة أو الوظيفة ، فعليه أن يقلد من يثق به ويعلم أنه غير جاهل بدين الله ولا غاش فيه ومتى انقدح فى ظنه أن هذا هو حكم الله وجب عليه اتباعه ولا يجوز له مخالفته ، فهو مثل المجتهد سواء بسواء متى ظن أن هذا هو حكم الله وجب عليه اتباعه ولايجوز أن يخالف ظنه ، بل ذلك غير معقول ، فإنه إذا لم يكن يعتقد أن هذا هو حكم الله فكيف يتبعه ؟ وقد قال العلماء : أن ذلك علم ويقين وإن كان فى طريقه ظنون وهذا مافى الوسع ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . وليس من المعقول أن يظن أن حكم الشريعة هو كذا مثلا ثم يعدل عنه إلى غيره .

أما إخواننا « أصحاب النهضة الحديثة والطفرة غير المعقولة » فيرون وجوب الأخذ من الكتاب والسنة بلا مراعاة لشروط الاجتهاد ، ولا تفرقه بين ضروب الاستعداد .

وهذا مبدأ خطر جدًا ، إذا جرينا عليه عمت الفوضى وفسد أمر الدنيا والآخرة ، فمن المحتم لصلاح المجتمع وتمام النظام أن يعرف كل

إنسان قدره ولا يتعدى طوره ، وأن توزع الأعمال ، فهذا للتجارة وهذا للزراعة ، وهذا للعلم وذاك للاجتهاد ، وغيره للتقليد وهلم جرا .

وعلى هذا بناء الوجود وصلاح العالم ، والقاعدة واحدة فى أمور الدين والدنيا وقد خلق الانسان ضعيفاً (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)[1] (مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ)[2] .

وإنى أعجب لهؤلاء كيف يجعلون أمر الاجتهاد أقل من جميع الصنائع التى لا يجتهد صاحبها إلا إذا كان له فيها علم واسع وعمل متكرر ، حتى يعرف أسرارها ودقائقها ، ويصبح من ذوى التبريز فيها . وكأن مسألة الدين أصبحت من أقل المسائل لدينا وأهونها علينا .

وقد رأيت لبعضهم ردًا يحمل سقوطه فى طياته فلم أعبأ به ولم ألتفت إليه . وما قامت قيامة هذه الطائفة إلا من قولنا لهم : أنه يجب إعطاء المراتب حقاً .

ثم بالغنا فى التصريح ولم نستعمل السياسة ولا المواربة فقلنا لهم : إنكم لا تصلحون للاجتهاد ولا بلغتم درجته ، واجتهادكم لا يأتى إلا بشر الغايات وأعظم الآفات ، فاعرفوا قدر أنفسكم واتقوا الله فيها .

ثم نقول لمزيد الإيضاح بعد ذلك كله : إن من المقرر أنه لايجوز خرق الإجماع ، ومن الذى يستطيع ذلك إلا من عرف أقوال العلماء وأحاط بمواقع الخلاف والاتفاق ، إلى غير ذلك من المهامة الفيحاء التى تنقطع فيها أعناق المطى ويضل فيها الخريت .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٨
(٢) سورة الاحزاب ، الآية ٤

وقد ذكروا أن المرجحات التى توجب تقديم بعض الأحاديث على بعض عند التعارض تزيد على الخمسين فكيف نلزم الناس بالاجتهاد ونحرم عليهم التقليد بعد ذلك كله ؟

أسأل الله أن يرزقنا الإنصاف ، ويجنبنا الاعتساف ، ويجعلنا من أهل الرحمة والحكمة ، بمنه وكرمه .

الحُرّيَة

الحرية هى أعظم مايتنافس فيه المتنافسون ، ويعمل له العاملون وهى الحياة على الحقيقة بل الموت خير من حياة لا حرية فيها ولا استقلال معها . ولست ترى قوماً سلبوا الحرية إلا ماتت فضائلهم وقضى على إنسانيتهم القضاء الأخير . وما أبعد من يكون مستتبعاً فى كل شأنه ، مستبعداً فى كل أمره من أن يكون إنساناً . ولذلك ترى الأمم أسمح ما تكون بنفوسها فى سبيل حريتها . وقد جاء الدين الحنيف بالحرية والمساواة فلم يفضل أحدًا على أحد إلا بالتقوى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)(٢) . وقد قال صلى الله عليه وسلم عند ما سرقت الخثعمية : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

وقال : « لافضل لعربى على عجمى ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى »

جاء الدين بترقية الإنسان إلى حد أنه لا يخاف إلا الله ولا يخشى فى الله لومة لائم وعرفه من كماله وخصائصه ، ما أجلسه به فوق عرش العزة القعساء ، وجعله لا يطأطىء رأسه لغير جبار الأرض والسماء ، ولو كان أعظم العظماء إلا على حدود محدودة تقتضيها الحكمة فقط . وجعل ذلك من لوازم التوحيد .

هذا والحرية فى متعارف السياسة أن تكون الأمة تحت قانون معروف يسوى بين الصغير والكبير والغنى والفقير ، حتى تأمن على

---

(١) مجلة الإسلام ـ العدد ٣٧ – رمضان سنة ١٣٥٣ السنة الثالثة

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣

على حقوقها من تلاعب الأهواء ، وعلى نفوسها من استبداد الأمراء والرؤساء .

وليست الحرية أن تسلم نفسك لهواك يقودها حيث شاء لا تراعى الاداب ولا تحترم الشرائع فإن ذلك همجية تفوق الحيوان ومنقصة تزيد على منقصة الشيطان :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى
إلى كل مافيه عليك مقـــــال

ومما ينبغى التنبه له أن النفوس مجبولة على الترفع والعظمة وا ستقلال بل نقول إن فيها ألوهية كامنة تأبى التقيد بأى شيء من الأشياء حتى بالشرائع من أكمل الأنبياء . ولذلك قال أرباب تلك النفوس : (أبشرًا مِنَّا واحِدًا نَتَّبِعُهُ) ولهذا كثرت التحملات والتأويلات فى الشرائع حبًّا فى الإطلاق ، وكراهة فى التقييد .

ولو تركت النفوس وما تهواه من الإطلاق والخلوص من القيود كلها لكان ذلك هو الشقاء الأبدى والهلاك السرمدى .

وبعد هذا فلا بد أن نراعى الحكمة فلا نعطى الناس من الحرية والإطلاق إلا على قدر ما يناسب درجتهم فى علمهم وتهذيبهم وكما لهم ، ثم نقيدهم فيما وراء ذلك ولا نطلقهم فيه . ومن البلاء الذى عمت به البلوى ما يفهمه الكثير من أن الحرية لاتأتى إلا بخير عميم وشأو عظيم . ولو كانت لغير من يحسن استعمالها من ذوى النزق والخرق . ولم يدر أن إعطاء الجاهل حريته فى كل شيء إفساد له بالكلية وسبب لشقائه وشقاء الناس معه .

وهو بمنزلة إعطائه سلاحا لعله يقتل به نفسه أو أحد والديه .

ولا فرق بين الأمم والأفراد فى ذلك فيجب التدرج فى الحرية على حسب التدرج فى التربية والفضائل حتى لا تغلب عليهم الحيوانية أو الشيطانية بمقتضى ما فى الفطرة الإنسانية والجبلة البشرية . وإذا لم يكن للإنسان وازع من دين أو قانون أو مراقبة من الكبراء والفضلاء واتفق مع هذا أنه ليس له من الصفات والكمالات ما يردعه عن القبيح تحركت فيه ضروب من الشهوات وفنون من الأهواء واتسعت أمامه طرق الضلال وتفتحت له جميع أبواب الخيال . فمن الشقاء مثلا أن نعطى أولادنا الصغار الحرية فى كل شيء غافلين عما تفعله الأهواء ، ويأتى به الاطلاق فى أمثالهم : ومن الشقاء أن نعطى حرية التشريع والتقنين لمن ليس لهم من الاستعداد الرفيع والعلم بطبائع البشر وأحوال النفوس ما يؤهلهم لذلك .

ومن الشقاء ما منى به الدين الحنيف من حرية السخفاء الذين هم أبعد الناس عن أسراره وأجهلهم بمراميه حتى صاروا يخوضون فى كل موضوع من موضوعاته ولو كان من مواقف العقول ومزال الأقدام ويقررون خيالات كانت تدور بنفوسهم مما يناسب استعدادهم القاصر ، فلما طال عليها الأمد ظنوها حقائق وليست من الحقائق فى شيء .

ومنهم من خيل له أن أمر الاجتهاد من أيسر الأمور فأباحه لنفسه وللناس بلاشرط ولا قيد ، وجعله أقل من جميع الصنائع التى لا يجتهد صاحبها إلا إذا كان له فيها علم واسع وعمل متكرر حتى يعرف أسرارها ودقائقها ويصبح من ذوى التبريز فيها .

ومما يوجب أسف المنصف الغيور أننا لانجد أحدا يجعل نفسه فى عداد المجتهدين فى أى فن من الفنون إلا إذا كان اختصاصيا فى ذلك الفن . وقد أصبحنا اليوم فى فوضى دينية علمية لاندرى إلى أى حد تصل بنا ، فلست ترى إلا مارقا من الدين لا يعبأ به ، أو متمسكاً به على ما يزعم ، إلا أنه أعطى لنفسه الحرية فى كل شىء وأحلها محل الأئمة الأعلام ، فهو يفهم على وفق ما يستمد من خياله ويؤول على طبق ما يأمره هواه ، وقد رأينا ذلك فى كل الطبقات حتى فى المهندسين والأطباء وكأن مسألة الدين أصبحت من أقل المسائل لدينا وأهونها علينا .

وليس التقييد فى مواطنه بأقل من الحرية فى مواطنها وليس هناك أعظم ضررا من منح الحرية لغير مستحقيها ومنعها ممن تأهل لها .

ولا بأس أن نختم مقالنا هذا بكلمة صغيرة لا يعرف قدرها إلا من تأهل لها .

ذلك أن هناك حرية أخرى وهى الحرية الحقيقية التى تخلصك من رق الأشياء كلها فلا تكون عبد الدينار والدرهم ولا عبد الفراش والرياش ولا عبد المرأة الحسناء والوظيفة القعساء ، وإلا فأنت بعيد عن الحرية الحقيقية بقدر ما استعبدتك تلك الشهوات ، وأخذتك تلك الغايات ، ولا فرق بين عبودية وعبودية ، فالنتيجة واحدة وأنت عبد على كل حال ، وليتك كنت عبداً لشىء واحد حتى تستريح بعض الراحة وتذوق شيئاً ن معنى الحرية ، ولكنك عبد لما لا يحصى من المآرب والمطالب .

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً) (١) .

فالمهمة أن تكون حراً من كل شىء حتى لا يحكم عليك شىء وإذاً لا تحتاج إلى أحد ولا تخاف من أحد فتكون من المؤمنين الكاملين الذين لا يخشون أحداً إلا الله ولا يرجون أحداً إلا الله فلم يذلوا للأمراء ولم يتواضعوا للأغنياء ، ولم يكونوا أسراء المطالب ، ولا أرقاء المآرب ، فهم يترفعون تيها على ملوك الأرض الذين تنعمت ظواهرهم ، وشقيت بواطنهم وملكت أيديهم ، واستعبدت نفوسهم ، عالمين أنهم الملوك على الحقيقة ، ولكن أين من كملت حريته وهذه صفته ؟ .

أتمنى على الزمان محالا   أن ترى مقلتاى طلعة حر

وقد ذكر عن بعض الأكابر – وذكر بعضهم أنه الغزالى – أنه وجد بعد موته ورقة مكتوباً فيها بخطه هذه الأبيات :

قد كنت عبداً والهوى حاكمى   فصرت حراً والهوى خادمى
وصرت بالعزلة مستأنسا   من شر أصناف بنى آدم
يالائمى فى تركهم جاهلا   عذرى منقوش على خاتمى

ففتشوا على خاتمه فوجدوه منقوشاً فيه قوله تعالى : (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) (٢) .

نسأل الله أن يمنحنا رضاه ، ولا يجعلنا عبيداً لشىء سواه ، بمنه وكرمه .

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٩
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٠٢

فضل الصلاة وبيان أسرارها (١)
وشرح حديث شريف

عن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال ، سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول :

« أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات أفيبقى ذلك من درنه شيئاً ؟ » .

قالوا : لا يبقى ذلك من درنه شيئاً . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس : « يمحو الله بها الخطايا » .

أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى . وفى لفظ آخر :

« إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات » .

أخرجه مالك فى الموطإ من حديث طويل .

وعن حذيفة – رضى الله عنه – قال :

« كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » .

أخرجه أبو داود . وفى رواية : (حزنه) بالنون ، والمراد نزل به وأهمه . إلى غير ذلك وهو كثير .

---

(١) مجلة هدى الإسلام السنة الأولى – العدد ١٧ – سنة ١٣٥٣ .

جهل الكثير من الناس أن الصلاة تذهب بالأذى الحسى والمعنوى ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى وجهلوا حكمتها الحكيمة فزعموها غلا وضع فى الأعناق وثقلا تنوء به الكواهل ؛ والناس – كما قيل – أعداء ماجهلوا ، وما إلى ذاك مما حفز فضيلة مولانا أن يعنى بشرح هذا الحديث الشريف ويحسر النقاب عن معانيه وحكمه الغالية قال حفظه الله :

ان الصلاة اعظم العبادات شأنا وأوضحها برهانا وأكبرها أثرا فى تطهير القلوب والنفوس ، ولذلك اعتنى الشارع بها أعظم عناية حتى قال : من ترك الصلاة فقد كفر . وقال : بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة . وقد جرى على ظاهر تلك الأحاديث الإمام أحمد فكفر تارك الصلاة ووافقه على ذلك ابن حبيب من كبار علماء المالكية . وكأنهم رأوا أن الصلاة من أعظم شعائر الإسلام وعلاماته التى إذا فقدت حكم بفقده لقوة الملابسة بينها وبينه ، فإن الصلاة هى المحققة لمعنى إسلام الوجه لله ، فكأن من لم يكن له حظ منها لم يبوء من الاسلام الا بما لايعبأ به .

وبالجملة فهى فى نظر الشارع أعظم شعائر الدين ولذلك أوصى بها الصغار والكبار وحذرهم غاية التحذير من التهاون بها والتفريط فيها لتكون ملكة راسخة فى النفوس بحيث تكون صبغة لها متمكنة منها فى النفس من الخشية والمراقبة .

ولذلك يقول الله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)(١) ويقول : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنوعا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)(٢) وسنشرح ذلك تمام الشرح ، ومن المعلوم أن كل إنسان إنما تحكم فيه خلائقه وملكاته التى انصبغت بها نفسه وانتعش بها قلبه .

ولتلك الحكمة البالغة أمرنا ان نعلم الصبى الصلاة لسبع ونضربه عليها لعشر حتى تصادف منه قلبا خاليا قبل أن تفرقة الأهواء التى تجعل النفس شعاعا والقلب أوزاعا .

وسر ذلك أن الصلاة أعظم وسيلة تقرب العبد من مولاه وتمنعه من التردى فى أسفل سافلين ، فإنها مقدسة للنفس كل التقديس حتى ترتفع بها إلى عالم الملكوت . والمصلى إذا قصد من الصلوات أرواحها لا أشباحها ، ومعانيها لا صورها ، فلابد أن يخوض فى لجة عظيمة من الرحمة . كأنه بدخوله فى الصلاة قد اندرج فى سلك الملائكة وخرج من هذا العالم بالكلية .

ولهذا يحس المؤمنون الكاملون بأنها تطرح عنهم أثقالهم وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : «أرحنا بها يا بلال» ويقول : «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» لما كان يحس فيها من الرحمات والفيوضات ، والانسلاخ من عالم الآفات والظلمات ، والاستغراق فى عظمة رب الأرض والسموات .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

(٢) سورة المعارج ، الآيات من ١٩ — ٢٣

وقد جعل الله الصلاة المفروضة مثنى وثلاث ورباع لتكون كأجنحة الملائكة فكأنه أراد أن يجعلك كالملائكة ويجعل الصلاة لك أجنحة نطير بها إلى الله تعالى مثنى وثلاث ورباع ، كما أنه جمع لك فيها بين أنواع العبادات التى تفرقت فى صنوف الملائكة الذين منهم الراكع والساجد والقائم والمسبح فجمع لك فيها بين القراءة والتسبيح والركوع والسجود والثناء والدعاء ، لتحظى بالفضائل كلها وتذوق من تلك الحضرات ماقدر لك .

ولذلك كانت الصلاة معراج المؤمنين وقرة عين الواصلين حتى أنهم إذا أتموها وأرادوا الخروج منها قالوا : «السلام عليكم» يريدون بذلك التسليم على الملائكة والمؤمنين وكأنهم يقولون لهم : إننا كنا مع الله تعالى لا معكم ، ومن كان مع رب العالمين لم يكن مع أحد حتى الملائكة المقربين .

والخلاصة : أن المصلى قد خضع لله بقلبه ، وذكر الله بلسانه وعظمه غاية التعظيم بجسده ، فقام بين يديه يناجيه ويضرع اليه ، ثم تدرج فى التعظيم وترقى فى الإجلال فأتى بالركوع ثم بالسجود الذى هو أكبر مظهر للعبودية .

المحبة وأنواعها وبعض آثارها الجليلة[1]

«لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا» .

المحبة : ينبئك عنها قلبك أكثر مما تنبئك عنها الحدود والرسوم ، والشىء إنما يحد لخفائه واستتاره كى يظهر ويتبين ،فإذا كان الشىء ظاهراً جلياً يعرفه جميع العقلاء لم يحتج إلى حد .

المحبة : سر الله المخزون الذى تشفى به جميع الأدواء القومية ، والترياق الذى تذهب به سموم الأمراض الاجتماعية .

المحبة : هى أنجع وسيلة لاقتلاع الشرور من النفوس ، وإبادة أنواع التفتن فيها من العالم البشرى . وإذا تأكدت بين قوم أحلتهم محل الصفاء ، وسارت بهم أسرع مايكون فى طريق الارتقاء ، ونقلتهم إلى دائرة الأسرة الواحدة ، فكانوا كالجسم الواحد إذا تألم منه عضو تألم له سائر الجسد .

لو تمت المحبة بين الناس لما رأيت دماً يسفك ، ولا عرضاً يهتك ، ولا مالاً يسرق ، ولما رأيت المحاكم الأهلية كالأسواق مزدحمة بكل أنواع القضايا ، ولا وجدت المحاكم الشرعية مكتظة بدعاوى الأقارب لميراثهم والزوجات لنفقاتهن .

(١) مجلة الأزهر – الجزء الأول – المجلد السادس – صفر ١٣٥٤

لو تمت المحبة بين الناس لبات كل إنسان بين أسرته على أتم مايكون من الصفاء وأكبر مايتصور من النعيم ، ولكان عيش الناس فى الدنيا أشبه شىء بعيش أهل الجنة فى الجنة .

وأظنك كثيرا ماتحركت منك الغبطة عندما ترى مابين الأسرة الفقيرة من المحبة التى جعلتهم يتقلبون فى الهناء[1] ولايحسون بالشقاء .

لو تمت المحبة بين الناس لتمت بينهم الرحمة ، فانتفع الضعيف بالقوى والفقير بالغنى والصغير بالكبير والصعلوك بالأمير ، وامتلأت الأرض خيرا وبركة .

وإجمال القول فى المحبة بعد ذلك كله أنه لولا الحب لم يتم نعيم لمتنعم . وكيف ينعم الإنسان بغير مايحب . ولهذا ترى المغنين لايكادون يغنون إلا بما يكون فيه ذكر الحب والمحبين ، ولايجد الإنسان سلوة لنفسه ولا نعيماً بقلبه إلا بتلك الذكريات اللذيذة والأوقاتِ السالفة التى قضاها فيما يحب ومع من يحب .

(١) اشتهر فى هذه الأيام التى كثرفيها الاجتهاد وشغف الناس فيها بالانتقاد أن الواجب أن يقال هناءة لا هناء . وهذا من قصور الاطلاع . فى كتاب الهمز لأبى زيد الأنصارى المطبوع ببيروت صفحة ٢٥ ما يفيد صحة ذلك وروده . وكذلك فى كتاب الفلك المشحون ليونس المكى المتوفى فى القرن الثامن صفحة١٦٣ مايفيد ذلك أيضا . ومثل هذا قول الأديب الكبير ابن نباته :

هناء محاذاك العزاء المقدما ... فما عبس المحزون حتى تبسما

وقول إمام العربية محمد بن مالك فى حروف الزيادة ذلك البيت المشهور :

هناء وتسليم تلا يوم أنسه ... نهاية مسئول أمان وتسهيل

وهو الذى قال أنى قرأت صحاح الجوهرى كله فلم أستفد منه غير كلمتين فقط . فانظر إذاً إلى ذلك التشدق الذى يكثر منه أولئك المتفيهقون .

وبالجملة فراحة الإنسان وسرور نفسه وبهجة روحه لاتكون إلا لذكر الحب وشرح الكامن فى الفؤاد المثير لعواطف مما له سلطان فوق العقل وسر يدق عن التعبير .

لهذا كله لم يرد فى الكتاب والسنة من الحث على شيء مثل ماورد فى المحبة ، علماً منه –صلى الله عليه وسلم– بأنها أساس الخير وجماع الفضائل حتى جعلها شرطا فى الإيمان ، فقال : «والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تحابوا » . رواه مسلم .

فانظر كيف جعلها شرطاً فى الإيمان ولم يكتف بذلك حتى أقسم عليه – صلى الله عليه وسلم – .

وقد ورد فى الحث على المحبة والتحذير من التشاحن والتفرق مالايكاد يحصى . «وستسمع شيئا من ذلك» ، وكأنه مرمى الدين الذى لايريد غيره .

وقد جاء فى الصحيح : «لَاتحَاسَدُوا وَلَا تبَاغَضُوا وَلَاتدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً » .

وقال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[1] . وقال : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَاتفَرَّقوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كنْتمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً)[2] . وقال مخاطباً

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣

نبيه –صلى الله عليه وسلم– مذكراً إياه تلك المنة الكبرى : (فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قلوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1] .

وَقدْ أَثْنى على قوم بقوله عز وجل : (وَالَّذِين جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمَانِ وَلَا تجْعَلْ فِى قُلُوبِنا غِلاً لِلَّذِين آمَنُوا رَبَّنا إِنَّك رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[2] وقال : (لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمرَ بِصَدقةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)[3]

وقد أمرنا بلين الكلام وإفشاء السلام ونهينا عن الخصام فوق ثلاثة أيام .

وقد جاء كل ذلك طلباً للمحبة ومحافظة على مبادئها ، رجاء أن تنتهى بالناس إلى غايتها فيزول عنهم الشقاء وتتم لهم السعادة :

فإن استطعت أن تبيت وليس فى قلبك بغض لأحد فافعل . أزل مافى قلبك من الحقد للناس كافة ، وتودد إليهم ليصفو عيشك وتطيب حياتك .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٣
(٢) سورة الحشر ، الآية ١٠
(٣) سورة النساء ، الآية ١١٤

تحبب إلى جيرانك وأقاربك بقدر ما يمكنك ، وابذل الوسع فى ذلك . « وأصل الحب التحابب » . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ » . أخرجه البخارى ومسلم . « وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ ، قِيلَ : مَنْ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : الَّذِى لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » : رواه البخارى ومسلم . وقال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ » . رواه مسلم .

صالح أعداءك ، وأرح نفسك من عناء الفكر وقلبك من تدبير السوء واربأ بعمرك العزيز أن تصرفه فى طرق العناد وأسباب الفساد :

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ؛ إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » رواه البخارى ومسلم .

أسباب المحبة

المحبة : مركوزة فى النفوس ، ولا نعيم للقلوب إلا بها ، حتى أن من ليس له محبوب مخصوص تراه عند سماع النغمات أو هبوب النسيم يئن أنيناً ويحن حنيناً ، وربما بكى تلهفاً أو سروراً إذا كان رفيع الاستعداد رقيق الفؤاد .

وهذا النعيم الذى يجده ، وتلك اللذة التى يشعر بها ، ليس منشؤها التذاذا بالأصوات واستحساناً للنغمات ، بل من أجل أن ذلك حرك من نفسه ساكناً وهيج كامناً ، وإن كان لايدرى إلى أى شىء يحن أولماذا يئن ، ولكنه مقتضى الغريزة الإنسانية والحكمة الربانية .

وليس بلازم أن نأتى على كل ما فى الأمر من سر . فيمكنك أن تهيج تلك الغريزة من نفسك ، فإن أصل الحب التحابب . ولهذا ندبنا الدين الحنيف لكل ما عسى أن يكون وسيلة لذلك من زيارة بعضنا بعضاً ، ومودة بعضنا بعضاً ، وإهداء بعضنا بعضاً ، ومصافحة بعضنا بعضاً ؛ إلى غير ذلك مما جاء فى السنة .

وقد قالوا : إن العشق فى أول أمره يكون اختيارياً ثم يصير اضطرارياً ؛ فهو بمنزلة الشراب تستطيع أن تشرب وألا تشرب ، ولكن لاتستطيع بعد ألا تسكر . ولعلك عاينت من الأسباب التى استعملتها لتحبيب بعض القلوب إليك شيئاً كثيراً .

وأما الأسباب الطبيعية للمحبة ، فأقواها التناسب بين الأرواح ، فإنها جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . كما فى الحديث : وعلى قدر ذلك التناسب يكون الحب ، وما حشر المرء مع من أحب إلا لكونهما من واد واحد . ولهذا السبب قد تتعجب من محبة بعض الناس لبعض على غير معنى فيه ، غافلا عن هذا التشاكل الروحانى الذى هو أقوى الأسباب وإن كان أخفاها ، وهو السبب الذى لايلحقه زوال ولا يعتريه اضمحلال ، وصاحبه هو المحبوب لذاته ولا علة ولا لغرض .

وأما من أحبك لإحسانك إليه ، والإحسان من أسباب المحبة — فقد تتغير محبته إذا انقطع إحسانك عنه . وربما عاداك وأضرك إذا وجد فى ذلك فائدة أكبر وثمرة أعظم متى كان خبيث الطبع لئيم النفس ، لأنه ما أحبك إلا لغرضه ، فهو مع الغرض حيث كان .

ومحبة الأزواج والأصحاب تارة تكون من قبيل المحبة التى للأغراض وقضاء المآرب وتبادل المنافع وكثرة الفوائد ، وهى المحبة التى لاتدوم ، وتارة تكون للمناسبة بين النفوس ، فلا تزداد على مر الأيام وكثرة الحوادث إلا قوة ومتانة . وهذا مما ينبغى الالتفات إليه جداً فيما بين الزوجين حتى تكون بينهما ألفة طبيعية ومحبة ذاتية ، فلا يتطرق إليها انصداع ولا يلحقها انقطاع ، وإلا تعاملوا معاملة التجار اللئام ، وذهبوا إلى المحاكم بعد قليل من الأيام .

ومما يلتحق بسبب التشاكل الذى شرحناه ما تراه من ميل الصانع إلى الصانع ، والزارع إلى الزارع ، حتى أن السارق يرتاح للسارق ، والفاسق يرتاح إلى الفاسق ، لما بينهما من الصفات المشتركة . « شبيه الشيء منجذب إليه » ، بل ذلك فى غير أفراد الانسان .

وقد قالوا : « إن الطيور على أشكالها تقع » وإن كان كثيراً مايفرق بينهم تنازع البقاء ، فيوقعهم فى الشحناء والبغضاء . وأكثر الأسباب الواقعة بين الناس مادعا إليه الغرض واقتضته الحاجة ، حتى قال أبو حيان . النحوى :

لا ترجون دوام الخير من أحـد	فالشر طبع وفيه الخير بالعرض
ولا تظن امرأً أسدى إليك يـدًا	من أجل ذاتك بل أسداه للغرض

ولهذا لاتكاد ترى محبة صادقة ، غاية الأمر أن صاحب النفس الشريفة لا ينسى ودا ، ولا ينقض عهداً ، ولكنه كثيراً ما يفعل ذلك بمقتضى إحساسه الشريف ، ومروءته الفاضلة ، لا بمقتضى الألفة والمحبة .

وأهل تلك المحبة التى غايتها المنفعة الشخصية أكثر المحبين توددا إليك وترددا عليك ومسارعة إلى امتثال أوامرك ، ولو كلفتهم نقل الصخور أو نطل البحور ، مادامت إليك حاجاتهم ولديك غاياتهم ، حتى يخيل لك فى تلك الأيام أنك ظفرت بأعظم الناس نفعاً وأرقهم طبعاً ، فإذا ظفروا بما أرادوه منك ولم يتوهموا لديك شيئاً يعود عليهم ، طاروا من حولك طيران الذباب إلى من يبتغون عنده حاجتهم ، حتى إذا نالوا منه بغيتهم فعلوا فعلتهم :

فعلى من يريد اتخاذ الأصدقاء أن يبحث عن جوهر النفوس وما لها من الصفات الذاتية والاستعدادات الطبيعية ، ولا يغتر بتلك الألوان البراقة التى يظهر بها الإنسان على حسب الحاجة ، فإنه فى ذلك أبرع من الحرباء وأروع من الثعلب « والإنسان مجمع العجائب والغرائب ومظهر المتضادات والمتناقضات » .

هذا ومن أسباب المحبة الجمال الظاهرى أو الباطنى ، وبهذا السبب قد أحببنا الأزهار والأطيار والصور الجميلة والنقوش البديعة .

فإن الجمال لا يختص بنوع الإنسان أو جنس الحيوان ، بل جمال كل شيء فى أن يصل إلى كماله الذى يراد منه ، وغايته المكنة له ،

والجمال محبوب بالطبع لذاته ، ولهذا السبب بعينه قد أحببنا الكرماء والفضلاء والعلماء .

وإياك أن تكون ممن يقصر الحب على الجمال الحسى والحسن الظاهرى ، فتنكر محبة الله تعالى حباً وجدانياً ذوقياً ، فتكون من العامة لامن الخاصة الذين فهموا قوله تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)[١] حق الفهم فلم يحتاجوا فيه إلى تجوز ولا تأويل .

على أن ذلك غريزة فى الإنسان وإن كانت تحتاج إلى التهييج فى بعض الناس الذين لم تفسد إنسانيتهم بالكلية .

وإن الذى تجده من محبة العامة لعنترة وغيره من الشجعان ، وتفانى بعض الناس فى محبة بعض العلماء والعظماء ، وارتياح النفس والتذاذها بسماع أخبار سيدنا عمر بن الخطاب فى عدله ، أوسيدنا على بن أبى طالب فى شجاعته وعلمه وسرعة بديهته وقوة حجته ، أو أخبار السموءل فى وفائه ، أو حاتم الطائى فى سخائه ، ليس إلا بمقتضى تلك الغريزة التى تفضل الجمال المعنوى على الجمال الحسى .

هذا وقد رأينا أن نسمعك بعض ماجاء فى السنة مما يناسب هذا الموضوع فنقول :

قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « مَنْ لَمْ يَرْحَمِ النَّاسَ لَايَرْحَمْهُ اللهُ » . رواه البخارى ومسلم. وعنه — صلى الله عليه وسلم — قال : « لَيْسَ

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٤

مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ الْكَبِيرَ وَيَرْحَم الصَّغِيرَ وَيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ » . رواه أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحه . وقال صلى الله عليه وسلم : « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِى غَيْرِ مَنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِى نَفْسِهِ مِن غَيْرِ مَسْأَلَةٍ ، وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِى غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ » . رواه الطبرانى .

« لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ » . رواه أبو داود واللفظ له ، والترمذى وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى : حديث حسن .

وعن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِمَا يُحِبُّ لِيَسُرَّهُ بِذَلِكَ ، سَرَّهُ اللهُ — عَزَّ وَجَلَّ — يَوْمَ الْقِيَامَةِ » رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد حسن .

وعن عائشة — رضى الله عنها — قالت : جاء أعرابى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : إنكم تقبلون الصبيان وما نقبلهم. فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ » . رواه البخارى ومسلم .

« دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِى هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ » رواه البخارى .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « دَنَا رَجُلٌ إِلَى بِئْرٍ فَنَزَلَ فَشَرِبَ مِنْهَا وَعَلَى الْبِئْرِ كَلْبٌ يَلْهَثُ ، فَرَحِمَهُ : فَنَزَعَ أَحَدَ خُفَّيْهِ فَسَقَاهُ ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » . رواه ابن حبان فى صحيحه .

« مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » رواه مسلم .

« لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . رواه مسلم .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : صعد – رسول الله صلى الله عليه وسلم – المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : « يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ : لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ » .

ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : « ما أَعْظَمَكِ وَمَا أَعْظَمَ حُرْمَتَكِ . وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ » . رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إِنَّ اللهَ لَيَعْمُرُ بِالْقَوْمِ الدِّيَارَ وَيُثْمِرُ لَهُمُ الأَمْوَالَ ، وَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ مُنْذُ خَلَقَهُمْ بُغْضاً لَهُمْ . قِيلَ : وَكَيْفَ ذَاكَ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : بِصِلَتِهِمْ أَرْحَامَهُمْ » رواه الحاكم والطبرانى بإسناد حسن .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : « أَوْصَانِي خَلِيلِي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ – بِخِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ : أَوْصَانِي أَلَّا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي وَأَنْ أَنْظُرَ

إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي ، وَأَوْصَانِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ ، وَأَوْصَانِي أَنْ أَصِلَ رَحِمِي وَإِنْ أَدْبَرَتْ ، وَأَوْصَانِي أَلَّا أَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، وَأَوْصَانِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا ، وَأَوْصَانِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

وعن حذيفة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً : تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ أَسَاءَ النَّاسُ أَسَأْنَا ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا أَلَّا تَظْلِمُوا » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن أبى بكر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ : مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ » . رواه ابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وروى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – ، رفعه ، قال : « الطَّابَعُ مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ ، فَإِذَا اشْتَكَتِ الرَّحِمُ ، وَعُمِلَ بِالْمَعَاصِي ، وَاجْتُرِئَ عَلَى اللهِ ، بَعَثَ اللهُ الطَّابَعَ فَيَطْبَعُ عَلَى الْقَلْبِ فَلَا يَعْقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا » . رواه البيهقى والبزار واللفظ له .

وعن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : قال الله – تبارك وتعالى – : « وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ

فِيَّ وَلِلْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَلِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَلِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » . رواه مالك بإسناد صحيح .

وعن زيد بن ثابت – رضى الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « لَا يَزَالُ اللهُ فِى حَاجَةِ الْعَبْدِ مَادَامَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ » . رواه الطبرانى ورواته ثقات .

وعن أنس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « لَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » .

رواه مالك والبخارى وأبو داود والترمذى والنسائى .

وعن أبى موسى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « عَلَى كل مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ . قِيلَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ . قَالَ : يَحْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ . قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ . قَالَ : يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ . قَالَ : قِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ . قَالَ : يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ . قَالَ : يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ » .

رواه البخارى ومسلم .

وسنعود للموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله .

المحبة وأنواعها (١)

ذكرنا شيئاً عن المحبة وآثارها وفوائدها وماجاء فيها. واليوم نذكر لك أنواع المحبة ونتغلغل بك فى حديثها « وأى حديث ألذ من حديث المحبة ؟ » ولسنا نقول مايقول ذلك القائل الذى يؤلمه أنه لايجد من يطارحه حديث المحبة :

ما بالديار أخو شوق نطارحه حديث نجد ولا خل نصافيه

ولنعد إلى الموضوع فنقول :

من أنواع المحبة محبة الوالد لولده . وهى تكاد تكون لا لغرض ولا علة ، لأنها من قبيل محبة الشخص لنفسه ، فإن فى بقاء ابنه نوع بقاء له . وقد ينضم إلى ذلك توهم المنفعة من الولد ؛ فهى طبيعية لايشذ عنها إلا من خرج عن مقتضيات الطبيعة .

ومنها محبة الولد لوالده . وهى تكاد تكون من قبيل محبة العلل والأغراض ، حتى أن من الأولاد من يفرح عند موت أبيه أو لايتألم لما ترك وراءه من ثروة طائلة . ولعل ابن الفقير يحزن على أبيه أكثر من ابن الغنى . وأما ماتجده من احترام الأبناء للآباء والقيام بواجبهم فمرجعه فى الغالب إلى مزيد أدب ، أو حسن تربية ، أو دفع معرة وانتقاد ، أو توهم منفعة وحصول غاية ، لا إلى مودة

---

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثانى – المجلد السادس – صفر سنة ١٣٥٤ هـ

ومحبة . ولهذا ترى القرآن الشريف قد اعتنى بوصية الأبناء على الآباء شدة الاعتناء ، وترك الآباء ينساقون نحو الأبناء بسائق المحبة الطبيعية .

فيجب على الأولاد أن يقووا فى نفوسهم محبة آبائهم ، وأن يتفكروا فيما كان لهم من إحسان لايسمح به غيرهم ، فيقابلوا المحبة بالمحبة والإحسان بالإحسان ، وأن يكرروا على مسامعهم ماجاءت به الآيات والأحاديث ، وما رسمته الأخلاق والآداب فى ذلك .

ويلزمنا أن نكتفى منهم بهذا الحب التكلفى ، حيث لم نظفر منهم بالحب الطبيعى ، وهو كافل للراحة وكاف فى الصفاء .

ولنذكر هنا ماذكره كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى : (واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صغيراً)(١) فنقول :

روى ابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : «رِضَا اللهِ تَعَالَى فِى رِضَا الْوَالِدَيْنِ وَسُخْطُ اللهِ تَعَالَى فِى سُخْطِ الْوَالِدَيْنِ» . وقد صح أن رجلا جاء يستأذن النبى – صلى الله عليه وسلم – فى الجهاد معه ، فقال : «أَحَىٌّ وَالِدَاكَ؟ قال : نَعَمْ ؛ قَالَ : فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ» . وما أحسن ماقال بعضهم :

غذوتك مولودًا ومنتك يافعا   تعل بما أجنى عليك وتنهل

(١) سورة الإسراء ، الآية ٢٤

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت   لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى   طرقت به دونى فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها   لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى   إليها مدى ما كنت فيها أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة   كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى   فعلت كما الجار المجاور يفعل
تراه محبا للخلاف كأنه   برد على أهل الصواب موكل

وكان ذلك فيما يروى بحضرة النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال : للولد «أَنْتَ وَمالُكَ لِأَبِيكَ» . كذا رواه البيهقى فى الدلائل ، والطبرانى فى الأوسط والصغير فى قصة طويلة . وروى مسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : «إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ» فى قصة جرت له مع أعرابى كان أبوه يود عمر ابن الخطاب .

محبة الأصدقاء :

ومنها محبة الأصدقاء . ولابد للإنسان من صديق يأنس به ، ويلقى عليه بعض همومه ، وقد خلق الإنسان ضعيفا ، حتى أنه لايستطيع أن يكتم مافى صدره من فرح أو ترح ، وهو على نفسه أشق من الأثقال الحسية ، فإن هذه على جسمه وتلك على قلبه :

ولابد من شكوى إلى ذى صداقة   يسليك أو ينسيك أو يتوجع

وقد قيل لبعض الحكماء : أخوك أحب اليك أم صديقك ؟ فقال : إنى لا أحب أخى إلا لكونه صديقى .

وكثيراً ماتسمعهم يقولون : إن الصديق محال الوجود . حتى إذا أردت أن تبالغ فى أمر قلت : هو من رابع المستحيلات ، وأما الثلاثة فهى مقررة معروفة لانزاع فيها :

أيقنت أن المستحيل ثلاثة   الغول والعنقاء والخل الوفى

ويقول غيره :

سمعنا بالصديق ولا نـراه   على التحقيق يوجد فى الأنام

وأحسبـه محـالاً نمقـوه   على وجه المجاز من الكلام

وهاك شيئاً مما قالوه فى هذا الموضوع ، نورده لك تفكهة أو تبصرة :

تغير إخـوانُ هـذا الزمـان   فكل خليل عـراه الخـلل

وكانوا قـديمـا على صحـة   وقد داخلتهم صروف العـلل

قضيت التعجب من أمرهم   فصرت أطـالع باب البـدل

* * *

خذ من دنا وتجاف من بعـدا   لا تكرهن على الهـوى أحدا

قد أكثرت حواءُ ما ولـدت   فإذا جفا ولد فخذ ولدا

* * *

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم   وطول اختبارى صاحبا بعد صاحب

فلم ترنى الأيـام خـلا تسرنى   مباديه إلا ساءنى فى العواقب

* * *

إنى لأفتح عينى حين أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحدا

* * *

إذا ما ضـاع منك اليوم خل   فلا تحزن عليه الدهر وافرح

فإن الخل عبءٌ أى عبءٍ   فمهما اسطعت أن تلقيه فاطرح

* * *

إذا قيل فى الدنيا خليل فقل نعم   خليل اسم شخص لاخليل وفاء

وإن قيل فى الدنيا جواد فقل نعم   جواد ركوب لاجواد عطاء

إلى غير ذلك وهو كثير . وسر ذلك أن الانسان يطلب صديقا لايتغير بحال ولايتصف بعيب ، يقدمك على نفسه ، ويتحملك فى كل ماتأتى به .

كما قال قائلهم :

إن أخا الإنسان من كان معه   ومن يضر نفسه لينفعه

ومن إذا ريب الزمان صـدعه   شتت فيه شمله ليجمعه

ومن الغريب أنه يوجب ذلك على صديقه له ولا يوجبه على نفسه لصديقه .

ولكن إذا كانت الصداقة مبنية على تشاكل فى الأرواح ، وصادفت مع هذا استعداداً حسناً ، كانت الأمنية المطلوبة والبغية المرغوبة. وإذا تكمل إيمان المرء وجدت فيه كل ما تحب من صفات الخير وسجايا الفضل ، حتى يقدمك على نفسه كما تحب ، فإنه إذا وصل إلى درجة

الكمال كان من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ولا شيء يعلى الهمة ويعظم المروءة ويورث الرحمة ويغرس فى القلوب المحبة مثل الإيمان الكامل . فإذا اشتاقت نفسك إلى ذلك الصديق فاطلبه بين المؤمنين ، فعسى أن تجده فيهم ، فهم مظان وجوده .

على أنه يلزمك أن تكتفى من صديقك بفضيلة من الفضائل ، وتغتفر له فى جانب ذلك ما يكون منه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات :

ولست بمستبق أخًا لا تلمه   على شعث أى الرجال المهذب

ولا تطلب أن يكون جامعًا لكل فضل ، مبرأً من كل نقص « وإذا كان من هذه صفاته ممن يدخل فى عالم الوجود فاجتهد أن تكون أنت ذلك الإنسان » .

فالخلاصة أنه يلزمك أن تعرف الطبائع البشرية ومقتضياتها ، ولا تطلب ما ليس فى طبع الإنسان ، وأن تكتفى ممن يكون صديقك بجهة من جهات الخير ، ثم تقبله بعد ذلك على ما فيه من عيب ، وتتحرز منه فى الجهة الأخرى « جهة الشر الذى فيه » . فإذا ظفرت بمن يغلب خيره على شره فقد ظفرت بالخير كله .

محبة الوطن :

حب الوطن يكاد يكون ألصق شيء بالنفوس ، حتى أنه ليلتحق بغرائزها المجبولة عليها . وقد قرن الله الخروج من الأوطان بالقتل فقال : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)[1] . فلولا أن حب الوطن متأصل فى النفوس ما جعل الخروج من الأوطان قرين القتل . وقال فى آية أخرى حكاية عن بنى إسرائيل : (وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا)[2] . ولا شك أن كل إنسان يجد من نفسه حنينًا إلى وطنه الذى نشأ فيه ، وشوقًا إلى تلك المعاهد التى ربى فيها ، وميلًا طبيعيًا إلى ذلك الصفاء الذى أخذ من قلبه محلاً لا تعفيه الدهور :

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو   عهودًا مضت فيها فحنوا لذالكا

ومحبة بلادك التى غمرتك بخيراتها ، ومحبة أمتك التى تسعد بسعادتها وتشقى بشقائها ليست فى الحقيقة إلا محبة لنفسك .

وإن الأمة لا تكون أمة تتمتع بحقوق الأمم الحية ، وتأمن على نفسها من الانحلال والفناء فى الأمم الأخرى ، إلا إذا رسخت فيها محبة الوطن :

وقد ندبك الدين الحنيف إلى محبة الناس كلهم والرحمة بهم ، ولكن على درجات مخصوصة وحدود محدودة . والإنسان الكامل هو من لا تختلط عليه الأمور ولا تشتبه لديه الخيرات بالشرور ، فيعرف مراتب المخلوقات ونسبتها إليه ، ومقدار قربها وبعدها من خالقها ، فيعطى كل مرتبة حقها ، وكل درجة قسطها ، ملاحظًا معاملة الله لهم ورحمته بهم ، وأنهم مخلوقاته ، فلا يجهل نسبتهم ولا يظلم رتبتهم . ومن أحب الصانع واعتقد كماله ، أحب الصنعة لا محالة .

(١) سورة النساء ، الآية ٦٦   (٢) سورة البقرة ، الآية ٢٤٦

وللأشياء جهات وحيثيات يجب أن تراعى كلها فى نظر الحكيم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ » فمن شاركك فى الإنسانية كان له عليك حق واحد وهو حق الإنسانية ، ومن شاركك فى الإيمان أيضًا فله عليك حق الإنسانية وحق الإيمان . فإن كان مع هذا أحد من ينتمى إليك بالقرابة ، كان له عليك حق القرابة أيضًا فإن انضم إلى ذلك كونه جارًا لك انضم إلى تلك الحقوق حق رابع ، وهكذا .

وأهل تلك الدرجات متفاوتون أيضًا ، فمن كان أقرب إليك كان أعظم حقا عليك ، ومن كان ألصق بك من جيرانك كان أوجب مراعاة من غيره ، ومن صنع معك خيرًا من أولئك الأقارب أو الجيران كان حقه عليك آكد ممن سواه : « من صنع معكم معروفًا فكافئوه » (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ) . فإذاً أهل وطنك لهم عليك حقوق كثيرة ، وواجبات عديدة ، على حسب ما شرحنا . ولعلك من أوسع الناس علمًا بهذا الموضوع « موضوع محبة الوطن » فلنقتصر منه على هذا.

ولكن لا بأس بعد ما تقدم أن نسوق إليك فائدة أخرى : وهى أن الإنسان إذا لم يكن بين من يميل إليهم من أشكاله فهو غريب وإن كان فى وطنه ، فإن معاشرة من ليس بينك وبينه مناسبة أثقل على الأرواح من كل شيء . وقد قالوا : إن حمى الروح مجالسة الثقيل الذى يباينك وتباينه ، وأنشدوا فى ذلك :

وما غربة الإنسان فى البعد والنوى ... ولكنها فى قرب من ليس من شكلى
وإنى غريب بين بست[1] وأهلها ... وإن كان فيها موطنى وبها أهلى

(١) بست بالفتح : واد بأرض أربل ، و بالضم بلد بسجستان . كذا فى القاموس .

محبة الله عز وجل :

قد سبق لك أسباب المحبة*، وأن كل سبب منها يوجب المحبة على انفراده ، وإن كان بعضها أقوى من بعض . فإذا أمكن أن تجتمع هذه الأسباب كلها فى شيء واحد ، وجب أن تكون محبته أتم أنواع المحبة وآكدها وأشدها ، ولا يتصور ذلك على الحقيقة إلا فى الله تعالى، كما ستعلم : (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)[1] . فإذا نظرت بعين التحقيق وصادفك نور التوفيق ، وجدت كل سبب من الأسباب المتقدمة يقضى عليك بحب الله تعالى ، بل إذا دققت النظر وأمعنت الفكر ، ورقت كثافة حجابك وعلوت عن أرض طبيعتك ، وترقيت عن درجة المحسوسات التى يشاركك فيها جميع الحيوانات ، إلى أفق قلبك ، وأشرقت عليك شمس بصيرتك ، وجدت المستحق للمحبة على الحقيقة إنما هو الله تعالى دون غيره .

فإذا كان الإحسان يقتضى محبة المحسن ، فلا إحسان كإحسانه تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا)[2] فبإحسانه عليك فى إفاضة وجودك ، وإعطائك ضرورياتك وحاجياتك وكمالياتك: من عقلك ، وسمعك ، وبصرك ، وذوقك ، وجميع حواسك وصفاتك الظاهرة والباطنة وأنواع النعم الخارجة عن ذاتك ، مما تندفع به ضرورتك ، أو تزول حاجتك ، أو تتم به لذتك هذه الإحسانات الفائضة والمنن المتواترة ، لا تكاد تحصى أصنافها فضلًا عن جزئياتها .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٥

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤

ولو نظرت إلى نعمه المودعة فى الهواء أو الماء ، أو نور الشمس والقمر وخلق الليل والنهار ، لانقطعت أثناء سيرك ولم تفز إلا بقدر يسير منها ، بل لا إحسان فى الحقيقة إلا له تعالى ، فإن من أنعم عليك من الخلق بشىء فإنما يقصد نفع نفسه بارتفاع الصيت وجميل الثناء أو حسن الجزاء ، فهو فى الحقيقة بائع أخرج من يده شيئًا ليعتاض عنه ما هو أعز منه عنده عاجلًا أو آجلًا .

ولا يتصور الإحسان الحقيقى الذى لا يقصد به عوض إلا من الله تعالى . على أنه هو الذى سخر لك قلب ذلك المحسن ، وأودع فيه محبتك ، أو الشفقة عليك ، أو رجاء الخير من الله ، أو من الناس بمساعدته إياك . ولو شاء لعكس كل ذلك وصرف قلبه عنك ، وألقى فى روعه ما ينفره منك « والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن » ،

فإن كنت تحب أحدًا لأجل إحسانه فاعرف المحسن الحقيقى ، ولا يكن نظرك كنظر الحيوان يحب سائسه الذى يقدم له العلف ، ولا يحب مالكه الذى أمر السائس وأعطاه على ذلك أجرًا .

وإن كنت تحب وجود نفسك وبقاءها وكمالها ، فأحب من أعطاك ذلك كله من غير أن تسأله . بل كان فى تدبيرك من قبل وجودك ، وقد أعطاك من كمال الخلقة الظاهرية والباطنية ما لا يمكنك أن تهتدى إليه حتى تطلبه منه .

وإن كنت تحب أحدًا من أجل صفاته الجليلة ونعوته الجميلة كما تحب الملوك العاملين أو الفضلاء الكاملين وإن لم ترج خيرهم والانتفاع

بهم ، فأحب خالق الكمال والجمال الذى تنزه عن كل نقص ، واتصف بكل صفات الكمال ، التى لا يصل إليها العلم ولا يحيط بها العقل ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » .

وإن كل من تحبه لهذا السبب فإنما تحبه لصفات معدودة وكمالات محدودة . فلتكن واسع النظر ، نافذ البصيرة ، عالى الهمة ، عظيم العلم ، كبير الفهم ، حتى تحب من لا تعد صفاته ، ولا تنتهى كمالاته . ولا تكن كالصبيان لا يمكنهم أن يحبوا من طبقات الناس إلا أسفلها وأدناها ، دون أشرفها وأعلاها . وأنت مستعد لإدراك الجمال المعنوى والكمال الإلهى ، وهى خاصتك التى امتزت بها عن سائر الحيوان . وعلى قدر ذلك تلتحق بالملائكة ويتحقق فيك روح الإنسانية .

وكل من بطلت فيه خاصة نوعه فليس فى الحقيقة من ذلك النوع ؛ لأن النوع لا يوجد بدون خاصته على الحقيقة ، فهيج من نفسك الشوق إلى تلك المعارف التى هى ألذ من كل شىء ، ولا تمت تلك الحاسة الباطنية التى هى أعلى حواسك وأشرف مزاياك .

فلذة العلم عند ذويها فوق اللذائذ كلها ، لأنها لا توجد إلا فى سماء الإنسانية دون أرض الحيوانية . واللذائذ مرتبة على حسب درجات العوالم ، ولذة العلم بعد ذلك على قدر ما تدرك من شرف المعلوم . فليس علمك بأسرار الملك وشئونه فى مملكته كعلمك بأحوال رجل من السوقة . فإذا يكون العلم بأشرف المعلومات ألذ العلوم .

وليس هناك أجل من الله تعالى الذى لا يثنى عليه حق ثنائه غيره ، ولا يحيط بكماله سواه .

فطهر قلبك من أدناس الرذائل كلها ، وهيئه لغرس تلك المحبة التى هى أتم اللذات وأكبر السعادات ، وهى مطلب قلبك لو كان باقيًا على صحته ، ومأرب روحك لو لم تتشعب بها الطرق وتظلها الأهواء (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[1] . وإلا فأنت المخاطب بقول القائل :

لديك جمال الجامدات فهم بها ... إذا كنت ميالًا إلى الصور الخرس

هذا ويجمل بك ها هنا أن تعرف أن المحبة أنجع وسيلة إلى تهذيب الأخلاق وتكميل النفوس ، بل إن شئت فقل إنها تقلب الطباع وتغير الحقائق : فتجعل الشحيح من أسخى الأسخياء ، والجبان من أشجع الشجعان . فإذا اتفق لك أنك وصلت إلى حد الكمال فى محبة الله تعالى ومحبة رسوله ومحبة الكاملين من أمته ، سارعت إليك الكمالات ، وترادفت عليك الخيرات ، وانطبعت فى مرءاة قلبك صفاتهم ، فتبدلت منك الرذائل بالفضائل : وعلى قدر المحبة يكون انطباع صفات المحبوب فى نفس المحب :

وقد عرفوا المحبة بأنها استهلاك الصفات فى الصفات ، وفناء الإرادات فى الإرادات :

فلم تهونى ما لم تكن فى فانيـًا ... ولم تفن ما لم تجتل فيك صورتى

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

وقد عرفت أيضًا بأنها نار تحرق من قلب المحب الميل إلى ما سوى المحبوب :

وحـد القلب حبـه فالتفاتى ... لك شرك ولا أرى إلا شراكا

وناهيك بمن وصل إلى تلك الدرجة من محبة الله تعالى ومحبة رسوله : كيف تترادف عليه البركات ، وتغمره الفيوضات ، فيستحق من الكرامة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

واذكر هنا قوله — صلى الله عليه وسلم — : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » . واعرف شرف تلك المعية وما لذويها من الدرجة العلية . فالحب أكبر وسيلة من وسائل الخير والكمال . كما أنه أعظم ذرائع الفساد أن تعلق بغير ذلك . فهو ترياق نافع ، وسم ناقع ، على حسب ما يتعلق به من المحبوبات . ويكفيك هذا التلميح . والله يتولى هداك .

حكم الصرف من أموال الزكاة(١) على المستشفيات ونحوها

حضرات الأفاضل كبار هيئة العلماء بالأزهر الشريف حرسهم الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : فإننا نرفع إليكم بحقائق واقعة نرجوكم الإفتاء فيها ، لازلتم للمسترشدين أهلاً ، وهى :

١ – إن فى عدن مستشفى كبيراً هو المستشفى الأهلى تعالج فيه جميع المرضى على اختلاف لغاتهم وأديانهم والمسلمون فيه هم الأكثرية الساحقة . والواقع أن مرضى اليهود والمجوس والهندوس لا يعتمدون فى أقواتهم وأسباب راحتهم على المستشفى ، بل إن جمعياتهم الخاصة تواسيهم وتوفر لهم القوت اللازم والملابس وغير ذلك من أسباب الراحة ، وتشترى لهم حتى الأدوية التى لا توجد فى المستشفى ، مع أن المسلمين لا يواسيهم أحد لا بالقوت ولا الثياب ولا شىء غيره ، بل لا مفر لهم من استعمال مايقدمه المستشفى وهو قوت لايسمن ولا يغنى . وهكذا يذهب أكثر مرضى المسلمين ضحية الإهمال .

ومع هذا فالمستشفى يقوم بتكفين الموتى وغسلهم ودفنهم بصورة غير مرضية ، والكفن مثلاً الذى يعطيه المستشفى يكون دائماً غير كاف لستر الميت . وهكذا فضلاً عن الغسل والدفن .

٢ – النساء من أرباب العائلات الفقيرة يفضلن الموت على المعالجة أو التطبيب فى المستشفى الأهلى بحجة أن الرواقات المعدة فى المستشفى

(١) مجلة الأزهر – الجزء الأول – المجلد السادس – محرم ١٣٥٤

لا تضمن لهم الراحة وحفظ التقاليد والحجاب اللازم ، حيث يحشر ..وبر كل مريض بجانب الآخر . ولهذا ولما سنعرضه على فضيلتكم يمكن تطبيب النساء وأرباب العائلات على أيدى الأطباء والممرضات الماهرات بدلاً عن تحمل الآلام ، والبقاء من دون علاج فى بيوتهن ، وقد أودى بأرواح كثيرة وجعل النساء عرضة لدجل الدجالين والمشعوذين .

٣ – لايوجد فى عدن مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين ، ولهذا انتهزت الفرصة جمعية التبشير الدنماركية وفتحت لبنات المسلمين مدرسة يتعلمن فيها القراءة والتطريز والخياطة ، وهناك يتشربن المبادئ المسيحية ويخرجن عن تعاليم الإسلام . ولهذا ترانا بحاجة ماسة إلى تأسيس مدرسة للبنات فى عدن نجلب لهن المعلمات الصالحات المسلمات من الخارج ؛ وننقذ أمهات المستقبل من حالة إذا استمرت تقضى على العقائد الإسلامية قضاء مبرماً .

مما ذكر يظهر لكم سادتى أن مسلمى عدن بحاجة إلى مالية يصرفون أو يواسون منها المرضى من الفقراء فى المستشفى الأهلى ، ويعمرون منها بيوتا خاصة للنساء وأرباب العائلات حول المستشفى ، تضمن لهم الراحة والسكينة ، وتحفظ لهم تقاليدهم الإسلامية ، وأيضاً يقومون بتأسيس مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين اللاتى هن الآن تحت تأثير المبشرات المسيحيات .

المالية المنشودة غير متيسرة ، والأغنياء وأهل الثراء لايتبرعون بالمال لهذه المشروعات الحيوية المهمة .

وهكذا أصبح المسلمون والمسلمات بحالة تعسة محتقرين فى أعين الأجانب ، مع أن الطوائف الأخرى تقوم بكل هذه المشروعات والأعمال نحو أبناء وبنات ملتهم كالإفرنج واليهود والمجوس والهندوس . بل لكل طائفة مستشفاها ومدرستها وملاجئها الخاصة .

أما نحن ونحن أهالى البلدة فلسنا إلا كالمتشردين ومرضانا فى الأزقة والمستشفيات بلا راع ولا ذى مروءة يواسيهم ، حالة والله تدمى الفؤاد وتفتت الأكباد .

لما وصلت الحالة إلى هذه الدرجة من الخذلان فكر جماعة من أهل الخير فى تعيين لجنة إسلامية تؤلف من أغنيائها ووجهائها ، وقصد اللجنة هذه أن تأخذ قسطاً من أموال الزكاة المفروضة على المقتدرين من المسلمين حتى تجمع المال ليصرف فى مصالح الفقراء والمساكين فى هذه البلاد فى حدود المشروعات الثلاثة المذكورة آنفا ولو تدريجيا .

فالرجاء من هيئة العلماء الأعلام فى الأزهر الشريف أن يفتونا فى المسألة . وهل يجوز أخذ الزكاة أو قسط منها لهذه الأغراض المهمة ؟ .

أرجو أن تنشروا السؤال مع الجواب على صفحات (مجلة الأزهر) التى كساها الله نوراً على نور ، لما تنشرونه فيها من الدرر الغاليات ، والجواهر المثمنات ، والحكم البالغات ، وقد طهرتموها من الحشو واللغو والهذيان . جزاكم الله خير الجزاء ، ونفع بكم العباد ، آمين .

احمد محمد العدنى

الجواب

إن حال المسلمين اليوم يذيب الفؤاد ويفتت الأكباد على ماشرحه السائل : تخاذل وانحلال وتأخر واضمحلال واختلال واعتلال وهبوط وسقوط وجمود وخمود الخ .

ولاغرو فقد اشتغل كل منهم بنفسه ، فلا يعنيه إلا منفعته الذاتية ومصلحته الشخصية ، فلا يهتم بأمر أخيه المسلم ، ولايفكر فى مصلحة أمته ولامنفعة مواطنيه ولامجد بلاده . ضاقت الأنظار واختلت الأفكار وذهبت الرحمة من النفوس ، وأقفرت القلوب من الإخلاص والرءوس من التفكير .

وما كان ينبغى ذلك لقوم أمروا أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الجسد . وقد كنا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها ، وكان الناس يدخلون فى دين الله أفواجا لما يرون فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وما يتجلى فيه من ارتباط القلوب وتآلف النفوس ، فقد أورثهم الإيمان المحبة التى جعلتهم إخوة يتراحمون عند الشدائد ، ويتعاطفون لدى الكوارث .

و «لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ قَلْبِ شَقِيٍّ» كما فى الحديث الصحيح ، فأصبحنا وقد اشتغل كل بنفسه وصار لايعنيه إلا شخصه ، فتقطعت الروابط بينه وبين إخوانه المسلمين ، فلم يشاركهم فى أية مصلحة يعود نفعها على الأمة . وقد غلبت عليه محبة الذات ، فتفتحت له طرق

الاحتيال فيما يعود على شخصه بما يحب من الشهوات مما يظنه سعادة وفلاحة ، وخيل له أن ذلك استقلال ونهضة ورقى وتقدم ، فأضاع بذلك مصلحته ومصلحة أمته ، وقضى على مجده ومجد بنى جلدته . أو نقول : كانت النتيجة كهذه النزعة الحمقاء استقلال الأفراد واستعباد الأمم . وأنها لنفثة مصدور . فلنتكلم فيما يريد السائل ، فنقول :

لايسع العارف بروح الشريعة ونظرها البعيد وحكمتها السامية إلا أن يفتى بجواز صرف الزكاة فى تلك المشروعات الخيرية التى ذكرها السائل ، فإن الشارع قد راعى فى مصارف الزكاة مصلحة الدين ، ومصلحة العباد ، وحاجة الفقراء والمضطرين والمحتاجين .

ولم يفت ذلك علماء الأمة وأئمتهم من السلف والخلف – رضى الله عنهم – ، فقد ذهب كثير إلى أنه يجوز أن يصرف سهم (سبيل الله) إلى الحج وإعانة الحجاج من المسلمين .

يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن . وإليه ذهب أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ، لأن الأمر على ماقال بعضهم من أن اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط . وقد أجاز بعض الفقهاء صرف سهم (سبيل الله) إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك ، لأن قوله : (وَفِى سَبِيلِ اللهِ)[1] عام فى الكل فلا يختص بصنف دون غيره .

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٠ .

وعلى أن من ذكرهم السائل فى سؤاله داخلون فى الفقراء والمساكين ، فإن أولئك المرضى الذين بين سوء حالهم وتلك السيدات اللاتى يلحقهن من الضرر ما ذكر المستفتى هم من جملة الفقراء بلا شك . والجماعة التى تأخذ الزكاة لتقوم بتلك المصالح وتنظمها وتجعلها على قاعدة ثابتة نافعة وترسم لها خطة تضمن لها البقاء والمنفعة ، هذه الجماعة كأنها وكيلة عن أولئك الفقراء تقوم برعايتهم وإصلاح شئونهم نيابة عنهم حيث تعذر قيامهم بذلك لأنفسهم . ولو فرضنا أن هناك فقيراً تعذر تسليمه الزكاة لجنونه مثلاً أو لغير ذلك لم نتوقف فى جواز إعطاء الزكاة لوليه والقائم على أمره . فهكذا هنا . والعبرة فى الأمور كلها بمقاصدها وغاياتها .

هذا ما تقتضيه روح الشريعة وترشدنا إليه مراميها التى محورها الذى تدور عليه إنما هو الحقائق والمصالح . ولا يمكننى أن أفتى بغير هذا .

غير أنى قبل إلقاء القلم لا بد أن أوصى بانتقاء تلك الجماعة من المخلصين الأتقياء الذين يخافون الله ويراقبونه فى السر والعلانية مع النظر البعيد والتدبير الحكيم . وليكن القانون فى ذلك واضحاً جلياً غير قابل لتأويل المؤولين ولا احتيال المحتالين . والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه .

حكم صلاة الجمعة فى البيوت (١) وفى المساجد المتعددة

جاء إدارة المجلة سؤال يقول فيه مرسله :

يوجد ببلدتنا أسرتان لهما مسجد واحد تقام فيه صلاة الجمعة ، وقد حصل بين الأسرتين شقاق أدى إلى منع إحداهما من أداء فريضة الجمعة فى المسجد المذكور .

فأدت الأسرة الممنوعة فريضة الجمعة فى ديوان لهم جعل للضيوف ، واتفقت كلمتهم على أن يؤدوا دائماً فريضة الجمعة فى هذا المكان .

فهل صلاتهم صحيحة أم باطلة ؟

محمد الليثى عيسى
الريس بالأقصر

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فمن شروط صحة الجمعة فى مذهب مالك — رضى الله عنه — المسجد ، فلا تصح عنده إقامتها فى البيوت ولا فى الفضاء ، ولا تقام فى البلد الواحد إلا فى مسجد واحد . فلو تعددت المساجد لم تصح إلا فيما أقيمت فيه أولاً وهو المسمى بالعتيق عند المالكية .

وقد أجيز إقامتها فى مسجد آخر مع العتيق لأسباب مبسوطة فى كتب المذهب ، منها خوف حدوث فتنة بين طائفتين من أهل البلد

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثانى — المجلد السادس — سنة ١٣٥٤

لو اجتمعوا فى المسجد العتيق ، فإذاً يجوز لكل طائفة أن تصلى فى مسجد على حدة ، وتصح الجمعة فى المسجدين ما دامت العداوة قائمة .

الخلاصة

إن الأسرة التى منعت من إقامة الجمعة فى مسجد البلد « فى صورة الاستفتاء » إذا أمكنهم رد العائلة المانعة بطريق الحاكم أو بأية طريقة ودية بحيث تكون الفتنة مأمونة ، وجب عليهم سلوك هذا الطريق وصلوا معهم الجمعة . فإن عجزوا ففى المسألة تفصيل : حاصله أنهم إذا قدروا على إنشاء مسجد آخر بالبلد وجب عليهم إنشاؤه وسقطت عنهم الجمعة حتى يتموا . فإن عجزوا عن ذلك أيضاً سقطت عنهم الجمعة بتاتاً ، لأن من شرط وجوبها القدرة على المسجد .

هذا وقد علم مما قدمناه أن جمعتهم التى أدوها فى محل الضيوف باطلة ، ويجب عليهم قضاؤها ظهراً ، وألا يعودوا إلى صلاتها فيه مرة أخرى ، لأن الإقدام على العبادة الباطلة لايجوز شرعاً . والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه .

الرحمة (١)

الرحمة من أشرف الخصال وأكرم الأخلاق ، وأن الله لايحب شيئا مثل مايحب الرحمة والتواضع ، ولا يكره شيئاً مثل ما يكره القسوة والكبرياء .

وقد ورد فى الحديث الصحيح : « ارْحَمُوا مَنْ فِى الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّماء » . وذكر (من) التى للعاقل ها هنا لتغليب الأشرف على غيره .

وإياك أن تفهم من ذكرها أنك لست مأمورًا إلا برحمة النوع الإنسانى فقط ، فإنك مأمور بالرحمة لكل ذى روح .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « فِى كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ صَدَقَةٌ » . وإذا كانت امرأة قد دخلت النار من أجل هرة حبستها كما فى الحديث الصحيح ، فلا غرو أن تدخل الجنة من أجل هرة ترحمها .

وقد ورد « إِنَّ اللهَ رَحِيمٌ ، وإِنَّمَا يَرْحَمُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ » ، ويقول الله تعالى فى الحديث القدسى : « سَبَقَتْ رَحْمَتِى غَضَبِى » .

وليس ذلك الحنان الذى تراه فى قلوب الآباء والأمهات فى أفراد النوع الإنسانى وسائر أنواع الحيوان مما يسوقهم سوقاً اضطرارياً إلى تعهد الولد ومراعاته فى كل ما يجب له ، ولا تلك الشفقة التى تجدها

(١) مجلة الأزهر — الجزء الثالث — المجلد السادس — سنة ١٣٥٤

من نفسك إذا رأيت مظلوماً ضعيفاً أو فقيرًا بائساً ، إلا أثرًا من آثار تلك الرحمة الإلهية .

ومواساة الإخوان والجيران والشفقة على الفقراء والضعفاء من أفضل الأعمال التى حث عليها الدين وندبت إليها الشريعة .

وكل ذلك من آثار الرحمة الإلهية التى قامت بها السموات والأرض. ولا محل ها هنا لتفصيل رحمته تعالى بك وفضله عليك بجرى البحار وتفجير الأنهار وتيسير الأنوار وخلق الليل والنهار وإنبات النبات وبقية الآيات وأنواع النعم المتواترات .

وقد قال تعالى : (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (١) .

وبالجملة ففيك من الإنسانية على قدر مافيك من الرحمة . وعلى قدر ما فيك من القسوة يكون بعدك من الله وإنسلاخك من الإنسانية ، فإنك لا تتكمل إلا إذا انفعلت نفسك بالكمالات ومكارم الأخلاق المرة بعد المرة ، وعلى قدر لين قلبك وسرعة تأثرك يكون قبولك لتلك الكمالات .

وأما ذلك القلب القاسى الذى لا ينفعل ولا يتأثر ، فإنه بعيد من الكمال جدًا ، حيث كان غير مستعد للانفعال ولا قابل للنقش فيه .

(١) سورة الروم ، الآية ٥٠

وإن من القلوب قلوباً كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . ومن كان بهذه الصفة فهو شقى فى الدنيا والآخرة ، ممقوت لدى الله والناس .

وقد قرر الفلاسفة أن الإنسان قد ينحط إلى دركات هى أسفل من كل المراتب التى فيها أنواع الحيوان ، وإذًا لا يكون إنساناً إلا فى صورته :

وقد قال بعض الحكماء : إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان . وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) [١] . ويقول : (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [٢] .

ولا يمكنك أن تصل إلى درجة الكمال إلا إذا لم تكن من ذوى القلوب القاسية والنفوس الجامحة .

الخلاصة

إنه لو اتصف الناس بالرحمة لكانوا كاملين فى إنسانيتهم ، فلم يفعلوا فعل الوحوش الضارية بإخوانهم وبنى نوعهم .

(١) سورة التين ، الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦

(٢) سورة العصر .

لو تمت الرحمة فى النفوس لما التهمت الأمم القوية الأمم الضعيفة ، ولما فعلت بهم مالا تفعله أقوى الحيوانات بأضعفها . على أن الحيوان لا يفترس أبناء نوعه مهما كانت وحشيته وشراهته .

لو تمت الرحمة فى الأغنياء لما مقتتهم الفقراء ، ولو تمت الرحمة فى القضاة لما تأخرت القضايا السنين الطوال ، ولا لحق أربابها شديد النكال وعظيم الوبال .

ولو تمت فيك الرحمة لدعا لك جيرانك وأثنى عليك إخوانك . ولو تمت الرحمة فيك لبذلت النصح للعامة والخاصة إخلاصاً لهم وإشفاقاً عليهم « وَالدِّينُ النَّصِيحَةُ » . ولو تمت فيك الرحمة لأشفقت على القريب والبعيد ، ورحمت المبتلى والمعافى والإنسان وغير الإنسان

بل نقول : لو تمت فيك الرحمة لكنت من المرحومين الذين يشفقون على أنفسهم فلا يورطونها فى الهلكات ولا يجلبون عليها أعظم الآفات ، ويحرمونها من أفضل أنواع السعادات .

وإجمال القول : أنه إذا استقام هذا الأصل للإنسان فى الدين ، استقام له سائره ، ففاز بخيرى الدنيا والآخرة . فأزل – يرحمك الله – من نفسك القسوة ، وكن رقيق الفؤاد ، ولا تكن من غلاظ الأكباد . فالراحمون يرحمهم الرحمن .

وما أحسن قول ابن حجر المكى فى هذا الموضوع :

إرحم عباد الله يرحمك الذى ... عم الخلائق جوده ونواله

فالراحمون لهم نصيب وافر ... من رحمة الرحمن جل جلاله

وقل الحافظ ابن عساكر :

بادر إلى الخير ياذا اللب مغتنما	ولا تكن عن قليل الخير محتشما
واشكر لمولاك ما أولاك من نعم	فالشكر يستوجب الإقبال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وارعهم	فإنما يرحم الرحمن من رحما

وقال غيره :

من يرحم الخلق فالرحمن يرحمه	ويكشف الله عنه الضر والبأسا
فنى صحيح البخارى جاء متصلا	لا يرحم الله من لا يرحم الناسا

ولا بأس أن نذكر لك كلمة وجيزة عما جاء فى السنة من الحث على الرحمة ، فنقول :

روى البخارى فى الأدب المفرد وأحمد وأبو داود والترمذى وآخرون عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ارْحَمُوا مَنْ فِى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فى السَّمَاءِ » (لك أن تقرأ يرحمكم بالجزم جواباً للأمر ، والرفع على أنه جملة دعائية) .

وروى الشيخان هذا الحديث عن أسامة بن زيد بلفظ « إِنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ » . ومن ذلك ماروياه عن أبى هريرة أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : « مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ » .

وروى أحمد عن جابر « مَنْ لَا يَرْحَمْ لايُرْحَمْ ، وَمَنْ لَا يَغْفِرْ لَا يُغْفَرْ لَهُ » .

ومنها ما رواه الشيخان عن جرير أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمْهُ اللهُ » وروى الإمام أحمد وعبد

ابن حميد فى مسنديهما والطبرانى وغيرهم بسند جيد عن ابن عمر موقوفا ومرفوعاً « ارْحَمُوا تُرْحَمُوا وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ ، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » . وأخرج أبو داود والترمذى عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِىٍّ » .

وعنه أيضاً قال : قبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الحسن بن على — رضى الله عنهما — وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم . فنظر إليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم قال ، « مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ » أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى :

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : « لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسك بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له . قالوا يا رسول الله : وان لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : « فِى كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » . أخرجه الشيخان فى الصحيحين ومالك فى الموطأ .

وعن ابن عمر — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِى هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ

مِنْ خَشَاشِ(1) الأَرضِ » أخرجه الشيخان . وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إِنَّ الرِّفْقَ مَا كَانَ فِى شَىْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا نُزِعَ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا شَانَهُ » أخرجه مسلم وأبو داود . وعن جرير – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » أخرجه مسلم وأبو داود . وعن أبى موسى – رضى الله عنه – قال : كان النبى – صلى الله عليه وسلم – إذا بعث أحداً فى بعض أمره قال : « بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا » . أخرجه أبو داود .

هذا وقد رأينا لأبى السعود عند قوله تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا)(2) ، وما النعمة إلا أثر من آثار الرحمة ، عبارة جليلة تروق ذوى الأفهام ، فأحببنا أن نذكرها لك فى هذا المقام ، لتعرف نعم الله عليك ورحمته بك ، فتجعل شكر تلك النعم التى لاتحصى رحمة عباد الله والشفقة على خلق الله ، فكما تدين تدان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ .

وهاك عبارة أبى السعود :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ) التى أنعم بها عليكم (لَا تُحْصُوهَا) لاتطيقوا حصرها ولو إجمالا ، فإنها غير متناهية ، كيف لا وما من فرد من أفراد الناس وإن كان فى أقصى مراتب الفقر والإفلاس ممنواً بأصناف البلايا ، مبتلى بأنواع الرزايا ، فهو بحيث لو تأملته ألفيته

(1) خشاش الأرض : هوامها وحشراتها .
(2) سورة ابراهيم ، الآية ٣٤

متقلبا فى نعم لاتحد ، ومنن لا تحصى ولا تعد ، كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطة الإمكان . وإن كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك ، ملك أقطار العالم ودانت له كافة الأمم ، وأذعنت لطاعته السراة ، وخضعت لهيبته رقاب العتاة ، وفاز بكل مرام ، ونال كل منال ، وحاز جميع ما فى الدنيا من أصناف الأموال من غير ند يزاحمه ، ولا شريك يساهمه ، بل قدر أن جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر ، قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم ، فى حالة بلغت منها نفسه الحلقوم ، فهل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه أو شربة ترويه ، أم يختار الهلاك فتذهب الأموال والأملاك بغير بدل يبقى عليه ولا نفع يعود إليه ؟ كلا ، بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ماكان ، وليس فى صفقته شائبة الخسران . فإذاً تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بألف رتبة ، مع أنهما فى طرف الثمام ، ينالهما من شاء من الليالى والأيام . أو قدر أنه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ماخرج ولاخرج منه ما ولج ، والحين قد حان ، وأتاه الموت من كل مكان ، أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد ؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد . فإذاً هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها ، مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالى والأيام ، حال اليقظة والمنام . هـذا من الظهور والجلاء بحيث لايكاد يخفى على أحد من العقلاء . وإن رمت العثور على حقيقة الحق ، والوقوف على كل ماجل من السر

ودق ، فاعلم أن الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائعة ، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العنايات الإلٰهية من العلاقة لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار ، إلا فى مطمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار . لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس ، تعالى شأنه وتقدس ، فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى ، من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية مالا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلم به إلا العليم الخبير .

وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداءً لا يستحقه بقاءً ، وإنما ذلك من جناب المبدىء الأول – عز وجل – فكما لا يتصور وجوده ابتداءً ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلى ، لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء ، لأن الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبى .

وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التى هى علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهية لوجوب تناهى مادخل تحت الوجود ، لكن الأمور العدمية التى لها دخل فى وجوده ليست كذلك ، إذ لا استحالة فى أن يكون الشىء أحد موانع غير متناهية ، وإنما الاستحالة فى دخولها تحت الوجود . فارتفاع تلك الموانع التى لا تتناهى أعنى بقاءها على العدم مع إمكان وجودها فى أنفسها فى كل آن من آنات وجوده ، نِعمٌ غير متناهية حقيقة لا ادعاءً ، وكذلك

فى وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً ، وكذلك فى كمالاته التابعة لوجوده .

فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعماً لا تتناهى من وجوه شتى . فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك ، لا تلاحظك العيون بأنظارها ، ولا تطالعك العقول بأفكارها ، شأنك لا يضاهى وإحسانك لا يتناهى . ونحن فى معرفتك حائرون ، وفى إقامة مراسم شكرك قاصرون . نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك ، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك ، لا نحصى ثناءً عليك ، لا إلٰه إلا أنت ، نستغفرك ونتوب إليك » . انتهى .

ولنقتصر على هذا ، ولعل فيه مقنعاً وكفاية لمن أراد أن يسعد نفسه وتسعد به أمته . جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه بمنه وكرمه .

مسألة فى القراض (١)

جاءنا من الكويت ما صورته بعد الديباجة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

أما بعد : فما قول العلماء الأعلام ، هدى الله بهم الأنام ، فيمن دفع كمية من الدراهم باسم القراض لعامل يعمل فيها على طريق المضاربة ، فاستمر العامل يعمل فيها قدر أربع عشرة سنة ، وكل سنة يدفع العامل لرب القراض قسطاً من الدراهم . وفى يوم من الأيام جاء رب القراض للعامل وطلب منه أن يدفع له مبلغاً من رأس المال ، فقال العامل : ليس عندى شىء أدفعه لك الآن ، فقال رب المال : أين ذهب المال ؟ فقال : عندى مال ولى على الناس ديون وللناس علىّ أيضاً ديون ؛ فطلب رب القراض من العامل أن يطلعه على الدفاتر ، فلبى العامل دعوته . فقاما من الدكان قاصدين البيت لأجل النظر فى الدفاتر ، فبينما رب القراض يمشى أمام العامل إذ وقع بصره على ابن العامل يحمل صرة من الدراهم ، فلما رآه أراد أن يتوارى عنه ، فأمسكه فى الحال وأخذ الصرة منه ، فقال الولد : هذه الدراهم أمانة لفلان وضعها عندنا وليست لنا ، فلما جاء العامل قال : هذه ٨٠٠ روبية لعمرو وضعها عندنا أمانة قبضت باسمه (عمرو) من خالد . فلما عدت وجدوها ٩٠٠ روبية ، فسألوا العامل عن المائة الزائدة فقال : وضعتها عليها من الصندوق

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثالث – المجلد السادس – سنة ١٣٥٤

حين أردت إخراجها منه : فلما كشفوا على الدفتر وجدوا مقيداً فيه : عندى لعمرو ٨٠٠ روبية مقبوضة من خالد ، فكأن قبضها من خالد ثابت عن الجميع : رب القراض وغيره .

ومن الغد رفع الأمر للحاكم ، فحجر عليه . وبعد الحجر عليه أقر (العامل) أمام رجلين من التجار الذين لهم عليه بعض الطلب : إنما هى عندى لأنتفع بها ، وهم من المعتبرين . مع أنه ينكر ذلك ويقول : إنما كنت أقول : ما قدرت أن أنتفع بها .

هذا صورة الواقع : فهل تعيين العامل الأمانة قبل الفلس يقبل فيختص بها دون الغرماء ، أم لا يقبل فيكون أسوة الغرماء ، مع أن الذى وجد فى يد العامل بعد الحجر يزيد على الديون الخارجة عن القراض ، ويكون الباقى من القراض إذا أضيف إلى الذى دفع لرب القراض باسم المصلحة خلال السنين الماضية يزيد على رأس المال بكثير ؟ وهل إقرار العامل بعد الحجر أمام الرجلين بقوله : هى عندى أنتفع بها ، يضر بالإقرار الأول أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

أحمد بن محمد الغانم

الجبر الكويت خليج فارس

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه :

وبعد : فقد نص فى مذهب مالك – رضى الله عنه – فى باب القراض والفلس على ما يأتى :

أولا – عامل القراض أمين فيما تحت يده من المال الذى يعمل فيه ولو لم يكن أميناً فى الواقع ، لأن رب المال ائتمنه عليه ، فيده يد أمانة ، فليست كيد الغاصب ، ولذلك كان مصدقاً بيمين إذا ادعى تلف رأس المال أو خسرانه ، إلا أن تشهد العادة بكذبه فلا يصدق .

ثانياً – من أقر بوديعة بعد تعيينها ، كأن قال : هذا المال وديعة بعد إقراره ، فإن إقراره يقبل ويختص رب الوديعة بها فلا يحاص فيها الغرماء . وإنما يقبل إقراره هذا إن شهدت بينة بأصلها : بأن قالت : نشهد أن فلاناً عنده وديعة لفلان ، وإن لم تعينها . ولا فرق فى قبول الإقرار حينئذ بين أن يكون صادراً من المقر فى حال صحته أو مرضه . فإن لم تشهد بينة بأصلها ، فإن كان إقراره قبل الفلس قبل ، سواء أكان فى حال الصحة أم المرض ، وإن كان بعد الفلس فلا يقبل ، فلا يختص بها المقر له .

ثالثاً : يعمل فى مذهب مالك بالقرائن . ومن ذلك الاعتماد عليها فى حلف أولياء الدم أيمان القسامة ، فإذا حلفوا استحقوا القصاص من القاتل . وقد مثلوا لذلك بما إذا وجد شخص يجرى فى زقاق ، ثم وجد بداخل هذا الزقاق شخص يتشحط فى دمه ويقول : دمى عند فلان « يعنى ذلك الهارب » . فإن قوله هذا مع وجود الهارب بهذه الحالة يعتبر لوثا « أى قرينة » على أن ضاربه هو هذا الشخص . فإذا مات المضروب حلف أولياؤه أيمان القسامة ، معتمدين على هذه القرينة ، واستحقوا دم هذه المسمى ؛

ومن ذلك قولهم فى اليمين « واعتمد البات على ظن قوى » . أى أن الشخص يجوز له أن يحلف على القطع معتمداً على ظن قوى . ومدار الظن القوى على القرائن المثيرة له .

ومن تتبع السياسة الشرعية وما فيها من الحوادث ، كما يعلم بالاطلاع على تبصرة الحكام لابن فرحون ، لا يتردد فى أن القرائن مبنى كثير من الأقضية الشرعية . ولابن القيم كتاب قيم جداً فى السياسة الشرعية أبان فيه صحة الحكم بالقرائن ، وأقام الدليل على ذلك من من السنة .

ولا غرو فمدار الفروع على الظن الغالب ، والقرائن تفيده . والحكمة التى تقتضيها روح الشريعة توجب مراعاة القرائن وعدم إهمالها ، إذ لولا ذلك لضاع كثير من الحقوق واختل نظام المجتمع الإنسانى .

هذا ومنه يتضح أن عامل القراض فى الحادثة المسئول عنها مصدق فى إقراره بالوديعة التى لعمرو وقد قبضها من يد خالد ، لأن إقراره كان قبل الحجر عليه .

هذا هو مقتضى كون يده يد أمانة على ما قررناه ، غير أنه قد اكتنف ذلك الإقرار أمور تكاد تقتضى عليه بالاتهام فيه . بل هذه الأمور لاتدع الفقيه يتردد فى أنه إقرار كاذب قصد به الإساءة إلى رب القراض باختزال جزء من ماله لنفسه . تلك الأمور هى :

أولا – مسارعة ولد العامل حينما أحس بأن رب القراض سيطلع على مافى صندوق التجارة من النقود ، مسارعته إلى أخذ هذه الصرة قبل

فتح الصندوق . ولو كانت هذه الصرة لمن أقر له العامل لم يدبر هذه الحيلة ، وكان يكفيه إن كان صادقاً فى أنها وديعة أن ينبه عليها بعد فتح الصندوق ، لا سيما وهى مقيدة بدفاتر التجارة .

ثانياً – محاولة الاختفاء والهرب بها حينما رآه رب المال .

ثالثاً – قول العامل بعد : « إنما هى عندى لأنتفع بها » مع ثبوت ذلك بشهادة المعتبرين كما جاء فى الاستفتاء . وإنكاره صدور ذلك القول منه وتحريفه إلى قوله : « إنما قلت وما قدرت أن أنتفع بها » لايفيده بعد شهادة المعتبرين بالعبارة الأولى .

رابعاً – وجود مافى الصرة زائداً على ما أقر به العامل ودفاعه عن ذلك بقوله : « قد وضعت عليها مائة مما فى الصندوق » مما يقوى الشبهة نحوه ، لأنه ما وضع عليها ذلك إلا بقصد اختلاسه لنفسه إن كان صادقاً فى أصل الوديعة .

لذلك نرى أنه إن شهدت بينة بأن هذا العامل عنده وديعة لعمرو قبل إقراره واختص المقر له بها ، وإن لم تشهد بينة بهذا فلا يقبل إقراره وإن كان قبل الحجر عليه لقيام القرائن على كذبه ، وتكون كبقية المال : للغرماء غير المقر له أن يتحاصوا فيها .

وقول المستفتى : أن ما بيده يزيد على المطلوب منه ، وهو ما أشار إليه بقوله : « مع أن الذى وجد فى يد العامل بعد الحجر يزيد على الديون » إلخ ، قوله هذا يفيد أن العامل لا يستحق الحجر عليه ، فإن مستحقه هو من أحاط الدين بماله بأن زاد على ماله أو ساواه . فهذا هو

الذى يحجر عليه فى التصرف للمحافظة على حقوق الدائنين . ولا يؤثر هذا القول فى اتهام العامل فى هذا الإقرار حيث لم تشهد بينة بأصل الوديعة ، بل يقال إن هذه الوديعة إذا بطل الإقرار بها احتسبت من مال القراض ، وكان لربه أن يستكمل منها رأس ماله وما يخصه من الربح بعد أداء الديون التى لها علاقة بهذه التجارة .

وليعلم أنه لا عبرة بكتابة الوديعة فى دفاتر التجارة بعد هذا الاتهام ، لأنه والحالة هذه لايبعد أن تكون الكتابة مصطنعة من العامل قصد بها الحيلة على صحة إقراره بعد هذا .

نسأل الله أن يرزقنا الصدق فى القول والعمل ، وأن يجنبنا مواقع الزلل بمنه وكرمه .

الشجاعة (١)

مقدمة فى مكارم الأخلاق :

لنقدم بين يدى ذلك كلمة إجمالية عن مكارم الأخلاق عموماً ، فنقول :

مكارم الأخلاق أوساط بين الإفراط والتفريط ، فمتى جاوزت نقطة الوسط فقد جاوزت الفضيلة . فالشجاعة مثلا وسط بين الجبن الذى هو تفريط ، والتهور الذى هو إفراط . والسخاء وسط بين البخل الذى هو تفريط ، والتبذير الذى هو إفراط . فإياك والزيادة فيما تظنه فضيلة فتقع فى الرذيلة « كلا طرفى كل الأمور ذميم » .

حتى أن القوة الفكرية ، وهى أشرف القوى ومدار الإنسانية ، إذا زادت عن حدها ، خرجت بك إلى رذيلة الخبث والدهاء ، والمكر والحيلة .

وليس الكفر والتهجم على مقام الألوهية واقتحام تلك المخاطر إلا رذيلة من رذائل القوة الفكرية . فرذائلها أقبح الرذائل ، كما أن فضائلها أشرف الفضائل . وهكذا الحال فى الفضائل والرذائل فى القوة الشهوية والقوة الغضبية : على قدر ما ترتفع بفضائلها تنحط برذائلها على نسبة واحدة ، فأعظم القوى الثلاث فضائل ورذائل ، هى القوة الفكرية ثم القوة الغضبية ثم القوة الشهوية .

(١) مجلة الأزهر – الجزء الرابع – المجلد السادس – سنة ١٣٥٤

وكأن نقطة الوسط التى نوهنا عنها هى الصراط المستقيم الذى أمرنا تعالى بطلب الهداية على سبيل الوجوب سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (١) .

ولا بد أن تكون قد سمعت أن الصراط أرق من الشعرة وأحد من السيف . ولعلك كنت تستغرب من ذلك وتصدق به تقليداً من غير أن تفهم له معنى ولا تذوق له سراً .

فاعلم أن نقطة الوسط عسرة جداً ، ولا يمكنك أن تقف عندها إلا إذا رزقت المعونة ومنحت التأييد ، فلا يكاد يهتدى إليها ثم يصبر عليها إلا الأنبياء والمرسلون وكمل الرجال من ورثتهم « وقليل ما هم » . فحقاً هى أرق من الشعرة وأحد من السيف .

وأحب منك الآن على عجل أن تصدق معى أن الصراط الأخروى على ما سمعت ، وتعلم أن كل شىء تراه فى الآخرة إنما يمثل ما كان من أحوالك وأعمالك وأوصافك فى الدنيا .

فإن الأرواح متى قوى سلطانها خفيت مقتضيات الأجسام ، فكان الحكم لها هو ما يكون فى الآخرة ، كما أن الأجسام متى قوى سلطانها ظهرت مقتضياتها وخفيت مقتضيات الأرواح كما فى الدنيا .

فإذا سيرك بسرعة أو بطء على ذلك الصراط هناك يمثل سيرك هنا على صراط الوسط فى كل شىء ، الذى هو أرق من الشعرة وأحد من

(١) سورة الفاتحة

السيف ، وذاك الصراط بمثل هذا الصراط . ومتى قدرت على أن تسير عليه ها هنا أمكنك أن تسير عليه هناك ، والعكس بالعكس . وعلى قدر ما أنت عليه اليوم يكون حالك غداً ، حتى إذا كنت من المسارعين إلى الخيرات السابقين فى الفضائل والكمالات ، كنت هناك طائراً لا سائراً .

ولنرجع إلى ما تصدينا له اليوم من الكلام على الشجاعة فنقول :

الشجاعة ما هى ؟ [1]

الشجاعة : ملكة فى النفوس يورثها الإقدام على الأمور الكبيرة ، والمخاوف الخطيرة ، للحصول على غاية سامية تنبعث من نفس شريفة . أو نقول بعبارة أخرى : الشجاعة هى الإقدام تحت إشراف الحكمة ، للدفاع عما يجب الدفاع عنه : من نفس ، أو دين ، أو وطن ، أو غير ذلك ، وهى فضيلة من أسمى الفضائل . وإن شئت فقل إنها حارسة الفضائل كلها ، ورأس السعادة فى الدنيا والآخرة . وليس يخفى عليك ما لها من الأثر فى رقى الأمم وتقدم الممالك فى هذه الحياة .

فكل أمة ضربت فيها بسهم وأخذت منها بأوفر نصيب ، أصبحت شامخة المجد عالية القدر فسيحة الملك ، لا يعوزها نشر العمران ، ولا يعوقها عائق عن توسيع سلطانها وتوطيد دعائمها . وما من أمة أخلدت إلى الجبن وأهملت واجبها وفرطت فى جنب ما تحتاجه من الوسائل القوية والمعدات الضرورية ، إلا صارت إلى الذل والهوان ، وباءت بالخيبة والخسران ، لا تستطيع دفع الطامع عنها ، ولا تقوى

على حفظ كيانها والذود عن حياضها ، ولا تلبث إلا ريثما يتم اتفاق الدول القوية على التهامها ومحو صورتها من بين الأمم المستقلة .

كانت الشجاعة من المناقب التى امتاز بها العرب ، وفاقوا غيرهم فى الأخذ بناصرها والتمدح بآثارها ، والافتخار بمزاياها ، والازدهاء بمحاسنها حتى بلغ من ذلك أن حض عليها الأمراء ، وتباهى بها الكبراء والوضعاء فى محاوراتهم وأشعارهم .

قال سيدنا أبو بكر لخالد بن الوليد : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

وقال الشاعر :

محرمة أكفال خيلى على القنا   ودامية لباتها ونحورها
حرام على أرماحنا قتل مدبر   وتندق منها فى الصدور صدورها

ويقول الآخر :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد   لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ولهم غير ذلك من الأخبار والشواهد ، مما يدل على أنها كانت ألزم لهم من ظلهم ، وأثبت عندهم من شخصهم .

ولا غرو فهى الفضيلة التى ليس بعدها فضيلة ، والمزية التى ليس وراءها غاية . لذلك كانوا فى جاهليتهم ذوى شمم وحمية ، وعزة وأنفة ، يأبون الضيم ، وينفرون من الذل :

فلما سطع نور الإسلام فى بلادهم ، وخفقت أعلامه على ديارهم وأفاض عليهم من العلم والعرفان ما شاء الله أن يفيض ، قاموا والشجاعة رائدهم ، والإسلام قائدهم ، ينشرون دين الله ، ويعززون دعوة نبيه ، فدانت لهم البلاد ، وخضعت لهم أعناق الأكاسرة فلم يمض عليهم قرن من الزمان حتى استولوا على صولجان الرياسة فى مملكتى الرومان والفرس ، ووطئت أقدامهم غالب آسيا وأفريقية ونحو نصف أوروبا ، وهناك نشروا علومهم التى جاء بها الإسلام ، ومعارفهم التى أتى بها القرآن ، وأصبحوا رؤساء العالم وقادة الأمم ، وأرقاهم مدنية وحضارة .

وهاك تاريخهم المجيد لا يزال ينبىء عما كان لهم من الملك الواسع والسلطان الشامخ بفضل علمهم وشجاعتهم .

وقد شهد لهم جوستاف لوبون بذلك فى كتابه (حضارة العرب) وغيره من علماء الأوربيين وفلاسفتهم .

الأمة إلى الشجاعة أحوج منها إلى كثرة العدد ووفرة الأموال ، ذلك أن الأمم فى اعتداء مستمر ، وتغالب دائم ، وتنافس شديد ، كالأشخاص فإذا لم يكن للأمة قسط وافر من الشجاعة وعامل قوى من الحمية والأنفة ، عرضت نفسها لالتهام الطامعين ، فسقطت فى هوة سحيقة من الذل والاستعباد .

هب أن أمة لم تأخذ من الشجاعة بقسط ، وقد جمعت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وكان

لديها العدد العديد من أبنائها : أفيغنى ذلك شيئًا عند مداهمة خطب مدلهم من جانب الأمم المغيرة والفرسان الفاتحين ؟ .

إن ماجمعته بلا شك يكون داعيا قويا وباعثا شديدا للتوارد على ذلك المنهل العذب الذى لم يقم عليه حارس الشجاعة .

حاجة الأمة الى الشجاعة فى داخليتها :

إن الأمة كما تحتاج إلى الشجاعة فى رد الغارات ودفع الغوائل ، تحتاج إليها كذلك فى إدارة شئونها واستقامة أمورها واعتدال نظامها وتنفيذ مصالحها . فالحاكم إن كان مقدامًا على تنفيذ ما يصدره من الأحكام وإقامة الحدود وما يسنه من القوانين ، خضعت الأمة لأوامره ، واطمأنت إلى أحكامه ، وسارت معه فى طريق الوفاق والوئام .

وإن آنست منه جبنًا أو ظنت منه توانيًا فى إقامة العدل ونصرة المظلومين وتشجيع العاملين ، ساء رأيها فيه وملأت سخطًا عليه ، ففسدت الأحوال وعم الوبال .

الحاجة الى الشجاعة فى نصرة الحق والقيام بالواجب :

ليس يخفى عليك أن العالم لا ينتفع بعلمه ، ولا يستطيع دفع الشبهات والريب عن دينه بإقامة البراهين الساطعة والحجج الدامغة حتى يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، إلا بالشجاعة والإقدام .

كذلك الطبيب لا يجرؤ على قطع الأعضاء الفاسدة ، وجبر العظام الكسيرة ، وتضميد الجروح الخطيرة ، وإجراء تلك الأعمال الجراحية كلها ، إلا إذا ساعده باعث الشجاعة .

وقس على هؤلاء غيرهم ممن لا يقومون بمهنهم ، ولا يسرعون إلى عمل ما يناط بهم ، إلا إذا كانت الشجاعة أول خلالهم وأجمل أخلاقهم وأظهر سجاياهم . وعلى ذلك تكون الشجاعة أقوى الدعائم فى سعادة الأمم ورفعتها وحضارتها ونعيمها كما قلنا . وهو ميدان فسيح لا يأتى عليه البيان ، ولكنه لا يغيب عن الأذهان .

وبعد : فيحسن بنا أن نذكر لك شيئًا من شجاعته – صلى الله عليه وسلم – حتى نقتدى به فتسعد سعادة لا شقاء بعدها : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [١] .

ويكفيك من ذلك أنه قام وحيدًا فريدًا يدعو إلى الله ، وقريش على بكرة أبيها تناوئه بصنوف المناوأة ، بل العالم كله إذ ذاك كان ضد هذه الدعوة ، فلم يفل ذلك من عزمه ولافترمن همته ، فكان يسفه أحلامهم ، ويسب آلهتهم بكل ما استطاع من قوة . وقد ذهبوا إلى عمه أبى طالب مهددين متوعدين ، فقال له عمه : « يا بن أخى إن قومك قد جاءونى ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » وليس يخفى عليك أن أبا طالب إذ ذاك كان نصيره الوحيد.

فانظر إلى قوله له : « فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » فليس هناك أبلغ من هذا التهديد والتخويف من رجل لا ثقة له بغيره ، ولا تعويل على أحد من الخلق سواه . فماذا قال له – صلى الله عليه وسلم – بعد هذا؟ قال له : « وَاللهِ يا عمّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْس

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

فِى يَمِينِى وَالْقَمر فِى يسارى عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هذَا الْأَمْر حتَّى يُظْهِرهُ اللهُ أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ ما تركْتُه » .

ومما ورد فى شجاعته – صلى الله عليه وسلم – الخارقة للعادة ، ما رواه جابر – رضى الله عنه – إذ يقول :

«كنا مع النبى – صلى الله عليه وسلم – بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى – صلى الله عليه وسلم – ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبى – صلى الله عليه وسلم – معلق بالشجرة ، فاخترطه فقال له : تخافنى ! فقال له : لا : قال : من يمنعك منى ؟ قال : « الله » رواه البخارى ومسلم. وفى بعض الروايات أن النبى لما قال له ذلك سقط السيف من يده فأخذه – صلى الله عليه وسلم – ، فقال له الرجل : كن خير آخذ . فلما عفا عنه رجع إلى قومه وهو يقول : جئتكم من عند خير الناس :

ولقد روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « كَانَ رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم – أَحْسنَ النَّاسِ وأَجود النَّاسِ وأَشْجعَ النَّاسِ ، لقَدْ فَزِع أَهْلُ الْمدِينَةِ لَيْلَةً فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ ، فَتَلَقَّاهُمْ رسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رَاجِعًا عَلَى فَرَسٍ لِأَبِى طَلْحَةَ وَالسَّيْفُ فِى عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ : لَنْ تُرَاعُوا » :

ومن مواقفه – صلى الله عليه وسلم – المشهورة الضخمة ، وكل مواقفه – صلى الله عليه وسلم – ضخمة » موقفه يوم حنين !

روى البخارى ومسلم وحكاه القرآن أيضًا أن أصحابه ولوا عنه يومئذ مدبرين :

واتفق الشيخان على أنه صلى الله عليه وسلم كان راكبا بغلة .
ولفظ مسلم من رواية العباس رضى الله عنه : فلما التقى المسلمون والكفار ،ولى المسلمون مدبرين ،فطفق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يركض بغلته قبل الكفار . قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها ألا تسرع .

ولعمر الله إن ذلك لفوق ما نعهده من شجاعة البشر ، فإن الإنسان مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المؤلفة بعد ما فرعنه أصحابه ، وخصوصًا إذا كان على بغلة بين تلك الخيول المطهمة والفرسان المدربة . وقد كان يقول وهو على ذلك الحال :

أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

فكأنه كان يلفتهم إليه وينبههم على مكانه ، فأى شجاع تعرفه من البشر يستطيع ذلك أو قريبًا منه ؟ ! ولكن لا عجب : فقد امتلأ قلبه ثقة بالله وتوكلا عليه ، عالمًا أنه إليه يرجع الأمر كله ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ . وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)[1] .

هذا ولتعلم أن أفضل أنواع الشجاعة ألا تجبن أمام شهوتك عندما يشتد توقانها ، ولا أمام غضبك عندما يحتد سلطانه ويتحكم شيطانه . ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » . رواه الشيخان .

(١) سورة يونس ، الآية ١٠٧

وإنما كان هذا هو الشديد ؛ لأن جمرة الغضب التى تتقد فى قلبه لم تخرجه على شدتها عن حد اعتداله ووقاره ؛ بل كان سلطان عقله ودينه أكبر من سلطان شهوته وهواه ، فصابرها حتى خمدت كل الخمود ، ولم يظهر عليه شىء من آثارها لأنه ملك زمام نفسه : فلم تجمح به ولم تورطه فى المهلكات .

وقد روى البيهقى أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد مر بناس يحملون صخرة ثقيلة يختبرون قوتهم ؛ فقال : « أَتَحْسَبُونَ الشِّدَّةَ فِى حَمْلِ الْحِجَارَةِ ؟ إِنَّمَا الشِّدَّةُ أَنْ يَمْتَلِئَ الرَّجُلُ غَيْظًا ثم يَغْلِبَهُ » .

وانظر إن شئت إلى ما كان منه صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقد كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه الشريف ؛ فكان يقول : « اللهم اهْدِ قَوْمِى فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

وهذا شىء لا يكاد يصدقه العقل لولا أن النبى من طراز آخر غير ما تعرف فى الناس ؛ فإنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى ذلك الوقت الذى حصلت فيه تلك الحادثة الفظيعة لم يعف فقط ، بل زاد أن طلب لهم من الله الهداية ، وزاد على ذلك أن بين عذرهم فيما فعلوه ، وهو أنهم جاهلون لا يعلمون مقداره صلى الله عليه وسلم .

وروى البخارى ومسلم والبيهقى فى الأدب وأبو داود والقاضى عياض فى الشفاء واللفظ له ، عن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : « كُنْتُ مَعَ النَّبِى ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ ؛ فَجَبَذَهُ أَعْرَابِى بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى أَثَّرَتْ حَاشِيَةُ الْبُرْدِ فِى صَفْحَةِ عَاتِقِهِ ، ثُمَّ

قَالَ يَا مُحَمَّدُ : احْمِلْ لِى عَلَى بَعِيرَى هَذَيْنِ مِن مَالِ اللهِ الَّذِى عِنْدَكَ فَإِنَّكَ لَا تَحْمِلُ لِى مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ . فَسَكَتَ النَّبِىُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثُمَّ قَالَ : « الْمالُ مالُ اللهِ وأَنَا عبْدُهُ » ثُمَّ قَال : ويُقَادُ مِنْكَ يا أَعْرابِىُّ بِمِثْلِ ما فعلْتَ بِى ؟ قَال : لَا . قَالَ : لِم ؟ قَال : لأَنَّكَ لَاتُكافِىءُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ . فَضَحِكَ النَّبِىُّ –صلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّم– ثُمَّ أمرَ أَنْ يُحْمَلَ لَهُ عَلَى بَعِيرٍ شَعِيرٌ وَعَلَى الآخَرِ تَمْرٌ . وَهُوَ فِى هَذِهِ الحَادِثَةِ أَيْضًا لَمْ يَعْفُ عَنْ هَذَا الْجَاهِلِ فَقَطْ ، بَلْ حَملَ لَهُ بَعِيرَيْه كَمَا طَلَبَ . فَكَانَ فِى ذَلِكَ مُمْتَثِلًا قَوْلَهُ تَعَالَى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)(١) . وكم له من مثل ذلك – صلى الله عليه وسلم –.

وقد قالت السيدة عائشة فى بيان خلقه : « كان خلقه القرآن » ثم قرأت قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)(٢) . إلى آخر ما لا يمكننا تفصيله فى هذه الكلمة العجلى :

* * *

أسأل الله أن يرزقنا اتباعه . والاقتداء به صلى الله عليه وسلم بمنه وكرمه .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآيات من ١ – ٣

معاملة التجار وما فيها من الربا(١)

استفتاء موجه الى فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

لا يخفى على فضيلتكم أن المعاملات قد تطورت حتى تركزت على حالة غير التى كانت عليها فى الأزمان السالفة ، فقد كان الرجل لا يقدم على شراء شىء إلا إذا حصل على ثمنه فى يديه فيشتريه ويبيت مطمئناً لا يطالبه أحد . أما الآن فقد استساغ الكل الأخذ بالآجال ، فلا زارع ولا تاجر ولا موظف ولا ذو مهنة ، إلا وقد أصبح مديناً . ومن تساهله فى الدين صار يتداين فيما لا ضرورة له ، حتى صار كل واحد يئن مما عليه وهذه حال عمت القرى والأمصار ، فلا تجد بلداً إلا وهذه حاله .

وقد نشأت هذه الحالة من وجود البنوك فى جميع أنحاء العالم ، وهم يمدون المصانع بالأموال لكى تتوسع فى صناعتها ، ومتى توسعت اضطرت لتصريف مصنوعاتها . ومع كثرتها لا تجد مشترين يشترونها نقدا ، فتبيعها بالآجال . وهكذا تفعل مع الزراع والتجار ، حتى توسعوا فى أعمالهم ، واضطروا هم أيضاً لترغيب الناس فى شراء ما عندهم بالآجال ، فأصبح جميعهم مدينا ودائنا معا . ونشأت حالة لا مناص منها وهى التعامل على قاعدة الربا . وعليه صرنا فى حاجة إلى فتواكم على السؤالين الآتيين :

١ – هل ما يدفعه التاجر من الفوائد عند تأجيل دفع المستحق عليه يعد معاملة بالربا ، ولو كان فى حالة اضطرارية مرغمة له ؟

(١) مجلة الأزهر – الجزء الخامس – المجلد السادس – سنة ١٣٥٤

٢ـ وهل بيعه كمبيالات الدين الذى له على الناس يعد معاملة بالربا ، مع العلم بأنه يبيعها بأقل من قيمتها ، وهو إنما يضطر إلى ذلك لأنه هو الطريق الوحيد الذى يصونه من السقوط والإفلاس والخراب المحقق ؟

نرجوكم الجواب عن ذلك ولكم من الله الأجر والثواب . والسلام عليكم ورحمة الله .

عباس عوف

أحد التجار بالسكة الجديدة

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه .

لا يجوز تأخير الدين مع الزيادة فيه لأجل التأخير . وهو ربا الجاهلية الذى عناه النبى – صلى الله عليه وسلم – فى حجة الوداع بقوله : « ألا وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب » .

وقد ذكروا فى قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[١] فى سبب نزول الآية أن الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان دين ، فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين ما يؤدى ، قال له صاحب الدين ، زدنى فى المال حتى أزيدك فى الأجل فربما فعلوا ذلك مرارا حتى يصير الدين أضعافا مضاعفة ، فنهى الله – عز وجل – عن ذلك ، ونزلت الآية .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٣٠

وقد نص الفقهاء على أن هذه الزيادة ممتنعة : سواء كانت فى القدر أو فى الصفة :

بل نص الفقهاء على أنهما إذا اتفقا قبل انقضاء الأجل على أن يؤخره أجلا ثانيا على أن يدفع له رهنا أو حميلا : كان ذلك فى معنى الزيادة ، وكان ممنوعا ، لئلا يلزم عليه سلف جر نفعا . بخلاف ما إذا اتفقا عند الأجل على أخذ الرهن أو الحميل على أن يؤخره بعد الأجل الأول ، فذلك جائز ، لأنه كابتداء سلف على رهن أو حميل .

وعلى الجملة فهى لا تجوز . وهى داخلة – كما نص الفقهاء – فى باب أنظرنى أزدك :

ومسألة بيع الكمبيالات المؤجلة بأقل مما فيها محرمة أيضاً ، لأنها داخلة فى تلك القاعدة القائلة : كل سلف جر نفعاً فهو حرام . وهذا قد أقرضه مائة مثلا ليأخذها بعد سنة مائة وسبعة أو مائة وعشرة على حسب الاتفاق الذى بينهما على ما بينه السائل .

وليس ما ذكره من الاضطرار والإرغام بمبيح للربا . ولو أبحناه لأجل ذلك لكنا كمن يداوى الأمراض الحادة بالمخدرات التى تحدث تسكينا وقتيا ، ثم يعود الألم بعد ذلك بأشد مما كان ، مع ما يستتبع هذا العلاج من أمراض جديدة هى أخطر من المرض الأصلى .

فالدواء الحقيقى لهذه الكوارث التى شرحها السائل وذكرها على طولها ليكون فيها عظة وعبرة ، وإنما هو التفكير فى استئصال

هذه الأمراض من جذورها : بالرجوع إلى العمل بالشريعة وتعاليمها الحكيمة ، التى تقى كل من اتبعها من التعاسة والشقاء فى الدنيا والآخرة.

فلندع ذلك البذخ الفارغ ، وذلك الظهور الكاذب ، ولنعلم أن الضرورى للإنسان فى هذه الحياة قليل لا كثير . ولكن الناس يغلطون فى هذا غلطا فاحشا ، فتشتبه عليهم الحاجيات بل الكماليات بالضروريات ومعلوم أن الكماليات لا حد لها ، بخلاف الضروريات ؛ فما أقلها وأهون أمرها !

نصف رغيف مشبع لمن أكل   فالذل يا هذا لماذا يحتمل
هون على نفسك فالدهر دول   غايته الموت وإن طال الأمل

وليت شعرى ماذا صنعوا بتلك الظواهر الخلابة مع تلك الأفكار المضنية والمؤلمات المبكية !

لا تغترر بنعيمهم فجسومهم   فى جنة وقلوبهم فى نار

وعندى أنهم لو كانوا ذوى حزم ورشد لتخلصوا من تلك الورطات بأية طريقة ، وعملوا على تطهير أموالهم وإراحة أنفسهم من تلك الرزايا ولو بالتصفية المؤلمة « وليتولوها طوعا قبل أن يتولاها غيرهم قهرا » .

ولا غرو فالمريض يرضى ببتر أحد أعضائه ليعيش مستريحا من ألم المرض وانتشاره فى جميع الأعضاء . ومدار الأمر فيما أراه على قوة العزيمة وتوطين النفس على الرضا بالقليل ، وسلوك سبيل الاقتصاد فى كل ما يأتى ويذر .

وإذا صدقت منه العزيمة فى الرجوع والتوبة مما هو فيه ، فسيجعل الله له فرجا ومخرجا (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ)(١) . ولأن يؤسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه ، خير من أن يؤسس بنيانه على شفا جرف هار ينهار به فى نار جهنم .

وكم شقاء يتصور للناس بصورة السعادة (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً)(٢) . وكم أناس ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وما أحسن قول من قال :

إنى أرى الدنيا وليد فتنة   رعناء قد كبرت عن الترتيب
قد جاء منطقها ونص كتابها   بالزور من خلق ومن تهذيب
ألف التناحر نازلوها وانتهت   من غير تأليف ولا تبويب
يزداد فيها العقل عن مقدورها   والعقل يدنيها من التخريب

وخلاصة القول أنه لا دواء إلا ما جاء به الشرع الشريف .

غير أن المضطر له حكم آخر فيما بينه وبين الله تعالى تقتضيه الرحمة الإلهية ، ولكن ذلك عن حد الفتوى فى تحديده وبيان مقداره .

ولعل صاحبه أدرى به من كل أحد ، ولكن عليه أن يقدر الضرورة بقدرها ، وألا يغش نفسه ، وأن يلتجىء إلى الله تمام الالتجاء متضرعا باكيا حتى يرشده ويعينه ، ثم ينجيه من دسائس نفسه الأمارة بالسوء فإنها أخفى من دبيب النمل فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، فليكن

(١) سورة الطلاق ، الآية ٣   (٢) سورة فاطر ، الآية ٨

منها على حذر ، وليكن رجوعه دائما إلى خالق القوى والقدر ، فإليه يرجع الأمر كله (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١) . (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُم لأَنْفُسِكُمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) (٢) .

أسأل الله أن يصلح حال المسلمين فى دينهم ودنياهم ، وأن يلهمهم الرجوع إلى العمل بشريعتهم حتى يسعدوا سعادة لا شقاء بعدها ، بمنه وكرمه .

(١) سورة فاطر ، الآية ٢

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٧

حكم تشريح الميت فى الشريعة الإسلامية (١)

ورد إلى المجلة سؤال من سعادة رءوف باشا سكرتير الجمعية الإسلامية الهندية بسيلان ، ملخصه استفتاء العلماء عن تشريح الميت . وقد قال فيه :

هل يسمح قانون شريعتنا الإسلامية بتشريح جثماننا أم لا ؟ ثم رجا إدارة المجلة أن نجيبه على عجل . وقد أجاب فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى بما يأتى :

الجواب

ليس عندنا فى كتب الفقه نصوص شافية فى هذا الموضوع . وقد يظن ظان أن ذلك محرم لا تجيزه الشريعة التى كرمت الآدمى وحثت على إكرامه وأمرت بعدم إيذائه . ولكن العارف بروح الشريعة وما تتوخاه من المصالح وترمى إليه من الغايات يعلم أنها توازن دائما بين المصلحة والمفسدة ، فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة ويوجبه النظر الصحيح . فيجب إذًا أن يكون نظرنا بعيدا متمشيا مع المصلحة الراجحة التى تتفق وروح الشريعة الصالحة لكل زمان ومكان ، الكفيلة بسعادة الدنيا والاخرة : وإذًا نقول :

من نظر إلى أن التشريح قد يكون ضروريا فى بعض الظروف ، كما إذا اتهم شخص بالجناية على آخر ، وقد يبرأ من التهمة عندما يظهر التشريح أن ذلك الآخر غير مجنى عليه . وقد يجنى على رجل

(١) مجلة الأزهر – الجزء السابع – المجلد السادس – رجب سنة ١٣٥٤

ثم يلقى بعد الجناية عليه فى بئر بقصد إخفاء الجريمة وضياع الجناية ، إلى غير ذلك مما هو معروف ، فضلا عما فى التشريح من تقدم العلم الذى تنتفع به الإنسانية كلها ، وينقذ كثيرا ممن أشفى على الهلكة أو أحاطت به الآلام من كل نواحيه ، فهو يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت إلى غير ذلك مما لا داعى للإطالة فيه .

نقول : من نظر إلى ذلك الإجمال وما يتبعه من التفصيل لم يسعه إلا أن يفتى بالجواز تقديما للمصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة ومتى كان تشريح الميت بهذا القصد لم يكن إهانة له ولا منافيا لإكرامه .

على أن هذا أولى بكثير فيما نراه مما قرره الفقهاء ونصوا عليه فى كتبهم من أن الميت إذا ابتلع مالاً شق بطنه لإخراجه منه ولو كان مالا قليلا ، ويقدره بعض المالكية بنصاب السرقة أى ربع دينار أو ثلاثة دراهم . وكلام الشافعية قريب من هذا . وربما كان الأمر عندهم أهون وأوسع فى تقدير المال الذى يبتلعه .

فإذا قسنا ذلك المال الضئيل (على ما ذكرنا من الفوائد والمصالح) ، وجدنا الجواز لدرء تلك المفاسد وتحصيل تلك المصالح أولى من الجواز لإخراج ذلك المال القليل . فهو قياس أولوى فيما نراه .

استدراك لابد منه :

غير أنا نرى أنه لابد من الاحتياط فى ذلك حتى لا يتوسع فيه الناس بلا مبالاة . فليقتصر فيه على قدر الضرورة ، وليتق الله الأطباء وأولو الأمر الذين يتولون ذلك ، وليعلموا أن الناقد بصير والمهيمن قدير ، والله يتولى هدى الجميع .

ماذا يراد بولد الصلب (١)
فى عبارة الواقفين

وورد إلى إدارة المجلة ما نصه :

ماقول العلماء الأخيار المالكية فى : (وقف أهلى) محكوم بصحته ولزومه من حاكم شرعى حنفى من قضاة المسلمين ؛ وقفه واقف مالكى المذهب ، وشرط أن يكون النظر أولا لنفسه مدة حياته ، ثم للأرشد فالأرشد من أولاده لصلبه ، ثم للأرشد فالأرشد من المستحقين بالفعل الخ . فمات الواقف المذكور وخلف ولدين ذكرين وتعينا ناظرين على الوقف المذكور ، ثم مات أحدهما وخلف أولاداً ذكوراً وإناثا . فهل يقوم أولاد الولد مقام أبيهم فى نظارة الوقف المذكور مع ولد الواقف المذكور ؟ وهل يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه ، ولا يمنعه قول الواقف : « من أولاده لصلبه » ؟ وهل قول الواقف : « من أولاده لصلبه » يشمل ولد الصلب وولد الولد معاً ، أم لا يكون ولد الولد ولداً صلبيا مع كونه من أولاد الظهور ؟ .

أفتونا بنص صريح من معتمد مذهب الإمام مالك رحمه الله وآجركم الله آمين .

حسين ابراهيم فرج الحباب

(١) مجلة الأزهر — الجزء السابع — المجلد السادس — رجب — سنة ١٣٥٤

الجـواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

قد صرح الواقف بأن نظارة الوقف تكون للأرشد فالأرشد ، ورتب فى الطبقات بثم ، فجعل النظارة بعده لأولاد الصلب أولا ثم للمستحقين من بعدهم ثانياً .

وحينئذ يجب أن يكون مراده أنه إذا وجد أولاد الصلب وتساووا فى الأرشدية كانت النظارة بينهم . إذا زاد أحدهم فى الأرشدية اختص بالنظارة . فإذا مات أحدهم وترك أولاداً كانت النظارة لأخوته من ولد الصلب ، ولا تنتقل لأولاده لمجرد الزيادة فى الرشد .

ومن هذا يتضح أن ولد الصلب فى السؤال يختص بالنظارة دون أولاد أخيه ، وأن قول الواقف : « من أولاده لصلبه » يمنعهم حيث لم يكونوا من أولاد الصلب ، فإن أولاد الصلب هم من للواقف عليهم ولادة مباشرة ، وهو معنى كونهم لصلبه ، وأن مجرد زيادتهم فى الرشد على ولد الصلب لا تقدمهم عليه ، لأنها إنما تعتبر بين أفراد الطبقة الواحدة كما قلنا .

بيان ذلك من كتاب الفقه كما اراد السائل :

قال الخرشى فى شرح قول خليل « أو على بنيه دون بناته » : « وكذلك يبطل الوقف إذا وقفه على بنيه الذكور دون بناته الإناث » إلى أن قال : « وكلام المؤلف فى بنيه وبناته لصلبه ، فيصح وقفه بنى بنيه دون بنات بنيه ، فهو لايريد ببنيه لصلبه إلا الطبقة

الأولى من ذرية الواقف » . وقال الصاوى فى الحاشية على أقرب المسالك للدردير عند قوله « وكره على بنيه دون بناته على الأصح » بعد نقل الخلاف فى المسألة ، قال : « وكلام المؤلف فى بنيه وبناته لصلبه ، وأما بنو بنيه دون بنات بنيه فيصح وقفه اتفاقاً » فقابل أولاد الصلب بأولاد الأولاد . وهذا واضح جلى :

هذا وليلاحظ أن هذا الوقف على هذه الصورة التى ذكرها السائل لايعتبر صحيحاً (على مذهب مالك) إلا إذا حكم الحاكم بصحته ، كمافى السؤال . ولولا ذلك لكان باطلا على مذهب مالك لشرط الواقف النظر لنفسه :

فقد نص فى المذهب على أن الوقف (يبطل بشرط النظر للواقف) . ووجهه على ماذكروا أن فى ذلك جَوَلَانَ يده فيه وعدم حوز الموقوف عليه أو من يقوم مقامه ، ذلك الحوز الذى هو شرط فى تمام الوقف . وقد استثنوا من ذلك صوراً ، منها أن يحكم حاكم بصحته ، لأن حكم الحاكم يرفع الخلاف كما هو معروف .

الخـلاصة

أن أولاد الصلب هم أولاد الواقف مباشرة ولا يدخل فيهم أولاد أولاده . وألفاظ الواقف تحمل على العرف إلا أن يصرح الواقف بما يخالفه كما نص عليه الأمير فى حاشيته على المجموع ، والشيخ حجازى عليه أيضاً .

وحينئذ فأولاد الأولاد لا يزاحمون أولاد الواقف مباشرة فى النظر ما دام واحد منهم موجودا . ولا ينظر لتفوقهم فى الرشد على أولاد الصلب ، إذ لاحق لهم فيه مع وجود واحد منهم كما تفيده عبارة الواقف . وبهذا تبين جلياً أن أولاد الأولاد لا يقومون مقام أبيهم فى النظر على الوقف . وأنه لا يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه ، وأنه لا يشمل ولد الصلب ولد الولد .

ولعل فى هذا مقنعا وكفاية .

تشريح الأموات

كتبنا سابقاً رأينا فى حكم تشريح الميت ، ووازنا بين ما يترتب عليه من المصالح والمفاسد ثم رأينا أن المصلحة أرجح من المفسدة ، وكثيراً ما يكون فى التشريح درءُ مفسدة كبرى مثل دفع تهمة اتهم بها رجل من المسلمين ظلماً فأبان التشريح أن الميت غير مجنى عليه مثلاً . إلى غير ذلك مما هو معروف . وقلنا أن الجواز هنا أولى مما ذكروه فيما إذا ابتلع الميت مالا حيث أجازوا شق بطنه وإخراج المال منه إذا بلغ نصاب السرقة أو نصاب الزكاة .

فجاءنا من بعض الأفاضل انتقاد على ذلك وأنه يجر إلى توسعهم فى أذية الميت وإهانته .

ونقول لحضرته ولكل من يدور هذا الخيال بخاطره : أننا حذرنا من ذلك التوسع فى آخر ما كتبناه فقلنا مستدركين على ماقررناه ووجهناه مانصه : « غير أنا نرى أنه لابد من الاحتياط فى ذلك حتى لايتوسع فيه الناس بلا مبالاة فليقتصر فيه على قدر الضرورة وليتق الله الأطباء وأولو الأمر الذين يتولون ذلك وليعلموا أن الناقد بصير والمهيمن قدير » .

— على أننا صرحنا بأن ذلك مبنى على قياسنا مسألة التشريح على مسألة المال الذى ابتلعه الميت فإن كان ذلك القياس صحيحاً فلله الحمد على توفيقه وإن كان غير صحيح فى نظر الفضلاء فهو مردود على مرتئيه . ولا شىء علينا بعد أن نبين أن هذا هو رأينا الخاص .

وقد احتطنا فى المسألة فحذرنا من التوسع فى ذلك . فإن كان هناك من لايصغى إلى التحذير أو يخطىء فى التطبيق فلا ذنب علينا وكثيراً ما أخطأ المخطئون فى آيات الله وسنة رسول الله .

أما من لم يبال بما يكتبه العلماء ، فهو سادر فى غلوائه غير ملتفت إلا إلى آرائه وأهوائه سواء أمنعنا أم أبحنا كتبنا أم سكتنا ، ضيقنا أم وسعنا فإنه بمعزل عن ذلك كله .

وإنا لنكتب ماتكتب ونحن عالمون أنه لا ينتفع به إلا من وفقه الله تعالى . وقد قلنا فى بعض ماكتبناه بهذه مانصه :

« إنا نرى من الإخلاص للدين والعلم أن نقول : إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد يصح أن تختلف فيه الأنظار . وإذا رجحنا شيئاً فإننا نكتب عن رأينا أو رأى فريق من علمائنا والخير كله فى التوسط والاعتدال والشر كله فى الإفراط والتفريط » .

وبعد : فنشكر لحضرة الفاضل غيرته وإخلاصه ونوافقه على أن الاطباء الآن توسعوا غاية التوسع بلا مبالاة بكرامة الميت ولا مراقبة لله تعالى .

مع أنه قدورد عن عائشة –رضى الله عنها– عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : « أن كسر عظم الميت ككسره حيا » رواه مالك وأبو داود وابن ماجة .

وعن أبى هريرة –رضى الله عنه– عن النبى –صلى الله عليه وسلم– قال : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له

من أن يجلس على قبر » رواه مسلم وأبو داود والنسائى . وعن عمرو بن حزم قال : رآنى النبى –صلى الله عليه وسلم– متكئا على قبر فقال : « لاتؤذ صاحب هذا القبر » رواه الإمام أحمد .

وسر ذلك أن الروح تدرك ما يفعل بجسدها وتتألم له ، ولكن الشريعة بعد ذلك توازن دائماً بين المصلحة والمفسدة ، فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة ويوجبه النظر الصحيح . فيجب ألا نكون جامدين كما يجب أن نكون محتاطين .

والله يتولى هدى الجميع .

تشريح الميت

كتبنا عن تشريح الميت . وقد رأينا للشيخ العربى (بوعياد الطنجى) رداً علينا ببعض المجلات ، نقفك اليوم على أهم ماجاء فيه ، ثم نعلق عليه بما يحق الحق ويبطل الباطل إن شاء الله ، فنقول :

إن فتوانا فى تشريح الميت مجملة كثيراً ، فإننا لم نعرض فيها لجزئية خاصة ولا لحادثة معينة ، ولم نطلق فيه الجواز إطلاقا بل قيدناه بالضرورة ، وجعلناها علة الحكم الذى يدور معها وجوداً وعدما .

وقد حذرنا فى آخر كلمتنا الأطباء وأولى الأمر من التوسع فى ذلك الموضوع ، وأمرناهم أن يقتصروا على قدر الضرورة ، وقلنا لهم : « إن الناقد بصير والمهيمن قدير » . وهذا صريح فى أننا نطالبهم بالاقتصار على مقدار الضرورة ولا نبيح لهم أن يتجاوزوها بحال من الأحوال ، خصوصاً فى كلمتنا الثانية .

ومن المعلوم الذى لاشك فيه أن هناك من الضرورات ما يجب أن نحكم معه بجواز تشريح الميت ، كما إذا توقفت تبرئة ساحة متهم ظلماً على تشريح الميت الذى يظهر منه أنه غير مجنى عليه مثلا .

ويقول صاحب الرد :

« معلوم أن شهادة هؤلاء المشرحين غير معتبرة شرعاً ولا مقبولة فى مذهب من مذاهب الإسلام حتى تثبت عدالتهم » .

ونقول له أولا : إن هذا حكم قاس جداً ، فإن كثيراً من الأطباء لايشك فى صدقهم وعدالتهم . على أن ذلك من باب الأخذ بالقرائن التى يعتبرها الشرع ، كما بينه ابن القيم فى (السياسة الشرعية) وصاحب معين الحكام وغيرهما من المحققين ، وستسمع شيئاً عن القرافى المالكى فى ذلك .

والدين لا يهمل الحقيقة متى ظهرت ، ولا يعدو الحق متى تبين . وهكذا يجب أن نفهم الدين وننزل الوقائع عليه . ونحن فى زمان قلما نصل فيه إلى الإثبات الشرعى من طريق واحد ، فلايجوز أن نهمل بقية الطرق التى تؤدينا إليها ، بل قد تجعلها لمس اليد ورأى العين .

وقد طبق العلماء كثيرا من تلك الجزئيات على ما جاء فى الشريعة من قواعدها العامة وكلياتها التى تسع ذلك كله على ما ستسمع ، علما منهم أن الشريعة الإسلامية تمكن أن تطبيق أصولها الكلية وروحها التى لا تعرف إلا الحق ولا تريد إلا جلب المصلحة ودرء المفسدة على كل

ما يعرض للناس من أحوال وأقضية بمقتضى نظرها السامى وحكمتها البالغة .

فروحها الذى هو تنزيل من حكيم حميد يبعث فى أحكامها العادلة كل معانى الحيوية والنمو والصلاحية لكل ما يرقى العمران ، ويعود بالخير على بنى الإنسان فى كل زمان ومكان .

فإذا أمكن أن نخلص مسلما من المسلمين يتهم ظلماً بما هو برىء منه بأى طريق من الطرق دون أن نحتم على أنفسنا سلوك طريقة واحدة قد لا تصل بنا إلى الغاية المنشودة من إحقاق الحق وإقراره فى نصابه ، وجب ذلك وتحتم علينا أن نخلص المسلم ونحقن دمه ما أمكن ، وأن نحافظ على حقوقه ما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

وارتكاب أخف الضررين واجب بالاتفاق . وهى قاعدة من القواعد التى اتفق عليها العقل والنقل .

وأرانى مسوقا لأن أنقل لك عبارة القرافى المالكى بطولها فى « كتاب الذخيرة » لما لها من المناسبة التامة لهذا المقام ، وما فيها من الفوائد الجمة التى تناسب حكمة الشريعة ونظرها البعيد قال رحمه الله :

واعلم أن التوسعة على الحكام فى الأحكام السياسية ليس مخالفاً للشرع بل تشهد له الأدلة المتقدمة ، وتشهد له أيضاً القواعد الشرعية من وجوه :

(أحدها) أن الفساد قد كثر وانتشر بخلاف العصر الاول ومقتضى ذلك اختلاف الأحكام بحيث لا تخرج عن الشرع بالكلية ،

لقوله – صلى الله عليه وسلم –: (لا ضرر ولا ضرار) وترك التوسعة التى تقتضيها السياسة الشرعية مؤد إلى الضرر لا محالة . ويؤكد ذلك جميع النصوص الواردة بنفى الحرج .

و (ثانيها) أن المصلحة المرسلة قال بها جمع من العلماء – خصوصا المالكية – وهى المصلحة التى لم يشهد الشرع باعتبارها ولا بالغائها .

ويؤكد العمل بالمصالح المرسلة أن الصحابة – رضى الله عنهم – عملوا أمورًا كثيرة لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيه أمر ولا نظير .

وكذلك ترك الخلافة شورى بين ستة ، وتدوين الدواوين وعمل السكة للمسلمين واتخاذ السجن وغير ذلك مما فعله عمر وغيره من الصحابة – رضى الله عنهم – ، كهدم الأبنية التى بإزاء المسجد أعنى مسجد النبى – صلى الله عليه وسلم – والتوسعة بها فى المسجد عند ضيقه ، وحرق المصاحف وجمعهم على مصحف واحد وتجديد أذان الجمعة بالسوق مما فعله عثمان – رضى الله عنه – ، وغير ذلك كثير جدا ، فعل لمطلق المصلحة .

و (ثالثها) أن الشرع شدد فى الشهادة أكثر من الرواية لتوهم العداوة فاشترط العدد والحرية ووسع فى كثير من العقود للضرورة كالعرايا والمساقاة والقراض وغيرها من العقود المستثناة .

وضيق فى الشهادة فى الزنى ، فلم يقبل فيه إلا أربعة يشهدون بالزنى كالمرود فى المكحلة . وقبل فى القتل اثنين ، والدماء أعظم لكن المقصود الستر ولم يحوج الزوج الملاعن إلى بينة غير أيمانه ولم يوجه عليه حد

القذف بخلاف سائر القذفة لشدة الحاجة للذب عن الأنساب وصون العيال والفرش عن أسباب الارتياب .

وهذه المباينات والاختلافات كثيرة فى الشرع لاختلاف الأحوال . فلذلك ينبغى أن يراعى اختلاف الأحوال والأزمان فتكون المناسبة الواقعة فى هذه القوانين السياسية مما شهدت لها القواعد بالاعتبار فلا تكون من المصالح المرسلة ، بل أعلى رتبة فتلحق بالقواعد الأصلية .

و (رابعها) أن كل حكم فى هذه القوانين ورد دليل يخصه أو أصل يقاس عليه : إلى أن قال : وإن لم نجد فى جهة إلا غير العدول أقمنا أصلحهم وأقلهم فجورًا للشهادة عليهم ويلزم مثل ذلك فى القضاة وغيرهم لئلا تضيع المصالح وتتعطل الحقوق والأحكام .

« وما أظن أن أحدا يخالفه فى هذا فإن التكليف مشروط بالإمكان » .

وإذا جاز نصب الشهود فسقة لأجل عموم الفساد جاز التوسع فى الأحكام السياسية لأجل كثرة فساد الزمان وأهله .

وقد قال عمر بن عبد العزيز : سيحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور . قال القرافى : ولا نشك أن كثيرًا من قضاة زماننا وشهودهم وولاتهم وأمنائهم لو كانوا فى العصر الأول ما ولوا ولا عرج عليهم ، وولاية هؤلاء فى مثل ذلك العصر فسوق ، فقد حسن

ما كان قبيحا ، واتسع ما كان ضيقا ، واختلفت الأحكام باختلاف الأزمان . إلى أن قال :

ولذلك قال الشافعى -رضى الله عنه- : ما ضاق شىء إلا اتسع . يشير إلى هذا الموطن . فكذلك إذا ضاق علينا الحال فى درء المفاسد اتسع كما اتسع فى تلك المواطن .

و (خامسها) وهو مما يستأنس به — أن أول بدء الإنسان من زمن آدم عليه السلام كان الحال ضيقا فأبيحت الأخت لأخيها ، وكذلك أشياء كثيرة وسع الله تعالى فيها . فلما تغير الحال وكثرت الذرية حرم ذلك فى بنى إسرائيل ، وحرم السبت والشحوم والإبل وأمور كثيرة ، وجعل توبة أحدهم بالقتل لنفسه وإزالة النجاسة بقطعها إلى غير ذلك من التشديدات .

ثم جاء آخر الزمان وضعف الجسد وقل الجلد ، فلطف الله بعباده ، فأحلت تلك المحرمات وقبلت التوبات . فظهر بذلك أن الأحكام ، والشرائع قد راعى فيها الله تعالى وهو الحكيم العليم اختلاف الزمان وذلك من لطف الله -عز وجل- وسنته الجارية فى خلقه ، وظهر أن هذه القرائن لا تخرج عن أصول القواعد وليست بدعاً عما جاء به الشرع المكرم . إلى أن قال :

ومن الناس من توهموا أن السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الخلق ومصلحة الأمة فتعدوا حدود الله وخرجوا عن الشرع إلى أنواع من الظلم والبدع فى السياسة على وجه لا يجوز وسبب ذلك الجهل

بالشريعة . وقد صح عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أن من تمسك بالكتاب والسنة لن يضل . انتهى كلام القرافى .

وهو نفيس جداً إلا أننا نحذر الناظر فيه من توسع الجهلاء ومراعاة الأهواء ونحتم أن يكون ذلك من أهله العارفين بروح الشريعة المحتاطين فيما يقولون ويكتبون .

ولنرجع إلى موضوعنا الأصلى فنقول :

إن من الواضح جداً قياس التشريح لإنقاذ حياة مسلم مثلا على المال الذى قال كثير من الفقهاء إن الميت يشق بطنه لإخراج ذلك المال الذى ابتلعه قبل موته . وقد قال الشيخ العربى فى قياس تشريح الميت على شق بطنه لإخراج مال ابتلعه على ما قرره الفقهاء : (إن هذا الفرع باطل فى نفسه فكيف يلحق به ما هو أبطل منه) ؟

ونقول أولا : إن هذا ليس ردا علينا فقط ، بل هو أيضاً فى معنى الرد على جميع الفقهاء الذين قرروا هذا الفرع -الباطل فى زعمه- . ولم يقتصر الشيخ العربى على إبطال هذا الفرع الذى قرره الفقهاء وهو شق بطن الميت لإخراج مال ابتلعه ، بل أنكر أن يكون مرويا عن الأئمة والعلماء حيث يقول : « إذ معاذ الله أن يصدر من الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين الموصوفين بالخشية والخوف من الله تعالى وتعظيم حرماته القول بإباحة هتك حرمة الميت المسلم التى أمر الشارع بحفظها ، وجواز بقر بطنه من أجل مـال مقدر بنصاب السـرقة لا يسمن ولا يغنى من جوع الخ » .

فأنت ترى الشيخ العربى يتوصل لإبطال القياس بأن ما قرره الفقهاء من جواز شق بطن الميت إذا ابتلع مالا باطل فى نفسه ، وأن الأئمة المجتهدين الموصوفين بالخشية والخوف من الله تعالى لم يصدر عنهم القول بهذا الفرع .

وسيمر بك من النصوص ورواية هذا الفرع عن أئمة المذاهب الأربعة ما تحكم معه على الشيخ العربى بأنه يرى أن أولئك الأئمة القائلين بهذا الفرع غير موصوفين بالخشية والخوف من الله تعالى .

وهذا الحكم عظيم صدوره من أمثال الشيخ العربى . ولا أدرى كيف ينكره هذا الإنكار القاطع مع أنه منصوص فى كتب الفقه وثابت عن الأئمة الأربعة وإن اختلفت فيه الأنظار وتنوعت فيه العبارات على أنه اعترف به بعد ذلك كما يعلم من مراجعة كلامه .

ولا أدرى كيف لم يلتفت إلى هذا التناقض الواضح مما يدل على أنه كان يكتب بالعاطفة لا بالتحرى « ولهذا أوصانا بالغرباء كأننا لم نكتب ما كتبناه إلا بقصد الإضرار بهم » .

هذا ومسألة المال الذى ابتلعه وشق بطنه من أجله تكلم فيها العلماء الفحول فى كل المذاهب كما قلنا .

ولنسق للقارئ الكريم بعض تلك الأقوال ، ولنبدأ منها بكلام المالكية فى أشهر كتبهم التى بين أيدينا فضلا عن غيرها . وستقضى العجب العجاب عندما ترى تلك النصوص التى جهلها الشيخ العربى

وهو من أفاضل علماء المالكية ، والنصوص فى أقرب الكتب وأشهرها فسبحان من يتصرف فيمن يشاء كما يشاء . وهذه هى النصوص :

قال خليل « وبقر عن مال كثر ولو بشاهد ويمين » .

قال الخرشى فى شرحه : « البقر عبارة عن شق جوف الميت يعنى أن من ابتلع مالا له أو لغيره ثم مات فإنه يشق جوفه فيخرج منه إن كان له قدر وبال بأن يكون نصاباً وهل نصاب الزكاة أو السرقة؟ قولان وقال ابن حبيب بعدم البقر . قال فى التوضيح قال شيخنا : ينبغى أن يكون الخلاف إذا ابتلعه لقصد صحيح كخوف عليه أو لمداواة ، وأما إن قصد قصداً مذموما كحرمان وارثه فلا ينبغى أن يختلف فى وجوب البقر لأنه كالغاصب . وقيده ابن بشير بما إذا كان للميت مال يؤدى منه وإلا فلا ينبغى أن يختلف فى استخراجه . ولا فرق بين أن يثبت الابتلاع ببينة أو بشاهد ، ويحلف المدعى لذلك معه وإليه أشار بقوله : « ولو بشاهد ويمين » .

وقال فى الشرح الكبير للدردير على عبارة خليل السابقة « وبقر » : أى شق بطن ميت « عن مال » له أو لغيره ابتلعه حيا « كثر » بأن كان نصابا « ولو » ثبت « بشاهد ويمين » . ومحل التقييد بالكثير إذا ابتلعه لخوف عليه أو لمداواة أما لقصد حرمان لوارث فيبقر ولو قل أهـ .

وقال الأمير فى المجموع وشرحه : « وشق بطنه » أى الميت « عن كثير » نصاب زكاة « ولو بشاهد ويمين » .

وقال الشيخ حجازى فى حاشيته عليه عند قوله « نصاب الزكاة » ظاهره أنه لا يبقر عن الأقل ولو كدينار مثلا ، مع أن له بالا . ولو قيل يبقر عما له بال كان أولى . واستظهر الشيخ الأمير فى حاشيته إحالة ذلك على العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال .

ولو شئنا لنقلنا لك كثيرا من نصوص المالكية . فلنقتصر على هذا . ولننقل لك نصوص المذاهب الأخرى حتى تعلم أن المسألة معروفة مشهورة لدى أرباب المذاهب الأربعة فنقول :

قال ابن قدامة الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٠ فى «شرح المغنى» عند شق بطن الأم الميتة لإخراج الجنين منها : «ويحتمل أن يشق بطن الأم إن غلب على الظن أن الجنين يحيا وهو مذهب الشافعى لأنه اتلاف جزء من الميت لإبقاء حى فجاز كما لو خرج بعضه حيا ولم يمكن خروج بقيته إلا بشق ولأنه يشق لإخراج المال منه فلإبقاء الحى أولى» . فأنت ترى أنه فى التعليل قاس مسألة الشق لإخراج الجنين على مسألة الشق لإخراج المال قياسا أولويا كما قلنا إلى أن قال ابن قدامة فى مسألة المال :

« ويحتمل أنه إن كان يسيرا ترك وإن كثرت قيمته شق بطنه وأخرج لأن فيه حفظ المال عن الضياع ونفع الورثة الذين تعلق حقهم بماله بمرضه » ومن جملة ما ذكره احتمالا أنه يشق إن كان

كثيرا للغير لأن فيه دفع الضرر عن المالك يرد ماله إليه وعن الميت بابراء ذمته وعن الورثة بحفظ التركة لهم .

ولننقل لك عبارته فى فصل عقده فى بيان ما إذا كان الميت فى بئر فيه بخار خانق بأن انعدم الأوكسجين الذى هو عنصر الهواء الصالح للتنفس « ج٢ ص ٤٠٧ » لما فيها من زيادة الفائدة وبيان أنظار العلماء فى أمثال تلك المسائل :

« وإذا شك فى زوال بخاره « يريد البئر » أنزل إليه سراج أو نحوه فإن انطفأ فالبخار باق وإن لم ينطفئ فقد زال فإن النار لاتبقى إلا فيما يعيش فيه الحيوان وإن لم يمكن إخراجه إلا بمثلة ولم يكن إلى البئر حاجة طمت عليه فكانت قبره وإن كان طمها يضر بالمارة أخرج بالكلاليب سواء أفضى إلى المثلة أو لم يفض لأن فيه جمعا بين حقوق كثيرة : نفع المارة ، وغسل الميت . وربما كانت المثلة فى بقائه أعظم لأنه يتقطع وينتن فإن نزل على البئر قوم فاحتاجوا إلى الماء وخافوا على أنفسهم فلهم إخراجه وجها واحدا وإن حصلت مثلة لأن ذلك أسهل من تلف نفوس الأحياء ولهذا لو لم يجد من السترة إلا كفن الميت واضطر الحى إليه قدم الحى ، ولأن حرمة الحى وحفظ نفسه أولى من حفظ الميت عن المثلة ، لأن زوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم ولأن الميت لو بلع مال غيره شق بطنه لحفظ مال الحى وحفظ النفس أولى من حفظ المال . اهـ .

هذا كلام ابن قدامة وفيه من الفقه والعلم ما تفهم معه أن الفقهاء راعوا حرمة الميت عملا بالنصوص مالم تتعارض مع مصالح حقيقية

للحى كالإبقاء على نفسه أو ماله . ولم يقفوا جامدين عند ظاهر النصوص التى تأمر بإكرام الميت وعدم إهانته دون أن ينظروا إلى إلى مايعارضها من أدلة الشرع الأخرى .

وقال فى « المهذب » وهو من أعظم كتب الشافعية : « وإن ابتلع الميت جوهرة لغيره وطالب بها صاحبها شق جوفه وردت إليه وإن كانت الجوهرة له ففيه وجهان : أحدهما يشق لأنها صارت للورثة فهى كجوهرة الأجنبى . والثانى : لايجب لأنه استهلكها فى حياته فلم يتعلق بها حق الورثة » .

قال شارحه النووى فى المجموع : « أما إذا بلع جوهرة لغيره أو غيرها ففيه طريقان ، الصحيح منهما وبه قطع المصنف والأصحاب فى معظم الطرق أنه إذا كان طلبها صاحبها شق جوفه وردت إلى صاحبها والطريق الثانى فيه وجهان ممن حكاه المتولى والبغوى والشاشى أصحهما هذا . والمشهور للأصحاب إطلاق الشق من غير تفصيل . أما إذا بلع جوهرة لنفسه فوجهان مشهوران ، ذكر المصنف دليلهما قل من بين الأصح منهما مع شهرتهما فصحح الجرجانى فى الشافى والعبدرى فى الكفاية الشق » .

وقال أبو حنيفة وسحنون المالكى : يشق مطلقا . إلى غير ذلك وهو كثير .

فمسألة كهذه كثر فيها الخلاف لكونها محل اجتهاد لاينبغى التنازع فيها ولا كثرة الجدال . ولكل رأيه ووجهة نظره مع تأكدنا حسن النية من فضيلة الأستاذ الشيخ العربى .

أما قوله : إن هذا قياس فى محل النص مستندا إلى الأحاديث التى تنهى عن إيذاء الميت فهو عجيب لأن ذلك لو خالف النص لم يكن لهذا الفرع وجود فى كتب الفقهاء : فإن شق البطن إهانة للميت وهو مصادم لهذه النصوص على فهم الشيخ العربى . والحقيقة أن الأحاديث التى نهت عن إهانة الميت ليست نصا فيما يريد ولاهى واردة فى محل النزاع فإن موردها فعل ذلك استهانة بالميت كما يفيده سبب ورود الحديث وهو أن حفارا أخرج عظما « ساق أو عضد » فذهب ليكسره فقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « لا تكسرها فإن كسرك إياه ميتا كسرك إياه حيا ولكن دسه فى جانب القبر » .

أما محل النزاع فهو ما تتعارض فيه المصلحة والمفسدة ثم تكون المصلحة فيه أرجح من المفسدة وقد عرف العلماء ذلك فقالوا ما قالوا فى مسألة الجنين الذى فى بطن الميت ومسألة المال الذى ابتلعه الميت ولم يروا فى ذلك مخالفة لهذه الأحاديث التى ظنها حضرته نصوصا فى الموضوع وما هى منه فى قليل ولا كثير .

أما تقدم علم الطب بالتشريح فلم نجعلها أساسا لذلك ولكن ذكرناها على سبيل العلاوة والتكميل كما يعرف من مراجعة كلامنا .

هذا ودعوى أن تشريح الحيوان مثل تشريح الإنسان كما قال بعض الكاتبين دعوى لايقرها العلم كما هو معروف . وأبطل منها دعوى أن علم التشريح قد وصل إلى غايته حتى أصبح وليس فيه زيادة المستزيد ، دعوى يضحك منها الباحثون والمكتشفون وناهيك ما يقررونه الآن فى الغد وآثارها العجيبة مما لم يحلم به الأولون .

ولنذكر لك ما جاء فى بعض أعداد مجلة الهلال إجابة لطلب بعض قراء المجلة الذين ألحوا علينا أن نتوسع فى ذلك الموضوع الذى يهمهم كثيرا . « ولعل الشيخ العربى يقول إن صاحب الهلال مسيحى ينقل عن المسيحيين ثم يقوم فيرد علينا بذلك » . ولندع هـذا وما يشبه هذا وننقل لك ما جاء فى تلك المجلة قال ما خلاصته :

«إن فى الإنسان ما يشبه الأزرار الكهربائية ، إذا ضغطت أثرت فى جسمه نموا وسمكا وقصرا وطولاً وانتقالاً من طور إلى طور وهلم جرا . وهذه الأزرارهى الغدد المنقطعة(1) أى التى تفرز سوائلها بدون قنوات . فالسائل يخرج مباشرة إلى الدم لا تحمله إلى الأعضاء قنوات خاصة . فالكبد مثلا غدة كبيرة بل هى أكبرغدة فى جسم الإنسان ولكنها ليست منقطعة إذ هى تفرز الصفراء فى الأمعاء بواسطة المرارة . فالمرارة قناة تحمل الصفراء من الكبد إلى الأمعاء ولكن الغدة الدرقية التى تقع فى أسفل الحنجرة تفرز سائلها فى الدم مباشرة . فهى لذلك غدة منقطعة ».

إلى أن قال : « إننا نرى فى الإنسان بعدأن يعدو طور الجنين أن تشبيه الغدد بالأزرار الكهربائية ليس من المبالغات . فبعض الأطفال مثلا تمرض فيهم الغدة الدرقية فيبقون أطفالا من حيث الذهن ونمو الجسم مدى حياتهم ولا يمكن أن يبلغوا سن الرجولة العقلية والجسمية مالم يغذ دمهم بالغدة الدرقية المستخرجة من الفرس ». إلى أن قال : « فنحن الآن فى البيولوجية كما كنا فى الكيمياء قبل

(1) يعنى : الصماء .

مائتى سنة . فإذا دخلنا فى دور التجارب فإننا سنرى العجائب من الغدد » .

إلى أن قال :

« ولسنا ندرى الآن على وجه التحقيق ما هى تلك الغدد التى تجعل الأوربى حديد المزاج قوى الطبع فى حين أن الصينى خامل الذهن عديم النشاط »؟

إلى أن قال ؛ :

الخلاصة

أنه انفتح للغدد ميدان وهو كنز واسع لايزال يعد بكراً أو كالبكر فى أيدينا مفاتيحه ولكننا لم نتمرن بعد على فتح مغاليقه بها ».

ومن ذا يستطيع أن يقول إن العلم له غاية ؟ ويعجبنى قول بعضهم : إن الغاية اسم بلا مسمى وما يتراءى من وجودها فإنما هو بحسب العقل البشرى والخيال الإنسانى .

وهكذا يجب أن تكون سعة الربوبية وتصرفاتها وآثار قدرتها التى لانهاية لها ، والتى يرينا العلم كل يوم من آياتها العجائب والغرائب ، خصوصاً فى الإنسان الذى لاتنتهى عجائبه :(فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)(1) (وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(2) (ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(3) . (وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا)(4) .

(1) سورة الأنفطار ، الآية ٨

(2) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .

(3) سورة الأنعام ، الآية ٩٦

(4) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

فكيف يدعى مدع بعد ذلك كله أن تركيب الإنسان مثل تركيب الحيوان أو أن علم التشريح بلغ غايته ، والغاية مفقودة المسمى فى هذا العالم ؟

أسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يجنبنا الإفراط والتفريط فى القول والعمل بمنه وكرمه .

رؤية الهلال (١)
عند الغروب وبعد الفجر

رفع إلى بعض التونسيين الأزهريين سؤالا يقول فيه :

ماحكم الله إذا شهد شاهدان عند القاضى بأنهما رأيا هلال شوال عند غروب التاسع والعشرين من شهر رمضان ، فحكم القاضى بانتهاء شهر الصوم ، ولكن رآه آخرون بعد الفجر من تلك الليلة فصاموا ولم يفطروا معتقدين أن الشهر ثلاثون لاتسعة وعشرون ؟

ابو القاسم التونسى الأزهرى

الجواب

جاءنا هذا السؤال منذ زمان وجاءنا اليوم سؤال بمعناه من بعض مدرسى المدارس ، وقد طلب منا التوسع فى الجواب، نشره بمجلة الأزهر.

فنقول وبالله التوفيق غير معولين على ظواهر المنقولات ولايفيده كثير من العبارات ، وإنما نكتب ماىمليه علينا روح الشريعة السامى ونظرها البعيد :

ومن المعلوم أن الإسلام يُسر سَمح يأخذ بالظواهر ولايكلف الناس شططا . فهو يسع الناس جميعا على اختلاف أنظارهم وتباين آرائهم وتنوع اجتهادهم ، علما منه بان الله لم يخلق الناس على استعداد واحد . بل بينهم من التفاوت فى الاستعداد والتخالف فى

(١) مجلة الأزهر – الجزء التاسع – المجلد السادس – رمضان – سنة ١٣٥٤

التكوين والتباين فى الدرجات والاختلاف فى الآراء والأنظار مالايعلمه إلا الله تعالى .

ولم يتفق فى أفراد نوع من الأنواع من التفاوت مثل مااتفق بين أفراد نوع الإنسان . والشارع الحكيم –عز وجل– يعلم ذلك كله من خلقه « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (١) . والله يريد أن تكون هداية الإسلام عامة ورايته شاملة لكل من فيه مثقال ذرة من خير . وقد عرفنا أنه لاينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب . وقد جعل للمجتهد أجراً إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب فلم يكتف برفع الإثم عن المخطىء ، بل جعل له أجراً .

ولهذا لم يقل صلى الله عليه وسلم شيئاً لمن صلى العصر فى الطريق ولا لمن أخر الصلاة إلى بنى قريظة . ولمْ يَذُم على إمام السرية الذى كان يقرأ سورة الإخلاص دائماً ولاقال له إن الصبح يطلب فيها التطويل وأن الظهر تليها. إلى آخر ماقرره الفقهاء ، بل قيل أخبروه أن الله يحبه كما فى الحديث الصحيح ، إلى آخر ماهو كثير ومعروف من السنة النبوية والملة المحمدية .

وكأنه – صلى الله عليه وسلم – لايريد منا إلا عدم الخروج على الله ورسوله ، ولايكلفنا إلا أن نخلص النيات لله تعالى ونأتى الله بقلب سليم .فالدين الإسلامى لايتعمق تعمق الجاهلين ولايتصلب تصلب الجامدين ولايحب نضال المتعصبين ولاتشدق المتفيهقين ولاتنازع الثرثارين

(١) سورة الملك : الآية ١٤

وماكان شئ أبغض إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الفرقة والانقسام .

وكان المقصود الأسمى من بعثته –صلى الله عليه وسلم– إنما هو الوئام وإيجاد الألفة والمحبة بين المؤمنين وعدم التفرق فيما بينهم : « لَاتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَاتُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » .

وقد شرع لذلك وسائل كثيرة حتى جعل المصافحة مكفرة للذنوب وأمر بإفشاء السلام وندب إلى التهادى . ولم يبالغ فى شئ مابالغ فى حرمة المسلم كما هو معروف حتى جعله أعظم حرمة من الكعبة كما فى حديث ابن ماجه وغيره. ولولا تلك الأنظار السامية وذلك التسامح البالغ والرفق المتناهى ، لم يكن الإسلام دين الأمم كلها ولم يصلح إلا لقوم جامدين وطائفة مخصوصين :

اعتبار الاسلام للحقائق :

ولكنه مع هذا كله لايعتبر إلا الحقائق متى ظهرت ولايعدل عن الواقع متى تبين ، فهو دين الحق والعلم كما أنه دين الرحمة والحكمة فمتى عرفنا الحقيقة بأى وسيلة من الوسائل لم نعدل عنها. ومتى قام البرهان على شئ من الأشياء وجب المصير إليه والتعويل عليه فهو أكبر أنصار العلم وأعظم دعاة الحقيقة ولكنه لايحب التنطع الممقوت ولاالفلسفة الحمقاء .

الخلاصة

أن الدين الإسلامى لايعدل عما يوجبه الدليل وتقوم عليه الحجة فهو دين البرهان ودين البيان ودين الحقائق والدقائق ودين العامة والخاصة بأساليب وأسرار تبهر العقلاء وتدهش العلماء .

فإذا تبين هذا علمنا أن القاضى الذى يحكم على مقتضى بينة المساء لاشئ عليه بعد أن يعتقد أنهم صادقون فيما شهدوا به فإن كانوا كاذبين فى الواقع متعمدين لذلك فعليهم ما يستحقون من جزاء الكاذبين المضلين . وليس على من اتبع حكم القاضى فى ذلك شئ متى انقدح فى ذهنه صدق الشهود ولم يقم عنده برهان على كذبهم .

وكذلك نقول : من رأى القمر بعد الفجر لا شىء عليه ما دام يعتقد أن الشهر باق وأن اليوم من رمضان . وكذلك يجب الصوم على من صدقه واعتقد أن البينة الأخرى كاذبة عمدا أو خطأ .

ولا يمكننا أن نفتى بأن أحدا يخالف اعتقاده فى هذا وإن كان عليه أن يبحث عما هو الواقع فى نفس الأمر بقدر ما يستطيع . وكيف نلزمه بالفطر وهو يعتقد أن اليوم من رمضان أو نوجب عليه الصوم وهو يعتقد أنه يوم عيد ؟ ولا يسعنا أن نقرر إلا أن كلا يتبع ما يعتقد ولا يعدل عنه وأنه إذا خالفه كان منتهكا لحرمة الدين فيما يعتقده . ولم يكلفنا الله بإصابة الواقع وإنما كلفنا بالعمل باعتقادنا وقد اعتبرنا

ما يقرره الفلكيون فى حساب الأوقات وأمر القبلة وغير ذلك وقلنا فى كتبنا الفقهية :

قطب السما اجعل حذو أذن يسرى ... بمصر والعراق حذو الأخرى

إلى غير ذلك . وقد أكثر الله من ذكر الشمس والقمر وسيرهما المنتظم فقال : (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)(١) (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ)(٢) (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)(٣) .

ومعرفة علم الفلك من فروض الكفاية على حد محدود ، فلم تهمل الشريعة ذلك بالكلية . وسر ذلك أن عندنا أشياء يمكننا الوصول إليها وأشياء ليست كذلك . فما كان من قبيل المغيبات والحوادث المستقبلات فلا نخوض فيه لئلا نقع فى الغلط والجهل وننقاد بغريزة الوهم والخيال إلى مهامه لا نحسن السير فيها ولا الوقوف على خوافيها ، وإن صح أن نقول ذلك كله من قبيل الأسباب والمسببات ، ولكن لمَّا ألَّهَ بعض الناس الكواكب نهانا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الخوض فى النجوم خوفاً من الوقوف معها والانقطاع إليها .

فهذا ما نهينا عنه حرصاً على أوقاتنا وضنا بعقولنا عن المزالق التى لا علم فيها ولا ضرورة إليها . أما ما يكون من قبيل الحسيات التى

(١) سورة الرحمن ، الآية ٥

(٢) سورة يس ، الآية ٣٩

(٣) سورة يونس الآية ٥

عرفنا من مشاهدتها المتكررة أنها من سنن الله التى لا تتبدل ولا تتغير فهذه لابد منها ولا يمكننا العدول عنها . فإن الحقيقة لا يصح فى نظر الدين الصحيح إغفالها ولا القول بما ينافيها وإلا كنا قائلين بأن الدين يعادى العلم وهو ما نتحاشى عنه ونبرئ الدين منه . فإن كان هناك دين يعادى العلم فليس هو الإسلام الذى حث على الفكر ، ودعا إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض .

وبعد : فيجوز غلط الشهود فى الرؤية ويجوز تعمدهم للكذب وكثير من الناس يتخيل ثم يخال ، فعلى القاضى أن يتحرى غاية التحرى ويتيقظ لأمثال هذه الدقائق حتى يؤدى ما يجب لنفسه وللمسلمين .

غير أن لنا كلمة مع شهود الفجر ، وقد قال المدافعون عنهم إنه لا تمكن رؤية القمر بعد الغروب وبعد الفجر من تلك الليلة وهو ما نخاله صحيحا . ولكن نقول : كيف رأوه بعد الفجر ليلة ثلاثين والمحاق لابد منه باعترافهم ؟ وإذا كان هذا الفريق يرى أنه لابد من المحاق فكيف يسلم رؤية القمر بعد الفجر يوم الثلاثين ؟ وهل لا يجد فى ذلك تنافيا بينه وبين المحاق الذى أوجبه ؟

يجب أن يحرر هذا المقام تحريرا يثلج الصدر وتطمئن إليه النفس وقد تكلمت مع بعض الفلكيين عندنا بمصر فقال : إنه لا يمكن أحد أن يرى الهلال بعد الفجر بالعين المجردة فى ليلة ثلاثين ، فليحرر ذلك من هو أقدر منى على تحريره والدين النصيحة .

وليس قصدى أن أحقق المسألة الفلكية عند أربابها ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن الحقيقة متى تبينت ولو على يد كافر وجب اتباعها فى الدين الإسلامى ولا يصح غير هذا . ومن المحتمل أن يكون المرئى نجما من النجوم ظنوه قمرا أو عرض لهم الخطأ فى ذلك بأى سبب من الأسباب الكثيرة .

وبعد ذلك فلست أدرى بماذا ترجح إحدى الشهادتين على الأخرى واحتمال الصدق والكذب قائم فى كل منهما ، فعلام هذا التنازع وهذه الضوضاء ؟ فأرجو أن يتحرى الفريقان الإنصاف ويدعوا التعسف فيما بينهم ولا يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم . وهى كلمة ساقنى إليها حب الوئام وبغض الانقسام .

وكل ما أخشاه هو أن يقول المتحذلقون أو الملحدون ؛ إن الدين يعادى العلم وهى التهمة التى تلقفها بعض الشبان الأغرار من المسلمين عن ملحدى الأوربيين وذلك إن صح فهو فى دين غير دين الإسلام كما قلنا . ولا يبعد أن يقوم بعض الناس فيعارضنا ببعض الظواهر من كلام الفقهاء ، غير راجع إلى ذوق الشريعة وما ترمى إليه من أسرار سامية وأنظار بعيدة وما يجب لها من الصون عن تعريضها لقالة الجامدين أو طعن الملحدين . (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ)[1] .

ولسنا نتكلم إلا بما نعرفه من روح الشريعة الحكيمة المطهرة ولعل الله يهدى به كثيرا من عباده المنصفين المخلصين .

(١) سورة هود ، الآيتان ١١٨ ، ١١٩

ذكرنا أن الإسلام يسر سمح يأخذ بالظواهر ولا يكلف الناس شططا وغايته التى يرمى إليها من قرب أو بعد هى إصلاح القلوب وغرس مراقبة الله فيها وأبغض الأشياء إليه هو الفرقة والانقسام ، ولذلك وسع الناس جميعا على اختلاف أنظارهم وتباين آرائهم وتنوع اجتهادهم ، علما منه بأن الله لم يخلق الناس على استعداد واحد . بل بينهم من التفاوت فى الاستعداد والتخالف فى التكوين والتباين فى الدرجات والاختلاف فى الآراء والأنظار ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

ونصحنا فيها للمفطرين الذين عملوا بحكم القاضى الذى شهد أمامه شهود المساء برؤية هلال شوال وللصائمين الذين يقولون إنهم رأوا الهلال صباحاً واعتقدوا أن اليوم من رمضان :

نصحنا لهم جميعا ألا يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم ؛ وقلنا إن كلا يعمل على اعتقاده وما أداه إليه اجتهاده . ونصحنا للقاضى أن يتحرى ويحتاط فإن عليه تبعة كبرى إذا تهاون فى ذلك وعلى القضاة أن يعرفوا أحوال الناس وأن يكون لهم فراسة صادقة وبصيرة نافذة بحيث لا يخفى عليهم أحوال المجتمع الذى هم فيه . فليدققوا فى أمر الشهود وليعلموا أن الأمر جلل والخطب كبير والناقد بصير .

وقد أذكرنى ذلك قول بعض المفسرين فى قوله تعالى : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)[١] إنما نهاه الله عن اتباع الهوى بعد أن أمره أن يحكم بالحق لأن الحكم

(١) سورة ص ، الآية ٢٦

بالحق لا يخرجه عن المسئولية إلا إذا حكم بالحق لأجل كونه حقا ، فإذا حكم به لأجل كونه موافقاً لهواه لا كونه حقاً ، لم يكن من قضاة الحق بل من قضاة الهوى .

ولنذكر لك بعد ذلك الخلاصة التى يجب التعويل عليها فى رأينا ثم نعقبها بكلام بعض العلماء فنقول :

الخلاصة

الرأى الذى نرتئيه أنه لا يمكننى بحال من الأحوال أن أقول إنه يصح للإنسان أن يقدم على أمر وهو يعتقد حرمته أو أن يخالفه وهو يعتقد وجوبه ولا أن أقول إن الدين يخالف حقيقة علمية قررها العلم وقام عليها البرهان . ولا يصح أن نعرض الدين لهزء الهازئين وسخرية الساخرين فى عصر لا داعى للإطناب فى شرحه وبيان ما فيه .

ولا نزال نكرر أن الله لم يكلفنا بالواقع (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)[١] . وقد قرروا أن المجتهد يجب اتباع ظنه ولا يجوز مخالفته . وذكر الفقهاء أن من رأى طيرا فحلف بالطلاق وأنه غراب مثلا فنظر إليه آخر فحلف بالطلاق أنه حدأة ثم لم يتبين أمر ذلك لم يحكم بوقوع الطلاق على واحد منهما حيث لم يحلف إلا عن إعتقاد لم يتبين خلافه .

ولو سافر اثنان واشتبهت عليهما جهة القبلة وتخالفا فى أمرها لوجب على كل الأخذ بما أدى إليه اجتهاده ورأيه وتحريه ولا يجوز

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦

لأحدهما أن ينكر على صاحبه ، فإن هذا هو الواجب فى حق كل منهما ولا لاوم على من فعل ما وجب عليه . فإن مبنى الدين على إظهار العبودية والامتثال لأوامر الربوبية . وماذا نريد من التسامح بعد ما قال كثير من العلماء : إن الحق يتعدد ؟ فإن الواجب فى حق كل مجتهد ما أداه إليه اجتهاده .

وسره ما بيناه فى التمهيد من أن الله يعلم ضعف البشر فلم يكلفهم بإصابة الواقع وإنما كلفهم أن يحترموا أوامره ويجتنبوا نواهيه ، ولا يخرجوا عليه ولا على رسوله فيما يعتقدون .

أما من كان بعيدا عن تلك المباحث ولم يقع فى نفسه صدق إحدى الفرقتين وكذب الأخرى من أولئك الرائين فعليه أن يتبع حكم الحاكم ويكون مع السواد الأعظم .

ولا يفوتنا أن نقول : إن الشافعية يرون أن الحاسب يعمل بمقتضى حسابه فى حق نفسه . وكذلك من قلده مصدقاً له فى حسابه معتقدا أنه الواقع . ولقد أرى أن التقليد فى مثل هـذا إذا أمكن أن يرفع به الخلاف ويحصل به الوفاق أولى من الفرقة والانقسام والتنابز بالألقاب .

ولا أزال أكرر أن الله لا يبغض شيئا مثل الشقاق والانقسام ولا يحب شيئا مثل الألفة والوئام وقد كانت وجوه الخلاف عى عهد السلف الصالح لا تكاد تحصر ولم يكن بينهم تباغض ولا تشاتم فكانوا ورثة الأنبياء حقاً ، يحب بعضهم بعضا ويثنى بعضهم على بعض .

وقد طلب المنصور من الإمام مالك أن يحمل الناس على الموطأ فأبى علما منه — رضى الله عنه — أن الأمر فى الفروع هين وأن الظن فيه كاف وأن المخطئ فيه مأجور وأنه يجوز أن يكون الصواب مع غيره لا معه . وهذا هو شأن أئمة الهدى ، العارفين بأنفسهم وطبعها العالمين بسماحة الشريعة وسعتها .

هذا ما أملاه علىّ وارد الوقت بدون مراجعة ولا تعمق . ولا أزال أكرر أنى أحب من القضاة أن يتحروا غاية التحرى فإننا فى زمان كثر فيه الزور وطم فيه الفجور .

وبعد كتابة ما تقدم رأيت فى المسألة نصّاً صريحاً لابن عابدين الحنفى فى حاشيته على « الدار المختار » وكذلك لمولانا الشيخ محمد عليش فى فتاويه ، فرأيت من النصيحة للدين أن أنقل للقراء — وإن خالف ما تقدم لنا .

وإليك ما قال ابن عابدين : « أما إذا رئى يوم التاسع والعشرين قبل الشمس ثم رئى ليلة الثلاثين بعـد الغروب وشهدت بينة شرعية بذلك فإن الحاكم يحكم برؤية الهلال ليلا كما هو نص الحديث ولا يلتفت إلى قول المنجمين إنه لا تمكن رؤيته صباحا ثم مساء فى يوم واحد . وكذا لو ثبتت رؤيته ليلا ثم زعم زاعم أنه رآه صبيحتها فإن القاضى لا يلتفت إلى كلامه » .

وفى فتاوى مولانا الشيخ محمد عليش ما يتفق هو وما ذكره العلامة ابن عابدين فى النتيجة وطرح كلام المنجمين .

وبعض العلماء يحتج بقوله عليه السلام : « نحن أمة أمية » الخ . ويمكننا أن نجعل الحديث حجة لنا فإنه يشير إلى أننا إذا أصبحنا غير أميين تغير الحكم ووجب أن نعمل بما يقتضيه العلم .

ولكنى بعد هذا كله مصمم على ما قلته أولا من أن الدين الإسلامى لا يخالف حقيقة عملية متفقا عليها متى تبينت فليكن البحث والتحرى عن تلك المقررات التى أجمعوا عليها مدى العصور والدهور .

ومسألتنا مسألة محسوسات ومشاهدات لا مسألة تنجيم وتخمين . فإن ادعى مدع أن المشاهدات على غير هذا فعليه البيان . والدين الإسلامى لاينافض الحقائق على كل حال متى تبينت . وهؤلاء العلماء مع إجلالى البالغ لهم ، أقول إنهم ليسوا متخصصين فى علم النجوم وقد قال تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)[1] . مع ملاحظة ما تقدم لنا من أن هناك أمورا ظنية أو تخمينية لا يجوز الأخذ بها ولا التعويل عليها وأمورا قطعية لا شك فيها لا يجوز إهمالها ولا العدول عنها .

وعدم رؤية الهلال فى الصباح والمساء آخر الشهر مما أجمعوا عليه ولا تنس ما قدمنا لك من أن كل إنسان فى الفروع يعمل بما وصل إليه بحثه وانطوى عليه اعتقاده ، فلا يصح له مثلا أن يفطر وهو يعتقد وجوب الصوم ولا أن يصوم وهو يعتقد وجوب الفطر . ومن لم يتكون له اعتقاد فعليه باتباع السواد الأعظم وما قضى به القاضى إلى آخر ما أسلفناه .

---

(١) سورة النحل ، الآية ٤٣

فالدين الإسلامى يسع ذلك كله ، وليس يريد من الناس إلا أن يحترموا أوامر الله فيما يعتقدون ولا يخرجوا عليها . ولا يمكننى أن أحيد عن ذلك . وليختر كل ما شاء .

ولا أزال أكرر أنه لا بد أن نفرق بين ما هو قطعى عند علماء النجوم وما هو ظنى أو تخمينى ، غير أنى أرجوهم ألا يتنازعوا ذلك التنازع الذى يكرهه الله ورسوله .

والله يتولى هداانا جميعا بمنه وكرمه .

أسرار الصلاة [1]

ذكر المقصود منها

إن الله لم يشرع جميع العبادات ولم يكلفك بامتثال الأوامر واجتناب النواهى إلا رحمة بك ، وامتنانا عليك بما يفتح لك به أبواب السعادة ويغلق عنك أبواب الشقاوة .

وبعد هذا التمهيد العام نشرع فى بيان مقاصد الصلاة خاصة فنقول :

إنك تعلم أن الصلاة تشتمل على ضروب كثيرة من عبادة الله تعالى وتعظيمه فهى مشتملة على قراءة القرآن وعلى الذكر والتسبيح والخشوع والخضوع والثناء والدعاء والصلاة على الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى غير ذلك ، وكل واحدة من هذه عبادة برأسها . ولذلك كانت قرة عينه — صلى الله عليه وسلم — فى الصلاة وكان يقول : «أرحنا بها يابلال» وإذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، ويقول الله تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) [2] .

ولا غرو ، فالصلاة صلة بين العبد وربه وهى معراج الحضرة وبها المناجاة التى تطهر القلوب وترتفع بها إلى علام الغيوب وقد ورد أن الصلاة عماد الدين وفى القرآن الشريف (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ) [3] فالصلاة

(١) مجلة الإسلام — السنة الرابعة — العدد الخامس والأربعون — الصفحة ١٥ — سنة ١٣٥٤

(٢) سورة البقرة ، الآية ٤٥ .

(٣) سورة المعارج ، الآيات ١٩ — ٢٢

تطهر من جميع الرذائل وتوجب الاتصاف بجميع الفضائل وإذا داوم عليها الإنسان ارتفع إلى أوج الكمالات ، بعد أن كان فى حضيض أخس الصفات معرض لجميع الآفات .

لأن الصلاة تفيض على صاحبها من الأنوار ما يوجب له الرشد فى كل شىء وتمنعه أن يضل فى كل ما يأتى ويذر ، فيزول من نفسه سلطان الهوى وتتضح له الأشياء على ما هى عليه .

إن المصلى حقيقة إذا أراد الصلاة طهر قلبه من كل الشواغل التى كان فيها ، وهيأ سره لمناجاة ربه الذى يعلم السر وأخفى ، فقام إليها رافعا يديه إلى السماء طارحا كل ما سوى الله تعالى وراء ظهره قائلا لنفسه يانفس « الله أكبر » .

فإذا قال : (الحمد لله رب العالمين) استولى عليه ما بهر قلبه وحير لبه من عظمة تلك الربوبية التى أحاطت بجميع الأشياء ولم يخرج عنها مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ثم ينظر إلى سعة العوالم العلوية والسفلية وأن كلا تحت قهره ومسخر لأمره فيزداد دهشة ويظهر له تلاشيه فى جانب ذلك الملك الكبير وينكشف له عيانا أن مالكه العظيم لاتحيط به الأحلام ولا تصل إليه الأوهام (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [1] .

فإذا قال : (الرحمن الرحيم) ونظر ما أسبغه عليه من نعمه الظاهرة والباطنة وما عرفه من اللطف الإلهى فى جميع أطواره ، وكل

(١) سورة الشورى ، الآية ١٦

أحواله ، امتلأ قلبه بمحبة ذلك المنعم الذى يمن عليه بما يحب فى الرخاء ويلطف به عند نزول البلاء فهاج منه رجاؤه فى فضله وطمعه فى رحمته .

فإذا قال (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) تذكر أهوال القيامة (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ)(١) فيكاد ينخلع قلبه من الخوف لولا ما يعلم من سعة كرمه ورحمته ، فطار بجناحى الرجاء والخوف معرضاً عن جميع المخلوقات ، إلى حضرة رب الأرض والسموات ، عالما أن منه البداية وإليه النهاية ، وأنه إليه يرجع الأمر كله (بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٢) فناجاه بقلب لا يعرف غيره ولا يلوى على سواه قائلا :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) رأى نفسه مفتقرا إليه فى كل شىء وأنه لا يغنى عنه من الله شىء ، فترك كل شىء واستعان به على كل شىء ولما تم له فى هذا المقام مقام المناجاة بين يدى الله تعالى اضمحلال رسمه ، وتبين له ما هو وما مقدار علمه ، فوض له الأمر فى جميع الأشياء وترك الاختيار معه حتى فى الدعاء عالماً أنه إذا اختار أى نوع من أنواع الهداية وطلب الرشد إلى أى طريق من طرق السعادة فإنما يطالب ذلك بعلمه واستعداده الضعيف فوكل الأمر إليه وهو أعلم بالداء والدواء (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)(٣) فطلب منه تعالى أنجح الأدوية ، ودعاه بأعم الأدعية ، مما لا يصل إلى تفصيله علمه ولا يحيط به فهمه .

(١) سورة الانفطار ، الآية ١٩ (٢) سورة يس ، الآية ٨٣
(٣) سورة الملك ، الآية ١٤

فقال (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صراط الذين أنعمت عليهم) مستعيذا به من غضبه إذ كانت ترتعد فرائصه من قوله تعالى (وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)(١) خائفاً من نفسه الكثيرة الأهواء التى تضل عن سبيل الله قائلا بلسان العارفين بربهم ونفوسهم (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

ثم يقرأ من القرآن بعد ذلك ما يزيده من تلك الأسرار ويزج به بين سرادقات عالم الأنوار فيمتلىء من مخدراتها على قدر ما تطيق بصيرته ويرتقى من درجاتها بمقدار ما يقتضيه استعداده فإذا وصل إلى ذلك خشع لجلال تلك الهيبة (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)(٢) ولم يجد بدا من أن يركع فى تلك الحضرة قائلا بلسان روحه (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمْ) .

ثم يترقى فى مقامات القرب إلى أسمى مما كان فيه فيزداد خضوعاً وخشوعاً فيخر ساجداً لله تعالى مسبحا له عز وجل بكل ذرة من ذرات أجزائه (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى) إذ وصل إلى غاية العبودية فكان فى نهاية القرب فى تلك الحضرة الإلهية ، على قدم من قال له عز وجل :

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)(٣) ثم إذا جلس للتشهد لقى من أسراره التى أودعت فيه مالا يحيط به العقل ولا يأتى عليه القول .

(١) سورة طه ، الآية ٨١
(٢) سورة طه ، ١٠٨
(٣) سورة العلق ، الآية ١٩

أفتراه بعد ذلك إذا سلم من هذه الصلاة مفارقا عالمه الذى كان فيه نازلا إلى هذا العالم وقد أحاطت به تلك الأنوار وتملكته تلك الأسرار ، يمكنه أن يقارف منكرا من المنكرات ، أو يفعل هفوة من الهفوات أو يبقى معه لطيش النفس أثر من الآثار . بعدما نزلت عليها السكينة وحفتها الطمأنينة وجاء جند الله فذهب جند الشيطان . أم هل تقوم للكبرياء قائمة بعد ما عرف من ذلك الجلال ، وتقلب فى تلك الأطوار ؟ أم هل يبقى معه من الشح ومحبة مصالحه الخاصة بقية ؟ وهو العبد الذى تحقق بالعبودية الكاملة وباع نفسه بيعاً لارجوع فيه ،ولا اشمئزاز منه ، فصار لا يعرف لها حقا من خصوصياتها ولا أمراً من شخصياتها . فكانت حركاته لله وسكناته لله عالما (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ)(١) حتى إذا انغمس فى هذا الكون السفلى بعد الصلاة فلحقه من الاشتغال به ومن حركات النفس فيه شىء من الظلمات : وكادت تهجم على قلبه بعض الآفات ، تداركه الله بالصلاة الأخرى فأزالت ما كان من تلك الظلمة وأوصلته ثانية إلى عالم الحكمة فكانت مطهرة من جميع الأوهام رادعة عن جميع الآثام .

فقد يتبين لك سر قوله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)(٢) وسر قوله صلى الله عليه وسلم « مثل الصلاة كمثل نهر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليه بعد ذلك درن ؟ » .

(١) سورة التوبة ، الآية ١١١ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

ولعلك تستبعد أن يلاحظ الإنسان ذلك كله ، فاعلم أن القلب متى استنار ، ورد عليه من العلوم والمعارف فى اللحظة الواحدة ما يكل عنه القلم ، ولا تفى به العبارة فى الأزمان المتطاولة ، فإن عالم القلب أوسع من عالم التعبير ونسبة مافيك من العوالم على نحو ما فى العالم الخارجى وقد قالوا : إن الأرض بالنسبة إلى الفلك الأول كحلقة ملقاة فى فلاة وكذلك الأول بالنسبة إلى الفلك الثانى كحلقة ملقاة فى فلاة وهكذا فكذلك عوالمك العلوية مع عوالمك السفلية فافهم . هذا .

ويزداد عجبك وابتهاجك بعد ما تقدم لك إذا عرفت مالاجتماع المسلمين فيها وإظهار عظمة الشرع وجلاله فى نظر أعدائهم بما يرونه من هذا الارتباط المتين وتلك المظاهر المدهشة « مظاهر القوة والاتحاد » وفيما بين أفراد المسلمين حيث يستوى فى ذلك المالك والمملوك والغنى والصعلوك وما فى ذلك من غرس خلق التواضع فى النفوس واقتلاع أصول الكبرياء منها ، واستنزال الرحمة باجتماع القلوب متضرعة مبتهلة إلى الله تعالى فى وقت واحد قائلة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) واجتماع القلوب له أثر جليل عند الله تعالى وهو الذى يستثير السحب ، ويستنزل الأمطار وتستفيض الرحمات بخاصة ذلك التأثير الروحانى .

ولهذا شرع الاجتماع فى الاستسقاء والكسوف ونحوهما والشارع عناية كبرى باجتماع المسلمين فسن لهم أن يجتمعوا فى اليوم والليلة

خمس مرات وأوجب عليهم ذلك فى صلاة الجمعة كل أسبوع . ولما كانت فوائد ذلك قاصرة على أهل البلد الواحد شرع الاجتماع على وجه أتم «يوم عرفة » .

ذلك اليوم الذى يتلاقى فيه المسلمون من كل بقاع الأرض فيعرف بعضهم بعضا ، فيستفيد منه ، ويأخذ عنه ، ويتذاكرون فى أمور دينهم ودنياهم ثم يتوجهون إلى الله تعالى فى صعيد واحد يطلبون منه تعالى أن يعز دينهم ويرفع شأنهم .

وللقلوب فى اجتماعها تلك الخاصة العجيبة التى شرحناها فلا غرو أن تحفهم الملائكة وتحيط بهم الرحمات ، وتقبل الدعوات .

فيرجع كل منهم إلى بلاده ، وقد عز سلطانه ، وتم إيقانه بعد هذا الاجتماع ، وما بعده من الاجتماعات فى المشاهد العديدة التى تذكرهم أيام الله وآياته إلى غير ذلك من الأسرار التى يطول شرحها مما يرشدك إليه نور الإيمان وقوة الإيقان .

ولابد أن تكون قد عرفت سر قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «جعلت قرة عينى فى الصلاة » وأن يكون قد أخذ منك العجب كل مأخذ من تركوا الصلاة وهم كثيرون مع مالها من تلك الفوائد والأسرار ثم يزداد عجبك ويهيج أسفك عندما تراهم يحافظون على غسل أطرافهم ولا يتوضئون والوضوء أتم مما يفعلون ، وتراهم يحافظون على الرياضة البدنية ولا يصلون والصلاة مع أنها رياضة روحية هى أيضاً من أتم

أنواع الرياضة البدنية يتحرك فيها جميع أجزاء البدن مما لايوجد فى غيرها باعترافهم .

وما أدرى لنفورهم منها وعدم إقبالهم عليها ـ مع كونها لاتطول مدتها ، ولا تعظم مشقتها ـ سراً معقولا اللهم إلا سر الخذلان وانطماس نور البصيرة (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُور) (١) .

---

(١) سورة الحج ، الآية ٤٦

كيف تكتسب الأخلاق الفاضلة ؟؟(١)

وأن أول التربية ليست على ما يفهم الناس
وأن القوانين قليلة الغناء

ربما أطلنا عليك فى هذا البيان لما فيه من الفوائد الجمة ، وأرى الأولى بك ألا تسأم فعسى أن تجد فيه ما يكون كمالًا فى علمك وتزيد به فضلًا على فضلك .

إذا أردت ذلك فاعلم أن كثيرًا من الناس يظنون بأن الطريق إلى اكتساب مكارم الأخلاق والشفاء من أضدادها إنما هو تعلم العلم ومعرفة الضار من النافع والحسن من القبيح ، فيحسبون الاتصاف بالفضل والكمال لازمًا من لوازم العلم أيا كان كما يعتقده العامة أو من لوازم العلوم الشرعية والأخلاقية على ما يعتقده كثير من الخاصة ممن لم يعنوا بالبحث عن أسرار العلوم وأرواحها والتنقيب عن ملكات النفوس ومقتضياتها .

ولهذا كان للعلماء المحل الأول من النفوس وكأنَّ تعلم العلم هو الغاية المقصودة فى التربية .

وكثيرًا ما تسمعهم يقولون « فلان مترب » أى حائز لشهادة عالية ، وهو خطأ فاحش .

فإن تعلم العلم بمجرده قليل الجدوى . بل قد يكون لبعض الناس عونًا على ما يزيد من الشر ، فهو قوة العقل يستعين بها على ما يشاءُ . فإن

(١) مجلة هدى الإسلام ، السنة الأولى – العدد ٤٦ – سنة ١٣٥٤

صرفها للخير كان من أعظم الخيرين وإن صرفها للشر كان من أول الشريرين والسيف يقطع فى يد اللص كما يقطع فى يد المجاهد فى سبيل الله .

وقد قال بعض الحكماء إن الناس كالنبات وأن العلم كالغيث فإن أصاب حلو الثمر زاده حلاوة وإن أصاب مر الثمر زاده مرارة .

ولهذا ترى تلك التربية التى ينوهون بذكرها لم تطهر ذويها من رذائل الخصال وقبيح الفعال حتى إننا إذا لم نغتر (بتلك التربية العالية) ولم ندعهم وأهواءهم بل قيدناهم فى وظائفهم الإدارية أو القضائية بلوائح وقوانين ينقادون لها ويسيرون عليها تراهم يتوسعون ويتأولون كما يشتهون . وعلى ذلك حال كثير من العلماء بالنسبة إلى الشريعة الغراء وكأن استعدادهم الخبيث يحيلها إلى ما يوافق أهواءهم ، وليس هذا بالأمر العجيب فيما تفعله الاستعدادات .

وإن شئت فانظر إلى ما كتب على الأجرومية من صرف كل ما فيها إلى الاصطلاحات الصوفية وآرائهم وقد قال تعالى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) فالذى أضل به هو الذى هدى به ، فليس ذلك راجعًا إلى تغير فى عينه أو تبدل فى وصفه بل إلى اختلاف فى استمداد الفاهمين له ولعلك رأيت من هذا القبيل شيئًا كثيرًا .

فإذن ليس العلم طريقًا إلى اكتساب الفضائل ولا دليلًا على الاتصاف بالكمالات على الحقيقة . وإنما الطريق الذى يجب أن يسلكه طالب الكمال ويعتنى به المربى أتم اعتناء هو تعويد النفس الخلق الفاضل الذى يريد اكتسابه حتى يرسخ فيها رسوخ الملكات التى تتملك النفوس

(١) سورة البقرة الآية ٢٦

وتصدر عنها الأفعال بلا تكلف ولا عناء وإلا فهو تصورات ومعلومات لا أخلاق ووجدانات ، فإن الكمال لا يتم للإنسان إلا إذا انفعلت نفسه به وتكرر ذلك الانفعال المرة بعد المرة حتى تعتاده فلا تنفعل به وحينئذ يصير كيفًا راسخًا فيها فيلتحق بالغرائز الأصلية فتصدر عن الآثار الحميدة بغاية السهولة على نحو ما تصدر عنه الأفعال الطبيعية .

وهذا الذى قررناه جار فى اكتساب الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة . فإذًا يلزمنا أن نسارع بالعلاج ونفزع إلى الطبيب قبل أن يستحكم المرض ويعضل الداء فيعيي الأطباء ، فإنه إذا وصل إلى درجة الرسوخ والتحق بالطبيعيات كما شرحنا فقلما ينفع علاج أو ينجع دواء .

اللهم إلا الأقوياء العزمة القادرين على الضغط على نفوسهم المتعودين مخالفتها الذين لا يجبنون أمام أوامرها المؤيدين بتأييد من عنده تعالى : (وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) .

ولهذا تجد بعض من فيه شئ لا يليق بشرفه ومنصبه يتألم كثيرًا مما هو فيه ولكن لا يستطيع أن ينزع عنه بمقتضى ذلك الرسوخ وقد قال تعالى فى حق قوم من الكفار قد تأصلت فيهم تلك الملكات الخبيثة حتى صار يتعذر قلعها من نفوسهم لامتزاجها بها : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (١)) فليس الختم الذى ورد به القرآن شيئًا غير تملك السيئات للنفوس وإحاطة الظلمات بها : (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٧ (٢) سورة البقرة ، الآية ٨١

فالخلاصة أن الوسيلة لاكتساب الفضائل أن تمرن نفسك عليها بالعمل المتكرر ولا تضجر مما تلاقيه من العناء والمشقة زمن التمرين ، وتعتبر نفسك مريضًا يصّبر على مرارة الدواء لما يرجوه من حلاوة الشفاء وأن تأخذ نفسك باللطف والخدع فإنها سريعة الانخداع لا بالعنف والشدة فإنها شديدة العناد وأن تلاحظها فى مباديها ولا تستهين بها : « فَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ » وأن صغار الآفات تجر إلى كبارها من غير أن تحس بذلك لأنك تسير فيه بمقتضى ميلك إليه سيرًا طبيعيًا لا سيرًا فكريًا .

ولعل هذا هو المعنى بالاستدراج فى قوله تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)(١) .

وإن القوانين لا تجدى شيئًا ولا تضمن عدلًا مالم ينظر فى حال القائمين بها والمنفذين لها ، وأن التربية الفاضلة ليست بنيل الشهادات العليا كما يزعم أربابها . فيجب أن ينظر فيها حتى تكون تربية صحيحة تأتى بالغاية المقصودة منها .

وليس ذلك إلا فى التربية الدينية « والنظر فى إصلاحها قبل النظر فى إصلاح القوانين » وأن الاستعداد الخبيث كثيرًا ما يحيل الكلام عن ظاهره حتى يقطع النظر عن الغايات كلها ولعل هذا من جملة ما أريد من قوله تعالى : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)(٢) وأن تعلم العلوم ولو كانت دينية أو أخلاقية قلما يفيد .

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٨٢ (٢) سورة النساء ، الآية ٤٦

أسئلة متنوعة(١)

وردت الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل
الشيخ يوسف الدجوى خاصة فاجاب عنها

١ ــ إذا بنيت دار فى أرض غير مملوكة وأراد آخر أن يبنى بجوارها أو بنيت فى أرض مملوكة بإذن صاحبها أو كانت فى وسط القرية أو حفرت بئر كذلك أو غرست شجرة كذلك . فما حريم كل من الدار والبئر والشجرة المستحق من الجهات الأربعة فى الصور الثلاثة ؟

٢ ــ إذا وهبت هبة الثواب لأحد وأراد الموهوب له أن يثيب عليها فهل يجوز أن يثيب عليها من جنسها أو يتعين أن يثيب عليها من غير جنسها ؟ وهل هبة العرس كذلك إذا جرى العرف بالمعاوضة عليها ؟

نرجوكم كل الرجاء الفتوى فيما ذكر لأن أهل السودان يختصمون كثيراً فى العرصة التى بين الدور ونحوها .

أحمد أبو بكر مدنى الأنصارى
بالبجهرية بالسودان

الجواب

فالجواب عما سألت عنه أيدك الله :

١ ــ أن هذه الأرض إن كانت مملوكة وقد اشتراها صاحب الدار من مالكها فالشأن فيها المالك فإن شرط أن يكون له حريم كان لصاحب الدار ما شرط وإن لم يشترط فلا شىء له؛ ولكن لابد أن يكون له

(١) مجلة الأزهر ــ الجزء الرابع ــ المجلد السابع ــ ربيع الآخر سنة ١٣٥٥

بقدر ما قضت به الضرورة من طريق يوصل إلى الدار . وفى مسألة الشجرة والبئر لابد أن يكون له ما يمكنه من سقى الشجرة وأخذ ثمرها واستخراج الماء من البئر .

وإن لم تكن الأرض مملوكة فإن كان لأهل القرية انتفاع بها كأن كانت ناديا لجلوس القوم وحديثهم أو ملعبا للصبيان أو مناخا للإبل أو مراحا للغنم أو نحو ذلك ، فهى من مرافق البلد ومنافعه ولا يجوز لأحد أن يحدث فيها شيئا مما ذكر سواء أكانت هذه الأرض وسط القرية أم حولها أم بعيدة عنها .

وإن لم يكن لأهل القرية منافع بها أصلا وكانت غير مملوكة لأحد فهى الموات . فمن أحدث فى ذلك الموات شيئا مما ذكر ملكه وملك حريمه . وحريم الدار ما ينتفع به صاحبها من طريق يوصل إليها ومحل لرمى الأتربة والكناسة ونحو ذلك . ولا حريم لدار محفوفة بملك الغير من كل جانب . وحريم الشجرة قدر مد أغصانها ولو كانت قريبة من البلد على الصحيح . وقال بعضهم : لا بد أن تكون بعيدة من القرية ولا يجوز إحياء القريب منها . وحريم البئر أربعون ذراعا من كل جانب على ما رجحه بعضهم .

٢ ــ أما هبة الثواب فيصح أن يكون الثواب من جنسها لا فرق فى ذلك بين هبة العرس وغيرها . لكن إذا كان الثواب ربويا وشرط صحيحا فى عقد الهبة بأن قال : وهبتك هذا على أن تعوضنى ذاك وجب حينئذ تساوى العوضين فى متحد الجنس والتقابض فى المجلس لأن

الهبة إذا شرط فيها العوض صارت بيعا فتجرى فيها أحكام البيع كلها : من الرد بالعيب وأخذها بالشفعة والتساوى فى العوضين والتقابض قبل التفرق فى الربوى المتحد الجنس .

أما إذا لم يشترط العوض ولم يجر بذلك عرف فيما بينهم فللموهوب له أن يثيب عليها بما شاء من غير وجوب عليه . هذا هو الظاهر الذى ينبغى التعويل عليه ، خلافا لمن لا يعتبر جريان العرف ويقول لابد من الاشتراط الصحيح . هذا ما استخلصناه من أقوال العلماء ورأينا أن نسطره فى هذا الموضوع . والله يتولى هدى الجميع .

* * *

٣ ـ ما حكم صلاة الشفع والوتر جماعة عقب صلاة تراويح رمضان عند السادة المالكية ؟

الجواب

الحكم فى مذهب مالك أنه تكره الجماعة فى النفل إذا كانت كثيرة أو بمكان مشتهر .

قال الخرشى : « يكره اجتماع الجمع الكثير فى النافلة خشية الرياء ولو فى مسجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهذا فى غير التراويح والعيدين والاستسقاء والكسوف . وكذلك يكره اجتماع الجمع القليل كالثلاثة لكن بمكان مشتهر . أما بمكان غير مشتهر فلا كراهة إلا أن يكون من الأوقات التى صرح العلماء ببدعة الجمع فيها كليلة النصف من شعبان وليلة عاشوراء » .

والمراد بالنفل فى عبارة الفقهاء ما عدا الفرض بدليل استثناء الخرشى للعيدين والكسوف والاستسقاء . فالشفع والوتر داخلان فى هذه الأحكام الثلاثة فتكره صلاتهما جماعة عقب التراويح إذا اشتهر المكان ولو قل العدد ، كما تكره الجماعة فيهما أيضاً إذا كثر الجمع ولو لم يشتهر المكان . أما إذا قل العدد ولم يشتهر المكان فلا كراهة كما إذا صلاهما ثلاثة فى البيت جماعة . والله أعلم .

* * *

٤ ـ نرجو أن تفيدونا عن حكم علو الإمام على المأمومين والعكس ، أو علو بعض المأمومين على بعض ، وإذا أمكن أن تكون الفتوى على المذاهب الأربعة كان لكم منا الثناء المستطاب ، ومن الله الأجر والثواب .

احد مدرسى المدارس

الجواب

الحمد لله والصلاة على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فمن صلى مع آخرين خلف إمام واضطره ازدحام المكان بالمصلين إلى أن يصلى محاذيا لهم مرتفعا عن غيره بقليل فصلاته صحيحة ولا كراهة فيها . ولنذكر لك بعض نصوص المذاهب فى ذلك إجابة لطلبك فنقول :

قالت الحنفية : يكره ارتفاع مكان الإمام عن سائر المقتدين بقدر ذراع فأكثر فإن كان أقل من ذلك فلا كراهة ، كما يكره ارتفاع المقتدين عن مكانه بهذا القدر ، والكراهة مقيدة بأن لا يكون مع الإمام أحد منهم فإن كان معه بعضهم ولو واحداً فلا كراهة .

وقالت الشافعية : يكره ارتفاع مكان الإمام عن مكان المأموم وعكسه من غير حاجة كأن كان وضع المسجد يقتضى ذلك فإنه لا يكره الارتفاع حينئذ .

وقالت المالكية : يجوز علو المأموم على إمامه ولو كان المأموم بسطح المسجد . (وهذا فى غير الجمعة) وأما علو الإمام على مأمومه فهو مكروه إلا أن يكون بشىء يسير كالشبر والذراع أو كان لضرورة كتعليم الناس كيفية الصلاة أو ضيق المكان .

وقالت الحنابلة : يكره ارتفاع مكان الإمام عن المأموم ذراعا فأكثر أما المأموم فلا كراهة فى ارتفاع مكانه .

الخلاصة

أنه لا شىء فى ارتفاع بعض المأمومين دون بعض عند الحنفية ، ولا فى ارتفاع المأمومين ولو جميعا عند المالكية والحنابلة . وأن الحكم الكراهة عند عدم العذر فى مذهب الشافعية .

فقد اتفقت المذاهب الأربعة على كراهة ارتفاع مكان الإمام واختلفت فى كراهة ارتفاع المأموم . وذلك لأن الأول ثابت بالنص ، وأما الثانى فكان محل نظر . فالشافعية قالوا فيه بالقياس دون فقهاء المذاهب الأخرى .

والنص هو ما ورد أن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ صلى على دكان والناس أسفل منه فجذبه أبو مسعود البدرى الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ حتى

أقامه . فلما انصرف قال : أما علمت أن أصحابك يكرهون أن يصلى الإمام على شىء وهم أسفل منه ؟ قال حذيفة : بلى قد ذكرت حين جذبتنى .

قال الإمام النووى ـ رضى الله عنه ـ فى شرح المهذب : هكذا رواه الشافعى وأبو داود والبيهقى ومن لا يحصى من كبار المحدثين ومصنفيهم وإسناده صحيح ، والله أعلم .

أسئلة متنوعة(١)

وردت الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى خاصة فاجاب عنها

التصوير

ما حكم الصورة الفوتوغرافية أو الفنية لإنسان أو حيوان أو غيرهما كالأشجار من حيث النظر والاستصناع ؟

الجواب

يباح التصوير إن كان لصورة غير حيوان كالأشجار والبناء ، ويباح النظر للصورة سواء أكانت كاملة أم ناقصة ، لها ظل بأن كانت جسمية أم لا كالفوتوغرافية .

أما إن كان التصوير لحيوان سواء أكان إنسانا أم لا ففيه تفصيل : فإن كانت الصورة لا ظل لها ، كالفوتوغرافية كره عملها والنظر إليها ، وإن كان لها ظل فاستصناعها والنظر إليها حرام إن كانت تامة الأعضاء وإلا ففعلها والنظر إليها مكروهان أو خلاف الأولى .

هذا كله مقتضى مذهب مالك ، والله أعلم .

الصلاة خلف مرتكب الكبيرة

هل تصح الصلاة خلف مرتكب الكبيرة أولا ، وعلى الصحة فهل مع الجواز أو الكراهة ؟

(١) مجلة الأزهر – الجزء الخامس – المجلد السابع – جمادى الأولى سنة ١٣٥٥

الجواب

لا تشترط العدالة فى الامامة على الصحيح ، وإنما هى شرط كمال فقط . فالصلاة خلف مرتكب الكبيرة صحيحة مع الكراهة . ونصوص المتون عندنا معشر المالكية أنه يكره إمامة فاسق بجارحة ولو لمثله على الصحيح ، أى وتحرم خلف فاسق العقيدة ، والله أعلم .

حلق اللحية

هل يجوز حلق اللحية أو يحرم ؟

الجواب

حلق اللحية حرام لما ورد « قصوا الشوارب واعفوا اللحى » . والأمر يحمل على الوجوب ما لم يصرفه صارف عن ذلك .

نعم إذا طالت كثيراً يستحب تقصيرها لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم « كان يأخذ من عرض لحيته وطولها » . وهل المطلوب التقصير بقدر ما تحسن به الهيئة أو تقصير ما زاد على القبضة ؟ قولان ، الظاهر منهما الأول .

ومن أرباب المذاهب من يقول بالكراهة فقط ، فعلى من ابتلى بذلك وكان يشق عليه الخلوص منه كالعسكر مثلا أن يقلد المشهور من مذهب الشافعى مثلا ، والله أعلم .

ثبوت رمضـــان بالراديو

وجاءنا من البحرين من حضرات الأفاضل أصحاب التوقيع مانصه :

حضرة الأجل الفاضل علم الفضائل الشيخ يوسف الدجوى المحترم ، حفظه الله . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : فنفيد فضيلتكم أنه فى دخول شهر رمضان السنة الماضية فى أول ليلة منه وردتنا أنباء من مصر بواسطة الراديو برؤية هلال رمضان وثبوته الثبوت الشرعى بمصر ، والحال أنه فى تلك الليلة لم ير الهلال عندنا بالبحرين . وبسبب أننا لانعرف المذيع لهذه الأخبار ولا من تصدر عن أمره توقفنا عن تبييت الصيام تلك الليلة اعتمادا على هذه الأنباء . وقد كتبنا لمجلة الأزهر إذ ذاك فلم تكتب شيئا فى الموضوع . فرجاؤنا من فضيلتكم الإفادة الشافية عن ذلك .

الداعون لكم بخير — قضاة محكمة الشرع بالبحرين

عبد اللطيف سيد محمد
عبد اللطيف على
محمود عبد اللطيف

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فقد نص فى مذهب مالك — رضى الله عنه — على أنه إذا ثبت شهر الصوم لدى حاكم وإن لم يحكم به ونقل ذلك الثبوت إلى جهة أخرى بواسطة رجلين عدلين أو جماعة كثيرة يفيد خبرهم العلم بمضمونه أو الظن القريب منه أو بواسطة رجل عدل فإن الشهر يثبت

فى حق أهل الجهة المنقول إليها ، ويجب عليهم الصوم بناءً على ذلك الخبر فإن المسألة من باب الرواية التى يكفى فيها خبر العدل الواحد ، وإن كان ثبوت الشهر عند مالك لابد فيه من عدلين رأيا الهلال أو جماعة مستفيضة .

ونص المالكية أيضا على أنه يعتمد فى الصوم والفطر على القرائن الدالة عادة على ثبوت شهر رمضان أو شوال ، كصوت المدافع وإضاءة المآذن كما يعتمد على صوت المؤذن فى معرفة وقت الصلاة لجرى العادة بتوجيه الإنكار الشديد إليه من جماعة المسلمين لو كذب .

ونص مولانا الشيخ عليش فى فتاويه على أنه يعمل بالإشارات التلغرافية فى الصوم لأن التلغراف أداة معتبرة للتخاطب من المسافات البعيدة والقريبة بين ملوك العالم وحكامهم والناس أجمعين : وعلى أن من أفطر فى رمضان بعد وصول خبر الصوم له بواسطة السلك متأولا بأن هذا الخبر مبناه أقوال المنجمين التى لاتعتبر فى ثبوت الشهر شرعا فإنه تجب عليه الكفارة (فضلا عن القضاء) لأنه متأول تأويلا بعيدا لجهله وسوء ظنه فلا عبرة بتأويله .

(وألفت نظرك لجعله ذلك جهلا وسوء ظن) . والراديو بتلك المنزلة ولا يتصور أن يذاع مثل ذلك الخبر فى المذياع الذى يخترق الآفاق شرقا وغربا من غير أن يكون له حقيقة ، فإن فى ذلك كذبا على المحكمة الشرعية التى أخبر أنها أثبتت رؤية الهلال — وفيه تعريض الحكومة والأمة لما لاينبغى لدى الأمم الأخرى . ومن ذا يعرض نفسه

لتبعة ذلك وما يترتب عليه فى مثل تلك الفريضة التى يهتم بها المسلمون غاية الاهتمام ؟ وأكبر ظنى أن القانون يعد ذلك من الجرائم ويعاقب عليه . فالجناية إذاً مضاعفة وماسة بشرف الأمة والحكومة جميعا ؛ وذلك كله موجب لتصديق الخبر والاعتماد عليه . على أن الظن كاف فى هذه المسائل الفرعية ولا عبرة بتلك الاحتمالات العقلية .

الخلاصة

والخلاصة أن مدار وجوب الصوم فى رمضان والفطر أول شوال على الظن الغالب بثبوت شهر الصوم أو الفطر ، وحيث إن الغالب فى الأخبار التى ترسل بواسطة التليفونات أو التلغرافات السلكية واللاسلكية أو المذياع إنما هو الصدق بعد تحرى الحقيقة وإن كان المذيع أو عامل التليفون والتلغراف قد يكون غير عدل شرعًا أو اختلفت حكومة الجهتين المنقول منها وإليها فذلك لا يمنع غلبة الظن التى هى مناط العمل بالأحكام الشرعية العملية كأحكام الصوم والصلاة وما إليهما من المعاملات .

فان الشارع جلت حكمته لم يكلفنا فى العمل بالقطع واليقين دفعًا للحرج : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)[٢] . ومعلوم أن الأحكام العملية يكفى فيها الظن وأنه لا يجب فيها اليقين . وقد قالوا : إن غلبة الظن فى دخول وقت الصلاة كافية ، وقالوا : إن المجتهد يجب عليه العمل بما أداه إليه اجتهاده وأن المسائل القطعية ليست

(١) سورة الحج : الآية ٧٨

من مباحث الفقه . ولا يعقل فى الملة الحنيفية السمحة التى تقول : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وتقول : « إنَّ هَذَا الدِّين يُسْر » إلا هذا .

ولو قلنا إن أخبار المذياع والبرقيات السلكية واللاسلكية لا يعول عليها بناء على هذه الاحتمالات لوصمنا الدين الإسلامى ـ البعيد النظر ، الواسع الحكمة ـ بالجمود الذى يبرأ منه وينعاه على أهله ولصيرناه مضغة فى أفواه أعداء الدين وسخرية بين الزنادقة والملحدين ولكان غير صالح لكل عصر من العصور وحاشاه من ذلك .

ولو فرضنا أن المذيع أو عامل التليفون غير عدل أو غير مسلم لم يضر ذلك شيئًا لأن الخبر ليس منه ، وإنما هو مأمور بتوصيله إلى الجهة المعينة فهو كالبريد الذى يحمل الرسائل .

وعلى كل حال فليس هناك معنى لأن يغلب على ظن الإنسان ثبوت رمضان بأى وسيلة من الوسائل التى تحتف بها القرائن الموجبة لغلبة الظن ثم يصبح مفطرًا بعد ذلك . ولا شك أنه قد وجدت وسائل كثيرة فى هذا العصر لم تكن معروفة فى العصور الأولى .

والمدار فى كل ذلك على حصول المقصود الذى هو الظن الغالب ، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا . (وإلا لم تكن الوسيلة وسيلة بل كانت مقصدًا وقد فرضناها وسيلة) . والشارع لم ينط الأحكام إلا بحصول الظن الغالب . فهذا هو اللائق بنظر الإسلام الواسع حتى يكون دين العصور كلها والأمم كلها وتكون حجته قائمة على المخالفين

فى كل زمان ومكان . نعم بعض الأحكام العملية لا يثبت عند الاحتمال وقيام الشبهة كوجوب القصاص فى الجناية على النفس ولكن ذلك لدليل خاص كقوله صلى الله عليه وسلم : « إدرءوا الحدود بالشبهات » وذلك لخطر القصاص .

هذا ما نقول به :

ولا نفتى بشيء سواه . نسأل الله أن يعصمنا من الزلل ويمنعنا من الخطل ، وأن يلهمنا الرشد فى العلم والعمل ولا يكلنا لأنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

مسألة فى الطلاق (١)

ورد أيضًا إلى فضيلته السؤال الآتى :

ما قولكم دام فضلكم فى رجل قال : « علىَّ الطلاق من أول زوجة لا أفعل كذا » وقد فعله وتكرر ذلك منه ثلاث مرات ، ويريد الآن أن يتزوج فماذا يكون الحال ؟

نرجوكم الإجابة على المذاهب الأربعة إن أمكن ، وإن تفضلتم بذكر النصوص كان لفضيلتكم شكر على شكر . والسلام عليكم ورحمة الله .

سليمان أحمد رجب

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه :

وبعد : فقد بحثنا فى كتب المذاهب الأربعة ولنسق بعض نصوصها إجابة لرغبة السائل فنقول :

إن هذه الصيغة التى ذكرت فى السؤال لَغْو لا يقع بها شىء عند الشافعية إلا إذا كان على عصمة مملوكة . قال فى شرح المنهج : « وشرط فى المحل كونه زوجة مملوكة للمطلق ، فلو قال : كل امرأة أنكحها فهى طالق ثم نكح امرأة لم تطلق » .

وعند الحنفية لا يقع إلا إذا كان فى الملك أو مضافًا أى معلقًا على سبب الملك بأن قال : إن نكحت امرأة أو فلانة فهى طالق . فنكحها طلقت .

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثامن – المجلد السابع – شعبان سنة ١٣٥٥

وظاهر أن ذلك مبنى على قاعدة عندهم وهى أن الطلاق المعلق منجز عند وجود الشرط . فمن قال : إن نكحت امرأة فهى طالق فكأنه قال لها : أنت طالق عقب النكاح ، فكان الطلاق فى الملك فيقع . وأما عند الشافعية فالشرط قيد ، فكأنه قال : أنت طالق وقت النكاح ، فكان فى غير الملك فلا يقع .

وعند الحنابلة كذلك لا يقع الطلاق ولا يصح تعليقه إلا فى الملك . قال فى الإقناع : فإن قالت له أى زوجته : قل : كل امرأة أتزوجها غيرك فهى طالق ، فقال ذلك ولم يكن له زوجة غيرها ثم تزوج امرأة ، لم تطلق ، أى لأنه لم يكن مالكًا لعصمتها وقت التعليق . وهذا هو المذهب عندهم . واستدلوا بقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ الطَّلَاقَ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ » .

وأما عند المالكية فقد شرطوا شروطًا نص عليها فى (شرح الخرشى) قال : « وشرط المحل الذى يقع فيه الطلاق أن يكون مملوكًا للزوج قبل نفوذ الطلاق ، سواءٌ أكان ملكه حين التلفظ به ملكًا محققًا كزوجته التى فى عصمته أم تعليقًا ، سواءٌ أكان التعليق بالنية كقوله لأجنبية : أنت طالق ونوى إن تزوجها ، وأنت طالق إن دخلت الدار ، ونوى إن دخلتها بعد نكاحها ، أو بالبساط (1) كقوله عند خطبة امرأة : هى

(١) بساط اليمين : هو القرينة الحالية التى تدل على تقييد ما أطلقه الحالف .

طالق ، لأن وقوع هذا الكلام عند الخطبة بساط يدل على التعليق ولو مع فقد النية ، ومثل ذلك ما إذا قال ذلك حين قيل له : تزوج فلانة » .

فهذا هو حكم ما سألت فى المذاهب الأربعة قد تلوناه عليك ، ووكلنا أمر الاختيار إليك ، والله يتولى هدانا جميعًا بمنه وكرمه .

مسألة في الطلاق (١)

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأجل الشيخ يوسف الدجوى

تحية واحتراما : وبعد فأرجو من أريحيتكم الطاهرة ومكارمكم العالية إفادتي عن الآتي :

تنازع رجل مع زوجته فقال لها : إن كرهت أطلقك ، فقالت : كرهت ، فقال لها : أنت طالق ، فأعادت مقالتها ، فأعاد مقالته ثلاث مرات . مع العلم بأن الكراهة عندنا مستعملة في البراءة من مؤخر الصداق ونفقة العدة ، فهل بانت بالطلقة الأولى فلا يلحق مابعده على مذهب السادة المالكية ؟ أفيدونا مأجورين .

وندعو لفضيلتكم بعز الحياتين وسعادة الدارين .

محمد محمد العدوى
رئيس مكتب تل العمارنة

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

ليست الكراهة في مذهب مالك براءة ، فالطلاق المعلق عليها رجعى ، وحينئذ فالطلاق الثاني والثالث لاحقان للزوجة لأنها رجعية . وعلى ماذكر السائل من أن الكراهة براءة فيكون الطلاق بائنا عنده . فمذهب مالك أن الطلاق الثاني والثالث لاحقان أيضا لأنها زوجة عنده وبائنة

(١) مجلة الأزهر – الجزء الثامن – المجلد الثامن – شعبان سنة ١٣٥٦ هـ

عند الغير ، فيكون نكاحها كالمختلف فيه ، والنكاح إذا اختلف فيه ولو في مذهب الغير يلحقه الطلاق . ففي فتاوى الشيخ عليش مانصه :

ماقولكم في نازلة وهي أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقا مختلفا فيه في المذهب أو غيره بالبينونة أو الرجعة ثم بعد ذلك أوقع الثلاث ، فهل يلحق به نظرا للمخالف كمن طلق في نكاح مختلف فيه ، ويكون محل قولهم : البائن لايرتدف عليه غيره ، إذا كان متفقا عليه أولا ؟ أفيدوا الجواب . فأجبت بما نصه :

نعم يلحق به نظرا للمخالف واستحسانا واحتياطا للفروج إذا كان الإرداف في العدة . وقولهم : البائن لايرتدف عليه غيره إذا لم يكن نسقا ، مخصوص بالمتفق فيه على البينونة ففي ابن سلمون مانصه :

واختلف فيه أي قول الزوج لزوجته أنت طالق واحدة تملكين بها أمر نفسك دوني على ثلاثة أقوال : فقيل : إنه يكون طلقة رجعية كمن قال أنت طالق واحدة لا رجعة لي عليك فيها ، وهو قول أشهب ومطرف . والثاني : أنها تكون البتة كمن قال أنت طالق واحدة بائنة فإنها ثلاث ، وهو قول ابن الماجشون وابن حبيب . والثالث : أنها طلقة واحدة بائنة ، قال ابن القاسم وحكاه القاضي أبو محمد عن مالك وبه القضاء ، وكان ابن عتاب –رضي الله عنه– يفتي بأن من بارأ زوجه هذه المبارأة ثم طلقها بعد ذلك في العدة ، أن الطلاق يرتدف عليه استحسانا ومراعاة لقول من يراه رجعة ا هـ . والله أعلم .

هل يقع الطلاق فى الحيض(١)

استفتاء موجه لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ الدجوى ، وجوابه عليه :

زعم بعض أن الطلاق لايقع فى الحيض ، فرد عليه بحديث عبد الله ابن عمر المروى فى (موطأ الإمام مالك) فأجاب بأن هذا الحديث لايصح الاستدلال به للطعن فى بعض رجاله ، والإمام مالك لسلامة ضميره لم يفطن لذلك .

فأرجو من فضيلة مولاى القول الفصل فى هذا الموضوع .

عبد الحكيم عبد الرحيم

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما بعد : فهذا الرجل من أجهل الجاهلين بالإمام مالك ، وفيما قاله أغلاط فاحشة كما ستتضح لك ، فإن الحديث لم يروه مالك فقط ، بل رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم ، فهو حديث متفق عليه .

ومن العجب العاجب قوله : « ان هذا الحديث لايصح الاستدلال **به للطعن فى بعض رجاله : فكأنه أعرف بالرجال من مالك ومن البخارى ومسلم وغيرهم . وليت شعرى من ذلك المطعون فيه الذى لم يعرفه مالك ،**

(١) مجلة الأزهر — الجزء العاشر — المجلد السابع — شوال سنة ١٣٥٥

مع أنه لم يذكر فى هذا الحديث بعد مالك إلا نافع وعبد الله بن عمر وعمر بن الخطاب ؟

أما عمر فهو الذى وافق ربه فى مسائل كثيرة معروفة ، وقد كان من المحدثين(٢) وإذا سلك فجاً سلك الشيطان فجا آخر ، كما فى الأحاديث الصحيحة ، فلندع الإسهاب والإطناب .

وأما عبد الله بن عمر فهو صحابى جليل من أكابر الصحابة وعلمائهم وأهل الفتوى فيهم ؛ وقد شهد له صلى الله عليه وسلم بالصلاح ، كما فى الحديث الصحيح .

وأما نافع فهو من أجل التابعين ، حتى قال البخارى : « ان أصح الأسانيد ، مالك عن نافع عن ابن عمر » . وصرح كثير من المحدثين أن هذه السلسلة هى (سلسلة الذهب) .

وأما مالك فهو مالك وكفى . ولنذكر لك ماقيل فى أصح الأسانيد :

قال أبو داود : « أصح حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : مالك عن نافع عن ابن عمر ، ثم : مالك عن الزهرى عن سالم عن أبيه ، ثم : مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة » . فأنت تراه قد ذكر مالكا فى كل ماقال إنه أصح الأسانيد ، وبدأ بروايته عن نافع ، فماذا نقول لذلك الجاهل بعد هذا .

ولنذكر لك رواية الموطأ لتكون على بصيرة منها ، فإنها لم تذكر بنصها فى السؤال : « حدثنى يحيى عن مالك عن نافع أن عبد الله

(٢) أى الملهمين .

ابن عمر طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فسأل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا فَلْيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِى أَمَرَ اللهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ » .

ولا نطيل بذكر الروايات الأخرى التى جاءت فى البخارى وغيره .

وقد رأينا أن نذكر لك شيئًا عن مالك وما قاله أئمة هذا الشأن فيه لتعرف إلى أى حد وصل جهل هذا القائل . ولكن لا عجب ! فقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم أن من علامات الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها . وقد قال فى آخر هذا الحديث الذى أخرجه الترمذى وغيره : « فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء وخسفًا أو مسخًا وقذفًا » . وماذا ننتظر من ذوى الجهل المركب الذين حرموا العلم الذى يقفهم على الحقائق وينأى بهم عن الترهات ، والعقل الذى يرشدهم إلى أن ذلك يضرهم ولا ينفعهم .

وسر تلك المجازفات أنهم توهموا أنهم يذكرون بذلك بين الناس ، وقد غفلوا عن أنهم إذا ذكروا فإنما يذكرون على نحو ما ذكر الأعراب فى قوله تعالى : (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(1) .

---

(1) سورة التوبة ، الآية ٩٧

وما أجدرنا أن نتمثل بقول القائل :

إن العصافير لما قام قائمها   توهمت أنها صارت شواهينا

وقد جاء فى بعض الآثار : لا تقوم الساعة حتى يتكلم الرويبضة (والرويبضة الرجل التافه الحقير) .

ألا إنها الأيام قد صرن كلها   عجائب حتى ليس فيها عجائب

وقد قالوا قديمًا : « لو سكت من لا يعرف لارتفع النزاع » .

وهناك نموذجًا من احتياط الإمام مالك وتحريه :

قال ابن القاسم وهو من أجل أصحابه : كان مالك يقول : « ربما وردت على المسألة فأسهر فيها عامة ليلتى » . وقال ابن عبد الحكم : كان مالك إذا سئل عن المسألة قال للسائل : انصرف حتى أنظر ، فينصرف ويتردد فيها ، فقلنا له فى ذلك ، فبكى وقال : « إنى أخاف أن يكون لى من المسائل يوم وأى يوم . » وقال ابن وهب : قال مالك : سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط ولا أحدث بها . وقال الشافعى : كان مالك إذا شك فى الحديث طرحه كله .

أما شهادة العلماء له فشىء كثير لا يسعه هذا المقام ، وهاك قليلًا منها ، ولنبدأ بشهادة النبى -صلى الله عليه وسلم- له على ما رآه أجلة العلماء :

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « يُوشِكُ أَنْ تَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الإِبِلِ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ . وفى رواية : يَلْتَمِسُونَ الْعِلْمَ ، فَلَا يَجِدُونَ عَالِمًا أَعْلَمَ ، وفى رواية : أَفْقَهَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ » .

وفى بعضها : آباط الإبل مكان أكباد الإبل . وقد رواه البخارى عن ابن جريج موقوفاً على أبى هريرة –رضى الله عنهم– ، ومحمد بن عبد الله الأنصارى عن ابن جريج أيضاً مسندا ، وهو ثقة مأمون .
وخرجه أيضاً النسائى فى مصنفه مرفوعاً إلى أبى هريرة –رضى الله عنه– قال : رسول الله –صلى الله عليه وسلم– « يَضْرِبُونَ أَكْبَادَ الإِبِلِ وَيَطْلُبُونَ الْعِلْمَ وَلاَ يَجِدُونَ عَالِماً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ » . ورواه أيضاً أبو موسى الأشعرى –رضى الله عنه– عن النبى –صلى الله عليه وسلم– ، قال سفيان : نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن أنس . وفى رواية عنه كنت أقول هو ابن المسيب حتى قلت كان فى زمان ابن المسيب سليمان وسالم وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك .
وقال ابن جريج وعبد الرازق : نرى أن المراد به مالك أنه لم يوجد لغيره من علماء المدينة ممن تقدمه أو جاء بعده من الرواة والآخذين عنه مثل مالك ، وقد أبلغ بعضهم الرواة عنه ألفى راو .

وليعلم أن طلبة العلم لم يضربوا أكباد الإبل من مشرق الأرض ومغربها إلى عالم ولا رحلوا إليه من الآفاق رحلتهم إلى مالك .
فالناس أكيس من أن يمدحوا رجلا من غير أن يجدوا آثار إحسان

وقال سفيان بن عيينة لما بلغته وفاته : ما ترك على الأرض مثله .
وكان يقول : مالك سراج الأمة ، ومالك حجة الله ، وإنما كنا نتبع آثار مالك .

وقال الشافعى : مالك أستاذى وعنه أخذت العلم . وكان يقول : جعلت مالكا حجة بينى وبين الله ، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب .

وقال بقية بن الوليد : ما بقى على وجه الأرض أعلم بسنة ماضية ولا باقية من مالك .

وقدمه أحمد بن حنبل على الأوزاعى والثورى والليث وحماد والحكم فى العلم ، وقال : هو إمام فى الحديث والفقه .

وقال ابن مهدى وهو من كبار الحفاظ الذين كان يعظمهم الشافعى كل التعظيم : ما بقى على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من مالك .

وقال العقبى : ما أحسب مالكا بلغ ما بلغ الا بسريرة بينه وبين الله تعالى . وقال أبو زرعة وهو من كبار رجال الحديث : لو حلف رجل بالطلاق على أحاديث مالك التى فى الموطأ أنها صحاح كلها لم يحنث .
وقال بعضهم من أبيات كثيرة :

تفرق شمل العلم فى كل تابع   فكل امرئ منهم له فيه مذهب
فخلصه بالسبك للناس مالك   ومنه صحيح فى المجس وأجرب
فبادر موطأ مالك واستجل ما به   فما بعده إن فات للحق مطلب
ودع للموطأ كل علم تريده   فإن الموطا الشمس والغير كوكب
جزى الله عنا فى موطاه مالكا   بأفضل مايجزى اللبيب المهذب
لقد فاق أهل العلم حيا وميتا   فصارت به الأمثال فى الناس تضرب

ولا بأس أن نذكر لك شيئا مما امتاز به مذهب مالك ولا نكاد نراه فى غيره :

ذلك أن الإمام مالكا يتوسط فى الامور ، كمسألة اللمس : توسط فيها بين الشافعى والحنفى ، وكذلك مسألة السجود القبلى والبعدى ، وكذلك قراءة المأموم فى السرية دون الجهرية ، وكذلك عدد الجمعة ، مع ماله من الأنظار البعيدة ، كالمصالح المرسلة التى يطول الكلام فيها .

ولنختم هذا المقال بشىء وجيز من كلامه رضى الله عنه :

كان يقول : « لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس لها أهلا » وكان يقول : « ما جالست سفيها قط » وكان يقول : « لم أجد فى الناس أقل من الإنصاف فأردت المداومة عليه » . وكان يقول « كتبت بيدى مائة ألف حديث » . وكان يقول : « لقد ذهب حفظ الناس ، ما استودعت قلبى شيئا قط فنسيته » . وكان يقول : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : عند هذه الأساطين (وأشار إلى المسجد) فما أخذت عنهم شيئا ، وأن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أمينا ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » . وكان يقول : « لا يكون إماما من حدث بكل ما سمع » . وكان يقول إذا جاءه أحد من أهل الأهواء : « أما أنا فعلى بينة من ربى ، وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه » . ثم يقرأ (هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)[1] .

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٨ .

أما توقيره لحديث رسول الله فمما سارت به الركبان ، قال عبدالله ابن المبارك : كنت عند مالك وهو يحدثنا حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلدغته عقرب ستّ عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس ، قلت يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجبا ، فقال : نعم إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

ومما يلتحق بذلك أنه دخل يوما على الرشيد فحثه على مصالح المؤمنين وقال له : لقد بلغنى أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — كان فى فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة بالنار تحت القدور حتى يخرج الدخان من تحت لحيته — رضى الله عنه — ، وقد رضى الناس منكم بدون هذا .

هذا قليل من كثير ، فإلى الله المشتكى من زمان اختلط فيه الحابل بالنابل ، وطم فيه الجهل وبخس فيه الفضل ، واضطر كثير من العلماء إلى السكوت وملازمة البيوت يأسا من الإصلاح ، عالمين أننا فى آخر الوقت الذى يصير فيه المنكر معروفا والمعروف منكرا كما فى الحديث . ولا بأس أن ننشد فى هذا المقام قول الشاطبى ، وزماننا أصلب من زمانه ، وأقل أعوانا ، والمصلحون فيه أحرج مكانا ، ومع ذلك يقول :

بليت يا قوم والبلوى منوعة   بمن أداريه حتى كاد يردينى

دفع المضرة لا جلب لمصلحة   فحسبى الله فى عقلى وفى دينى

أسأل الله أن يصلح حال الأمة المحمدية ، وأن يعلى كلمة الحق ويكثر أنصاره ، ويعرفنا قدر أسلافنا الماضين بمنه وكرمه .

مسألة فى الوصية (1)

ورد إلى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى هذا السؤال :

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ يوسف الدجوى من هيئة كبار العلماء : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فأتشرف بإرسال السؤال المرفق بجوابى هذا ، وأرجو من فضيلتكم أن تفيدونا بما ترونه فى هذه المسألة ، ولكم الشكر الجزيل .

ماقولكم دام فضلكم فى وصية من رجل فى شدة مرضه مشتملة على الإيصاء بنقد معين يوزع على أناس معينين ، وبوقف عقار معين على شخص من القرابة غير وارث وعلى ذريته من بعده ، والثلث يسع الجميع ، والحال أن المريض المذكور لم يوص بثلث .

والذى أملاه الوصية هو ذلك الشخص المذكور الذى جعل لنفسه العقار ، وقد أحضر شاهدين عند المريض فقرأ الوصية أحد الشاهدين فقالا للمريض : أنشهد عليك ؟ قال نعم ، فذهبا إلى القاضى وشهدا شهادة مجملة ، وكتب القاضى : بموجب شهادتهما ثبتت لدى هذه الوصية وصحت ، وفى الوصية أن الوصى ابنه ، وقبل تحقق رشده

(1) مجلة الأزهر – الجزء الثامن – المجلد السابع – شعبان – سنة ١٣٥٥ هـ

جعل الناظر عليه الموصى له بوقفية العقار المذكور . وبعد وفاة الموصى صار المتولى هو الناظر ، فحاز العقار لنفسه ، وأخرج بعض النقود الموصى بها . ثم إن ابن الموصى المذكور أثبت رشده .

وبذلك ارتفع نظر الناظر عنه وبعد ذلك قام ذلك الابن بعد بلوغ رشده يدعى بطلان الوصية بزعمه أن والده حين الإيصاء لم يكن فى حسه وتمام شعوره . وحصل النزاع بين ابن الموصى وبين الناظر الموقوف عليه العقار ، فادعى الإبن بدعواه المذكورة ، وأنكر الناظر ذلك ، واحتج على صحة الوصية بتثبيت القاضى عليها بعد شهادة الشاهدين ، وأحضر الحاكم الشاهدين للوصية ليستبين منهما الشهادة فأجاب أحدهما بأن الموصى كان ناقص الحواس حين الإشهاد ، والاخر قال : أنا لا أجزم بوجود حواسه ولا بعدمها حين الإشهاد له على الوصية ، وقد أقام المدعى شهودا عدولا متعددين يشهدون أن الموصى لم يكن فى شعوره ولم تكن حواسه حاضرة ، كما أقام المدعى عليه شهودا أنه كان فى شعوره . ومن شهود المدعى عليه من له شىء معين فى الوصية المذكورة على لسان الموصى .

فهل يعد ذلك من الشاهدين رجوعا عن الشهادة الأولى ؟ وهل تثبيت القاضى على الوصية يعد حكما أم لا ؟ ويوجد فى الوصية إمضاء الموصى بقلمه ولكن الابن يعارض فى ذلك .

أفتونا مأجورين ، ولكم من الله الأجر والثواب .

سلمان بن احمد كمال

صاحب المكتبة الكمالية بالبحرين

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فقد راجعنا بعض كتب الفقه عندنا ، وسنتلو عليك بعض تلك النصوص ، وهاك ما استخلصنا منها :

(أولا) : قول القاضى الذى وقع أمامه الإشهاد على الوصية : « بموجب شهادتهما ثبتت لدى هذه الوصية وصحت» ليس حكما بصحة الوصية غير قابل للنقض وإعادة النظر فيها .

وذلك لأن الحكم عندنا معشر المالكية وإن كان لا يتوقف على لفظ « حكمت » بل يحصل بغيره كقول القاضى : نقلت الملك ، إلا أنه لا يكون حكما إلا بعد استيفاء مالا بد منه قبله ، ومنه الإعذار للخصم فى بينة المدعى . وفى الحادثة المسئول عنها لم يحصل إعذار له ، لأن الخصم فيها لم يحضر الإشهاد على الوصية لدى القاضى ؛ بل لو حضر لكان حضوره غير معتبر لعدم رشده إذ ذاك كما يفيده نص الاستفتاء .

وإذًا فما صدر من القاضى لا يزيد على كونه إثبات حالة قابلة للنظر فيها بعد .

(ثانيا) : نص الأمير فى حاشيته على مجموعه : أن من شرط الموصى أن يكون غير مخلط حين الإيصاء . ونص أيضاً نقلا عن السيد : أن الموصى له إن ادعى أن الوصية وقعت حال التمييز من الموصى فعليه إثبات ذلك .

(ثالثا) حيث إن المسألة بناء على ما قدمناه لم يقع فيها حكم ،

فرجوع شاهدى الوصية فى شهادتهما حيث قال أحدهما : أن الموصى كان ناقص الحواس عند الإشهاد ، وقال الآخر : أنا لا أجزم ، هذا الرجوع معتبر بأنه قبل الحكم ، وإذًا فشهادتهما الأولى لاغية لا تثبت بها الوصية .

(رابعا) : نص الفقهاء على أنه إذا وجد بينتان متعارضتان وجب أن يصار فيهما إلى الترجيح إن أمكن ، كزيادة العدالة فى واحدة منهما ، فإنه يجب الأخذ بقولها دون قول الأخرى ، وكوجود تهمة معتد بها توجب سقوط إحدى البينتين . فإن لم يوجد مرجح سقطتا . هذا ومجرد كون الشهود من إخوان المشهود له لا يقتضى بطلان الشهادة ولو كان الشاهد صديقا للمشهود له متى كان مبرزا فى العدالة ولم يكن ممن ينفق عليه المشهود له .

الخلاصة

والخلاصة أنه يظهر من وقائع هذه الدعوى أن هذه الوصية لم يقم دليل صحيح على صحتها واعتبارها شرعا . فإما أن يقيم الموصى لهم دليلا صحيحا سالما من المعارضة على أن الموصى كان أهلا للوصية حين الإيصاء ، وإذًا يجب تنفيذها ، وإلا فهى باطلة وترجع الأعيان الموصى بها ميراثا .

ولابد حين قيام البينة المقضية لصحة الوصية من ثبوت أن التوقيع عليها كان بخط الموصى ، لأن ابنه يطعن فى ذلك ، ويدعى أن التوقيع ليس بخطه .

أسأل الله أن يلهمنا جميعا الرشد فى القول والعمل بمنه وكرمه .

الدين أنفع للعمران (1) من كل القوانين

كتبنا مقالا ضافيا بالأهرام بتاريخ ٢٩ أبريل سنة ١٩٢٢ تحت عنوان (صوت منبعث من قلب الشرائع جمعاء) طلبنا فيه من زعماء الأمة وحكومتها أن يجعلوا قانون البلد هو القانون الشرعى وقلنا لهم : إنكم ملكتم من أمركم مالم تكونوا تملكون ، وقد دخلتم فى دور جديد من نهضتكم المباركة فعليكم أن تنهضوا بها فى دينها وقوانينها أيضاً عسى أن يرجع للأمة الإسلامية مجدها الذى كانت متمتعة به ، حينما كان يمتد سلطانها إلى الصين شرقاً وأرض فرنسا غرباً ، فكانت إذ ذاك أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق .

وها نحن أولا خطونا خطوة أخرى فى نهضتها المباركة . فهل لحكومتنا السنية وزعمائنا الكرام أن يحققوا ذلك الأمل الذى يعود عليهم بالفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة ؟ (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)(2) .

وقد عاودنى الأمل فى تحقيق تلك الأمنية فكتبت هذه الكلمة اليوم راجياً أن يكون الوقت قد حان لاستعادة مجدنا الأول فى أخلاقنا وآدابنا وعاداتنا وتكوين نفوسنا التى ورثت الإيمان والإسلام عن آبائها وأجدادها فنقول وبالله التوفيق :

(1) مجلة الازهر – الجزء السابع – المجلد السابع – رجب سنة ١٣٥٥

(2) سورة محمد ، الآية ٧ .

إن الواجب الآن على الأمة المصرية وقد هبت تريد المثل الأعلى فى حياتها أن تعمل فى بقية النواحى الدينية والأدبية التى لعلها أجدى عليها وأنفع لها . وقد شرعت مصر تغير قوانينها فواجب عليها أن تتبع الطريق الاجتماعى فى مثل هذه الحالة وهو أن يكون التقنين الجديد على أتم وضع وأعظم فائدة . وقد أصبحوا والحمد لله أحراراً فى كل مايعملون ويشرعون ؟ .

ولعمرى إن الأمر لأوضح من الصبح فإن تشريعنا الذى لم يمر عليه قرن ولا نصف قرن قد ظهرت عيوبه وقد هبوا يطلبون له الإصلاح والتعديل ولكن ذلك التشريع السماوى مكثت فيه الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرناً قبل ذلك فكانت خير الأمم فى راحتها وهناءتها . وما انحط شأنها وتضعضع مجدها إلا من يوم غيرت وجهتها واتخذت لنفسها قوانين غير قوانين ربها الحكيم العليم .

تلك القوانين السماوية التى تسيطر على الظواهر والبواطن ، وتملأ القلوب مراقبة لله وخوفاً من الله .

تلك القوانين التى تقول لهم : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)(1) .

تلك القوانين التى توجب عليهم أن يكونوا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق ولا تزال بهم حتى تجعلهم ملوكا فى الأرض ملوكا

(1) سورة الزلزلة . الآيتان ٧ ، ٨

فى السماء . وأن الباحث المدقق بنظرة واحدة يتجلى له الفرق الشاسع بين أدوارها الأولى عندما كانت متمسكة بدينها عاملة بشريعتها وبين أدوارها الأخيرة عندما نبذت شريعتها وأخذت بتلك القوانين الأجنبية التى تباين استعدادها ولا تلائم مزاجها ولا تطهر نفوسها ولا تعنى إلا بالأشباح دون الأرواح وبالشكليات دون الحقائق فانحطت عندها الآداب والأخلاق فتمكنت منها محبة الذات والانغماس فى الشهوات فصار الناس وحوشاً ضارية يأكل قويهم ضعيفهم وأصبحوا كالحرباء يتلونون بكل لون ويلبسون لكل حالة لبوسها ، ويعدون للمسئولية القانونية عدتها من الغش والتزوير وتنميق الألفاظ وتحسين الظواهر ، إلى غير ذلك مما لايأتى عليه الشرح ولايبلغه البيان .

فهل للأمم الإسلامية أن تتنبه وقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين فترجع إلى شريعتها التى جربتها فى القرون العديدة وبلغت بها فى أقل من قرن واحد مالم تبلغه الرومان فى عدة قرون ؟ .

ولا غرو فقد كان المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها كالبنيان يشد بعضه بعضاً أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تألم له سائر الجسد (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ)[1] .

ولا دواء لهم والله إلا الرجوع لشريعتهم ولا شىء أنجح فى وحدتهم الحقيقية — لا وحدة الرياء والمصانعة — من رجوعهم إلى الدين الصحيح ولادواء أنفع فى استرجاع مجدهم السالف الذى كانوا به أعز الأمم على

(١) سورة المدثر ، الآية ٤٩

الإطلاق وأرفعها على الإطلاق من ترسم خطا نبيهم والاقتداء بعظماء أسلافهم .

إن الإسلام جاء بمجامع السعادات كلها لجميع أفراد النوع الإنسانى ، فلم يأمر من يعتنقه بالعمل لإسعاد أمته فحسب بل لإسعاد الإنسانية عامة والرحمة بكل فرد وكل مخلوق .

أما الذين يرمون الدين بأن فيه أشياء لاتلائم العصر ولا تسيغها المدنية الحاضرة فهم جهال بحقيقة الدين وبعد نظره فى علاج الناس بما يقوم اعوجاجهم ويصلح أودهم . وما مثل ذلك عندى إلا كمثال مريض فسد مزاجه وضعفت قابليته فأصبح غير قابل للدواء ولا واثق بالأطباء أو كمثال طفل لا يعرف من الدنيا غير شهواته ولو أتت على الأخضر واليابس فهو لا يعرف للحكمة معنى ولا للحكماء قدراً فهو ينظر إلى ما يشيرون به نظر الهازىء المستخف لأنه لا يستطيع أن يدرك مراميهم ولا بعد غاياتهم ولا أسرار حكمتهم .

ولنهجم بك على أصعب شىء فى الدين الإسلامى عند هؤلاء المتفيهقين من ذوى الحضارة الجديدة : أصعب شىء جاء به الدين الإسلامى فى نظر هؤلاء هو الحدود ، وأشدها رجم الزانى المحصن وقطع يد السارق . ولنبين لك من أسرارهما ما يجعلك تنطق بأن الدين الإسلامى ماجاء إلا بالحكمة البالغة التى بها رقى العمران ، وسعادة بنى الانسان .

ولنشرح لك شيئاً من مضار الزنى ثم نعقبه ببيان الحكمة فى مشروعية رجم الزانى المحصن فنقول :

إن فى الزنى مضارا كثيرة وربما أدى إلى القتل وكثيراً ما كان ذلك لمزيد الغيرة الطبيعية ولما يلحق أهل المرأة وزوجها من العار وما يترتب على ذلك من إفسادها على زوجها وسوء عشرتها له أو فراقها وفراق أولادها وما فيه من إفساد هذا الزانى على زوجته العفيفة فضلا عما وراء ذلك من ضياع الأنساب المؤدى إلى ترك التناصر ، وما فيه من غش الغير فى النسب الكاذب وتمليك الأموال لغير مستحقيها عند التوريث وضياع الولد لعدم من يربيه حق التربية ولصوق العار به لعدم معرفة أبيه وسوء الحالة فيه طول عمره ولزوم المذلة والانكسار له فيما بين الناس ، بله انتشار الأمراض الخطرة التى تنتقل منه إلى غيره وتورث عنه فى أولاده وأولاد أولاده كالزهرى والسيلان ، إلى غير ذلك من المفاسد التى يطول شرحها .

وبعد : فأنت تعلم ما يترتب على فساد البيت عند تطلع المرأة لغير زوجها ، واتخاذها أخداناً فى الخفاء وما يلحق الزوج من الغيرة التى كثيراً ما تؤدى إلى قتل ذلك المنتهك لحرمته أو قتله هو فى ذلك السبيل وما يلحق أهلها من العار الذى كثيراً ما يؤدى إلى قتلها . وقد كان هذا من أسباب وأد البنات فى الجاهلية والغيرة فى هذا طبيعية حتى فى الحيوانات .

فإذا قضينا على تلك الجريمة التى تؤدى إلى هذه المفاسد كلها بقتل رجل ثبت عليه الزنى وهو محصن – ولا يثبت عليه ذلك إلا بعد اللتيا

والتى – نكون قد ارتكبنا أخف الضررين وسلكنا طريق ذلك المثل العربى المعروف « القتل أنفى للقتل » .

مع أن ثبوت الجريمة التى توجب الرجم يكاد يكون مستحيلا عادة ولكن حصوله مرة واحدة فى قطر من الأقطار يوجب حفظ نفوس لاعدد لها وصيانة أعراض لاتدخل تحت الحصر وشرف أسر لايعلمها إلا الله عن أن تقع فى العار والفضيحة فضلا عما يدهور المجتمع كله عندما تفشو فيه المنكرات لأن الأمم بأخلاقها وآدابها ولأن كل أمة تفشو فيها المعاصى تسقط من عين الله تعالى فيحيق بها البلاء من حيث تعلم ولا تعلم (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)(١) .

على أن الشريعة قد أتت فى هذا بالعجب العجاب فملأت قلوب المجرمين خوفاً وذعراً ، وفى الوقت نفسه شرطت للحد شروطاً لاتكاد تتحقق إلا فى النادر الذى لا حكم له بل لا يكاد يوجد إلا فى ظرف غير عادى .

فأنت تراها أولا تقول : « ادرءوا الحدود بالشبهات » وثانياً تشترط فى ثبوت الزنى أربعة شهود (مع أنها تكتفى فى إثبات القتل بشاهدين) .

وثالثاً : توجب حد القذف على الشهود إذا لم يكونوا أربعة أولم تتم شهادتهم بأى وجه من الوجوه .

(١) سورة الشورى ، الآية ٣٠

ورابعاً : **تشترط عليهم أن يكونوا رأوه كالمرود فى المكحلة ، وأنى لهم ذلك والحادثة مما لا يكون إلا فى أخفى الخفاء حتى فى الحلال** فضلا عن الحرام ؟ .

وهب أن واحدا رأى ذلك أو اثنين فكيف يتيسر رؤية أربعة فى وقت واحد ؟ وهب أنهم رأوه معها أو رأوهما متجردين فى فراش واحد ، فكل ذلك غير كاف ولا موجب للحد بل على الشهود الذين شهدوا بالزنى حد القذف .

فمن يعرض نفسه لهذا المأزق الذى لا ينتهى غالباً إلا بحده هو ؟ وإذا وثق من نفسه فكيف يثق بالثلاثة الباقية من الشهود ؟ وكيف يتأتى لهم جميعاً أن يضبطوا هذه الرؤية ؟ إلى غير ذلك مما هو غنى عن الشرح .

ومع تلك العقبات كلها فضلا عن درء الحدود بالشبهات فقد استطاع الدين أن يقضى على تلك الجريمة الشنعاء . ومنصفو الأوربيين يعترفون بالفرق الشاسع بينهم وبين المسلمين فى ذلك خصوصاً فى عهودهم الأولى . والإحصائيات عندهم فى ذلك مدهشة مخجلة .

وقد شرع الدين بجانب هذه الشدة فى عقوبة الزنى إباحة تعدد الزوجات وسهل الأمر فى ذلك لما ذكرناه ولما فيه من الفوائد العديدة وليس يغيب عن القراء ما قررته بعض الحكومات من المكافأة على كثرة الأولاد ، ولولا سلطان البيئة التى هى فيها لأباحت لهم تعدد الزوجات .

هذا وقد قال بعض الأوربيين : « إننا نوجب الاقتصار على الواحدة فى الزواج الشرعى ولكن نتخذ من الخليلات غير الشرعيات ما لايقف عند حد فنضيعهن وأولادهن بلا شفقة ولا رحمة » .

فأنت ترى الإسلام منع هذه الجريمة بالخوف من تلك العقوبة الشديدة وأوعد عليها بأشد العقاب فى الآخرة وشرع ما يغنى عنها . ومع ذلك وضع من الشروط التى تحول دون إثباتها مايجعل وجود الحد بعد تلك الشروط مستحيلا أو كالمستحيل .

فأى نظر أبعد من هذا ؟ وأى حكمة أبلغ من تلك الحكمة التى صانت الأعراض والنفوس ولم تسرف فى القتل ولا جعلت الأمر جزافاً ؟ أليس ذلك أسمى حكمة وأبلغ تشريع ؟ .

أما قطع يد السارق فأمره من أوضح الواضحات : فإن اللص يخرج من بيته موطناً نفسه على أن يَقتُل أو يُقتَل . وكثيرا ماقتل وقُتِل .

ومن جهة أخرى تستطيع أن تتصور فظاعة الجريمة إذا تخيلت امرأة عجوزاً تسعى على أيتامها بقليل من المال فيطلع عليها ذلك اللص فيسلبها رأس مالها الذى تعيش به هى وأولادها المساكين ، فهى إن لم تلق الموت السريع من أيديهم لقيت الموت البطىء من جراء ما فعلوه بها وبفلذات كبدها الذين أصبحوا فى حالة تذيب القـلوب وتدمى العيون ، إلى غير ذلك مما تعرفون ولا تجهلون .

وقد انتشرت تلك الحوادث فى بلاد العالم كله انتشاراً يثير الأسف الشديد والحزن العميق ولو أقمنا الحد الشرعى مرة واحدة لأخفنا الجميع خوفاً تصبح به السجون خالية من أولئك اللصوص وتستريح به إدارة الأمن العام من تلك المزعجات المقلقات التى فشلت فيها اللوائح والقوانين وضجت منها رجال الشرطة وقضاة المحاكم .

وعلى أن ذلك الحد داخل فى عموم الحدود التى تدرأ بالشبهات كما قلنا . ولعلماء الحنفية فى ذلك تفصيلات تجعل الأمر سهلاً لدى الحاكم المتبصر حيث قالوا : إذا صمم المسروق منه على تضمين السارق المال المسروق ، سقط عنه الحد لأنه لا يضمنه له إلا وقد ملكه إياه . على تفصيل وكلام طويل .

والمقصود أن فى مذاهب الأئمة من الآراء والأنظار سعة كبيرة . ونحن راضون أن يختار بدل هذه القوانين الأوربية قانون شرعى من كل المذاهب المعول عليها فى الدين الإسلامى ، وفيها من السعة والفسحة والأنظار الحكيمة ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فذلك خير من القوانين الأوربية على كل حال .

الخلاصة

والخلاصة أن المسلمين إذا عملوا بتعاليم دينهم وربوا أولادهم على المبادىء الشرعية والإخلاص فى جميع الأمور كما تقتضيه مراقبة الله والخوف منه ثم أكملوا العمل بما جاء به نبيهم فاتحدوا جميعاً وكانوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً أو كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى

له سائر الجسد بالسهر والحمى . إذا فعلوا ذلك كله فقد استعدوا لأن يستعيدوا مجدهم السالف وعزتهم التى كانت لهم : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)(١) .

وإياك أن تصغى لأولئك الملحدين من المتفيهقين الذين لم يعرفوا من العلم الصحيح شيئاً ولا لهم من الوجدان الرفيع ما يذوقون به أسرار الدين أو يتعرفون به الحق ويفقهون برهانه وإن كانوا من ذوى الزخرف والتشدق الذين يخيل لك أنهم قرءوا كثيراً ودرسوا كثيراً ، فالعلم أجل من أن يصل إلى حقائقه كل ناظر فيه أو يذوق أسراره كل من يدعيه .

وقد قرر الفلاسفة أن كل من أخذ من العلم ما ليس مستعداً له كان ضرر ذلك العلم الذى أخذه أقرب من نفعه ، وكان بمنزلة ضعيف المزاج الذى لا يستطيع أن يهضم ما تناوله من الغذاء ، فلا غرو أن ينقلب إلى فساد .

كذلك أدعياء العلم الذين لم يخلقوا له إذا قرأوا شيئاً من العلم لم يحسنوا فهمه فأولوه على ما يناسب استعدادهم ويوافق أهواءهم لأنه لم ينهضم عندهم وكان خيرا لهم ألا يأخذوه .

ولذلك يروى فى المأثور « ما من أحد يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان حديثه فتنة عليهم » . وذلك لأنهم لم يفهموه على وجهه .

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨

والعقول عند كثير من الناس مسخرة للأهواء لا مسخرة لها فهى لا تستمد إلا منها ولا تصدر إلا عنها ، وكان الواجب فى حقهم الحمية عما لا يستطيعون معرفته كما يجب احتماءُ المريض عما يضره من الغذاء وإن كان ضرورياً لغيره .

وربما طرقنا هذا الموضوع مرة أخرى . والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه .

هل يجوز الدعاء على المسلم بالكفر[1] ؟

مارأيكم أدام الله فضلكم فى رجل يدعى العلم ، وقد أذنب أحد أصحابه ذنبا على زعم ذلك المدعى ، فصار يدعو على هذا المذنب قائلا مانصه : « اللهم أعم بصرك يافلان . اللهم اسلب إيمانك يافلان . اللهم أمتك على الكفر يافلان » فى جمع من المسلمين : فغضب أحدهم وامتنع عن مصاحبته ، فعلم ذلك المدعى بسبب امتناعه : وهو الدعاء ، فخطأه وأفتى بجواز ذلك الدعاء ، وأصر عليه ، فنرجوكم بإلحاح الإجابة على ذلك ، ولكم من الله الثواب ، ومن المسلمين الشكر ،

أحمد عبد المنعم اللقانى

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

اطلعنا على خطابكم وما ذكرتموه عن ذلك المفتى الذى يأتى المنكرات الصريحة زاعما أنها من الدين ، وأنه من خير المسلمين الغيورين .

والجواب أنه إن صح عنه ذلك كان من أكذب الكاذبين وأجهل الجاهلين . ولو كان على شىء من العلم لاقتدى برسول الله — صلى الله عليه وسلم — حيث يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون » ، أو بإبراهيم عليه السلام حيث يقول :

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابِ﴾[1] ،

أو بالمؤمنين الأولين حيث يقولون :

---

(١) مجلة الأزهر — الجزء التابع — المجلد السابع — رمضان سنة ١٣٥٥ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٤١

(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (١) .

ولنرو لك حديثا هو نص فى الموضوع ، وسنذكر لك أحاديث كثيرة بعد :

عن عمر – رضى الله عنه – أنه قد أتى برجل شرب الخمر ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جلده فى الخمر قبل ذلك ، فقال رجل من القوم بحضرته صلى الله عليه وسلم : اللهم العنه ما أكثر مايؤتى به . فقال صلى الله عليه وسلم : «لاتلعنوه فإنه يحب الله ورسوله» أخرجه البخارى . وفى رواية لأبى داود عن أبى هريرة «لاتقولوا هذا ولكن قولوا : «اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه » .

فهذا هو أدب الإسلام ، لا مافعله هذا الفتى . وقد كان صلى الله عليه وسلم يلاطف من سبق عليه القضاء فوقع فى حد من حدود الله تعالى ، ويقول : «ادْرَءُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ» علما منه صلى الله عليه وسلم بالضعف البشرى الذى كثيرا مايغلب صاحبه المؤمن إيمانا قلبيا صحيحا ، عالما أنه سيرده إيمانه وقتا من الأوقات ، وستنهاه صلاته يوما من الأيام ، ناظرا إلى سعة الرحمة الإلهية ، وإلى كرم الله الذى ينظر إلى القلوب لا إلى الصور ، مبينا لنا أن الندم توبة ، وأن التوبة تجب ماقبلها ، وأن الحسنات يذهبن السيئات .

وقد عرف صلى الله عليه وسلم أن الإنسان بمقتضى البشرية لابد أن يكون له هنوات وهفوات ، فأرشدنا إلى الحمية ما استطعنا . فإذا

(١) سورة الحشر ، آية ١٠

وقعنا فى مرض الذنب لم يؤيسنا ولم يقنطنا ، بل أرشدنا إلى الدواء الذى يخلصنا مما وقعنا فيه ، فقال : «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

فانظر إلى هذا التعليم النبوى الوجيز الذى اشتمل على مجامع السعادات الدنيوية والأخروية . فجزاه الله عنا أفضل ماجازى نبيا عن أمته . وقد كان صلى الله عليه وسلم يقبل اعتذار المعتذر ، ويرشده ولايؤنبه ، ويكتفى من الناس بظواهرهم ، علما منه أن صلاح الظواهر قد يجر إلى صلاح البواطن ، ولايطلب من الناس الكمال فى الأشياء ، ولايكلفهم غاية واحدة ، نظرا إلى مابينهم من التفاوت فى الاستعداد ، وأن كلا يأخذ ماقدر له ولايتجاوز مرتبته ، فكان يسيرهم جميعا فى طريق الخير ، وينير لهم طريق الهدى ، ثم يدعهم لله تعالى .

ولايدقق هذا التدقيق الذى يفعله الآن أولئك المتفيهقون . وقد غضب على أسامة غضبا شديدا عندما قتل الرجل الذى قال : لا إله إلا الله ، ولم يقبل منه أنه قالها تقية ، وصار يقول له : أقتلته ؟ بعد أن قالها ، حتى تمنى أسامة أنه لم يكن أسلم قبل . مع أن الظاهر أن الرجل ما قالها إلا تقية ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لايحب أن يفتح باب الاحتمال وسوء الظن ، علما منه بما يترتب على ذلك من الشرور والمفاسد ، واتباع الأهواء والأغراض والأوهام والجهات ولذلك زجر أسامة وقال له : « هلا شققت عن قلبه »

وسر هذا أن إصلاح الظواهر كثيرا مايجر إلى إصلاح البواطن كما قلنا ، خصوصا فى بيئات الهدى وأوساط الدين والصلاح .

هذا وقد قالوا : « إن الرضا بالكفر كفر » . فهل يعتبر الدعاء بالكفر رضاء به ، أو فوق الرضاء كما هو ظاهر ؟ وقد ورد فى الصحيح أن من رمى غيره بالكفر باء به أحدهما ، إلى غير ذلك مما لانريد أن نتوسع فيه . فانظر إلى تغليظ الشارع فى هذا الباب الضيق الذى يجب أن يبتعد عنه المسلمون كل الابتعاد . ولولا أننا نعلم أن الشيخ الداعى بالكفر من المتأولين لأغلظنا عليه القول ، ولكننا لانفعل وإن كان تأويلا فاسدا ، وتهورا شنيعا .

غلطة فاحشة :

ولايفوتنا فى هذا المقام أن ننبه على أن قوله الذى ساقه السائل بنصه « اللهم أمتك على الكفر يافلان » غلط فاحش ، فإنه جمع بين خطابين لمخاطبين فى جملة واحدة ، وهو مما نص علماء العربية على امتناعه .

وبعد : فقد رأينا أن نسوق إلى القارىء الكريم بعض ما ورد من الأحاديث التى تبين حقوق المسلم على المسلم ،وتحث على الرحمة والشفقة حتى بالحيوان الأعجم : ليعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فنقول :

عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « الْمُسْلِمُ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَعِرْضُهُ ، وَمَالُهُ ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى هَا هُنَا — وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْقَلْبِ — وَحَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ » . رواه الإمام أحمد وغيره . وإسناده جيد .

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ » رواه أحمد والطبرانى .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ خِيَارُهُمْ ، وَآخِرُهَا شِرَارُهُمْ مُتَفَرِّقِينَ ، فَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » . رواه الطبرانى .

وعن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

« ادرءوا الحُدُودَ عَنِ المسْلِمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فلأن يخطىء الإمام فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » . أخرجه الترمذى .

وعن جرير رضى الله عنه قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لَا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ » . أخرجه الشيخان والترمذى . وفى أخرى لأبى داود والترمذى عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ » . أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئْرًا

فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ وَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِى كَانَ مِنِّى ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِىَ فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ فَغَفَرَ لَهُ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِى الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ قَالَ : فِى كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » . أخرجه الشيخان وأبو داود . وقد ورد مثل ذلك فى مومس رحمت كلبًا مثل ذلك .

وعن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إِنَّ الرِّفْقَ مَا كَانَ فِى شَىْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا نُزِعَ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا شَانَهُ » . أخرجه مسلم وأبو داود .

وعن جرير — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » أخرجه مسلم وأبو داود .

وعن أبى موسى — رضى الله عنه — قال : كان النبى — صلى الله عليه وسلم — إذا بعث أحدًا فى بعض أمره قال : « بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا ، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا » . أخرجه أبو داود ، إلى آخر ما جاء فى السنة وهو كثير .

وبعد : فلا غرابة فى مثل تلك الفتاوى الضالة ، فقد أخبرنا — صلى الله عليه وسلم — أن الناس سيتخذون رؤساء جهالًا فإذا سألوهم أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

وقد أخبرنى من أثق به أن بعض العلماء المفتونين قال أمامه : إن الصلاة على النبى — صلى الله عليه وسلم — بعد الأذان أشد من أكبر الكبائر حتى القتل . (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)[1] .

(١) سورة الكهف ، آية ٥

مع ملاحظة أن علماء المذاهب الأربعة يرون أن الإتيان بها مستحسن . ويصرح الشافعية بسنيتها . وقد ذكرنا وجه ذلك فى بعض ما كتبناه .

فانظر إلى أى مدى وصل التبجح وقلة الحياء مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ثم مع أئمة المسلمين وعلمائهم :

فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

ليس هذا شأن المسلم الذى يحتاط لدينه أو يعرف قدر نفسه . ولعل ذلك يقع منك موقع الغرابة والدهشة ولكن لا محل للغرابة بعد ما قال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » .

ولنذكر لك ما استند إليه ذلك الجاهل فى فتواه الحمقاء ، تخفيفًا لدهشك ، وتقريبًا لبعض ما كنت تظن أنه لا يقع من مسلم فضلًا عن عالم : ذلك أنه يقول : إنه تشريع جديد من عند من قال به . ولا تشريع إلا لله ورسوله . وأما صاحب المعصية فلم يشرع شيئا من عند نفسه لأنه يعتقد أن المعصية حرام كما فى شرع الله ورسوله . وقد فات هذا الجاهل الغبى أن من قال ذلك من أئمة المسلمين لم يقله على أنه شرع من عند نفسه ، بل قاله على أنه شرع الله فى اعتقاده ، فليس عليه شىء ولو كان مخطئًا فى الواقع ، لأن المجتهد له أجران إذا أصاب ، وأجر إذا أخطأ ، كما فى الحديث الصحيح .

ويجب على كل مجتهد أن يعمل باجتهاده ، ولا يجوز له أن يخالف ظنه ، كما بيّن ذلك فى علم الأصول ، خصوصًا على رأى المصوبة .

ولكن ما للجهول ولهذه المباحث ؟ وأنى له بعد ذلك بمدارك الأئمة الذين عرفوا من روح الشريعة ما لم يذق له طعماً ، واستنبطوا من منطوقها ومفهومها وإشاراتها وعلل أحكامها وأسرار تشريعها ما لم يشم له رائحة ؟ وكأن ذلك المسكين فهم أنهم ادعوا الرسالة حتى قال ما قال .

والإنسان مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات فرحم الله امرأ عرف قدره ، ولم يتعد طوره ، فسلم لأئمة الهدى ما قالوا ، ولم ينازعهم فيما لم يدر سره ولم يسبر غوره :

فحسبك تسليم العلوم لأهلها   وحقك فيها أن تكون متابعا

أسأل الله أن يقينا شر فتنة العقل الناقص ، والعلم الأبتر ، وأن يخلصنا من ضلالات هذا العصر الذى تسابقت فيه عرج الحمير ، بمنه وكرمه .

الدين أنفع للعمران من كل القوانين (1)

(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَن لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (2) .

(إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) (3) .

إننى أدعو فى مقالى هذا إلى الإصلاح باسم الدين وأعوذ بالله من النزق وسوء التأويل ، وقد صارحتك فى أول الأمر بما أريد أن أقول لأنه لا يمكننى أن أكون إلا صريحا ولا أحسن غير هذا ، فأرجو ألا تنفر من العنوان أو طول البيان ولك علينا ما شئت من تحكيم الوجدان أو الرجوع لقواعد العمران ، وافرضها أيدك الله نظرية جديدة فى الإصلاح أفلا يدعوك العلم وحب استطلاع الحقائق أن تتشوف إلى تلك النظرية حتى تتمحص برأيي ورأيك ورأى أمثالك من المنصفين المخلصين ، وأستسمحك فيما عسى أن يكون من طول فى نظرك فإن الموضوع خطير وكل نقطه من نقطة مهمة فى ذاتها وهى مقصدان ومقدمة .

وإننى أتقدم إلى الكتابة فى هذا الموضوع حبا فى الإصلاح الصحيح وإجابة لصوت الدين الذى يرن فى أذن كل مسلم من أعماق ضميره

(1) مجلة الاسلام – السنة الخامسة – العدد ٤٨ – ذو الحجة – سنة ١٣٥٥

(2) سورة الأحقاف ، الآية ٣١ – ٣٢

(3) سورة الإسراء ، الآية ٧

مصيخا به من سموات روحه ، صوت يسمعه كل أحد بقى فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .

وإنى أعلم مع هذا أن هناك آذانا صما وقلوبا غلفا لا تجيب الدعاء ولا تسمع النداء . (وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)[1] . بل أعلم فوق هذا أن المدنية الحديثة التى سار الناس فيها على غير هدى ولا بصيرة قد أفسدت النفوس وطغت على العقائد بسيلها الجارف حتى أماتت الوجدان وأصبح لا ينفع البرهان ، فترى كثيراً من أولئك الملحدين المتحذلقين الذين أرادوا أن يكونوا من كبراء أهل الدنيا فمرقوا من الدين ولم يدركوا ما أرادوا من الدنيا فبقوا حيث هم بلا دين ولا دنيا ، وكانوا خطراً بعد ذلك على أممهم وأنفسهم ، أول ميزاتهم الطيش والنزق والكبر والصلف واحتقار الناس والإعجاب بآرائهم .

وبالجملة فالشيطنة أخص صفاتهم وقد خلق الشيطان من مارج من نار ، فهم فى الشر نار مستعرة والنار لا تعرف الدين ولا الأناة ، وهم فى الأمم أوبئة قتالة وجهالات مركبة .

أعلم أن كثيراً من هؤلاء ينفر من مثل ذلك العنوان فضلا عن أن يقرأه أو يبحث ؛ ومنهم من يظن نفسه سياسيا فيجعل نفسه فى السماء وهو فى قاع الماء زاعما أن السياسة علم غامض يجب أن يحتكره هو

(١) سورة الزمر ، الآية ٤٥

وأمثاله ، ويرى علماء الدين أبعد الناس عنها وأجهلهم بها ، وقد ساء فهمه وكذب ظنه ، فقد رأينا السياسة عندما خاض فيها الناس كثيراً ما يخطىء فيها العظماء ويصيبها بيضاء ناصعة من سواهم ، وقد سابق الصغير الكبير والسوقة الملوك .

على أنى أعتقد أن السياسة متى اعتبرت علما ورجع فيها إلى قوانين الدول الأوربية والمتشرعين هناك فلن ترقى بها الأمة المقلدة « التى برهنت برجوعها إليها أنها غير مستقلة » .

وأول عوامل الفناء فى الأمم هو ذلك التقديس البالغ الذى يجعلها فانية فى غيرها غير محسة بنفسها ولا عارفة شخصيتها ومميزاتها ، وما لم يكن التشريع مستمدا من روح الأمة وعاداتها وعقائدها التى كونت نفسها وحققت شخصيتها فلن ينفع أبدا ولن تفلح أمة أخذت به ، وليس ممكنها ذلك إلا أن يذهب تكوينها وتزول غرائزها وتتبدل نفوسها وينقلب معدنها ، وفى ذلك فناؤها والقضاء عليها فالسائر بها فى هذا الطريق مجد فى هدمها وتقويض مابقى من بنائها ، وكمال كل شىء إنما هو فى بلوغه غايته التى هو مستعد لها لا أنه ينقلب شيئا آخر يباينه ويذهب روحه .

نعم إن العلماء والمخلصين لايعرفون تلك السياسات المعقدة التى يلتوى طريقها ويتلون سالكها ولايعرف أولها ولا آخرها ، وتتصبغ الحقائق فيها كل يوم بلون جديد يبهر الطائش الأحمق ويحزن المفكر البصير .

وإنى أعجب كل العجب من أولئك الجاهلين الذين يزعمون أن لا علاقة بين الدين والسياسة وربما قال متطرفهم بين المدنية والعمران ، وليت شعرى ماذا صنع أولئك المتفيهقون الثرثارون وماذا أتوا به من الإصلاح ، وإذا نظرنا فى حالهم وحال الأمة الإسلامية أيام تمسكها بدينها وعظمة سلطانها عرفنا مقدار دعاويهم ومحلها من الكذب والتمويه. فإذا ألقيت بنظرك إلى حال الرسل ومن على شاكلتهم أخذ منك العجب كل مأخذ حيث تراهم قد استطاعوا ألا يغشوا ولا يحيدوا عن الحق وأن يجتذبوا تلك الأميال ويؤثروا تلك العواطف ويقتلعوا رذائل العادات من النفوس ويأخذوا الناس أخذا كليا عن طباعهم الأولى من غير أن يصادم الحق الأهواء أو الأهواء الحق .

وهذا شيء يعرفه كل من عالج الناس فى طباعهم المختلفة ونزعاتهم المتباينة . وبهذا أمكنهم أن يصلحوا الأمم ويؤلفوا بين الأهواء ويجعلوا للأمة سياجا سميكا من الوحدة التى شملت كل أفرادها .

وحسبك الأمة العربية التى كان يعجز الفرس والرومان أن يضعوا قانونا يخضعها أو نظاما يوحدها ، فذلك شيء فوق طاقة حكماء الفرس وساسة الرومان وأكبر من أن تصل إليه سيوف كسرى وقيصر .

ثم انظر كيف فعل الدين بالعرب عندما اعتنقوه بصدق وإخلاص ومحبة ، فقد نقلهم من الظلم والوحشية وسفك الدماء ووأد البنات وفعل المنكرات إلى التسابق فى ميادين الخيرات واكتساب أنواع القربات ومراقبة خالق الأرض والسموات ، وبذلك كانوا ملوكا فى

الأرض ملوكا فى السماء بعد تلك الهمجية التى كانوا بها أحط الأمم على الإطلاق ثم أصبحو بالإسلام وتعاليمه أرفع الأمم على الإطلاق .

ونقول بكل أسف : قد فرطنا فى تعاليم ديننا حتى كدنا نكون أذل من على وجه البسيطة ، يطمع فينا كل طامع ويهزأ بنا كل قوى .

وبعد فلا شك أن من حافظ على أوامر الدين وتعاليمه تربت فيه ملكة المراقبة لله والخوف من الله فيكون مصدر خير وبركة . وقد قال تعالى : (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ)(١) وقال : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)(٢) .

الخلاصة

والخلاصة أن القوانين الوضعية لا تنفع بلا دين فليس فى استطاعة القوانين إلا أن تحيل المجرمين على المحاكم بعد تحقيق النيابة ورجال الشرطة وعمد البلاد . ولكن ليس فى استطاعتها أن تهب العمد ذمة ولا أن تمنح الشرطى مخافة من الله ولا أن تعطى وكلاء النيابة مراقبة لله ولا أن تطهر القضاة من الأغراض والغايات ولا أن تمن على الأطباء بالإخلاص والنزاهة ، وإن كان فى استطاعتها أن توجب الإحالة على الطبيب لتحديد سن الزواج مثلا فليس فى استطاعتها أن تحمله على أن يقرر الحقيقة ، إلى آخر ما تعرف ولا تنكر ، وسيجد اللص والقاتل

(١) سورة المعارج ، الآية ١٩ — ٢٢

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

وكل مجرم من المجرمين من تلك الدوائر التى خلت فيها نفوس من معرفة الله وأقفرت فيها قلوب من مراقبة الله مجالا واسعاً من التلاعب بالقانون « حتى فى الرسميات » لأن رجالها أحرار فيما يقولون ويقررون. وكيف يقبل المسلم تلك القوانين التى تبيح الكفر العلنى وتحمى معتنقيه محافظة على تلك الحرية التى تفوق حرية البهائم ، وما مثلها عندى إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظته على حريته فيما يريد :

فهل تراك أحسنت إليه ؟ ؟

لم نجد أحداً من أولئك المهرة الذين ملأوا الدنيا كلاماً أمكنه أن يصلح أفرادا معدودة إصلاحاً حقيقياً . بل ربما أعجزه إصلاح بنيه وذويه فضلا عن أمة أو أمم . فما هذه الطنطنة الفارغة وعلام يتشدق أذيالهم الجاهلون الذين يعادون الدين ويعتقدون أنهم أوتوا علما لم يؤته أحد من العالمين « إنى أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » وحقاً من جهل شيئاً عاداه فتراهم يفرون عند ذكر الله وكتاب الله كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)[١] .

فماذا علينا بعد ذلك إذا قلنا للحكومة وللجنة الحقانية أن الدين الإسلامى فيه من قواعد المدنية والعمران ما يكفل رقى الأمم وسعادة البشر . فهل للشرائع السماوية أن تحل محل الشرائع الأرضية فى هذا

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩.

الدور الجديد وفيها من الفسحة وسعة الصدر ما قرره الأئمة العارفون بروح الشريعة الواقفون على أسرارها ومراميها . » ولنا مقال تفصيلى فى أصعب شىء يذكره الملحدون عن الدين الإسلامى بسطنا القول فيه وبينا ما فيه من الحكمة وبعد النظر بمجلة الأزهر – الجزء السابع من المجلد السابع .

أننا مقبلون على تشريع جديد . وقد آن أوان التفكر فيه وستوضع أسسه ، وبالجملة فقد أظلنا إجماله وتفصيله ، فما أجدرنا أن يكون لكل منا وجهة فى البحث فلا نقصر بحوثنا على جهة واحدة فقد يوضع لنا من أسس التشريع وقواعده الكلية مايصعب التخلص منه بعد ، أو يتطلب مجهوداً كبيراً فى إزالته . وقد تضيع فرصة كان يمكننا أن نمهد الطريق لما يكون خيراً للبلاد وأجدى على الأمة إذا نحن سكتنا ، فعلينا أن نفكر جميعاً كل فى طريقة قبل أن يكون ما هو كائن حتى نزيل ماعسى أن يكون معه عقبة فى سبيل خير أو ضياع فرصة فى إزالة شر فنكون بهذا قد احتطنا من جهة وأعددنا النفوس لذلك من جهة أخرى ، وأن الأشياء بمبادئها والأمور بمقاصدها .

فهل لنا أن نلفت أنظار المشرعين ونحن فى أول الطريق أن يضعوا نصب أعينهم فى تشريعهم الجديد البحث فى الشرائع السماوية وليفرضوا أنها قانون من القوانين التى سينظرون فيها فى دور الإجمال أو التفصيل فيأخذوا منها ما يرونه أرفق بحال الأمة وأقرب إلى عاداتها وميولها من كل ما يكون موافقاً للمدنية والعمران ، وليبتدئوا بما اتفقت الشرائع السماوية كلها على تحريمه (كالزنى وما إليه) .

نقول هذا تنزلا ألجأتنا إليه الضرورة طلبا للإنصاف ورغبة فى حسن التفاهم . وأنا على بصيرة تامة من مدنية الإسلام ومدنية أوربا . ولست أشك فى أن الناس مامنعهم من الأخذ بقواعد الدين الإسلامى إلاجهلهم إياها وعدم التفاتهم إلى ما فيها من السعادة والرقى . وأن أمم أوربا لتتقرب من الدين الإسلامى شيئاً فشيئاً من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

وهل تحريم الخمر الذى قررته بعض الدول المتمدينة فيما مضى والذى يتوق إليه كثير من أمم أوربا إلا ترديد لصدى صوت الإسلام الذى حرمه من نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، وكأنه أبان لنا بما شرعه فيها من الحد والتغليظ (وقد سماها أم الخبائث) أضعاف ما بينه الأطباء من أضرارها التى تفعل بالناس ما لم تفعله مكروبات الطاعون . فلماذا لا نحرمها بتقاليدنا وعلى مقتضى ديننا .

هل إذا فعلنا ذلك نكون قد بعدنا عن المدنية كثيراً وتبرأنا من الحضارة والإنسانية أم الإنسانية الحقة تبرأ إلى الله مما نحن فيه .

ان الإسلام وحقكم ياحضرات المتنورين ليس دين العجائز ولا المتعطلين . وإنما هو دين الرقى والسعادة والعمران لو عرفه أهله وتمسك به ذووه ، ولقد جاء بالمساواة بين جميع الناس وبالغ فى ذلك إلى حد أنه سوى الملوك « مثل جبلة بن الأيهم بالسوقة مثل ذلك الفزارى الذى أراد عمر بن الخطاب أن يقتص له من جبلة » .

أما الآن ونحن فى القرن العشرين قرن الحضارة والنور كما يقولون فأوربا تفرق بين الجنس الأبيض والجنس الأسود ، ومن لم يفرق

بينهما نظرياً فرق بينهما عملياً ، فمدنية الإسلام أكبر مدنية عرفها العلم ، غير أن الإسلام لا يعرف التطرف والإفراط بل يبنى أمره على الحكمة فى كل شىء .

ولو أقيمت شرائع الإسلام على وجهها لما وجد فى أوربا أولئك الاشتراكيون الذين قلبوا العروش وزعزعوا أركان السلام ، ولله در من قال مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم :

والاشتراكيون أنت إمامهم   لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة   وأخف من بعض الدواء الداء

على أننا نقول قولا إجمالياً أن كل من مارس التاريخ يعلم أن المسلمين قد امتد سلطانهم من الشرق الأقصى فى آسيا إلى المغرب الأقصى فى إفريقية ، ثم تخطوا إلى أوربا ، فأسسوا بها تلك المملكة الفيحاء التى وصلت إلى بردو من بلاد فرنسا فى زمن وجيز لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، فإما أن يكونوا قد وصلوا إلى ذلك كله بتأييد إلهى وإما أن يكون ذلك بسر فى تعاليم دينهم . فإن كانوا قد تغلبوا على أرباب المدنيات الراقية التى كانت للفرس والرومان بسبب تأييد إلهى وأمر سماوى ، فلماذا لانرجع إلى هذا الدين الذى أيد الله أهله ذلك التأييد ، وإن كان ذلك راجعاً إلى حسن سياسة فى الدين ورقى فى تعاليمه فلماذا لانرجع إلى تلك التعاليم التى رفعت العرب « وقد كانوا على ما علمت من الهمجية والجهالة على هام كسرى وقيصر وغيرهما وقد كانوا على ما علمت من الرقى والحضارة والفلسفة والآداب » .

وليس يسعنا فى هذه العجالة إلا أن نلمح للحقائق تلميحًا . ولسنا نريد من مقالنا هذا إلا أن نلفت الأنظار إلى الأخذ بمبادىء الدين الإسلامى بعد البحث فيه كما يريدون .

ولتلاحظ الحكومة أن ذلك أعظم شىء يرضى الأمة المصرية رضاءً تاماً فتتمثل فى عينها حكومة دينية مقدسة ، وأهل البلاد متدينون يقدسون دينهم تقديساً تامًّا ويجلون من يعمل به إذا وجدوه ، وهى أثمن فرصة يجب ألا تضيع ، فهل للحكومة أن تعمل على رضاء الأمة ؟ ، وهل للأمة ودينها أعز شىء عليها أن تطالب الحكومة بهذا؟ ، وهل للعلماء أن يقوموا بواجبهم فى هذا الموضوع؟وما عليهم ألا يجابوا؟. فإذا فعلوا فقد أدوا ماعليهم وكانت التبعة على غيرهم (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)[1] .

على أن صدق العزيمة وقوة البرهان لايقف أمامهما شىء ، والأمة أكبر عضد لديكم أيها العلماء (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[2] .

على أننا نتحاكم نحن والحكومة واللجنة والبرلمان إلى المصلحة الصحيحة وإلى ما يوافق روح الأمة وتقاليدها وما هو أوفق بأخلاقها ونفسيتها وأملك لعواطفها وميولها .

ولست أخص عالما بعينه فإن ذلك واجب على كل عالم بل على كل مسلم (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[3] .

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٩ (٢) سورة محمد ، الآية ٧
(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٥

الموازنة بين الشريعة والقوانين الوضعية[1]

تعلم رعاك الله أن الشريعة جاءت بمطالب الروح والبدن جميعا ، وكفى بذلك فرقًا كبيرًا بينهما . ولكنا نزيدك فروقًا أخرى فنقول :

إن القانون لا يطلب إلا حفظ النظام العام ، ولا يعنيه إلا وحدة الأمة وراحة الحكومة ، ولا يهمه شئون الأفرادالروحية ، ولا من وظيفته إصلاح قلوبهم وتربية نفوسهم ، ولا مراقبتهم فى أخلاقهم .

وأما الشريعة فقد تكفلت بإصلاح قلوب الأفراد كما تكفلت بإصلاح الأمم ، فرسمت لكل إنسان خطة واضحة يسير عليها فى نفسه وفى أسرته وفى جيرانه وفى الناس أجمعين ، وحظرت عليه أخلاقًا تعوقه عن كماله ورقيه إلى أحسن أحواله ، فطهرته من الحقد والغل والحسد والشره وسوء الظن . . . إلخ .

حتى أمرته أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وطلبت منه أن يكون خيرًا محضًا وأن تكون سريرته أفضل من علانيته ، وعلمته أن يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ، وأمرته بالرحمة لكل ذى روح ، وعرفته أن « امرأة دخلت النار فى هرة » ، إلى غير ذلك مما لعلك غنى عن بيانه .

(١) مجلة الأزهر — الجزء الخامس — المجلد الثامن — جمادى الأولى سنة ١٣٥٦

وقد تعلم – رعاك الله – أن الأمة لا تصلح فى مجموعها إلا إذا صلحت قلوب أفرادها ، وإلا كانت كالبناء المرتفع أمام الأنظار من خارجه ، المتفتت الأجزاء فى داخله .

وإن شئت فألق بنظرك إلى ثروة أمتنا المصرية تجدها قد ذهبت ثلاثة أخماسها تقريبًا . فإذا بحثنا عن سبب هذا وأردنا أن نشخص ذلك الداء الذى سرى فى جسم الأمة سريان السلّ فى جسم الرجل العظيم ، وجدناه راجعًا إلى عدة أمور تحرمها الشريعة كل التحريم .

فمنها «الربا» الذى ورد فيه الوعيد الشديد فى القرآن والسنة .

ومنها «الخمر» التى هى أم الخبائث. ومنها المقامرة التى جعلها القرآن من عمل الشيطان ، وناطَ الفلاح باجتنابها حيث يقول : (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (١) .

ومنها «المنازعات» التى ما جاء الدين إلا ليستأصل شأفتها من النفوس.

ومنها « كثرة صرف المال » فى غير محل الضرورة ولا موطن الحكمة .

وقد ذم الله المبذرين حتى جعلهم إخوان الشياطين فقال : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » (٢) إلى غير ذلك مما يعرفه المستبصر ولا يخفى على الباحث .

فلو أن الأمة تربت تربية دينية وحافظت على شريعتها لحفظت عليها ثروتها ، ولكانت الآن من أغنى الأمم على وجه الأرض . فماذا

(١) سورة المائدة ، الآية ٩٠ (٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٧

أغنى عنها القانون وقد تركت شريعتها فذهبت عزتها الحقيقية (لا الصناعية) واضمحلت ثروتها التى هى أساس مجدها ومناط حياتها الصحية .

بل يمكننا أن نقول : إن الشريعة أبلغ فيما يريده القانون أيضًا من منع الناس عن ارتكاب الجرائم والتعديات ، فإن الإنسان لا يخاف القانون ولا يرهب سلطانه إلا إذا لم يكن له وسيلة إلى الخلاص منه ، وما أكثر وسائل الخلاص وأقل بواعث الإخلاص !

فإذا عممنا التربية الدينية نكون قد وطّدنا دعائم الأمن العام أكبر توطيد بمقتضى ما يغرسه الدين فى القلوب من أن الله يعلم السر وأخفى ، وأنه يحاسب على الفتيل والنقير ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ، وأن « من روّع أخاه لم يؤمن الله روعته يوم القيامة » ، إلى آخر ما جاء فى الكتاب والسنة وهو كثير . فلا فرق إذًا بين أن يكون الإنسان فى العواصم حيث متناول الأحكام بمرأى ومسمع من الحكام ، وبين أن يكون فى الصحراء الكبرى حين لا ديوان ولا سلطان .

الخلاصة

إنه لا يوجد شىء أنفع للحكومة والأمم والأفراد فى أحوالها الاقتصادية والاجتماعية من التربية الدينية . فمن فوائدها للحكومة أنها تردع الناس عن الجرائم لأنها ترجع طمعهم فى الدنيا إلى الحد المعتدل ؛ فلا يتهالكون عليها هذ التهالك الشديد .

فالفرق بينها وبين القوانين من هذه الوجهة : أن القوانين لا تخفف محبة الدنيا من القلوب (ومحبة الدنيا كما تعلم أساس المنازعات والمخاصمات ومنشأ التعدى وكل أنواع الإيذاء حتى أخذ الرشوة والسرقة) ولا تطهر النفوس من رذائلها كالحرص والحسد والشره والبغى والحقد والغضب ، إلى غير ذلك . ولا يخفى ما يترتب على تلك الرذائل فى المجتمع الإنسانى من الشرور وسوء المعاملة بمقتضى تلك العوامل الخبيثة التى تسوق صاحبها إلى هلاكه وهلاك غيره شاء أم أبى .

والفرق الثانى : أن مراقبة الله لا تثمرها القوانين ، فيمكن أن يتقى الإنسان غائلة القانون بالتحيل والاختفاء مثلا ، بخلاف الشريعة .

والفرق الثالث : أن القوانين لا تكفل نظام الأفراد ، ولا تتعرض لشئونهم ولا لإصلاح حالهم فى أنفسهم .

والفرق الرابع : أن الشريعة تعطى الروح حظها من معرفة الله ، وتستحث القلوب على التنزه فى الجمال المطلق الظاهر فى الكون كله (الذى لأجله بعثت كل أمة عن إله تعبده) .

هذا ولا نزال نكرر أن الأمة المصرية لو كانت على الدين الصحيح ما ذهب شىء من ثروتها التى كادت تتلاشى بالكلية ، لأنها لم تذهب كما قلنا إلا بالربا والمقامرة والإسراف والتبذير والدخول فيما لا يعنى والتفاخر والتنافس ، وكل ذلك يحرمه الدين .

وانظر إلى الأمة الإسلامية فى بدء أمرها حيث سادت جميع الأمم فى أقل من قرن بفضل سيرها على تعاليم دينها الذى يقول لها :

على الهمة من الإيمان . ويعلمهم أنهم يخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وأنهم لا يخافون فى الله لومة لائم ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الله يعلم سرهم ونجواهم ، ويعلّمهم أن ينفروا إذا دعوا خفافا وثقالا وجماعات ووحدانا ، وأوجب عليهم الهجرة من أرض الذل ، وأمرهم بحسن المعاملة مع كل أحد ، والاعتدال فى كل شىء ، وحذرهم من الإفراط والتفريط ، وحض على طاعة المرءوسين للرؤساء ، ومشاورة الرؤساء للمرءوسين . وقد قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : (وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ) [1] . بل أمر باحترام الطبقة الدنيا للطبقة العليا عموما ، وبتوقير الصغير للكبير ، ومعرفة الفضل لذويه ، وبالجملة أمر بإنزال الناس منازلهم .

فعل كل ذلك كى تتم المحبة بين الجميع ، وتكون الروابط على أكمل وجوهها .

بالغ فى الحث على التعاون والاتحاد ، وطلب من كل أحد أن يعمل من الخير ما يعود على عشيرته وأمته ، حتى جعل إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان ، وهو القائل : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) [2] . « يد الله مع الجماعة » . وأمر باستعمال العقل فى كل شىء ، ونهى عن اتباع الظن ، حتى قال : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) [3] .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٢

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٣٦

وقال : (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ . وَلَا تَجَسَّسُوا . وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) [1] . وقال : (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) [2] . ونعى على قوم سوء حالهم بقوله : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) [3] .

وبنى عقائده على صرائح العقول ومقتضى البراهين ، إلى آخر ما جاء فيه مما شيد صرح بناء الأخلاق ، وجعل الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضًا . ولذلك كان غير قابل للنسخ لأنه لا يتأتى أن يجىء زمان يحسن فيه ترك الاعتدال ومجاوزة الحدود والتباعد عن مكارم الأخلاق .

فلا غرو أن يصبحوا بفضل هذه التعالم من أعز الأمم وأرفعها ، مع راحة القلوب واطمئنان النفوس ، وابتهاج الأرواح ، والتبريز فى كل خير وفضيلة . فالمسلمون اليوم وإن كانوا على أقبح صورة ، فالإسلام عند من يعرفه على أجمل صورة . ولذلك نقول : إن نقص المسلمين وتأخرهم لنقص تربيتهم الدينية لا لنقص فى دينهم .

وعلى الجملة فالتربية الدينية أعظم وسيلة إلى توطيد الأمن العام ، وتحسين العلاقات الوطنية والمعاملات التجارية وجميع الشئون الاقتصادية وأكبر معين على حفظ الثروة وترقية الأمة وتقوية الروابط الودية فيما بين أفرادها عندما تكون لها تلك النفوس الطاهرة ، فتتمكن منها

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٢
(٢) سورة الحجرات ، الآية ٦
(٣) سورة النجم ، الآية ٢٨

عرا المحبة والإخاء بمقتضى قول الدين : « لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُوا » .

وإنا لنتمنى تحقيق تلك الأمنية التى لا شىء أنفع للأمة منها فى هذا العصر الميمون إن شاء الله ، وما ذلك على الله بعزيز .

وأما التربية غير الدينية التى عنيت بها الأمم المعاصرة الآن فلا تطفئ تلك النيران المتأججة ولا تلطف من سورتها ، ولا تحدث مراقبة الله فى النفوس ، بل تجعل المتربى بها يعتقد أنه أولى بالثروة والرفعة من غيره ، فيحتال لذلك بكل أنواع الحيل ، وتمتلئ نفسه حسدًا على كل من سواه . وربما جرته تلك التربية إلى الإلحاد ونبذ المعتقدات ، ثم أصبح لا يعنيه إلا الدنيا ، ولا يهمه إلا التنافس فيها بلا مراقبة لله لأنه لا يعرفه ، ولا طمع فى الآخرة لأنه لا يؤمن بها .

الكلمة الختامية

إن مزايا الشريعة لا تكاد تحصى ، فشتان ما بين قانون يضعه رجال لا يعنيهم إلا مظاهر الحياة المادية ، وبين قانون يضعه خالق الكون المدبر لكل صغيرة وكبيرة يكفل به للناس سعادة الحياتين .

تلك القوانين تبيح الزنى وشرب الخمر والتلهى بالميسر، وهى أمهات الشرور كلها ، محافظة على مبدإ الحرية الشخصية . وما مثلها عندى إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حريته فيما يريد . فهل تراك أحسنت إليه !

تلك القوانين تمنع دروس الدين من المدارس ، فأول ما تغرس فى نفوس النشء بهذا العمل أن الدين فى محل الإهمال ، فلا ينبغى أن يعتنى به أو يلتفت إليه ، وهى طريقة عملية تترك فى نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين ، وأهون عقيدة فيه .

واعلم أن فلاسفة أوربا وعقلاءها يئنون من شيوع الإلحاد ، ويتمنون أن يسود سلطان الدين على الأفكار ، علماً منهم أن خلو النفوس من الدين منذر بالخراب العاجل أو الآجل .

قال فيكتور هيجو من حكماء أوربا :

« يجب أن يكون التعليم الابتدائى مبنياً على الدين حتى يكون صالحاً ، ويجب أن يُساق إلى المحاكم من يرسل ولده إلى مدرسة لا تعلم الديانة » .

تأمل كيف أوجب سوق من لا يعتنى بالتربية الدينية إلى المحاكم !

وقال فيكتور كوزان :

« إن الشعوب لأشد احتياجاً إلى المبادئ الدينية منها إلى الشرائع المدنية والعلوم السياسية » .

وقال روسو :

« شر الشرور فى الممالك أن يكون الله مجهولا فيها ، فإن فى ذهاب الديانة تقويضاً لأركان الهيئة الاجتماعية » . إلى غير ذلك من كلامهم ، وهو كثير . وما أصدق « روسو » فيما قال وأبعد نظره فيما أراد !

وإن أردت مصداق ذلك فانظر إلى الأمة الإسلامية فى بدء أمرها حينما كانت أعز الأمم على الإطلاق وأرفعها على الإطلاق ، ثم انظر إليها اليوم وقد تقوّض بناؤها وذهب مجدها ، فأصبحت تتسلى بالسراب عن الشراب ، وبالخيال عن الحقيقة ، وبزخرف الكلام وأضغاث الأحلام عن النظر الصحيح فى سنة الله فى خلقه ، وما تقتضيه قوانين العالم فى ماضيه وحاضره ، وإن فى ذلك لعبرة كبرى لذوى الأبصار وأهل الاستبصار .

أسأل الله أن يعاملنا بما هو أهله ، ولا يعاملنا بما نحن أهله بمنه وكرمه

الشجاعة (١)

لقد روى الشيخان عن أنس – رضى الله عنه – أنه قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحسن الناس وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – راجعاً على فرس لأبى طلحة والسيف فى عنقه وهو يقول : لم تراعوا .

ومن مواقفه – صلى الله عليه وسلم – المشهورة الضخمة – وكل مواقفه صلى الله عليه وسلم ضخمة – موقفه يوم حنين :

روى البخارى ومسلم وحكاه القرآن أيضا أن أصحابه ولوا عنه يومئذ مدبرين .

واتفق الشيخان على أنه – صلى الله عليه وسلم – كان راكبا بغلة . ولفظ مسلم من رواية العباس – رضى الله عنه – : فلما التقى المسلمون والكفار ، ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يركض بغلته قبل الكفار . قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أكفها ألا تسرع .

ولعمر الله إن ذلك لفوق مانعهده من شجاعة البشر ، فإن الإنسان مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المؤلفة بعد مافر عنه أصحابه ، وخصوصًا إذا كان على بغلة بين تلك الخيول المطهمة والفرسان

(١) مجلة هدى الإسلام – السنة الثانية – العدد ٨٠ – سنة ١٣٥٥

المدربة . وقد كان يقول وهو على ذلك الحال : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

فكأنه كان يلفتهم إليه وينبههم على مكانه ، فأى شجاع تعرفه من البشر يستطيع ذلك أو قريبا منه ؟ ولكن لاعجب : فقد امتلأ قلبه ثقة بالله وتوكلا عليه ، عالما أنه إليه يرجع الأمر كله ، وأن ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)(١) .

هذا ولتعلم أن أفضل أنواع الشجاعة ألا تجبن أمام شهوتك عندما يشتد توقانها ، ولا أمام غضبك عند مايحتد سلطانه ويتحكم شيطانه . ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » . رواه الشيخان .

وإنما كان هذا هو الشديد ، لأن جمرة الغضب التى تتقد فى قلبه لم تخرجه على شدتها عن حد اعتداله ووقاره ، بل كان سلطان عقله ودينه أكبر من سلطان شهوته وهواه ، فصابرها حتى خمدت كل الخمود ، ولم يظهر عليه شىء من آثارها لأنه ملك زمام نفسه ، فلم تجمح به ، ولم تورطه فى الهلكات .

وقد روى البيهقى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قد مر بناس يحملون صخرة ثقيلة يختبرون قوتهم ، فقال : « ألا تحسبون الشدة فى حمل الحجارة؟ إنما الشدة أن يمتلئ الرجل غيظاً ثم يغلبه » .

(١) سورة يونس ، الآية ١٠٧

وانظر إن شئت إلى ماكان منه – صلى الله عليه وسلم – يوم أحد وقد كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه الشريف ، فكان يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون » .

وهذا شىء لايكاد يصدقه العقل لولا أن النبى من طراز آخر غير ماتعرف فى الناس ، فإنه – صلى الله عليه وسلم – فى ذلك الوقت الذى حصلت فيه تلك الحادثة الفظيعة لم يعف فقط ، بل زاد أن طلب لهم من الله الهداية ، وزاد على ذلك أن بين عذرهم فيما فعلوه ، وهو أنهم جاهلون لايعلمون مقداره – صلى الله عليه وسلم – .

وروى البخارى ومسلم والبيهقى فى الأدب وأبو داود والقاضى عياض فى الشفاء واللفظ له ، عن أنس – رضى الله عنه – قال : « كنت مع النبى – صلى الله عليه وسلم – وعليه برد غليظ الحاشية ، فجبذه أعرابى بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عاتقه ، ثم قال يامحمد : احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فإنك لاتحمل لى من مالك ولا من مال أبيك . فسكت النبى – صلى الله عليه وسلم – ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك ياأعرابى بمثل مافعلت بى ؟ قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك لاتكافىء بالسيئة السيئة . فضحك النبى – صلى الله عليه وسلم – ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر » . وهو فى هذه الحادثة أيضًا لم يعف عن هذا الجاهل فقط ، بل حمل له بعيريه كما طلب . فكان فى ذلك ممتثلا

قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (١) .

وكم له من مثل ذلك – صلى الله عليه وسلم – .

وقد قالت السيدة عائشة فى بيان خلقه : « كان خلقه القرآن » ثم قرأت قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) (٢) . إلى آخر مالا يمكننا تفصيله فى هذه الكلمة العجلى .

أسأل الله أن يرزقنا اتباعه ، والاقتداء به – صلى الله عليه وسلم – ، بمنه وكرمه .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩

(٢) أول سورة (المؤمنون)

دين الإسلام كفيل بمصالح الدنيا والآخرة (١)

جاء الإسلام بكل ماتبتهج به العقول فى العقائد فى الأخلاق ، فى الأوامر ، فى النواهى ، فى معاملة الخالق والمخلوق ، فيما يحسن به حال الراعى والرعية .

وبالجملة جاء فى كل أبواب السعادة الدنيوية والأخروية بما لم يأت به مصلح ولم يحلم به فيلسوف . جاء الإسلام بتفقد أحوالك فى نفسك وفى أسرتك وفى جيرانك وفى الناس أجمعين ، فأوجب عليك ألا تخاطر بنفسك فقال : (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)(٢) وقد ورد النهى عن النوم فوق سطح البيت إذا كان بلا حاجز يمنعك من السقوط رحمة بك واعتناء بشأنك ، كما ورد الوعيد الشديد فيمن قتل نفسه .

وبما أورثه فى القلوب من الرغبة والرهبة من الله ـ عز وجل ـ ، أمكنه أن يردع الناس عن أن يخاطروا بأنفسهم أو يلقوا بها إلى المهالك ، وليس فى إمكان القوانين الوضعية أن تردع الناس عن قتل أنفسهم بوجه من الوجوه ؛ وليس يغيب عنك ماتسمعه كل وقت من حوادث الانتحار فى أوربا وأمريكا ـ بلاد القوانين والمدنية ـ وإن كان قد سرى ذلك بطريق العدوى لقوم منا لم يدخل الإيمان فى قلوبهم ، ولا استقرت تعاليمه فى نفوسهم .

(١) مجلة الإسلام ـ السنة السادسة ـ العدد الخامس والثلاثون ـ سنة ١٣٥٦

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٥

جاء الاسلام موجباً عليك أن تراعى زوجك فقال : « خيركم من كان خيره لأهله » وقال :

« إن الرجل ليحشر مع المتجبرين يوم القيامة وليس عنده غير أهل بيته ». وجاء فى القرآن العزيز : (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)(١) .

بدأ بتوحيده تعالى لأنه أساس كل خير ، ثم بالإحسان إلى الوالدين لأنهما أقرب الناس إليك وآمنهم عليك ، ثم بذوى القرابة لمكان قرابتهم وعلى حسب درجتهم ، ثم باليتامى الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، ثم بالمساكين من الناس ثم بعموم الناس كافة ، إلى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة .

جاء الإسلام بالحث على معاملة الجار بالحسنى حتى قال صلى الله عليه وسلم : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » جاء بأبلغ مايكون من الحض على عمل الخير مع من تعرف ومن لاتعرف ، حتى جعل إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان ، بالغ فى الحث على آداب الاجتماع حتى حرم عليك أكل الثوم والبصل إذا أردت حضور المحافل أو دخول المساجد حتى أسقط عنك الجمعة بذلك إذا لم تجد مايزيله إبعاداً لضررك عن الناس .

طلب الاغتسال على سبيل الوجوب أو السنية يوم الجمعة لما يكون فى ذلك اليوم من الاجتماع ، ولم يكتف بذلك بل ندبك بعد إلى

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٣

التطيب والتعطر ، ثم أمرك أن تمضى إليها بالسكينة بعداً بك عن الرعونة والطيش واستبقاء لما فى باطنك من الخشية وفى ظاهرك من الوقار .

ندبك إلى إدخال السرور على أخيك المسلم بأى وجه من الوجوه ووعدك عليه أحسن الجزاء .

عقد بينك وبين المؤمنين عقد الإخوة الذى نقلهم إلى دائرة الأسرة الواحدة على تنائى ديارهم وتباعد أقطارهم (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[1] .

بالغ فى محبة بعضنا لبعض حتى جعلها شرطاً فى الإيمان فقال : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » .

بالغ فى أمر النصيحة حتى جعلها الدين كله فقال : « الدين النصيحة » .

بالغ فى ترك الأذى حتى جعله هو الإسلام فقال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

بالغ فى أمر الإخلاص وعمل الخيرات لوجه الله تعالى ، وحذر من الرياء الذى يفسد النفوس ويحبط الأعمال ويقلب الفضائل رذائل ، حتى جعله شركاً فقال : « إن الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل فى الليلة الظلماء » .

عرف مقدار الميل الطبيعى إلى الظلم فحذر منه بأبلغ ما يكون حيث قال : « ما من أمير عشرة إلا يجاء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه فلا يفكه إلا العدل » .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠

بل شدد فى الأمر جداً على ما يقتضيه العدل الإلهى فلم يدع أحداً من المسئولية . وكان له فى ذلك أعلى نظر وأبلغ حكمة فقال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

عرف ما جبلت عليه النفوس من الأوصاف الذميمة ، ومن السعى وراء أهوائها وشهواتها بما يضيع عليك الحياة الطيبة ويحرمك من السعادة الأبدية من حيث تشعر ومن حيث لا تشعر .

عرف ذلك بما لا يصل إليه أكبر بيداجوجى فى العالم ، فنبهك أن تحذر من نفسك حذرك من عدوك أو أشد فإنها أخفى مكراً وأعظم ضرراً ، لأن متابعتها تذهب بنعيم الأبد ، وقد قال القائل :

أأنت عدو أم صديق لنفسه ... فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ... ما فعلت لمستهم لها بعض رحمة

عرف ذلك كله فقال : « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)[1] .

عرف مقدار تسلط الهوى علينا فحذرنا منه كل التحذير وعرفنا مكانه من نفوسنا ومبلغ سلطانه على قلوبنا حتى جعله إلهاً يعبد من دون الله ، لما علم من مسارعة النفوس إلى طاعته ، وطيرانها نحو إشارته شأن العابد مع معبوده والعبد مع سيده فقال فى بيان تلك الإلهية : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)[2] .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٣

وفى التحذير من اتباعه (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(١) وفى الترغيب فى مخالفته (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)(٢) .

رأى أن كثيراً من الناس يتخبطون فى أودية الأوهام والخيالات غير مستعملين عقولهم ، فأراد أن يخلصهم من إتباع الظنون فقال : فى معرض الذم لقوم كان هذا شأنهم تنفيراً من مثل حالهم : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)(٣) .

وقال : (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)(٤) فبين أن سبيل الله لا يسلك باتباع الظن والتخرص وأنه لا يهدى إليه إلا العقل السليم والتفكير القويم ، ولذلك أكثر من قوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(٥) .

ثم يقول فى توبيخ قوم : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا)(٦) : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا)(٧) إلى غير ذلك .

عرف نفاسة الوقت وأن النفس ميالة إلى اللغو وضياع الأوقات فيما لا ينفع ، فأرشدنا إلى ذلك وأكثر من الحث عليه فقال فى ذكر أوصاف المفلحين : (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)(٨) .

(١) سورة ص ، الآية ٢٦ — (٢) سورة النازعات ، الآيتان ٤٠ ، ٤١ .
(٣) سورة النجم ، الآية ٢٨ — (٤) سورة الأنعام ، الآية ١١٦
(٥) سورة الرعد ، الآية ٣ — (٦) سورة الروم ، الآية ٨
(٧) سورة الأعراف ، الآية ١٨٥ — (٨) سورة المؤمنون ، الآية ٣

ويقول : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(١) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يكره أن يرى عبده فارغاً من عمل الدنيا والآخرة » ويقول : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » وقد قال بعض الصالحين :

قد عملت بهذا الحديث أربعين سنة ولا تزال تتجدد فوائده وتترادف عوائده ، ولم أفرغ منها بعد .

عرف ما للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الفوائد وما هو مركوز فى الطباع من مراعاة الناس فيما تميل إليه نفوسهم فقال : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » وبين لنا أن ترك ذلك من موجبات سقوط الأمم فقال فى بيان جريمة قوم استحقوا بها المقت واللعنة : (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)(٢) .

وقال فى آية أخرى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)(٣) وقال صلى الله عليه وسلم :

« إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » .

وقال : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق إطرا ولتقسرنه على الحق قسراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعن بنى إسرائيل » .

(١) سورة الحجر ، الآيتان ٩٢ ، ٩٣ — (٢) سورة المائدة ، الآية ٧٩
(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢٥

عرف ما جبلت عليه النفوس من محبة الدنيا والتطلع إليها وما يكون فى قلوب الفقراء من الحقد على الأغنياء والحسد لهم ، وما يكون فى نفوس الأغنياء من محبة أموالهم والحرص عليها ، فأوجب لهم قسطاً من مالهم يؤخذ منها كرها « ولو بقتال » ، وندبهم بعد ذلك إلى الصدقات ، ووعدهم عليها الثواب الجزيل ، حتى تذهب الشحناء وتجتث البغضاء من قلوب الفقراء فيتم الصفاء بين الجميع وحتى تطهر نفوس الأغنياء من رذيلة الشح (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(١) وندب إلى القرض وجعله أفضل من الصدقة ، وعمل على توثيق عرى المحبة وتربية خلق المروءة فى نفوس الجميع فحرم الربا .

فانظر بصرك الله إلى أى حد وصل الناس من البعد عن الفضائل ولو أنصفت لأعطيت الاشتراكيين بعض العذر فيما يفعلون ، وقد كان لهم من الدين الإسلامى أكبر دواء فى إزالة هذا المرض القتال للأمم الفتاك بالشعوب . ولولا مراعاة المقام لتوسعنا أكثر من هذا . ولله در من قال : مخاطبا النبى – صلى الله عليه وسلم – :

والاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدًا وداووا طفرة ... وأخف من بعض الدواء الداء

عرف حاجة الإنسان إلى الدنيا وأنها وسيلة سعادته ، وأنه عظيم الشره فيها وأن ذلك سبب شقائه فقال مراعياً الأمرين جميعاً « من طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء » وروى عن عمرو

(١) سورة التغابن ، الآية ١٦

ابن العاص أنه قال : « أحرث لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » .

حث على التقوى وذكر علامة المتقى ثم عرف أن نفسه لابد أن تغلبه بعض الشيء وتسوقه إلى مالا ينبغى فوضع له الدواء الناجح وأرشده إلى ما يصلح به حاله مع الخالق والمخلوق فقال : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال : « لايبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس » .

عرف من النفوس أنها تتأثر بأقل شيء فتكمن الحقد والشر ، وكثيرًا ما يكون لصاحب الهفوة مقصد حسن أو عذر مقبول فيما صدر منه ، فحض على الإصلاح بين الناس وجعله من أفضل الأعمال فقال : (لَاخَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)(١) .

عرف أن النفوس تحب مزيد الانتقام ولا تقف عند حد العدالة فى المجازاة – والظلم من شيم النفوس – وأن لصاحب الذنب من جهله وبواعثه التى استولت على نفسه الضعيفة حتى ساقته إلى أن يعاف ذلك الذنب بعض العذر ، فيكون العفو أقرب إلى الرحمة ، وأبعد عن الحيف فأكثر من الحث عليه فقال : (خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين)

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩

ويقول : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ)(١) .

ويقول فى صفات المتقين : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)(٢) ويقول : (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)(٣) .

عرف مقدار مافى النفوس من الجهل ومحبة العاجلة ، والتأسف على الفائت الذى يتلفها ويذهب بإيمانها حيث قصرت النظر على الأسباب ولم تترق منها إلى مسبب الأسباب ، غير عالمة أن للأمور من الأسباب الخفية والمعدات القريبة والبعيدة مالا يدخل تحت علمها وقدرتها ، وإنما هو راجع للفعل الإلهى والتقدير الأزلى ، فكانت أشبه شىء بالنملة فوق القرطاس تعتقد أن الكتابة من القلم إذ لم يمكنها أن تشاهد اليد ولا تعرف الأعصاب المحركة لها ، ولا أصل ذلك كله من القدرة والإرادة وبقية المبادىء النفسانية .

عرف ذلك من النفوس وأنها مجبولة على هذا الجهل فداواها بأنجع الأدوية وأخرجها من ظلمة الجهالة بإشراف نور الحقيقة فقال : (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ)(٤) وقال : (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)(٥) وقال : (فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٦) .

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٠
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦
(٤) سورة الحديد ، الآية ٢٢ .
(٥) سورة هود ، الآية ١٢٣
(٦) سورة يس ، الآية ٨٣

جمع مجامع الآداب والفضائل حاثاً على العدل الذى هو الوقوف عند الحد المطلوب فى كل شىء ، وهو الفضيلة الجامعة للفضائل كلها ، ناهياً عن الرذائل جمعاء فقال موجزًا آمرًا وناهياً : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ)(١) .

سلك بك كل طريق ودخل بك من كل باب إلى مكارم الأخلاق ، فتارة يذكر لك ثمراتها وما يترتب عليها فى الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم : « ومن وصل رحمة زيد له فى عمره ووسع عليه فى رزقه أو كما ورد » وتارة يرغبك بما لك عند الله من حسن مثوبته لك ورضاه عنك .

ومن أعظم أبواب مكارم الأخلاق ما أمرك أن تشعر به نفسك فى كل عبادة من الخضوع لعظمة الله تعالى ، والرهبة من جلاله حتى يمنعك ذلك الخوف وتلك المراقبة من ارتكاب الدنايا وحتى يرجع بك نور العبادة إلى طهارتك الذاتية ، وصفاتك الأصلية وحتى تعلم أن لك حظاً آخر روحياً غير حظك من الدنيا فلا تحبها الحب الشديد الذى أخذ قلبك فتكالبت عليها تكالب المتهالكين فيها ، فكثرت منك المنازعات والمخاصمات لأنها محبوبك الوحيد ، وكل من نازع أحداً فى محبوبه الوحيد فهو عدوه لا محالة .

وقد كان من حق الدنيا ألا تأخذ إلا شيئاً يسيراً من قلبك لا بمجامعه ، أو بتعبير آخر لا تأخذ إلا بظاهره دون باطنه حتى يصفو عيشك ويستقيم أمرك ويستريح الناس من شرك وتتم بينكم المحبة والولاء .

(١) سورة النحل ، الآية ٩٠

ولو أخذنا نشرح ما اشتمل عليه الإسلام من أسراره الحسية والمعنوية لطال بنا القول .

وقد عرفوا الآن من أسرار الطهارة أنها تنفع فى أمراض كثيرة أخصها ما يكون بالأنف وناهيك ما يزايل تغير رائحة الفم من المضمضة (ثلاثاً) واستعمال السواك مع الحرص الشديد عليه حتى كاد يوجبه - صلى الله عليه وسلم - وخصوصاً بعد النوم وما فى ذلك من المحافظة على الأسنان وما ينتظم فى سلك آداب الاجتماع ، وليس يقل عن ذلك ما فى غسل القدمين كل وقت من إزالة الروائح التى تنبعث منها إذا طال مكثهما بلا تعمد ، (إلى غير ذلك من الفوائد الطبية والحكم الروحانية مما لا محل لذكره الآن) .

عرفوا من تلك الأسرار بل من أسرار ما جاء به الدين الإسلامى عموماً ما جعل الكثير منهم ينتصر له مبتهجاً بما جاء فيه موقناً أن دين الإسلام على غير ما عليه المسلمون اليوم .

ولو لم يكن من آيات الشريعة الإسلامية إلا أنها جاءت بتلك الإصلاحات كلها فى زمن يسير ، على حين أن غير المسلمين لم يهتدوا إلى بعضها إلا فى قرون عديدة لكفاها فخرًا لدى المنصف المتبصر .

هذا والمقام واسع جدًا ولم يمكنى أن أبرز إلا شيئاً يسيرًا مما فى نفسى وكل ما فى نفسى ليس إلا شيئاً يسيرًا من تلك الأسرار (قُلْ لَئِنِ

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[1] ولابد أن يكون قد تحرك منك الإنصاف ، وصادفك التوفيق ، فعلمت سر قوله صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقوله - تعالى : (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[2] .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨
(٢) سورة فصلت ، الآيتان ٤١ ، ٤٢

سفور النساء (١)

جاءنا سؤال من أحد الأفاضل بفلسطين فكتبنا فى جوابه كلمة نحب ألا يحرم منها إخواننا المصريون ، فعسى أن يكون فيها مقنع وهداية لأرباب النفوس التى لم تفسد فطرتها ، والله يتولى هدى الجميع وها هى هذه :

الحمد لله والصلاه والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد :

فقد قرأت سؤالكم الذى تطلبون فيه بيان الحكم الشرعى لوضع الحجاب وستر وجوه النساء فى الطرقات أمام الرجال الأجانب . ونقول إن الحكم الشرعى فى هذا هو تحريم هذا التبذل وذلك السفور ، حتى أن من يبيح كشف الوجه والكفين من العلماء يجب أن يقول بالتحريم لما يفعله النساء الآن :

(أولا) لأنهن لا يقتصرن على كشف الوجه واليدين كما هو معروف .

(ثانيا) لابد عند ذلك القائل من أمن الفتنة والفتنة الآن غير مأمونة ، والشيطان قد جلب على الناس بخيله ورجله (إلَّا الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَقَلِيلٌ مَّاهُمْ)(٢) ولئن كانوا موجودين فى الكثرة المطلقة ما يثير الفساد ويوجب الفتنة ، وقد قرر علماء الأصول أن المقدور الذى لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والمقدور الذى لا يتم الحرام إلا به فهو حرام ، وعلى كل حال فالوسيلة تعطى حكم

(١) مجلة الإسلام — السنة الثامنة — العدد ١٨ — سنة ١٣٥٨

(٢) سورة ص الآية ٢٤

ما تؤدى إليه ، والمالكية لهم عناية كبيرة بسد الذرائع ، على أن الفتنة الآن غير مأمونة كما قلنا :

فالمسألة إجماعية لا يختص بها إمام دون آخر من أئمة المسلمين ؛ وقال بعض المتخصصين فى هذا الموضوع مبينا ما يكون من المرأة والرجل عند التلاقى فى أدواره التى بينها بقوله :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء .

وقال غيره :

لا يأمنن على النساء أخ أخا ما فى الرجال على النساء أمين

ولنسمعك بعض ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة :

روى ابن جرير وابن أبى حاتم أنه كان فيما أخذ النبى صلى الله عليه وسلم على النساء عند مبايعتهن ألا يحدثن الرجال إلا أن تكون المرأة ذات محرم ، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يكون مالا تحمد عقباه ، وإذا كان هذا فى الحديث فما بذلك بالسفور وكشف الصدور فى زمان الفجور فإن اتفق أن وقع بصر الرجل على إمرأة من غير قصد فليصرف عنها بصره سريعا ، كما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله البجلى أنه سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن نظرة الفجأة قال فأمرنى أن أصرف بصرى . وكذا رواه الإمام أحمد عن هشيم عن يونس بن عبيد . ورواه أبو داود والترمذى والنسائى .

وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه : لا تتبع النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة ، وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يارسول الله : لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال رسول الله

ـصلى الله عليه وسلم ـ إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » .

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب كما قال بعض السلف « النظر سهم مسموم من سهام إبليس إلى القلب » أمر الله بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى الزنى ، فقال تعالى : (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)(١) فهو من قبيل عطف المسبب على السبب ، وقد قيل : من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصيرته : وعن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم ما من مسلم ينظر إلى محاسن إمرأة ثم يغض بصره إلا رزقه الله عبادة يجد حلاوتها فى قلبه ، وليتذكر قوله تعالى : (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ)(٢) وفى الصحيح « زنى العينين : النظر ، والنفس ، تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت من محارم الله وعينا سهرت فى سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله ـ عز وجل ـ » ثم قال تعالى :) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) أى عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن .

ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا ، محتجين بأن النبى صلى الله عليه وسلم

(١) سورة النور ، الآية ٣٠
(٢) سورة غافر ، الآية ١٩
(٣) سورة النور ، الآية ٣١

قال لأم سلمة وميمونة احتجبا من ابن أم مكتوم ، فقالت أم سلمة أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال : أفعمياوان أنتما أولستما تبصرانه » ؟ ثم قال الله تعالى : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)(١) قال بعض السلف ، الزينة زينتان : زينة لا يراها إلا الزوج الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب وهى الظاهر من الثياب . وقالت عائشة : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ)(٢) شققن مروطهن فاختمرن بها فأصبحن معتجرات كأن على رءوسهن الغربان ، وفى آية أخرى (يَانِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ)(٣) قال السدى : فلا تخضعن عنى بذلك ترقيق الكلام ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم .

ولا بأس أن نذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة المرأة فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها » ولندع الاستنباط لك فى آخر السورة ثم قال تعالى : (يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ)(٤) الجلباب رداء فوق الخمار وفى الصحاح الجلباب « الملحفة » وقد قال ابن عباس فى هذه الآية : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلمانى عن قول الله

(١) سورة النور ، الآية ٣١
(٢) سورة النور ، الآية ٣١
(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٢
(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٥٩

عز وجل : (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ)(١) فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطى ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها . وقالت أم سلمة لما نزلت هذه الآية (يُدْنِينَ عليهن مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) خرج نساءُ الأنصار كأن على رؤسهم الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ)(٢) أى إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر لسن بإماء ولا عواهر .

أما النساءُ الآن فلا يبالين أن يتشبهن بالعواهر ويقال فيهن ما شاء القائلون ، وهو دليل على سقوطهن وفساد أخلاقهن ، وصغر نفوسهن وعدم غيرة أزواجهن وأقاربهن .

فإلى الله المشتكى وبه المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ولو شئنا لأطلنا وفى هذا القدر كفاية ، والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه .

(١) سورة الأحزاب آية ٥٩
(٢) سورة الأحزاب آية ٥٩

سر تعدد الزوجات فى الإسلام(١)

يحسن بنا فى هذا الظرف أن نعرض لهذا الموضوع وقد لاكته الألسن كثيرا وكأن فى نفوس بعض الناس شيئاً مما جاء فى التشريع الإسلامى أو ميلا إلى ما فى المسيحية الأوربية التى قلدناها فى كل شىء على غير هدى ولا بصيرة فنقول :

لسنا نذهب فى تعليل ذلك إلى ما قاله المسيو (دولست) من أن الرجل من الشرقيين أكثر قوة وأعظم شبقاً من الغربى ، وكذلك قال بعض المشتغلين بعلم طبائع الأمم :إن تعدد الزوجات أمر من ضروريات الأمم الشرقية لما فيهم من القوة العظيمة ، أى فيجب فى الشريعة العامة التى جاءت للأمم كلها أن تراعى ما يناسب طبائع الجميع .

ولهذا قال (الكُنت هنرى كسترى) : أنه ليصعب جدا على الغربيين أن يقدروا شريعة القرآن فى تعدد الزوجات حق قدرها ؛ لما بينهم وبين الشرقيين من الاختلاف الكلى كما لست أعلل ذلك بما يعلل به بعضهم من أن العرب كانوا يتزوجون كثيرا بلا حد ، فلو جاء الإسلام يقرهم على واحدة كان ذلك صعباً على قريش وغيرهم من قبائل العرب الذين اعتادوا الكثرة كغيلان الذى أسلم على عشرة نسوة فأمره – صلى الله عليه وسلم – أن يبقى أربعا ويفارق سائرهن كما فى الحديث الصحيح .

وممن علل بذلك (الكنت هنرى) حيث يقول إن ذلك ربما أدى إلى تزعزع عقيدتهم فى الدين الجديد ، فلهذا أباح لهم تزوج الأربع

(١) مجلة الإسلام – السنة الثامنة – سنة ١٣٥٨ هـ

تخفيفاً للشر وتأليفاً لقلوبهم ببعض ما ألفُوه فهو لم يفعل ذلك إلا لمصلحة الإسلام كما تقتضيه الحكمة البالغة .

ولست أقول فى ذلك أيضاً ما يقوله (المسيو ريفيل) أننا لو رجعنا إلى زمن النبى صلى عليه وسلم ومكان ظهوره لَمَا وجدنا عملاً يفيد النساء أكثره مما أتاه عليه السلام ، فهن مدينات لنبيهن بأُمور كثيرة . لسنا نعلل بشىء من ذلك كله وإن كان له من النظر قسط ، ومن الحق وجه . ولكننا نعمد بك إلى ماهو أقرب من هذا وأولى بالاعتماد عليه .

إنك تعلم أن الرجال معرضون لأخطار الحروب الآكلة ومخاوف الأسفار فى البر والبحر التى تحدث كثيرا لركاب البواخر من الغرق وغيره خصوصاً فى هذا الزمن (زمن الغواصات) التى نعرف خطرها وفى كل يوم نسمع خبرها فضلا عن غيرها مثل حوادث الترام . ومخاطر الطيران ، ومهاوى الجنايات منهم على غيرهم ومن غيرهم عليهم ومعاناة الأشغال التى تكون لاستخراج المعادن من مكامنها أو اللآلىء من مستقرها ومما عسى أن يكون من خطر البراكين وغيرها وما يلتحق بذلك من أخطار السباق على الخيول أو المصارعة المعتادة فى أوربا وأمريكا ، وما يكون من بعض الطبقات الدنيا من الفظائع التى كثيرا ما تودى بحياتهم أو حياة غيرهم .

وإن شئت ضممت إلى هذا ما تسمعه من حوادث الانتحار أو رمى الكثير بنفوسهم فى البحر تخلصا من مضايق الحياة ، ومتاعب العيش ،

كما يقع ذلك كثيرا بانجلترا وغيرها ممـا يتناقص به الرجال تناقصا كثيرا .

ثم ألق ببصرك إلى ما ليس بالبعيد مما فعلته الحروب الطاحنة مثل الحرب الروسية اليابانية أو الترنسفالية الإنجليزية أو العثمانية البلقانية . وأفظع من ذلك كله تلك الحرب الكبرى التى لا تزال ماثلة فى الأذهان بويلاتها ومصائبها ولا يدرى ما تأتى به هذه الحرب القائمة الآن إلا الله تعالى ولو نظرت فى التاريخ لوجدته يفيض أنهـاراً من الدماء من كل ينابيع الشقاء قديما وحديثا .

وقد ذكر القرآن والتوراة أن فرعون كان يذبح أبناء بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم وأنه غرق فى البحر مع أمم كثيرة يقدرها بعضهم بستمائة ألف فى يوم واحد .

وأظنك لا تشك فى أن هذا كله لا يكاد يوجد فى النساء حتى حوادث الانتحار الفردية إلا على سبيل الشذوذ فى نُدُور من الأحوال .

ثم نقول بعد ذلك كله قد دلت الإحصائيات الرسمية على أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال وأصبح ذلك مما لا شك فيه .

فقل لى بعيشك إذا حصلت هذه الحوادث وكان الرجل مقصورا على زوجة واحدة فماذا تصنع تلك النساء ومن ذا يقوم بإعفافهن إذا كان لا يجوز للرجل ألا يتزوج إلا واحدة ، بل من يؤدى واجباتهن وهى كثيرة متوقفة على الرجال لا محالة ، فإن المرأة ضعيفة ، بمقتضى خلقتها كما أثبت ذلك علماء التشريح .

ولئن فرضنا أن فى تلك الأمة من ذوى الإحساس والهمة من يقوم بشئونهن على ما يجب كما يردن وتريد الإنسانية . وهو فرض لايكون ولئن كان فلن يدوم ،أفلا يلحقهن من المنة أو العار ماينغص عيشهن ويكدر صفوهن بتلك الصدقات التى هى عنوان المذلة وبرهان المهانة ومجلبة العار والشنار لهن ولأقاربهن .

وأما إذا تزوجن كانت نفقتهن واجبة على الزوج فلا يمكنه أن يفرط فيها ولا أن يدع أمرها يوما من الأيام لغيره بعدما أخذ عليه من يوم ذلك الزواج أن يذود عنها عوادى الدهر وغوائل الحياة لمكان ذلك من نفوس الأزواج وما يكون بين الزوجين من أواصر المحبة إلى غير ذلك من الروابط التى لا يستهان بها فى نظر العقل والدين والعرف ، وبهذا تتم السعادة والهناءة لهن ماديا وأدبيا وفى الشريعة الإسلامية من واجباتهن على الزوج ما يضمن لهن كل راحة وينقذهن من كل شقاء .

ولنقف هنا اليوم خشية الإملال وموعدنا الأعداد المقبلة إن شاء الله .

سر تعدد الزوجات فى الإسلام(١)

إذا نظرت بعد ما سبق من الأنظار الكثيرة إلى أن المرأة تكون نفساء نحو شهرين وأن الرجل قد يكون فى عنفوان شبابه عظيم الشبق قوى الغلمة لايصبر على مفارقة النساء مع ذلك السائق الذى يقويه نزق الشباب وطيش حداثة السن تبين لك من الحكمة ما يثلج له صدرك وتحمد الله على ما حباك به فى دينك .

ثم تضم إلى ذلك أن الرجل قد يسافر متجرا مثلا إلى بعض البلاد النائية فيمكث بها شهوراً أو دهوراً فلو حجرنا عليه أن يتزوج لأدركه من العناء ما أحرج صدره وشوش أمره .

وإنى أظن أنه لم يسهل عليهم ذلك مع هذا الحجر الذى فى دينهم إلا عدم وقوفهم على حدود الدين وفقد تحرجهم من أن يخالفوه ، وليتهم اقتصروا من الخليلات غير الشرعيات على أربع ، ولولا ذلك لضاق عن تحمل المشاق اصطبارهم ولم تسعه قدرتهم واختيارهم .

هذا ولو نظرنا لمصلحة المرأة لا لمصلحة الأمة لوجدنا ذلك خيراً لها أيضاً فى كثير من الأحوال : وإننا نسائل حضراتهم هل من مصلحة المرأة الفقيرة التى لاتجد من ينفق عليها إذا خطبها موسر كبير ومعه امرأة أخرى ألا تتزوجه ؟هل من مصلحة المرأة الغنية الواسعة الثروة التى يخونها أنظارها ويغشها أمناؤها ويصانع فيها من تحسن إليهم وهى

(١) مجلة الإسلام — السنة التاسعة — ١٣٥٩ هـ

لا تستطيع حيلة ولا تهتدى إلى إصلاح حالها سبيلا إلا أن تتزوج برجل معه امرأة أخرى من ذوى الدين والعمل والكفاءة والأمانة ؟

هل من مصلحة المرأة التى نبتت بين أسرة فقيرة منحطة إذا خطبها وزير أو أمير لجمالها أو مزية فيها ، وهو ما يعود عليها وعلى قومها بالشرف الرفيع والعز المنيع ألا تتزوجه إذا كانت معه امرأة أخرى ؟

هل من مصلحة المرأة التى ساء حظها فكانت بين من لايخافون الله (وهم كثير) وليس لها من الجاه ما يمنع شرهم ويحسم ضررهم وخافت على نفسها من أولئك الأشرار وما عسى أن يكون من موجبات العار ورأت أن فى استطاعتهم أن يلعبوا بها حتى أمام القضاء الذى هو نصير الضعفاء بما لهم من شهود الزور وإتقان الباطل واستعمال الحيل ، هل من مصلحتها ألا تتزوج من يريد أن يرفعها من حضيض المهانة إلى أوج الرفعة ويحفظها بجاهه بين قومه فيجعلها مصونة بعد الابتذال مكرمة بعد الامتهان إذا كانت معه امرأة أخرى ؟ .

إلى غير ذلك مما يعرفه المتبصر ويعترف به المنصف :

اللهم وُضحَ الصبح لذى عينين ، وتبين أن شرعك القويم كما قلت فى كتابك الكريم (تنزيل من حكيم حميد) ولكنها الأهواء عمت فأعمت .

وأما ما تحتجون به من أن كثرة الزواج توجب الأحقاد بين الأولاد فهو احتجاج باطل ونظر عاطل ، فإن ذلك راجع إلى فقد العدل من الآباء بين الزوجات وعدم المساواة بين الأولاد ، وفقد التربية

الصحيحة من الجميع ، وهى أهم ما يجب النظر فيه الآن لو وفق الله وزراءنا لمصلحة الأمة الصحيحة ومداواة الأدواء من أصولها واحتباس جذور الشقاء من جذورها .

وحسبك مجلبة للشرور تلك الصفات الخبيثة التى ينتجها سوء التعليم مثل الكبر والطمع ومحبة الظلم والاستئثار والحقد والحسد والبخل وإجابة النفس فى كل ما تشير به وتميل إليه ما ليست نتائجه قاصرة على أولاد الضرائر بل متى وجد التغالب والتكالب وغلبة الأهواء والإفراط فى تنازع البقاء فيقتل الأخ أخاه الشقيق والابن أباه الشفيق وهو نتيجة استحكام الصفات الخبيثة فى النفوس وعدم رياضتها بمحاسن الأخلاق :

ولست أريد بالتربية الحسنة التى تمنع من اقتراف الجرائم وتسوق إلى جميع المكارم إلا أن تغرس تعاليم الدين الحنيف فى النفوس حتى تراقب الله فى خلواتها وجلواتها ، علماً بأنه يعلم (خائنة الأعين وما تخفى الصدور) فإسناد ما يقع من تلك الهنات إلى ذلك خلط وخبط شأن من لا يبحث عن علل الأشياء الصحيحة وأسبابها الحقيقية .

ولو رجعوا إلى كتب الأخلاق التى تبين ما جبلت عليه النفوس وما تقتضيه الطبائع إذا لم تقمع بالرياضة ولم تهذب بالدين والعلم والفلسفة أو إلى التاريخ الذى امتلأ بما يكفى الناظر وينبه القاصر لم يقولوا ما قالوا :

هذا وقد رأيت أن أتكلم فى المسألة من الوجهة النقلية أيضاً تتميماً للموضوع فلعل بعض الناس على رأى البابا (بروغلى) الذى يقول : إن تعدد الزوجات لم يوجد إلا مع المساجد ، مبيناً خطأه فى ذلك فإن كثرة الزواج كانت قديمة فى الشرائع الوضعية والسماوية فقد كان لداود عدد كثير من النساء ولابنه سليمان عليهما السلام أكثر منه ، وكانت العرب لاتقف عند حد فى الزواج .

ومن الأحاديث المشهورة بين العلماء أن (غيلان) أسلم على عشرة نسوة فقال له صلى الله عليه وسلم «أَمْسِكْ أَرْبَعاً وَفَارِقْ سَائِرَهُنَّ» .

وكان الجرمانيون يتفاخرون بكثرة الزواج ويتكاثرون فيه ، بل سنذكر لك ما تستعجب له كل العجب وهو أن الإنجيل ليس فيه نص صريح يوجب الاقتصار على واحدة ، بل كثرة الزواج هى شريعة التوراة فتكون شريعة الإنجيل أيضاً ؛ فإن عيسى عليه السلام يقول : « ماجئت لأنقض الناموس » أى التوراة بل كل من لا يعمل به فعليه اللعنة (وجميع الشعب يقول آمين) .

فإذاً تعلم من هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يجىء بتعدد الزوجات وحده بل جاء رحيما حكيماً فأباحه وأوقفه عند حد مخصوص رحمة بالرجال والنساء جميعاً كما علمت ، فلم يترك الأمر فوضى لايربطه رابط ولا يضبطه ضابط مما يوافق أهواء الرجال نظراً إلى أنه إذا لم يقف عند حد أضر بالنساء ضرراً بليغاً ، ولم يبحه إلا للقادر على القيام بواجبه لكونه مصلحة له فى شخصه بل وللهيئة الاجتماعية .

وقد تبين لك ذلك فى مقالنا الأول غاية البيان .

ولما كان الأمر غير منضبط بل يختلف باختلاف الأفراد لم يجعل أمر ذلك بيد القاضى لأنه يرتبط بأشياء كثيرة لا يعلمها إلا الشخص الإنسان مثل أحواله النفسية التى تقضى عليه بالعدل أو تميل به إلى الظلم والجور مثل الأحوال الشخصية التى تعود عليه ولا يعرفها أحد سواه وليس يفيد فى هذا إلا إيقاظ باعث الخوف من الله والمراقبة له عز وجل فهى التى تمسك النفوس إذا لم تمسكها القوانين الوضعية وهو ما تمتاز به الشرائع الالٓهية ولا يوجد فى القوانين البشرية التى ليس فى وسعها أن تمنعك عما تريد متى وجدت إليه سبيلا ولم تخش شاهداً أو دليلا .

ولذلك عقب الله آية الزواج بقوله : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً)(١) كما حض عليه صلى الله عليه وسلم بقوله : « من كان عنده امرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » ، إلى غير ذلك وهو غاية الحكمة فى تحصيل المصلحة العامة والاحتياط فى جزئيات المسائل وأفراد الأشخاص .

(وقد قال الكنت هنرى كيستلى) مبتهجاً بما جاء فى الشرع المحمدى من حقوق المرأة أن لها أن تشترط على زوجها عدم التزوج بغيرها وعدم التسرى وألا يغيب أياما كثيرة عن بيته بدون إذنها ، وإن آذاها أو سبها طلق عليه الحاكم جبرا بخلاف المسيحية ، إلى أن قال : وبهذا يرى القارىء مقدار اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم بمنع

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣

عوامل الفساد عن التفشى بين المسلمين لكى يعيش الأزواج والآباء فى راحة ونعيم .

فخلاصة الموضوع أن النبى – صلى الله عليه وسلم – أباح كثرة الزواج لما يترتب عليه من المصالح الكثيرة للرجال والنساء وما يوجد من تقدم العمران ويفيد الهيئة الاجتماعية من الفوائد مالا مزيد عليه ، ثم أوقفه عند حد محدود ، نظراً إلى أن الرجال إذا تركوا وما يشتهون لعبت بهم الأهواء فأضروا بالنساء ثم أمرهم بالعدل وحظر على من يخشى من نفسه بالجور ألا يتزوج إلا واحدة .

ورأى من الحكمة ألا يجعل للحاكم تدخلا فى ذلك لأنه يختلف باختلاف الأفراد ويرتبط بأمور كثيرة لا يتبينها على الحقيقة إلا صاحبها ، فجعل الأمر موكولا إليه فيما بينه وبين الله .

ومن يعانى وضع القوانين وأسرار التشريع يعلم أن الأفراد تختلف فى كلياتها اختلافاً كبيراً لا يتأتى ضبطه ، فيعطى منه الفرد حرية تسمح له أن يتغلب فيها كما يتغلب فى أحواله الأخرى بحق أو باطل مادام لم يتجاوز حد الحظر العام الذى حدده له القانون ، وهذا جاء فى القواعد العامة كلها التى تحدد حدوداً تحظر مجاوزتها وتمنح الحرية فيما دونها للأفراد يتقلبون فيه كيف شاءوا على سنن الحكمة ، أو الأهواء بطهارة النفوس أو دنسها ، بصحة الأسباب أو فسادها ، بحسن النية أو سوء القصد ، بتمام الاستعداد أو نقص الوسائل ومزيد الضعف ، إلى غير ذلك .

وليس يمكن غير هذا ؛ ولذلك كان للإنسان جزء آخر على ماعمل فيما بينه وبين الله بمقتضى تلك الأحوال التى لا يتسلط عليها القانون ولا يتناولها سلطان الحدود الشرعية الظاهرة .

قد عرفت أن الدين يحتاط فى هذا أبلغ الاحتياط بكثرة الوعيد فيه حتى يسيطر على القلوب ويستولى على النفوس ، وبذلك تستقيم المصالح العمومية والأحوال الشخصية .

فقل لى بربك أى حكمة وأى نظر أبلغ من ذلك :

* ضاق الكلام بنا من عظم ما اتسعا *

هذا قليل من كثير وإنه لفى غاية الوضوح ولكنهم أخطأوا الحجة وتنكبوا المحجة (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)(١) (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)(٢) .

بذلت لكم يا أهل مصر نصحى ... فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

(١) سورة يونس ، الآية ٣٩
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١١٦

حكم جليلة (١)

رأينا أن نذكر القارئ الكريم كلمات نابغة لكبار الحكماء عسى أن ينتفع قراء مجلة الأزهر بها إن شاء الله :

قال هرمس – ويقال إنه إدريس عليه السلام – ما نصه : أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعه المحمود بسنخه (٢) : المرضى فى عادته ، المرجو فى عاقبته ، تعظيم الله عز وجل وشكره على معرفته ، وللناموس عليه حق الطاعة ، وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ، ولنفسه عليه حق الاجتهاد والدأب فى فتح باب السعادة ، ولخلطائه عليه حق صفاء الود ، والمسارعة لهم بالبذل عند الحاجة ، فإذا أحكم هذه الأسس لم يبق عليه إلا كف الأذى عن العامة ، وحسن معاشرته لهم وتعليمه إياهم .

ومما قال أيضاً : مودة الإخوان يجب ألا تكون لرجاء منفعة أو لدفع مضرة ، ولكن لمحبة الخير والحدب على الفضيلة .

وقال : أفضل مافى الإنسان العقل ، وأجدر الأشياء أن يفرح به صاحبه العمل الصالح ، وأفضل مايحتاج إليه فى تدبير الأمور الاجتهاد ، وأظلم الظلمات الجهل ، وأوبق الأشياء الحرص .

وقال : الاستخفاف بالموت هو أحد فضائل النفس .

(١) مجلة الأزهر – المجلد الثالث عشر – الجزء الخامس – جمادى الأولى – سنة ١٣٦١

(٢) السنخ بالكسر : الأصل

وقال : المرء حقيق أن يطلب الحكمة ويثبتها فى نفسه أولا لأجل أن يخرج من المصائب التى تعم الأخيار ، ولا يأخذه الكبر فيما يبلغه من الشرف ، ولا يعير أحداً بما هو فيه . ولا يغيره الغنى والسلطان ؛ وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لايتفاوت ، وتكون سنته ما لا عيب فيه ودينه مالا يختلف فيه .

وقال : أنفع الأمور للناس القناعة والرضا ، وأضرها الشر والسخط .

وقال : كل شيء يطاق تغييره إلا الطباع ، وكل شيء يقدر على إصلاحه إلا الخلق السيء ، وكل شيء يستطاع دفعه إلا القضاء .

وقال : أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض لسان صادق ناطق بالعدل والحكمة والحق فى الجماعة .

وقال : من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى ، فدينه دين الله عز وجل . وخصمه له شاهد بفلج الحجة . ومن كان دينه الفظاظة والأذى فدينه دين الشيطان وهو بدحوض حجته شاهد على نفسه .

وقال : لا تكن أيها الإنسان كالصبى إذا جاع صغى ، ولا كالعبد إذا شبع طغى ، ولا كالجاهل إذا ملك بغى .

وقال : لا تشيروا على عدو ولا صديق إلا بالنصيحة . أما الصديق فذلك من واجبه بمقتضى صداقته ، وأما العدو فإنه إذا عرف نصيحتك إياه هابك وحسدك ، وإن صح عقله استحى منك وراجعك .

وقال : لا يستطيع أحد أن يحوز الخير والحكمة ، ولا أن يخلص نفسه من المعايب إلا أن يكون له ثلاثة أشياء : وزير ، وولى ، وصديق ، فوزيره عقله ، ووليه عفته ، وصديقه عمله الصالح .

وقال : لايمدح بكمال العقل من لاتكمل عفته ، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله .

وقال : من أفضل البر ثلاثة : الصدق فى الغضب ، والجود فى العسرة ، والعفو عند المقدرة .

وقال : من لم يعرف عيب نفسه فلا قدر لنفسه عنده .

وقال : الفاصل بين العاقل والجاهل أن العاقل منطقه له ، والجاهل منطقه عليه .

وقال : لا ينبغى للعاقل أن يستخف بثلاثة : السلطان والعلماء والإخوان ، فإن من استخف بالسلطان أفسد عليه عيشه ، ومن استخف بالعلماء أفسد عليه دينه ، ومن استخف بالإخوان أفسد عليه مروءته .

وقال : الخير والشر واصلان إلى أهلهما لامحالة ، فطوبى لمن دأبه الخير ، والويل ثم الويل لمن جر الشر وسعى فيه .

وقال : الإخاء الدائم الذى لا يقطعه شىء إثنان : محبة المرء نفسه ، وما تكون عليه يوم معاده ، وتهذيبه إياها فى العالم الصحيح والعمل الصالح ، والآخر مودته لأخيه فى دين الحق ، فإن ذلك مصاحب أخاه فى الدنيا بجسده ، وفى الآخرة بروحه .

وقال : يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة ، وعلى غريزة الورع الصدق عند الشره ، وعلى غريزة الحلم العفو عند الغضب .

وقال : من سره مودة الناس له ، ومعونتهم إياه ، وحسن القول منهم فيه ، حقيق بأن يكون كذلك لهم .

وقال : كل إنسان موكل بإصلاح قدر باع من الأرض ، فإنه إذا أصلح ذلك الباع صلحت له أموره كلها ، وإذا أضاعة أضاع الجميع وقدر ذلك الباع هو نفسه .

وقال : من أفضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء : أن يبدلوا العدو صديقاً ، والجاهل عالماً ، والفاجر براً .

* * *

أسمعناك أيها القارىء الكريم شيئاً من حكم الحكماء ونريد أن نسمعك شيئاً من حكم سيد الأنبياء التى تدور عليها مصالح الدنيا والآخرة ، فنقول :

روى الطبرانى من حديث أسود بن أصرم المحاربى قال : قلت : يارسول الله أوصنى ، قال : « هَلْ تَمْلِكُ لِسَانَكَ ؟ قُلْتُ : ما أَمْلِكُ إِذَا لَمْ أَمْلِكْ لِسَانِى ؟ قَالَ : فَهلْ تَمْلِكُ يَدَكَ ؟ قُلْتُ : فما أَمْلِكُ إِذَا لَمْ أَمْلِكْ يَدِى ؟ قَالَ : فَلَا تَقُلْ بِلِسَانِكَ إِلَّا مَعْرُوفاً وَلَا تَبْسُطْ يدكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ » .

وفى المسند عن أنس عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ » .

وخرج الطبرانى من حديث أنس عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَخْزُنَ مِنْ لِسَانِهِ » . وخرج الطبرانى أيضا من حديث معاذ بن جبل عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « إِنَّكَ لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَّ فَإِذَا تَكَلَّمْتَ كُتِبَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ » . وخرج الإمام أحمد أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَدْنُو مِنْ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَيَتَبَاعَدُ بِهَا أَبْعَدَ مِنْ صَنْعَاءَ » .

وخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى من حديث بلال بن الحارث قال : سمعت النبى – صلى الله عليه وسلم – يقول : « إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بلغت فَيَكْتُبُ اللهُ بِهَا رِضْوانَهُ إلى يَوْمِ يَلْقَاهُ ، وإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ بِهَا سُخْطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . وفى الحديث المشهور « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » . رواه البخارى ومسلم .

وقال الله سبحانه وتعالى : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) . وقد أجمع السلف الصالح على أن الذى على يمينه هو الذى يكتب الحسنات والذى على شماله يكتب السيئات .

وخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائى من حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان لهم

حسرة » . وخرج الترمذى ولفظه : « ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم – صلى الله عليه وسلم – إلا كان عليهم ترة » أى نقصاً .

وخرج أبو داود والنسائى من حديث أبى سعيد أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « ما مِنْ قَوْمٍ يَجْلِسُونَ مَجْلِساً لَا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ » . وقال مجاهد : ما جلس قوم مجلسًا فتفرقوا قبل أن يذكروا الله إلا تفرقوا عن أنتن ريح وكان مجلسهم يشهد عليهم بغفلتهم ، وما جلس قوم مجلسًا فذكروا الله قبل أن يتفرقوا إلا تفرقوا عن أطيب من ريح المسك وكان مجلسهم يشهد لهم بذكرهم » .

وقال بعض السلف : يعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره فكل ساعة لم يذكر الله فيها تتقطع نفسه عليها حسرات . وأخرجه الطبرانى من حديث عائشة رضى الله عنها مرفوعًا : « مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ بِابْنِ آدَمَ لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهَا بِخَيْرٍ إِلَّا تَحَسَّرَتْ نَفْسُهُ عَلَيْهَا يوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقد روى عن ابن مسعود قال : « إِيَّاكُمْ وَفُضُولَ الْكَلَامِ ، حَسْبُ امْرِىءٍ مِنَ الْكَلَامِ مَا بَلَغَ حَاجَتَهُ .

وعن النخعى قال : يهلك الناس فى فضول المال وفضول الكلام . ولا غرو فإن الإكثار من الكلام الذى لا حاجة إليه يوجب قساوة القلب ، كما فى الترمذى من حديث ابن عمر مرفوعًا : « لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ اللهِ الْقَلْبُ الْقَاسِى » .

وقال محمد بن عجلان : إنما الكلام أربعة : أن تذكر الله ، وتقرأ القرآن ، وتسأل عن علم فتخبر به ، أو تتكلم فيما يعنيك من أمر دنياك . وكان أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – يأخذ بلسانه ويقول : هذا أوردنى الموارد .

وخرج الإمام أحمد وابن حبان من حديث البراء بن عازب أن رجلا قال : يا رسول الله علمنى عملًا يدخلنى الجنة ، فذكر الحديث وفيه : « فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير » . قال الفضيل بن عياض : ما حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان .

وفى مراسيل الحسن – رحمه الله – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عن ربه – عز وجل – قال : « علامة القرب أن يكون قلب العبد عندى متعلقًا ، فإذا كان كذلك لم ينسنى على حال ، وإن كان كذلك مننت عليه بالاشتغال بى كى لا ينسانى ، فإذا نسينى حركت قلبه ، فإن تكلم ، تكلم لى ، وإن سكت سكت لى فذلك الذى تأتيه المعونة من عندى » . أخرجه إبراهيم بن الجنيد .

ولنقف هنا ، ولعلنا نعود للموضوع مرة ثانية ، إن شاء الله .

فتـــوى

س : أرجو شرح النقط الآتية على صفحات المجلة :

بالقرية التى أنا موظف بها ، رجل متفقه تأتم به الناس فى هذه البلدة وما جاورها ، يفسر ألفاظ القرآن الكريم بظاهرها ، وهو يحرم :

١ – التوسل بالأنبياء والأولياء إلى الله تعالى .

٢ – يحرم قراءة القرآن للموتى والعتائق (الصمدية) .

٣ – والمهم الذى دعانى إلى الاستفهام قوله : (ان الله سبحانه وتعالى فى السماء فقط) ، ويستدل بقوله تعالى : (ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ)[1] ، وقوله أيضًا سبحانه : (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ)[2] .

محمد سليمان الشيخ
مدرس بمدرسة بلتاج الأولية

ج : التوسل بالأنبياء والأولياء جائز لاشك فيه لدى من استنارت بصيرته وصفت قريحته ، وقد ذكرنا شيئًا من ذلك فى العدد الثامن من المجلة ، وسنفيض القول فيه بعد .

أما قراءة القرآن فقد صححنا وصول ثوابها إلى الميت ، وذكرنا فى ذلك ما فيه مقنع وكفاية لمن أنصف ولم يتعسف ، فراجعه فى العدد الثامن من نور الإسلام (مجلة الأزهر) .

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٦

(٢) سورة طه ، الآية ٥

وقد جاء فى قراءة الصمدية أحاديث يعمل بها فى مثل هذا الموضوع :
أخرج الطبرانى فى الكبير مرفوعا : «مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ» وأخرج البزار فى مسنده مرفوعا : «مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللهُ أَحدٌ مِائَةَ مرَّةٍ أَعْتقهُ اللهُ من النَّارِ» .

وقد علمت أن الصحيح وصول ثواب القراءة إلى الميت ، فلا بأس إذن من إهداء ثوابها إلى الأموات كما يفعل الناس ، وليعلم القارئ الكريم أن العلماء من المحدثين والفقهاء قالوا : يجوز بل يستحب العمل فى الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ، وقد علمت أن الصحيح لدى العلماء هو وصول ثواب القراءة وغيرها كالصدقة والدعاء .

أما دعواه أن الله فى السماء فقط فهى من أدل الأدلة على جهله بالمعقول والمنقول ، فإن الذى يحتاج إلى مكان يكون فيه لايكون إلَهاً ، فإن الإلَه هو الذى يحتاج إليه كل شىء «حتى المكان» ولايحتاج هو إلى شىء وأين كان قبل المكان ، أليس المكان محدثاً بعد أن لم يكن ، ومحتاجاً إلى من يخرجه من العدم إلى الوجود ، ثم هو محتاج بعد ذلك إلى من يحفظه بعد وجوده (إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمواتِ والأَرْضَ أَنْ تَزُولا)[1] إن المكان يستمد وجوده وحفظه من غيره كالممكن سواء بسواء ، وأحكام الأجسام الذاتية لاتختلف ولا تتباين ، وقد قام البرهان العقلى على أن الله تعالى مخالف لمخلوقاته ، ولو ماثلها لكان حادثاً مثلها .

(١) سورة فاطر ، الآية ٤١

ومن المعلوم أنه لو احتاج إلى مكان لكان جسماً مفتقراً إلى مايقله ، ولكان مركباً من أجزاء ومحتاجاً إلى أجزائه وإلى من يركب تلك الأجزاء ويضع كلًا منها فى مكانه الذى هو فيه وإلى من يخصصه بطوله وعرضه وسمكه ، فإنه كان يجوز عقلا أن يزيد عن ذلك المقدار أو ينقص عنه ، وكان يجوز أن تكون أجزاؤه فى غير أماكنها الخاصة بها ، فإذن لابد له من مخصص يخصصه بذلك كله ، والمفتقر إلى غيره محال أن يكون إلَهاً .

ثم نقول من وجه آخر : إن هذا الجسم لابد أن يكون أقل من العرش أو زائداً عليه أو مساوياً له ، ونقول : لابد أن يكون قابلًا للانحلال ، لأن كل مركب يقبل الانحلال إلى أجزائه ، ولو فرضنا أنه فى غاية الصلابة والمتانة لكان هناك من الآلات القوية التى وجدت أو التى يجوز أن توجد مايمكن أن يزيل كيانه ويعدم شخصه ويرجعه إلى أجزائه الأولى .

ثم نقول أيضا : كونه فى السماء يقتضى كون السماء ظرفاً له ، فيكون أصغر من السماء والسماء أصغر من العرش بكثير ، فيلزم أن يكون الله تعالى شيئاً حقيراً بالنسبة إلى العرش — تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا — قال تعالى : (إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ أن تَزُولاَ)[1] ، فهو الممسك لها وليست ممسكة له .

أفلا يكون ذلك كله قرينة على صرف بعض الآيات عن ظاهرها وجعلها كناية عن شىء آخر يليق بعظمة الله تعالى وجلاله ، مع أن صرف اللفظ عن ظاهره والذهاب به مذهب المجاز أو الكناية يكفى فيه أية قرينة من القرائن التى يستبعد معها إرادة المعنى الحقيقى — ولو من طريق العادة — فما بالك بالبراهين العقلية التى تزول منها الجبال ،

(١) سورة فاطر ، الآية ٤١

وليت شعرى ! أيجعله على عرشه بمقتضى قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(١) ، أم فى سمائه بمقتضى قوله تعالى : (ءَأَمِنتُم مَّنْ فِى السَّمَاءِ)(٢) وأية سماء هى ، أم فى أرضه بمقتضى قوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)(٣) أم فى بيوتنا ومجالسنا بمقتضى قوله : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ)(٤) ، أم تحت الأرض بمقتضى ما رواه الترمذى من قوله صلى الله عليه وسلم : «لو دلى أحدكم بحبل فى بئر لوقع على الله» أو كما ورد ، نعوذ بالله من قصور الفهم وتسلط الوهم .

وماذا يصنع فى حديث النزول إلى سماء الدنيا كل ليلة وقت السحر إذا أخذ بظاهر قوله تعالى : (ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ) ولعله يقول إنه فى غير سماء الدنيا ، إلى آخر مايمليه الخيال أو يقتضيه الخبال ، وما أدرى لماذا يتمسك بهذه ولايتمسك بقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(٥) .

وإذا كانت الروح من أمر الله ولسنا نعرفها وهى أقرب الأشياء إلينا ، ولاينبغى أن نخوض فيها مع هذا الجهل ، وقد تباينت آراء العلماء فيها قديماً وحديثا ، حتى ذهب الفلاسفة وكثير من أهل السنة كالغزالى والحليمى وغيرهما إلى أنها من الجواهر المجردة التى لاتحتاج إلى حيز ولا مكان ، فكيف بمن هو رب الملائكة والروح .

---

(١) سورة طه ، الآية ٥ (٢) سورة الملك ، الآية ١٦
(٣) سورة البقرة ، الآية ١١٥ (٤) سورة الحديد ، الآية ٤ .
(٥) سورة الشورى ، الآية ١١

ولكن هناك نفوس غليظة لايمكنها أن تعرف إلا الأجسام وأحكام الأجسام ، وليس فى استطاعتها أن تدرك ماليس جسماً ولا جسمانياً .

ولو كلفنا الدودة الصغيرة أن تعرف حقيقة الإنسان وأحواله لكان ذلك تكليفاً بالمحال ، وما بيننا وبين الله تعالى أبعد مما بين الإنسان وتلك الدودة الحقيرة بما لايستطاع تقديره ، فإنها تشترك معنا فى جنس الحيوان ،

وقد قلنا إن العوالم أنفسها تختلف أحكامها اختلافاً لايحيط به العد ، فمن الغلط البين أن تحكم بأحكام عالم على عالم آخر ، فما بالك بمن تعالى عن سِمَات المخلوقات ، وتنزه عن أن يدخل تحت نوع أو جنس ، كيف يتطاول العقل الضئيل والبصر الكليل والعلم القليل أن يعرف ذاته أو يحيط بما له من صفات وأحكام .

ولئن أبى بعض الناس أن يعبدوا إلهاً لايعرفون كنهه ، ولا يقفون على حقيقة صفاته ، فإنى والله آبى كل الإباء أن أعبد إلهاً يصل عقلى إلى كنهه المحدود وصفاته التى تشبه صفاتى .

وأصرح بمسمع من الخافقين أنى لا أعبد إلهاً يمكن أن أدركه بعقلى أو ألمسه بيدى أو أمسه برجلى أو أمزقه بمدفعى الخ الخ . . .

ولماذا لايقلد أولئك المتفيهقون «المدعون لاتباع مذهب السلف الذى يجهلونه ولايعرفونه» أئمة الهدى وجماهير العلماء ، إن لم يسهل عليهم فهم الأدلة العقلية والبراهين المنطقية وهؤلاء الهداة ، والله خير ممن قلدوهم وأكبر وأكثر ، فلينظروا لأنفسهم وليحتاطوا لدينهم .

وقد قلنا ذلك نصيحة لله ورسوله والمسلمين ، والدين النصيحة ؛ وما اشتددنا إلا لله ، وفى سبيل الله ما نلاقى من أولئك الجامدين الذين نحب لهم مانحب لأنفسنا كما أمرنا الله ورسوله .

وقد كان الإمام الشافعى — رضى الله عنه — يقول : « آمنت بما جاء عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله » .

أسأل الله أن يقينا شر الفتنة وأن يجعلنا من أهل البصيرة فى الدين ، الذين يؤمنون بالمحكم ويردون إليه المتشابه ، لامن الذين يتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

على أن العلماء قد بينوا المراد من تلك الآيات ، فقالوا : المراد أن فى السماء سلطانه وأمره وقدرته ، والمقصود من ذكر السماء تفخيم سلطانه وتعظيم قدرته ، وقد قال تعالى : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) (١) ومحال أن يكون فى السموات وفى الأرض ، فالقصد أنه متصرف فى السموات والأرض تصرف المتمكن فيهما ؛ فما توجبه الظرفية لمن هى له من إتقان العمل وإحكام التدبير وسهولة التصرف وعدم غيبة شىء عنه ثابت له تعالى بأتم معانيه فى السموات والأرض ؛

فلا يتصور فى حقه تعالى بعد ولا قرب ولا غيبة وحضور على نحو ما نعرفه فإن ذلك لا يتصور إلا بالجسمانيات ، وأما هو فالأشياء كلها سواء بالنسبة إليه ، فلوازم القرب والحضور ثابتة له ، كما أن لوازم

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣

البعد والغيبة منتفية عنه ؛ فليس قربه من جنس قربنا ولا معيته كمعيتنا ، وكما أن ذاته ليست من جنس ذواتنا وصفاته ليست من جنس صفاتنا ، فكذلك يجب التباين بين قربنا وقربه ، كما وجب التباين بين ذاتنا وذاته .

فالخلاصة : أن المراد من كونه فى السموات والأرض نفاذ أمره وقدرته وجريان مشيئته ؛ كذلك قوله تعالى : (ءَآمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ) ، والمراد مزيد التخويف والتهويل فهو من وادى قوله تعالى : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) (١) ففى الآية مجاز بالحذف أو مجاز فى الإسناد ؛ والقرينة على ذلك هى أكبر قرينة رآها الرائون واستند إليها المستعملون ، وهى الاستحالة العقلية التى قام عليها البرهان القاطع والدليل الساطع .

أما قوله تعالى : (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فهو كناية عن تمام الملك وعظمة السلطان ، كما تقول لمن تم له الأمر إنه جلس على عرش المملكة لا تريد حقيقة الجلوس وإنما تجعله كناية عن استتباب الأمر وتمام الملك .

وهناك أجوبة كثيرة أعرضنا عنها مخافة التطويل والإملال .

وبعد هذا كله فلست أفهم قوله إن الله فى السماء فقط مع ذكر قوله تعالى : (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فأستلفت نظرك إلى ذلك .

وليعلم أولئك الجاهلون أن مذهب السلف التنزيه وعدم الخوض فى بيان المعنى ، فالفرق بينهم وبين الخلف أن الخلف يعينون المعنى المراد ؛

(١) سورة الأنعام ، الآية ٦٥

فيفسرون اليد فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (١) بالقدرة ، أو يقولون إنه من الكنايات التى تراد لوازمها لا حقائقها ، أما السلف فلا يخوضون فى شىء من ذلك ولا يبينون المعنى المراد على التعيين ، ولكن يجب على القارىء أن يعلم أنهم ينزهون الله عز وجل عما تقتضيه تلك الظواهر أو يتبادر من تلك الآيات ، أما هؤلاء الذين زعموا أنهم مقلدون لهم فمشبهون لا منزهون ، فأين هم من السلف ؟

أيها المدعى سليمى سفاهًا   لست منها ولا قلامة ظفر

ولنقتصر على هذا . والله يتولى هدى الجميع .

(١) سورة الفتح ، الآية ١٠

الحسد والرقية منه

الحسد ثابت فى القرآن والسنة . وقد قال ابن عباس ومحمد ابن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ (١) إنه خاف عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء ؛ فخشى عليهم يعقوب عليه السلام أن يصيبهم الناس بعيونهم .

وبالجملة فالمفسرون المتقدمون مطبقون فى تفسير الآية على هذا ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَيَقُولُ : « أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ » . ويقول : « هَكَذَا كَانَ يُعَوِّذُ أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » .

وقد روى أن عبادة بن الصامت قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فرأيته شديد الوجع ، ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى ، فقال : « إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام أَتَانِى فَرَقَانِى فقال : « بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ ، مِنْ كُلِّ شَىْءٍ يُؤْذِيكَ ؛ وَمِنْ كُلِّ لعين وَحَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ » .

(١) سورة يوسف ، الآية ٦٧

ويروى أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانًا بيضاً فقالت أمهم : يا رسول الله إن العين إليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين ؟ قال : (نعم) .

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَىْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ » . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل من وضوئه المعين الذى أُصيب بالعين .

وأما الذين أنكروه كأبى على الجبائى وهو رأس من رءوس المعتزلة ، فليس معهم شبهة فضلًا عن حجة .. والتحقيق فى ذلك : أن الحسد تأثير روحى ، وللأرواح تأثير ليس على قانون ما تعرف من تأثيرات الأجسام ، فلا يشترط فيه اتصال ولا قرب ولا غير ذلك . ولا يمترى فى ذلك إلا من غلبت عليه أحكام الجسمانيات ونواميس الماديات ، فقد يكون التأثير نفسانيًا محضًا ولا يكون للجسمانية دخل فيه . وقوانين النفوس البشرية مجهولة لأكثر الناس . وليس يخفى عليه أن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذيا له ، حصل فى قلبه غضب فيسخن مزاجه جدًا . فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفسانى ، ومبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية . فما المانع إذًا من كون بعض النفوس تؤثر فى غيرها ، والتجارب من الزمن القديم تشهد لذلك وتنطق به ؟ وقد ورد أن النبى — صلى الله عليه وسلم — عندما سحره لبيد بن الأعصم اليهودى فأحدث به بعض الأذى فى بدنه —

لا فى عقله ونفسه — عندما جىء له بتلك العقد التى عقدها لبيد المذكور — كان يقرأ عليها المعوذتين ، فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، فقام كأنما نشط من عقال .

وروى الترمذى عن ابن أبى خزامة عن أبيه قال : « سألت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقلت : يا رسول الله : أرأيت رقى نسترق بها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقى بها : هل ترد من قدر الله شيئًا ؟ قال : « هِىَ مِنْ قَدَرِ اللهِ » . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

وأما الرقى والتعاويذ فقد اتفق الإجماع على جوازها إذا كانت بآيات من القرآن ، أو كانت واردة فى الحديث . ويدل على صحة ذلك أن جبريل رقى النبى — صلى الله عليه وسلم — كما قلنا. وعن عوف ابن مالك — رضى الله عنه — قال : « كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : « اعْرِضُوا عَلَىَّ رُقَاكُمْ » ، ثم قال : « لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ » . رواه مسلم وأبو داود . وعن — جابر رضى الله عنه — قال : « لدغت رجلًا منا عقرب ونحن مع النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال رجل : يا رسول الله أرقى ؟ قال : « مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ » . وعن أنس رضى الله عنه قال : « رخص لنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الرقية من العين والحمة (١) والنملة (٢) . رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .

---

(١) الحمة : سم العقرب .

(٢) النملة : قروح تظهر فى الجنب . فكانت نساء العرب ترقيها بتلك الكلمات مرات صباحا ومرات مساء .

وقد رقى أبو سعيد سيد الحى الذى نزلوا به بفاتحة الكتاب ثم أخبروا النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال : « مَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ » إلى آخر ما جاء فى الحديث ، وهو صحيح لا مطعن فيه . ولا بأس أن نذكر لك من تلك الرقى التى كانوا يرقون بها فى الجاهلية وأقرها – صلى الله عليه وسلم – ولم ينه عنها : « العروس تحتفل وتكتحل ، وكل شىء تفتعل ، غير ألا تعصى الرجل » .

وأما من أنكر الحسد وتأثير النفوس من الفرق الضالة فمردود عليه ولا يلتفت إليه وأن من العلم ما يكون وبالًا على صاحبه : فإنه يفتح له باب التأويل فيضل ضلالًا بعيدًا ، وإنما الهدى هدى الله .

وقد قال بعضهم فى بيان سر تأثير الحسد : إن اهتمام الحاسد بالمحسود يوجب توجيه نظر الحاسد إليه والتفات نفسه له على وجه الغضب ، ونفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة تؤثر فى المحسود بسبب ضعفه وقوة نفس الحاسد شرًا قد يصل إلى حد الإهلاك ، ورب حاسد يؤذى بنظرة .

أسأل الله أن يقينا شر الشريرين ، ويجعلنا من الراضين الموفقين بمنه وكرمه .

الاشتراك فى الكتب

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

ما قول فضيلتكم فى الكتب التى ندفع اشتراكاتها قبل أن تطبع وننتظرها إلى تمام الطبع ، فإن بعضهم يقول إنه حرام . فنرجو إبداء رأيكم فى هذا الموضوع على صفحات مجلة الأزهر . أبقاكم الله ذخرًا للإسلام والمسلمين بمنه وكرمه .

ابراهيم سيد نصار

جزيرة النجدى

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما بعد : فقد وصل إلى خطابك ، وأكتب هذا من غير بحث ولا مراجعة ، ممتلئة نفسى بأن الاشتراك فى الكتب التى تطبع لاشىء فيه ، فإنه داخل فى بيع الموصوف المعروف ولو إجمالًا ومدة الطبع تكاد تكون معلومة بالعرف والعادة ، ودين الله يسر . وليس هناك مفسدة تترتب على مثل هذا . فروح الشريعة لا تأباه ما دام خاليًا من الضرر والأذية فى غالب الأحوال . ويكفى غلبة الظن . وهذا هو الأليق بالشريعة السمحة .

وهذا ما حضرنى فى الوقت . والسلام عليكم ورحمة الله .

تعلم السحر وحكمه

جاءنا من أحد طلبة المعهد الأحمدى هذا السؤال :

هل تعلم السحر جائز أم حرام[1] لأن عندنا بعض المنتسبين إلى العلم يفتى بجوازه ، بحجة أنه يخلص الناس مما يقعون فيه من الأضرار ولايضر أحدًا . وحجته القوية فيما يزعم أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « تعلموا السحر ولا تعملوا به » ؛ إلى أن قال : وأخيرا أجمعنا على استفتاء فضيلتكم فى هذا المبحث الخطير ونشره بمجلة الأزهر التى هى مجلتنا الزهراء فى أقرب عدد ممكن . لازلتم محفوفين بعناية الله ورعايته ، والسلام .

ابراهيم محمد حسين

بمعهد طنطا الأحمدى

الجواب

الفاصل فى ذلك كله هو الحديث الشريف الذى هو القاعدة العظمى فى كل شىء ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّما الأعْمالُ بالنّيات وإنّما لكُلِّ امْرِىءٍ ما نوى » . وأما قوله « تعلم السحر ولاتعمل به » فليس بحديث ألبته . وكثير من العلماء يمنع تعلم السحر مطلقا ويرى قتل الساحر ، وإن لم يقتل أحدا بسحره ، ولكن الصحيح الذى يوجبه البرهان ويطمئن له الوجدان وتَشْهد له أصول الشريعة ، أن الأمور

(١) هذه عبارته ، وإن كانت (هل) لايؤتى لها بمعادل إلا على رأى ضعيف لأنها لطلب التصديق لا التصور كما هو مقرر فى محله .

بمقاصدها والأعمال بآثارها وإن كان اللازم أن يحتاط الإنسان لنفسه ولا يأْمنها ، وأن يراقب هواها فى الدقيق والجليل « وما أبرىء نفسى إن النفس لأَمارة بالسوء » ، « ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، « فلا يأْمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

ولنتل عليك ماقاله العلماء فى ذلك الموضوع ، وما وقع بينهم من الخلاف فى ذلك فنقول : اختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك . ومن أصحاب أبى حنيفة من قال : إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه ، فلا يكفر ، ومن تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا إن اعتقد أن الشياطين تفعل له مايشاء فهو كافر . وقال الشافعى رحمه الله إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك ، فإن وصف مايوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل مايلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لايوجب الكفر فإن اعتقد اباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا . فأما إن قتل بسحره إنسانًا فإنه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد ، وقال أبو حنيفه : لايقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك فى حق شخص معين . وإذا قتل فإنه يقتل حدا عندهم ، إلا عند الشافعى فإنه قال : يقتل والحالة هذه قصاصا . قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفه وأحمد فى المشهور عنهم : لاتقبل ، وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأُخرى : تقبل . ولنكتف بهذا القدر سائلين الله التوفيق والتسديد والسلام .

فهرست

المجلد الأول (الجزء الأول والثانى)

من كتاب مقالات وفتاوى للشيخ يوسف الدجوى

الموضوع	صفحة
تقديم : لفضيلة الدكتور أمين عام المجمع	١
الشيخ يوسف الدجوى لفضيلة الشيخ / محمد زاهد الكوثرى	٣
كلمة : مجلة الأزهر عن الشيخ يوسف الدجوى	٨

الجزء الأول

الآلهيات

الايمان بالله -علم الطبيعة برىء مما نسبوه اليه	١٣
الايمان بالله ومناقشة الطبيعيين	٣٠
الدين ضرورى للعمران	٤٣
سوانح ومقتبسات	٥٧
الدين ضرورى للعمران الفرق بين المؤمن وغيره	٦٧
سوانح ومقتبسات	٧١
فى وحدة الخالق	٨١
البعث	٩٣
حرية الانسان : تكليفه ــ القضاء والقدر	١٠٨
كلمة تثير محبة الله فى القلوب المستعرة	١٢٣
التوسل (١)	١٣٤
التوسل (٢)	١٤٨
التوسل والاستغاثة (٣)	١٦٠

الموضوع	صفحة
تعليق على بعض ماجاء فى مقال الأستاذ الشيخ الجبالى	١٦٩
التوسل والاستغاثة (٤)	١٧٠
تنزيه الله على المكان والجهة (١)	١٨٣
رحم الله امرءا عرف قدره	١٩٥
تنزيه الله عن المكان والجهة (٢)	٢٠١
العالم الذى نوه الدين بذكره	٢١٢
أين مقر الأرواح بعد الموت ؟	٢٢٢
حديث (كل مولود يولد على الفطرة)	٢٣٥
توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية (١)	٢٤٨
توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية (٢)	٢٥٧
الحكم على المسلمين بالكفر	٢٧٣
طريقة عمليه تقضى على عمل المبشرين	٢٩١
الدين والعلم	٢٩٦
تعليقات وحقائق	٣٠١
غلطة دينية خطيرة	٣١١
ما السر فى أن الانسان يدعو فلا يستجاب له ؟	٣١٤
تنزيه الله عن المكان والجهة (٣)	٣٢٥
كلمة للشيخ الغزالى وأخرى للشيخ محمد عبده	٣٣٥
حياة الأرواح وادراكها بعد الموت	٣٣٨
التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح	٣٤٧
أفعال العباد	٣٥١
الشرك وعقوبته الأخروية	٣٦٩
سوانح ونصائح	٣٩٢

الموضوع	صفحة
سوانح ومقتبسات	٣٩٦
كلمة مع مقدسى النواميس الطبيعية	٤٠٢
رد على مبشر	٤٠٦
محبة الله عز وجل	٤١٣
حاجة الانسان الى الشريعة	٤٢٤
ان لم ترضوا بحكم الشريعة فتعالوا نتحاكم الى العقل	٤٣١
الفرق بين الانسان المادى والانسان الروحانى	٤٤٠
التوحيد	٤٤٣
حدث جلل لا يمكن الصبر عليه (١)	٤٥٢
حدث جلل لا يمكن الصبر عليه (٢)	٤٦١
حدث جلل لا يمكن الصبر عليه (٣)	٤٦٨
حدث جلل لا يمكن الصبر عليه (٤)	٤٧٥
التوسل (١)	٤٨٢
التوسل (٢)	٤٨٧
الغيرة على الدين	٤٩١
التفكر أس السعادة	٤٩٦
ادلة القرآن وأدلة العلماء على وجود الله	٥٠٠

الجزء الثانى

النبوات

نبوته – صلى الله عليه وسلم – ومعجزاته الحسية	٥٠٩
المعراج	٥٢٤
كرامات الأولياء	٥٢٧
ذكر قصص الأنبياء فى القرآن (١)	٥٣٨

الموضوع	صفحة
ذكر قصص الأنبياء فى القرآن (٢)	٥٥٠
حياة الأنبياء	٥٦٢
هل تأكل الأرض أجساد الأنبياء ؟	٥٧٠
شق صدره صلى الله عليه وسلم	٥٨٥
قصة يوسف عليه السلام	٥٩٥
الاسراء والمعراج	٦٠٦
الفيلسوف والنبى	٦٢١
بعض معجزاته عليه الصلاة والسلام	٦٣٦
بمناسبة الاسراء والمعراج	٦٤٢
عظمته صلى الله عليه وسلم ووجوب محبته (١)	٦٤٦
عظمته صلى الله عليه وسلم وشىء من سيرته (٢)	٦٥١
عظمته صلى الله عليه وسلم (٣)	٦٧٤
حياة الأنبياء فى قبورهم	٦٧٩
هجرته صلى الله عليه وسلم	٦٨٤
كرامات الأولياء	٦٩٠
حكم الصلاة الكمالية	٦٩٤
كلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم	٦٩٧
نبوته ــ صلى الله عليه وسلم (١)	٧٠١
نبوته ــ صلى الله عليه وسلم (٢)	٧٢١

فهرست

المجلد الثانى (الجزء الثالث والرابع)

من كتاب مقالات وفتاوى للشيخ يوسف الدجوى

الموضوع	صفحة
الجزء الثالث	
التفسير	
« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »	١
« لايسأل عما يفعل وهم يسألون »	١٦
هل السموات هى الكواكب ؟	٢٨
شبهة ملحد	٣٥
حقائق وتعليقات	٤٥
الى شيخ الدعاوى وصاحب الحديث عن نفسه	٥٤
حديث الغرانيق	٦٣
ان الله لايستحيى من الحق	٧٠
تعالوا نتحاكم الى العقل والمنطق	٧٦
تفسير قوله تعالى « ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين »	٨٧
خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار	١٠٤
فى ترجمة معانى القرآن	١١٤
سورة الأعلى (١)	١٢٠
سورة الأعلى (٢)	١٣١
سورة الأعلى (٣)	١٤٠
سورة العصر	١٧٥
تفسير سورة العصر	١٨٣
سورة الاخلاص (١)	١٩٩
سورة الاخلاص (٢)	٢٢٥
تفسير سورة « الشمس »	٢٨٦
تفسير سورة الانشراح	٣٤٠
تفسير سورة الزلزلة	٣٤٤
تفسير سورة العاديات	٣٤٨
تفسير سورة القارعة	٣٥٣
تفسير سورة التكاثر	٣٥٦
تفسير سورة الهمزة	٣٦١
تفسير سورة قريش	٣٦٤
تفسير سورة الماعون	٣٦٩
شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن	٣٧٣
تفسير سورة الكوثر	٣٧٨
تفسير سورة الكافرون	٣٨٢

UNIV. LEIDEN BIBL.

الجزء الرابع

الفتــاوى

الموضــوع	صفحة
تعليم القرآن	٣٨٩
حكم شرب الدخان فى مجالس القرآن	٣٩٣
حكم شرب الدخان فى المساجد	٣٩٧
حديث « لا يبع حاضر لباد »	٣٩٩
الصلاة على النبى بعد المغرب	٤٠٢
الرضــاع	٤٠٤
التشــوق فى رمضان — الزنا	٤٠٦
الصــلاة خلف المخالف	٤٠٨
الأيمان غير المعتبرة	٤٠٩
الكراء	٤١٠
القراءة على الأموات	٤١٣
حكم ترجمة الخطبة	٤٢٢
الشريعة منبع السعادة	٤٢٥
حكم الانتفــاع بالمرهون	٤٢٨
حكم الصلاة على الرسول (ص) بعد الأذان	٤٣٣
عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه	٤٤١
صاحب المنار والصلاة على الرسول (ص) بعد الأذان	٤٤٧
صلاة جار المسـجد فى بيته مع زوجه	٤٦٨
العقيقه — سر الختان	٤٦٩
فضل الصــلاة وبيان أسرارها	٤٧٤
مســائل تتعلق بصلاة الجمعة	٤٨٥
ثبوت شهر رمضان « بواسطة التلغراف ونحوه »	٤٨٨
مســألة تتعلق بالبيع والدين والربا	٤٩٣
سنة الجمعة القبلية	٤٩٥
وقوع الذباب فى الطعام والحديث الوارد فى ذلك	٥٠٣
حكم شراء السـماد وغيره من البنك بفوائد معلومة	٥١٦
الصلاة والصيام فى السفر	٥١٩
ســؤالان وجوابهما	٥٢٢
حــول القبــور	٥٢٤
غلطــات قل من يتنبــه لها	٥٢٧
الخالق الكــامل	٥٣١
الجمع بين البنت وأمراة أبيها فى عصــمة رجل واحد	٥٣٥
الحســد وتأثيره فى المحسود	٥٣٦
خروج النســاء من البيــوت	٥٤١
صــلاة الجمعة لغير المســتوطنين	٥٤٧
توســعة المســجد من المقبرة	٥٤٨

الموضــوع	صفحة
متى تجب الزكاة فى النقــدين والحب	٥٤٩
البيع نقدا وبأجل	٥٥٠
الحلف بأيمــان المســلمين	٥٥٢
حكم أكــل الفســيخ	٥٥٤
البيع بالزيــادة الفاحشــة	٥٥٦
بــدع الــذكر	٥٥٨
سر تعــدد الزوجات	٥٦٠
جواز التقليــد والرد على من يحرمه	٥٧٣
كلمــة ختاميــه	٥٨
الحريــة	٥٨٤
فضل الصلاة وبيان أسرارها	٥٩٤
المحبة وأنواعها وبعض آثارها الجليلة	٥٩٨
أســباب المحبــة	٦٠٢
المحبة وأنواعهــا	٦١١
محبــة الأصــدقاء	٦١٣
محبــة الــوطن	٦١٦
محبــة الله عز وجل	٦١٩
حكم الصرف من أموال الزكاة على المستشفيات ونحوها	٦٢٤
حكم صلاة الجمعة فى البيوت وفى المساجد المتعددة	٦٣٠
الــرحمــة	٦٣٢
مســألة فى القراض	٦٤٢
الشــجاعة	٦٤٨
معاملة التجار ومافيها من الربا	٦٥٩
حكم تشريح الميت فى الشريعــة الاســلامية	٦٦٥
ماذا يراد بولد الصلب فى عبارة الواقفين ؟	٦٦٧
تشريــح الأمــوات	٦٧١
رؤية الهلال عند الغروب وبعد الفجر	٦٨٩
أسرار الصلاة ـذكر المقصود منها	٧٠٢
كيف تكتسب الاخلاق الفاضلة ؟	٧١٠
أسئلة متنوعــة	٧١٤
أســئلة متنوعة	٧٢٠
ثبوت رمضــان بالراديو	٧٢٢
مســألة فى الطــلاق	٧٢٧
مسألة فى الطلاق	٧٣٠
هل يقع الطــلاق فى الحيض ؟	٧٣٢
مسألة فى الوصية	٧٤٠
الدين انفع للعمران من كل القوانين	٧٤٤
هل يجوز الدعاء على المسلم بالكفر ؟	٧٥٥
الدين انفع للعمران من كل القوانين	٧٦٣

الموضــوع صفحة

الموازنة بين الشريعة والقوانين الوضعية ٧٧٣
الكلمة الختـامية ٧٧٩
الشجاعة ٧٨٢
دين الاسلام كفيل بمصـالح الدنيـا والآخرة ٧٨٦
سـفور النســاء ٧٩٨
سر تعدد الزوجات فى الاسلام ٨٠٣
سر تعدد الزوجات فى الاسلام ٨٠٧
حكم جليلة ٨١٤
فتنــة ٨٢١
الحسد والرقية منه ٨٢٩
الاشتراك فى الكتب ٨٣٣
تعلم الســحر وحكمــه ٨٣٤

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محاسب / صالح زكريا

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٦٩ / ١٩٨١

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
١٢١١٥س١٩٨٠-٢-٥٠٠٠